المجلد الحادي عشر   الجزء ١ و ٢

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

كانون الثاني — شباط

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي
الدفع مقدماً

في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

نعم يكره المجمع الجمود ، وكذلك يكره العبث بالقديم النافع ، فهو يسير باللغة كما سار المجمع العلمي الباريزي باللغة الفرنسية ،لا قليلا . يريد ان يحيي كنوزها القديمة ، ويحسن الانتفاع بتراث الاجداد ما أمكن ، فاذا أعوزته المادة اشتق وعرّب . ولا يخرج بحال عن روح هذا اللسان . ولذلك كان منذ بدء عمله ينقد من الكتب والمقالات كل ما يرجم باللغة القهقرى ، ويسلب منها بهاءها ورواءها . ولطالما استهدف لامتعاض بعض من نقد تآليفهم ومطبوعاتهم نقداً علمياً . والمجمع العلمي — وذيرته على الآداب غيرته — يصعب عليه ان يصانع المحسن وغير المحسن ، وهو يعتقد ان مجلته ليست من المجلات التجارية التي قد لا تمحض المتأدبين النصح نقية ومتاقاة . ولذلك تراه قد تجافى ايضاً عن بث دعاية واسعة النطاق لمجلته ، وترك مسألة انتشارها تجري في أعنّتها ، لتعرف بطول الزمن ، لا بوسائط لا تتناسب مع شرف العلم وكرامة العلماء .

لم يلتفت المجمع الا الى غرضه الذي اخذ نفسه به ، وأغفل ما ورد عليه من اعتراضات واقتراحات ، لانه يرمي الى انفاذ خطة عينها ، وانفاذ قانون له مسنون ، اذا خرج عن مضمونه ضاعت الفائدة منه ، وادركه المثار . وحبذا اليوم الذي يقلّ في الشرق القائلون ، ويكثر العاملون ، ويدرك القوم ان لا حياة لأمة بغير التخصص ، وان من رُزق السعادة في ان يؤلف وينفع الناس في الأدب مثلاً ، يستحيل عليه ان يؤلف في الرياضيات ، وان الحائك غير الحدّاد ، والزارع غير التاجر ، وان أهم الاسباب فيما نال الشرق من انحطاط ، أن عمل الناس فيما لا يعلمون ، وقدروا كفاآتهم اكثر مما تساوي .

تعلمون يا مولاي ان العشر السنين والعشرين والثلاثين ، لا تعدّ شيئاً يذكر في باب استكمال أسباب الحياة العلمية . وان أمة ضعفت ملكاتها العقلية ، بضعف العلوم والآداب قروناً عديدة ، يتعذر عليها ان تستعيد مكانتها الاولى في بضع سنين ، مهما بلغ من ذكاء أبنائها ، وتوفر لهم من أسباب التفوق والانبعاث . وان عاصمة بلادكم اغتبط على كل حال بان قام فيها هؤلاء الجماعة من رجال المجمع يعنون باللغة وما اليها ، على حين حاولت أقطار عربية كثيرة إنشاء مثله ، فلم توفق مع الأسف الى اطراد عملها ، فتراجعت وعملها في دور التكوين . وكنا نقول ولا نزال نقول ، ان مصر كانت أحق

بهذا الفضل ، بما تلقف بنوها من العلوم المختلفة ، وبما سبقنا به من الاخذ بمذاهب الارتقاء ، حتى جاءت فيها طبقة من العلماء والادباء يقل مثيلها في الاقطار العربية الاخرى . وعلى كل فهذا جهد المقل ، ورجاؤنا في المستقبل عظيم ، وشعارنا اذا كان فيامضى السير ولو في الظلام ، فرمزنا في الآتي ان نسير في نور العلم الساطع .

كان تأسيس مدرسة الادب العليا من أهم اماني المجمع ، فوضعت قواعدها الآن بفضل رعايتكم ، وقامت في السنة الماضية على الصورة التي ارتضيتموها ، وبعناية فخامة المسيو بونسو المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في الشام ، الذي ما برح منذ كان رأس الانتداب في بلادنا العزيزة ، يأخذ بيد المجمع العلمي ، ويقدر عمله الضئيل قدره . ولقد ضمنتم للدارسين بمدرسةالادب العليا – واربعة من اعضائه يدرّسون الآن في صفوفها – أسباب ارتقاء لغة البلاد ، واللغة الفرنسية اداة تمدننا الحديث . واذا تم هذا فللمجمع أمنية أخرى يعبّد لها الطرق الموصلة منذ سنين ، وهو احياء عدة كتب قديمة في الآداب ، ووضع معجم متوسط يضم اليه ماوضعه جماعته او غيرهم من الألفاظ والمصطلحات العلمية ، وبذلك يتيسر له او لغيره من الحكومات العربية الكبرى ، ان يقوم بعد حين بوضع معلمة عربية (دائرة معارف) ، مستعيناً بمن أنبغت البلاد العربية من الكاتبين والباحثين ، ومسترشداً بمن ضموم الى جملته من علماء المشرقيات المستعربين في الغرب والشرق .

وقد طبع المجمع الجزء الثامن من كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي ، نشره الاستاذ مرجوليوث أستاذ جامعة اكسفورد واحد اعضاء المجمع العلمي ، ونشر محاضرة الدكتور اسعد الحكيم احد اعضائه في مضار المسكرات النفسية والاجتماعية ووزع كثيراً من نسخها مجاناً لتعم فائدتها .

ما تم من أعمال المجمع

وبعد فقد قضى المجمع دور الطفولة ، ودخل اليوم في اول سن الشباب ، او انه انتهى من دور التأسيس ، وبدأ بدور البناء ، وما أصعبه من دور على من يقدّر عظم

التبعات . وقد كان في نية اعضاء المجمع ان يقيموا ، بمناسبة اتمام مجمعهم العقد الاول من حياته ، حفلة رسمية تكون لها صفة المؤتمر العام ، فيشهدها جميع اعضائه في البلاد الاخرى ، ومنهم علماء المشرقيات في الغرب ، ليتباحثوا الأدب واللغة والتاريخ ، على مثال مؤتمر علماء المشرقيات ، ثم رأى تأجيل ذلك ربثما يتمكن من اتخاذ عامة أسباب الفائدة للمؤتمر بن ليثمر المؤتمر ثمرة نافعــة من كل الوجوه ، بفضل ماسيستمده المجمع من نخامتكم من قوة ، وازمع ان يظل على دؤوبه في مزاولة ماتتعاوره ايدي رجاله من الاعمال الادبية ، لعله بالنواقص المحسوسة في عمله ، فلا تكون دعوة العلماء من القاصية فلتة الزبدة ، في زمن تقاس فيه الامور بنتائجها .

ولقد أُدخل المجمع اصلاحات جمة على داره ، ودار الكتب الظاهرية التي أُنيط به لاول امره تعهدها ، فرمّ في البنــاء ، واخذ الاسباب لاستملاك بعض ما كان داخلاً فيها ، وملتصقاً بها من المباني ، لتفي داره والدار المحاذية لها بغرضه ، من توسيع دائرته ، ولتكون الداران صالحتين لاستيعاب كل مايدخل دار الآثار من الجامع ، ودار الكتب من الأسفار ، والزيادة فيهما مطردة على مايتجلى ذلك من احصائها الاخير . ومن احصاء الكتب التي دخلت المجمع هدية من الطابعين والمؤلفين والجامعات والجمعيات ، يُعلم مقدار الثقة التي أصبحت له في الاندية العلمية في العالم . وهذه الثقة تزيد كلما تضاعفت العناية بتعهــده ، وأثمر ثمرات دانيــة القطوف . فقد أوصى مؤخراً المرحوم الشيخ عبد الله الكزبري من الأسر القديمة في دمشق بخزانة كتبه للمجمع ، وعددها ٤٢٣ مجلداً فيهــا كثير من المخطوطات الجميلة النادرة ، وكان البادئ بمثل هذه المأثرة العلميــة العلامة المرحوم رفيق بك العظم احد اعضــاء المجمع ، فأوصى بخزانته البالغة نحو الف مجلد للمجمع .

وقد بلغ ماأُهدي في الحولين الاخيرين من الكتب ١٠٧٧ مجلداً ما بين مطبوع ومخطوط وما ابتــاعه ١٣٤٦ كتاباً مطبوعاً و٦٢ مخطوطاً ، فبلغ عدد المخطوطات السابقة واللاحقــة ٣٩٢٥ مخطوطاً والمطبوعات (١٥٨٠٧) اي ان المجموع غدا ١٩٧٣٢ مجلداً مخطوطاً ومطبوعاً . ومنها كتب فرع حلب ، ومنها مجموعة أهداها مؤخراً

جلالة ملك الحجاز ونجد وقدرها ٤٦ مطبوعاً ، واستنسخ المجمع بعض المخطوطات النادرة وابتاع منها ما عرض عليه مصوّراً ايضاً وسيكون له بعد سنين مجموعة نفيسة من النوادر المصورة بالتصوير الشمسي . وبذل المجمع همة في إتمام نواقصه من المطبوعات العربية والفرنسية ولا يزال على دؤوبه في هذا الشأن حتى تصبح مجموعاته كفيلة بغرض كل باحث ومتأدب ، وهو الآن يضع فهرساً مطولاً على أسلوب حديث ، لعشر مجلدات صدرت من مجلته الشهرية ، يستعين بها الباحثون ، لتكون المواد التي خاض عبابها اعضاء المجمع ومؤازروه في الشرق والغرب قريبة التناول على الباحثين . وتمت المعدات لنشر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية .

وقد خص السيدات بردهة في هذه الدار منعزلة عن غرفة الرجال ، يقيم قيمة عليها لتختلف اليها المتعلمات والدارسات . واذ رأى اقبال الرجال على غرف القراءة ، خصوصاً بعد وضع نظام البكالوريا وافتتاح مدرسة الأدب العليا ، جدَّ ان يمهد السبيل امام الطلاب فيستكثر لهم من المصنفات التي تفيدهم في الفروع التي يحاولون التوسع فيها ، ورأى من جهة ثانية ان بعضهم مولعون بقراءة صحف الاخبار السياسية فقرر ان تحجب عنهم ، وتحفظ مجاميعها في مستودعه ، يرجع اليها عند الضرورة ، فكان من ذلك انكباب الطلاب على كتب العلم والمجلات العلمية والادبية . وجهز غرف دار الكتب باحسن المناضد والمفروشات ليكفل للمطالعين راحتهم . وقرر ان لا تعرض الكتب الحديثة على مناضده الا بعد سنة من نشرها حرصاً على مصلحة الوراقين وترويجاً لما يطبعون ، وكان توسع في إعارة مطبوعاته الى خارج دار الكتب فرأى ان هذه التجربة قد عادت الكتب عن استفادة بعض الدارسين ، فألغى قراره الاول وجعل الاعارة محصورة بالمطالعين في الخزانة الظاهرية وخزانة المجمع الخاصة فقط .

واقد بلغ عدد قراء الكتب المخطوطة والمطبوعة في قاعة المطالعة ٢٨٠٠٠ قارئ بمعدل ١٤٠٠ شهرياً ، وعدد القراء المستعيرين خارج دار الكتب مدة ستة اشهر من الكتب المطبوعة ١٨٣٠ ، بمعدل ٢٥٠ في كل شهر ، وبلغ عدد قراء المجلات العلمية في قاعة المطالعة ١٠٤٠٠ بمعدل ٨٠٠ في الشهر . وزار قسم المخطوطات في قبة الملك

الظاهر من السياح الغربيين والشرقيين (٣٥١٠٠) زوار ، و بلغ عدد استمارات الكتب داخل قاعة المطالعة (١١٥٠٠) استمارة ، وذلك من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ الى آخر شهر تشرين الثاني سنة ٩٣٠ وعدد استمارات المجلات (٥٢٠٠) استمارة . و بلغ ما أعطي من الرخص للقراء ٩٩٥ رخصة مدة سنة واحدة . وقد انصرفت همة المجمع الى تجليد مئات من كتبه ، وهو اليوم يرمّ جميع مابلي من جلود الكتب المخطوطة ليرجعها الى ما كانت عليه في الجملة .

اعضاء المجمع

بلغ اعضاء المجمع العلمي في آخر السنة الماضية مائة وثلاثة عشر عضواً ، ستة وسبعون منهم في الشرق ، ومنهم ثمانية عشر عضواً في دمشق ، و بلغ عدد اعضائنا في الغرب سبعة وثلاثين عضواً من أمم مختلفة ، لم يراع المجمع في انتخابهم النسبة بين الامم الكبرى والصغرى : فقد تجد له في الدانيمرك مثلاً ثلاثة اعضاء ، وتجد له في بريطانيا العظمى ثلاثة فقط ، والمجمع يستفيد من اكثر اعضائه الا من بلغوا من السن عتياً ، فانهم متقاعسون عن خدمته على غير ارادتهم ، ولكن المجمع قصد من ضم امثال هؤلاء الأعلام ، معنى من معاني التنويه بهم على ما قدموه من الأعمال الصالحة في خدمة الآداب العربية .

ولقد كانت السنتان الماضيتان من أفجع سني المجمع العلمي ، فقد توفي سبعة من أعضائه ، ستة من المشارقة وواحد من المغاربة ، وهم العلماء الأعلام احمد تيمور باشا ، والشيخ مسعود الكواكبي والشيخ عبد الله البستاني والسيد عبد الباسط فتح الله والسيد جبر ضومط والشيخ محمد بن ابي شنب ، والسيد مبشو بلابر (رحمة الله عليهم) . خسر المجمع بهم اعضاء عطفوا عليه وأفادوه بارشادهم وعلمهم . وكانت مصيبته عظيمة جداً بالمرحوم احمد تيمور باشا الذي جعل قلمه وعلمه وخزانة كتبه وخزانة ماله ، منذ انشاء المجمع ، مباحاً له ، فآزره في مجلته بقلمه ، وأهداه مئات من الكتب المطبوعة والمصوّرة بالتصوير الشمسي ، ووهبه مجموعة نفيسة جداً من النقود القديمة ، لاتزال في دار الآثار على الدهر

ناطقة بفضله وكرمه . ولما عاتبه رحمه الله احد المصريين على تنازله عن مجموعته من النقود لمدينة دمشق أجابه بلطفه المتناهي : « اني أعطيت مدينة القاهرة خزانة كتبي (نحو ثلاثة عشر الف مجلد نحو نصفها من المخطوطات النادرة) ومدينة دمشق وهي بلدة عربية اسلامية جديرة بان تساعد ايضاً » .

ولو أراد المجمع ايضاً ان يضم اليه جميع من خدموا لغتنا من علماء المشرقيات المستعربين في الغرب فقط ، لاقتضى له ان يدخل في جماعته عشرات من الاعضاء ، وكذلك لو سمت همته الى ادخال كل عالم او اديب نبغ في مصر والشام والعراق فقط لتألف من مجموعهم عشرات ايضاً . وانتخب المجمع العلمي خلال الحولين المنصرمين ثلاثة اعضاء وهم الاساتذة خليل بك مطران ، والسيد خيرالدين الزركلي في القاهرة ، والسيد معروف الارناؤط في دمشق ولكل من هؤلاء الاساتذة مزايا نافعة ، وأعمال في البحث والتأليف تشهد لهم بعلو الكعب في خدمة الادب العربي . ومعلوم ان المجمع يقصد في انتخاب اعضائه صفة خاصة فيهم ، ومزية علمية او أدبية تفردوا بها ، دون النظر الى اعتبارات أخرى ، دينية كانت او سياسية . فالأعضاء أحرار في منازعهم وأفكارهم ، ولا يطلب منهم الا ان يراعوا غرض المجمع فقط ، يوم يكتبون له ويؤلفون ، ويحاضرون ويفيدون ، وهو علمي صرف لا يهتم لغير الآداب ونشر الأفكار الصحيحة على ما أثبت ذلك بالبرهان الساطع منذ انشائه .

مالية المجمع

منذ استقل المجمع بموازنته ، وأصبح يتمتع بشخصيته المعنوية ، ويتصرف بشؤونه على ما يرى فيه النفع له ، اخذت اعماله تطرد اطراداً حسناً ، والرجاء معقود ان يكون مستقبله خيراً من ماضيه ، فلا يعوزه غداً ماعاقه بالامس من العوائق التي صدته في بعض السنين عن تحقيق بعض رغباته . وكان جل اعتماد المجمع في اعماله خلال الأعوام الغابرة على ماتمنحه له الحكومة من الاعتماد المالي والهبات المالية التي يقدمها له بعض الغُيُر على الآداب من شاميين ومصريين وعراقيين وغيرهم ، وكانت ولا تزال قليلة بالنسبة لجلالة الموضوعات التي يعانيها ، واكثرها مما يتطلب مالاً كما يتطلب علماً . على ان مقدار

الهبة التي تجود بها نفس كريمة على العلم مهما خفت في الميزان ففيها من معاني العطف وحب التقدم اثر جميل .

كان مجموع المبلغ المخصص في سنة ١٩٣٠ للرواتب والمكافآت ١٤/١٢٦٦٣٣ ليرة سورية والمخصص للنفقات ١٠٦٦٦ وكانت اعانة الحكومة ١٣٠٠٠ ليرة سورية وللمجمع في المصرف باسمه مبلغ ١١٦٧٢٥ ليرة سورية من وفر السنة الماضية . اما الهبات المالية التي أرسلها اليه بعض اهل الأدب والوجاهة في العامين المنصرمين فلا تتجاوز المئة والخمسين ليرة سورية .

لا جرم انكم تحسون ان هذا الاعتماد قليل ، اذا نُظر الى ما عند المجمع العلمي من الأعمال في المستقبل القريب ، وان أقصى ما يمكن من الاقتصاد يعمل فيه ، وذلك لان المجمع يأبى الآن ان يكلف الحكومة شططاً ، وهو يعرف ان أمامها مشاريع حيوية أخرى ، تتطلب اعتمادات عظيمة في السنين القادمة ، ولاسيما في باب بناء المدارس في المدن والقرى واعمال الري وتعبيد الطرق وبناء دور الحكومة وغيرها . بيد ان هذين البناءين اللذين اورثنا اياهما ملكان عظيمان ابوبكر بن ايوب والظاهر بيبرس البندقداري (رحمهما الله) ، وهما المدرستان العادلية والظاهرية اذا وفتا اليوم ببعض الغرض ، فمحال ان تستوعبا غداً اعمال المجمع والدوائر التابعة له ، لان دار الآثار التي يؤويها المجمع في داره تتسع اعمالها سنة عن سنة ، وكذلك دار الكتب الظاهرية . ومن المحتم ان تضطر الدولة بعد حين الى ان تنشيء داراً للمجمع العلمي ، تكون في جوار دار الكتب ، ليسهل على رجاله ان يرجعوا الى مخطوطاتها عند الحاجة ، او ان تنشيء داراً خاصة للآثار فيستأثر المجمع ببنايته وحده ، او تبتاع خان اسعد باشا العظم لتجعل منه متحفاً .

وطُلب الى المجمع في السنتين الغابرتين ان يتولى ادارة بعض خزائن الكتب التي أنشئت حديثاً ، وذلك مثل المكتبة الخيرية في حماة والمكتبة السكرية ومكتبة الشاغور في دمشق ، والخزانة التنوخية في عبيه في لبنان . والغالب ان المجمع يصعب عليه الآن ان يجعل هذه الخزائن تحت حمايته لان ذلك يستدعي نفقات لا تتسع لها موازنته ، ولو اتسعت على ما يجب لبدأ بترميم المدرسة الأشرفية البرانية في سفح قاسيون ، وكانت

ادارة الاوقاف نزلت له عنها ، ليجعل منهـا غرفة قراءة ونادي محاضرات ، فأخره عن المضي في عمله قلة المال الذي يجب تخصيصه لهذا المقصد الخيري . ولذلك اكتفى المجمع باهداء هذه الخزائن مجموعات من الكتب ، سواء أكانت من مطبوعاته او غيرها . ومن جملة ما أهدى من ذلك ، مجموعة من الاسفار لخزانة الكتب التي أنشئت في السويداء حاضرة جبل الدروز بمعرفة السلطة العسكرية وهي سبعون مجلداً . اما انشاء خزانة كتب تسبّل على الناس في كل بلد تحت رعاية المجمع فامر يقتضي له جهد عظيم قد يخرج المجمع عن مقصده الاول .

وبعد فليس في الدول المشمولة بالانتداب عمل تتخطى تأثيراته حدود هذه الدولة مثل هذا المجمع العلمي العربي ، ولذا كان حرياً بحكوماتها وغيرها من الاقطار المجاورة ان تعاونه بماديَّاتها ، كما يعاونه بعض افرادها . فخدمة اللغة العربية وآدابها ليست مقصورة على هذه الديار وحدها ، وبلادنا بقدر ما ساعدتها حالها ، قامت بالواجب عليها من هذا القبيل ، أفما كان من الواجب على البلاد المجاورة ان تقوم بقسم مما يجب عليها لخدمة ادب العرب ، والمجمع العلمي العربي سواء أقام في دمشق او صنعاء او القاهرة اوالقيروان ، فان جهوده تعود بالنفع على الناطقين بالضاد ، أفليسوا مكلفين ضمناً ان يقوموا على الاقل ببعض شأنه ، تنشيطاً له على اتمام رغباته . واللغة من اول المرافق التي تعد من المصالح المشتركة .

* * *

دار الآثار

ولا يسعني في هذا المقام الا ان أشير الى اعمال دار الآثار ، لانها وليدة المجمع العلمي وربيبته ، ولا يزال يعطف عليها ، وان باعدت بينهما المظاهر الادارية (التقرير الخامس الصفحة الخامسة) وهذا احصاء ما ورد في العهد الاخير على دار الآثار من التحف والعاديات :

	سنة ١٩٣٠ عدد	سنة ١٩٢٩ عدد
الآثار الحجرية	٤٠	٢٦
« الخزفية	١٤١	٦٧
« المعدنية	٤٩	١٦
« القاشانية	٤٨	١٢
« الزجاجية	٨	٥
« الخشبية	٨٩	٥
النقود	٦٢	٣٥٩
آثار متنوعة	٩٩	٦
	٥٣٦	٤٩٦

فاذا أضيف هذا العدد الى مجموع محتويات دار الآثار بلغ المجموع ٨٥٥٣ قطعة ، ولم تدخل في احصاء سنة ١٩٣٠ الآثار التي اكتشفت في المشرفة قرب حمص وصوران وصالحية الفرات ، لانها لم تزل في صناديقها ولم تسجل ، لعدم وجود مكان لعرض فيه ويبلغ عددها ٣٠٠ قطعة تقريباً . وبلغ عدد زائري دار الآثار بدمشق ممن دفعوا رسم الدخول :

سنة ١٩٣٠ عدد	سنة ١٩٢٩ عدد
٣٥٠٠	٣٧٠٠

اما البعثات الاثرية في سورية التي هي مادة داري الآثار في دمشق وحلب فهذه أهمها :

(١) البعثة الفرنسية التي تنقب لحساب جامعة يل الاميركية في صالحية الفرات برئاسة المسيو بيليه

(٢) البعثة الفرنسية ومديرها الكونت دومنيل في المشرفة (حمص) .

(٣) البعثة الفرنسية ومديرها الكونت دومنيل في خان شيخون
(٤) « « في الرصافة
(٥) « « في ارسلان طاش وتل الاحمر
(٦) اعمال كشف تدرس تقوم بها مديرية الآثار القديمة في المفوضية
(٧) حفريات قلعة حلب
(٨) حفريات تسيل في حوران تقوم بها ادارة دار الآثار بدمشق
(٩) حفريات قلعة المضيق تقوم بها بعثة بلجيكية

هذا وقد طبعت ادارة دار الآثار دليلاً لما حوته حتى الآن من العاديات المنوعة وطبعت على نفقتها مجمل رقم تدمر تأليف المسيو كانتينو . ونظراً لنمو دار الآثار السريع فقد ضاق البناء بمحتوياته ولذلك قد استملكت ادارته داراً مجاورة لبنائه الحالي .

وقد خصت حكومة حلب دار سعادة الجنرال بيوت التي كانت أهدته اياها بلدية الشهباء اقراراً بفضله على تلك المدينة وعاد فتنزل عنها للواهب الاول — خصتها لجعل دار الآثار ويجعل في الطابق العلوي منها فرع المجمع العلمي العربي هناك . وهكذا كانت الآثار كاللازم والملزوم مع المجمع العلمي . وسينتقل فرعنا في حلب الى هذه الدار ، ورئيسه هناك كرئيس المجمع العلمي في دمشق ، رئيس مجلس الآثار ، وبعض اعضائه اعضاء به ، وفي النية تأسيس متحف في انطاكية عاصمة سورية قديماً ، يجمل فيه ما عثر و يعثر عليه في ارجاء لواء الاسكندرونة ، كما خصت حلب بجميع ما يستخرج في ولايتها من العاديات والتحف .

هذه أغراض المجمع وعمله ونسأل لكم يا اصحاب الفخامة حسن التوفيق لتسيروا بالبلاد في طريق سعادتها بنشر العلوم والآداب .

دمشق : في ٢ رمضان سنة ١٣٤٩ وفي ٢٠ كانون الثاني سنة ١٩٣١

وزير المعارف
ورئيس المجمع العلمي العربي
محمد كرد علي

اعضاء المجمع العلمي

«في سنة ١٩٣٠»

الرئيس: السيد محمد كرد علي

« الاعضاء »

	السادة	محل الاقامة
١	الدكتور اسعد الحكيم	دمشق
٢	السيد انيس سلوم	〃
٣	الشيخ محمد بهجة البيطار	〃
٤	السيد جميل العظم	〃
٥	السيد خليل مردم بك	〃
٦	السيد رشيد بقدونس	〃
٧	السيد سليم الجندي	〃
٨	السيد سليم عنحوري	〃
٩	السيد شفيق جبري	〃
١٠	السيد عارف النكدي	〃
١١	الشيخ عبد القادر المبارك	〃
١٢	الشيخ عبد القادر المغربي	〃
١٣	السيد عبد الله رعد	〃
١٤	السيد عز الدين علم الدين التنوخي	〃
١٥	السيد فارس الخوري	〃
١٦	الدكتور مرشد خاطر	〃
١٧	السيد معروف الارناؤوط	〃
١٨	الامير مصطفى الشهابي	〃

« الاعضاء »

	السادة	محل الاقامة
١٩	الشيخ ابراهيم منذر	بيروت
٢٠	السيد امين الريحاني	〃
٢١	السيد بولس الخولي	〃
٢٢	الشيخ عبد الرحمن سلام	〃
٢٣	السيد عمر فاخوري	〃
٢٤	الدكتور فيليب حتي	〃
٢٥	الفيكونت فيليب دي طرازي	〃
٢٦	الشيخ مصطفى الغلاييني	〃
٢٧	الدكتور نقولا فياض	〃
٢٨	السيد عيسى اسكندر المعلوف	زحلة
٢٩	الشيخ احمد رضا	النبطية
٣٠	الشيخ سليمان ظاهر	〃
٣١	السيد جرجي يني	طرابلس الشام
٣٢	الشيخ سليمان احمد	اللاذقية
٣٣	السيد ادوارد مرقص	〃
٣٤	الشيخ محمد زين العابدين	انطاكية
٣٥	الشيخ بدر الدين النعساني	حلب
٣٦	المنسنيور جرجس منش	〃

« الاعضاء »

السادة	محل الاقامة
٣٧ الشيخ راغب الطباخ	حلب
٣٨ الشيخ عبد الحميد الجابري	«
٣٩ السيد عبد الحميد الكيالي	«
٤٠ السيد قسطاكي الحمصي	«
٤١ الشيخ كامل الغزي	«
٤٢ السيد ميخائيل الصقال	«
٤٣ السيد اسعاف النشاشيبي	القدس
٤٤ الشيخ خليل الخالدي	«
٤٥ السيد عبد الله مخلص	حيفا
٤٦ الشيخ سعيد الكرمي	طول كرم
٤٧ الشيخ رضا الشبيبي	النجف الاشرف
٤٨ الدكتور أمين المعلوف	بغداد
٤٩ الاب انستاس الكرملي	«
٥٠ السيد جميل صدقي الزهاوي	«
٥١ السيد كاظم الدجيلي	«
٥٢ السيد معروف الرصافي	«
٥٣ الشيخ احمد الاسكندري	القاهرة
٥٤ السيد احمد امين	«
٥٥ السيد احمد حسن الزيات	«
٥٦ احمد زكي باشا	«
٥٧ احمد شوقي بك	«

السادة	محل الاقامة
٥٨ الدكتور احمد عيسى	القاهرة
٥٩ احمد لطفي السيد بك	«
٦٠ السيد اسعد خليل داغر	«
٦١ حافظ ابراهيم بك	«
٦٢ السيد خير الدين الزركلي	«
٦٣ خليل بك مطران	«
٦٤ الشيخ محمد رشيد رضا	«
٦٥ السيد عباس محمود العقاد	«
٦٦ الشيخ محمد الخضر حسين	«
٦٧ السيد مصطفى صادق الرافعي	طنطا
٦٨ السيد زكي مغامز	الاستانة
٦٩ السيد حسن حسني عبد الوهاب	تونس
٧٠ السيد عبد الحي الكتاني	فاس
٧١ الامير شكيب أرسلان	لوزان
٧٢ السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي	عليكرة (الهند)
٧٣ السيد عبد الحق	حيدرآباد الدكن «
٧٤ السيد عبد الرحمن	دلهي «
٧٥ الشيخ ابو عبد الله الزنجاني	فارس
٧٦ الدكتور سعيد ابو جمرة	برازيل

* * *

« الاعضاء »

	السادة		محل الاقامة
٧٧	السيد مارسيه	Marçais	تونس
٧٨	« ماسه	Massé	الجزائر
٧٩	« كي	Guy	فاس
٨٠	« فران	Ferrand	باريز
٨١	« دوسو	Dussaud	«
٨٢	« ماسينيون	Massignon	«
٨٣	« بوفا	Bouvat	«
٨٤	« جويدي	Guidi	ايطاليا
٨٥	« نلينو	Nallino	«
٨٦	الاب آسين	Asin	اسبانيا
٨٧	السيد لوبس	Lopès	البرتقال
٨٨	« مونته	Montet	سويسرا
٨٩	« هبس	Hess	«
٩٠	« سنوك هورغرنيه	Snouck-Hurgronje	هولاندة
٩١	« هوتسما	Houtsma	«
٩٢	« اراندونك	Arendonk	«
٩٣	« مرجليوث	Margoliouth	انكلترا
٩٤	« بفن	Bevan	«
٩٥	« كرنكو	Krinkow	«
٩٦	« هومل	Hommel	المانيا
٩٧	« ساخاو	Sachau	«
٩٨	« بروكلمن	Brockelmann	«
٩٩	« هوروفيتز	Horovitz	«

« الاعضاء »

السادة		محل الاقامة
١٠٠ السيد هرزفلد	Herzfeld	المانيا
١٠١ « هارتمان	Hartmann	«
١٠٢ « ميتفوخ	Mittwoch	«
١٠٣ « ستترستين	Zetterstéen	السويد
١٠٤ « اوستروب	Œustrup	الدانيمارك
١٠٥ « بول	Buhl	«
١٠٦ « پدرسن	Pedersen	«
١٠٧ « موجيك	Mzik	النمسا
١٠٨ « ماهلر	Mahler	المجر
١٠٩ « كوفالسكي	Kowalski	بولونيا
١١٠ « كراتشقوفسكي	Kratchkovsky	روسيا
١١١ « موزل	Musil	تشكيوسلوفاكيا
١١٢ « ماكدونالد	Macdonald	اميركا
١١٣ « كرسيكو	Karsikko	فنلاندا

أعضاء المجمع الراحلون

١ الشيخ طاهر الجزائري (دمشق)
٢ السيد نخلة زربق (القدس)
٣ » اغناطيوس غولدصيهر (بودابست)
٤ » مرتين هارتمان (برلين)
٥ » رينه باسه (الجزائر)
٦ احمد كمال باشا (القاهرة)
٧ السيد مصطفى لطفي المنفلوطي »
٨ الدكتور يعقوب صروف »
٩ السيد اوجنيو غريفيني »
١٠ » رفيق العظم »
١١ » محمود شكري الالوسي (بغداد)
١٢ » حسن بيهم (بيروت)
١٣ الاب لويس شيخو »
١٤ الدكتور صالح قنباز (حماة)
١٥ السيد مالنجو (دمشق)
١٦ » الياس القدسي »
١٧ » براون (كمبريج)
١٨ » كليمان هوار (باريز)
١٩ الاب جرجس شلحت (حلب)
٢٠ الحكيم محمد أجمل خان (الهند)
٢١ الشيخ سليم البخاري (دمشق)
٢٢ الشيخ محمد بن ابي شنب (الجزائر)
٢٣ الشيخ عبد الله البستاني (بيروت)
٢٤ السيد جبر ضومط »
٢٥ الشيخ مسعود الكواكبي (دمشق)
٢٦ احمد تيمور باشا (القاهرة)
٢٧ السيد ميشو بلاير (طنجة)

المتبرعون للمجمع العلمي

« بمال او آثار اوكتب مخطوطة او مطبوعة »

« أ »

السيد ابراهيم اطفيش	القاهرة
ابو كامل المعلم	دمشق
السيد ابراهيم زيدان	القاهرة
احمد تيمور باشا	〃
احمد شوقي بك	〃
احمد اغا الخانجي	دمشق
السيد احمد الطويل	〃
الدكتور احمد عيسى بك	القاهرة
السيد احمد امين الديك	〃
الشيخ احمد الاسكندري	〃
〃 احمد فهمي العطار	دمشق
احمد زكي باشا	القاهرة
الشيخ احمد عارف الزين	صيدا
الامير احمد مختار الجزائري	دمشق
الشيخ احمد رضا	النبطية
احمد عزت باشا العابد	دمشق
السيد اديب البهنسي	〃
اديب مصري	القاهرة
ادارة المسرة	جونيه

السيد ارنست هرزفلد	المانيا
〃 اسكندر الخولي البيتجالي	القدس
〃 اسعاف النشاشيبي	〃
〃 اسعد خليل داغر	القاهرة
اكاديمية لينچاي الملكية	رومية
السيد الياس انطون الياس	القاهرة
〃 امين الدالاتي	دمشق
〃 امين هندية	القاهرة
〃 امين زيدان	〃
امير البحرين	البحرين

« ب »

السيد براون	كمبريج
البعثة الفرنسية	دمشق
السيد بدر الدين الشركسي	قنيطرة
〃 بشارة الاصفر	دمشق
〃 بفن	كمبريج
الشيخ محمد بهجة الاثري	بغداد
السيد بهاء الدين الجابي	دمشق
بلدية دمشق	
بلدية حمص	

« ث »	
السيد توفيق شامية	دمشق
الشيخ توفيق المنيني	«
« ج »	
جاك بك ثابت	بيروت
جامعة سيام	
جامعة ليون	
جامعة بوردو	
جامعة ستراسبورغ	
الجامعة المصرية	
السيد جرجي رزق الله	بيروت
الامير جعفر الحسني	دمشق
السيد جميل الكواكبي	«
الجمعية الآسياوية	باريز
السيد جينارد ي	دمشق
« ح »	
السيد حافظ زكية	حمص
الدكتور حبيب قشيشو	دمشق
الدكتور حسن رعد	طرابلس الشام
السيد حسن حسني عبد الوهاب	تونس
« حسام الدين الكزبري	دمشق
« حمدي النصر	«
« حمدي الجلاد	«
« حمدي الكيلاني	«
الشيخ حمدي الحلبي	«

« خ »	
الامير خالد الحسني الجزائري	دمشق
السيد خالد الخاني	«
« خالد العظم	«
« خالد معاذ	القاهرة
« خالد يحيي	طرابلس الشام
خزانة كتب الامة	برلين
السيد خورشيد الشركسي	دمشق
« خليل مردم بك	«
« خير الدين الزركلي	القاهرة
« د »	
دار الكتب المصرية	
السيد داود صدقي الماردبني	دمشق
« درويش الدهان	«
« ديمتريوس قاضي	«
« ر »	
المسيو راجي	«
السيد رسلان البلعوط	«
« رفيق العظم	القاهرة
« رضا الجوخدار	دمشق
« رضا الشربجي	«
« رؤف الايوبي	«
« ز »	
السيد زكي مغامز	الاستانة
« زعل الدغيم	خسفين

« س »	
السيد سامي البكري	دمشق
الامير سعيد الحسني الجزائري	〃
الشيخ سعيد الرافعي	القاهرة
الشيخ سليم البخاري	دمشق
السيد سليم عنحوري	〃
السنيور سبرانزا	〃
السيد صالح الاكتع	〃
« ش »	
〃 شفيق الحسيني	حمص
« ص »	
〃 صالح القشطوني	دمشق
الدكتور صالح شورى	〃
السيد صادق العطار	〃
〃 صبحي الطباع	〃
〃 صبري اديب الكاشف	〃
〃 صدقي نور الله	جبلة
〃 صفوح المؤيد	دمشق
« ط »	
الشيخ طاهر الجزائري	〃
الامير طاهر الحسني الجزائري	〃
السيد طلعت حرب	القاهرة
« ع »	
الشيخ ابو عبد الله الزنجاني	ايران
〃 عبد المعطي السقا	القاهرة

السيد عبد القادر العظم	دمشق
〃 عبد الرحمن اليوسف	〃
الشيخ عبد القادر المغربي	〃
〃 عبد الواسع اليماني	القاهرة
السيد عبد الله الاستاذ	دمشق
الشيخ عبد الله الكزبري	〃
السيد عبد الجواد الحسيني	حمص
〃 عثمان العظم	دمشق
〃 عزت احمد العظم	〃
〃 عزالدين علم الدين التنوخي	〃
جلالة الامام عبدالعزيز بن سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها	مكة المكرمة
السيد محمد عطاء الله الايوبي	دمشق
البرنس عمر طوسون باشا	القاهرة
السيد عمر الخشاب	〃
عين الملك خان	دمشق
السيد عيسى البابي الحلبي	القاهرة
〃 عيسى اسكندر المعلوف	زحلة
〃 عبده خير الله	دمشق
« غ »	
〃 غريغوريوس حداد	〃
« ف »	
〃 فارس قمحة	〃
الامير فاعور الفاعور	القنيطرة
السيد فائز العظم	دمشق

السيد فخري آل جميل	بغداد
« فخري البارودي	دمشق
الشيخ فرج الله زكي الكردي	القاهرة
السيدان فريد ونديم الغزي	دمشق
السيد فريد العمري	«
« فؤاد الفرا	«
« فهمي ابيو	«
جلالة فيصل الاول ملك العراق	بغداد
« ق »	
القومندان بورجوا	حمص
« ك »	
الامير كاظم الحسني الجزائري	دمشق
السادة كالمان ليفي الكتبيون	باريز
« ل »	
لجنة التأليف والترجمة والنشر	القاهرة
« م »	
الماريشال ليوتي	باريز
السيد مأمون المؤيد	دمشق
مجلس النواب المصري	القاهرة
مجلس النواب الفرنسي	باريز
المجمع العلمي البلجيكي الملوكي	بروكسل
محمد باشا العصيمي	دمشق
السيد محب الدين الخطيب	القاهرة
الشيخ محمد بهجة البيطار	دمشق
السيد محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي	فاس

الشيخ محمد الخضري	القاهرة
السيد محمد جمال	بيروت
« محيي الدين رضا	القاهرة
« محيي الدين الازهري	النبطية
الامير محمد نجل الشيخ عيسى آل خليفة شقيق امير البحرين	البحرين
السيد محمد ابراهيم الباكر	البحرين
« محمد امين الخانجي	القاهرة
« محمد بن يحيى الصقلي	الدار البيضاء
« محمد عبد الواحد الطوبي	القاهرة
« محيي الدين الكردي	«
« محمد فائز السفرجلاني	دمشق
« محمد حاجي قولي	حلب
« محمد علي الحلبي	دمشق
« محمد الحمصي	«
« محمد شفيق السيوفي	«
« محمود شغلول	«
« محمد خير الجوخدار	«
« محمد ابو فورة	«
الشيخ محمد رشيد رضا	القاهرة
السيد محمد الهراوي	«
مدرسة اللغات الشرقية	باريز
السيدة مريام هاري	«
مرعي باشا الملاح	حلب
الشيخ مسعود الكواكبي	دمشق

الامير مصطفى الشهابي	دمشق	« هـ »	
السيد مصطفى البابي	القاهرة	المسيو هنري دي جوفنيل	باريز
المطبعة الاميركية	بيروت	« و »	
مكتبة الخانجي	القاهرة	وزارة الاشغال	القاهرة
مكتبة سان باولو	البرازيل	وزارة الاشغال	باريز
المكتبة السلفية	القاهرة	وزارة المالية	دمشق
المكتبة التجارية الكبرى	»	وزارة الزراعة	»
السيد ممدوح هنانو	حلب	وزارة الاوقاف	القاهرة
» منير البرازي	حماة	وزارة الزراعة	»
» منير الدمشقي	القاهرة	وزارة المعارف والفنون	باريز
» منيف اليوسف	دمشق	وزارة المعارف	القاهرة
السيدان مهدي وعبده مرتضى	»	« ي »	
السيد ميخائيل نجاش	لبنان	السيد يحيى الصواف	دمشق
» ميخائيل لغالي	بوردو	الدكتور يعقوب صروف	القاهرة
المسيو ميليا	باريز	البرنس يوسف كال	»
الامير ميرزا مصطفى	سلمية	السيد يوسف توما البستاني	»
« ن »		» يوسف ابراهيم	جبلة
السيد نجيب متري	القاهرة	» يوسف السبع	دمشق
» نعيم عرابي	دمشق	» يوسف امين شدياق	لبنان

محاضرات المجمع

ما عدا حفلات التكريم وحفلات المراثي التي أقامها المجمع لبعض اعضائه وغيرهم :

—« سنة ١٩٢١ »—

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
طرفة ابن العبد (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٧ نيسان سنة ١٩٢١
الحسبة في الاسلام (اجتماع)	السيد محمد كرد علي	١٣ حزيران ١٩٢١
احياء اللغة العربية (ادب)	» متري قندلفت	٢٢ منه
الملاريا وكيفية الوقاية منها (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	١ تموز ١٩٢١
الشعر وتأثيره في الاخلاق (اجتماع وادب)	الشيخ عبد الرحمن سلام	١٤ منه
العلم (اجتماع)	السيد انيس سلوم	١٩ منه
القضاء في الاسلام (ادب وفقه)	» عارف النكدي	٢٤ منه
الجباية في الاسلام (اجتماع	» محمد كرد علي	٣١ منه
أحيحة ابن الجلاح (ادب وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٠ ايلول
الحقوق المدنية في الشرق (قانون)	» سعيد مراد الغزي	١٣ تشرين الاول
العلم بالعمل (اجتماع)	السيد انيس سلوم	٢٤ منه
صناعة الانشاء العربي (ادب)	الشيخ سعيد الكرمي	١ كانون الاول

—« سنة ١٩٢٢ »—

الاخلاق والاجتماع (اجتماع)	الشيخ عبد القادر المبارك	٦ تشرين الاول
كيف تحقق الآثار الثار يخية (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	١٣ منه
طُرفة أدب من آداب العرب (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٠ منه
الكتب والمطالعة (اجتماع)	السيد انيس سلوم	٢٧ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
الشعر او حرفة الادب (ادب)	الشيخ عبد الرحمن سلام	٨ تشرين الثاني
اصول الاتحاد (حقوق)	السيد فارس الخوري	١٧ منه
الاخلاق والحقوق الدولية (حقوق)	« فوزي الغزي	٢٣ منه
المرأة في ادوارها التاريخية (تاريخ واجتماع)	الشيخ سعيد مراد الغزي	١ كانون الاول
« « « « «	« للسيدات	٤ منه
خلاصة اعمال المجمع منذ نشأته	السيد محمد كرد علي	٧ منه
صفحة من تاريخنا الاجتماعي (اجتماع وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٥ منه
الصناعات الدمشقية القديمة (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٢ منه
مصانع الشام وهندستها «	« محمد كرد علي	٢٩ منه
فن الطب والصيدلة في فرنسا (طب)	الدكتور شارل	٣١ منه

— « سنة ١٩٢٣ » —

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
الحركة الدائمة (طبيعيات)	السيد عبد الله رعد	١٢ كانون الثاني
من لا يكرم نفسه لا يكرم (اخلاق)	« انيس سلام	١٩ منه
محاضرة اخلاقية (اخلاق)	الشيخ محي الدين الخاني للسيدات	٢٧ منه
هواء المدن (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	٥ شباط
تاريخ العلم في الشام (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	٩ منه
القدوة بالصحابيات من خير الاعمال الصالحات (اخلاق)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	١٦ منه
مخطوط تاريخي دمشقي (ادب) «	« للرجال	١٦ منه
الصناعات والواجبات (اقتصاد)	السيدة مسرة ادلبي للسيدات	٠٠
التراسل بحمام الزاجل (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٣ منه
لكل امرئ من دهره ما تعودا (اخلاق)	السيد انيس سلوم	٢ آذار
الصدق في القول والعمل «	الشيخ عبد الله العلمي للسيدات	٢ منه
تأثير الطرق في هواء المدن (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	٩ منه

« عنوان المحاضرة »		« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
العلم في سورية في القرون الاخيرة	(تاريخ)	السيد محمد كرد علي	١٦ آذار ١٩٢٣
نبأ عجب من أنباء العرب	(ادب وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٤ منه
تاريخ الطب عند العرب	(تاريخ)	الدكتور اسعد الحكيم	٣٠ منه
«	(تتمة)	« «	٦ نيسان
تتمة القضاء في الاسلام	(فقه وتاريخ)	السيد عارف النكدي	١٣ منه
خديجة والاسلام		الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	«
الطب العربي	(طب وتاريخ)	الدكتور اسعد الحكيم	٢٠ منه
وصف آثار تاريخية في متحفنا الوطني	«	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢١ منه
اثنا عشر كوكب	(ادب «)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٢٧ منه
سكان الشام ولغاتهم	«	السيد محمد كرد علي	٣ أيار
عائشة الباعونية	(ادب «)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٠ منه
بين العرب والروم في الشام	«	السيد محمد كرد علي	٢ حزيران
تعزيز اللغة العربية	(ادب)	« انيس سلوم	٨ منه
آداب المرأة	(اخلاق)	الشيخ خالد النقشبندي	٨ منه
حياة شيخ الاسلام ابن تيمية	(فقه وتاريخ)	« بهجة البيطار	١٥ منه
صفحة من تاريخ بني أمية	«	السيد محمد كرد علي	٢٢ منه
السيد الفيومي	(اجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٢٣ منه
الالعاب الاولمبية والرياضة البدنية	«	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٩ منه
فصحاء الاعراب	(تاريخ وادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	٦ تموز
الارادة القوية	(اخلاق)	السيد انيس سلوم	١٤ منه
آخر عهد الحكم العربي في بلاد الشام	(تاريخ) «	محمد كرد علي	٣ آب
فصحاء الاعراب	(ادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٦ منه
آخر عهد الحكم العربي في بلاد الشام	(تتمة)	السيد محمد كرد علي	١٠ منه
سويسرا في افريقية او بلاد النجاشي	(تاريخ) «	عبد الله رعد	١٧ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
محاسن ما شاهدت في طوافي حول الارض (رحلة واجتماع)	السيد حنا خباز	٢٤ آب
اللغة العربية العامية ومنزلتها من الفصحى (ادب ولغة)	« الياس القدسي	٣١ منه
الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع (اخلاق)	« سليم عنحوري	٧ ايلول
سائح يصف الشرق (تاريخ وجغرافية)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٤ منه
إعراس الخليفة المأمون ببوران بنت الحسن (ادب)	السيد قسطاكي الحمصي	٢١ منه
الراديوم (فن)	الدكتور فيليب بركات	٢٨ منه
الحرية الشخصية (حقوق)	« احسان الشريف	٥ تشرين الاول
اليابان وزلازلها (تاريخ وجغرافية)	السيد اديب التقي	١٢ منه
عمل الذهب بالطريقة الصناعية (فن)	« عبد الوهاب القنواتي	٢٦ منه
صيارفة الشام منذ مائة عام (تاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي للرجال	٩ تشرين الثاني
شهداء النساء في نشأة الاسلام «	« « للنساء	٧ كانون الاول
— « سنة ١٩٢٤ » —		
آثار شرقي الاردن وموجز من تاريخه وجغرافيته وفي ختام الحفلة قصيدة للسيد حليم دموس	السيد اديب وهبة	٤ كانون الثاني
الزلازل في سورية (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	١١ منه
الاولاد وتربيتهن (اجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	١١ منه
آثار شرقي الاردن (الجزء الثاني)	السيد اديب وهبة	١٨ منه
الحياة السعيدة (اخلاق)	« انيس سلوم للسيدات	١٨ منه
عهد بني ايوب في الشام (تاريخ)	« محمد كرد علي	٢٤ منه
درس في التعليم والتأدب (اخلاق وتربية)	الشيخ احمد النويلاتي للسيدات	٢٥ منه
عثرات الاقلام (ادب ولغة)	« عبد القادر المغربي	١ شباط

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
البنت في البيت والمدرسة والعالم (اخلاق واجتماع)	السيد عيسى اسكندر المعلوف (للسيدات)	١ منه
في الاخلاق والآداب (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي (للسيدات)	٧ منه
التعاون والتحاب (اجتماع)	〃 〃 〃 〃	١٤ منه
مزايا الشعر الاندلسي (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٢ منه
الحياة الاجتماعية (اخلاق)	〃 انيس سلوم (للسيدات)	١٥ منه
تتمة محاضرة آثار شرقي الاردن	〃 أديب وهبة	
دولة المماليك البحرية في الشام (تاريخ)	〃 محمد كرد علي	١٥ منه
تتمة مزايا الشعر الاندلسي (ادب)	〃 عيسى اسكندر المعلوف	٢٢ منه
واجبات المرأة في الحياة الاجتماعية (اجتماع واخلاق)	الشيخ احمد النويلاتي (للسيدات)	»
كلمة في تربية الطفل الاولية (تربية)	السيدة مسرة ادلبي	〃
الزوجة في البيت والعالم (اخلاق واجتماع)	السيد عيسى اسكندر المعلوف 〃	٢٩ منه
محاضرة اجتماعية (اجتماع)	〃 حنا خباز	»
الصحة والتداوي (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي 〃	٧ آذار
عهد الشراكسة والمماليك ووقائع التتار القدماء في الشام (تاريخ)	السيد محمد كرد علي (للرجال)	»
عهد تيمورلنك في الشام 〃	〃 〃	١٤ منه
الترتيب (اجتماع)	〃 انيس سلوم (للسيدات)	»
تسامح الاسلام (اخلاق)	الشيخ احمد النويلاتي 〃	٢١ منه
كلمة اجتماعية (اجتماع)	كريمة السيد مصباح محرم 〃	٢١ منه
فنون الشعر الاندلسي كالموشحات والأزجال (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	»

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
عهد المماليك الشراكسة الى ظهور العثمانيين (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	٤ نيسان
الادارة الملكية في الحكومات العربية الاسلامية (حقوق وتاريخ)	« شاكر الحنبلي	١١ منه
كتاب اخبار الحمقى والمغفلين (ادب واخلاق)	الشيخ المغربي	١٩ منه
وفي ختام الحفلة قصيدة »	السيد جميل صدقي الزهاوي	»
عهد الدولة العثمانية في الشام من ٩٢٢ﻫ الى ١٠٠٠ ﻫ (تاريخ)	» محمد كرد علي	٢٤ منه
الشجاعة (اخلاق)	» انيس سلوم	٢ أيار
ديون الدولة العامة (مالية)	» فارس الخوري	١٦ منه
كيفية ارضاع الطفل وتربيته الاولية (تربية وصحة)	السيدة مسرة ادلبي (للسيدات)	٢٣ منه
تاريخ بلاد الشام في القرن الحادي عشر (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	»
بشار بن برد (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٣٠ منه
قصيدة في عمل بني أمية (اجتماع)	السيد محمد سليمان الاحمد (بدوي الجبل)	»
الام في البيت والمدرسة (تربية)	» عيسى اسكندر المعلوف (للسيدات)	٣٠ منه
عائشة رضي الله عنها (تاريخ واخلاق)	الشيخ احمد النويلاتي (للسيدات)	٦ حزيران
ذم التقليد و البدع (اخلاق)	كريمة السيد شاكر الحنبلي »	»
صفحة اجتماعية (ادب)	الشيخ عبد القادر المبارك	»
تأثير الشعر الاندلسي في الشعر الغربي (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	

« عنوان المحاضرة »		« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
ثمة ديون الدول العامة	(مالية)	السيد فارس الخوري	١٣ حزيران
تأثير الشعر الاندلسي في الشعر الاوربي (ادب)	»	عيسى اسكندر المعلوف	٣٠ منه
حقوق المرأة في الاسلام	(اجتماع وفقه)	الشيخ عبد القادر المغربي (للسيدات)	»
الاعتدال	(اخلاق)	السيد انيس سلوم	٢٧ منه
الشام في القرن الثاني عشر	(تاريخ)	» محمد كرد علي	٣ تشرين الاول
القدم سكان سورية بشهادة الآثار	»	» عيسى اسكندر المعلوف	١٧ منه
الغيبة والنميمة	(اخلاق)	الشيخ عبد القادر المغربي (للسيدات)	٢٤ منه
خواطر سائح	(اجتماع)	الدكتور محجوب ثابت	٢٧ منه
الاخلاق العامة في تطور الامم	(اجتماع وتاريخ)	» اسعد الحكيم	١٤ تشرين الثاني
الاخلاق عند العرب	»	الشيخ بهجة البيطار (للسيدات)	»
تبدل الحياة البيتية في الشرق الاقصى	(اجتماع)	للسيدة فروسين درويك الاميركية تعريب الآنسة ماري عجمي للسيدات	٢١ منه
الاصطياف في ربوع سورية	»	السيد عبد الله رعد	٢٨ منه
خذوا اخلاقهم (اي العرب) من امثالهم	(اخلاق وادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٢ كانون الاول
واجبات المرأة في الهيأة الاجتماعية	(اجتماع)	السيدة روز شحفة (للسيدات)	١٩ منه
خطاب حفلة المجمع السنوية وفي ختام الحفلة خطاب للسيد انيس سلوم		السيد محمد كرد علي	٢٦ منه
الحبشية والعربية	(ادب)	» عبد الله رعد	
موضوع اقتصادي اخلاقي		الشيخ خالد النقشبندي (للسيدات)	

* * *

— « سنة ١٩٢٥ » —

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
الجامعة السورية وكلية الآلهيات (اجتماع)	الشيخ بهجة البيطار	٩ كانون الثاني
ظاهر العمر واحمد باشا الجزار (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	١٦ منه
حوادث أوائل القرن الثاني عشر »	» »	٢٣ منه
وقائع الجزار »	» »	٣٠ منه
عهد ابراهيم باشا المصري »	» »	٦ شباط
الحالة الاجتماعية في الشام من خروج المصريين الى سنة ١٣٠٠ (تاريخ)	» »	١٣ منه
كيف تطيب الحياة الزوجية (اجتماع)	السيدة مسرة ادلبي (للسيدات)	٢٧ منه
المرأة وواجباتها الوطنية والزوجية »	» سارة خطيب »	١٣ آذار
التجارة القديمة عند الامم (تاريخ)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٠ منه
الفنون الجميلة (تاريخ وادب)	» محمد كرد علي	٣ نيسان
امثال العرب (ادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	٦ منه
اسباب الفقر وعلاجه (اقتصاد واخلاق)	السيد انيس سلوم	٩ منه
تتمة اسباب الفقر وعلاجه	» »	١٧ منه
مناظرة عالمين في مجلس المأمون (تاريخ وعقائد)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٨ منه
درس اقتصادي (اقتصاد)	السيدة روز شحفة (للسيدات)	٠٠
بلاغة الجاحظ (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٨ أيار
اخلاق المرأة (اخلاق واجتماع)	السيدة مسرة ادلبي (للسيدات)	١٥ منه
الجيوش البرية والبحرية (ادب وتاريخ)	السيد محمد كرد علي	٢٢ منه
موضوع اقتصادي (اقتصاد)	السيدة سارة خطيب (للسيدات)	٢٩ منه
صناعة الانتقاد عند العرب (ادب)	السيد عيسى اسكندر المعلوف	٥ حزيران
سياحة الى بغداد (رحلة)	» »	١٩ منه
شعراء الشام في القرن الثالث (ادب)	» خليل مردم بك	٢٤ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب (طب)	الدكتور احمد عيسى	

—« سنة ١٩٢٦ »—

— فترة في المحاضرات بمناسبة الثورة الاخيرة —

سهل بن هارون في عهد الرشيد والمأمون (ادب)	السيد محمد كرد علي	٣ كانون الاول
تاريخ الزراعة في بلاد العالم العربي	الامير مصطفى الشهابي	١٧ منه
اليابان هل يعرفها العرب وبماذا كانوا يسمونها (جغرافية وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٣١ منه

—« سنة ١٩٢٧ »—

جزائر اليابان أهي واق الواق (تاريخ وجغرافية)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٤ كانون الثاني
كلمة عن اناتول فرانس (ادب)	السيد شفيق جبري	٢١ منه
ابو حيان التوحيدي «	« محمد كرد علي	١٨ شباط
الزواج الشرعي (فقه واجتماع)	« محمدعلي ظبيان (للسيدات)	٢٥ منه
« «	« « (للرجال)	
بحث في اسفار التوحيدي (ادب)	« محمد كرد علي	
البلاغة سبيل الوزارة وعمرو بن مسعدة وعصره الزاهي (ادب)	« «	١١ آذار
رحلة الى حلب والشام منذ مئتي عام (تاريخ وادب ونقد)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٨ منه
الكتب والمكاتب في الشام »	السيد محمد كرد علي	
فضل علماء المشرقيات على الحضارة العربية »	»	٢٥ آذار
تركة السلف وتفريط الخلف (تاريخ) »	»	٨ نيسان

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
عمر بن عبد العزيز (تاريخ واجتماع)	السيد عارف النكدي	٢٢ نيسان
تتمة محاضرة عمر بن عبد العزيز	» عارف النكدي	١٣ أيار
موضوع اخلاقي ادبي (ادب)	السيدة خيرية ريس (للسيدات)	٢١ منه
حمانا الله من الجهل (اجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي »	٢٣ حزيران
درس في الهجرة النبوية (تاريخ واخلاق »	» »	٣ تموز
الطب العربي في الشام (تاريخ)	الدكتور اسعد الحكيم	٧ تشرين الاول
السوريون في البرازيل (تاريخ واقتصاد)	السيد موسى كريم	١٩ منه
الاوقاف وماضيها ومستقبلها (اجتماع وتاريخ)	» محمد كرد علي	٢٨ منه
المرأة العراقية (اخلاق)	» جميل بيهم	١١ تشرين الثاني
محاضرة في اللغة (ادب)	الشيخ ابراهيم المنذر	١٨ منه
أديرة الشام وكنائسها (تاريخ وادب)	السيد محمد كرد علي	٢٦ منه
حياة اللغة العربية (ادب)	الدكتور مرشد خاطر	٣ كانون الاول
كيف يستفاد من التاريخ بمناسبة أديار الشام (ادب وتاريخ)	السيد محمد كرد علي	٩ منه
ابن خلدون في المدرسة العادلية الكبرى (تاريخ وادب واجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٦ منه
تتمة ابن خلدون في المدرسة العادلية الكبرى	» »	٢٣ منه

—« سنة ١٩٢٨ »—

بحيرة سانا او معضلة النيل (تاريخ)	السيد عبد الله رعد	١ كانون الثاني
تقرير باعمال المجمع العلمي العربي خلال السنين الثلاث الماضية	» محمد كرد علي	١٣ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
تعاليم العلامة الشيخ طاهر الجزائري وحياته وعبقريته (ادب وتاريخ)	السيد محمد كرد علي	٢٠ كانون الثاني
حياة العلامة الشيخ طاهر الجزائري العلمية وآثاره ومؤلفاته (ادب وتاريخ)	« «	٢٦ منه
أهم ادوائنا الاقتصادية (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٣ شباط
شاعر النيل حافظ ابراهيم وشعره الاجتماعي (ادب)	السيد محمد كرد علي	١٠ منه
حياة الالفاظ «	« شفيق جبري	١٧ منه
دمشق في المرآتين (تاريخ وادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٢٤ منه
تتمة دمشق في المرآتين	« «	٢ آذار
بين دمشق وطهران (رحلة ووصف الشعوب)	السيد فخري البارودي	٩ منه
تتمة بين دمشق وطهران	« «	١٦ منه
محاضرة طبية في الخصاء (طب وتاريخ)	الدكتور يوسف عرقتنجي	٦ نيسان
مناظرة العلماء في مجالس الخلفاء والامراء (علم وتاريخ وادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٣ منه
امثال العرب مرآة اخلاقهم (لغة وادب)	« «	٢٠ منه
علم الروحانيات الحديث (فلسفة وعلم الروح)	« مأمون الارزنجاني	١١ أيار
مضار الخمور (ادب واجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي للسيدات	٢١ حزيران
بين الشرق والغرب (وصف الشعوب)	السيد محمد كرد علي	٢٦ تشرين الاول
الفرق بين التربيتين الشرقية والغربية «	« (للسيدات)	٢ تشرين الثاني
وليمة ابن واسانة (تاريخ وادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	«
تتمة وليمة ابن واسانة «	« «	٩ منه
المرأة في أمثال العرب «	« « (للسيدات)	٩ منه
أهم ادوائنا الاقتصادية (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	١٥ منه

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
جوامعنا ومساجدنا (تاريخ)	السيد محمد كرد علي	٣٠ تشرين الثاني
مدارسنا القديمة والحديثة «	« «	٧ كانون الاول
عبد الحميد الكاتب (ادب)	« «	١٤ منه
تحليل حياة عبد الحميد الكاتب من رسائله (ادب)	« «	٢١ منه
—« سنة ١٩٢٩ »—		
حديث أم زرع (ادب ولغة)	الشيخ عبد القادر المغربي	١١ كانون الثاني
عادات الحضر والبدو (اجتماع)	السيد محمد كرد علي	٢٥ منه
شعوب سورية وآثارها القديمة (تاريخ)	الامير جعفر الحسني	٩ شباط
ما جد من الصناعات الوطنية (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٢٢ منه
الاندلس عبرة وذكرى (تاريخ)	السيد عارف النكدي	٣ آذار
أئمة الاندلس ... «	« «	٢٢ منه
الفتوة والفتيان (تاريخ واجتماع)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٩ نيسان
فتيان العصور الوسطى «	« «	٣ أيار
التبغ وحصره واستيفاء رسومه (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٣١ منه
أم تسود وأمم تبيد (تاريخ)	السيد نقولا حداد	١٠ حزيران
الاسلام والسودان الغربي والاوسط (تاريخ)	السيد عمر كحالة	٢٠ منه
الرازي وعبده الألفي (تاريخ وطب)	الدكتور حريز	٩ تشرين الاول
أسامة بن منقذ (تاريخ)	الشيخ طاهر النعساني	١٧ منه
منافع الخمور ومضارها (صحة واجتماع)	الدكتور اسعد الحكيم	٢٥ منه
الكتب والتأليف في الاسلام (اجتماع وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٨ تشرين الثاني
تربية الطفل (تربية)	السيدة عزيزة الحشيمي (للسيدات)	٢٢ منه
موضوع ادبي (ادب)	الشيخ عبد القادر المغربي	٤ كانون الاول

« عنوان المحاضرة »	« اسم المحاضر »	« تاريخ القاء المحاضرة »
ملوك الطوائف في الاندلس (تاريخ)	السيد عارف النكدي	٢٣ كانون الاول
—« سنة ١٩٣٠ »—		
الاخبار والاخباريون في الاسلام (ادب وتاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	١٤ كانون الثاني
الشعر الخالد والمجد التالد (ادب)	الشيخ عبد القادر المبارك	٧ شباط
رحلة الى دير الزور والجزيرة (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٢١ آذار
مضار المسكرات النفسية والاجتماعية (صحة)	الدكتور اسعد الحكيم	
باب الجابية (تاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٤ نيسان
تتمة باب الجابية «	« «	١٩ منه
الولايات المتحدة الاوربية (اجتماع)	السيد عارف النكدي	٢ أيار
القضاء عند عرب البادية «	« عبد الله رعد	٢٣ منه
المقارنة بين المعري والخيام (ادب)	« احمد حامد الصراف	٦ حزيران
الشرع الدولي في الاسلام (تاريخ واجتماع)	السيد نجيب الارمنازي	١٣ منه
حقائق علمية عن المرأة (اجتماع)	« عمر كحالة	٢٠ منه
اللغة العربية وذخائرها الادبية قديماً وحديثاً (ادب)	السيد خليل مطران	١٨ ايلول
فورونوف والمجتمع البشري (صحة)	الدكتور مرشد خاطر	٧ تشرين الاول
أهم موارد الثروة في بلاد الشام (اقتصاد)	الامير مصطفى الشهابي	٢١ تشرين الثاني
تحت القلعة (تاريخ)	الشيخ عبد القادر المغربي	٥ كانون الاول
تتمة تحت القلعة «	« «	٢٦ منه

آراء المفكرين
— في المجمع العلمي —

—«*»—

قال الاستاذ بونور مستشار المعارف في المفوضية العليا من خطاب له ألقاه في الجامعة السورية : أنشئت في دمشق الى جانب مدارسها العالية مدرستان أجيء على ذكرهما باختصار ، فالأخيرة منهما هي مدرسة الأدب العليا التي ولدت فكرة انشائها في المجمع العلمي العربي هذا الحارس الأمين على تقاليد اللغة ، هذا الوصي العالم الساهر على ابقاء وسائط التعبير الخاصة بالشعب العربي . يقول رئيس المجمع العلمي اللوذعي قولاً بعيد النظر في تقريره الرابع عن أعمال المجمع في السنوات الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين والسابعة والعشرين بعد التسعمائة والالف وكان من أعظم أماني المجمع في السنين الخالية انشاء كلية للآداب ... وذلك لعلمه باحتياج الآداب العربية الى ان تخرج فيها طبقة مختارة تحسن الكتابة والخطابة بلغتها وتسير في التأليف والترجمة وتعاطي الامور العلمية وادارة الاعمال على النظام الغربي وقد قيض لمطالب هذه الأمنية ان يحققها بنفسه . فالى رئيس المجمع العلمي هذا العالم العامل والمؤرخ السوري الطائر الصيت يعود الفضل في انشاء مدرسة الادب العليا وهذه المدرسة التي نشأت في أحضان المجمع العلمي وضمت الى الجامعة السورية ، ستلقن طلابها آداب اللغة وتهذيب الانشاء ونقاوة التعبير متبعة خطة المجمع الذي أنشأها ، غير انها ستكون ايضاً أداة للثقافة العقلية العامة ورابطة تربط بها أعمالها بتطور الأخلاق والذوق والفكر البشري لانها لهذه الغاية أنشئت ايضاً ، وقد بدأت هذه المدرسة صغيرة وسترتقي سلم التقدم درجة درجة حتى تستحق اخيراً ان تسمى معهد الادب العالي . ولست أشك ابداً ان هذا المعهد الحديث

المهد سيكون بفضل أساتذتهـا الدائمي الصيت اللامعين خير خلف لمدارس البصرة والكوفة التي جعلت القواعد العربية درساً من أدق الدروس وأ كلها ٠

جاء في مجلة المقتطف : للمجمع العلمي العربي فضل على النـاطقين بالضاد لا تزيده الايام الا ذيوعاً ، وقد عودنا اعضاؤه الأفاضل الجد والمثابرة على إحياء الآثار الادبية قديمها وحديثها وبعث الشخصيات العربية البكرة من مرقدها بعد ان جر عليها الزمن ثوب النسيان ٠

وقالت جريدة العهد الجديد من مقالة : أهدى اليـنـا الاستاذ العلامة محمدالفندي كرد علي نسخة من التقرير الرابع باعمال المجمع العلمي العربي الذي يرأسه فيحاضرة بلاد الشـام ، ونحن قبل كل شيء من المعجبين بالفكرة الجليلة التي حملت الحكومة السورية العربية على التفكير بانشاء المجمع المذكور لما يمكن ان يؤديه من الخدم المشكورة لفائدة اللغة وآدابها وتاريخ بلاد الشام قبل كل شيء آخر ٠ واذا كنا لا نطمع بان يكون المجمع المذكور صورة عن المجامع المعروفة في اوربا فلان العناصر القوية التي أساغت العلوم والفنون على أنواعهـا وهضمتها لا تزال سورية فقيرة بها فقراً يبدو ظاهراً للعيان ويحول دون طمعنا بان يكون مجمعنا قائماً بالغـاية التي توجد لها المجامع عادة ، ولكن هذا كله لايمنعنا عن التهليل لهذا العمل الذي يعدّ نواة صـالحة اذا تعهدتها الأيدي بالعناية اللازمة وتوفرت لها العناصر التي تغذيها وتمدها بالوسائل أثمرت ثمرها المرجو ٠ ذلك هو رأينا في المجمع العلمي فنحن ننظر اليه من ناحيته المشرقة النيرة غير ناسين ما يقف في طريقه من عثرات وعراقيل نرجو ان تزول ، واذا نحن قايسنا الأعمال الأولية التي قام بها المجمع والتي تدعو الى الشكر والاعجاب بالمجهود الطيب المبذول لنموه وازدياده ، الفينا انه سائر في الطريق الذي شرع له ، وانه لابد بالغ الغـاية المتوخاة من تأسيسه ، واذا شكرنا القـائمين بهذا العمل المشكور ، فالشكر عام يتوزعه الاعضاء كل حسب مجهوده واثره فيه ٠

الجاحظ (١)

— تمهيد —

—*—

هل عليّ من حرج وقد قطعنا السنة الاولى واستقبلنا السنة الثانية بأحسن ماتستقبل به دراسة فن يروّض العقل و يهذّب العاطفة و يصفّي الذوق ويرقّق الشعور . هل عليّ من حرج ان افكرت في نتائج اول عمل نبت في أفياء مدرستنا هذه قبل ان أشرع في العمل الثاني وهو الكلام على الجاحظ .

لقد فرغت من كتابي (المتنبي) ودفعته الى الجمهور وربما لم يخطر ببالي طبعه وانما طبعته عرَضاً على غير عزم فلما أهديته الى طائفة من الاخوان وأهل الفضل في الشام ولبنان وفلسطين ومصر والعراق والحجاز لم يقع في خلدي أن أتوقع الآثار التي تركها في آفاق الأدباء سواء أكانت هذه الآثار حسنة أم كانت غير حسنة ، اما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

ولكني لم أتملص من النظر في هذه الآثار ولست ارى حاجة الى إزعاجكم بالكلام الذي تكلمه الفضلاء على هذا الكتاب وانما أحب ان أشير الى هذا الكلام إشارة لانه يفصح عن روح العصر فقد أجمع الذين عرضوا على التمييز كتابي على انه قد أدخل على الأدب اساليب حديثة .

لا يسعني في مثل هذا المقام الا ان أشكر لهذا الفريق المستنير حسن ظنه وجميل اعتقاده ، فلئن دلت شهادته على مبلغ فضله فلقد دلّت على مبلغ كرم أخلاقه .

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

الحاجة الى الأساليب الحديثة في الأدب مشتدة في عصرنا هذا فكأنما الأسماع قد مجّت ماتردّد من سنين طويلة وكأنما القلوب قد لفظت ما تمضغ .

على اننا لو نظرنا في أدب العرب لتبين لنا ان النفوس في كل عصر من عصور هذا الأدب كانت تتطلع الى الاساليب الجديدة سواء أكانت هذه الأساليب في اللغة نفسها ام في الشعر ام في النقد الادبي ام في الانشاء ام في غير ذلك من مذاهب الفن فاللغة ذاتها لم تكن الا سلسلة تتنقل حلقاتها في كل عصر من العصور من شكل الى شكل وكذلك الشعر والنقد واضرابها ، وقد يطول بنا الكلام على هذه الأطوار كلها وانما أضرب لكم أمثالاً يسيرة على سبيل التوضيح .

فلننتقل الى العصر الجاهلي ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا وجيداء وتامة العنق حتى قال : بعيدة مهوى القرط . وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، يسبق الظلام وامثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الاوابد هيكل .

من هذا يتبين لكم ولو على سبيل الايجاز ان العصر الجاهلي لم يخل من المجددين .

واذا انحدرنا الى صدر الاسلام تحقق عندنا ان النفوس قد تشوّفت الى أسلوب حديث في الشعر غير الأسلوب الذي كان يتبعه شعراء الجاهلية وهذا التشوف يدلنا عن طور جديد فلما أنشد جرير قول عمر بن ابي ربيعة :

سائلا الربع بالبلي وقولا هجت شوقاً لي الغداة طويلا
اين حي حلوك اذ انت محفوف بهم آهل اراك جميلا
قال ساروا فأمعنوا فاستقلوا وبرغمي لو استطعت رحيلا
سئمونا وما سئمنا مقاماً واحبوا دماثة وسهولا

قال : ان هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشي . فجرير وامثاله كانوا يريدون ان يسمعوا اشياء لم تتعودها اسماعهم .

ولم يخل العصر العباسي من المجددين ومن الراغبين في التجديد ، ولما سئل الاصمعي عن بشار ومروان بن ابي حفصة ايهما أشعر ، قال : بشار ، فسئل عن السبب في ذلك فقال : لان مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان

في عصره ، و بشار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل .

فرأي الاصمعي في بشار يشبه رأي جرير في عمر بن ابي ربيعة فالنفوس قد ازداد تطلعها الى نواح جديدة في الشعر .

وكان ابو العباس الناشي يقول : كان بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي .

هذه أمثال قليلة يتجلى لكم من ذكرها ميل النفوس في كل عصر من العصور الى التجديد وليست غايتي ان أتكلم على طبيعة هذا التجديد وعلى عوامله وانما الغاية كما قلت لكم ضرب الامثال حتى تعلموا ان عصورنا الادبية لم تخل من طوابع التجديد . فلسنا نعجب من ان يكون روح عصرنا هذا مطبوعاً باشباه هذه الطوابع .

وكما كان الشعر ينتقل في كل عصر من العصور من طور الى طور فكذلك اللغة فانها لم تثبت على حال من احوالها لا في جاهليتها ولا في اسلاميتها ولا في عباسيتها . فلنضرب مثلاً لذلك ، في الجاهلية اسماء أطلقت على مسميات ثم ماتت هذه الاسماء وولدت بعدها اسماء غيرها عفّت على ماقبلها ، من هذا القبيل ماقاله صاحب الجمهرة (١) :

اسماء الايام في الجاهلية : السبت شِيار ، والاحد اوّل ، والاثنين أهون وأوهد ، والثلاثاء جُبار ، والاربعاء دُبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عَرُوبة .

واسماء الشهور في الجاهلية : المؤتمر وهو المحرّم وصفر وهو ناجر وربيع الاول وهو خَوّان وربيع الآخر وهو وُبصان وجمادى الاولى الحنين وجمادى الآخرة رُنَّى ورجب الأصم وشعبان عاذِل ورمضان ناتِق وشوال وَعْل وذوالقعدة وَرْنة وذوالحجة بُرَك .

هذا مثل الاسماء التي عاشت ثم ماتت فلنضرب مثلاً للاسماء التي كانت تدل على معنى خاص في عصر من العصور ثم جاء عصر فنقلها عن معناها الاول الى معنى آخر من هذا القبيل ما قاله ابن فارس في فقه اللغة (٢) :

كانت العرب في جاهليتها على ارث من ارث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم

(١) المزهر : الجزء الاول الصفحة ١٠٨ .

(٢) المزهر : الجزء الاول الصفحة ١٤١ .

وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالاسلام حالت احوال ونسخت ديانات وابطلت امور ونقلت من اللغة الفاظ عن مواضع الى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفى الآخر الاول ، فكان مما جاء في الاسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وان العرب انما عرفت المؤمن من الأمان والايمان وهو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط واوصافاً بها سمي المؤمن بالاطلاق مؤمناً ، وكذلك الاسلام والمسلم انما عرفت منه اسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر ، فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا غير ما اظهروه وكان الاصل من نافقاء اليربوع ، ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرُّطَبة اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بان الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى .

والشواهد على الالفاظ الاسلامية كثيرة فمن شاء التوسع في معرفتها فليرجع الى كتب اللغة .

فأنتم تدركون من هذا ان اللغة سواء أفي الجاهلية ام في الاسلام كانت تنبسط من طور الى طور ، ولو خلصتم الى العصر العباسي لأحطتم علماً بمقادير الألفاظ التي نبتت على جذع اللغة العربية ولم تكن من قبل على هذا الجذع .

اذا عرضنا اللغة في اي عصر من عصورها وجدنا انها يتنازعها حزبان من ابنائها : حزب يحاول ابقاءها على حالتها وحزب يذهب بها مذهباً جديداً .

فالطائفة التي تحرص على ابقاء اللغة في حالة ثابتة دون شيء من التبديل والتغيير تحتج بحجج شتى منها : تعلقهــا بمذاهب حضارتها وحرصها على تقاليدها واعتداؤها بمحافظ اولادها ورغبتها الغريزية في ان يكون لها لغة مصطفاة ثم اذا تعمقنا في البحث عن الاسباب التي من اجلها يحافظ المحافظون على لغتهم وجدنا ان لكتب الدين تأثيراً عظيماً كالتوراة والقرآن واذا جاوزنا هذه الناحية الى ناحية أبعد تجلت لنا شدة استمساك المحافظين بلغتهم بسبب الكتب الأدبية التي اولعوا بهـا لجمالها وحسنها فهذه هي اعظم الاسباب التي تدفع المحافظين الى التمسك بمحافظتهم فهم يريدون صفاء اللغة وقد تجمع هذه الاسباب كلها كلة واحدة وهي ثقافة الفكر .

والحزب الآخر اي الحزب الذي يذهب باللغات مذهباً جديداً فانه يتوسل الى ذلك بثلاث وسائل : اما بقلب اللفظ واما بقلب الصرف والنحو واما بقلب المفردات ، اي

لا أشغلكم بالبحث عن تغيير اللفظ وتغيير الصرف والنحو وانما اذكر لكم قلب المفردات فان الامة تكتسب كل يوم اموراً وافكاراً حديثة وانماطاً في الحس والفهم جديدة فلا بدّ لها من اسماء جديدة لمسميات جديدة ، وهذه الاسماء تؤدي في الاغلب الى انقراض كلمات لان الافكار الحديثة والألفاظ الدالة عليها تعفّي على آثار الألفاظ القديمة [1] .

وعلى ذكر الأسماء الجديدة التي تحتاج اليها الامة لاطلاقها على المسميات الجديدة رأيت ان أعرب لكم مقالاً وقع عليه نظري في جريدة الطان من سنين وهذا هو المقال :

اذا طرحتك النوى مطارحها فكتب لك ان تزور باريز استطعت ان تذوق حلاوة الدنيا وتشعر بنضارة الحياة ، ومن محاسن باريز الفتيات العاملات اللواتي ينصرفن في الصباح الى العمل انصراف النحل الى اجتناء الزهر ثم يفرغن من عملهن فيلهون ولا لهو العنادل على ملتف الأغصان . أطلق الفرنسيون على هذه الفتيات اسم (Midinettes) فالاسم مشتق من كلمة (Midi) ومعناها الظهيرة لانهن ينفلتن في الظهيرة كما انفلت الطيور من الأقفاص فيخرجن من المخازن والمعامل فيسرحن كما يسرح سرب المها ، فاذا سمعت أحاديثهن على الطريق فكأنك قد سمعت دويّ النحل فتراهن ذاهبات من الاوبرا الى ساحة (الفاندوم) ومن (المادلين) الى (الشانزاليزه) وترى الشوارع والمطاعم والمقاهي والملاهي مكتظة بهن فاذا رأيتهن رأيت الألوان على مختلفها وعرفت كيف تكون الابتسامات على الثغور وكيف تكون القبلات في الخواطر ، شعر قصير وشباب ناعم وقامة رشيقة وخلقة فتانة ، فهن نضارة باريز وغضارتها ولولاهن لما كان لباريز رونق وبهجة فكلمة (Midinette) العذبة ترد بطبيعتها على شق القلم وطرف اللسان ، ادخلها كبار الكتاب في رواياتهم فتأصلت في اللغة الا انها عرضت يوم الخميس الماضي على قاعة باريز الفتانة اي على الاكاديمية الفرنسية وليدة (ريشوليو) وكان لها امل ان تحتفي بها الاكاديمية لعذوبتها ونعومة صباها ولكن الاكاديمية لم تمهد لها سبيلاً في معجمها فقطبت في وجهها واطرحتها .

وقد أسف صاحب المقال الأسف كله على اطراح هذه الكلمة مبيناً انه ليس من

---

(1) رأي الاستاذ (دارمستتر) صاحب كتاب حياة الألفاظ .

شأن الاكاديمية قلب الألفاظ المصطلح عليها واحتقارها ، وانما مهمتها المحافظة على المصطلحات الكثيرة الدلالة . وقد أضاف الكاتب الى كلامه : ان من الواجب الاقتداء بالرب ومولبير في المسامحة والاستئناس بالمصطلحات المستفيضة في طبقات الشعب ثم ختم مقاله بما يلي :

« اللغة التي لا يزيد غناها قليلاً في كل يوم تفتقر وتنضب وقد كان كتابنا في عصر التجديد لا يجهلون ذلك فكانوا يفتشون عن أسلوب فيه حياة وخفة وله طعم ولون ويقتبسون استعاراتهم عن مصطلحات الصيادين وعن كلام امراء البحر وتعابير اصحاب المطابع فكانوا يجدون انه من الضروري ان ينشأ على الجذع اللغوي القديم طعم على شرط ان يكون هذا الطعم سهلاً دالاً على شيء قد ولده الاصطلاح ، فلِمَ لا نحذو حذوهم ؟

هذه حجج المحافظين والمجددين فلننظر في اعمال الحزبين فاذا عمل حزب من الحزبين عمله على حدة وأعرض عن الحزب الآخر فما ذا يحدث .

اذا انحصرت اللغة في ناحية واحدة سكنت حركتها ونضب معينها ولا ريب في ان الشعوب التي لبس لحضارتها تبديل تستطيع ان تحافظ على لغتها على وجه الدهر من دون ان يمس هذه اللغة شيء فاذا كان الفكر ثابتاً لا يتغير فاللفظ الذي يدل على هذا الفكر يثبت ولا يتغير ولكن اذا بلغ الحرص على التقاليد مبلغاً يمنع اللغة عن تتبع مذاهب الافكار والمعاني واستحكم التناقض بين افكار الامة وبين القوالب التي تفرغ فيها هذه الافكار نفدت مادة اللغة فكأت وهلكت ، واليكم مثلاً شهيراً في اللغة اللاتينية المدرسية اي لغة الكتاب الرومانيين وطبقات الناس العالية فان هذه اللغة امتنعت عن تتبع اللغة العامية في نموها وتشددت في المحافظة على أسلوب مقدس ، وفي آخر الامبراطورية هلكت وتركت المجال للغة العامية الحية القوية التي انفجرت من ينابيعها لغات شتى ولهجات مختلفة مستعدة للاستيلاء على الميراث الذي خلفته اللغة الفصحى .

واذا عمل الحزب الذي يذهب باللغة مذهباً جديداً عمله على حدة دون الاستعانة بمذهب المحافظين فان اللغة تقذف يومئذ مقاذف مختلفة فتتحول سريعاً فترة تتعاقب عليها عدة بطون فتصل الى حالة كثيراً ما تختلف عن الحالة السالفة حتى تكاد تكون لغة جديدة وأحياناً تتشعب الى طائفة من اللغات وهذه اللغات تتشعب ايضاً الى ما لا حد

له فقد قيل ان في جملة اللغات المتوحشة بطناً من الناس يشهد لغات تولد ثم تموت لتولد على شكل آخر الا ان هذا التغيير المستمر قد جاوز الحد حتى أصبح مخالفاً لاغراض اللغة وغايتها وأضاع على اللغة قسماً من فائدتها ومنفعتها طالما ان سيف بعض لغات المتوحشين لا يفهم الشيوخ معاني كلام الأحداث فان في هذا الامر شيئاً غير طبيعي يشبه سيف علم اللغات عجائب المخلوقات في علم التاريخ الطبيعي . ثم ما هو السبب في هذا التطور الذي لا نهاية له ، ان هو جهل المتوحشين الذين يتكلمون بهذه اللغات وضعف عقولهم لان اللغة تتأيد بالحضارة[1] .

بسطت لكم على سبيل الايجاز امثالاً تستدلون بها على اليسير من أطوار اللغة والشعر ومنها يتضح لكم ان الاسلام جاء بالفاظ لا عهد للجاهلية بها وان الشعر كان يصبغ بصباغ خاص على حسب ما يقتضيه روح العصر فلم يخل عصر من عصورنا من آثار التجديد فان للطبيعة وللاجتماع عوامل لا مندوحة لها عن ان تعمل في الأدب ومادته واذا كان للانقلاب الطبيعي وللتناحر على الحياة آثار في عالم المخلوقات الحية فان عالم الافكار وصورها لا يستطيع ان ينسلخ عن هذه الآثار فلسنا نعجب اذا قلت لكم من ان يكون التجديد انما هو روح العصر فقد وصلت الينا آثار لغات الغرب ووقفنا على هذه الآثار وقابلنا بين اساليب البحث في ادبنا وبين اساليب البحث في ادب الغرب فأدركنا نقصنا وعملنا على تتميم هذا النقص طالما انا قدرنا على الكمال ليس في هذا غضاضة علينا فان أدبنا بفضل الاساليب الحديثة في البحث والتنقيب سينكشف لنا الغطاء عن كثير من محاسنه لنتذوق منها ما لم نذق وانما الشأن في مجامع هذه الامور ان نحافظ على روح لغتنا وعلى عبقريتها وأريد بهذه المحافظة ان تكون العربية لغتنا في بحثنا وتنقيبنا دون ان تفسدها العجمة ، أفكان الجاحظ من المولعين بالتجديد ، أفحافظ في صور افكاره على عبقرية اللغة وعلى روحها .

هذا ما نسعى في الوصول الى معرفته في سنتنا هذه .

دمشق : في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٠

---

(١) رأي الاستاذ (دارمستتر) صاحب كتاب حياة الالفاظ .

اللغة العربية وخزائنها الادبية (1)

« قديماً وحديثاً »

أيها السادة

قد شرفني اجماع هؤلاء الأجلاء عماد هذا المجمع العلمي الجليل بادناء مكاني من مكانهم . واين انا من اولئك الذين تملأ الافق انوارهم وتعمر الشرق آثارهم . اين انا منهم لولا نظرة عطف من معالي رئيسهم العلامة الذي بعث في زمنه أشتات مفاخر وطنه ، فقلد العربية قلادة من المنن لا تقوم بثمن ، ولولا حسن استجابة من زملائه الفضلاء لدعائه الكريم في شأن صديقه القديم . فلهم فضل اول بما اولوني من فخر الانتخاب ، أعقبه فضل ثانٍ بما اتاحوا لي اليوم من حظ المثول لدى صفوة من شيوخ تباهي بهم الحاضرة الاموية سائر الحواضر ، ونخبة من فتيان ارى فيهم تباشير صبح جديد لسعادة الدولة السورية ورقيها الحسي والمعنوي الى الغاية التي تجدر ببلوغها أمة عظيمة كهذه الامة الكريمة .

قد سمعتم المعجب والمطرب من ذاك البيان الخلاّب الرائع الذي خصني به صديقي الاستاذ الكبير الشيخ عبدالقادر المغربي واخذتكم بلا شك في بسطه الجميل قوة فصاحته ، فهل ترك لي ذريعة وانا اتكلم بعده لأكون عندما اقرّ في نفوسكم من حسن الظن بي على انه اذا فاتني فيما ازجيه من البضاعة ان ابلغ ما أراد ابلاغي من عالي رأيكم فلي شفيع لا يخيب في رحابكم ، انى لضيفكم واني لجاركم وانتم خير من اكرم الضيف واعز الجار .

أثيرت في أخريات هذه السنين حركة عمد مثيروها الى احداث ريب في النفوس من جهة صلاح اللغة العربية الفصحى او كفايتها لمجاراة العصر في مقتضياته حتى الادبية

(1) محاضرة الاستاذ خليل بك مطران احد اعضاء المجمع العلمي العربي القاها في بهو الجامعة السورية في شهر ايلول سنة ١٩٣٠ بمناسبة انتخابه عضواً مؤازراً في المجمع .

منها • ويقيني انه اذا كان هناك قصور فهو منا وليس منها ، فلذلك بدا لي أن كلمات القيها من على هذا المنبر في اثبات ما اعتقده اعتقاداً راسخاً من صلاح لغتنا او كفايتها للابانة بسلامة وقوة وجمال عن انواع الاغراض الحديثة وخصوصاً مايتصل منها بالادب — تكون اخلق بان تسترعي لها اسماعكم • وقد توخيت لهذه الكلمات من طريق موافقتكم عليها — إن فازت بشرف هذه الموافقة — ان تصدر عن ندوتكم هذه درساً يجني منه شبابنا في مختلف الاقطار العربية فائدتين جليلتين : اولاهما ان يعرفوا ماوسائل لغتهم الفصحى وادواتها المتوافرة ومناجم مفاخرها • وثانيتهما ان يتبينوا ماتسومهم الرغبة في معرفتها وإجادتها من المطالعات على مايحول بينهم وبين استيفائها في الحالة الراهنة من المشاق التي نرجو ان تقل تدريجاً على يد هذا المجمع الجليل وسائر المعاهد الرسمية وغير الرسمية التي تنحو نحوه في الامم الناطقة بالضاد •

لم تخلق اللغة العربية من اصل جامد ليقضي عليها بالجمود ولم ترسم لها من بدء امرها دائرة ضيقة فيحظر على المجتهدين ان يتعدوها وقد نبه على ذلك أئمة من المتقدمين فقالوا ان اللغة تقع متلاحقة متتابعة ، فهي إذن تنمو بنمو حضارة اهلها وتتسع وتتشعب باتساع حاجاتهم وتشعبها • على ان نفي المشاركة في اصول اللغة اية كانت او في الفروع التي تستنبتها الدهور على تلك الاصول لايستطاع ، ونفي الأثر الذي تحدثه كل لغة في الاخرى بحكم الجوار او الفتح الحربي او الغلبة السلمية من فكرية واقتصادية لايستطاع ايضاً • ولكن كل ذلك لاينبغي ان يغير طابع اللغة ولا ان يعدل ذاتيتها او يمس جوهرها اذا رد الى حدود المقومات التي تفرق بينها وبين سواها كما تختلف الوجوه وتتمايز الشخوص •

تألفت لغتنا العربية في منشئها من لغات تقدمتها ومن مواضعات جمة أعارتها اياها لغات عاصرتها • حسبنا في الدلالة القاطعة عليها ما ورد من الفاظها في أفصح كتاب عربي فهي اي اللغة لم تكن وحياً ولا توقيفاً • كذلك المشاركة في المعاني واتجاهاتها واشتات المذاهب التي يذهبها الكتاب في طرائق ابرازها للناس لتقع مواقعها من نفوسهم تبعاً لاتساع الحضارة وضروب التأنق في العيش وتهيؤ الاذهان حيناً بعد حين لايثار خطة في الانشاء على خطة أخرى لاسبيل للارتياب فيها وحكمها في لغتنا حكمها في كل لغة عتيدة او عهيدة •

غير ان هذه المشاركة مهما تعددت مآتيها شيء وذاتية اللغة شيء آخر .
عناصر الجسم مما تشترك فيه الطبيعة كلها ولكنه بها يصح جسماً حياً له قوامه الخاص وبها يعيش عيشة تختلف بمفاعيلها عن عيشة كل جسم سواه .

اذا تقرر هذا فلنسرح الطرف من مشترف عال مارّين بمخلفات الاحقاب مروراً سريعاً لنتبين هل من محل للارتياب في ان اللغة العربية الفصحى تكفي حديثاً كما كفت قديماً لتجاري بأدبها الخاص ادب اية لغة سواها . ولعل أحسن ما يتأتى لنا به حصر هذا البحث وتضييق دائرته على قدر، هو ان يقع التفاهم بيننا على تعريف الاديب ، فمن هو الأديب ؟

هو الذي يحسن التعبير بالاصطلاحات المتواضع عليها في كل لغة عما يوحيه اليه عقله او تجيش به نوازعه واهواؤه او يقع عليها حسه ، مصوغاً في الفاظ فصيحة ، مفرغاً في قالب أصيل خالص ، والسر كل السر في احسانه الابانة ان يملك لغته فيصرفها في الأداء تصريف المتضلع منها المستبحر في فنونها ، البصير بمفرداتها ، الخبير بتراكيبها ، المتشبع بروحانيتها — ولكل لغة روحانيتها — الواسم بوسمها كل مادة يجري بها قلمه وكل سانحة صادرة عنه او طارئة عليه ، المجدد تبعاً لزمانه ومكانه ما تلقاه عن أئمتها وثقاتها في الصورة التي ينوعها كل زمان وكل مكان . المضيف اليها من ابتكاره اوابتداعه طرائف لا تعتل معها صحة طابعها ولا تمس بها جواهرها ولا مقوماتها .

فيما قدمناه نظرنا الى الاديب ولم نشرك معه الفيلسوف والرياضي والكيماوي فان المقصود في بحثنا انما هو الاديب المحض لا ننفي عنه أن يضرب بسهام في اشتات العلوم ولا ان يلم بكل فرع وفن مما يستكمل به وسائل التفكير ليتسنى له التعبير عن مختلف الاغراض الحادثة مع لزوم الحد الذي يرسمه الادب اللباب ويتأتى معه حسن النسج ولطف اختيار الاساليب لجلاء المدلولات . فان كان الاديب ماعرفنا وكان الميدان الذي يجول فيه لسانه وقلمه ما وصفنا فقد ثبت بالبداهة ان كل لغة مستكملة الوضع واضحة الأعلام قائمة التخوم راسخة القواعد مانعة للشرود والبلبلة صالحة لتكوين الأديب .

وتكوين الأديب له شرطان : احدهما حصوله على ملكة اللسان وثانيهما وجد انه في لغته من ضروب النماذج ما يفتق ذهنه ويعين قريحته على الابتكار ويتيح له مجاراة الفكر

في تحولاته المستمرة ، فني بقيني ان لغتنا العربية الفصحى تكفي كل الكفاية لتكوين الادب وفي قديمها وحديثها لمن أكب على المطالعة وتوفر على المدارسة مايستطيع به ان يعبر عن ضروب المقاصد مادق منها وماجل ، فان أوجز : فما اجتمع الكثير من المعاني في القليل من الكلام كما اجتمع في مقاطر أقلام الناطقين بالضاد ، وان أسهب : فلينظر كيف جرت الهاجات العذبة من يراع الجهابذة المسهبين جري السلسبيل من الينابيع بلا رنق ولا انفكاك ولا انقطاع واي مطلوب لحسن التشبيه وجمال الاستعارة أدنى الى التناول في لغة منه في لغتنا .

واي لغة قديمة اومولدة فيها بذاتها مافي لغتنا من الغناء بالاشتقاق و بابه فيهـا أوسع باب لواجيه عن حصافة واستقامة سجية .

غير ان الأديب بالمعنى الأشرف والأمثل ليس الذي يحـاكي غيره حكاية الصدى و يجري وراء سابقيـه جري التطريس بالاقدام ، بل هو الذي يستعين بما بين يديه على الابداء والخلق . شأنه شأن المصور الذي يتوفر على استكشاف خبايا الفن في المقاييس والملاءمات وسائر ماتوصل به المبرزون من متقدميه الى الاتقان المعلم ثم يجيل ريشته في اللوح ليبرز أنواراً وظلالاً ووجوهاً ومناظر على النحو الذي استصوبه بتقديره الخاص وآثره بحكم فكره الذاتي ، شأنه كذلك شأن الموسيقي يتقيد بقيود الاصول العامة لصناعته ولكنه يتخير بين آلاف الأجزاء المشتركة في الضروب ما يؤلف منه نغمه الخاص ، نغمه الذي لم يكن فيه ماسخاً صنع غيره أوآخذاً إخذه حذوك النعل بالنعل بل مفنناً مخترعاً .

أتيح لنا في لغتنا العربية مثل أعلى لانظير له فلنتخذه نبراساً لمطالعتنا هذه . العرب في الجاهلية قالوا الشعر فمامتد النفس في جيده الى أطول من المعلقات ، وقالوا النثر فمايوشك المتكلف منه ان يملأ صحائف كراس صغير على الشتات بين المعاني والاغراض فلما أراد الله ان يبدي للعـالمين آية من آيات قدرته أنزل كتابه المبين كتاباً عربياً .

ومم اتخذ مادته ؟ من أدوات تلك اللغة ، لم يخلق معجماً جديداً ولم يقض قضاء على السنن المتعارفة . بل أخرج من مأثور ماألفوه واصطلحوا عليه وتفاهموا به تلك المثاني والمثالث التي حيرت الألباب وملأت النفوس بالعجب العجاب . أنزلها من كلامهم واين منها كلامهم . ألزمها حدود لسانهم ومعانيها وراء كل حد . وهذا هو سر الانشاء وسحر الابداء .

أخرج القرآن المجيد من اللغة العربية الجاهلية ، لغة استقلّ بها فلم تجارِ ماقبلها وهيهات ان تتشبه بها محاسن الشعر او عيون النثر في الجاهلية ولم يجارها مابعدها في البلاغة والفصاحة لمكانها من الاعجاز ٠

ثم جاءت روائع الحديث معقبة من مكان ذات على ماهبط به الوحي ، ونور الوحي منحدر اليها كتحدر شعاع الشمس من قمم الجبال الشماء الى رؤوس الهضاب المتطامنة بجانبهـا فاتصلت به أسباب التـأصيل والتفريع ، واتسعت وتشعبت ذرائع التحويل والتوسيع ٠

لغة جديدة تدفقت اليها جداول الفصاحة القديمة من نواحيها المتعددة فاذا الحوض الذي أفضت اليه بحر عذب يهيء الري والغذاء للحدائق الفيحاء التي ازدهى بهـا الادب العربي وازدهر في ذلك العصر الكبير وفي سائر ماتلاه من العصور ٠

من هذه اللغة الجديدة يومئذ استعار الخلفاء الراشدون — وناهيك منهم بالامام علي — جمال بيانهم وجلال تبيينهم ٠ تكلموا بكلام هو من صميم مادة العربية لكنهم جاؤوا بمعان بديعة في صور شائقة غير مسبوقة ٠

فكانت هنيهة من الدهر سنوات معدودة تم فيها الانقلاب الاول والتحول الأعظم في لغة الضاد ٠ فاذا رجعت الى الكتاب على رأس مخلفاتهـا تحرثه حق حراثته واذا تقفيت بعده خطب الخلفاء الراشدين وأسفارهم متدبراً أساليبهـا جد التدبر فما تجد من شيء تريد الكتابة فيه الا وله مثال قل اوكثر طال او قصر تسترشد به وتهتدي بهديه فيما انت منه بسبيل ٠ وهنالك حصل التصرف العجيب في الخلق معان حديثة بالألفاظ القديمة على مااقتضاه التحول الديني والتصور الطارئ في مجالات الحياة ٠ ذلك البيان الذي اجتمعت فيه طرائف اللغة العربية ، وانتفت منه العنجهية والحوشية ٠ ونفحت فيـه المفردات والجمل بنفحات قدسية صالحة للمعاش والمعاد ٠ قد أطلع فجراً جديداً على البيان العربي في الحقبة التي تلت ظهور الاسلام الى ماناهز خمسة قرون ٠

وفي الضوء الساطع الذي أضاء ذلك الفجر به أمم الشرق أخرجت القرائح أعاجيبها عقلاً ونقلاً ، فقهاً وسياسةً ، وابدت السجايا في مختلف تلك الامم ضروب ز ينابيعهـا باللهجات الفصحى كما ابرزت الالباب كوامن قواها في استصلاح تلك اللهجات لكل شأن

من الشؤون العامة والخاصة نظماً وترسلاً . فكانت بجملتها وتفصيلها لغة عربية خالصة ولكنها لغة حقبتها .

تنبهت أذهان العالم الشرقي العربي والعالم الغربي العربي ايما تنبه للتعبير والتحرير على السنة الجديدة فأوجد النابهون منهم ما لم تسبق به الظنون مما يشتمل عليه الادب من الفنون ذهب كل مذهبه واتى مجماً مجرى السهل الممتنع على قلم عبد الله بن المقفع وصنوه عبد الحميد واندفعت خواطر الجاحظ في كل ما وصل اليه ذهنه من منظور ومحسوس ترسل أشعتها الى أغوار السرائر . ونقل الطبري الى تاريخه ذخائر معرفته باخبار الايام في أسلوب رشيق شائق واستفاض ابوالفرج الاصفهاني في أغانيه بما اتفق لديه اكباراً وفوفك تجاه البحر الزاخر وجاء بديع الزمان في ترسله وتمله بما لا يزال نسيج وحده . وجمع الحريري من مكنونات اللغة في مقاماته ما لا تحصيه المخيلة . واتى الثعالبي في يتيمة الدهر بما طبق اسمها على مسماها احسن تطبيق . وصاغ ابن خلكان سير الأعيان في قلائد من الجمان . ناهيك باحمد بن ابي طاهر في كتابه المنثور والمنظور . و بالعتبي في مغازي السلطان محمود بن سبكتكين . الى كثير غير اولئك من النوابغ الذين لا تنفسح لتعديد اسمائهم الدقائق المعدودة .

واما في قرض الشعر فهل أذكر لكم بعد المعلقات الجمهرات والمشوبات والمذهبات والمفضليات والأصمعيات وروائع بشار بن برد ومسلم بن الوليد وابي نواس ومروان بن ابي حفصة وابي الشيص ودعبل . ثم هل أذكر المتنبي في ابتكاره والبحتري في رقته وابا تمام في جزالته والمعري في حكمته وسمو فكره وسماحة فطرته والشريف الرضي في إفاضته المدهشة وابن الرومي ومهياراً في أساليبهما المشتملة على ماشاء الابداع من دقائق الوصف مع امتداد النفس وراء ما كان مألوفاً من صناعة السابقين .

بقي ان اشير بكلمة الى ما جاء به اهل الاندلس والمغرب فقد حفظوا البليغ والمأثور من كلام عرب الشرق أحسن حفظ وقوموا ملكاتهم على الاساليب الفصيحة المبينة ولكنهم أدخلوا في صياغتها ومحسناتها ماشاءته طبيعة بلادهم وما آثرته سجايا اهليها . فاذا قرأت منثورهم فكله وضاء زاهر رقيق متجاف مواطن الوحشية متساوق اللفظ والمعنى في شوط الجلاء على ماتراه في تصفحك المقدمة لابن خلدون والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفح الطيب

للمقري والإحاطة للسان الدين بن الخطيب وقلائد العقيان ومطمح الانفس للفتح بن خاقان . والمشرق والمغرب لابن سعيد واولاده . واذا قرأت منظومهم فقل ما شئت في عبقرية ابن هانئ الملقب بمتنبي الغرب وطلاوة ابن خفاجة ورقة ابن حمديس وسهولة ابن سهل . والابتكارات واللطائف التي لا تنافسها عقود الدرّ ولا قطرات الندى ولا نسمات الرياض في الموشحات وانفاريدها وزهرياتها وخمرياتها وفراقياتها بين جدّ ودعابة .

اولئك المتقدمون شرقاً وغرباً ممن أوردت اسماءهم او لم اوردها قد أتحفونا بلغة ذات اجهزة وافية ، وآلات متنوعة نهاية التنوع ، ليستخدمها فكر الأديب الاريب في التعبير عن الكليات مهما كبرت ، والجزئيات مهما صغرت ، بانقى ديباجة وأبدع وشي ، والطف ما يصل به اثر القلب الموحي ، الى أبعد طوايا القلب الذي يتلقى ذلك الوحي مطالعةً او سماعاً .

غير ان مناجم تلك الجواهر ومنابت هاتيك اللآلئ دفينة في بطون أسفار جمة ضخمة ، وهي فيها متباعدة المظنـات مفقودة الأعلام مبهمة الصوى لا يبلغنا اليها الا التنقيب عنها واعنات الروية وكدّ الذهن في تعرف اماكنها واستخراج نفائسها . علة للقصور لم يتلاف الى الآن القوّام على اللغة الا بعضها ، ولكن الأديب لا يكون أديباً الا وقد تجشم هذه الشقة وبذل ذلك الجهد وأصبح بالمواضع التي يصيب منها سداداً لحاجته ووفاء بغرضه عليماً بصيراً . ولن يكون على هذا بالاديب التام فما تلك إلا مرحلة بجهاده واجتهاده توصله الى تقويم لسانه وتمحيصه وابعاده عن مزلات الرطانة واللكنة والعجمة وتعرفه كيف يحسن الاقتداء بالسلف ليبدع في غير بدعة تتهدم بها تخوم لغته وتنفصم عرى عروبته .

هي الاولى من مرحلتين وهي اشقهما مطلباً وابعدهما غاية . اما الثانية فهي الاطلاع على ماحدث في البيان العربي بعد تلك الحقبة الكبرى اي من بدء زمن الانحطاط الطويل الى مستهل البعثة المتيدة الى نهاية ماوصلت اليه في هذه الايام .

أمرّ مروراً عاجلاً بحقبة الانحطاط التي لم تخل من مجيدين في النظم ان لم يبلغوا المتقدمين صفاء ديباجة ولا تفتق ذهن فقد أسلسوا من مقادة الغريب في الالفاظ والأساليب وأحدثوا طرائق خاصة لتسهيل ما صعب من ضروب التصرف في مختلفات

الأزمنة الاولى الى صورة حال جديدة · وفي مقدمة هؤلاء صفي الدين الحلي وابن النبيه وابن معتوق والابيوردي وابن العفيف التلمساني والبهاء زهير وابن الفارض وابن مطروح وابن نباتة · كذلك لم تخل تلك الحقبة من المجيدين في النثر كابن فضل الله العمري في مسالك الابصار والقلقشندي في صبح الاعشى والمقريزي في الخطط وشهاب الدين النويري في نهاية الأرب وابن الاثير الكاتب في الترسل · اما جمهرة الناثرين فكانوا من كتاب الدواوين وفي برهتهم هذه كان الاشتغال بالبديع آية احلال الحليات اللفظية محل المعاني ·

بعد هذه النظرة أفضي بكم الى عصرنا هذا لأتبين معكم بمثل لمح الطائر ما صار اليه اللسان العربي وما يستطيع المتأدب ان يستفيده منه ليستكمل عدة ادبه على النحو الذي يوافق حضارة الزمن ومتباينات مطالبه ·

بدئت البعثة الأدبية في مصر منذ عهد محمد علي وكانت العجمة والركاكة العامية المشبعة بخليط لا وصف له من الرطانات والكلمات المحرفة عن اصل مدلولاتها هي الاداة الغريبة التي يتفاهم بها القوم نطقاً وكتابة ·

بدئت النهضة والازهر مصدرها غير انها كانت مما يمت الى عهد الانحطاط بسبب ولوع اصحابها بتقليد البديعيين ولكنها كانت هبّة من سبات الجهل والخمول وحفزة الى غاية من العرفان والنباهة · وفي طليعة ارباب الاقلام يومئذ بمصر الشيخ حسن العطار ، الشيخ حسن قويدر ، محمد سيد احمد باشا ، رفاعة بك ، رجال مدرسة الالسن · ثم أعقبتها على الاثر وقفة لم تجاوز مدتها مدة عباس الاول وسعيد · فلما تولى اسماعيل استأنفت نشاطها واظهر من ظهر في مبادئها الشيخ محمد شهاب الدين شاعراً وناثراً على رأس سلسلة ينتظم الاستقراء فيها اسماء :

عبدالله فكري باشا ، علي مبارك باشا ، السيد علي الدرويش ، ابراهيم بك مرزوق ، محمد قني ، محمود صفوت الساعاتي ، ابي السعود سلامة ، النجاري ، الشيخ احمد عبدالرحيم ، الشيخ علي الليثي ، الشيخ علي ابي النصر ، عبد الخالق الزرقاني ، بين ناثرين وشعراء · بعض هؤلاء أدرك زمن توفيق وفي عهده تو بت النهضة بارزة بها اسماء :

شفيق منصور ، عبد الله نديم ، الشيخ حمزة فتح الله ، محمود واصف ، الشيخ احمد مفتاح ، احمد سمير ، حسن حسني الطويراني الخ الخ .

من مخلفات هؤلاء جانب ضاع ولكن جانباً منها ولعله اغلاها قيمة نجا بفضل الله ، على ان الروح التي صدرت عنها تلك الحركة ما عتمت ان أبدت في سماء البيان كوكبين من كواكب الاقدار الكبرى هما محمود سامي باشا البارودي شاعراً ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ناثراً . ثم اخذت سماء ذلك البيان تزدان بالنجم تلو النجم في نظام سأذكر من رجاله لكم الذين استأثرت بهم رحمة الله ، وادع ذكر الاحياء مدّ الله في آجالهم لانكم تعرفونهم . فمن الشعراء :

اسماعيل صبري ، محمد حفني ناصف . ومن الكتاب عدا الشيخ محمد عبده :

ابراهيم اللقاني ، ابراهيم المويلحي وابنه محمد المويلحي ، الشيخ عبد الكريم سلمان ، مصطفى نجيب ، الشيخ علي يوسف ، قاسم امين ، محمد فتحي زغلول ، الشيخ المهدي ، مصطفى كامل ، الشيخ المنفلوطي ، الشيخ الخضري ، امين الرافعي ، سعد زغلول هذا في مصر .

واما في الشام ولبنان ونهضتها متصلة منذ الساعة الاولى بنهضة مصر وكتب الفريقين متداولة بين البلادين فقد برز كتّاب وشعراء . اذكر منهم الذين توفاهم الله ولهم بقايا ادبية يرجع اليها وهم :

محمد بن حسين الحلبي العطار ، كمال الدين العمادي الجراعي ، حسن جينه ، بطريرك الروم الكاثوليك مكسيموس مظلوم ، جبرائيل بن يوسف المخلع ، كمال الدين الغزي ، محمد عابدين صاحب الحاشية الشهيرة في الفقه ، عبد الغني الميداني ، الامير عبد القادر الحسني ، محمد نور الترمانيني واخوه احمد ، رزق الله حسون ، امين الجندي ، فرنسيس المراش ، اديب اسحق ، محمود الحمزاوي مفتي دمشق ، الشهاب احمد المنيني ، ابراهيم الحوراني ، ميخائيل مشاقة ، الشيخ طاهر الجزائري ، الشيخ محمد مبارك ، السيد محمد مرتضى ، الشيخ عبد الرزاق البيطار ، الشيخ جمال القاسمي ، السيد عبد الرحمن الكواكبي وشقيقه الشيخ مسعود ، الشيخ بشير الغزي ، رفيق العظم .

واما العراق فبجانب جماعة من السادة الالوسية فخت سلسلتهم بابي الثناء وتمت الى

عهد قريب بالسيد محمود شكري الالوسي ، يذكر من الشعراء والكتاب الذين انتقلوا الى اكرم جوار :

كاظم ورضا الازريان ، عبد الحميد الاطرقجي ، عمر رمضان ، صالح التميمي ، عبدالغفارالأخرس ، عبدالباقي العمري ، احمد عزت باشا العمري ، السيد حيدرالحلي حسين العشاري ، محمد الفلامي ، احمد الجسافي ، عبدالفتاح الشواف ، حسن الاصم ، حسن البزار ، السيد ابراهيم الطباطبائي ، السيد حسن الداودي ، السيد احمد المخزي واخوه احمد ، السيد محمد سعيد حبوبي الحسيني ، السيد جعفر الحلي .

واما في لبنان فقد برّز من الشعراء والادباء الذين لقوا ربهم : ناصيف اليازجي ونجلاه ابراهيم وخليل ، بطرس كرامة ، ابراهيم الأحدب ، يوسف الاسير ، قاسم ابو الحسن الكستي ، عمر الانسي ، احمد البربير ، عمر اليافي ، احمد فارس الشدياق ، مارون النقاش ، خليل الخوري ، البستانيون بطرس وسليم وسليمان وعبد الله ، نجيب وامين الحداد ، الياس صالح ، امين وشبلي الشميل ، بشاره زلزل ، يعقوب صروف ، اسكندر وداود عمون ، فرح انطون ، اسكندر شاهين ، نعوم لبكي ، جرجس همام ، نصيف المعلوف الخ

عددت اعلام النهضة الحديثة في الاقطار العربية الثلاثة بلا تدقيق في الترتيب الزمني لما فاتني في رحلتي من وسائل المراجعة واستغفر الله الى ذكرى الذين انسانيهم ضيق الوقت والاسراع في اعداد هذه الكلمات اسماءهم ففاتني على غير عمد .

ما ذا أسدى الى الادب العربي اولئك الادباء والشعراء ؟ أضافوا الى الذخائر القديمة ذخائر مما اوحت اليهم ايامهم . ألانوا اعواد اللغة من جفاف وآنسوا اوابدها من نفار . عدلوا شيئاً كثيراً من السبك العام للمواضيع في الاسلوب العام للكتابة . ادنوا قطوفاً لم تكن دانية . زادوا على المفردات طائفة مما دعت اليه الحاجات الجديدة . وسهلوا التحصيل وفتحوا ابواباً واسعة للتفكير .

صنعوا عظيماً ، ولكن ما بقي عمله اعظم .

وهنا كان ولا يزال محل اتهام اللغة بالتقصير في رأي الذين قابلوا بينها وبين سواها فيما يتعلق بالتعبير عن اغراض هذا الزمن وطريقة الاخذ به كأنهم يريدون الطفرة

والطفرة محال . اجل بقي علينا عمل أعظم مما عمل ليتسنى القرب بين ما هو كائن وما يجب ان يكون ولكن التبعة في التقصير هي علينا وليست على اللغة .

وفي وسع ادبائنا استكمال ما نقص في الاسماء ، وانتهاج النهج الذي يريدونه في تصوير الخيال ، والذهاب في المذاهب التي يؤثرونها لاداء معانيهم مع صحة اللغة وصيانة الاساليب الخالصة . وان تكوين الاديب على اي حال اريد ، لميسور بالمادة التي بين يديه من قديم الكتب العربية وحديثها . على انه مطلب شاق ومرمى بعيد . لكن الصعوبات أسهل والعقبات تذلل لدى مديم النظر ومدمن المطالعة ومصرف الفكر في وسائل الخلق والتجديد .

لقد كان يودي لو اضرب لكم الامثال فانها ادنى متناولاً وابلغ في استيفاء التبيين بيد ان الوقت لا يتسع في هذه المرة فليكن ما ذكرته مقدمة اجمالية موجزة ليستأنف هذا البحث من هو اقدر عليه مني و يسهب فيه بالقدر الذي يربحكم من ثمين الوقت ما اضاعه سابقوكم من المعاصرين في التماس المادة الكافية بين قديم الادب العربي وحديثه للوفاء بكل ما تقتضيه مطالب هذا الزمن من الانواع الشعرية والنثرية المتعددة .

واختم كلامي بالثناء عليكم لحسن استماعكم و بالرغبة الى الله ان يقيض من فتيان الاقطار العربية للغة الفصحى ادباء يحكمون المباني و يبتكرون المعاني . و يخرجون في الاغراض البيانية الحديثة كتباً تنفسح لها صدور الاندية في العالم بجانب اقوم الكتب التي اخرجها ادباء الغرب .

— ((**)) —

أدبنا القومي

—«١»—

نشرت جريدة المساء الغراء من أمهات صحف مصر تسع مقالات ممتعة لاديب كبير وباحث منقب نشرها متنكراً بتوقيع (باحث) فرأينا اقتباسها في هذه المجلة تعميماً لفوائدها الغزيرة ، وعسى ان تصح عزيمة احد الباحثين لينسج على منوالها في وصف أدبنا القومي في الشام :

تقدم اليَّ من لا يسعني الانحراف عن مرضاته بمعالجة هذا الموضوع . ولقد طالما وسوست لي بذلك نفسي ، وفي الحق ان هذا الموضوع يبلغ في بابه من الجلالة والدقة غاياتها . وفي الواقع انني لم أقع الى الآن على من أسبغ القول فيه وتناوله بالدرس من جميع أقطاره . وكان خيراً لو قامت جماعة من اهل العلم والبيان ، وهم بحمد الله في بلادنا كثير ، فتوفروا على درس (أدبنا القومي) وتحليله تحليلاً دقيقاً يردون فيه كل عنصر الى اصله ومنجمه ، ويشيرون في الغاية بالرأي فيه ، والوجه في تهذيبه اذا كان في حاجة الى التهذيب . ويخطون له الخطة التي ينبغي ان يسلكها حتى يبلغ كماله المقسوم ، وبعبارة أوضح حتى يؤدي حاجاتنا في هذا الباب ، ويوائينا بكل مطالبنا باعتبارنا أمة لها كيانها الخاص ولها سائر مشخصاتها الخاصة ، ولكن جمعية من العلماء وأعيان البيان لم تتألف لهذا الغرض الى الآن ولا أحسبها تتألف في يوم قريب ، فأصبح حقاً على الافراد ان ينبعثوا في هذا المطلب مهما أصابوا من عسر ومشقة ، ومهما تقاصرت عزائمهم عن حق الدرس والتحليل ، فلقد قال المتقدمون : (شيءٌ خير من لا شيءٌ) .

ثم لعلي اذ أتقدم لمعالجة هذا الموضوع ان ابعث له غيري ، ادع لمعالجته من هم أوسع به علماً ، وادق له فهماً ، فاذ لم يتم بذلك الغرض كله فسيتم منه صدر محمود فوق انه سيشير الى باقيه وجه السبيل .

على ان اخشى ما اخشاه الجدل ، فان خلقاً منا مع الأسف الكثير ، طبعوا على الجدل لا لشيء الا لحب الجدل . ولو قد راجعت اكثر الموضوعات العلمية والادبية التي طرحت على اهل الذكر عندنا ، بل كلها لرأيتها مدينة للجدل في انطوائها دون الانتهاء الى الرأي فيها . ولهذا فقد عولت على انه اذا نهض لي من يريد مجادلتي فانني لا انصرف عن موالاة بحثي حتى أفرغ منه ان شاء الله فان كان ممن يستحق ان يجادلوا ، بان كان من القاصدين الصادقين في البحث وتحري الحق والنفع فانني أنتبذ معه في الحوار موضعاً آخر حتى لا يعترض مجرى هذا الكلام . وليس معنى هذا اني لا أعدل الى الحق فيما يتبين لي انه الحق ، فما أكتب لأطلب الباطل ، انما أبغي الا يصرفني عن غايتي الشغل بما لا خير فيه من قيل وقال .

وسأحاول ما استطعت ان اجعل رسائلي على الاسلوب العلمي ، فأروض نفسي على الصبر ، وقلمي على الوداعة والاتئاد في البحث والاستقراء ، واستظهار الحقائق مجردة من كل عاطفة ، فللعواطف مواقف غير مباحث العلوم .

— تمهيد —

مما لا يعتريه الشك ان لكل أمة ادباً خاصاً بها ، هو الذي يدعى في العرف الحديث (بالادب القومي) . وذلك بديه لان لكل أمة أصلها وكيفية تكوينها ، ان كانت مكونة من عناصر متعددة ، وجوّها ، ومناظر بلادها ، وما اخذت به من عرف ، وما درجت عليه من اخلاق وعادات وتقاليد الخ . هذا فضلاً عن حظ كل أمة من العلم ، ومبلغها من الثقافة ، ونوع الثقافة التي تنتظم جملة ابنائها .

ومما لا نزاع فيه كذلك ان لكل هذا اثراً قوياً في حياة الامة وطريقة تفكيرها ، وتصورها للاشياء وتقديرها لها وحكمها عليها . كما ان لها اثراً قوياً في احساسها بالحسن والقبح وعواطفها في الحب والبغض ، وغير هذا مما يختلج في النفس من ضروب المشاعر ، وتتعلق به الأخيلة من وجوه الاحلام . فحق بهذا كله ان يكون لكل أمة أسلوب خاص بها لا يشاركها فيه غيرها سواء في وصف الأعيان البارزة ، او في تأدية الافكار والآراء او في تصوير العواطف الباطنة والاحساس الكامنة وآداب المناظرة والادلاء بالحجة وفي ألوان المفاكهات والمنادرات والتعابث بالمضحك من الكلام .

لكل أمة ادب — بديه ان يكون لكل أمة ادب خاص بها لا يشركها فيه سواها مادامت الغاية الجلى من الأدب تصوير مشاعر النفس ، ونفض ما يعتلج فيها من الوان العواطف والاحساس . ولقد عللنا هذا في التمهيد الذي قدمناه بين يدي هذا الكلام بان لكل أمة اصلها او كيفية تكوينها ، وجوّها ، ومناظر بلادها الخ الفروق التي تقوم بين كل أمة وغيرها من الأمم . وقلنا : ان لهذا اثراً قوياً في حياة الامة ، وأسلوب تفكيرها وتصورها للاشياء وتقديرها لها وحكمها عليها . كما ان لها اثراً قوياً في إحساسها بالحسن والقبح ، وعواطفها في الحب والبغض ، وغير هذا مما يعتلج في النفس من ضروب المشاعر ، وتتعلق به الاخيلة من وجوه الأحلام .

وبعد فان لساننا نحن المصريين انما ينمى الى العربية . وان ادبنا في الجملة انما ينتسب الى ادب العرب . يشاركنا في هذا كثير من الامم كأهل الشام والعراق وجزيرة العرب وبلاد المغرب ادناه واقصاه وبعض بلاد السودان وغير هؤلاء . كلنا محسوب في لسانه على العربية ، متعلق في ادبه بادب العرب . ومع هذا فان لكل أمة من هذه الامم ادباً خاصاً عليه طابعه وله كل مشخصاته ومقوماته التي تميزه عن سائر آداب الامم العربية الأخر . وذلك تقدير الطبيعة نفسها لا أثر فيه لسعي انسان وانك لا تقتضي سكان اهل البادية ان يعيشوا عيش اهل الحاضرة وان يفكروا على طريقتهم ، ويحاوروا في اسبابهم على أسلوبهم . كذلك لا تقتضي الطبيعة المشاركة في التفكير بين أمة تعتمد في عيشها على الحروب وشن الغارات وبين امة لا تتكئ في عيشها الا على الزراعة والصناعة والتجارة وهي لا تستطيع ان تعالج شأنها الا في ظل الأمن والسلام . وكذلك لا تستطيع ان تسوي في الاحساس بالاشياء ومبلغ الشعور بالمعاني وتحرك العواطف بين قوم يسكنون القحل و يعيشون في المحل ، وبين آخرين حبتهم الطبيعة بالخصب فنمت الزروع وحفلت الضروع ، وزكت الرياض فجادت الثمار ، وضحكت الازهار ، وغنت على الافنان كل ساجعة من الاطيار وهكذا . . .

بعد هذا لم يكن من حقنا على الطبيعة ولا على الواقع ان نقدر يوماً ان يكون لنا ولغيرنا وان اشتركنا في اصل اللسان ادب واحد حتى لو كانت بلادهم ادنى البلاد منا ،

وكان لاهليها اوثق الصلات بنا كأهل سوريا مثلاً .

وكيف يتهيأ هذا ونحن نسكن وادياً سهلاً مبسوطاً يشقه نهر عظيم هو كل مادة ما كنيه من انسان وحيوان في التروي وفي سقي الحرث . ثم نحن لنا تاريخنا واصلنا المتصل بقدماء المصريين من جهة و بالعرب الفاتحين ومن سقطوا الى بلادنا في مختلف العصور من جهة أخرى . ثم ان لنا آثارنا وعادياتنا الخاصة بنا . ثم ان لنا طبائعنا الموروثة واخلاقنا المأثورة وعاداتنا المرسومة في كل اسباب الحياة . بينا الطبيعة قد رفعت في سوريا الجبال السامقة تنبثق في صياصيها الينابيع وتنعطف فيها الجداول فتقلدها أبهى الحلي وتكسوها أزهى الحلل . وهنالك غير ذلك من مجالي الطبيعة ما لا تقع عليه عيوننا في هذه البلاد ، ثم ان لهؤلاء القوم كذلك اصلهم وتاريخهم وعاداتهم واخلاقهم وعادياتهم الموروثة عن سلفهم الخ .

فكيف بعد هذا نريد الطبيعة على ان تطبعنا برغم كل هذا الخلاف على غرار واحد في كيفية التصور وأسلوب التفكير والوان التشبيه واستثارة العواطف بحكم ما يعتري النفس و يطالعها من وجوه المعاني المختلفة ؟ اللهم اننا بهذا نسأل الطبيعة المستحيل .

ولا يذهب عنك ان الاختلاف في هذه الاسباب يدعو من غير شك الى الاختلاف في كيفية تأليف المعاني اولاً ، ثم في طريقة نظم الكلام و لاطراد باساليبه وتخير صيغه وتحري الفاظه .

ثم اعلم ان كثيراً من مفردات اللغة العربية قد انحرفت في زمن العرب انفسهم عن معانيها الاصلية واستقرت على معان أخر بحكم التجوز وطول الاستعمال حتى اذا اطلقت على معانيها الجديدة اعتبرت حقيقة ، واذا أطلقت على معانيها الاصلية اعتبرت مجازاً . وهذا وحده يدلك على شدة اثر العرف وطول الاستعمال في صرف الالفاظ عن معانيها التي طبعت لها الى معان أخرى بينها وبين تلك نسب قريب او بعيد .

اذا علمت هذا فاعلم كذلك ان الالفاظ كثيراً ما تتكيف وتتشكل في دلالتها على المعاني متأثرة في هذا ببيئة كل قوم وبعرفهم و بسائر اسبابهم . ولقد يكون اللفظ في نفسه جميلاً شريفاً فتراه يسمج في السمع ويخبث بطول التكنية به عن معنى كريه مقبوح ، كما يحلو اللفظ ويخف على السمع بطول اطلاقه لاي سبب على معنى كريه محبوب .

واذا كان لكل أمة رأيها في بابي التكنية والتجوز باللفظ وما اليهما سهل عليك ان تقدر ما يكون بين لغاها في الواقع من الخلاف الشديد برغم انها كلها تنمي الى اصل واحد وتستمد من ينبوع واحد .

لهذا ترى لكل أمة أسلوبها الخاص في تصوير المعاني وفي نظم الكلام وفي تخير الصيغ وفي انتقاء الالفاظ ، وانها لتختلف اختلافاً شديداً او يسيراً في شعرها وفي منثور كلامها وفي محاضراتها وفي اغانيها ، وفي الوان مفاكهاتها الخ ، حتى انك لتطلق بين يدي السوري أروع النكات المصرية وأبعثها على الضحك فتراه قد حملق فيك عيناه وظل مشدوهاً حائراً لايحس وجه العجب الذي نجر فاك بالضحك من ذلك الكلام ! وان الامر ليجري على العكس كذلك .

وابلغ من هذا انك ترى الأدب يختلف باختلاف النواحي في الامة الواحدة ، وان كانت هذه الآداب المختلفة تندرج كلها في ادب الامة العام او مايدعى (الادب القومي) ولسنا في هذا نذهب بك بعيداً فان لسكان القاهرة والاسكندرية مثلاً اغانيهم (من مذاهب وادوار وطقاطيق ومواليا) واحاجيهم (فوازير) ونكاتهم . ولاهل الصعيد أغانيهم وواواتهم . ولسكان الوجه البحري مواليهم ومطارحاتهم وكل ذلك يختلف بمعانيه والفاظه وطريقة صياغته خضوعاً لحكم البيئة وطوعاً لمطبوع الاخلاق ومأثور العادات . وليؤذن لنا ان نسمي هذا الادب (بالادب المحلي) . وهذه الآداب المحلية على اختلافها بقدر كبير او يسير انما تندرج كلها تحت الأدب المصري العام . وقل مثل هذا في كل بلاد تنطق العربية او تنطق غيرها من اللغات .

وقبل ان نغادر هذا الموضع يحسن بنا ، ونحن في معرض تحقيق علي ان نلفتك الى حقيقة واقعة وهي ان من الفروق التي تمتد بين آدابنا المحلية ان ادب اهل الصعيد على مافيه احياناً من رقة تكاد تشبه السحر ومن سمو معان اعله لم تتعلق بها أخيلة كثيرين من الشعراء ، فان هذا الادب تغلب عليه الفحولة والصلابة وسطوة الكلام حتى فيما يتصل منه بالتعشق والتنفس باحر الوله . اما ادب الوجه البحري فيغلب عليه على الجملة لين اللفظ وفتوره ورخاوة المعاني وتكسر النفس بما يلحقها من الوله على المعشوق والضراعة بكل ما تفعل الصبابة بطلب الوصال . اما ادب الحواضر الكبيرة فمزيج ملتق من هذا وذاك ، على انه

يمتاز احياناً عن الأدبين فضلاً عن براعة النكتة وتجويد الوان التندر بالتفحم في القول والابتذال في اسباب التعشق الى حد ايراد الداعر المهتوك من الكلام ·

وفي هذا المقام يحسن بنا ان ننبه الى خطإ شائع بين كثير من المتأدبين · ذلك انهم يظنون ان الادب محصور في الشعر وفي (النثر الفني) وهو الكلام الذي يجتمع الكاتب لصياغته وتجويد صنعته والتحليق بمعانيه حتى تجري مجرى التخيل ، والتماس الوان المحسنات له في مثل (المقامات) ورسائل المودّات والشفاعات والتهنئة والتعزية والعتاب والاستزارة والاستهداء ونحو ذلك · فان الادب في الواقع أوسع من ذلك القدر وأعم بكثير لانه أداة للترجمة عما يختلج في النفس من المشاعر ، ويعتلج فيها من ألوان العواطف كما انه أداة لتصوير المعاني المختلفة تصويراً يحفز النفس و يبعث فيها العجب ·

وعلى هذا فاننا اذا أدرجنا في أدبنا القومي الشعر والنثر الفني (ولنا بعد في هذا كلام) لحق علينا ان ندرج فيه الزجل والاغاني من (مذاهب وأدوار ومواليا بل وطقاطيق) والواوات وغيرها مما يجتمع المصري لنظمه وتنسيقه لانشاده او التغني به ، بل (النكتة) البلدية التي أحسب ان المصري قد انفرد بها من بين سكان العالم ·

هذا كله ينبغي ان يعتد به في حساب الادب القومي وتبيين حدوده والمكابرة في هذا مكابرة في الواقع ومكابرة في حقيقة الادب نفسه ·

بعد هذا كله لم يبق لك بد من التسليم لا بالواقع وحده وهو ان لنا ادباً خاصاً لا يشركنا ولا يجوز ان يشركنا فيه سوانا مهما استوثقت بيننا وبينه الصلات · ومن ذهب الى غير هذا ودعا اليه فهو اما غافل اومحارب لحكم الطبيعة والدعوة اليه على الحالين دعوة الى مسخ التصور وافساد الشعور وقتل العواطف والحيلولة بين ما يجول في النفس وما يجري به اللسان والقضاء على الادب كله قضاء خالداً على وجه الزمان ·

« باحث »

مطبوعات حديثة

البيان المُغرب

– في أخبار ملوك الاندلس والمغرب –

« لابي العباس ابن عذاري المراكشي – الجزء الثـالث – اعتنى بنشره »

« السيد (إ · لافي بروفنسال) طبع في مطبعة مارسيل ايسناس في مدينة »

« لوفين في البجيكا سنة ١٩٣٠ ص ٣٦٨ »

نشر العلامة دوزي الهولاندي الجزءين الاول والثاني من كتاب (البيان المغرب في أخبار المغرب) لابن عذاري المراكشي في مدينة ليدن سنة ١٨٤٨ – ١٨٤٩ وقدم الجزء الاول مقدمة جليلة بالفرنسية في ١٠٧ صفحات ذكر فيها الغرض من نشر كتاب ابن عذاري وتعرض لمواضع نافعة من تاريخ الاندلس ، وكان فيه الثبت المقدم في عصره · وقد اختلطت فيما نشر لابن عذاري قطع من نظم الجمان لابن القطان في الجزء الاول ، وأخرى من تاريخ عريب في الجزء الثـاني · اما الجزء الثالث الذي ظفر به الاستاذ بروفنسال في خزانة الاستاذ السيد محمد عبد الحي الكتاني بمدينـة فاس فهو في خبر لمتونة والموحدين والحفصيين والنصرية والمرينية الى عام ٦٦٧ ، والغالب ان ما نشره هو قطعة صالحة من الجزء الثالث ، لان الحوادث لم تتسلسل الى اكثر من سنة ٤٦٠ ه اي حوادث أعوام تفرق امر الجماعة وتوالي المتوثبين على الخلافة الأموية في الاندلس · وفي هذه الصحف المنشورة صحائف من المخازي والانحطاط ، او ضعف الوازعين الديني والدنيوي ، لم تسلم معها الاندلس قرنين آخرين الا بقيام دول فتية أنشها من بر العدوة اي من سواحل إفريقية فاستولت عليها ، وقاومت فيها ملوك اسبانيا والبرتقال أعواماً طويلة الى ان تأذن الله بانقراضها الاخير ·

وبالجملة فقد ذكر المؤلف (ص١٥٥) ما كان من تداول الولاة الامراء والثوار من حين الفتح الى خلافة عبد الرحمن الداخل ، ثم تداول الامراء الامويين من بعده الى دولة ابن ابي عامر وابنيه ، وذكر من ولي الخلافة بقرطبة في زمان الفتنة الى سنة اثنين وعشرين واربعمائة ، وهو حين خلع اهل قرطبة بني أمية اجمعين ، ثم ذكر ما كان من اخبار المتغلبين على بلاد الاندلس عقب هذه الفتنة المبيرة . وكل ذلك سلاسل من المظالم والحروب الاهلية المؤلمة .

ولقد مني هذا الكتاب بنقص بعض الكلمات او السطور او الصفحات في اجزائه الثلاثة . ومع هذا كان في ما انتشر منه فوائد يلتقطها الباحث في تاريخ الاندلس ، بل الباحث في تاريخ الادب ، لان معظم عبارات ابن عذاري ومن نقل عنهم من المؤرخين هي عبارة عن نموذجات راقية في الانشاء الاندلسي ، وبقدر ما بلغت المدنية عند الاندلسيين من الاستفاضة على نحو ما تراها في اكثر ممالك الغرب لعهدنا ، كانت المنازعات قائمة بين القائمين بالامر الى التي ليس بعدها . فقد نقل ابن عذاري في أخبار هذيل احد امرائهم انه كان « أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات وهو اول من بالغ الثمن بالاندلس في شراء القينات اشترى جارية ابن عبد الله المتطبب ، بعد ان أحجمت الملوك عنها لغلاء سومها بثلاثة آلاف دينار فملكها ، وكانت واحدة القيان في وقتها ، لا نظير لها في معناها ، لم يُر أخف روحاً منها ، ولا أملح حركة في جميع امورها » . « قال ابن حيان في تاريخه : لم يرَ في زمانها أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ، ولا ألين اعطافاً ، ولا أطيب صوتاً ، ولا أحسن غناءً ، ولا أجود كتابة ، ولا أجود خطاً ، ولا أبدع أدباً ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن في كتبها وغنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، الى المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح ، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان . وكانت محسنة في صناعة الثقاف والمجاولة بالتراس ، واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة ، لم يسمع لها في ذلك بنظير ولا مثل ولا عديل . ثم ان الامير هذيل اشترى كثيراً من الجواري الحسنات المشهورات بالتجويد طلبهن في كل جهة ، فكانت ستارته أحسن ستائر ملوك الاندلس ، وكان مع هذه الاوصاف كنفاً للقصاد ، ومنهلاً عذباً معيناً للوراد ، سهل المأخذ لم يزل على احسن حالاته ، الى ان أدركته منيتـه ، فات

بالسهولة سنة ست وثلاثين واربعمائة فكانت دولته ثلاثاً وثلاثين سنة كلها آمنة هادئة اه . » وأمة تخرج فيئة جمعت هذه الصفات من النبوغ ، تعد في أرقى درجات الحضارة ، وأمة تتناغى على هذه الصورة في المنافسة في اقتناء القيان يخلى منها كيانها ولو بعد جيل او أجيال .

هذا وللاستاذ الناشر الشكر على هذه التحفة لو خلت من غلطات كثيرة مطبعية وغيرها . اما جودة الطبع والفهارس التي وضعها المحرر ، وهو أستاذ كلية الادب في جامعة الجزائر ومدير معهد المباحث العالية المغربية برباط الفتح في المغرب الاقصى ، فشيء عودناه علماء المشرقيات كلها ، متى أرادوا نشر كتاب من كتب العرب .

محمد كرد علي

الديمقراطيون البلجيكيون

« سنة ١٧٨٩ »

تأليف السيدة سوزان تاسيه ص ٤٧٩ طبع في بروكسل

Suzane Tassier : Les démocrates belges de 1789. Publié par l.Académie royale de Belgique

هذا تاريخ الثورة التي قام بها سنة ١٧٨٩ ، القسم الاعظم من البلجيكيين ليتحرروا من رق النمسا ، وكانت بلادهم صارت اليها بحكم الوراثة ، فاغتنم الوطنيون البلجيكيون الاحوال السياسية في اوربا واميركا ، وكانت الثورات تهز العالم منذ سنة ١٧٧٤ بدأت بالولايات المتحدة الاميركية فحررت من نير انكلترا ، ثم في فرنسا فأنقذت نفسها من ظلم الملوك ثم في هولاندة . وكانت أفكار الثورة الافرنسية انتشرت في البلجيك بين اكثر الطبقات ، واشتد جوزيف الثاني في حكمه الاستبدادي ، وساعد الثائرين ان أغلقت الحكومة زهاء مئة وخمسين ديراً فانضم بعض رؤساء الدين الى الثائرين الذين دبروا أمرهم وقاموا بزعامة احد المحامين المشهورين واسمه (فونك) وبذل بعض الغيورين مالاً ، واقتنت الامة السلاح ، صنعته في أرضها كما صنعت الخراطيش ، وبدأوا ثورتهم

بثلاثة آلاف شاب دربهم على حمل السلاح احد قدماء قواد البلجيك في ارض مجاورة للبلاد الثائرة ، وثارت الامة كلها في يوم واحد وقبضوا على ضباط النمسا ، وفتحوا السبيل لجندها الى الهرب ، ورشوا بعضهم بالمال فكانت ثورة بلجيكا اشبه بثورة سلمية لم تتمكن معها النمسا من انجاد حاميتها في البلجيك لبعد المواصلات في ذاك العهد . ثم ساعدت فرنسا وانكلترا البلجيكيين على أمانيهم ، لان انكلترا لا تحب ان تكون سواحلها أمام سواحل دولة قوية ، وكذلك فرنسا لاتحب ان تجاور دولة مشاكسة .

استندت مؤلفة هذا الكتاب في تأليفها الى وثائق سياسية يصعب على كل باحث الوصول اليها ولذلك حاز عملها استحسان المجمع العلمي الملوكي في بلجيكا الذي نشكر له هديته النفيسة .

م . ك

مقاييس اللغة

« لابن فارس »

—*—

أول من فكر في وضع معجم لغوي على ترتيب يسهل معه تناول كلمات اللغة هو الامام الخليل بن احمد في كتابه الذي سماه (العين) . لكن وُجد في نسخ هذا الكتاب تخليط وخلل حمل الناس على الشك في نسبته اليه . حتى قام ابن دريد فوضع كتابه (الجمهرة) فمالوا اليها . وعوّلوا في الاستفادة عليها . ووُجد في علماء اللغة من ينافس ابن دريد في علمه . و ينال منه ومن كتابه . فكانت هذه المنافسة بينهم مغرية لهم على وضع معاجم أخر أتمّ وأ كمل من (الجمهرة) و (العين) . فألفوا (المُوعب) و (العُباب) و (الجامع) و(البارع) و (المُحكم) و (المُجمل) و (الصحاح) و (التهذيب) وغيرها . بحيث لم ينته القرن الرابع حتى أُرسل بعض الملوك الى الصاحب بن عباد يسأله القدوم عليه . فكتب معتذراً اليه : (أحتاج الى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي) غير ان السيوطي (حوالى الالف للهجرة) ندب هذه الكتب وتأسف على فقدها وقال : (ان الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد) فأين ذهب حمل الستة والخمسين جملاً ؟ ذهبت بها حروب التتار في مشرق بلاد الاسلام . وحروب الاسبانيول في غربها . وحروب الصليبيين في وسطها . وها أنا ذا الآن أقرأ كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ فأسمعه يوبخ (بلدوين الثالث) ملك القدس على غدره باهل أسامة وأولاده الذين أعطاهم الأمان في طريقهم من مصر الى دمشق . فلما وصلوا الى عكا أمر الملك بكسر البطسة[1] بالفؤوس وفتش النساء وسلب جميع ما في البطسة ولم يُبق لركابها الخمسين نفساً سوى خمسمائة دينار وصلوا بها الى

(١) البطسة نوع من السفن .

دمشق . فجمل الملك نور الدين الشهيد يهوّن الامر على أسامة . و يهنئه بسلامة أولاده ونسائه . فصبر أسامة على خسارة ثلاثين الف الدينار صبر الكرام . ثم قال : (الا ماذهب لي من الكتب فانها كانت اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت) .

وكان علماء اللغة يغوون في تصانيفهم مناحي مختلفة مابين مطوّل ومختصر . وعام في انواع اللغة . وخاص بنوع منها .

واكثر تصانيف اللغة تداولاً في الأيدي وأقربها تناولاً من الأذهان كتب المعاجم التي تسرد مفردات اللغة مرتبة ثم تذكر إزاء كل كلمة معناها . اما التصانيف الأخرى التي توضع في فلسفة اللغة او في بيان أسرارها وغوامضها او في نوع خاص من أنواعها ومباحثها كالكتاب الذي ألفه الأصمعي في الأجناس . وكتاب النوادر لابي زيد وكتاب الغريب لابي عبيد القاسم بن سلام وغيرها — فان أمثال هذه الكتب تنحصر فائدتها بعلماء اللغة المتبحرين فيها . المتوفرين على تقصي شواردها . ومن ثم تقل نسخها في الايدي . وتنقطع من الأسواق . ولا يكاد يوجد منها الا نسخ معدودة في دور الكتب العامة او الخاصة ببيوتات العلم .

ومن طرائف الابحاث اللغوية البحث المتعلق بتاريخ اللغة مذ كانت في مهد نشأتها حتى استوت على سوقها وتشعبت فروعها . و ينطوي في ذلك شرح خصائصها التي تمتاز بها على سائر اللغات والتنويه بالعلماء الذين توفروا على خدمتها بمختلف المصنفات .

هذا الفن هو الذي أحسن المعاصرون ترتيبه وتبويبه وسموه علم تاريخ آداب اللغة . والكتب التي ألفها علماؤنا فيه قليلة جداً : أشهرها في القديم (فهرست ابن النديم) وأشهرها في الحديث (مزهر السيوطي) .

ومن طريف مباحث اللغة البحث المتعلق بانساب اللغة وتولد كلماتها من أصل واحد . فالاصل الواحد بمثابة الأم والمشتقات المختلفات المعاني بمثابة السلالة فيتألف من المجموع أسرة واحدة هي (الاسرة اللغوية) ومنها تتكون اللغة كما تتكون الامة من أسرها .

هذا البحث من أدق مباحث اللغة . ولا يجيد فيه الا القليلون من علمائها بل لا يجيد فيه الا من تمكن من علمي الصرف والاشتقاق كما يُلمح مما قالوه في ترجمة (ابن جني) امام هذا

الفن — فن "السلالات اللغوية — قالوا (انه كان في التصريف إماماً لا يشق له غبار) .

وابن جني في الواقع ونفس الامر هو ابن بجدة هذا الفن . ولم يجر معه فيه الا ابن فارس أحد أئمة اللغة المشهورين وكانا في عصر واحد — عصر النهضة العربية الزاهر — عصر المتنبي والصاحب بن عباد — فقد توفي ابن جني سنة ٣٩٣ هـ وابن فارس سنة ٣٩٥ هـ وألف ابن جني في هذا الفن كتابه (الخصائص) كما ألف ابن فارس كتابه (مقاييس اللغة) بيد أن ابن جني يبحث في كتابه عن (الاسرة اللغوية) من جهة تولد ألفاظها وتشعب تراكيبها تصريفاً واشتقاقاً . إعراباً وبناءً .

أما ابن فارس في مقاييسه فقد جعل معاني الكلمات أساساً للبحث في تشعبها وتناسلها وتولد بعضها من بعض .

وهذان الامامان في المتقدمين كالمرحوم (احمد فارس الشدياق) في المتأخرين المعاصرين: فقد ألف احمد فارس كتاباً مهماً في تكوّن (الأسر اللغوية) سماه (سر الليال في القلب والابدال) حذا فيه حذو (احمد بن فارس) في مقاييسه حذو القذة بالقذة . فكانا فارسي هذا الميدان اسماً ولقباً . كما كانا فارسيه تجويداً في الموضوع وتهذيبا .

والكتابان (الخصائص) و (سر الليال) طُبعا . وتداولتهما ايدي الفضلاء . أما ثالثهما (مقاييس اللغة) فلم نر له نسخاً مخطوطة دع عنك المطبوعة . وان كان المرحوم (جورجي زيدان) قال لنا في كتابه تاريخ الآداب العربية (انه اليوم يطبع في مصر) لكننا لم نر أثراً لهذه الطبعة فلعلهم هموا ولم يفعلوا .

ومؤلف (المقاييس) احمد بن زكريا بن فارس الرازي من أئمة اللغة وكبار مؤلفيها . وكان الصاحب بن عباد يكرمه ويتلمذ له ويقول : « شيخنا ابو الحسين ممن رُزق حسن التصنيف . وقد أمن فيه من التصحيف » .

وترجم له ياقوت في معجمه (جزء٢ ص٦) وعدد له من المصنفات نحو خمسة وعشرين كتاباً أشهرها (المجمل) الذي قال في اوله « قد ذكرنا الواضح من كلام العرب والصحيح من دون الوحشي المستنكر » وقال في آخره مبيناً السبب في تسميته بالمجمل (قد توخيت فيه الاختصار . واقتصرت على ما صح عندي سماعاً . ومن كتاب صحيح النسب مشهور »

يعني انه لم يودع كتابه من كلمات اللغة الا كلمة سمعهـا من لغوي ثقة . او اقتبسها من كتاب ثقة .

اما كتابه (مقاييس اللغة) فقد كدنا نشك في ان يكون له لان بعض من كتب سيرته لم يذكر نسبة هذا الكتاب اليه : فابن خلكان مثلاً لم يذكره في جملة مصنفاته . والمرحوم (زيدان) لم يذكره ايضاً في جملتها وانما ذكره في محتويات مكتبة (آل كاشف الغطا) في النجف ولم ينسبه الى مؤلف ما وبعد سطر قال « ان من محتويات تلك المكتبة كتاب المجمل لابن فارس » فهذا يدل على انه كان يجهل مؤلف كتاب المقاييس .

وبينا كنا فى حيرة من امر هذا الكتاب اذا نسخة منه مصورة بالفوتوغراف تعرض على مجمعنا العلمي فتجددت لنـا الرغبة في زيادة الاستيثاق من امر نسبة هذا الكتاب الى (ابن فارس) فلم نلبث ان ظفرنا بنسبته الصريحة اليه فى كتاب (معجم الادباء) ليـاقوت فقد عدّه في جملة مؤلفاته وقال « انه كتاب جليل لم يصنف مثله » . وزادنا ايماناً بهذه النسبة ما ذكره السيوطي فى كتابه (المزهر) « جزء ١ ص ٢٨٦ طبعة الرافعي سنة ١٣٢٥ هـ) مذ تكلم على النحت ونقل فصلاً من كتاب (فقه اللغة) لابن فارس قد ختمه بقوله « وقد ذكرنا ذلك بوجوهه فى كتاب مقاييس اللغة » فلم تبق شبهة فى امر نسبة الكتاب اليه .

اما مخطوطات (المقاييس) فقد علمنا من الاستاذ (زيدان) ان منه نسخة في مكتبة (آل كاشف الغطاء) وعلمنا من احد الفضلاء ان في ايران ثلاث مخطوطات منه : واحدة فى مكتبة الشاه . واخرى في مكتبة نصيرالدولة احد وزراء ايران السابقين . والثالثة في طهران فى مكتبة مدرسة المروي . والمروي هذا هو احد وزراء (فتح علي شاه) وهي التي اخذت عنها الصورة الفوتوغرافية وعرضت على مجمعنا فلم نتردد فى شرائها وتزيين المكتبة بها .

وقد نقبنا عن نسخة خامسة لهذه النسخ الاربع فلم نجد : نقبنـا في فهارس مكاتب اوربا ومصر والاستانة فلم نجد شيئاً . حتى ان فهرست مكتبة برلين لم يذكر مقاييس اللغة مع انه ذكر طائفة من مصنفات احمد بن فارس .

والنسخة المصورة عن نسخة مكتبة المروي تبلغ (٧٧٩) صفحة . وهي بقطع دون المتوسط وخطها من النسخي الحسن الصغير الحروف وفي الصفحة الواحدة (٢٧) سطراً . وقد ختمها ناسخهـا بقوله : « قد وقعت الفراغة من كتابة كتاب المقاييس اللغة (كذا) » وتحته ختم جميل الشكل فيه ثلاثة أسطر مكتوبة بخط فارسي انيق هكذا « وقف . محمد حسين علي . مدرسة الفخر الطهران(كذا) » ولم يذكر كاتب النسخة اسمه في آخرها ولا اسم البلد التي كتبت فيها ولا تاريخ كتابتها . و يظهر من نسق الخط وأشكال حروفه ان النسخة كتبت بعد الألف للهجرة . وكذا لتصفح فصولاً منها فنجد أحياناً تحريفاً وتصحيفاً لكنه قليل . يظهر ذلك من النموذجات التي عزمنا على اقتباسها من الكتاب ونشرها تباعاً في مجلة المجمع . ونبدأ بخطبة المؤلف وقد سلك فيها مسلك الايجاز كما هي عادة المؤلفين الأقدمين فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمـد لله . و به نستعين . وصلى الله على محمد وآله أجمعين . قال احمد أقول و بالله التوفيق . ان للغة العرب مقاييس صحيحة . واصولاً تتفرع منهـا فروع . وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس . ولا أصل من تلك الأصول . والذي أومأنا اليه باب من العلم جليل . وله خطر عظيم . وقد صدرنا كل فصل باصله الذي يتفرع منه مسائله حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل . ويكون المجيب عما يسأل عنه مجيباً عن الباب المبسوط باوجز لفظ وأقربه . وبناء الامر في سائر ماذكرناه على كتب مشتهرة عالية تحوي اكثر اللغة : فأعلاها وأشرفها الخ . ثم ذكر المؤلف الكتب التي اعتمد عليها وهي خمسة : (١) كتاب العين للخليل بن احمد . (٢) كتاب غريب الحديث لابي عبيد (٣) كتاب مصنف الغريب له ايضاً . (٤) كتاب المنطق لابن السكيت . (٥) كتاب الجمهرة لابن دريد . ثم قال : فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع اليها ، حتى اذا وقع الشيء النادر نصصناه الى قائله» . ثم شرع في مباحث كتابه فافتتحه بباب الهمزة وما بعدها ، وقد رأينا ان نقارن بين ماقاله احمد بن فارس في الهمزة والباء ، وماقاله احمد فارس فيهما في كتابه (سر الليال) ليتبين للقارئ وحدة موضوع كتابيهما وتشابه طريقتهما في بحثهما . وهذان هما :

مقاييس اللغة

— لاحمد بن فارس —

باب الهمزة

« في الذي يقال له المضاعف »

إعلم ان للهمزة والباء في المضاعف أصلين احدهما (المرعى) والآخر (القصد) والتهيؤ ، فأما الاول فقول الله عز وجل : (وفاكهة وابّا) قال ابو زيد الانصاري : لم أسمع للاب ذكراً الا في القرآن . قال الخليل وابن[1] زيد الأب المرعي بوزن فعل وانشد ابن دريد شعر :

(جذمنا قيس ونجد دارنا
ولنا الأبّ به والمكرع)

وأنشد شُبيل بن عزرة لابي داود شعر :

(يرعى بروض الحزن من أبّه
قربانه في عانة تصحب)

اي تحفظ ، يقال صحبك الله اي حفظك قال ابو اسحق الزجاج (الأب) جميع الكلأ الذي تعتلفه الماشية كذى (كذا) روي عن ابن عباس (رضي الله عنه) . فهذا اصل . واما الثاني : فقال الخليل وابن دريد الاب مصدر أبّ فلان الى سيفه اذا رد يده اليه

(١) كذا في الاصل ولعل صوابه ابن دريد او ابو زيد .

سر الليال

— لاحمد فارس —

أب

ذكر المصنف أولاً عبارة صاحب القاموس في معاني مادة (أب) المختلفة ثم أتبعها بقوله :

« قلت : كان يجب عليه ان يجمع معاني الفعل كلها في موضع واحد . وعندي ان اول هذه المعاني أبّ الشيء حركه وهو حكاية صوت ونحوه هب وهف لحركة الريح وخبّ لعدو الفرس وحف لصوت ركضه وئب لصوت ناب الفحل وعب لصوت جرع الماء . وأب للسير اي تهيأ من معنى الحركة ونحوه عبأ المتاع والأمر هيأه . وجاء ايضاً أهب للامر وتأهب اي استعد . ومن هذا المعنى قيل : أب هزم بحملة والى وطنه اشتاق وجاء الوب التهيؤ للحملة في الحرب كالوبوبة ونحو أبّ أبّه أمّ أمّه وحم حمه وأمّته ويممه . و(الأب) للكلأ من معنى القصد . ولك ان تقول انه من معنى الحركة المقرونة بالاشتياق اذ هو عند العرب من اعظم ما يتشوق اليه ولهذا قال تعالى (ثم شققنا الارض شقاً فأنبتنا فيها حباً) الى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) وقال ايضاً (وانزلنا من المعصرات ماء

لبستله ، الأَب في قول ابن دريد النزاع الى الوطن والأَب في روايتهما التهيؤ للسير وقال الخليل وحده : أَبّ هذا الشيء اذا تهيأ واستقامت طريقته ابابةً وانشد للاعشى:

(صرمت ولم اصرمكموا وكصارم
أخ قد طوى كشحاً وأبّ ليذهبا)

وقال هشام بن عقبة في الابابة شعر :

(وأبّ ذو المحضر البادي أبابته
وقوضت نيّة أطناب تخييم)

وذكر ناس ان الظباء لا ترد ولا يعرف لها ورد . قالوا : ولذلك قالت العرب في الظباء : ان وجدت فلا عباب وان عدمت فلا أباب : معناه ان وجدت ما (ماء) لم تعبّ فيه وان لم تجده لم تأتبّ لطلبه والله أعلم بصحة ذلك . والأَب القصد يقال : أبدتُ أبّه وامت أمّه وحممت حمّه وحردت حرده وصمدت صمده قال الراجز يصف ذئباً شعر :

(مرّ مدلّ كرشاء الغرب
فأبّ أبّ غنمي وأبّي)

اي قصد قصدها وقصدي اه .

تجاجًا فأنبتنا فيهاحبًا ونباتا) وجاء العمّ بمعنى العشب . وجعل ابن فارس الاب من معنى التهيأة قال لانه يعد زاداً للشتاء والسفر كما في المصباح . ومن معنى القصد والاشتياق ايضاً جاء الأَباب بمعنى الماء وهو بالفارسية احد شطري اللفظ العربي اعني آب . فاما اطلاقه على السراب فمن تسمية المكروه بما يستحب كقولهم نام اي مات وله نظائر كثيرة ويظهر مما سيذكره المصنف في (عبّ) ان الأَباب ايضاً مصدر أبّ اي تهيأ ونحو الأُباب بالضم لمعظم السيل والموج العباب لمعظم السيل . وماء عبام اي كثير . وانّت ابابته بالفتح والكسر من معنى القصد والتهيأة اذ كان للقصد معنيان اعني الأَم والاستقامة وهذا من اسرار العربية فتأمله . ومن معنى التهيأة ابّ يده الى سيفه وهو في ابابه وابب بمعنى صاح حكاية صوت ومثله هبّ بالتيس دعاه الخ .

* * *

هذا وفي الجزء التالي من المجلة ننقل للقارئ من المقاييس نموذجات أخرى توضح غايته وتبين طريقته .

« المغربي »

اول عهدي بالجاحظ[1]

- ٢ -

كان حقاً عليّ بعد ان فرغت من الكلام على ابي الطيب المتنبي وهو اول شاعر حفظت من شعره في حداثة السن ما يصقل الخيال ويشحذ العاطفة و ينبه الشعور ان ابدأ بالكلام على عبدالله بن المقفع وهو اول كاتب استظهرت من كلامه ما يعين على تقويم البيان وصحة التعبير وجودة السبك ، فما استضأت الا بضيائه ولا استرشدت الا برشده ، انه الكاتب الذي صلحت أساليبه لكل دهر ، واظن ان كثيراً من المتأدبين استعانوا بابن المقفع على صناعة الترسل ، على اني لأرى ان يقتصر المتأدب على كاتب واحد فلا يغرف الا من بحره ، وانما أرى ان ينتقل من كاتب الى كاتب دون شيء من التقييد فاذا فعل هذا استطاع ان يأخذ من كل كاتب ما يطيب و يقتبس عنه ما يحسن حتى يصبح صاحب أسلوب ينفرد به .

ثم كان حقاً عليّ ان ارجع الى الآثار التي ابقاها ابن المقفع في خاطري فابعث هذه الآثار من مراقدها ولكني لا أدري ماالذي حملني على ايثار الكلام على الجاحظ ، فآثرت هذا الكلام لان الجاحظ أبعد مذاهب وأوسع آفاقاً فان الباحث يجد في نواحيه مجال القول ذا سعة ولكن هل يجد لساناً قائلاً واي لسان يحيط بوصف الجاحظ واي بحث يفضي بصاحبه الى تصوير عبقريته بمجامعها ، وكيف كان الامر فقد عولت على ان امضي القول في الجاحظ في سنتنا هذه ، وقبل ان أحاضر بشيء من هذه الناحية رأيت ان استثير الذاكرة حتى اقول لكم : كيف اتصلت بالجاحظ و كيف ذهبت في الولع به كل

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

مذهب وقد يقنع اكم رجوعي الى الماضي باباً من ابواب الجاحظ تعرفون منه اليسير من خصائص عبقريته فيستنهضكم هذا اليسير من اليوم لمطالعة فصوله واملاء خواطركم من طرائفها ولطائفها .

من عشر سنين اشتريت كتاب (الكامل) للمبرد وعلى هامشه فصول مختارة من كتب ابي عثمان قرأت اول هذه الفصول وهو مقتطف من كتابه في الحاسد والمحسود وقد فتنت بهذا الفصل الفتنة كلها حتى وصلت الى قوله :

« وما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه وتخوص عينه واخفاء سلامه والاقبال على غيرك والاعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك » .

فاستوقفني هذا الكلام فقلت في نفسي : ما اعلم صاحبه بطبيعة البشر ، ما الصقه بدواخلهم ومخارجهم ، ما اكشفه لاغطية قلوبهم يكاد لا يخفى عليه شيء مما تشتمل عليه جوانحهم ، انه لشديد التدقيق يقرأ على صفحات الوجوه ما كتب في اعماق الصدور . ثم لما وصلت الى صفات الحاسد وهي : تغير اللون وتخوص العين واخفاء السلام وما شابه ذلك قلت في نفسي : لايخلو الجاحظ من ان يكون محسوداً في عصره حتى كان يقع نظره على حاسده فيتأمل في وجهه ، ومن منا لا يعرف الحاسد ، ومن منا لم ير تخوص هذه العين وتغير هذا اللون في كل يوم ، لقد قلت في نفسي لا يخلو الجاحظ من ان يكون محسوداً في عصره حتى كان السيف المنصرم وقد عكفت على مطالعة كتبه ابتهياً لي الكلام عليه فمن الكتب التي طالعتها : كتاب المحاسن والاضداد والبكم ماجاء في مقدمة هذ الكتاب فلا بأس بان اتلو عليكم هذا الكلام حتى تأنسوا من اليوم بكلام الجاحظ وتألفوا طراز انشائه قال ابو عثمان :

اني ربما الفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وانسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من اهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته وفصاحته واكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة فان امكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له فهو الذي قصدوه وارادوه ، وان كان السيد

المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطناً واعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب والفوا من اعراضه وحواشيه كتاباً واهدوه الى ملك آخر ومشوا اليه به وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً اليّ وموسوماً بي ... وربما الفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه والفاظه فأترجمه باسم غيري واحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن اشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني اولئك القوم باعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه لانه لم يترجم باسمي ولم ينسب الى تأليفي ...

لما قرأت هذه المقدمة سهل عليّ ان ادرك السر في ابداع الجاحظ في وصف الحاسد وفهمت حينئذ ماقاله احد كتاب الفرنجة الكبار : روّض قلمك على كتابة اشياء شعرت بها ، فالجاحظ ابدع في وصف الحاسد ومعظم هذا الابداع ناشئ عن انه وصف شيئاً كان يشعر به ويعوذ بالله من شره ولمَ نجد الفرق في التأثير بين الكتّاب مثلاً او بين الشعراء ، اني اعتقد ان هذا الفرق انما مصدره في الأغلب من الأحوال قوة الشعور وضعفه او صدقه وكذبه .

ولكن هل فضلت الكلام على الجاحظ في سنتنا هذه لانه برّز في وصف الحاسد فلو كان الامر كذلك فما اضيق مذاهب الجاحظ ؟

فلنستثر الذاكرة مرة ثانية ، كنت في هذا الصيف أطالع كتاباً فرنسياً اسمه (الطريقة الادبية) تكلم صاحب هذا الكتاب على خطاب خطبه (رنان) في السوربون في ٢٩ آذار سنة ١٨٨٨ قال صاحب الكتاب وهو يعني (رنان) :

لقد بيّن الخطيب ان روح الاسلام الحقيقي انما هو مخالف للعلم وائن نشأ في العالم الاسلامي من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر اصحاب فكر واهل عقول راجحة فهذا سببه ان الاسلام في تلك العصور لم ينبسط سلطانه بعد فان الخلفاء اللامعين الذين كانوا في عصر (الكارولنجيان) لم يتكامل اسلامهم وفلسفة اليونانيين العقلية هي التي اضاءت

على عهدهم وكذلك الامر في الاندلس على زمن ابن رشد فقد كان اليونانيون وحدهم ينبوع العلم فالنهضة لم تكن عربية ولا اسلامية وفي اليوم الذي اشتد فيه الاسلام اي من بعد سنة ١٢٧٥ بوجه النفر يب انحطت عقول المسلمين انحطاطاً بؤسف ويحزن ثم ذكر صاحب هذا الكتاب كلاماً لرنان وهذا هو :

« ان الذي يميز العالم الاسلامي انما هو اعتقاد المسلمين ان البحث لا طائل فيه ولا شأن له وانه قد يؤدي الى الكفر ، فعلم الطبيعة يؤدي الى الكفر لان هذا العلم ينازع الله سلطانه ، وعلم التاريخ يؤدي الى الكفر لانه اذا امتد الى العصور التي جاءت قبل الاسلام احيا اضاليل قديمة ، فمعتقدات هذا شأنها تؤدي الى النتائج الآتية : اي بصبح خمول الذهن وقلة المبالاة من الفضائل فكلمة : والله اعلم انما هي فصل الخطاب في كل مناظرة اسلامية » .

قرأت هذا الكلام وقلت في نفسي أصحيح ان الاسلام حال دون العلم حتى تغلغلت في كتب الجاحظ وقرأت كتاب (الحيوان) من اوله الى آخره فاهتديت فيه الى أساليب في تحقيق صاحبه وتجريبه في امور العلم يحار فيها الانسان فكأن الجاحظ عالم من علماء الحيوان فلا يمر بامر من امور الحيوان سواء أكان هذا الامر صغيراً ام كان كبيراً الا اهتم به ويكفيني في مثل هذا المقام ان اذكر لكم كلمته في التحقيق العلمي وهي تجمع لنا كل مذهبه : ليس يشفيني الا المعاينة ، واظن ان الكلام على هذا التحقيق سيطول فأرجئه الى حينه وهذه ناحية من نواحي الجاحظ الجليلة الشأن فان كلمة مثل هذه الكلمة : ليس يشفيني الا المعاينة انما هي كلمة خالدة في علم الطبيعة وهل علوم الطبيعة الا نتائج المعاينة والتجريب والفرض والمقابلة والتصنيف .

ولمَ لا أذكر لكم من اليوم أسلوباً من أساليبه في التحقيق حتى تقارنوا بينه وبين علماء الحيوان في عصرنا هذا وحتى تقولوا في انفسكم أفيختلف ابو عثمان عن هؤلاء العلماء . قال وهو يصف الظليم .

باب آخر وهو عندي اعجب من الاول وهو ابتلاعه الجمر حتى ينفذ الى جوفه فيكون جوفه هو العامل في اطفائه ولا يكون الجمر هو العامل في احراقه ، واخبرني ابو اسحق ابراهيم بن سيار النظام وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع اوعيان انه شهد محمد بن

عبد الله يلقي الحجر في النار فاذا عاد كالجمر قذف به قدامه فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر وكنت قلت له ان الجمر سخيف سريع الانطفاء اذا لقي الرطوبات ومتى اطبق عليه شيء يحول بينه وبين النسيم خمد والحجر اشد امساكاً لما يتداخله من الحرارة واثقل ثقلاً والزق لزوقاً وابطأ انطفاء فلو احميت الحجارة فأحماها ثم قذف بها اليه فابتلع الاولى فارتبت به فلما ثنى وثلث اشتد تعجبي له فقلت له لو احميت اواقي الحديد ما كان منها ربع رطل ونصف رطل ففعل فابتلعه فقلت هذا اعجب من الاول والثاني وقد بقيت علينا واحدة وهو ان ننظر أيستمري الحديد كما يستمري الحجارة ولم يتركنا بعض السفهاء واصحاب الخرق ان نتعرف ذلك على الايام وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لاذائباً ولا خارجاً فعمد بعض ندمائه الى سكين فأحمي ثم القاه اليه فابتلعه فلم يجاوز على حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه ثم خر ميتاً فمنعنا بخرقه من استقصاء ما اردنا .

فيتبين لكم مما رويته ان الذي يشغل بال الجاحظ انما هو الاستقصاء وهل الاستقصاء خارج عن لوازم العلم فالذي يهم العالم انما هو التنقيب عن الحقيقة .

فقد يكون الجاحظ حجة يحتج بها من يريد ان يثبت ان في العرب علماء وانما عصرهم غير عصرنا وادوات تحقيقهم هي غير ادواتنا ولو اطرد العلم في ديارهم لبلغ المبالغ .

ولكن هل آثرت الكلام على الجاحظ لناحيته العلمية او لناحيته الفلسفية فأين نواحيه الأدبية الخالدة على تراخي الأحقاب وما كان هذا العلم وما كانت هذه الفلسفة لولا ادب ابي عثمان . مازلت اقلب النظر في كتب الجاحظ وانا لا ازداد تقليباً الا ازددت له تهيباً وبه اعجاباً حتى وصلت الى شيء من نواحيه الادبية واعجبها وافتنها انما هي هذه اللغـة التي القت اليه طاعتها فصرفها في كل شيء : فاذا كتب في العلم اجرى قلم العلماء واذا كتب في الفلسفة بنى على اصول الفلاسفة واذا كتب في الأدب كتب على اساليب الادباء وعلى مناحيهم وهذه القدرة على اللغة هي التي اوحت اليه مذهبه الأدبي الذي قال فيه : ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها وقبح بالمتكلم ان يفتقر الى الفاظ المتكلمين في خطبة اورسالة او في مخاطبة العوام والجار او في مخاطبة اهله وعبده وامته او في حديثه اذا حدث اوخبره اذا خبر وكذلك من الخطإ ان يجلب الفاظ الاعراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل .

فان الرجل الذي يقرر مثل هـذا المذهب الأدبي لا بدّ له من ان يطالب نفسه به اذا كتب والجاحظ قرره وطالب به نفسه .

هذا هو اول عهدي بالجاحظ وهذا هو شيء من الآثار الاولى التي بقيت في البال من قراءة كتبه ولو شئت ان استقصي هذه الآثار لامتد الكلام فما سمة لغته بشيء اذ قسناها الى قدرته على تصوير جلائل الموضوعات وصغائرها فستدركون بعد قراءة كتبه انه لا يتعاظمه شيء من الموضوعات واظن ان القدرة على تصوير صغائر الامور كامور الاكل والشرب واللبس وسائر ما يتعلق بحياتنا الخاصة لا تقل عن القدرة على تصوير اكابر الامور واذا قرأتم غداً كتابه في البخلاء تبينت لكم هذه القدرة على تصوير الدقائق من حياتنا الخاصة وما مرادي في هذه المحاضرة ان أشبع القول في الجاحظ وخصائصه فمثل هذ العمل يستوعب سنتنا كلهـا وانما غايتي كما قلت لكم ان اصف لكم اول اتصالي بكتبه واول املاء الخـاطر من آثاره ولقد فرغت من قراءة هذه الآثار وفي البال خاطر واحد لا إنساه وهو اني ما قرأت سطراً من اي كتاب من كتبه الا استوقفني قراءته وحملني على التفكير فاذا اردتم ان تحيطوا بشيء من عبقرية لغتنـا فبادروا الى كتب الجاحظ التي تعلم العقل اولاً والأدب ثانياً[1] وسأذكر في المحاضرة الآتية نواحيه التي سأمضي القول فيها .

في ٦ كانون الاول سنة ١٩٣٠

---

(١) كلمة ابن العميد .

نواحي الجاحظ
- ٣ -

ذكرت لكم اول عهدي بالجاحظ ووعدتكم ان أفصّل نواحيه التي هيأت الكلام عليها في سنتنا هذه ولِمَ لا أشير من اليوم الى اول اثر من الآثار التي أبقتها في نفسي دراسة كتبه فقد جمعت ذهني وتفرغت لإعداد ما أحاضر به فما أعظم حيرة حرتهـا وما اشدَّ دهشـة دهشتها بعد النظر في فصول ابي عثمان انه يخرج من باب الى باب ومن شكل الى شكل ، قد حشدت له المعاني من اقطارها وسيقت اليه الأفكار بازمتها يصرّفها كيف يشاء لا يخاف في تصريفها عثرة يعثرها او كبوة يكبوها فالكلام عليه بعيد الغور دقيق المذهب لا يأمن صـاحبه مزلة القدم فانا أخاف ان حاولت ان أعرض عليكم جملة طرائفـه ان لا اعرض شيئاً فيكون مثلي في ذلك كمثل ابن بطوطة فانه لما وصل من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وصفها فقال[1] : وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشـام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة وتخترق ارضها الانهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك ماليس بسواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونهـا فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمون حلواءه بالملبن ويسمونها ايضاً بجلد الفرس وهي كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد»

فأنتم تجدون ان ابن بطوطة سها عن وصف اهم شيء في بعلبك وهو قلعتهـا ولم يصف في رحلته الا دبس بعلبك واين دبس بعلبك من قلعتها التي تجلت في بنائهـا عظمة الانسان ولو تفرغ ابن بطوطة لوصفها لوجد مجال القول منبسطاً فليس يخطو

(١) رحلة ابن بطوطة — ص ٤٩ — مطبعة التقدم بمصر .

المرء خطوة فيها الا حارت عينه في ظواهر عظمتها ؟ فكأنما ابن بطوطة ادرك حيرته فوقف قلمه ولم يجر هذا القلم الا في ذكر صغائر الامور .

وانا كلما حدثتني نفسي بالكلام على عجائب الجاحظ خطر بالبال في الحال دبس بعلبك فيحار العقل في هذه العجائب و يقف القلم في وصفها فلا يجري الا في التلميح الى نوادر الجاحظ وقد ألهتني هذه النوادر كالهى رحالتنا دبس بعلبك فلما شرعت في إعداد ما أحاضر به تمثلت لي نادرته هذه التي قرأتها في كتاب البخلاء قال ابو عثمان[1] :

صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً فلما صرت قرب منزله وكان منزله اقرب الى مسجد الجامع من منزلي سألني ان ابيت عنده وقال : اين تذهب في هذا المطر والبرد ومنزلي منزلك وانت في ظلمة وليس معك نار وعندي لبأ لم ير الناس مثله وتمر ناهيك به جودة لا تصلح الا له فملت معه فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر فلما مددت قال : يا با عثمان انه لبأ وغلظة وهو الليل وركوده ثم ليلة مطر ورطوبة وانت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً وما زال الغليل يسرع اليك وانت في الاصل لست بصاحب عشاء فان اكلت اللبأ ولم تبالغ كنت لا آكلاً ولا تاركاً وحرشت طباعك ثم قطعت الاكل اشهى ما كان اليك وان بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بامرك ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً وانما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً : كان وكان ، و الله قد وقعت بين نابي اسد لاني لو لم اجئك به وقد ذكرته لك قلت بخل به وبدا له فيه وان جئت به ولم احذرك منه ولم اذكرك كل ما عليك فيه قلت: لم يشفق علي ولم ينصح ، فقد برئت اليك من الامرين جميعاً وان شئت فأكلة وموتة وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ولقد اكلته جميعاً فما هضمه الا الضحك والنشاط والسرور فيما اظن . » —

لقد تمثلت لي هذه النادرة لانها تدل على روح الجاحظ فانه مطبوع على النوادر ، شيخ قد طعن في السن يشكو من الفالج طرفاً ان اكل اللبأ و بالغ بات في اسوإ ليلة وربما كانت اكلة وموتة ومع هذا كله فقد اكل ولم يبال طمعاً في الضحك والنشاط

(١) كتاب البخلاء — ص١٠٣ — مطبعة الجمهور بمصر .

والسرور . تمثلت لي هذه النادرة فقلت في نفسي : أفيصيبني في الكلام على الجاحظ ما اصاب ابن بطوطة في الكلام على بعلبك ، أفأغفل عن خصائص عبقريته فلا تأخذ العين الا طرفاً واحداً من اطراف هذه العبقرية . —

اي معنى لم يقم في صدر الجاحظ ، واي فكر لم يزدحم على ذهنه ، كتب في كل شيء ، في جلائل الامور وصغائرها ، فلو نظرنا في طائفة من رسائله لتبين لنا اختلاف المعاني التي صورها والافكار التي وضحها ، كتب في الأخلاق والفلسفة والدين والتأديب والاجتماع والعلم والطبيعيات والأدب وفلسفة اللغة وما شابه ذلك وليست غايتي ان استوفي الكلام على تصانيفه في محاضرتي هذه وانما غايتي تنبيهكم من اليوم على ازدحام موضوعاته حتى تعلموا الميدان الذي جال فيه كل مجال فأول اثر من آثار دراسة كتبه حيرة يحارها المرء في خصب عبقريته فلا يعرف كيف يبدأ بالكلام على هذه العبقرية ولا كيف يفرغ من هذا الكلام ولا عجب في ذلك فان رجلاً يكتب له ان يعيش قرناً بوجه التقريب ، لم يقع في خلاله بيده كتاب الا استوفى قراءته كائناً ما كان ، ان رجلاً يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر لايعجب من خصب عقله .

ولكن فلنجتهد في الخروج من حيرتنا هذه ولنبين من اليوم النواحي التي ينبغي لنا ان نعدّ الكلام عليها .

اول هذه النواحي ترجمة الجاحظ وجملة اخباره من مبدإ حياته الى خاتمة ايامه : أين وطنه ، هل تغنى بهذا الوطن ، في اي سنة ولد ، ومن هم اهله ، وما هو نسبه ، أين حصل في صغره ، ماهي حرفة الجاحظ في مقدمة امره ، هل جمع مالاً ، هل تقلد شيئاً من عمل السلطان ، هل طمع في الخلافة ، هل عاش في نعمة ، هل كان يعتني بداره ، الى اين سافر وما هي آثار اسفاره ، من هم الذين لازمهم من اصحاب الشأن كيف كانت خاتمة حياته ، بما ذا أصيب في آخر عمره ، هل اثرت علته في شيء من كتبه ، هل ادت الى شيء من اختلال تأليفه ؟ .

فاذا وقفنا على هذا كله اخذنا باطراف الكلام على تحصيله ، اين قرأ ودرس في صباه ، من هم الاساتذة الذين اخذ عنهم ، هل اقتصر على قراءة كتب في مذاهب واحدة ام انه قرأ كتباً في مذاهب شتى ، حتى طبعت عبقريته بطابع خاص ماهي الكتب

التي كان يقرأها ، هل قرأ شيئاً من كتب اليونانيين هل كان يعرف الفارسية ، هل كان لاساتيذه تأثير في تنمية عقله . ما هو رأيه في بعض هؤلاء الاساتيذ .

فاذا تهيأ لنا الكلام على تحصيله شرعنا في الكلام على عصره فنظرنا في الانقلاب الادبي في هذا العصر ، من هم الشعراء الذين ذهبوا في الشعر مذاهب لم يذهبها من يقدمهم ، ثم نظرنا في الانقلاب الفكري وفي حرية الفكر ثم اشرنا الى كثرة الكتب المترجمة ككتب الهند وكتب اليونانيين ثم لمحنا الى الزندقة وكثرة الفرق الاسلامية وكثرة الأعاجم الذين خالطوا العرب والى اعتقادات الناس وبعض الخرافات كخرافات الباعة والعجائز والاعراب .

وبعد ان يتم لنا الكلام على هذه الامور كلها نتفرغ للكلام على مذهبه ، من هم المعتزلة ما هو الرأي في الثقة بدينه ، هل نجد لنا مطعناً على معتقده ، هل يميل الى العقل في امور الدين ، كيف يفسر الآيات والاحاديث ، هل يستعمل العقل في هذا التفسير ، ما هو أسلوبه في المناظرات الدينية ، هل يكره الغريب من التأويل ، هل يحمل كلام العرب على ظاهره ، هل يستعمل العلم في امور الدين ، هل يميل الى تأييد العلم بالدين ، ما هي نماذج من مناظراته ومن نقده للاحاديث وللآيات ، هل كان يشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة .

وكما اننا لانغفل عن الكلام على دينه فكذلك لانغفل عن الكلام على علمه ، هل كان الجاحظ عالماً ، من هو العالم ، ماالفرق بين العالم وغير العالم ، هل كان الجاحظ ينقب عن الحقيقة ماهي اساليبه في التحقيق العلمي ، هل يلجأ الى التجريب والعيان ، هل يستند في العلم الى العقل والى الحس ، هل كان يجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة ، ما هي نماذج من مجادلاته العلمية ومن نقده العلمي ، ما هي بعض مذاهب علمية ذكرها في كتبه وهي من اجل المذاهب العلمية في عصرنا هذا مثل قانون الارث وتأثير البيئة والتلون بالوان البيئة .

ولا مندوحة لنا بعد النظر في علمه عن النظر في تهكمه ، هل كان مطبوعاً على التهكم ، هل كان يميل الى التهكم من صغره ، هل كان يخالط الذين يميلون الى الهزل ، هل كانت

نوادره في محلها ، هل تهكم على المفسرين ، ماهو الرأي في تهكمه ، اكان يتعمد الاضحاك في بعض الاحيان ، ما هو الرأي في هذا التعمد ، ما هي خصائص هذا التهكم .

واذا فرغنا من الكلام على تهكمه رجع بنا البحث الى الكلام على مذاهبه الأدبية : ماهو رأيه في الأدب المجرّد ، هل استعمل الأدب المجرد في كتاباته . ماهو رأيه في اللحن والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته في باب النوادر ، ما هو رأيه في اللفظ ورأيه في المعنى ، ماهو رأيه في تفضيل اللفظ على المعنى ، ماهو رأيه في تأثير الشعر .

وبعد ان نفرغ من هذه النواحي كلها نخلص الى ناحية أسلوبه في النقد الأدبي : ما هي طبيعة النقد في عصره ، رأيه في نقد الأصمعي وابي عبيدة والأخفش ، ما هو أسلوبه في النقد الادبي ، هل كان نقده مجرداً ... أحسن فلان ... أساء فلان ... هل كان يبين رأيه في بعض الاوقات ... كيف كان رأيه في بشار وابي نواس وامرئ القيس ، ما هو رأيه في زيادة الرواة والتوليد على السن الشعراء وعلماء اللغة ، ماهو رأيه في اولية الشعر الجاهلي .

ثم نشرع بعد هذا كله في الكلام على عبقريته وعلى لغته وفنه .

اما عبقريته فاننا نبحث فيها عن افكاره العامة : ما هي المعاني التي برّز فيها ، ما هي الافكار التي لم يتوسع فيها ، ما هي طبيعة عقله في هذه الافكار والمعاني ، الى اي شيء ينفذ هذا العقل ، هل يوفي المعنى حقه ، ماهو وصفه لدقائق الامور ، ماهو وصفه لجلائل الامور ، ما هي نماذج من وصفه .

واما لغته فاننا ننقب فيها عن خصائصها ، ما هي خصائص لغته الادبية ولغته العلمية ولغته الفلسفية ، هل يميل الى اللغة الشعرية في العلم ام انه يميل الى المصطلحات المجردة التي لا الوان لها ، هل يميل الى المجاز ام انه يميل الى الحقيقة ، هل يستعمل لكل معنى اللفظ الذي خلق له ، هل تبعد لغته العلمية في بعض الأحيان عن الموسيقى اللفظية ، هل يستعمل المترادفات الكثيرة لتقر بالمعنى في ذهن القارئ ، هل يستعمل اللفظة وضدها تمييزاً للاشياء ، هل في بعض لغته الفاظ غامضة لانها كانت تدل على معان ثم ذهبت المسميات فبقيت الاسماء وحدها .

هذا ما نسمي في التنقيب عنه في دراستنا كتب الجاحظ وقد نزيد في مباحثنا او ننقص منها على قدر مايقتضيه المقام وانما المهم ان ندرس آثار الجاحظ من النواحي التي تصوره لنا تصويراً متكاملاً وأسلوبنا في هذه الدراسة انما هو الاسلوب الذي ابتدأناه في دراسة شعر المتنبي فاننا لانتقيد باحد وانما ننظر في كتب الجاحظ فندوّن مايلهمنا اياه هذا النظر المطلق وعلى هذه الصورة نستطيع ان نطبع شعورنا بطابع خاص منسلخ من كل تقليد .

في ١٣ كانون الاول سنة ١٩٣٠



ادبنا القومي

- ٢ -

مادة الادب المصري ومظاهره : قبل ان نتناول هذا الموضوع يجمل بنا ان نلم إلمامة قصيرة بتاريخ لغة العرب في هذه البلاد . لم يكن المصريون الى الفتح الاسلامي يتكلمون العربية ولم يكن لهم بها عهد ، بل كانوا يتكلمون القبطية ، وكثير منهم كانوا يحذقون اللاتينية ، طوعاً لخضوعهم العصور الطويلة لحكم الرومان ، فلما فتح العرب مصر حملوا اليها لغتهم فيما حملوا . ولم يكد يستقر لهم الامر فيها حتى انحدر اليها ، وخاصة في العهد العباسي ، صدر كبير من العلماء والادباء والكتاب ، وكلما ضعف شأن الدولة العباسية ازداد اقبال هؤلاء على مصر لوفرة خيراتها واقبال غلاتها من جهة ، ولان امراءها حين طمعوا في الاستقلال بهـا كانوا يدعونهم ليقيموا بعلومهم وآدابهم صدر دولتهم الناشئة . بل لقد انتجع امراءها في فتاء الدولة العباسية كثير من جلة الشعراء طلباً لرفدهم او لغير ذلك كأبي نواس وابي تمام . كما طلبها بعد ذلك ابو الطيب المتنبي في عهد كافور الاخشيدي .

وما كاد الأمر في مصر يستقيم لاحمد بن طولون حتى كان الأدب بلونيه (شعره ونثره الفني) قـد لخل ايما لخولة وازدهر ايما ازدهار . ولكن لا يفوتك ان ذلك انما كان بين النازحين الى مصر من الأقطار العربية وعلى السنتهم . واذا كانت العربية قد شاعت في ذلك الوقت على السنة المصريين ، فالعربية التي تكفي للترجمة عن حاجات النـاس في أسبابهم الدائرة ، لا الأدب الفحل ، والقول الجزل .

على ان العربيـة ظلت تغزو ألسنة المصريين انفسهم ، وتطبع ملكاتهم بطول الحكم العربي (الدولة الطولونية والاخشيدية) والمستعرب (الدولة الفاطمية والايوبيـة) وما تخلل هذه العهود حتى نجم من بين الصميم في المصريين من حذقوها و برعوا فيهـا ، ووفوا بما نظموا وما نثروا حقوق البيان . لولا انه في مؤخرات تلك العصور جعل الادب يتجه

الى صرف القول عن كرائم المعـاني الى الحرص على تجويد اللفظ ، وزخرفة الكلام وتزيينه بالتماس الوان المحسنات البديعية . وما زال الأدباء يتبارون في هذا ويجتمعون له و يسرفون فيه حتى اهلكوا اوكادوا يهلكون بيان العرب .

ولا احب ان يذهب عنك في هذا المقام ان هذه الألوان من الأدب انما كانت محصورة فيمن يتكلفون الأدب ، اما جمهرة النـاس فكانوا لا يعرفون غير العامية ، وان كانت عامية معظم مادتها مشتق من العربية .

ثم كان حكم دولتي المماليك ، ولولا عنايتهم كانت بالعلم وقيام الجامع الازهر في مصر يدرس فيـه كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم لعفى أثر البيان العربي من هذه البلاد ، على ان الادب في عهدهم قد ازداد ضعفه وفسولة مطالبه ، وعلى ان العامية نفسها قد تداخلها كثير من الصيغ الأعجمية .

ثم جاء الفتح العثماني فزاد اللغة بلاءً على بلائها ، فما برحت تضمر وتهزل وتسف حتى اقتربت من الفناء لولا الازهر ايضاً ومايدرس فيه من كتاب الله وسنة رسوله ، وان كانت دراسة لم تصل بين النفس وما فيها من بلاغة رائعة ، ولولا دراسة جثت بالية من علوم البلاغة صرف أبلغ الجهد في ندر يسها الى المسفات لفظية ليس بينها وبين حقيقة البلاغة نسب قريب او بعيد ، ولولا ان خلقاً شبوا على ان هناك شيئاً يدعى الشعر ، وشيئاً آخر يدعى النثر جات بهما اخطار من سبقوهم من اهل البيـان ، فتكلفوهما هم كذلك . وانك لترى المثل واضحاً بين يديك في مثل الشيخ عبدالرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المعروف ، فلقد كان ، عالماً وابن عالم ، وكان رجلاً معدوداً عند اهل عصره في خاصة الادباء . وانه ليحتفل للكتابة في أدق الموضوعات واحقها بالتأنق في اختيار اللفظ ، وملاحمة النسج ، والارتفاع بالقول . ولقد يبلغ بعض هذا الا انه قل ان يسلم من السقوط في العامية ، بل والاستعانة باللفظـة الأعجمية (تركية وغير تركية) وقل ان يسلم كذلك من تزايل الصيغ وانفكاك العبارات .

ثم كانت الحملة الفرنسية فانصرف الناس عن معالجة الذماء البـاقي من العلم والأدب الى التماس الحيل في مدافعة الظلمة ، والتحرف عن أذاهم ، ولقد علق شيءٌ من لغتهم بحواشي لغة البلاد حتى ان الشيخ الجبرتي نفسه يذكر عن نابليون انه دعا مرة علماء مصر

وخاصة أعيانهـا على أثر انتقاض المصريين على عسكره فقال لهم فيما قال (على رواية الجبرتي) أنتم لستم (بونو) اي قوماً خياراً !!!

ثم كان عصر محمد علي الكبير ، ولمحمد علي في الحياة مطالب جسام ليس يواتيه بها الا جيش عظيم ، والجيش يحتاج بالضرورة الى اطباء يعالجون المرضى من جنده ويضمدون جراحاتهم اذا هم أصيبوا في ميادين القتال فكان لابد له من ان يقيم مدرسة للطب ولم يكن في مصر الى ذلك العهد اطباء ، فكان لابد له ايضاً من ان يدعو بالاساتذة الاطباء من الغرب . ولكن كيف الحيلة في ذلك وهم لا يعرفون العربية اذ تلاميذهم في مصر لا يعرفون على التجوز غير العربية ؟

لم يبق الا حل واحد ، هو الذي وفق اليه المغفور له محمد علي باشا ، وهو ان يقيم بين الاساتيذ وتلاميذهم تراجمة يؤدون الى التلامذة المصريين ما يلقيه عليهم أساتذتهم الغربيون .

وتهيأ لمحمد علي ان يعثر على هؤلاء المترجمين بين الجماعات النازحين الى مصر من السوريين والمغاربة وغيرهم من اهل الملل الشرقيـة المختلفة ، ولم ير رحمه الله بعد ذلك مناصاً من ان يبعث بعوثاً من التلاميذ الى اوربا ليحذقوا لغاتها ويتعلموا علومها فكان من صنيعه هذا ان عقد اول صلة بين مصر ولغات الغرب .

وأنشأ محمد علي بعد ذلك مدارس أخر لتدريس علوم الحياة المختلفة ، وهذا شعر وشعر من استعمال بهم على هذا الاثر ان لابد من احداث حدث حتى توالت لغة المصريين المنقطعين عن العلم الحديث بمطالب العلم الحديث ، نجد رفاعة ولدات رفاعة ، واعتصروا قواميس اللغة ، واعتصروا معها أذهانهم حتى أخرجوا في العربية فنون المصطلحات في الطب والهندسة والفلك والزراعة وفنون الحرب وغيرها . . . فعلوا هـذا على قلة الحيلة وضعف الوسيلة ، فدل عملهم مهما اضطربوا فيه ومهما تعسفوا ، ومهما افتاتوا على اللغة — على شدة جهد وعلى صدق عزم وعلى تهالك في سبيل العلم .

ثم جاء عصر اسماعيل ، وشاعت العلوم الحديثة في البلاد فاستكرهت اللغة العربيـة جماعة العلماء على مراجعتها واستظهار ماظل الدهور الطويلة مجفواً من مفرداتها وصيغها ليوافوا بها على قدر الطاقة مطالب تلك العلوم . وتم لهم من هذا قدر محمود . ولم تكن العناية

بالآداب بأقل حظاً من العناية بالعلوم ، فجعل الشعر يجود ، والنثر يرصن وتنسع مطالبه الى ان طفر البارودي بالشعر حتى رده الى أزكى عهود العصر العباسي ، كما طفر الشيخ حسين المرصفي والمويلحي والشيخ محمد عبده وغيرهم بالنثر الفني حتى ردوا عليه كثيراً من جمال لفظه ، وتلاحم نسجه ، وسمو أغراضه وتلون مطالبه . وما برحت هذه النهضة في اطرادها حتى اليوم . ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك في هذا المقام ان ادراك الشعر والنثر الفني وتذوقهما ما زالا دائرين بين جماعة الادباء ، وهم بالاضافة الى السواد الأعظم أقل من القليل . اما سائر الناس فادراكهم وذوقهم في واد ، وهذا الضرب من الأدب في واد آخر .

* * *

واذا كان الأدب هو أبلغ مظاهر اللغة أدركت ان الادب العربي بدأ في مصر قوياً ، وظل كذلك دهراً طويلاً ثم لحقه الضعف ومازال يتدلى فيه حتى أشرف على الزوال . ثم انتعش وجعل يقوى حتى بلغ ماتراه في هذه الايام ، على انه في حالتي قوته وضعفه ظل فهمه وتذوقه مقصورين على جمهرة الادباء . اما السواد فلبث غارقاً في العامية في جميع هذه الأطوار حتى ليكاد يكون بينه وبين فصيح العربية تمام الانقطاع . وامللك عاجي بان العامة وأشباه العامة هم الكثرة الغامرة في كل أمة . ومع ذلك تراهم في الامم الأخرى يدركون بلاغات شعرائهم وفحول كتابهم وكثيراً ما تستريح اليها أذواقهم . فلماذا لم يجر الأمر على هذا في مصر وفي اكثر البلاد العربية الاخرى ؟

ذلك ان الفرق بين صحيح العربية ومرسل العامية في مصر وفي غير مصر أوسع منه في اكثر لغات العالم ان لم يكن في لغات العالم كلها ، حتى اذا علوت بلفظك بين العامة لم يفهموا منك كثيراً ولا قليلاً وكادوا يحسبون لولا مايشيع في كلامك من حروف الجر ونحوها ، ان لسانك انما يجري برطانة العجمية !

ولقد بلغ من سلطان العامية في هذه البلاد ان خاصة الخاصة من العلماء واهل البيان انما يتخاطبون بها في مجالسهم ، حتى اذا انبعث احدهم لخطبة او لمحاضرة في العلم اوالأدب تكلف العربية تكلفاً ، وقل الا تزلقه العامية بسطوتها حتى في هذا المقام ، مايعصمه منها

شدة حرصه على تحري العربية واحتفاله لها ، اللهم الا ان يكون قد سوى من قبل كلامه وحفظه ثم راح يتلوه عن ظهر قلبه ٠

الى هنا حق لنا ان نزعم ان ابلغ مظاهر الأدب العربي (الشعر والنثر الفني) لم يتصل بمصر اتصالاً صحيحاً ، وانما اتصل به في كل عصر طائفة ممن يتكلفون الأدب ، وهم بالقياس الى السواد كما أسلفنا اقل من القليل ٠

واذا تهيأ لجماعة الشعراء والكتاب الفنيين ان يتخذوا من الأدب العربي الصريح أداة للترجمة عما يجول في نفوسهم ، ويختلج في حسهم (ولنا بعد في هذا كلام) وتهيأ لم كذلك من يدرك آثارهم ويتذوق بلاغاتهم من جماعة المتأدبين ، فان للسواد ايضاً شعوراً يعتلج ، وعواطف تترقرق ، فترى هل يكتمها في نفسه و يحقنها بين أضالعه حتى يأذن الله فيصيب حظاً من فصح العربية ليتنفس بها و يجليها على سواه ؟ اللهم ان هذا من غير الميسور ! ٠ فلم يبق إذن غير العامية او شبه العامية مما يتصل اعلاه بادنى الأدب العربي الخالص ، يتوسل بها الى صوغ احساسه ونفض ما يجيش في نفسه من الوان العواطف ٠

ومن هنا عمد المصريون الى الزجل والى الموالى (وهي قديمة ترجع نشأتها الى عصر الرشيد) والى سائر أسباب الغناء (المذاهب والأدوار والطقاطيق) والى (الواوات) الصعيدية ، والى المقطوعات المنظومة على أقيسة لا صلة لها باوزان الشعر العربي ٠ والى ماتسمح به البداهة من ألوان التندر والمفاكهات ٠ والى الاحاجي (الفوازير) ثم الى النكتة البلدية (ايش معنى) وهي مصرية خالصة ولدها مخ الحشاش المصري ٠ واخيراً الى ما يدعى الآن (بالمونولوجات) وبدأت تتسرب الى أذواق المصريين ٠

والحديث في منشإ كل نوع من هذه الانواع وتطوره على الزمن يحتاج الى بحث طويل عريض ، ولعلنا معالجوه قريباً ان شاء الله ٠

ولعلك آخذي باني لم أدرج بين هذه الفروع من الأدب المصري الموشحات الاندلسية وهي شائعة في أغانينا ، حتى ان من آداب الغناء المصري وتقاليده المأثورة الا يبدأ (التخت) الا بموشحة ٠ ذلك ان طائفة المغنين انما هم في الغالب من الجهال ، فيندر ان يطلقوا هذه الموشحات البديعة على حقيقتها ، فتراهم ينشدون مثلا : « كللي يا سحب تيجان

الربى بالحلي » هكذا : « كالي يا صحبي جانا الرضى بالحلي » ! . هـذا الى ان أصو تهم تختلط فيها حتى ماتتبين منها غير النبرات الموسيقية ، اما الفاظها فلست بمدرك منها شيئاً . لهذا لم نتصل بافهام المصريين ولم نتسلل الى أذواقهم . ولهذا لم ادرجها في جملة آدابهم .

وهنا أحب ان الفتك الى حقيقة واقعة وهي انـ العامة وأشباه العامة لم يستأثروا وحدهم بنظم آدابهم المختلفة ، بل ان كثيراً من الخاصة وخاصة الخاصة من الادباء والشعراء قد ساهموهم في هذا ، وأخرجوا البليغ الرائع من ألوان هذا الكلام . و بحسبك ان تعرف ان العالم الكبير الشيخ القوصي ، وان مولانا الشيخ عبدالرحمن قراعة ، وان المرحوم الشيخ النجار كانوا من كبار الزجالين ، ولقد كانت لهم في هذا الباب مطارحات ومداعبات كانت شغل البلد وحديثه دهراً غير قصير ، و بحسبك ان تعرف ان لشيخ الشعراء اسماعيل صبري باشــا ، ولامير الشعراء شوقي بك ، ولشــاعر النيل حافظ بك (ادواراً) بديعة لا يزال يتغنى بها المغنون الى الآن . وان مما لأولهم « قدك اميرالاغصان من غير مكابر ، وورد خدك سلطان على الازاهر ، دا الحب كله أشجان ياقلب حاذر الخ » وانـ لثالثهم دور : « عشنا وشفنا سنين ، ومن عاش يشوف العجب ، شربنــا الضنا والانين ، جعلنا لروحنا سبب الخ » واما ثانيهم فاسمع منه في هذا المطرب والمعجب على لسان عبد الوهاب وغير عبد الوهاب .

واعلي لا اكون مغالياً اذا باديتك بانهم في هذا كانوا أصدق ترجمة عما يختلج في صدورهم منهم في اكثر أشعارهم ، فضلاً عن انهم أذاقوا الخاصة والعــامة معاً صدراً حلواً من منظوم الكلام .

وليسمح لي وانا في مقام علي كتمان الرأي فيه ضرب من الخيانة والاجرام ، ان اكون حق صريح ، فأزعم ان هؤلاء واولئك كانوا فيما نظموا في هذه الابواب ، أصدق تعبيراً عما يجول في صدورهم ، واقدر على تجلية كل ماتنتزي به عواطفهم ، لان العامية وشبه العامية هي لغة البلد التي عاش فيها ثلاثة عشر قرناً فكان من البديه الا تتخلف عن مواتاة المصري بكل مايجري أداءه في وجوه المطالب والاغراض .

ثم مالنا ولهذا ! أليس عندنا الآنـ من اهل البيان من لا يتعلق بغبارهم ، وانهم ايتخيرون فصيح اللغة ويفرون كل يوم معاجمهــا و يراجعون مأثور البليغ من الصيغ العربية

ليؤدوا بها قولهم ؟ وانك لتراهم مع هذا يعتمدون الكلمة العامية اعتماداً ليخرجوا بها للناس معنىً دقيقاً يحبون ان يجلوه كاملاً على جمهرة القارئين اذا لم يكن يعوزهم في الواقع من صحيح العربية ما يؤديه !

* * *

وبعد فأحسب انه لم يبق عندك شك في ان أدبنا القومي وان كان في اصل مادته يرجع الى العربية ، كان ومابرح قائماً على العامية وشبه العامية ، فاذا انت اقتضيتني بيان الفروق بين آثار كل منهما فانظرني الى يوم الاربعاء المقبل ان شاء الله .

* * *

الادب العربي في العصر الحديث : علمت مما سلف عليك ان العربية الصحيحة الجزلة الفصيحة لبثت أدهاراً غير قصيرة في شبه قطيعة مع المصريين ، ولبث الادب العربي الخالص في هذه الفترة كذلك مع متأدبيهم ، الى ان كانت نهضة اللغة والادب في عصر اسماعيل فنجم من نجم من فحول الشعراء ومتقدمي الكتاب في طفرة او ما يشبه الطفرة . وليس معنى هذا ان معاصري البارودي اذذاك بلغوا مبلغه اوتعلقوا بغباره ، ولا ان المترسلين من معاصري من ذكرنا من جلة الكتاب قد شاكلوهم او جروا في البيان على سنتهم ، بل لقد ظلت الكثرة الغامرة من هؤلاء وهؤلاء في أسفافها وفسولة معانيها وتزايل الفاظها . ولم يكن الذوق العربي الصحيح قد نضج في نفوس اكثر من يتكلفون الادب ، فكان لهؤلاء كثير من المعجبين بادبهم الحافظين لاشعارهم المتروين لمرسل بيانهم . ولبثت هذه الحال دهراً حتى تداولت الناس معاجم اللغة ، وشاعت بينهم بفضل المطابع ، دواوين السابقين من الشعراء أمثال ابي نواس وابي تمام والبحتري وأضرابهم ، كما أقبلوا على مراجعة كتب المتقدمين من فحول امراء البيان أمثال ابن المقفع والجاحظ وابي الفرج وغيرهم ، فجعلت الملكات العربية تربو ، والاذواق تنضج ، كما جعلت النفوس تهفو الناصع القول وجزل البيان .

الا انه قد وقع ما لم يكن بد من وقوعه ، ذلك ان متأدبينا قد افترقوا في أساليب البيان بحكم ظروفنا افتراقاً شنيعاً لان منهم من رأى اعلى الامثلة في الادب العربي فيما

روي عن العرب في جاهليتهم ، ومن كانوا يشاكلون جاهليتهم فأكب على مثل المعلقات والمذهبات والملحمات الخ واراجيز مثل رؤبة والعجاج ، وراح يحفظها و يستظهر غريبها و يشاكلها في كل شيء اذا نظم فيتعمد الاتيان بالغريب ، و يركب متون العيس يقطع بها القفار و يهتف بالدمن و يشبب بالديار و يناجي النؤي والاحجار الخ . وطائفة من المتأدبين قد توفروا على قراءة شعر الشعراء من مطلع الاسلام الى غاية الدولة العباسية والدويلات التي انصدعت عنها ونثر من نجموا في هذا العصر . ولا ننس ادب الاندلس وراحوا يشاكلونهم في كل منازع كلامهم ، ومجالي تشبيهاتهم اذا هم نظموا او نثروا . وهنالك فئة ثالثة من المتأدبين ظلوا عاكفين على ادبهم الذي ورثوا عن العصر التركي . وفئة رابعة اخذوا حظاً من لغة العرب وحظاً من لغات الافرنج ، وهؤلاء لهم أسلوبهم الخاص بهم وفنون تشبيهاتهم . ونشأت كذلك فئة خامسة تأدبت بادب العرب واستظهرت أجل ماقالوا في جاهليتهم واسلامهم ، وتأدبت في الوقت نفسه بادب كبار شعراء الغرب وجلة كتابه ، فاذا اجتمع هؤلاء للبيان تمثلت لهم صور المعاني الغربية وجلال الصيغ العربية ، فلا يكن لهم بد من ان يستكرهوا هذه على اداء تلك ، وبهذا خرج ايضاً للادب العربي في مصر نوع جديد .

ومن هنا تعرف لماذا اضطرب الادب العربي في مصر في هذا العهد ، وكيف تبلبلت لهجاته وأساليبه ، حتى لو اطل عليه رجل ممن حذقوا هذه اللغة ولم يكن له بمصر عهد لم يصدق ان هذه اللهجات المتباينة تجري كلها في وقت واحد وفي بلد واحد !

على انه مما لاينبغي ان يفوتنا في هذا المقام ان انتشار المجلات العلمية والادبية وعناية الصحف على اختلاف ألوانها بتجويد اللغة وتحري الصحيح ، وتجريد بعض صفحاتها للآداب والفنون — لقد كان من اثر هذا أن جعلت اللهجات تتقارب رويداً رويداً ، بترديد نظر كل طائفة في أسلوب غيرها ، والتقاطها الجيد المطبوع من صيغها ووجوه تعبيراتها ، وجرياً على السنة الطبيعية سنة بقاء الاصلح .

نعم ، لقد جعلت اللهجات تتقارب ، والاساليب تتشابه ، لولا فروق دقيقة يحسها النقدة من اهل البيان . الا انه مازال هنالك فرقان واضحان : احدهما الفرق بين اصحاب القديم وأنصار التجديد « وتحقيق هذا الموضوع لا يتسع له حديث اليوم فلنرجئه الى يوم

آخر » . والثاني مالايزال بعض مؤلفي الروايات ومعربيها يسفون فيه من الاتيان بصيغ مبتذلة وتعبيرات مفككة يطلبون بهـا اداء صور وأخيلة افرنجية ، من نحو : يا وصيفة المخدع ، والموت البنفسجي ، وان الشيطان ليرتبك في نسيج عنكبوته الخ .

ولعل السبب في ذلك هو التهافت على الصور والمعاني الاجنبية ، وعدم التمكن من صحيح العربية بالقدر الذي يهيء للمؤلف او المترجم اداء جملة المعنى في صيغة يتقبلها الذوق المطبوع على لغة العرب .

ولعلك معارضي بان شاعراً حتى في ازكى عصور اللغة ، لايشاكل أسلوبه أسلوب شاعر آخر يعاصره ، وقل مثل هذا في أئمة الكتاب ، حتى ان الناقد البصير ليستطيع ان يميز بين شعر ابي تمام والبحتري ، وبين شعر بشار وحفص بن ابي بردة مثلاً وبين جميل وكثير مثلاً وكل اثنين من هؤلاء عاشا في عصر واحد ؟ وأجيبك ان نعم ! الا انه مهما تنوعت أساليب البلغاء في العصر الواحد فان لكل عصر في بلاغته طابعاً واحداً يجمعها كلها في كنفه ويضمها تحت جناحه ، حتى ان ذلك الناقد الخبير اذا طرحت عليه اثراً من الآثار في الشعر او النثر فلم يهتد الى شخص صـاحبه ، فانه مهتدٍ غالباً الى العصر الذي عاش فيه .

الى هنا خرجت لنا نتيجتان : الاولى ان الادب العربي في مصر (على انحصار تذوقه في طائفة المتأدبين) لم يتخذ الى الآن سمتاً واحداً ولم يطبع بعد بطابع معين ، بل انه مازال أمشاجاً من الاساليب واللهجات نسلخ من هنا ونلتقط من هناك وذلك طبيعي بحكم ماجلينا عليك من الاسباب . على ان الزمن وحده كفيل بان يقـارب بين هذه الانواع من الالسنة المختلفة حتى يدرجها كلها في جنس واحد . ويطبعها بطابع واحد . حتى مايبقى بينها غير تلك الفروق الدقيقة التي لا بد منها طوعاً لاختلاف البيئات واختلاف الشخصيات .

والنتيجة الثانية هي ان فصيح العربية لبث الادهار الطوال بمجزة عن سواد المصر بين لم تتصل به مداركهم ، ولا هو اتصل الى هذه الغاية باذواقهم . واذا نحن زعمنا ان شاعراً او ان كاتباً تهيأ له ان يترجم بفصيح العربية عما يجيش في نفسه من مشاعر مصرية ويحسن تجلية كل مايترقرق في نفسه من وجوه الاحساس المختلفة فان احداً لا يستطيع

ان يزعم ان العربية الخالصة استطاعت وخاصة في هذا العصر عصر العلم الحديث وما هجم به علينا من الوان المخترعات ان تؤدي شيئاً من الاسباب الدائرة بين الناس . بل لقد ناءت العامية المشتقة من اصل عربي باداء اكثر مايقع لاعيننا وتسمعه آذاننا في هذا العهد من صنوف المرئيات والمحسوسات في وجوه الاغراض المختلفة وذلك شيء لا يكاد يأخذه حدٌ او يحصره عدٌ ، وهو كل يوم بل كل ساعة في ازدياد وقوة اطراد ، فاضطر الناس خاصتهم وعامتهم الى ان يتخذوا الالفاظ الفرنجية مع تحريف كبير او صغير للتعبير عن هذه الاشياء الجديدة التي لابد لهم في وسائل عيشهم من التعبير عنها ودخلت هذه الالفاظ في العامية وطبعت بطابع اللسان المصري (ولابد مما ليس منه بد) .

والعجب العاجب انه مع كل هذا ومع ادراك جميع العلماء والادباء لمبلغ هذا الخطر على اللغـة وكثرة تقاولهم فيه وشدة احتفالهم له ودعوتهم الى التشمير لمعالجته لم يجرد له جهد صادق ولم يبلُ احد فيه بلاءً يستحق اي التفات . ولقد كان كل ما رزقنا في هذا الباب من الأساة المصلحين جماعة ممن لهم حظ كبير او صغير من الاطلاع على اللغـة . وهؤلاء قد انصدعوا الى شعبتين : الشعبة الاولى قد القت كل همها وجهدها الى مراجعة كتاب (درة الغواص . في اوهام الخواص) للحريري . وكتاب (لغـة الجرائد) لليازجي ونحو ذلك . واخذت نفسها بالارتصاد للشعراء والكتاب البارعين تنقدهم وتزدريهم وتتهمهم بشدة الجهل باللغة وتأخذ احدهم بانه قال : (اثر على الشيء والصحيح اثر فيه) !! وآخر يأخذ ثانياً بانه قال : صحيفة اذ هو يريد صفحة (والصفحة الوجه الواحد والصحيفة الورقة بوجهيها) !! وثالث يعير ثالثاً انه أنث الكأس ما يحوي شيئاً اذ هو لا يؤنث الا اذا كان مملوءاً . . . ونحو هذا من فنون التعقب حتى أخافوا الكتاب والشعراء واسترهبوهم وحبسوا أقلامهم عن الانطلاق في اقطار الاغراض المختلفة خشية ان يتسقطهم هؤلاء النقدة (ان صح هذا التعبير) وملكوهم عن الترجمة عن كثير من المعاني الطريفة لكيلا يتهموا بانهم جاوزوا ما نص عليه الحريري واليازجي ، وتلك لعمر الله من احدى الكبر !

ولقد كانت هذا النوع من النقد ضربة موجعة للغة العربية نفسها . ثم تعالوا ايها العلماء اللغويون الذين لا يشق لهم غبار ولا يصطلى لهم بنار (على حد المثل) الم يقل أئمة العربية ان حروف الجر تتناوب وأي مهلكة مع هذا للغة في ان تنوب (في) عن (على)

في مادة التأثير ؟ بل انني لأزعم ان (أثر عليه) أبلغ كثيراً من (اثر فيه) لان حرف (على) ادل على السطوة والتمكن من حرف (في) ولقد يقول الناس : (وجه الشيء الى كذا) اذ يقول امام العربية الجاحظ (وجهه على كذا) . كما يقول الناس : نشزت المرأة عن زوجها) اذ يقول ابوالفرج (نشزت المرأة على زوجها) ! . . . أتر يدون بعد هذا ان نصدقكم انتم ونكذب الجاحظ واباالفرج ؟ انكم إذن حق مغرورين .

ثم أليس في باب التجوز او الاستعارة او ماشئتم مما تعلقتم به من قشور البيان ما يتسع لاساغة المثلين الآخرين ان كنتم في اصل (نقدكم) من الصادقين ؟

وهنا اذكر عن صديقي شاعر النيل نكتة لطيفة تتصل بهذا المقام ، فلقد وقع في بعض قراآته على ان اللغة العربية ذهب نصفها فلم تحتفظ المعاجم الا بنصفها الآخر فهو كلما اخذه آخذ بخطإ لغوي او نحوي او صرفي اجاب من فوره : ما أدراك ان هذا سائغ في نصف اللغة الضائع ؟ ! !

اما الشعبة الثانية فجماعة كما يقول المثل العامي : (حطوا في بطنهم بطيخة صيفي) ! فاستراحوا والحمد لله تعالى على ان لغة العرب قد وسعت كل ما كان وما يكون وماسيكون وما سوف يكون . فان اللغة التي وضعت للجمل وللسيف وللاسد وللخمر وللغزال ولنحوها مئات الاسماء لايمكن ان تعيا بان يكون فيها كل مايدل على كل ماترمينا به اوربا واميركا كل يوم من معان طريفة ومخترعات حديثة ! !

ياسبحان الله ! ألغة كانت هذه ام منجمة تستفتح الغيب وتستكشف ما عسي ان يرمي به القدر من وجوه المعاني حتى بعد الف وثلاثمائة عام وترتصد لكل ما ولده الذهن البشري واستخرجه بمحض التأليف والتوليد او راض الطبيعة على اخراجه بالكد وطول التجربة ، فاذا الالفاظ والصيغ العربية محضرة على الرف لا يصيب من يشاء التعبير بهـا عن كل هذا الا ان يمداليها يده فيطرحها ، وماهوالا ان تشك الفاظها تلك المعاني وتستوي بها لمدارك الناس في غير عسر ولا عناء .

واعجب من شأن هؤلاء جماعة زعموا انهم متجردون في طلب مجفو اللغة ونلقط كل مايؤدي كل حديث في العلم والفن والزراعة والصناعة وعلوم الطبيعة الخ الخ . ! أليست لغة العرب قد وسعت بظهر الغيب كل ما كان وما يكون ؟ فيدعو (الشبشب) اكرمك

الله (الكوث) وعلبة الحلى (الجوثة) ثم يروح يمن عليك بانه اخرج لك من لغة العرب كل مايوفي بحاجات العصر الحديث ! وتراه بعد هذا يمشي على الطوار مدلاً مننايهاً يهزرأسه ويثني عطفيه من فتنة واعجاب ظاناً انه لاشغل للجالسين على حواشي الطريق الا الحديث في اختراعه والاعجاب بفقهه في اللغة واحاطته بمكنون أسرارها .

والقد يجرؤ الشيخ من هؤلاء على ان يزعم لك ان في العربية مايترجم عن كل قطعة وكل جزء من اجزاء (المرحوم) المنطاد ر ١٠١ ولماذا لايكون في لغتنا كل هذا ؟ اليست الطيارة من اختراع العرب ؟ وان اول من صنعها كان العباس بن فرناس ؟

ياناس ! والله ماقتلنا ولا قتل العلم ولا قتل اللغة معنا الا هذا الغرور .

نعم ! شهد الله ان لغة العرب من أثرى اللغات واغناها وابدعها وابلغها ، على انها لقد ادت واجبها وعبرت عن كل مطالب الحياة يوم كانت الامم العربية مستأثرة بالحضارة او مشاركة على الاقل فيها ، فكيف تريدونها وقد انقبضت عن الحضارة او انقبضت عنها الحضارة القرون الطوال — كيف تريدونها بعد هذا على ان تفتح عينيها على آلاف المستكشفات والمخترعات فتؤدي معانيها في يسر ورخاء ؟ انكم إذن لقوم ظالمون .

* * *

والقد زعمت فيما زعمت ان صحيح العربية مازال بمجزة عن سواد الناس . وذلك انه في اي عصر من العصور لم يبذل اي جهد في تبسيط هذه اللغة العتية المتعاصية في مفرداتها وصيغها وقواعد نحوها وصرفها . حتى تستوي لمدارك السواد كما لم يبذل اي جهد في ترقية مدارك هذا السواد حتى يفهم هذه اللغة او يلمح بلاغاتها لمحاً .

ولقد كان من أبلغ أسباب هذا التعويق ان تواثبت في اثناء هذه النهضة الحديثة طائفتان : احدهما شيعة القديم ، والثانية انصار التجديد . تلك تقول بعدم تخطي لغة العرب المأثورة حتى في كل مايجيم من الجديد . وعندنا من أبواب التجوز والاشتقاق واتخاذ المجفو من مفردات العربية مايغنينا و يكفل اداء جميع حاجاتنا . اذ هذه تدعو الى التعريب وهي سنة اتخذها من سبقنا من أئمة العلماء في الدولتين الأموية والعباسية حين هاجمت آداب الفرس وعلوم الرومان والاغريق الامة العربية . ثم ظل هذا الخلاف وظل الى الآن ولا زالت اللغة من تحته تتلوى و ينفصد من الجهد عرقها بما انقطع من

نفسها في أداء حاجات الناس ، اذ الغرب يزحمها كل يوم بفنون لا حصر لها من المخترعات والمستكشفات مانصيب نحن الجهال وعامة الخلق ، بل ولا سادتنا اللغويون — لها دلالة من لغة العرب ، لا على طريقة اشياع القديم ولا على طريقة أنصار التجديد[1] !

« باحث »



(١) ملاحظة — أستدرك على صديق لي من صفوة الادباء انني لم اذكر (كثيراً) الشاعر فيمن وفدوا على مصر طلباً لرفد امرائها وانني لا كبر هذا الاستدراك وأقرر انه قد غاب عني ان كثيراً الشاعر الأموي الصميم كان فيمن وفدوا على مصر ولهذا الاستدراك خطره ودلالته على ان خاصة الحكام في مصر قد احتفلوا للغة العربية من عهد الدولة الاموية . واني لاشكره وأقدر ملاحظته وان كنت لم اذكر من ذكرت من الادباء الذين وفدوا على مصر على سبيل الحصر بل على سبيل التمثيل .

اما ملاحظته الثانية فانني زعمت ان المصريين لم يكن لهم عهد بالعربية قبل الفتح الاسلامي . والواقع انه كان في مصر من قبل هذا من يحذقون العربية وانا اعرف هذا ولا اجهل على الاقل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب الى المقوقس بالعربية وانه لابد ان يكون هناك في مصر من ترجم كتاب النبي اليه ، ولكن ليس يذهب عن صديقي الاديب ان الحديث انما كان مرسل في اول عهد الامة المصرية بالعربية لا عهد افراد اومئات منها بها وفينا الآن آلاف وآلاف يحذقون الفرنسية والانجليزية ولكن لا يستطيع ان يزعم الانسان ان الامة المصرية تتكلم الفرنسية والانكليزية .

واسطة السلوك

« في سياسة الملوك »

هو اسم كتاب نفيس ، لايزال بدوياً مخطوطاً لم يُنشر بعدُ . توجد منه نسخة في مكتبة (الاسكريال) باسبانيا ، ترجمت الى اللغة الاسبانية بقلم الاستاذ كاصبار مدر يانو وطبعها (الترجمة الاسبانية) في سنة ١٨٩٩ م . بمدينة سرقسطة الا انه طبع منها نسخاً قليلة ، سرعان ما نفدت واصبحت نادرة لا تكاد توجد .

وكان المظنون ان النسخة الموجودة في (الاسكريال) هي النسخة الوحيدة من هذا الكتاب . غير اني عثرت اخيراً على نسخة مخطوطة أخرى من هذا الكتاب ، في مكتبة صديقي الفاضل الشيخ الحاج عبد القادر قارهجه في تلمسان (الجزائر) وهي نسخة تقع في مائتين وخمس واربعين صفحة (٢٤٥) طول الواحدة منهما ٢٨ سنتيمتراً في عرض ٢٠ سنتيمتراً وفي كل صفحة ١٨ سطراً ولا تنقص كلمات كل سطر عن ١٢ كلمة ولا تزيد عن ١٥ كلمة وقد كتبت هذه النسخة بخط مغربي واضح ، وفيها كثير من الخطإ و التحريف ، بسبب ان الناسخ كان يسرع في نسخها ويمعن في هذه السرعة ، فاضطره ذلك ان يهمل بعض الحروف المعجمة وان يعجم بعض الحروف المهملة او ان يكتب الدال راء او واواً او نحو ذلك ، الا ان ذلك كله لا يحول دون قراءتها بسهولة وبلا عناء كبير . ومع ان الكتاب قديم ألف فيما بين سنة ٧٠ وبين ٨٠ من القرن الثامن الهجري فان هذه النسخة التي أصفها قد فُرِغ من نسخها في يوم السبت ٣ جمادى الاولى سنة ١٢٦١ (الف ومائتين وواحد وستين) . وقد كتب الناسخ اسمه في أسفل الصفحة الاخيرة بشكل مبهم لا يكاد يبين ، فلم أقرأ منه غير كلمتين لا أدري اولاهما من أخراهما وهما : حسن بن عمار اوهي عمار تحريف عمر كما ينطقها العامة في تلمسان اليوم . واني الآن أبحث عن النسخة الاصلية التي أخذت منها هذه النسخة واعلي أجدها قريباً .

اسم الكتاب واسم المؤلف — اما الكتاب فاسمه في هذه النسخة (واسطة السلوك

في سياسة الملوك) وقد ذكره يحيى بن خلدون صاحب (بغية الروّاد في ذكر بني عبدالواد) باسم (نظم السلوك في سياسة الملوك) · واما اسم المؤلف ، فهو السلطان موسى ابو حمّو الثاني أشهر بني زيان ملوك تلمسان في التاريخ · غير ان هذه النسخة التي أصفها لم يُذكر في اولها اسم المؤلف وانما ذكرت بعض اخبار بني زيان وذكرت معها توار يخها يستطيع الباحث ان يعلم منها اسم المؤلف وانه هو موسى بن حمّو وما فيه من شك · على ان قارئ هذا الكتاب لا يلبث ان يقرأ فيه هذه القصيدة التي يقول فيها ناظمها وهو مؤلف الكتاب :

(وانا موسى ابو حمّو أصلح للملك ولا يصلح لي)
(فانا للطفل كوالده واسوق الشيخ على مهل)

وهي قصيدة رائعة ملئت حكمة وحُكما ·

موضوع الكتاب — هو سياسة الملوك وتدبير الممالك ، ولعل هذا الكتاب هو من خير ماألف الناس في هذا الموضوع · وضعه موسى ابو حمّو هذا لابنه وهو يعظه ويوصيه ويقص عليه تجاربه واختباراته في السياسة والاجتماع · وقد اودعه في هذا الكتاب كل مايحتاج اليه الملوك (اوالخلفاء) الذين يديرون ممالكهم بانفسهم ، و يديرون فيها كل جليل وحقير · وفي الحق ان هذا كتاب يدل على ان مؤلفه مطلع واسع الاطلاع ، وعالم غزير العلم ومجرب حكيم وسياسي داهية ، كثير الحيل والاخاديع · وهو كتاب يحتاج الى مثله (بالاخص) اولئك الذين يحكمون أممهم وشعوبهم حكماً افرادياً ديموقراطياً · لا بل يحتاج اليه كل حاكم، طاغية كان امعادلاً · لا بل يحتاج اليه كل عالم من علماء التاريخ والاجتماع فهو صورة واضحة لنفسية موسى ابي حمّو الثاني الزياني ، ومافي هذه النفسية الملوكية الكبرى من وداعة وتواضع ومافيها من عظمة وجبروت · وهو ايضاً صورة واضحة للمجتمع الاسلامي في الجزائر او في المغرب كله لذلك العهد ، ولما في هذا المجتمع يومئذ من رغبات ومطامح وما فيه من شهوات ومطامع ·

وتشعر ، وانت تقرأ هذا الكتاب بان مؤلفه يقتطعه من نفسه اقتطاعاً · وتراه يضع بين يديك آراء ناضجة قوية في السياسة والاجتماع وهي وليدة التجربة والاختبار · ولا تكاد تجد في الكتاب كله رأياً واحداً بني على الفرض والتقدير دون الخبرة والعيان · ومن هنا جاءت قيمة هذا الكتاب ، ومن هنا كان كتاباً عملياً ، وان موضوعه في سياسة الملوك ·

وليس عجيباً ان يكون هذا الكتاب مبنياً على الواقع الذي لا ريب فيه ، فقد وضعه صاحبه لابنه وولي عهده واجتهد ان يكون له هذا الكتاب دستوراً قويماً ، يقيه شر مايكون في تدبير الملك وسياسة الامة من اغلاط وعثرات . ولكن اباتاشفين الثاني هذا كان ولداً عاقاً لاخير فيه ، وما كان اهلاً للملك . فقد جازى اباه (اباحمو) جزاء سنمار استبطأ حياة ابيه فتعجل الامر وثار عليه فقتله ، وقتل معه كثيراً من رجال الدولة وعلماء الدين . ثم لم يتمتع بالملك بعد ابيه غير اربع سنوات قضاها بين الفتن والاضطرابات .

أسلوب الكتاب — وأسلوب الكتاب في جملته هو أسلوب القرن الثامن الذي كان يعيش فيه المؤلف . وهو أسلوب كان شائعاً بين الادباء عموماً وأدباء المغرب خصوصاً ، منذ القرن السابع الى ماقبل هذه النهضة الادبية الحاضرة ، ولا يزال كثير من أدباء مراكش (المغرب الأقصى) يكتبون به الى هذا اليوم .

واصحاب هذا الاسلوب في الغالب لايستعملون الكلمة في موضعها ولا يؤدون المعنى باللفظ الذي وضع له (لا حقيقة ولا مجازاً) و يكثرون من الاسجاع الباردة التي يتكلفونها ولو افضى بهم تكلفها الى إضاعة المعنى . وقد لايزيدون السجعة (الفاصلة) بتمامها لشيء الا ثرثرة وفضولاً . وابو حمو هذا ، كذلك في هذا الكتاب لايجيد القول ولا يضع الكلم في مواضعه الا اذا ترك السجع وارسل نفسه على سجيتها وجاء كلامه عفواً ، وحينئذ يكون كلامه « سهلاً ممتنعاً » منسجماً صادقاً لاعيب فيه .

على ان ابا حمو هذا قد وُفق في أسلوب هذا الكتاب الى حد بعيد من التوفيق ، فهو لا يكتفي ببيان الرأي من آرائه التي ولدتها تجاربه واختباراته ، حتى يزيد على ذلك قصة صغيرة او يضرب لك مثلاً من الأمثال يقنعك كل الاقناع من حيث تشعر اومن حيث لاتشعر بصحة الرأي الذي يراه و يذهب اليه .

تبويب الكتاب — وقد جعل المؤلف كتابه هذا ديباجةً واربعة ابواب . فاما الديباجة فقد ذكر فيها السبب الذي حمله على تأليف الكتاب ، فقال فيها : « ... أما بعد ، فانه لما كانت الاولاد ، قطع الاكباد ، وعماد الظهور ، وشفاء الصدور ، وثمار القلوب ، وجلاء الكروب ، ودُرّة كل زين ، وقرّة كل عين ، ووصلة الانساب ، وسلسلة التناسل والاعتناء (كذا بالاصل) وورثة الآباء ... وسر الحياة ، وحياة العظام

الرفات . يرغب فيهم الانبياء ، و يعتدّ بهم الاولياء ، قال الله عزّ وجلّ مخبراً عن نبيه زكريا اذ دعاه : « ... فهب لي من لدنك وليـاً يرثني ، و يرث من آل يعقوب ، واجعله ربّ رضيا ... » — وجب (وهـذا جواب لما) ان تكون لهم الآباء كالسماء الظليلة ، والشمس المنيرة ، والسحب المُخيلة . يحفونهم بكل أدب وفضيلة ، و يخونهم كل فائدة جليـلة . وخير الآباء للابنـاء من لم تدعه المودّة (يريد العطف الابوي) للتفريط في الحقوق (يعني ما يجب على الاب من تربية الابن وتهـذيبه) ، وخير الابناء للآباء من لم يدعه التقصير الى العقوق . قال صلى الله عليه وسلم : الاولاد من رياحين الجنة . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان محباً في ولده سالم :

يلومونني فيـ سالم وألومهم   وجلدة بين العين والانف سالم

وقال معلّى الطائي :

وانمـا اولادنا بيننـا   اكبادنا تمشي على الارض
ان هبت الريح على بعضهم   تمتنع العين من الغمض

فرأينا اولى ما يتحف به ولي عهدنا ووارث مجدنا ، والخليفة ان شاء الله من بعدنا ، وصايا حكمية ، وسياسة عملية مما تختص به الملوك ، وننتظم به امورهم انتظـام السلوك . ولذلك سمينا هـذا الكتاب بواسطة السلوك ، فيـ سياسة الملوك ، ليكون اسمه موافق مسماه ، ولفظه يطابق معناه » . هذه هي الديباجة نقلتهـا لك الا بعض فواصل منها . ومنها تعلم الغرض الذي حمل المؤلف على وضع هذا الكتاب .

واما أربعة الابواب فقد قال عنها المؤلف هكذا : « .. وبوّبناه تبويباً على اربعة ابواب :

الباب الاول في الوصايا والآداب والحكم المرشدة الى الصواب .

الباب الثاني في قواعد الملك وأركانه ، وما يحتاج اليه الملك في قوام سلطانه .

الباب الثالث في الاوصاف التي هي (نظام) الملك وكماله ، وبهجته وجماله .

الباب الرابع فيـ الفراسة ، وهي خاتمة السياسة » . ثم شرع بفصل كل باب الى اصول ، و ينوعه الى انواع .

ولكن هذا التنويع والتفصيل والتبويب ، كل ذلك لاقيمة له في الكتاب ، فالكتاب

كله باب واحد متصل الاطراف شديد الاتصال · او الابواب كلها في قواعد الملك واركانه وفيما ليس للملك منه بد ·

وفي الفصل التالي نعود ان شاء الله الى ذكر النقط المهمة من كل باب ومن كل فصل من ابواب الكتاب وفصوله · حتى يعلم القارئ ان الكتاب كله باب واحد في تدبير الملك لا اعتبار فيه لهذا التقسيم الذي قسمه المؤلف ·

***

وقد عزمت انا وصديقي الاستاذ عبدالقادر محداد على نشر هذا الكتاب متى حصلنا على نسخة بالفوتوغراف من نسخة (الاسكوريال) وقد عملنا اكثر مايجب عمله في هذا السبيل والله الموفق المستعان ·

تلمسان (الجزائر) : محمد السعيد الزاهري

رسالة الكرم

- ٦ -

« العنقود »

العنقود بالضم والعنقاد بالكسر لغة فيه · ما كثرت عليه حبات العنب قال الشاعر :

اذ لمتي سوداء كالعنقاد كأُمّة كانت على مَصاد

والجمع عناقيد · وقد صرح الجماهير بان نونه زائدة ·

الخصلة بالفتح والضم العنقود ·

العِذْق بالكسر العنقود من العنب والقنو من النخلة وجمعه أعذاق وعُذوق · وقيل العِذق العنقود اذا اكل ما عليه · والعَذْق بالفتح النخلة و كل غصن له شعب · واعذقت النخلة كثرت اعذاقها وفي المخصص وإذا اكل ما على العنقود فالباقي عِذق وتريك كما يقال في عذق النخلة اذا نفض ماعليه · وفي التاج التريك كامير العنقود اذا اكل ماعليه ونحوه في اللسان ·

القِطف بالكسر العنقود ساعة يقطف واسم الثمار المقطوفة جمعه قطوف وفي المخصص القطف العنب اذا كان غضاً حتى يقطف · وفي الأصمعي القطف العنب اذا ما كان غضاً حتى يقطف اي يدرك · هكذا ضبط بالفتح بالشكل وقد ضبط بالكسر كما رأيت · والقطف بالفتح قطعك العنب وكل شيء تقطعه عن شيء فقد قطفته · وقطف العنب من بابي ضرب وقتل قطفاً · وقطّفه تقطيفاً جناه ·

والقطاف ككتاب وسحاب اوان القطف ووقته · وقال الاصمعي حصاد العنب وقطافه مكسوران ·

وأقطف العنب حان ان يقطف · وأقطف القوم حان قطاف كرومهم وأقطف الكرم دنا قطافه ·

والمقطف كمنبر اصل العنقود · والمنجل الذي يقطف به ·

والمقطف كمقعد مايجنى فيه الثمر جمعه مقاطف ·

والقطافة بالضم ككناسة ما يسقط من العنب اذا قطف · وقطـافة الشجر ماقطف منه ·

ويقال ماش كرمه يموشه موشاً اذا طلب باقي قطوفه · وفي التاج اذا تتبع باقي قطوفه فأخذها ·

العِسْقِب والعِسْقِبة بالكسر كلاهما عنيقيد صغير يكون منفرداً يلتصق باصل العنقود الضخم والجمع عساقب · وفي القاموس العسقبة بالكسر عنيقيد منفرد ملتزق باصل العنقود والجمع عِسْقِب وعساقب قال في التاج عِسقِب جنس جمعي كتمر وتمرة لاجمع حقيقي وعساقب جمع حقيقي ·

العسكبة كالعسقبة وزناً ومعنىً والكاف لغة في القاف · قال في القاموس ويكون فيه عشر حبات قال في التاج وهذا قيد غريب ·

المكتب كمعظم العنقود أكل بعض مافيه وترك بعضه ·

العمشوش بالضم العنقود يؤكل[1] ماعليه ويترك بعضه والجمع العماشيش · والعمشوق كالعمشوش وزناً ومعنى ·

وقال الاصمعي العمشوش العنقود اذا أخذ ماعليه وفي المخصص اذا اكل مافيه ·

وقالـــ ابن شميل اذا اكل ما عليــه فهو ثفروق وعمشوش (كلاهما بالضم) وجمع الثفروق ثفاريق ·

قال الاصمعي الثفاريق العناقيد الخالية · وقيل الثفروق العنقود يخرط ماعليه فيبقى عليه الحبة والحبتان والثلاث يخطئهـا الخالب فتلقى للمساكين · وفي المخصص الثفاريق العناقيد الخالية من الحب · وقال ابوعلي هي الثفاريق مالم يكن فيها عنب فاذا كان فيها عنب فهي العناقيد ·

وسيأتي ان الثفاريق اقماع الحب ·

الربيس كأمير العنقود المكتنز يقال اربس العنقود اكتنز · وفي اللسانـ وعنقود

---

(١) هكذا في اللسان وفي التاج يؤكل بعض ما عليه ·

مرتبس معناه انهضام[١] حبه وتداخل بعضه في بعض ٠

الكشمر بالتحريك العنقود اذا أكل ماطيه وأبقي ٠

ويقال عنقود مُذَبَّن كمعظم اكل بعض ماطيه من العنب ٠

— الخُصاصة بالضم ما يبقى في الكرم بعد قطافه العنيقيد الصغير هنا وآخر هنا والجمع الخُصاص بالضم وهو النبذ القليل ٠ وفي اللسان عن ابي حنيفة الخصاصة والجمع الخصاص كلاهما بالفتح ٠ وقال الاصمعي واذا لم يرو الغصن وخرج حبه ضعيفاً متفرقاً فهو الخصاصة والحصرم ونحوه في المخصص الا انه لم يذكر الحصرم ولم أر من ذكرها غير الاصمعي ٠

وقال الاصمعي يسمون العنقود الفِنا (هكذا بالفاء المكسورة) ٠ وفي المخصص ويقال للعنقود قِنْو كما يقال للكباسة ابو حاتم وهو القِنا بالقاف المكسورة ٠ وفي اللسان القنو العذق بما فيه من الرطب ٠ وفيه ايضاً والقِنْو والقِنا الكباسة والقَنا بالفتح لغة فيه ٠

الشِجْنة بالكسر الشعبة من العنقود تدرك كلها ٠ وقد أشجن الكرم صار ذا شجنة وتشجن الشجر التف ٠ وفي الاصمعي ويسمون شعبة العنقود الشجنة ٠

والشِجْنة عروق الشجر المشتبكة ٠ والشُجْنة الشعبة من الشيء ٠

الشِمْراخ والشُمْرُوخ العثكال[٢] الذي عليه البسر واصله في العذق وقد يكون في العنب ٠ وفي التهذيب الشمراخ عسقبة من عذق عنقود ٠ وفي كتاب الاصمعي والشعبة من العنقود الشمراخ منه ولا يسمى شمراخاً ولكنه تفسير منه ٠ وفي المخصص والشعبة من العنقود شمراخ وعسقبة وعسقب وهو كذلك من العذق ٠

والتذليل تسوية عناقيد الكرم وتدليتها ٠ ذُلِل الكرم دليت عناقيده وفي المخصص واذا سويت عناقيد الكرم فدليت فذلك التذليل ٠ وفي مفردات الراغب وذللت قطوفها تذليلاً اي سُهِلت ٠

---

(١) اي انضمامه ويؤيده عبارة التاج ٠ ارتبس العنقود اذا اكتنز وذلك اذا تضام حبه وتداخل في بعض ٠

(٢) قال في اللسان والعُثكول والعِثكال الشمراخ وهو ماعليه البسر من عيدان الكباسة وهو في النخل بمنزلة العنقود من الكرم ٠ والاثكال والاثكول لغة في العثكال والعثكول ٠

« عجم العنب »

العجم بالتحريك والعجام كغراب النوى نوى التمر والنبق وغيرهما الواحدة عجمة مثل قصب وقصبة . والعامة تقوله عجم بالتسكين وكل ماكان في جوف مأكول كالزبيب وما أشبهه عجم . وقال ابو حنيفة العجمة حبة العنب حتى تنبت .

الفرصد والفرصيد والفرصاد بكسر اولها . عجم العنب وعجم الزبيب .

النواة عجمة التمر والزبيب وغيرهما والجمع نَوًى ونُوِيٌّ ونِوِيٌّ وأنواء جمع نَوًى . والنوى يذكر و يؤنث و يكتب بالياء .

وفي كتاب الأصمعي حب العنب النواء (هكذا بالمد ولم أجدها لغيره ولعلها من تحريف النساخ) .

الحبة بالضم عجم العنب وقد تخفف كثبة وقال الاصمعي الحُبَّة الحب الذي فيجوف الحبة من العنب . وقال حب كل شيء ثقيل الباء الا حبة العنب والسفرجل والقرع .

« قشر العنب »

الجَفْن قشر العنب الذي فيه الماء .

الدواة بالدال المهملة قشر الحنظلة والعنبة والبطيخة . وهي لغة في الذواة بالذال المعجمة . والجمع ذوىً .

لحاء العنبة قشرها وفي الحديث (فان لم يجد احدكم الا لحاء عنبة او عود شجرة فليمضغه) أراد لقشر العنبة استعاره من قشر العود .

الثَّطْل القشر الذي على الطعم من العنب .

« اقماع العنب »

القِمَع والقِمْع ما التزق باسفل العنب والتمر ونحوهما والجمع أقماع .

الثُفْروق بالضم والثاء المثلثة قمع حب العنب وقمع التمر والبسر والجمع ثفاريق وقيل الثفروق ما يلزق به القمع من الثمرة وقيل علاقة ما بين النواة والقمع وقد تقدم في (العنقود) ان الثفروق العمشوش .

والذُفْروق بالدال والتُفْروق بالتاء المثناة لغة في الثفروق .

وفي اللسان العُنْدُقة ثغرة السرة وقيل العندقة موضع في أسفل البطن عند

السرة كأنها ثفرة الفخر في الخلقة ويقال ذلك في العنقود من العنب وفي حمل الاراك والبطم ونحوه ٠

« تلوّن العنب ونضجه »

يقال ألمص الكرم ٠ لان عنبه واللامص حافظ الكرم زاد الاصمعي٠ الطائف فيه يأخذ هبرة من ادناه وهبرة من اوسطه وهبرة من آخره ٠

وأوشم الكرم اذا بدأ يلون او اذا تم نضجه واوشم العنب لان وطاب ٠ وفي المخصص اذا ابتدأ يلون قيل اوشم ثم حلقم وسيأتي في نضج وقال الخطيب الاسكافي فاذا اسود بعض حبو به قيل اوشم فاذا اسود نصفها قيل شطر[1] فاذا اسودت الحبة الا بعضها مما يلي القمع قيل حلقمت ٠

أومس العنب اذا لان للنضج قيل ومنه قيل للفاجرة مومس ومومسة لانها تلين لمر يدها ٠

ايراق العنب يوراق اذا لون فهومو راق ٠ وفي اللسان اوراق يوراق اير بقاقا اذا لون٠

تشكل العنب اينع بعضه وشكّل وتشكل اسود واخذ في النضج كذا في اللسان والمخصص وفي القاموس شكّل العنب اينع بعضه واسود واخذ في النضج كتشكل وشكّل٠ الاصمعي يقال للاسود تشكل بسواد اذا مااسودّ بعضه ٠

وفي اللسان وتمر مجزّع ومجزِّع ومتجزع بلغ الارطاب نصفه وقيل بلغ الارطاب من أسفله الى نصفه وقيل الى ثلثيه ٠ وقيل بلغ بعضه من غير ان يجد وكذلك الرطب والعنب وقد جزع البسر والرطب وغيرهما تجزيعاً فهو مجزِّع وقال المعري المجزع بالكسر وقال شمر بالنصب وقال الازهري وسماعي من الهجريين رطب مجزع بكسر الزاي كما رواه المعري عن ابي عبيد ٠

التمزيج بالجيم في العنب والسنبل ان يلون من خضرة الى صفرة وقد مزّج العنب اصفر بعد خضرة ٠ ومزج الكرم أثمر ٠

---

(١) لم اجدها بهذا المعنى في اللسان ولا في التاج ولعلها مأخوذة من شطر الشيء نصفه او من شطر بناقته اذا صر خلفيها وترك خلفين فليراجع ٠

ويقال مزّح العنب والسنبل تمزيحاً اذا لون ومزح الكرم اذا اثمر . قال في القاموس او الصواب بالجيم اي مزّج قال في التاج وقد أورده الزمخشري وغيره هنا اي في باب الحاء .

الوَكَّب سواد التمر اذا نضج واكثر ما يستعمل في العنب . في المخصص الوَكَّب سواد العنب اذا نضج وقد وكّب . وفي التهذيب الوكب سواد اللون من عنب او غير ذلك اذا نضج . ووكّب العنب توكيباً اخذ فيه تلوين السواد واسمه في تلك الحال مُوَكِّب على صيغة اسم الفاعل .

وقال الازهري . والمعروف في لون العنب والرطب اذا ظهر فيه ادنى سواد التوكيت يقال بسر مُوَكِّت .

ويقال تموّه العنب اذا جرى فيه الينع وحسن لونه او امتلأ ماء وتهيأ للنضج وكذلك النخل .

ينع العنب وأينع أدرك ونضج ويقال ينع الثمر يينع من بابي منع وضرب ينعاً بفتح الياء وينعاً وينوعاً بضمها فيهما اذا أدرك ونضج فهو يانع من يَنَع وأينع يونع ايناعاً فهو مونع و يانع مثله . قال في اللسان وأينع بالالف اكثر استعمالاً . وفي القاموس ينع الثمر حان قطافه كأينع . وثمر ينيع كأمير وأينع و يانع واليانع الأحمر من كل شيء . وثمر يانع اذا لوّن .

المجج بفتحتين ادراك العنب ونضجه . وفي الحديث (لا تبع العنب حتى يظهر مججه) اي بلوغه . ويقال مَجّج العنب يمجّج اذا طاب وصار حلواً . وفي الحديث (لا يصلح السلف في العنب والزيتون وأشباه ذلك حتى يمجج) .

ويقال رقّ جلد العنب . لطف . وأرقّ العنبُ رق جلده وكثر ماؤه وخص به ابوحنيفة العنب الأبيض كذا في اللسان . وفي القاموس أرقّ العنب تم نضجه خاص بالابيض . وقال الاصمعي[1] اذا رأيت في الحب الماء قلت قد أرق فاذا أدرك قلت أينع . وقال : يقال للعنب الاسود قد أوشم وللعنب الابيض قد أرق وذلك حين يلين

(١) نقله في المخصص عن ابي حنيفة .

بعض الحبر ولم تأن كلها · وقال في موضع آخر : يقال ارق الابيض اذا رق حبه واخذ فيه النضج · وفي المخصص ابو حنيفة ارق أبيض العنب وهو الملاحي والملاّحي والتشديد قليل وتشكل اسوده ووكّت وهو الغربيب ·

في المخصص أنى العنب أدرك · وفي اللسان أنى الشيء يأني أنياً وإنى وأنى وهو أنيّ حان وادرك · وخصه بعضهم بالنبات · وفي التاج بلغ هذا الشيء اناه بالفتح ويكسر اي غايته او نضجه وادراكه ·

نضج العنب والثمر والتمر واللحم من باب سمع ينضَج نُضجاً و نَضجاً أدرك · والاسم النُضج · قال في المخصص اذا ابتدأ يلون قيل أوشم ثم حلقم[1] ثم أينع و ينع يينع ينعاً و يُنوعاً وصلح صلوحاً ونضج نضجاً ثم احصد وهو الحصاد ثم القطف وهو القطاف ·
و يقال أفضخ العنقود اي حان ان ينفضخ و يعتصر ما فيه ·

عضو المجمع العلمي
سليم الجندي



(١) في اللسان رطب محلقم ومحلقن وهي الحُلقامة والحُلقانة وهي التي بدأ فيها النضج من قبل قمعها وفيه عن ابي عبيد يقال للبسر اذا بدأ فيه الارطاب من قبل ذنبه مُذنّب فاذا بلغ الارطاب نصفه فهو مجزّع فاذا بلغ ثلثيه فهو حلقان ومحلقن وفي التاج وقد حلقم وحلقن وزعم يعقوب انه بدل ·

آراء وافكار

—*—

« تأويل كلمات في تاريخ حلب »

في الكتب التاريخية الخصيصة بحلب — اسماء أعلام تمحل مؤلفوها بتأويلها فأفرغوها في قوالب عربية مع انها أعجمية محضة موضوعة على مسمياتها من قبل الامم الاعجمية التي كانت تقطن حلب وما يضاف اليها من الاصقاع قبل الفتح الاسلامي وهي كلمات كثيرة قد تتعذر الاحاطة بها و يصعب تحليلهـا على من لم يكن متضلعاً باللغة السريانية وغيرها من اللغات المتفرعة عن اللغة الآرامية .

وقد اقتصرت منها على خمس كلمات أوردتها كالنموذج لهذا الموضوع فأقول :

— الكلمة الاولى « حلب » —

هذه الكلمة علم على مدينتنا المعروفة ، وقد كثرت الأقاويل في تأويلها فمن قائل انها اسم اول بانٍ لهذه المدينة وهو (حلب بن مهر بن خاب) قلت هـذا الاسم مما لم أره الا في بعض تواريخ حلب ، وقيل ان هذه الكلمة (حلب) جعلت علماً على هذه المدينـة اخذاً من قول العرب (ابراهيم حلب الشهباء) حينما كان مقيماً في تلها قبل ان تبنى عليـه القلعة فكان كل يوم يحلب بقرة له شهباء و يوزع لبنها على العرب المخيمين في جواره ، قلت ربما كان لهذا القول نصيب من الصحة اذا سلمنا بان العرب كانوا يترددون على هذه الاصقاع للامتيار وتسريح السوائم في مراعيها الخصيبة او انهم كانوا مقيمين فيها تحت مضار بهم جيراناً لاخوانهم الأراميين ، فقـد صرح هيرودتس واسترابون وغيرهما من قدماء المؤرخين وبعض علماء هذا العصر — ان قبائل عديدة من بلاد العرب او من خليج العجم ارتحلوا الى سورية منذ قديم الايام اه . قلت فمن الجائز حينئذ ان يكون هذا الصقع عرف بهذا الاسم اخذاً من فعل الخليل وان كان له اسماء أخر عند غير العرب من

الامم التي كانت تقطن هذا الصقع الا ان صحة هذا التأو يل تبقى موقوفة ر يثما يثبت مجيء الخليل الى هذه الانحاء فاندعه موقوفاً في زوايا الاهمال حتى نظفر باثر يثبت مجيء الخليل اليها ·

وقال بعضهم ان كلمة (حلب) محرفة عن "هلَبه وهو اسمها عند العمالقة وهو قول عجزنا عن اثباته · وزعم آخرون انها محرفة عن "خلَبه قال وهو اسمها عند اليونانيين وهو قول عارٍ عن الصحة فقد ثبت ان اليونانيين كانوا يسمونهـا ("برُوئا") وهو اسم احدى مدنهم في ترافيا ، سموها بهذا الاسم جرياً على سننهم في تسمية مايحتلونه من البلاد الاجنبية باسم احدى مدنهم الاصلية · ورأى حضرة المطران فرحات في قاموسه ان كلمة حلب معربة عن (ألبٌ) منقولة عن اسم مجددها (البيوس) الشهير من وزراء يوليانوس العاصي ، قلت يعارض هذا الرأي ان (البيوس) وجد بعد المسيح عليه السلام وحلب كانت تسمى بهذا الاسم قبله في عهد بني اسرائيل فان الاستاذ منكه الفرنسي الجغرافي الشهير — سماها بهذا الاسم في خارطة بني اسرائيل عن اطلسه العام التـاريخي · وأطلق كزانفون اليوناني تلميذ سقراط الحكيم كلمة حلب على الاصقاع الممتدة من اذنة الى الفرات ·

رأيي في هذه الكلمة — والذي أراه في هذه الكلمة انها سريانية محرفة عن (حلبا) بالألف ومعناها البيضاء حذفت الفها بالاستعمال جرياً على قاعدة المتكلمين بالسريانية من انهم يحذفون أمثال هذه الالف بالتكلم ، وان اتباع حلب بكلمة الشهباء التي معناها البيضاء المصدوعة بالسواد — مما وضعه العرب كالمرادف لكلمة حلب لتفسيرها ، وان السريانيين كانوا يسمونها بهذا الاسم لما كان يشاهد المقبل عليها من بياض ضواحيهـا التي تكثر فيها سباخ الملح خصوصاً ضواحيها الجنوبية الشرقية التي تبهر الناظر بلمعان سباخها ولاسيما إبان القيظ ولما كان يشاهد للقادم على حلب من بياض مبانيها التي كان معظمها يبنى بالحوار الابيض المأخوذ من مغاراتها الواسعة المنتشرة فيها وفي أطرافها كمغارة حارة المعادي وحارة الكلاسة وغيرهما من المغائر التي يطول الشرح بعدّها فكانت مناظر حلب لهذا السبب كمناظر مدينة عينتاب والرّها وغيرهما من البلدان التي مابرحت عمائرها تبنى بالحوار حتى الآن ·

كانت مباني حلب تبنى كلها من هذه المادة سوى مباني الحصون وبعض مباني المعابد ومنازل الحكام والامراء وذوي الثراء وسبب ذلك كثرة ما تتطلبه المباني الحجرية من

المال الكثير والعناء الشديد في قطع الحجارة وقلعها من مناجمها فان اهل هذه الحرفة قبل ان يستعملوا البارود في نسف الصخور والجنادل على طريقة (اللغم) المعروفة كانوا يحطمون صغارها بالمعاول والصواقير و يجزون كبارها بالحز و يسفنونها بورق الحديد فيصرفون في ذلك أموالاً طائلة و يتكبدون من الضيق والعناء ما لا مزيد عليه ·

— الكلمة الثانية « قويق » —

هذه الكلمة علم على نهر حلب وفيه يقول الشاعر الصنوبري : .

قويق على الصفراء ركب جسمه فما لهب القيظ الأليم يوافقه
اذا جد جد الصيف غادر جسمه ضئيلاً ولكن الشتاء يرافقه

قال ابن الشحنة نقلاً عن ابن شداد — يريد الصنوبري بهذا ان اصحاب الامزجة الصفراوية تنحل أجسامهم في الصيف ويوافقهم الشتاء وان قويق يقل ماؤه في الصيف حتى يصير حول المدينة كالساقية ، قال ابن الشحنة وقد فهمت من هذا امراً وراء ماذكره ابن شداد وهو ان قويق تصغير قاق وهو يخالف طبعه الحر فيكون في الصيف غاية في الضعف وفي الشتاء غاية في النشاط اه · هذا ما استنبطه ابن الشحنة من بيتي الصنوبري ، ومراده بالقاق الطائر المعروف بالغراب الأبقع المكني بابن دأية ·

وقال ياقوت في كتابه معجم البلدان لما تكلم على هذا النهر قويق كأنه تصغير قاق وهو صوت الضفدع ولذا قال شاعرهم وأورد البيتين الاخيرين من هذه القطعة وهي :

قويق اذا شم ريح الشتا · اظهر تيهاً و كبراً عجيبا
وماثل دجلة ثم الفرا ت بهاءً ولطفاً وحسناً وطيبا
وان اقبل الصيف ابصرته ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
اذا ما الضفادع نادينه قويق قويق ابى ان يجيبا
وتمشي الجرادة فيه فلا تكاد قوائمها ان تغيبا

فهذان تأويلان لكلمة قويق ، وهناك تأويل ثالث ربما كان أضعف منهما ، وهو ماذكره صاحب سالنامة ولاية حلب المطبوعة سنة ١٣٠٠ فقد زعم ان هذا النهر أضيف الى اسم الذي جرّه من منبعه الى حلب وهو قويق اغا احد زعماء التركمان في دارة العمق المدفون في تربة سوق الخيل بحلب ، أقول هذا النهر من جملة الانهار الطبيعية الجارية

بطبعها التي لم يجرها احد من منابعها وان المدفون في التربة المذكورة أرغون نائب حلب لا غير وان قويق الذي زعمه صاحب التقويم السنوي عنقاء مغرب لا ذكر له في كتاب ولا سمعنا به من احد .

رأيي بهذه الكلمة — أرى ان كلمة قويق محرفة عن (قَوَقْ) كلمة يطلقها الاتراك على شجر (الحور) وهو شجر ابيض اللحاء يطول باستقامة نحو عشرين متراً او اكثر ومنه نوع تعمل من صمغه الكهرباء .

بيان ذلك ان هذا النهر كان ولم يزل يغرس على أطرافه في أوائله من بلاد عينتاب — شجر الحور فينمو وينجب و يباع منه الكثير في البلاد القريبة من عينتاب فعرف به هذا النهر وأضيف اليه وقيل باللسان التركي (قوق نهري) ثم نقل الى اللغة العربية فقيل (نهر قوق) ثم حرفت الكلمة الثانية فصار نهر قويق وترجمتها بالعربية (نهر الحور) .

ومما يؤيد ان كلمة قويق تحريف (قوق) التركية انه يوجد في مدينة عينتاب التي هي اول مصدر للينابيع التي يتكوّن منها هذا النهر — مستنقع عظيم معد منذ القدم لغرس شجر الحور معروف حتى الآن باسم (قوقلق) اي مغرسة الحور او (محورة) كان هذا النهر يسمى قديماً (شالوس) ، وقال (دارفيو) : احد قناصل الدولة الفرنسية بحلب في حدود القرن الحادي عشر هـ في كتابه الذي سماه (تذكره اسفارى) — كان هذا النهر يسمى (سيفا) او (سيكويم) وانه كان يسمى قبلاً (بيلوس) اهـ . وسماه (كزانفون) اليوناني (خالس) . قال وهو نهر صغير فيه أنواع من السمك والسوريون يحسبونهـا آلهة ولا يسمحون بصيدها لاحد .

والذي يغلب على ظني ان اول مرة أضيف هذا النهر الى كلمة قوق كان في ايام الدولة الطولونية التي هي اول دولة تركية حكمت في حلب بعد الفتح الاسلامي فان هذا الاسم للنهر لم نره في شيء من النظم والنثر أقدم من كلام الشاعر البحتري الذي استغرقت حياته جميع ايام الدولة الطولونية ، فلعل أسماءه القديمة التي ذكرناها نسيت اوهجرها الناس استثقالاً لها فاعتاضوا عنها باسمه الجديد .

— الكلمة الثالثة « بانقوسا » —

هذه الكلمة علم على ناحية في ظاهر مدينة حلب فسيحة الأكناف مترامية الاطراف

كانت في القرن السابع للهجرة ذات اشجار ملتفة وادواح متشابكة منها يستمد اهل حلب ما يلزمهم من الاخشاب المتنوعة ، وكانت من جهة اخرى تعد من جملة منتزهات حلب كما تشير الى ذلك اشعار البحتري والصنوبري وغيرهما من الشعراء وكما يظهر من عبارات المؤرخين حين تكلمهم عن الحروب الناشبة بين سيف الدولة وبين كافور الاخشيدي الذي كان يقطع الاشجار التي اشتهرت حلب بكثرتها . قال البحتري :

... اقام كل ملث القطر رجاس ... على ديار بعلو الشام ادراس

... فيها لعلوة مصطاف ومرتبع ... من بانقوسا وبابلى وبطياس

... وقال الصنوبري ...

... والظهر من حلب منزل ... ...

... بانقوسا وتلك التي ...

... لترتاح نفسك من ... ويمرح طرفك في مرجه ...

وقال من قصيدة أخرى :

... حبذا البا آت باه ... وفوبق ... باها

... بانقوسا ... باهى المباهي حين باها

وقال مجد الدين بن اسماعيل الآمدي :

سقى الله وادي بانقوسا من الحيا ... سماء يروي ... ويهب

تأويل العامة لهذه الكلمة — يزعم العامة من اهل حلب ان هذه الكلمة مركبة من كلمتين احداها (بان) والاخرى (قوسها) اي ظهر قوسها ويحكون في ذلك حكاية طويلة خلاصتها ان حرباً قامت على ساق بين اهل حلب وبين الروم وكثرت القتلى من الحلبيين حتى خاض المتحاربون الدم وان الروم بينما كادوا يحرزون الغلبة على الحلبيين ويفنونهم عن آخرهم اذ ظهرت في أخريات جيش اهل حلب فتاة كانت معروفة عندهم بالفروسية والشجاعة واخذت تلوح للحلبيين بقوسها كأنها تشجعهم فاستبشروا بظهورها وقويت عزائمهم وتنادوا فيما بينهم (بان قوسها ، بان قوسها) وكروا على الروم فهزموهم ومزقوا جموعهم شر ممزق ومن ذلك التاريخ جعلت هذه الكلمة علماً على تلك الناحية .

تأويل اقل قيمة من الصوصة خرافية ، اما كان من الواجب فيها ذكر تاريخ تلك الواقعة العظيمة وبيان اسرافاتها الباسلة والاشادة بذكرها كما اشاد الفرنسيون بذكر فتاتهم جاندارك فان مثل هذه الفتاة جديرة بان تخلد ذكرها في صفحات التاريخ .

وهناك تأويل آخر لكلمة بانقوسا اشد بطلاناً من التأويل الاول لان القائل به يزعم انبانقوسا نبي من انبياء الله العظام ، وذلك انه يوجد في جامع بانقوسا الشهير بجاب — ضريح يزوره الناس ويتبركون به لانه نقش على سناده الحجري هذه العبارة :

« يا حضرة نبي الله بانقوس على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام قد اخبر بهذا العلامة الشيخ مرتضى الدين الزبيدي شارح الاحياء والقاموس . قال شيخنا العلامة الشيخ احمد التكمجي نزيل مصر ان الشيخ مرتضى امام في علم التاريخ » اه .

اقول الشيخ مرتضى هذا هو العلامة محمد الشهير بمرتضى الدين الزبيدي المتوفى في القاهرة سنة ١٠٩٦ وقد تصفحت شرحه على الاحياء من اوله الى آخره فلم أظفر فيه بذكر لنبي الله بانقوسا ، كما انني لا أعرف نبياً بهذا الاسم ولا ادري اين قال الشيخ مرتضى ان بانقوسا اسم نبي ، وانما قال في شرحه على القاموس فيما استدركه على مادة بنا قيس بنقوسا جبل في ظاهر حلب ، واستشهد على قوله بابيات البحتري التي اسلفت ذكرها ، فلو كان مرتضى الدين هو القائل بان بانقوسا نبي من انبياء الله لكان ذكره اياها في هذا المحل اولى من ذكرها في غيره لانه كان يجعلها استدراكاً على صاحب القاموس كما جرت عادته في ذلك .

رأيي في هذه الكلمة — ارى في هذه الكلمة (بانقوسا) انها محرفة من كلمة سريانية هي (بيت نقوشا) اي بيت الناقوس حذفت من الكلمة الاولى الياء وأبدلت التاء بالالف كما هو قاعدة النقل من السريانية الى العربية كباصفرة و بابنس اي بيت صفرة وبيت بنس وقلبت الشين سيناً كما قلبت في قنشرين فصارت (بانقوسا) وربما استدل بهذا على ان جبل هذه الناحية في ايام سكنى الكلدانيين في حلب كان موضع الناقوس .

ومما يؤيد ان المراد من هذه الكلمة ماذكرته انه يوجد من القديم في حارة من حارات حلب اسمها الشرعسوس — حوض يعرف باسم قسطل (بنقوس) فهل كان الداعي لتسمية هذا الحوض بهذا الاسم ظهور فتاة باسلة ام هل مدفون في جواره نبي الله بانقوس حتى

سمي بهذا الاسم ، كلا بل هو لم يضف الى بنقوس الا لأن في جواره معبداً قديماً نصرانياً علق عليه الناقوس ·

الكلمة الرابعة « المعرة » — هذه الكلمة علم على مدينة معرة النعمان : قال ياقوت في كتابه معجم البلدان لما تكلم على هذه البلدة « المعرة تأتي بمعان مختلفة وهي الشدة وكوكب في السماء دون المجرة وتلون الوجه من الغضب والمعرة في الآية معناها جناية كجناية العر وهو الجرب » اه ·

قلت لايخفى ان هذه البلدة لايوجد لها صفة تؤهلها لان ينطبق عليها احد هذه المعاني ولذا ارى ان كلمة معرة سريانية الاصل محرفة عن (مَعَرْتا) فتصرف بها العرب كما تصرفوا بغيرها من الكلمات الاعجمية وان معنى هذه الكلمة المغارة سميت بذلك لوجود عدة مغارات فيها كانت معدة لاحراز ماء المطر ، وهكذا يقال في معارة (معرة) مصر ين البلدة المعروفة ومعنى مصر ين في السريانية (الامطار) يدل على صحة ماأراه وجود عدد عظيم من المغائر في هذه البلدة ايضاً ·

خاتمة — كل رأي ابديته في هذه المقالة ينبغي حمله على الأركان فلست أصر عليه اذا قام البرهان على خلافه اذ لا ضالة لي أنشدها سوى بيان الحقيقة ، والله يهدي الى سواء السبيل ·

كامل الغزي

عضو المجمع العلمي

—«»—

دمشق

هل يقال فيها دمشقة ؟

« بين سيف الدولة وابن خالويه »

—*—

عقد ابن عساكر في تاريخه الكبير فصلاً ضمنه البحث (في اشتقاق تسمية دمشق وأماكن من نواحيها) وقد أحببنا ان ننقل منه النبذة التالية التي افتتح بها الفصل قال :

ودفع الي ابو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي ببغداد كتاب اشتقاق اسماء البلدان لابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا اللغوي وعليه خطه فوجدت فيه :

واما دمشق فيقال انها من دَمْشَق وناقة دَمْشق اي سريعة قال :

وصاحبي ذاتُ هِباب دَمْشَقُ   كأنها بعد الكلال زورق(١)

و يقال : دمشق الضرب دمشقة اذا ضرب ضرباً سريعاً خفيفاً ·

أخبرنا ابوغالب احمد بن الحسن بن احمد البنا أنبأنا ابوعلي محمد بن الحسين بن الفرا· أنبأ ابو القاسم اسماعيل بن سعيد بن سويد المعدل قال : قال ابو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري أنبأنا :

«دمشق» فعلٌ من قول العرب ناقة دَمْشَق للخطو : اذا كانت خفيفة الخطو ·

وذكرابو عبد الله الحسين بن خالويه النحوي فيما قرأته بخط ابي محمد عبد الله بن الخطابي الشاعر :

---

(١) أراد الشاعر بصاحبه ناقته والهباب مصدر هبَّ السائر من انسان ودابة نشط وأسرع · فهو يصف ناقته بالدمشقة والعجلة في السير يقال دَمْشَقَ الامر اذاأتاه بالعجلة · و يفهم من التاج ان دمشق سميت من هذا لان الآمرين ببنائها كانوا يقولو (دمشقوها) اي ابنوها بالعجلة ·

كتب الي سيف الدولة — لا شلّت(١) عشرُه ، ولاشلّت يده — يسأل عن «دمشق» : هل يقال فيها «دِمَشْقَة» ام لا ؟

فقلت :

« (دمشق) اسم هذه المدينة ، ليست عربية فيما ذكر ابن دريد ، بل هي معرّبة ، »
« ولا يقال الا بغير هاء ، فأما (الدمشقة) السرعة : دمشق يدمشق دمشقة ودمشاقاً »
« اذا أسرع ، وكل سريع دمشق ، أطال الله بقاء سيدنا (٢) .... »

فأعاد الرقعة وقد وقّع عليها :

« مرّ بنا في كتاب : قال عبد الرحمن بن سهيل الحجبي ، وهو بعسكر يزيد ابن ابي سفيان عند حصارهم دمشق : »

(أبلغ ابا سفيان عنا باننا على خير حال ، كان جيشٌ يكونها)
(وانا على بابي دِمَشْقَةَ نرتمي وقد حان من بابي دمشقة حينها)

وفي الرقعة ايضاً :

« ان الناقة السريعة يقال لها (دمشق) والمرأة السريعة اليد في العمل » .

فكتبتُ تحته :

« (٣) .... ولاسيما اذا قصد بدمشق الى مدينة ، فزاد هاء ، تأكيداً »
« للتأنيث ، كما ان عقرباً مؤنثاً بغير علامة التأنيث ، والعلّة بان ذكرها فقالوا : عقربة »
« تأكيداً ، لكذلك دمشق ودمشقة ، وذكر يونس وغيره : أنثاةٌ وعجوزة وفرسة(٤) . »
« كل ذلك تأكيداً ، وقرأ ابن مسعود (تسع وتسعون نعجةً(٥) أنثى) » .

(١) اي لا مرضت انامله العشر . (٢) في موضع هذه النقط من الاصل جملة محرفة هذه صورتها (بد السند وز يرام خنور بكونه فيها) .

(٣) في موضع هذه النقط من الاصل جملة محرفة ايضاً هذه صورتها (هـذا حاين الشاعر يحتمل له) . (٤) يعني ان كلمات (أنثى وعجوز وفرس) مؤنثات بغير تاء لكنهم يلحقون بهـا التاء أحياناً لتأكيد التأنيث . (٥) يعني بزيادة كلمة «أنثى» على القراءة المشهورة مع ان كلمة «نعجة» يفهم منها الأنوثة من دون كلمة «أنثى» لكنها ألحقت بها في هذه القراءة لتأكيد التأنيث .

فبعث يستحضرني . فلما مثلت بين يديه . قلت :

« أيها الامير : رب علم كنت مبيه . وقد استفدته « دمشقة » . الا انه في »
« الغو كما ذكرت . والعرب تزيد المذكر بيانا . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : »
« (ابن لبون ذكر) وتزيد المؤنث تأكيداً مثل (نعجة أنثى) » .

وذكر كلاماً غيره :

سمعت ابا بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الفرضي ببغداد . وكان اسيراً . وبقي ببلاد الروم مدة . ثم ان رجلاً من حكماء الروم قال له : انما سميت «دمشق» بالرومية . وان اصل اسمها « ذومسكس » اي مسك مضاعف لطيبها . لأن « ذو » للتضعير و « مسكس » هو المسك . ثم عربت فقيل (« دمشق » والله تعالى اعلم) اه .

« المغربي »

— ((*«»*)) —

من نوادر مخطوطات
« دار الكتب الظاهرية »
- ٤ -

(المنتظم في تاريخ الامم) : تأليف ابي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو تاريخ مفصل منذ بدء الخليقة الى زمن البعثة النبوية ، ثم منها الى خلافة المستضيء العباسي على ترتيب السنين . وفيه نبذ من الفوائد الحديثية وتراجم الملوك والأعيان . والموجود منه المجلد الخامس : من وقعة اليرموك الى خلافة علي بن ابي طالب رضي الله عنه . وحوادث سنة ست وثلاثين مجروبة . وقد كتب سنة ٦٥٩ هـ بقلم نسخ . (رقم ٦٢ : التاريخ)

(أخبار الاذكياء) : تأليف يوسف بن حسن بن عبدالهادي من علماء صالحية دمشق في القرن التاسع . نسخة بخط مؤلفها سنة ٨٩٤ هـ . (رقم ٦٣ التاريخ)

(الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة) : تأليف نجم الدين محمد بن بدر الدين الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ هـ وهو معجم فيه تراجم رجال عصره من علماء وأدباء وله ذيل للمؤلف نفسه سماه (لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر) نسخة كتبت بقلم عادي سنة ١١٦١ هـ . (رقم ٤١ التاريخ)

(الاغراب في أحكام الكلاب) : تأليف يوسف بن حسن بن عبد الهادي . قال مؤلفه بعد البسملة والحمدلة « وبعد فهذه نبذة يسيرة في أحكام الكلاب سميتها (الاغراب في أحكام الكلاب) » . نسخة بخط المؤلف تعسر قراءتها . كتبها سنة ٨٩٤ هـ . (رقم ١٥ : الآداب)

(اسماء الضعفاء من رجال الحديث) : لابي الفرج عبد الرحمن بن ابي الحسن علي

ابن محمد الجوزي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو كتاب في من نسب الى الكذب ووضع الحديث ، ومن غلب على حديثه الوهم ، ومن يتهم في بعض حديثه ، مرتب على حروف المعجم ، الموجود منه نسخة تبتدئ من حرف الألف الى الغين ، وكتب في هذه النسخة انها بخط محيي الدين النووي في ١٨٤ صفحة متوسطة . (رقم ٣٦٣ الحديث)

(اللطائف من دقائق المعارف في علوم الحفاظ الأعارف) : تأليف ابي موسى محمد بن ابي بكر عمر بن ابي عيسى الاصبهاني المولود باصبهان سنة ٥٠١ هـ المتوفى سنة ٥٨١ هـ اولها (الحمد لله حمد الشاكرين الخ) أورد فيه أنواعاً لطافاً من علم الحديث لا يهتدي الى مثلها الا النحرير من الحفاظ : مثل رواية الفاروق عن الصديق ، ورواية الصديق عنه . نسخة في ثمانية أجزاء عدد صفحاتها ١٦٦ كتبت بقلم عادي سنة ٧٠١ هـ (رقم ٣٥٦ الحديث)

(شرح عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد) : تأليف ابي العباس احمد بن محمد جُبارة المرادي المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وهو مجلد في ٣٥٨ صفحة بقطع الوسط بخط محمد عبد المولى الحنبلي البعلي ، كتبها سنة ٦٩٨ هـ في مدينة بعلبك ، وقد قوبلت على نسخة المؤلف . (رقم ٧ ات قراآت)

حسني الكسم

مطبوعات حديثة

معجم اسماء النبات

« تأليف الدكتور احمد عيسى بك عضو المجمع العلمي العربي بدمشق »
« واللجنة العليا لدار الكتب الملكية في القاهرة والمعهد العلمي المصري ، طبع »
« بالمطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٣٠ م في نحو ٣٠٠ صفحة من القطع »
« الكبير »

اذا كانت قيمة الكتب بالجهود التي تبذل في تصنيفها فهذا المعجم يعد كتاب السنة بل كتاب اكثر من سنة . فان ذكر بضعة آلاف من اسماء النبات بالعربية مع مقابلها باللاتينية ومقابل عدد منها بالفرنسية والانكليزية امر يحتاج الى علم واسع بالنباتات والى بذل جهود عظيمة لتحري الصحيح من الالفاظ العربية التي وردت في كتب الابحاث النباتية ككتاب بوست وشوينفورث ولورمكال وغيرهم . ولقد تصفحت المعجم وفتشت عن كثير من الالفاظ فيه فألفيته أجود ماوضع في هذا الصدد حتى الآن وأتمه ، والفيت المؤلف الفاضل راجع جميع مايمكن الوصول اليه من المآخذ العربية والاعجمية ودون مافيها بدقة تامة على شكل يسهل معه مراجعة الالفاظ في اي لغة كانت من اللغات الاربع وهي اللاتينية والعربية والفرنسية والانكليزية . اما الطبع فهو ممتع جداً ولله در القائمين باعمال المطبعة الاميرية المصرية على مايتحفوننا به بين حين وآخر .

ولقد رأيت من المفيد ان ألفت نظر العلامة صاحب المعجم الى ما يلي وهو :

اولاً . — لم أجد في المعجم كثيراً من الازهار والرياحين واشجار التزيين وهي عدد عظيم مثل (Passiflora Cœrulea) وهو نبات معرش معروف يسمونه في دمشق نبات الساعة لانهم يشبهون زهرته بالساعة و (Dahlia) وقد عرب في دمشق باللفظة

أضاليا وأزهاره في الخريف مشهورة وشجر (Cazuarina) وهو خيطي الورق سريع النبات عرب بحرف كزورينا الى عشرات غيرها . وقد يكون عذرالمؤلف في اهمال هذه النباتات كون معظمها تعد نباتات اجنبية نقلت حديثاً الى بلادنا وليس لها اسماء عربية ولكنني أرى ان هذه الملحوظة لا تحول دون اثباتها في المعجم كما أثبتت أمثالها (شجر الاوكاليبتوس وغيره) . ثم ان لهذه النباتات شهرة تجعل ذكرها امراً ضرورياً في معجم كهذا وان كان لايتناول غير اسماء النبات .

ثانياً . — لا يزال في المخصص وغيره عدد لايستهان به من اسماء النبات لم أجدها في معجم الدكتور المحترم مثل القُذَّام والحَبَّهَل والسُّلْج والعَبَاقِيَّة والأُسْحُمَان الخ فعساه يتمكن من معرفة اسمائها العلمية وان كان ذلك امراً صعباً .

ثالثاً . — شاهدت في بعض انحاء لبنان كعين زحلتة ومابين برمانا وضهور الشوير وعلى ضفاف (البردوني) في زحلة شجرة تسمي باللاتينية (Alnus) و بالفرنسية (Aulne) ويسميها اللبنانيون النغث والنغظ والمغث وهي الفاظ لم أجدها في الامهات . وقد ذكر بوست هذه الشجرة في كتابه اما صاحب معجم اسماء النبات فلم يذكرها .

رابعاً . — قال ان السوريين يسمون النبات (Gundelia Tournefortii) العَكُوب والكَعُوب مع اننا لم نسمع بغير العَكُّوب بتشديد الكاف . وقال اننا في الشام نسمي النبات (Prunier) الانجاص مع اننا نسميه الخوخ ويسميه المصريون البرقوق . ولم نسمع بلفظة اجاص ، اما لفظة انجاص بالصاد فلا نطلقها على غيرالكمثرى (Poirier) كما أورده . واما ما يسميه المصريون الخوخ اي (Pêcher) فاننا نسميه الدراق والدراقن .

وذكر ان ما نسميه في الشام اسكي دنيا و بني دنيا هو الشجر المسمى (Mespilus germanica) و بالفرنسية (Néflier) على حين ان الشجر الذي نطلق عليه الألفاظ المذكورة وخاصةً لفظ ابكي دنيا هو الشجر المسمى (Eriobotria japonica) دون غيره و بالفرنسية (Neflier du Japon, Bibassier) .

خامساً . — جمع حضرة المؤلف عمداً جميع الألفاظ التي رأى ان العرب يطلقونها على النبات الواحد مع ان من هذه الالفاظ ما اشتهر بكونه يدل على نبات آخر . وهذه

الطريقة لاتخلو من سيئات مثاله انه أورد مقابل النبات المسمى (Vicia Ervilia) ١٣ لفظة منها الكرسنة والبيقية والقرصعنة ، فالكرسنة هي اللفظة الوحيدة التي يُعرف النبات المذكور بها في الشام وفي معظم البلاد العربية (وهو من القطاني المشهورة) اما لفظة البيقية فالشاميون كافة لا يطلقونها الا على النبات الزراعي المعروف المسمى (Vicia Sativa) .

(ومن الغريب ان المؤلف لم يذكر لفظة بيقية وبيقة مقابل هذا الاسم اللاتيني) . واما لفظة قرصعنة فنحن لا نطلقها اليوم الا على النبات المسمى (Eryngium Creticum) وهو من البقول البرية . فيتضح من ذلك ان طالب العلم اذا قرأ في كتاب زراعي فرنسي عن نبات (Ers ervilier) مثلاً وفتش عما يقابله بالعربية في المعجم يضيع بين اللفظات الثلاث المذكورة لان كلاً منها لا تستعمل (في الشام على الاقل) الا لنبات واحد من النباتات الثلاثة .

ولا شك ان الدكتور هو أجدر من يدرك اضرار تعدد المعاني في اللفظ الواحد ولا سيما في موضوع علمي كهذا اذ لا يجوز ان تتناول اللفظة غير نبات بعينه لكن المؤلف الفاضل تعمد كما يفهم من مقدمة المعجم ذكر جميع مدلولات اللفظة الواحدة لتكون الالفاظ مرجعاً لعلماء المستقبل الذين سيعهد اليهم تخصيص المعنى الواحد بكلمة واحدة .

وبعد فان معجم العلامة احمد عيسى بك « الذي يظهر انه يشتغل بتواضع وبلا ضوضاء كما يقول الاوربيون لا كالذين يملأُون الدنيا ضجيجاً لأتفه تصنيف » هو عمل خالد . ومتى قدر لهذه الامة ان يجتمع علماؤها في مجمع علمي مشترك (وهذا لا يكون الا في مصر على ما أرى) لوضع معجم في العلوم أعجمي عربي تقره الدول العربية ، فان خير أساس يمكنهم ان يبنوا عليه من حيث اسماء النبات هو هذا المعجم .

مصطفى الشهابي

القبائل الرحالة والنصف رحالة

« في دول الانتداب الافرنسي في الشرق »

طبع في بيروت سنة ١٩٣٠ م في مطبعة جان دارك ص ٣٦١ بالافرنسية

Les tribus nomades & semi - nomades des états du Levnt placés sous mandat français. Beyrouth juillet 1930

هذا كتاب نشرته دائرة الاستخبارات في المفوضية العليا في سورية ولبنان . وفيه مختصر ممتع في تاريخ القبائل الرحالة في سورية ، ووصف القبيلة وما يتنوع منها والمشايخ والعادات والأخلاق والمنازل والأمواه ، وما له اتصال بالبدوي وما يعمل لتحضيره ، ووصف مطول لما يجب ان يعرف من حال القبائل في الشمال والجنوب ، ومن ينزل من هذا الصنف من الناس في سورية وجمهورية لبنان وبلاد اللاذقية وجبل الدروز ، وجداول في أنساب المشهورين من الرحالة والنصف رحالة .

وقد جاء فيه ان قبيلتي عنزة وشمر هما الآن في اول سلم التحضر ، اي رحالة من الطراز الاول اما الموالي والحديديون والنعيم فهم في المرحلة الثانية من التحضر ، وعرب السلوط والفضل ، وان نزلوا تحت الخيام ، فهم عرب متحضرون مقيمون ، وان حب الغزو متأصل في نفوس هاته القبائل العربية منذ اكثر من الف سنة قبل المسيح لذلك اطلق المصريون القدماء على القبائل التي عرفت شرقي السويس اسم اللصوص (سوزو) او النهابين ومنه اشتق اليونان اسم (هكسوس) الذي اطلقوه على الملوك الرعاة الذين خاضوا الى مصر وغزوها قبل ثلاثة آلاف سنة .

وجاء في هذا الكتاب انه بذل من العناية لتحضير هؤلاء البدو واسكانهم في عشر سنين ، ما تكلل بالنجاح على صورة لم يجر التوفيق الى ايجاد مثله في قرون ، وان جزيرة العرب تقذف كل بضع سنة الى البلاد العامرة في الشام والعراق ، بموجات من القبائل تزحزح سكانها المقيمين فيها لتنازعهم ارضهم ومراعيهم ومياههم الخ . وحبذا لو تعلقت همة احد الادباء لنقل هذا البحث الجليل الى اللغة العربية ، فالقبائل البدوية في الشام نحو خمس السكان ، ومن العدل ان ينظر في حال هذا الجزء العظيم ، وبدون تحضيره لا تقوم للعمران عندنا قائمة .

م . ك

مختصر في القضاء البدوي

« تأليف السيد تربيه طبع على الآلة الكاتبة ص ٧٩ »

Commandaut Zerrier : Essai de législation bédouine

وهذا من منشورات المفوضية العليـا ايضاً ، كتبه الاستاذ تربيه من ضباط الجيش الافرنسي بعد ان قضى سنين طويلة مع البدو في بوادي الشام وحواضرها ، واطلع على أحوالهم اطلاعاً كافياً ، فكتب هذا المختصر في الشرع الذي يشرعه العربان لانفسهم ، وما اصطلحوا عليه في هذا الباب ، وفيه آثار العطف عليهم ، والعناية بشأنهم · وقد ختم هذه المجلة القضائيـة البدوية بقوله : « يجب علينا ان نعامل البدو باحكام تتفق مع مداركهم بدون ضعف ولاشدة · وهذه احسن طريقة لنتألفهم ، ونقربهم منا ، وهم كذلك منذ الآن الا قليلاً » · وهذا ايضاً مما يجب نقله الى لغتنـا ليكون منه ومما كتبه بعض السوريين والفرنج في الموضوع مادة جاهزة تنفع كل أريد البحث في شؤون بوادينا ، للتلطف في ادخال الحضارة عليهم على نحو ماتجري عليه الحكومة المنتدبة في تأليف شاردهم وإلانة شرّتهم · م · ك

تهافت التهافت لابن رشد

« نشره الاب موريس بويج (Bouyges) اليسوعي وطبعه في المطبعة »
« الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٣٠ ص ٦٧٩ »

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة المكتبة الفلسفية (السكولاستيكية) التي اخذ الاستاذ بويج على نفسه نشرها والتعليق عليها ، على أسلوب علمي حديث (مجلة المجمع العلمي العربي ص١٢٤ م ٨) وتهافت التهافت لفيلسوف الاسلام ابن رشد مشهور معروف ، طبع طبعات غير متقنة ، وطبعه الناشر طبعة علمية جميلة ، وعلق عليه تعليقات دلت على تمكنه من اسرار موضوعه ، وكنا نود لو كانت تعليقاته باللغة العربية فقط ، لان الكتاب اذا أريد من نشره نفع المستعربين من علماء المشرقيات ، فهم يحسنون العربيـة ، واذا كان القصد منه قراء الفرنجة على الاطلاق ، فهؤلاء ليسوا من العربية على شيء ، و يحتاجون

قبل كل امر الى نقل النص الاصلي الى لسان عربي . وعلى كل فالشكر لناشر هذا السفر الممتع ، وعسى ان يقتدي الطابعون بل الناشرون والمؤلفون منا بهذا المثال وغيره من كتبنا المنشورة ، فقد قلّ الاتقان عندنا في نشر ماننشره لفرطنا ، وكاد اتقان الغربيين في هذا الباب يعدّ افراطاً .

م . ك

تاريخ سوريا

« قبل الفتح الاسلامي »

تأليف السيد امين خليفة (ب . ع) طبع في مطبعة الدائرة الاستعدادية في الجامعة الاميركية في بيروت سنة ١٩٣٠ ص ٢٧٦

هذا مختصر متسق في الدول التي تعاقبت الحكم على الشام قبل الاسلام ، وقد قال مؤلفه انه استند في وضع كتابه على مؤلفات شتى انكليزية وافرنسية وعربية لاشهر المؤرخين كبراستيد وهوار ولامنس وحتي و باتن ومسبرو وروانصن وبيفرن وموممصن وبوشير وغيرهم . ومنهم من لا يعدّ في المؤرخين الا تجوزاً وبكثير من التعسف . وقبل ان انشر المؤلف كتابه كان القاه على تلاميذه فرأى ان يضم الآن شتاته و ينشره سفراً للناس ، وكنا نود لو خلت عبارة المؤلف من الفاظ وتعبيرات ليست من الفصاحة العربية في شيء . وهذا مما عمت به البلوى ، ولايزال كثير ممن يمسكون القلم ليؤلفوا من السوريين يستعملونها فتنبو عن مصطلح البلغاء ، مع كثرة التنبيه الى ركاكتها وغثاثتها في المجلات والكتب التي ألفت في نقد مصطلحات كتاب العصر . مثال ذلك انه عنن لاحد الفصول (ص ١٦٨) بقوله : « من هالك الى مالك الى قباض الأرواح » . وقال : (ص ٢٧١) « وذهب افضلهم على الأدب الروماني بين حانا ومانا » . هذا الى غير ذلك من الاخطاء اللفظية التي يجب اطراحها بتاتاً في قاعات التدريس ومنابر الخطابة وتأليف الكتب ومناشير الصحافة .

م . ك

كتاب البدع والنهي عنها

« تأليف الامام محمد بن وضاح نشره محمد دهمان في زهاء مئة صفحة وطبع »
« في مطبعة الاعتدال بدمشق عام ١٣٤٩ هـ »

اكثر الشارع (ص) من الوصية بحفظ الدين من البدع وحض اتباعه على النهي عنها وتمييز غثها من سمينها ، ولكن دخول أناس من غير العرب في الاسلام كان من اكبر الاسباب في فشو البدع فيه : اذ كانت هذه العناصر تحمل الى الاسلام تقاليد وآراء وأعمالاً لا تلائم روحه الطاهرة ولا تعاليمه البريئة .

وقد تصدى لانكار هذه البدع والنهي عنها العلماء الأعلام أمثال ابن الجوزي في تلبيس ابليس وابن حجر في الصواعق وابن الحاج الفاسي في (المدخل) وابي شامة والطرطوشي والشاطبي وغيرهم . وأشد هذه البدع تغلغلاً في الدين البدع التي يشتبه امرها و يكون لها شبه اتصال بشرائع الاسلام وآدابه كاجتماع الطائفة الصوفية على الذكر والسماع والرقص وضرب السلاح وغير ذلك مما يقف المصلح أزاءه وقفة عواجز: فان نهيه عنه يشبه النهي عن ذكر الله وتمييز هذا من ذلك من أشق الامور على العلماء الآمرين الناهين . وأشهر هؤلاء العلماء بل ربما كان أسبقهم الى وضع تصنيف في النهي عن البدع هو الامام محمد بن وضاح القرطبي الاندلسي في كتابه الذي سماه (البدع والنهي عنها) وقد ظفر بنسخة من هذا الكتاب الشاب الصالح الشيخ محمد احمد دهمان الدمشقي لكنه وجد فيها تصحيفاً وتحريفاً كثيراً فلبث بضع سنين ينتظر ان يظفر بنسخة ثانية من الكتاب يعارض نسخته بها فلم يتيسر له ذلك ، وفي آخر الامر عكف عليها بنفسه يصححها و يقوم اعوجاجها و يخرّج أحاديثها و يعلق عليها تعاليق تلقي عليها نوراً يكشف غموضها و يزيل الابهام عنها . فكانت لنا من هذا الكتاب نسخة متقنة الوضع والطبع ، جزاه الله عن العلم والدين خير الجزاء . « المغربي »

مقبرة الرجال

— او —

« مساوئ الدعارة في نظر العقل والعلم »

هو عنوان لمحاضرة قيمة عظيمة المنفعة في مساوئ الدعارة القاها بمصر احد كبار رجال الكهنوت وقد دعمها فيها خلا النظريات الفلسفية والاجتماعية بطائفة من البراهين العلمية وأقوال كبار اساتذة الطب . ثم الحّ عليه الكثيرون من اصدقائه بان يفرغها في قالب الطبع ليعم النفع من نشرها فأجاب رغبتهم ولكنه طبعها تحت اسم مستعار (الدكتور فرجانطون) وهذا الاسم المنتحل يقرب من اسمه الحقيقي حتى لا يغيب عن عارفيه ومريديه ولا تفوت منفعته الاباعد فانه انما ابتغى به النفع العام لا الشهرة الذاتية ، ولا يجد فيه محبو الانتقاد الباطل مادة لتسميم السنتهم ونفث هذا السم في المجتمعات . فالمؤلف من أساتذة الدين و يزعم الجهال وصغيرو العقول عندنا ان رجال الدين لا يجب ان يطرقوا الا المواضيع الدينية وان امثال موضوع هذه المحاضرة سافلة في عرفهم يجب ان يترفع عن البحث فيها اي رجل دين فضلاً عن كبير من اساتذة الدين .

وقد ملأت هذه المحاضرة النافعة كتيباً بقطع الثمن ذا ثلاث وستين صفحة كلها حكم ونصائح للشبان الذين يلازمون الخلاعة والفساد كُتبت بلغة عربية فصحى ، وأهديت الى خير من يهمه هذا الموضوع والى الشبيبة الراقية .

عبد الله رعد
عضو المجمع العلمي

فهرس الجزءين الاول والثاني

«اللذين صدرا من قبل»

١٣٣ و ١٣٤

المجلد الحادي عشر الجزء ٣ و ٤

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

آذار — نيسان

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي
الدفع مقدماً

في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الرابعة	كل سنة منها
»	٣٠٠	» الخامسة الى العاشرة	» »
في الخارج	٦٠٠	» الاولى الى الرابعة	» »
»	٣٥٠	» الخامسة الى العاشرة	» »

حياة العلامة احمد تيمور باشا (1)

« ذكريات شخصية »

مبدأ التعارف ونشأته وأخلاقه

لما هبطتُ مصر اول مرة في سنة ١٩٠١ أرادني احد أصدقائي وأظنه الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار على ان أزور احمد تيمور بك وقال ان في بيته اليوم اجتماعاً يضم شيخنا الامام الشيخ محمد عبده وجماعته فبادرت شاكراً له دلالته ، فدخلنا داراً قوراء على الطراز القديم من البناء ، وكان في الجلسة طائفة من العلماء والادباء ، ومنهم فيما أذكر حسن باشا عاصم وقاسم بك امين وفتحي باشا زغلول والشيخ عبد العزيز شاويش والشيخ محمد المهدي والشيخ حسن منصور والشيخ احمد الاسكندري . ولا أذكر ان كان في الجمع يومئذ سعد باشا زغلول وحفني بك ناصف واسماعيل باشا صبري ومحمود سامي باشا البارودي وعلي بك بهجت واسماعيل بك رأفت وعبد العزيز بك محمد والسيد محمد الببلاوي وحافظ بك ابراهيم والشيخ احمد ابراهيم والشيخ عبد الوهاب النجار فان الجمع ما كان يقلّ عن عشرين رجلاً . وهؤلاء كانوا من حلقة الاستاذ الامام ومن أصدقاء احمد تيمور بك .

تجلت لي يومئذ ظاهرة من ظواهر عظمة مصر بعظماء رجالها ، ورأيت عطفاً على غريب صعلوك شاب اكبرت معه بما شهدت تناهي المصريين في التأدب والرقة ، خصوصاً اذا كانوا من هذا الطراز الممتاز . ولقيت ذاك اليوم من أدب صاحب الدار ما بهرني فانعقدت بيننا اواخي الاخاء . وهذا المجلس كان المرحلة الاولى التي فتحت أمامي الدخول في المجتمع المصري ، وتشرفت بعشرة هذه الطبقة المختارة . رحم الله من سبقونا الى الدار

---

(1) محاضرة الاستاذ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي القاها في قاعة المجمع في هذا الشهر .

الآخرة ومد في أعمار الاحياء منهم . غدوت منذ ذاك اليوم أحرص على الاجتماع باحمد تيمور ورعيله والاخذ عنهم ، وانشأت اكثر سوادهم لاني استطبت عشرتهم .

وكان تيمور في ذاك الحين يقرأ على الشيخ محمد محمود الذكري الشنقيطي امام اللغة في عصره . وقال لي هذا مرة انه لم ير في مصر من يفهم كلام العرب مثل الشيخ محمد عبده واحمد بك تيمور ، وذكر شخصاً آخر أنسيته . وكان تيمور تخرج في صباه في دار ابيه باستاذه الشيخ رضوان المخللاتي ولازم أستاذه الشيخ حسن الطويل فيلسوف الازهر وشيخ شيوخها مدة طويلة ، فأخذ عنه العلوم الدينية والعقلية والادبية . واتصل بعد ذلك بعلماء عصره كالشيخ العدوي والشيخ الموربني والشيخ الحسيني ثم مؤخراً بالشيخ طاهر الجزائري . ولكثرة ما استهوى قلبه حب الشيخ محمد عبده ابتاع بجواره في عين شمس داراً بحديقة جميلة ونقل اليها من العاصمة خزانة كتبه ولازمه ملازمة المستفيد المغتبط .

وما زالت الصداقة تزيد بيني وبين احمد تيمور حتى كانت السنة التي أنشأت فيها مجلة المقتبس في القاهرة غرة المحرم سنة ١٣٢٤ . وكنت ازداد إعجاباً مما أرى من اخلاقه وحرصه على الاستفادة من مجلس الامام محمد عبده واللغوي الشنقيطي وأضرابهما ، ممن يغشون مجلسه او يغشى مجالسهم وأحس منه عزوفاً حتى عن بعض المشهورين ، وتحرزاً من مخالة من لا يعرف ماضيه وحاضره . فكان وهو في تلك الحقبة من حياته بعيداً عن القوم قريباً منهم ، يهتم لسعادة أصحابه ويرمضه اذا نزلت بهم نازلة ، ويتبسط مع خاصته تبسطاً ما خرج فيه يوماً عن حدود الأدب والفكاهة ، وما تعدى حواره البحث عن ما في الكتب مطبوعها ومخطوطها والنظر فيما يعلي شأن الاسلام والعرب . واخذ قبيل ذاك العهد يكتب آراءه وابحاثه في جريدتي المؤيد والاهرام ومجلات المقتطف والضياء والهلال والمقتبس ثم السلفية والآثار والزهراء وغيرها . والغالب انه كان يكتب في المناسبات او متى أراد على معالجة موضوع غامض يحتاج الى درس ، او يعرض ما عنده من المواد المهمة التي يستعان بها على ظهور الحقيقة .

وكان لاول عهدي به لا يبين رأيه في بعض معاصريه ، وان كان منهم لا تروقه حركاته وأفكاره ، هذا وهو على يقين من ان بعض الازهريين كانوا منذ اخذت تعظم شهرته ، يحسدونه ويصغرون من شأنه . ومنهم من كان يعده في الجهلاء لان احمد تيمور

على غناه وشرف بيته لا يهنأ له عيش الا اذا أنفق ماله على العلم وعلى المعوزين من المساتير. وما عدا ذلك من أبواب النفقات ليس له فصل في موازنة بيته ، بل كان عيشه في الحقيقة عيش اهل الطبقة الوسطى ، مع ان ما أوتيه من اليسار كان يتأتى له به ان ينفقه في ضروب من البذخ والرفاهية ، يسمو به الى محاكاة الطبقات التي تماثله بغناء في القطر المصري .

قلت انه كان ينفق على المساتير وربما كاد اقتصاده يعد امساكاً في نظر بعض من لا يعرفون للمال قيمة (مجلة المجمع العلمي م ٤ ص ٢٤١) ولا يحكمون على ارباب المروآت الا بما يبدو من مظاهرهم وظواهرهم. فكان مايرى به حسداً ولوماً يتراءى الى سمعه فيبتسم ولا يفوه بكلمة . غبرت ايام وأعوام ثبت بعدها من طريق احد المفضل عليهم انه كان يدرّ المشاهرات على بيوت كثيرة في مصر ، قعد الدهر بارباها فأعجزهم عن الكسب . فكان يرسل اليهم على رأس كل شهر مع احد مستخدمي دائرته بما يقوم بنفقتهم سراً ويأبى عليه شرفه ودينه ومكارمه اذاعة ماتجود به نفسه ، فيكتم بحسناته جدالتكتم ، وقد اخذ العهود على من يحسن اليهم ان لا يذيعوا له سراً . ولما اشتهر امر صدقاته شق عليه ذلك فتظاهر بان أطيانه أصبحت لاتعطيه الريع الذي كان يأتيه منها وانه في ضائقة من المال اضطرته الى تخفيف نفقاته . وبعد مدة أصبح هؤلاء الذين عاشوا زمناً بنعمته يتناولون من المصرف حوالات مالية تأتي باسمائهم وهم لا يعرفون مصدرها بل ان المصرف ذاته لا يعرف حقيقة مرسلها . فتأمل بربك هذه النفس الكريمة المسلمة وهذه الأخلاق التي لا تشهد مثلها في مئة غني من اغنياء زماننا .

حقيقة ان وجه الغرابة في تربية مترجمنا هو انه اخذ من العلم أقصى ما يمكن اخذه لمن كان في أصالة بيته ، فأتقن من اللغات العربية والافرنسية ، وهذه درسها في مدرسة (مارسيل) مدرسة أبناء الاعيان خمس سنين ، وتلقف الفارسية والتركية على أساتذة خصوصيين ، ونشأ يتيماً في حجر أخته المرحومة عائشة عصمت التيمورية الشاعرة الاديبة المشهورة فجاء منه مع هذا الغنى رجل علم ورحمة وقصد وتدين وعزوف عن المظاهر والاشتغال فيما ينفع . ولو أراد لاول امره على ما لابيه وجده من المنزلة عند الأسرة المالكة ان يدخل في المناصب الحكومية لخطبته الوزارات ، ولماتخطته الرئاسات والزعامات .

ولكن كان نبوغه ينحصر في دائرة خاصة ولا انبعث مواهبه العلمية الانبعاث الذي قدر لها باشتغاله في جو هادىء لا تكدر صفوه مشاغب الاحزاب ولا متاعب السياسة واهواؤها فاقتصد من وقته في هذه الناحية . وشغله طول عمره في ملاذ روحية من مطالعة و بحث وتأليف قلّ ان تتاح لكثير ممن شغفوا بالعلم ، وحاولوا استثماره لفائدته ولذته لا لمقصد آخر .

قلت كانت لابيه وجده المنزلة العليا عندالأسرة العلوية . جاء جده احمد مع جد شاعر العصر احمد شوقي بك الى مصر، وكانا من ابناء الاكراد ، وجدّ مترجمنا من مدينة الموصل ، ارسلها والي عكا الى محمدعلي الكبير واوصاه بهما خيراً قائلا ان النجابة بادية عليهما وانهما سيبلوان البلاء الحسن في خدمة الدولة المصرية ، فعين جد مترجمنا في وظائف انتهت به ان عد في آخر امره من قواد محمد علي ، كان ابنه من بعده رئيس الديوان الخديوي . وخلف اطياناً كان ما اصاب المترجم منها مع ماابتاعه بأخرة من بقية الورثة نحو ثلاثة آلاف فدان ، وكان يتعهدها احسن تعهد ولا تعوقه عن طلب العلم بل تساعده على اتمام رغائبه منه . وكم من ابناء الاعيان امثاله من اورثهم آباؤهم الوف الافدنة فلم يحسنوا استغلالها ، وافقدوها بسوء تربيتهم في شهواتهم واسرافهم او ضاربوا فاستدانوا فافتقروا . اما هو فخالف جمهرة جيله فكان بالتربية الاسلامية العالية التي لقنها في صباه غنياً بماله ، غنياً بعلمه ، غنياً بتدبيره وعقله . تجردت نفسه الكريمة عن المطامع ، ومع هذا اقبلت عليه الدنيا من طريقها المشروع المعقول .

غرامه بالكتب واحتفاله بجمعها

عرفنا بما تقدم ان بيت تيمور كان بيت علم وفضائل ومجد تليد طريف . فلما نشأ عالمه هذه النشأة الطيبة ، رأى في داره خزانة كتب صغيرة لم تشبع نهمته العلمية فقسام في نفسه منذ سنة ١٨٨٩ ان يقتني من المخطوطات والمطبوعات ما يتلاءم موضوعه مع ما غلب عليه من العلوم ، وما يزال ينفق على اقتناء مجموعاته عن سعة وهو يطالعها و يعلق عليها ويخدمها بالفهارس والحواشي حتى تألف منها قبيل وفاته خزانة كتب تقدر بنحو ثلاثة عشر الف مجلد ، عدا الصور التاريخية والآلات الفلكية ومحابر واقلام كانت لبعض

المشاهير ونحو نصف خزانته مخطوط او مصور بالتصوير الجديد . وقد وضع لمخطوطاته قائمة جليلة كانت مرجعاً لكل طالب وطابع وناشر من العرب والمستعربين من علماء المشرقيات ، وقلما كان يضن بها على احد ، يعيرها حتى الى البلاد البعيدة ، فاشتهرت في الشرق والغرب ، وعدّت بحق اهم خزانة خاصة في بلاد المشرق لغناها بمخطوطاتها النادرة ، ومنها عشرات من الكتب كتبت بخط مؤلفيها او قرأ فيها اعلام من رجال السلف او قرئت عليهم وعلقوا عليها واجازوها .

أتيح لي ان اصف هذه الخزانة التيمورية في سنة ١٣٣٠ ه وكانت اذذاك نحو ثمانية آلاف مجلد . وكان صاحبها دعاني مع أستاذي العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري الى زيارتها في عزبته في قويسنا من عمل مديرية المنوفية في الدلتا وهي احدى مزارعه كان يؤثرها على غيرها لان اباه وامه كانا يحبان المقام في قصرها و ينزلان فيها اياماً معدودة من كل سنة . ذلك ان احمد تيمور اسودت العاصمة في وجهه بعد وفاة شيخه وصديقه الشيخ محمد عبده وزهد بعده بالدار التي كان اقتناها في جواره فرأى ان ينقل خزانته من عين شمس و حملها الى قويسنا ورتبها في خزائنها احسن ترتيب فكان ينزع اليها كل حين ليطالع و يؤلف .

ولقد قضينا في ضيافته ثلاثة ايام كان خلالها يقرأ علينا اسماء الكتب المخطوطة وأستاذنا الجزائري يتولى الترجيح في اختيار الاندر فالاندر ، فوصفت الخزانة اذ ذاك في احدى وعشرين صفحة في المجلد السابع من مجلة المقتبس . ولقد قلت له يومئذ ان وجود الخزانة في داره بقويسنا لا يؤمن عليها من الحريق ، لان الدار متلاصقة مع بيوت الفلاحين ، والفلاحون يضعون الخوص والعيدان على سطوح بيوتهم ، فاذا سرت النار الى بيت من البيوت لا تلبث العزبة وما اليها ان تحرق في ساعة . وفي ذلك من الخسارة على العلم ما فيه . فاجابني ان في نيته ان يعمر لها داراً في مصر ينقلها اليها ، وغبرت مدة واشترى ارضاً في الزمالك احد الاحياء الجديدة في القاهرة وعمرها ونقل الخزانة اليها بعد سنة ١٣٤٠ وكتب (في ٢ يونيه ١٩٢٣) يقول : « ان الخزانة رتبت والحمد لله ولم يبق الا عمل فهرس جديد لها على الطراز الحديث في الجزازات ولابد لها من ثلاثة فهارس فني ومعجمي وآخر لاسماء المؤلفين فأرجو ان يوفقني الله لان يقوم بعمله لان اشتغالي به سيعطلني عما بيدي . » ثم وقفها و وقف عليها بعض اطيان تقوم بنفقاتها ، وجدّ واي جدّ في ابتياع

ما ينقص مجموعته في كل علم من المطبوعات والمخطوطات ، وربما لا يقل ما انفق عليها عن مئة الف جنيه ، ثم نزل عنهما للامة المصرية الكريمة بل للعالم العربي الاسلامي فأعظم بها من مأثرة .

سعة علمه التي جعلته مرجعاً

توطدت صلات الحب والتشاكل في وحدة المقصد في سني ١٩٠٦و٧و٨ بعد نشري مجلة المقتبس فكان يؤازرني فيها ، ويعيرني كثيراً من مخطوطات خزانته اكتب في وصفها في المجلة ، فلما رحلت عن مصر الى دمشق في آخر سنة ١٩٠٨ بعد انشاء الدستور العثماني استعضنا عن المسامرة والمذاكرة ، بالمراسلة والمخابرة ، ولم تكد تنقطع رسائله او رسائلي مدة قصيرة الا لمعذرة كمدة الحرب العالمية الكبرى ، وقد انقطعت المواصلات بين مصر والشام اربع سنين . وجدت في اضبارة خاصة برسائله الي مئة واربعين رسالة عدا ما أرسله باسمي الى المجمع العلمي العربي مباشرة منذ أواخر سنة ١٩١٩ . ومجموعة رسائله خلاصة علم ودرس وبحث عن المفقود او الموجود من المخطوطات ومنها مشاكل في اللغة والأدب والتاريخ .

ولقد كنت منذ توطدت بيننا أواصر الصداقة التي زادها تمكيناً وجود أستاذي الشيخ طاهر الجزائري في القاهرة مدة ثلاث عشرة سنة وكان هو على اتصال وثيق به بعده أعز عزيز عليه بعد شيخه الامام محمد عبده — اذا عرض لي او لبعض أعضاء المجمع اشكال لغوي او تاريخي او أحببت ان أعرف كتاباً في موضوع يهمني البحث عنه لا أجد من يشفي غلتي خصوصاً بعد فقد أستاذنا الجزائري غير المرحوم احمد تيمور . ومجموعة كتبه التي تؤلف مجلداً مفيداً جداً في هذه الابحاث . ولاسيما ما كان منها ذا علاقة باسفار القدماء من الأسلاف فهو في هذا الموضوع المفرد العلم والصدر المقدم والبحاثة الواسع المادة ، البعيد النظر ، الصحيح الاستنتاج والاستقراء . ساعدته على ذلك جودة ذاكرته وتقييده في دفاتره كل ما يعثر عليه في الكتب التي يقتنيها ويصنف لها الفهارس التي تقرب منال الاخذ منها على أحدث طراز في هذا الباب .

رأيت كثيرين من غلاة الكتب من الشرقيين والغربيين وقل ان عرفت مثله من

اذا تكلم في الكتب كان كلامه عن ذوق وتحقيق . وذلك لانه يطالع كثيراً ويقيد كل ما يظفر به ولا ينسى ويحسن الاختيار ويجوّد النقد . وقد كتبت له عامة أسباب النجاح في هذا الباب لانه عالم يُعنى بتعهد علمه بالتنمية كل يوم ويجمع الكتب ويحرص على اقتناء نوادرها خصوصاً ، ويغلي لها الثمن معتقداً انها هي الكنز الثمين . وكان اذا صارت الاسفار الى ملكه لا يلقيها كما يلقيها اكثر هواة الاسفار و يبرد شوقهم اليها بمجرد تقليب صفحاتها والالمام بمضامينها او بمجرد انتقالها الى خزائنهم فقط فتراهم يرجئون النظر فيها اذا ملكوها لتشاغلهم بامر آخر او لانهم ممن يهوون جمعها وشكلها و يزهدون بما في بطونها . اما هو فيشرع حالاً بدرس مايقتنيه ويتناولها باليمنى فرحاً بقدمها ، مقدساً لعمل مؤلفها مغتبطاً باقتنائها يحملها بالتجلة ويودعها قمطره بالاعظام ، ولا يزال بها حتى يحفيها درساً بالفاظها ومعانيها . ولطالما هنأني على ما كنت أظفر به من نوادر المطبوعات والمخطوطات كأنني ولد لي مولود او أظفرني حسن الطالع بعزيز مفقود . وفي العادة ان يضن غلاة الكتب بكتبهم اما هو فقد تعوّد بسط الكف فيها لان غايته منها نشر العلم وإحياء آثار السلف . كتب اليّ مرة (٢٩ جمادى الثانية ١٣٤٢) يقول : « نقلت لك ترجمة الصدر الآمدي من مخطوطين نادرين عندي ولا يبعد ان يكون السخاوي ترجمه ايضاً في الضوء ولست على يقين من ذلك لان نسختي استعارها احد الاصحاب من ثلاث سنوات ولم تزل عنده ولا يريد ردها وكلما احتجت الى الكشف عن ترجمة أذهب الى عنده واكشف عنها . » فتأمل هذا الشغف بنشر العلم وهذا اللطف حتى مع المتساهلين في رد الكتب الى أربابها ، وقد تكون مما لا يقع عليه ثمن .

مثال من تهذيبه

لما صح عزمي على نشر كتابي « خطط الشام » كان يبعث اليّ في البريد بالنوادر من المخطوطات التي أطلبها او لا اطلبها ، عساني اظفر فيها بجمل تدخل في موضوعاتي ، وكنت أعيدها الى مصر في البريد المضمون ، ولا ترتاح النفس الا اذا اخذت علماً منه بوصولها ، فاسدى بذلك اليّ يداً لا تنسى على وجه الزمان ، ومنها ما كان ينسخه بالتصوير الابيض على الاسود و يرسلها هدية الى المجمع العلمي العربي وكثير مما في خزانة المجمع من هذه

النوادر المصورة هو من هدايا احمد تيمور ، ولطالما اهدى اصحابه ومن يعملون لمصلحة عامة اشياء من هذا القبيل ولم نؤسس في الشرق العربي خزانة كتب الا كانت هداياه اليها اول الهدايا . لا يضن في هذه السبيل بعشرات الجنيهات اذا ايقن من ورائها خدمة للمسلمين والعرب .

ولما تم تأليف الخطط وقد خدمه بعلمه وماديانه وشعر بانني ار يد ان اقدمه اليه عرفاناً لجميله تأفف وتنصل وحاول ان يقنعني بالعدول عن قصدي ومما كتبه اليّ في هذا الشأن (٩ جمادى الاولى ١٣٤٢) :

« سرني اهتمامك بانجاز الخطط وهو ما كنت احثك عليه دائماً فأسأله تعالى ان يتولاك بعنايته وتوفيقه حتى تتم هذا العمل العظيم النافع وقد احسنت كل الاحسان في تخصيص فصل منه لتاريخ الشام السياسي كما فعل من كتب قبلك في الخطط واذا وفقت الى طبعه على مثال طبع المجلة فسيكون على احسن مثال . اما صورتي فليس عندي احدث منها لاني لم اصور نفسي بعدها وتصدير كتابك بها فضل كبير تطوق به عنقي وتنبه من ذكري ولكن هل لك ان تسمع كلمة مني واقسم لك انني لا اقولها تواضعاً وتحاشماً وهي ان تعدل عن ذلك لاني لا ارى لي من الفضل ما استحق به ان اصور في فاتحة كتاب كهذا وما هو بمنع مني ولكنه رجاء أرجو ان تقبله . » وعاد في كتاب فكرر هذا المعنى راجياً اعفاءه من هذه التقدمة قال (٢١ جمادى الاولى ١٣٤٣) : وصلني كتابك وأخجلني مافيه وقد كنت استعفيتك من وضع صورتي في الخطط فأكرر الآن هذا الاستعفاء شاكراً حسن ظنك وجميل رأيك و يعلم الله اني لا أقول ذلك تواضعاً فهل لسيدي ان يحسن اليّ باعفائي من ذلك وله مني الشكر الجزيل والثناء المكرر . » وكتب ايضاً بهذه المناسبة بتاريخ ٢١ شعبان ١٣٤٣ : « وصلتني الملزمة الاولى من الخطط وقرأت مقدمتها واذا ساغ لي شكر سيدي الحبيب على مانفضل من التنويه بي افلا تسوغ معاتبته على هذا الغلو والاغراق . حقاً ياسيدي انك بالغت مبالغة أخجلتني فيها وأفحمتني فلا أدري ما اقول والله سبحانه يجزيك خير الجزاء على حسن ظنك بي الى هذا الحد . »

وهكذا كان أدب نفسه يوم أراد صديقه ان يقابل بعض جميله و يقول في نعته مايعتقده و يعتقده كل من سبر غور اخلاقه وسعة علمه . وهو يستقل ما يعمل ، شأن ار باب الهمم

العالية و يستكثر ما يعمل له ، فقد أهدى دمشق مجموعة بديعة من النقود القديمة قال لي صديقي امير الشعراء احمد شوقي بك انه لم يجمعها هو وحده بل جمع فيها ابوه وجده من قبله ، ومع ذلك كان في اهدائها متواضعاً . فقد كتب في ٢ رجب سنة ١٣٤٢ « عندي مجموعة نقود قديمة من دنانير ودراهم وفلوس جلها من النقود العربية وعددها (٤١٨) قطعة ومعها مجموعة أختام قديمة عددها (٣٤) قطعة وقد رأيت اهداءها لدار الآثار العربية بدمشق وكتبت لكم جريدة ببيانها وسأسلمها جميعها لحضرة السيد الكسم ليحملها اليكم في عودته فأرجو التكرم بقبولها وغض النظر عن تفاهتها ولكم الفضل » . وعاد فأكمل هذه المجموعة بمجموعة أخرى من الدنانير الذهبية القديمة وعدّ كل ذلك تافهاً .

بعده عن الظهور وإيثاره العزلة

لما تولى جلالة الملك فؤاد ملك مصر منحه رتبة الباشوية قبلها لانها صدرت عن عاطفة عالية نحوه ولم يسعه الا قبولها . ولما هنأته بها أجابني : « اما الرتب فسيدي يعلم رأيي فيها من قديم ولكنها لما كانت عنوان العطف شكرت مولاي السلطان بقلبي ولساني على عطفه » . ولما عين عضواً في مجلس الشيوخ ضاق صدره ايضاً فكتب اليّ (١٠ آذار سنة ١٩٢٤) يقول : اما عضوية الشيوخ فقد تورطت فيها إطاعة لرغبة جلالة الملك وحاوات التنصل فلم أفلح اذ لا يخفى على سيدي دقة هذا المركز في وسط العاصفة الثائرة ولا سيما ان اضطرابات في مصير القطر سيكون في هذه النوبة من انعقاد المجلس وهوما كنت أتوخى الابتعاد عنه ما امكن لاسباب كثيرة تعرفها » . وكتب ايضاً : (١٦ ربيع الثاني ١٣٤٣) « صحت عزيمتي على الاستقالة من مجلس الشيوخ و كنت على وشك تقديمها لولا عقبات قامت بوجهي اهمها استرضاء جلالة الملك فارجو الله تعالى ان يهيئ لي باب الخلاص .

وحقاً انه كان يحب الابتعاد عن السياسة كل البعد ، ولكن مصالح بلده تستلزم استدعاءه في الأحايين ، فكان الموضوع الذي يلذه كونه عضواً في مجلس الازهر ، وعضواً في مجلس دار الكتب المصرية ، او في كل مجمع علمي مؤسس في مصر اوغير مصر . اما كونه عضواً في الشيوخ فهذا مالا ترضى عنه نفسه ولا تسمح بالاضطلاع به تربيته ،

وهو الذي عاش هادئاً مسالماً يصرح بما يعرف ولا يتعدى طوره . كتب يقول : (في ٢ يونيه سنة ١٩٢٣) « يعلم سيدي الاخ اني لا أعرف من السياسة الا مادة ساس يسوس التي أراها في المعاجم فاذا ذكرت الحكومة بخير او بشر فانما أذكرها من الوجهة العلمية فقط . فمن دلائل عناية الحكومة الحاضرة بالعلم الانعام برتبة باشا على صديقكم احمد كمال باشا الاثري الشهير وتقرير طبع معجمه المصري العربي الفرنسي على نفقتها وستشرع في ذلك قريباً واحداث مدرسة للسان المصري يتولى هذا العلامة التدريس فيها اما المعجم ففي عشرين جزءاً ولا يستطيع طبع مثله في الشرق الا الحكومات » .

وكتب في ١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ : « ويظهر ان الوحدة من الوسائل الناجعة في محو تفرغي فيها لما اشتهي من المطالعة في راحة وهدوء بال وبعد عن القيل والقال ومجالس المدن التي أصبحت أجد نفسي غريباً عنها ، ولله در من قال :

هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا من قبله فتمنى فسحة الأجل

وكتب في ٢٢ رجب سنة ١٣٣٨ : « وقد كان سيدنا وأستاذنا الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله ورضي عنه منزعي الوحيد عندما اكون بالقاهرة فشاء القدر ان يفجعنا به ولا يبقي لنا من تلك الايام الا الذكرى المؤلمة والاسف المتواصل . حالنا يا سيدي الاخ عجيب غريب في هذا التطور الجديد . فقد اصبحت العامة والخاصة الجهال والعلماء في مستوى واحد من الآراء ونعمت والله الحالة لولا انه عمل صالح مرفوع الى أسفل ونتيجة منطقية تابعة للاخس من المقدمتين . فقل لي بعيشك اي انس في الاجتماع واية لذة في المخالطة وقد أصبح من المحتم على المرء قبول كل مايقالـــ على تغييره وتناقضه كل يوم والا فالويل له ثم الويل . ولهذا تراني في اكثر اوقاتي جانحاً بوحدتي بقويسنا مكتفياً بمنادمة كتبي وقد أنجزت في هذه الفترة بعض ما كانت تتوق اليه نفسي من المواضيع ولعلي أوفق الى طبع بعضها متى انخفض ثمن الورق » . وكتب ايضاً (في ٢٩ شوال سنة ١٣٤٤) : « احوالنا الخاصة والعامة غير مرضية فقد بعنا القطن بثمن بخس لا يفي بنفقاته وخسر المزارعون هذه السنة خسارة كبيرة ، اما الاحوال العامة فسيدي عالم بها من الجرائد الضالة المضلة والمصير مجهول ولكن الله لطيف بعباده » .

ومن مجموع هذه النتف من رسائله تتجلى روح احمد تيمور ، وبعد نظره في مسائل وطنه وان زعم انه لا يعرف مداخلها ومخارجها ·

حرصه على المصلحة العلمية

لما صدر الامر بتوقيف اعمال المجمع العلمي العربي في أواخر العهد الفيصلي ساءه ذلك جداً وكتب مرة (٢٨ ربيع الاول سنة ١٣٤٣) : « رأيت في بعض الجرائد السورية نبأ ساءني عن المجمع والعزم على الغائه فعسى ان يكون نبأ كاذباً · فلا يهدم بذلك اعظم صرح من صروح النهضة اللغوية في الشرق » · وكتب قبل هذا التاريخ (٥ شوال سنة ١٣٤٠) : « وقد كان سروري لا يقدر من النبإ الذي يشرتموني به بثبات المجمع وبقائه وهو البقية الصالحة والامل الوحيد لانصار العربية » · وكتب (٤ يناير سنة ١٩٢٣) : « اننا في حاجة كبرى لألفاظ عربية تغنينا عن الدخيل ولهذا نرحب بكل لفظة فصيحة ترادف أخرى دخيلة ، بل النظر في وضع هذه الألفاظ من اهم ما تشتغل به المجامع اللغوية ان لم يكن اهمها كلها ، وقد عني مجمعنا الدمشقي بذلك واتى بفوائد لا تنكر » · وقال في نفس هذه الرسالة : « المجمع املنا الوحيد في إنهاض اللغة فلهذا نقابل كل خبر سيء عنه بارتياع عظيم فنشكر همة الاستاذ الكبير فارس بك الخوري ونرجو ان يكون في اتباعه للاتحاد السوري ما نؤمله له من الثبات » · وكتب (٣رجب١٣٤٤) : « ساءني جداً فتور المجمع عندكم وتوقف المجلة عن الصدور وهي التي كنا نعدها من مفاخرنا » ·

اما بشأن المجامع التي ألفت لغرض خدمة العربية بمصر ، فقد كتب (٢٦ جمادى الاولى ١٣٣٧) : « واما الاخبار العامة فتأليف المجمع اللغوي برئاسة شيخ الجامع الازهر وانضمام من هبّ ودبّ اليه والامل فيه قليل والسير بطيءٌ وقد مضى علينا سنتان لم نضع فيها شيئاً ونفسي تحدثني بالاستقالة منه وقد فاتحت الاستاذ الطاهر في ذلك فصوّب رأيي ولكنه أوصاني بالتريث » · وكتب ايضاً : « اما مجمعنا بمصر فلا أدري ما قُدّر له ولا أخفي عليك اني أميل فيه الى التشاؤم ولا سيما بعد ان سمعت اقتراحات لبعضهم بضم أشخاص اشتهروا بانتصارهم للعجمة وفتح الصدر لكل دخيل وسنرى ما سيكون فربما كان

حكمي غير مصيب وارجو ان يكون كذلك » . وكتب (٢٢ رجب ١٣٣٨) : « الحركة العلمية بمصر نائمة ومجمعنا اللغوي في حكم المعدوم » . وكتب في ٦ يوليو سنة ١٩٢٣ : وفيه دليل على شدة غرامه باحياء آثار السلف قال : « اخبر سيدي بخبر اعرف انه يسره ولكني اود ان يظل مكتوماً حتى نبدأ فيه بالعمل فانه لم يزل الى الآن في حيز القول ذلك ان الفاضلين النشيطين الشيخ عبدالمعطي السقاء المدرس بالازهر واحدالمولعين بالكتب والسيد محب الدين الخطيب فكرا في تأليف شركة لاحياء مآثر السلف بالطبع على نمط جمعية المعارف القديمة وخاطباني في ان اتولى امرها فرضيت بان اتولى السعي فيها واقترحت ان تسند رئاستها لصاحب المعالي حشمت باشا وزير الخارجية الآن اعترافاً بفضل الرجل لانه صاحب اليد البيضاء على مشروع إحياء الآداب العربية لدار الكتب والواضع له وكل كتاب يطبع فيها الآن فهو من ثمرات غرسه فوافقا ، ثم قيدنا اسماء من رأيناهم يصلحون لان يكونوا مؤسسين واعضاء لمجلس الادارة ممن يثق الناس بهم واشتهروا بعلم او جاه او ثروة واخذنا نطوف عليهم نعرض عليهم المشروع ونبين لهم فوائده فقابلنا من اكثرهم الاباالفتور والوجوم ولم نر من هش للمشروع وحث عليه غير اسماعيل رأفت بك وعلي بهجت بك ولكن ذلك لم يمنعنا من الدأب ومواصلة السعي حتى يتم المرغوب ومتى وفقنا لتأليف الاعضاء نعرض امر الرئاسة وقتئذ على حشمت باشا والله سبحانه الموفق » .

واشار في رسائل له غير مرة الى يأسه من قيام الاعمال النافعة بايدي الافراد والى ان القوم في وادٍ آخر . وبقدر ما كنت تراه يحرص على إحياء آثار السلف لعلمه بانها التركة الثمينة الناطقة بمدنيتنا النافعة في حاضرنا ومستقبلنا ، كان يرغب عن إحياء الكتب التي يعتقد الضرر بنشرها ، فقد كتب (في ١٤ ابريل ١٩٢٣) : من اخبار الكتب ان السيد كاظماً الدجيلي كتب يسألني عن كتاب المثالب لابن الكلبي وانه عثر على قطعة منه بالعراق يود تكميلها ، ولا يخفى انه في مثالب العرب . فكتبت اليه اني لا اعرف عنه شيئاً ، وقلت له انه وان يكن يعد من النوادر المبث كل نادر مفقود كان من نوعه فليذهب غير مأسوف عليه » .

* * *

كلام على تآليفه

قلت ان احمد تيمور كان عزوفاً عن الناس وكان ايضاً زاهداً في الشهرة فشهرته كانت تتبعه بالضرورة وما كان في الواقع عبداً لها يتبعها فتستجيب له او لا تستجيب ، ولو قصد الى الشهرة لكانت منه على طرف الثمام ، ولكان يُعنى على الاقل بطبع مؤلفاته في حياته ويقال من العناية بحثها مكتفياً بما تهيأ له . واكثر ماألفه وطبعه في حياته كانت تدعوه اليه الدواعي مثل رسالته في الرتب والألقاب فقد كتب الي في « ٢٥ جمادى الاولى ١٣٤٣ ، واني أشكر سيدي الاخ على تفكيره في إعادة طبع بعض آثاري التافهة التي لا تستحق هذه العناية ، فرسالة الرتب والالقاب لم أضعها في الاصل لتطبع بل جعلتها مادة أقدمها للحكومة للمناقشة فيها في الوقت الذي عزمت فيه على تغيير الالقاب فلما رأيتها أبقت على أغلب الالقاب الاعجمية ضربت عنها صفحاً ، ثم رآها عندي السيد محب الدين الخطيب فنقلها ثم تكرمتم بطبعها ، واما طبقات المهندسين فلا أظن في نشرها بمجلة المجمع فائدة بعدما نشرت بالهندسة فلندع صفحات المجلة لما هو أفيد منهما وعسى ان اجد فرصة لأعيد النظر فيها وأضم اليها زيادات اطبعها على حدة » .

وكتب في (٢٢ ذي القعدة ١٣٤٣) : « رحلت هذا الشهر لبعض البلاد المصرية ترويحاً للنفس فقادني الطواف الى المنصورة فزرت بها اثراً تاريخياً نفيساً هو بقايا دار ابن لقمان التي اعتقل بها لويز التاسع في إغارته على مصر وقد كتبت بحثاً عن هذه الدار رجعت فيه الى المصادر العربية والافرنجية وسلمته امس قبل سفري الى اخينا محب الدين لينشره في الزهراء . وقد كان لهذا الاثر ياسيدي اثر في نفسي تذكرت به ماضينا وسألت الله ان يلطف بنا في حاضرنا ويهيء لنا منه مخرجاً فهو اللطيف بعباده » .

وكتب في (٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٤٠) بشأن كتابه التراجم مانصه : « كتاب التراجم لم أشتغل به الا يسيراً ومرادي ان يكون خاصاً باعيان الشرق في القرن الثالث عشر الهجري اي ان يكون كالذيل لسلك الدرر ثم ألحقه بذيل في تراجم اعيان اوائل القرن الرابع عشر وكل ماأنجزته منه لايخرج عن تمهيدات وسألخص فيه من الجبرتي ومن خطط علي باشا وأضم بعد ذلك مااستطيع جمعه . الا ان معجم العامية المصرية والكلام

على اصولها ومايقابلها من الصحيح يستغرق اوقاتي كما تستغرق اوقاتكم الخطط ومن الله تعالى نسأل الاعانة والتوفيق » . وقد اتم التراجم فيما احسب وكذلك معجم العاميـة المصرية وهو من المدهشات في التحقيق اللغوي يدل على علم واسع جداً وقد نشر منه نموذجات في مجلة المجمع العلمي العربي في بضع مقالات وربما كان هذا السفر كتابه الخالد لانه صرف فيه اوقاتاً طويلة وجوَّد كل الاجادة . ومنها كتابه نوادر المسائل « وكان كلما مرت به مسألة نادرة او حادثة غريبة او توضيح لمشكلة خلال مطالعـاته الكثيرة يقيد ذلك في كراسات مع بيان اسماء هذه الكتب المشتملة على هذه النوادر ورقم الصفحة التي احتوتهـا واجتمع له منها شيء كثير رأى في آخر ايامه ان يرتبه ويضم الشكل الى شكله و يطبع ذلك و يقدمه الى العلماء والباحثين طرفة لم يقدم اليهم مثلها » .

وقال الاستاذ السيد محب الدين الخطيب ان هذا الكتاب هو الأُم لمؤلفـات تيمور باشا كلها بل هو خلاصة مطالعاته واطلاعاته وسماه معجم الفوائد . وللمترجم له من الآثار التي ألفها عدة رسائل وكتب ومنها البرقيات وهي كانت تؤدي كل منها معنى جملة كاملة . ومنها رسالة في التصوير عند العرب نشرت في مجلة الهلال ولكن زاد فيها زيادات عظيمة . ومنها الامثال العامية وهي نحو خمسة آلاف مثل عامي . ومنها لعب العرب . ومنها القسم التـاريخي لدائرة معارف فريد وجدي وطبقات المهندسين جرى فيه على نسق طبقات الحكماء للقفطي وطبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة . ومنها ذيل طبقات الاطباء . كان يجمع مواده و يكتب مذكرات عن مصادره ولانظنه تمكن من إتمامه (مجلة الزهراء م٥ ج ٧ — ٨ ص ٥٦٥) .

ومن رسائله التي لم تطبع : الآثار النبوية ، ومفتاح الخزانة خزانة البغـدادي وهي ثلاثة عشر فهرساً ، ومما طبعه رسالة في اليزيدية وأخرى في حدوث المذاهب الاربعة وثالثة في تاريخ العلَم العثماني ورابعة في قبر السيوطي وخامسة في تصحيح لسان العرب وسادسة في تصحيح قاموس المحيط وسابعة في ابي العلاء المعري وعقيدته وثامنة في الحلقة المفقودة من تاريخ مصر . ومن أهم ماعاقه عن نشر كثير من تآليفه ميله الى التحقيق واشباع الموضوعات حقها وتحاميه احياناً من الدخول في مآزق لاتسمح له تربيته بالتورط فيها . فقد كتب بشأن رسالة التصوير مانصه : « اما التصوير فكنت كتبت مقالة عنه عند العرب في الهلال

(٢٧ — ٣١٥ — ٦٠١) وربما كان فيها مايفيدكم ولكن هذه المقالة أصبحت لاشيء جنب ما جمعته بعد ذلك في رسالة خاصة أتممتها وأعددتها للطبع تمنعني من طبعها الآن ان ذكر العرب حتى نبيهم عليه الصلاة والسلام بخير أصبح معدوداً عند عاملنا ومن على شاكلتهم عدواناً لبعض الكماليين فأخرت الطبع خوفاً من الاهانة . وقد اطلع على هذه الرسالة صديقنا الاستاذ جريفيني فأعجبته وشدّد عليّ في سرعة اظهارها فذكرت له عذري في تركها الآن » . اما مقالاته التي نشرها في الصحف والمجلات في موضوعات علمية وأدبية وتاريخية ولغوية فانها لو جمعت لجاء منها مجلدان لطيفان نافعان . فعسى ان تصح همة نجليه الفاضلين اسماعيل بك ومحمود بك على ان ينشرا ماخلف الفقيد العظيم من نفثاته وتحقيقاته خدمة للعلم وتخليداً لذكره في العالمين .

تعصبه للاسلام والعربية

كان احمد تيمور متعصباً للعرب والعربية والاسلام ، يهتم لذلك اهتمامه لأقدس شيء لديه ، وكان اذا شمّ من بعيد رائحة من شخص يريد السوء بمقدساته هذه او يكتب فيها كتابات بعيدة عن مواطن الحقيقة يستعديه و يبتعد عنه ، و يتألف في باطنه منه ، ولما شاعت دعوة انصار القديم والحديث في مصر ، آلى على نفسه ان لا يطالع من الصحف الا جريدة الاخبار للرحوم امين الرافعي لان صاحبها متدين يدافع عن الاسلام والمسلمين ، فلا يقرأ فيها ماتنقبض له نفسه مع انه من أوسع الناس صدراً . وكتب في هذا الشأن يوم (١ جمادى الاولى ١٣٤٦) : « ومن نكد الايام اني لم أزل ممنوعاً من المطالعة والاشتغال بامر الاطباء حتى ضاقت الدنيا في وجهي وساءت اخلاقي لاني لم اتعود الجلوس في الملاهي ولا أدري كيف أقضي اوقاتي مع هذا الحجر . وقد منعوني ايضاً من مطالعة الجرائد التي لاتروق لي خطتها ولاتتفق مع مشربي فصرت أقتصر على مطالعة جريدة الاخبار لانها توافقني ولا سيما في المدافعة عن الاسلام والانتصار له ومقاومة الالحاد المعبر عنه في لسان هذا العصر بالجمود اوالرجعية ولاحول ولاقوة الا بالله » .

ولما تعرض بعض اصدقائه للنيل من المأمون (واسطة عقد الخلفاء وفخر الامة العربية) اخذ يعالجه بالوسائط المتنوعة كما يعالج الطبيب المريض حتى اعتدل وعاد للانتصار للعرب

ومدنيتهم « فكتب نبذة في الاهرام نصحه في آخرها ان يعيد سيرته الاولى التي لم ينل شهرته الا بها » . وله مع صديقه هذا مناقشات في الصحف والمجالس لانه يبرر عمل الكماليين في نزع الخلافة مما لا يتسع له هذا المقام . وكان غضب تيمور من صديقه هذا مما لا يستكثر من غيور على الاحتفاظ بمقدسات أمته . ولما ألف الاستاذ علي بك عبد الرازق كتابه في الاسلام واصول الحكم خالفه تيمور في اجتهاده وتألم لما كتب الماً شديداً . وكتب لي يصف هذه الفتنة ويستحسن أقوال من ناقشوا المؤلف في موضوعه . ولما رأى انني تصديت لنقد كتب بعض انصار التجدد في مجلة المجمع العلمي طرب واغتبط ، وتألم لما قرأ تقريظاً لي لبعض نبغائهم ، ولكن ادبه حال دون التصريح بذلك .

كتب مرة (٢ شعبان ١٣٤٣) : واني من رأيكم في اقتدار الشيخ ... وجودة أسلوبه وعدم الموافقة على بعض آرائه المتطرفة وخصوصاً عن العرب وآدابهم فانه كثير الغض منهم في كل شيء ومن دواعي الأسف ان هذه الآراء السخيفة تنتشر اليوم بسرعة بين الناشئة حتى صار من المضحكات عندهم التحدث ببلاغة القرآن او بفضل العرب انا لله وانا اليه راجعون . وسيدي حفظه الله أعرف مني وأسدّ رأياً في أسلوب الرجل وغاية ما يظهر لي مع إعجابي به كثرة التكرار في بعض المواضع والظاهر انه يتعمده لانه يستحسنه و يظن انه طريقة جديدة تروق للقراء ...... » . بل ان احمد تيمور كان يتألم لاقل من هذا اذا كان فيه العبث بمشخصات الامة ، فقد جاء في رسالة لي (٢٠ آذار ١٩٢٤) : لما كانت لجنة عمل الدستور مجتمعة في العام الماضي وشاع انها ستسمي المجلسين بالبرلمان قدم لها بعض الفضلاء ومنهم الاستاذ الشيخ احمد الاسكندري عضو مجمعنا اقتراحاً بتسميتهما بدار الندوة فعارض بعض اعضائها في ذلك وكان المشايخ المعممون منهم أشد معارضة وعلى هذا سمي أكبر مظهر من مظاهر استقلالنا باسم اعجمي مع وجود الاسم العربي عند العرب من زمن الجاهلية ولله الامر من قبل ومن بعد » .

عطفه على من يعطف على العربية

ولقد كان على تعصبه لامته ودينه وقوميته وعربيته متساهلاً مع من يخالفونه في معتقده . ولطالما خرج أمثالي من مجلسه وبما رأوا من عنايته بهم ، خصوصاً اذا كانوا

من المشتغلين بالعلم والادب ، ما اطلق السنهم بشكره ، وعقد قلوبهم على حبه ، واورثهم حسن الظن بهدي دينه وتاريخ أمته ، وايقنوا ان الرجل قد يتعصب لمشخصاته ولكنه يريد الخير كله لمن يوافقونه من بعض الوجوه على ما تشبعت به نفسه ويحكموا على مايرون بالمعقول والمنطق . ولقد اقترح على المجمع العلمي ان يضم اليه الاستاذ اسعد داغر لانه خدم اللغة العربية . وشق عليه ما نال الاستاذ الاب انستاس ماري الكرملي يوم غضب عليه رؤساؤه في ديره ببغداد وقضوا عليه ان يذهب للاعتكاف في دير لهم في جبل الكرمل متخلياً عن كتبه وتآليفه ، وسعى للافراج عنه ليرجع الى بلاده وحتى لاتحرم اللغة نفثات قلمه ولا سيما من معجمه الفرنسي العربي الذي اقام على تأليفه زهاء ثلاثين سنة . واودعه من الفصيح كلمات كثيرة نحن في اشد حاجة اليها ، ساءه لما حل بصديقه (لما كان لهذا العلامة من الآثار النافعة في اللغة) . ولقد خدم الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف انواع الخدم العلمية لانه ايقن انه يخدم اللغة العربية بابحاثه . وكل من يخدم اللغة والعلم هو حبيبه . ولقد اعجب مرة بمقالة للاستاذ انيس سلوم في التعريب نشرت في مجلة المجمع فكتب في (٢٥ صفر ١٣٤١) « فاني ماكدت آتي عليها حتى علمت ان للعربية انصاراً وان قل عديدهم وان لطف الله لم يزل حافاً بهذه اللغة بعد ان كنت في يأس عظيم من انهاضها لا ارى فيها الا استجابة دعوة جرول في قوله لامه :

جزاك الله شراً من عجوز ولقيت العقوق من البنينا

كما رآها من قبلي ابو العلاء في الدنيا ... » .

كتبت اليه مرة اوصيه باحد اصدقائي من رجال فرنسا الاستاذ المستشرق السيد اميل بيات وكان يريد ان يزور الازهر ويتعرف الى القاهرة من طريق العالمين لا السياسيين فأدهشه ما اطلعه عليه ومن عرفه اليهم من رجال العلم وماأغدق عليه من ضروب الاكرام حتى جاوز كلام صديقي بعد انقلابه الى بلاده في شكر احمد تيمور حداً عجيباً وبهذه العناية بالموصى عليه وبامثاله من ابناء الشرق وابناء الغرب ابان فضل مصر وفضل ابنائها على العلم ، وبلوغهم درجة عالية من الحضارة والثقافة ، وبالتالي اورث بعمله حسن الظن بالمسلمين عامة والشرق خاصة . وهذه هي الوطنية الحقة ولو كثر هذا العدد من دعاتنا على هذا النحو ، لتعريف الغرب بفضل الشرق ، لما اساء بعض الغربيين

الظن بنا وبمجتمعنا ولما صغروا من شأن مدنيتنا في الغالب تصغيراً قائماً على الهوى والجهل معاً ·

آخرة المترجم

قال: إن ثمت لسعيد سعادته ، وبينما كانت السعادة ترفرف ظلالها على دار احمد تيمور ، وقد تزوّج من امرأة فاضلة وهي كريمة المرحوم احمد رشيد باشا احد وزراء مصر فولدت له ثلاثة أولاد اسماعيل ومحمد ومحمود فتعلقت ارادة المولى ان يفقد زوجته وهو في التاسعة والعشرين من عمره (ولد سنة ١٢٨٨ ﻫ وتوفيت زوجته سنة ١٣١٧) فلم يرض ان يتزوّج ثانية وقال لي وانا أحثه على الزواج : المسألة معقدة من وجهين الاولى انه يتعذر وجود زوجة تشبه أم الاولاد بعقلها وأدبها وصيانتها ، والثانية انني أخاف على اولادي من خالة تنغص عليهم عيشهم · وكان كما أراد فعاش أرمل متبتلاً ومثال الوقار والصون والعفاف ·

وكان المترجم متديناً تديناً حقيقياً ولم يعرف عنه انه ترك صلاةً ولا صوماً ، وحج مرة كما زار اوربا مرة وزار الشام مرة والاستانة مرة ، وكان القرآن يتلى ابداً في داره وفي عزبته وفي ذهبيته وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والحكماء تردد في ناديه ولم يعهد ان غشيه أرباب المساخر والملاهي اومال يوماً الى مصاحبتهم ، بل كانت اوقات فراغه كلها مصروفة في الجد يتخللها بعض المزاح المقبول مع خاصة أصحابه وكان اذا اتفق ان ألقى احد المختلفين اليه كلمة هجر يتصامّ عنهــا ويلوي وجهه وربما احمر خجلاً كأنه هو الذي قالها · ولو كان حظ خاصة المصر بين من الجد حظ هذا الرجل العظيم لبلغت مصر في مدنيتها شوطاً أوسع من الشوط الذي بلغته ·

ولقد عني بتربية بنيه التربية الحسنة وعلّمهم العلوم العالية لكن أصيب منذ عشر سنين بفقد ثاني أولاده محمد ، وكان من أرقى شباب مصر علماً وادباً وجمالاً وكمالاً وجواب تعزيتي له قوله في (١٣ رجب ١٣٣٩) : « نشكراً لسيدي الاخ الاعز على ما تفضل به من مؤاساتي في مصيبتي العظيمة التي هدّت ركني ونغصت عليّ مابقي من ايامي » وكان كما قال لا يكاد يتجه بعدها نحو الصحة حتى ينعكس وأصبح اكثر الأحيان من المتشائمين لا المتفائلين

و يزيد ذلك كما تراجعت صحته وأيقن بقرب منيته . كتب (١٩ يوليه ١٩٢٤) : « وقد أشار عليّ طبيبي حينما استدعيته امس بالسفر الى اوربا وعين لي بلدة بالمانيا يقصدها المرضى بالقلب فلم أقبل لاني لا أستصوب السفر الى مثل هـذه الديار وانا مصاب بمرض خطير بل أفضل البقاء بين ولديّ وأحب ان لا أتعبهما في موتي كما لم اتعبهما في حياتي » .

ثم كان العقد السادس من حياة عظيم العلماء ونابغة المصر بين حياة انغص وغصص ، ومع هذا كان لا يضن بوقته على افادة قاصديه ، ويكلف صحته اكثر من طاقتها لنفع الناس وكان خاصة اصحابه يمتنعون عن مراسلته او زيارته ، لئلا يكلفوه في قضاء الواجب نحوهم ما قد يضر بصحته ، حتى ناداه ربه الى جواره في صبيحة يوم السبت ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٨ (٢٦ ابريل ١٩٣٠) فكان لمنعاه في مصر والبلاد العربية وفي مجامع علماء المشرقيات في الغرب رنة أسى وحسرة وذكره الناس بالرحمة وعزى بعضهم بعضاً على فقد رجل الاسلام والعرب . وشمل الحزن عامة الطبقات المفكرة رحمه الله عداد حسناته للعربية والعروبة وانا لله وانا اليه راجعون .

ايها السادة : هذا ما عرفته من حياة صديقي الذي عددت فجيعتي به من اعظم الفاجعات ، وعلم الله اني ما القيت عليكم من صفاته الا ما ثبت عندي ثبوت الشمس والقمر . ولم أحاول ان اكتب فيه سطراً الا بعد ان انشأت بعض سورة الحزن عليه ، وعسى ان يسعني عفوكم فتسبلوا ذيل المعذرة على ذكر اسمي ، خلافاً لعادتي ، مقروناً الى اسمه الكريم في هذه المحاضرة ، بعد اني لم أر لي مخلصاً من ذلك ، لان المسألة مسألة ذكريات شخصية لا بدّ فيها من ذكر الفريقين ، والله يرحمنا و يتولانا بعونه .

محمد كرد علي

وطن الجاحظ(1)

—«»—

لئن أنبتت (خد العذراء) أبا الطيب المتنبي جبار الشعر على ترادف الايام فأي بقعة من بقاع الارض أنبتت اباعثمان الجاحظ جبار النثر في قديم الدهر وحديثه .

يقول كاتب من بلغاء الكتاب الفرنسيين في الشاعر (دي فيني) : لا يقرأ احد شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، فما أصدق هذا القول بالجاحظ نفسه ، كلنا نعرف اسمه ولكن هل نقرأ كلنا كتبه ، هل نعرف حياته على الوجه الذي نريده في عصرنا هذا .

ولئن فاتنا ما نريد من هذه المعرفة فلنعمل في استقصاء في ما لم يفت .

كنت أقرأ وانا أهيئ هذا الكلام كتاباً يبحث عن (فرجيل Virgile (2)) شاعر ايطالية ولد هذا الشاعر سنة ٧٠ قبل السيد المسيح فلم يغفل الكلام على القرية التي ولد فيها ، لم يغفل الكلام على محاقلها وعلى طيرها وعلى سواقيها وعلى ينابيع مائها وعلى مراعيها وعلى ماشيتها وقد اوصى الشاعر الرعيان برعي ماشيتهم في منابت عشبها .

والامم الغربية مذاهب بعيدة في الحنين الى الاوطان ، وقد انتخب البرت سيم طوائف من الكلم استنبطها من آثار كتاب الغرب وشعرائه واثبتها في مقال عنوانه : المولد وقيم

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) فيرجيل بقلم اندره بليسور (André Bellessot) الصفحة ٢ .

عليه نظري في « المجلة العالمية La revue mondiale » رقد استخرجت من هذا المقال شيئاً من الكلام اذكره على سبيل الايجاز :

لما نفي اوفيد الشاعر اللاتيني الى شواطئ البحر الاسود خرج من دياره وهو يلتفت الى رومة وبوادي وطنه سولمون ويقول : لاادري اي رونق لهذا الوطن حتى ملك علينا حواسنا فلا نجد سبيلاً الى نسيانه على وجه الدهر .

وكذلك فيرجيل شاعر اللاتينيين ، فانه لم ينس مولده البائس مدينـة مانطو كل حياته ، ولا ذهل هوراس عن بقعة ارضه الباسمة .

قال فنلون في قصيدة له : مهما ضربتُ في مناكب الارض ، فان البقعة التي رزقت فيها الحياة تلذ الاقامة بها وتضحك لي جواؤها اكثر من كل بقعة .

وذكر روسو ايامه التي قضـاها في قرية بواسي على مقربة من جنيف فقالـــ : وما فتئت منذ طويت شرخ الشباب ووخطني الشيب اشعر بان ذكرى بواسي تتوقد في خاطري على حين انسى صورغيرها من الذكر وتستقر في حافظتي استقراراً يشتدعلى تراخي الحقب ، فكنت كمن احس بدنو اجله فطلب السبيل الى الحياة بتذكر اوائلها واصغر حوادث تلك الايام يحلو في عيني لانه من تلك الايام .

وانك لتجد العواطف نفسها في كلام لبرناردن دي سان بيير قال : اني افضل باديتي على سائر البوادي ، ولا اؤثرها لجمالها ولكنني ربيت ونشأت في آفاقها . . ما اسعد الذي يعود الى الديار التي جعل كل شيءٍ فيها محبوباً .

ولما عاد الجنرال دي برسول من وقعة روسية وهو مثخن بالجراح رأى مولده فصرخ : انا من اوفيلار ! قريتي قبل كل شيءٍ . .

قال لامارتين وقد ذكر وادي ماكونه وهو يحبه حباً جماً : هذا مسكني منذالصبا ! سلام على ربيعه وصيفه وخريفه وشتائه ، واهاً لي ! تستخفني تصـاريف الدهر في كل خطوة خطوها فلم اعد الى هذه الديار الا لانتزه فيها ساعات قلائل فاقيس الشجرات التي غرستها لادفن في ظلالها واصلي في جوار قبر بن يسيراً من الزمن . .

وكتابات اسكندر دومانتم عن نزاعه الى تربته وتشتمل على وصف جميل لكل مايحس به في عودته الى فيلمر كوتره قال في جملة كلام له : دع هذا المولد الذي انشأ في اعماق

قلبي ذكراً ثابتة يجتذبني اليه فكلما دنوت من الموت يشتد هذا الاجتذاب فكأن الطبيعة قد جعلت الانسان يفرح بالبحث عن لحده في ظلال مهده .

وقال في مقام آخر : صرفت ثلاثين سنة من عمري في العمل والنزاع حتى سلبني الدهر رونق ايامي وشرخ شبابي ومع هذا فاني انبسط الى هذه القرية الصغيرة التي لا يعرفها احد في العالم وقبل وصولي اليها انزل من العربة فاحصي الشجر واجلس الى بعضه فاغمض عيني واتذكر اموراً مضى عليها عشرون سنة وفي جملة هذا الشجر شجرات نزلت مني بمنزلة الاصدقاء القدماء وفي جملتها شجرات غرسها غيري فأمر بها ولا ابالي كما امر برجال لا اعرفهم ولا تهمني معرفتهم .

وقال كراسزوسكي البولوني مخاطباً مولده :

ايتها الارض الجميلة التي تحتفظين بذكرانا بعد انقضاء الاجل !

ايتها الارض العذبة التي حنوت علينا في قديم الدهر !

اننا نودع خلطاءنا ونحن نأمل لقاءهم في السماء ، ولكننا اذا ودعناك لا نرى ابداً بعدك ضياءك المحبوبة ، وديارك وجداولك ، وربيعك وصيفك ، وخريفك وشتاءك وسائر ما رسخت صوره في اذهاننا في عنفوان الشباب .

كيف تكون عنادلك ، وازاهرك وغدواتك وروحاتك ؟

اترحب بنا السماء حتى ننسى من اجلها كل شيء قديم ؟

ومثل هذا الكلام كثير في آثار الافرنجة اجتزيء بالقدر اليسير منه تفادياً من التطويل .

قرأت هذا كله فقلت في نفسي : ما الذي نعرفه من وطن الجاحظ ما الذي نعرفه من الجاحظ نفسه وهو أذهب أدبائنا شهرة وأبعدهم صيتاً ، هل يتيسر لنا ان نبعث هيأته من مرقده حتى نحيط باسرار عبقريته بحذافيرها .

مالنا وهذا اليأس فان الفرح بمحادثة رجل مثل الجاحظ بعد ان اتى عليه احد عشر قرناً وهو هادئ في ترابه مطمئن في قراره يكاد ينسينا الالم الذي نألمه في فوات ما فات من جميع امره .

في سنة اربع عشرة كتب عتبة بن غزوان كتاباً الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب وقال : لابد للمسلمين من منزل اذا اشتاشتوا فيه واذا رجعوا من غزوهم لجؤا اليه فكتب اليه عمر ان ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء واكتب اليّ بصفته فكتب الى عمر : اني قد وجدت ارضاً كثيرة القَضّة في طرف البر الى الريف ودونها مناقع فيهـا ماء وفيها قصباء . ولما وصلت الرسالة الى عمر قال : هذه ارض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب فكتب اليه ان انزلها فنزلها وبنى مسجدها من قصب وبنى دار امارتهـا دون المسجد في الرحبة التي يقالـــ لها : رحبة بني هاشم ، وكانت تسمى الدهناء وفيهـا السجن والديوان وحمّام الامراء فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان .

ففي هذه الارض التي مصّرت على زمن عمر بن الخطاب ولد الجـاحظ وقد سموها : البصرة ، واذا قالوا : البصرتانـ عنوا بقولهم الكوفة والبصرة ، ومن فرط اهتمامنـا بالجاحظ لزمنا انـ نعرف كل شيء يختص به حتى معنى الارض التي شرب من مائهـا واكل من طعامها ونشق من نسيمها واستظل بظلها فانبلج من أفقهـا نوره ودرج من أفيائها شعوره فكانـ لنا معاشر العرب من هذه العبقرية الوهاجة مفخرة نفخر بها على تراخي الاحقاب .

ولقد اهتم الافرنجة بمعاني بقاعهم الاهتمام كله ولم يكن اهتمامهم بمثل هذه الامور على سبيل اللهو او على سبيل العبث وانما رموا في هذه المذاهب مرامي أبعد فان لفهم اشباه هذه المعاني عملاً جليلاً في حمل القلوب على الارتباط باوطانها ، وآخر ماقرأته في هذا الباب مقال عنوانه : سواقي فرنسة [1] ، فليت ان في ادبنا أمثال هذه المقالات التي تنشيء في النفوس محبـة الاوطان فبعد ان وصف الكاتب الساقية على وجه عام وأتى على ذكر ماتضمنته من اغاريد وابتسامات وتكلم على رفيف الضحى وعلى عبوس الليل في احفتها، بعد ان تبسط في هذا الوصف على اساليب شعرية رجع به القول الى الكلام على الساقية

(١) كتاب النزه الأدبية لصاحبه (Remy de gourmont) .

فنفخ فيهـا روحاً واخذ يفسر الاسماء التي أطلقوها على سواقي فرنسة وقد جاءتهـا هذه الاسماء من الامم التي نزلت بفرنسة في القديم من السنين ثم ختم .قاله بهذا الكلام :

هذا آخر عهدي بمناتن سواقينا المبتني لم أقطع الكلام عليها فاني أجد المأ في قطع هذا الكلام لان الساقية ام الطبيعة .

* * *

فلنبحث عن معاني البصرة لعل معرفة هذه المعاني تزيد في مقدار اتصالنا بالوطن الذي أخرج للناس أمثال الجاحظ .

البصرة ومعناها في كلام العرب على ماقال ابن الانباري الارض الغليظة .

وقال قطرب : البصرة الارض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب .

وقال غير قطرب : البصرة حجارة رخوة فيها بياض .

وقال ابن الاعرابي : البصرة حجارة صلاب قال : وانما سميت البصرة لغلظها وشدتها كما تقول : ثوب ذو بصر وسقاء ذو بصر اذا كان شديداً جيداً .

وذكر الشرقي بن القطامي : ان المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا اليها من بعيد وابصروا الحصا عليهـا فقالوا : ان هذه ارض بصرة يعنون : حصبة ، فسميت بذلك .

وذكر احمد بن محمد الهمداني حكاية عن محمـد بن شرحبيل بن حسنة انه قال : انما سميت البصرة لان فيها حجارة سوداء صلبة وهي البصرة .

وقال حمزة بن الحسن الاصبهاني سمعت موبذ بن اسوهشت يقول : البصرة تعريب بس راه لانها كانت ذات طرق كثيرة انشعبت منها الى اماكن مختلفة .

وفي اللغة اسباب لتسميتها غير هذه فالمجمع عليه ان في البصرة معنى الشدة والصلابة فكأنما اوحت الى ابي عثمان صلابة القول وشدة اسره .

فما الذي تركه الجاحظ لنا من آثار هذه الشـدة ورسوم هذه الصلابة ماالذي تركه لنا من آثار وطنه وهو الذي يقول في الحنين الى الوطن : « وانت لوحولت ساكني الآجام الى الفيافي وساكني السهل الى الجبال وساكني الجبال الى البحار وساكني الوبر الى المدر لأذاب قلوبهم الهم ولأتى عليهم فرط النزاع . وقد قيل : عمر الله البلدان بحب الاوطان

وقال عبد الله بن الزبير رحمه الله تعالى : ليس الناس بشيء من اقسامهم اقنع منهم باوطانهم . وقال معاوية في قوم من اليمن رجعوا الى بلادهم بعد ان انزلهم من الشام منزلاً خصيباً وفرض لهم في شؤون العطاء : يصلون اوطانهم بقطيعة انفسهم ، وقال الله عز وجل : ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليلاً منهم . فقرن الضن بالاوطان الى الضن بمهج النفوس » .

فان الذي يقول مثل هذا القول و يشعر مثل هذا الشعور انما هو عالم بمنزلة الوطن من القلوب فالمنتظر في مقدار حنين الجاحظ الى وطنه ماهي الآثار التي خلفها لنا من هذا الحنين ، ماهي طبيعة هذه الآثار .

نظر الجاحظ الى عيوب تربته ولم ينظر الى فضائلها قال :

« من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لانهم يلبسون القمص مرة والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات ولذلك سميت الرعناء قال الفرزدق :

لولا ابو مالك المرجو نائلـه ماكانت البصرة الرعناء لي وطنا »

لم ينظر الجاحظ الى تربته نظرة شاعر مولع بالوان هذه التربة كلف بمشاهد طبيعتها وانما نظر اليها نظرة العالم الذي يريد ان يبحث عن اصل كل شيء حتى يعرف المورد والمصدر والمدخل والمخرج وهذا من خصائص عبقريته ومن طبيعة عقله . ولقد تجلت هذه الخصائص وهذه الطبيعة في كلامه على اعجوبات البصرة قال :

بالبصرة ثلاث اعجوبات ليس في غيرها من البلدان منها ان عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد فيقبل عند حاجتهم اليه و يرتد عند استغنائهم عنه ثم لا يبطيء عنها الا بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها لايقتلها عطشاً ولا غرقاً ولا يغبها ظمأ ولا عطشاً يجيء على حساب معلوم وتدبير منظوم وحدود ثابتة وعادة قائمة يزيدها القمر في امتلائه كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على اهل الغلات يخلفون ومتى يذهبون و يرجعون بعد ان يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر فهي آية واعجوبة ومفخر واحدوثة لا يخافون المحل ولا يخشون الحطمة . والاعجوبة الثانية ادعاء اهل انطاكية واهل حمص وجميع بلاد الفراعنة الطلسمات وهي بدون ما لاهل البصرة وذلك ان لو

التمست في جميع بيادرها وربطها المعودة وغيرها على نخلها في جميع معاصر دبسها ان تصيب ذبابة واحدة لما وجدتها الا في الفرط ولوان معصرة دون الغيظ اوتمرة منبوذة دون المسناة لما استبقتها من كثرة الذبان .

والاعجوبة الثالثة ان الغربان القواطع في الخريف يجيء منها ما يسود جميع نخل البصرة واشجارها حتى لا يرى غصن واحد الا وقد تأطر بكثرة ما عليه منها ولا كربة غليظة الا وقد كادت ان تندق لكثرة ما ركبها منها ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط الا على نخلة مصرومة ولم يبق منها عذق واحد ومناقير الغربان معاول وتمر الاعذاق في ذلك الابان غير متماسك فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كل عذق منها بنقرة واحدة حتى لم يبق عليها الا اليسير ثم هي في ذلك تنتظر ان تصرم فاذا اتى الصرام على آخرها عذقاً رأيتها سوداء ثم تخللت اصول الكرب فلا تدع حشفة الا استخرجتها فسبحان من قدر لهم ذلك واراهم هذه الاعجوبة . »

من هذا كله يتبين لنا ان الجاحظ في الحنين الى الوطن انما ينظر الى بقعة ارضه نظرة العالم المدقق على ان قلبه لم يخل من نزاع الى وطنه وانما ذهب في هذا النزاع مذهباً بعيداً يجاز من وطنه الاصغر الى وطنه الاكبر فمن بعض كلامه :

« وانا اقول في هذا قولاً وارجو ان يكون مرضياً ولم اقل : أرجو ، لاني اعلم فيه خلافاً ولكني اخذت بآداب وجوه اهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب » .

اني ارى في هذه الكلمات عروبة واضحة ووطنية صادقة فما اعذب قوله : ملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي ! وما اعذب هذه الياآت كلها ! فانها تدل على ولع صاحبها بقومه وكلفه بوطنه ولهجه بلغته اني ارى فيها صورة الرجل الذي جعل من جزيرة العرب ومن لغتهم ملكاً خاصاً به يرتبط بهما قلبه ولسانه .

ومع هذا كله لم يصور لنا الجاحظ وطنه فاذا اردنا ان نعرف شيئاً من صورة البصرة في القديم لزمنا ان نستعين بغير الجاحظ .

فمن الذين وصفوا البصرة خالد بن صفوان ، وصفها لعبد الملك بن مروان فقال : يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم ويجيء هذا بالظبي والظليم ونحن اكثر الناس

عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً و برذوناً هملاجاً وخريدة مغناجاً بيوتنا الذهب ونهرنا العجب اوله الرطب واوسطه العنب وآخره القصب فاما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته هذا على افنانه كذاك على اغصانه هذا في زمانه كذاك في ابانه من الراسخات في الوحل المطعمات في المحل الملقحات بالفحل يخرجن اسفاطاً عظاماً واوساطاً ضخاماً وفي رواية يخرجن اسفاطاً واوساطاً كأنما ملئت رياطاً ثم ينفلقن عن قضبان الفضة منظومة باللؤلؤ الابيض ثم تتبدل قضبان الذهب منظومة بالزبرجد الاخضر ثم تصير ياقوتاً احمر واصفر ثم تصير عسلاً في شنة من سحاء ليست بقربة ولا إناء حولها المذاب ودونها الحراب لا يقربها الذباب مرفوعة عن التراب ثم تصير ذهباً في كيسة الرجال يستعان به على العيال ٠

واما نهرنا العجب فان الماء يقبل عنقاً فيفيض مندفقاً فيغسل غثها و يبدي مبثها يأتينا في اوان عطشنا و يذهب في زمان ريننا فنأخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فرشنا فيقبل الماء وله عباب وازدياد ولا يحجبنا عنه حجاب ولا تغلق دونه الابواب ولا يتنافس فيه من قلة ولا يحبس عنا من علة ٠

واما بيوتنا الذهب فان لنا عليهم خرجاً في السنين والشهور نأخذه في اوقاته ويسلمه الله تعالى من آفاته وننفقه في مرضاته » ٠

ليت هذا الوصف قد جرى به قلم الجاحظ نفسه واظن اننا لا حاجة بنا من بعده الى معرفة شيء من صورة البصرة وانما يلزمنا ان نعرف ان في البصرة نشأ النصيب الاوفى من عبقرية العرب فكان لهذه البقعة من شعر العرب ولغتهم وادبهم ونحوهم الحظ الاوفر فلا نذكر البصرة الا تمثل لنا بشار بن برد والسيد الحميري وسلم الخاسر وحسين بن الضحاك وصالح بن القدوس والرقاشي والرياشي وغيرهم من الشعراء على اختلاف طبقاتهم واي تربة الفضل من تربة سقى ماؤها وغذى هواؤها وادفأت شمسها رجالاً تبسط سلطانهم في عالم الطبيعة وفي عالم العاطفة فكان للطبيعة وللعاطفة من شعرهم مرآة مصقولة الجوانب مرة تعكس لنا اشكال الالوان على تباين كدرتها وصفائها ومرة تمثل لنا صور العاطفة على اختلاف دقائقها ٠

ولا نذكر البصرة الا تخيل لنا الاصمعي وابو زيد الانصاري وخلف الاحمر والخليل

ابن احمد والنضر بن شميل وقطرب وغيرهم من المحافظين على لغة العرب المرامين دون حياضها واذا قلنا : لغة العرب تصورت لنـا هذه المادة التي اعانتهم على الافصاح عن نتائج عاطفتهم وشعورهم وعن ثمرات خواطرهم وعن مذاهب حضارتهم وعمرانهم وعن اساليب سياستهم وسيرتهم فكان في هذه الالفاظ المجموعة في كتاب واحد صورة ناطقة تعرب لنا عن ظواهر العرب وبواطنهم .

وفي البصرة نشأ سيبويه والمازني والى البصرة ينتمي المبرد وابن دريد فمن هذا كله يظهر لكم ان معظم عبقرية العرب في الكوفتين فاذا نبتت على ضفاف بردى عظمة العرب وما اشتملت عليه هذه العظمة من منازع قومية فعلى ضفاف الرافدين دجلة والفرات طلع فكر العرب وشعورهم وللجاحظ نصيب غير يسير من هذا الفكر ومن هذا الشعور .

دمشق : في ٢٠ كانون الاول ١٩٣٠

ادبنا القومي
- ٣ -

بين القديم والجديد

ابتدأ الشعور الصادق بازمة اللغة العربية في مصر من يوم دلفت اليها علوم الغرب الحديثة على يدي محمد علي الكبير . ولقد حدثتك في مقال سابق انه استعان على الترجمة بين اساتذة الطب الغربيين وبين طلابهم من المصريين بين او المقصر بن بجماعة من النازحين الى مصر من المغاربة ومن بلاد الشرق القريب ، فكانوا يؤدون الى هؤلاء بالعربية او بما يشبه العربية مايلقيه اولئك باللغات الغربية . فكان هذا اول مجهود بذل في هذا الباب . واذا لم يكن قد انتج كثيراً ، او لم يجر على وجه الدقة فالعذر لهؤلاء السابقين قائم ، وسعيهم مشكور على كل حال .

وظلت الحال على هذا الى ان عاد من الغرب رفاعة وقرناؤه ، واتسعت رقعة العلم الحديث في مصر بما اقيم من المدارس في فنون الحياة المختلفة ، وقويت الحاجة الى التماس صيغ العربية ومفرداتها تؤدي بها علوم العصر الحديث . فلم يتعاظمهم الامر ولم يخذل من عزائمهم ، بل لقد جرّدوا هماً تتزلزل الجبال ولاتتزلزل ، فأقبلوا على معاجم اللغة وجعلوا ينفضون منها كل لفظة تؤدي معنى مما بين ايديهم ، كما أقبلوا على الكتب العربية في العلوم والفنون المختلفة مؤلفة ، ومترجمة عن اليونانية وغيرها ، فاستخرجوا منها شتى المصطلحات الفنية وأطلقوها على ماوقع لهم من المصطلحات في اللغات الاجنبية . فاذا قام لهم بعد هذا جديد من المعاني في لغات الغرب فلم يجدوا له من قديم صيغ العربية مايترجم عنه عاذوا بالتعريب . فعمدوا الى الكلمة الاجنبية فأطلقوها بعد ان يهذبوها بمايسيغها في لسان

العربية . وبعد ان كان الامر في صدر النهضة مقصوراً على الترجمة فقد شمر العلماء المصريون للتأليف فأخرجوا من الكتب والرسائل مؤلفة ومعربة مالا يحصى كثرة في الطب والهندسة والحساب والفلك والطب البيطري والزراعة والتعدين وغيرها مما زخرت به العربية على الرغم مما كان يشوبه من المعرب والدخيل والركيك . والا فكيف كانت الحيلة في أداء علوم الحياة للمصريين ؟ ما احسب احداً يزعم ان الواجب عليهم كان ان يتربصوا بالعلم حتى يأذن الله فيخرج لهم من خالص العربية مايدل على كل ما كان وما سوف يكون .

ولعل الحرج السياسي في مصر في مؤخرات عهد اسماعيل ، ثم في تهيؤ البلاد للفتنة في عهد توفيق قد خذل من قوائم هذه النهضة « اللغوية العلمية » وان لم يخذل في النهضة الادبية ثم كانت القارعة الكبرى بالاحتلال الانجليزي ، ثم تعمد المسيطرين منهم على التعليم بسط العلوم على التلاميذ باللغة الانجليزية . ولايذهب عنك ان ادامة هذا السنين الطوال قد كاد يقطع ، ثانياً ، الصلة بين العربية ومصطلحات العلوم الكونية : ولسوء حظ العربية لقد كانت هذه الفترة هي اشد فترات التاريخ ازدحاماً بمخترعات الغرب ومستكشفاته في مرافق الحياة . وما زالت يرشقنا كل يوم منها بما لا نجد عنه منصرفاً ولا محيداً ، ولا تجد لغتنا عليه مسعداً ولا معيناً !

على انه من جيل مضى قد تعاظم هذا الخطب جماعة العلماء والمتأدبين فانبعثت له طائفة من ائمة اللغة واعلام البيان واقبلوا على كتب اللغة ينكتونها نكتاً ليصيبوا بهـا ما يمطرنا به العلم الحديث ، فجدوا اشهراً او اياماً ، ولاادري ما الذي فرق عزائمهم ، فسرعان ما انقبضوا بعد ان اخرجوا بضع عشرة كلمة سار أقلهـا ومات سائرها ، ولا حول ولا قوة الا بالله !

على ان جهوداً فردية ظلت مرسلة ، انتج بعضهـا كثيراً ، وانتج بعضها قليلا . الا انها بكثيرها وقليلها لا تغني في هذا الباب كثيراً !

وعلى ذكر هذه الجهود أحيي بأطيب التحيات وازكاها ذكرى استاذنا الاعظم العالم اللغوي الاديب الشاعر الكاتب حفني بك ناصف عليه رحمة الله . فاني لا أعرف في هذه البلاد من جمع بين خدمة العلم وخدمة الادب وخدمة اللغة ، وخاصة من الجهة العملية مثل حفني ناصف . و يدوم على هذا طوال السنين لا زهو ولا استكبار ، بل انه لتواضع

يشبه الانكسار . وهكذا العلماء لا المتعالمون !

إذن لم يغن كل ما بذل العهد الاخير في مطالب العلم الحديث عند لغة العرب . وكيف الحيلة في هذا الخطب الجسام : ان البلاد تريد ان تتعلم ، وتريد ان تتعلم بلغتها لغة العرب ، وفي الحق انهـا اذا لم ترد هذا فقد خطت بيدها قبراً لا انبعاث لها منه الى غاية الزمان .

وهنـا اذكر لامام الصحفيين المرحوم السيد علي يوسف حكمة له مأثورة : « ان من يعلم الامة بلغتها فانه ينقل العلم اليها . اما من يعلمها بغير لغتها فانه ينقل أفراداً منهـا الى العلم » . ونحن المصريين بحمد الله اشد أنفة واوسع في الحياة مطلباً واعزمطمعاً من ان نقنع بان ينقل افراد منا الى العلم !

وإذن لا بد من حل ، وهذا الحل لا يمكن ان يكون الا باتخاذ احدى طريقتين لاثالث لها : اما العياذ بالنحت والتعريب وما اليهما من الوسائل الى مط اللغـات حتى تصيب طرائف المعاني . واماالالتجاء الى التعريب بعد صقل الالفاظ الاجنبية وتسويتها حتى تستقيم اللهجة العربية . وذهب قوم من افاضل العلماء الى هذا ، وخالفهم جماعة من أندادهم الى ذاك . ومن ذلك اليوم نشأ في هذه البلاد مايدعى بالقديم والجديد ، ونجم من يدعون أنصار القديم ومن يدعون أنصار التجديد .

نعم ، لقد اتسع بعد هذا معنى القديم ومعنى الجديد اذ اصبح الى تناوله فقه اللغـة . يتناول الادب في تصرفه واساليبهومطالبه والغاية منه وغيرذلك ، ولهذا شيعة وانصار ، ولهذا شيعة وانصار ، واننا لنعود الى هذا الموضوع بعد اذ نفرغ مما اخذنا فيه من هذا التاريخ لكيلا تختلط الموضوعات و يختل نظم الكلام .

اسلفت عليك ان الخلاف قد انبعث بين من يقولون بالاجتزاء بالنحت والاشتقـاق وما اليهما ، وبين من يذهبون الى التعريب . وقامت المناظرات بين الفريقين ، وعقدت المحافل لشهود الجدل والحوار . فكانت اظهر حجة لهؤلاء ان اللغة العربية قد انقبضت من مئات السنين عن اسباب الحضارة ، ولم تشهد هذه العلوم الحديثة ولا عهد لها بهـذه الوسائل التي يطلع علينا الغرب بها كل حين . فليس من المعقول ان نصيب فيها ما يغني في كل ذلك .

ومن المسلم به اننا في علومنا واسبابنا في الحياة انما نعيش عيالاً على الغرب وعنه نأخذ ، ومنه نستمد وبه نقتدي فلا محيص لنا عن التعريب . على اننا لا نكون مبتدعين اذا نحن عمدنا الى التعريب . فلقد اضطر اليه سلفنا العظام في انضر عصور اللغة العربية وازكى ايامها ، اضطروا اليه في صميم العصر العباسي حين ابتدأوا على نقل علوم اليونان وآداب الفرس الى لغة الكتاب العزيز ، ولست تشق كتاباً ترجم او ألف في ذلك العهد في منطق او فلسفة او طب او هندسة او فلك او غيرها ، الا رأيته قد سلك ، في كثير من المواضع ، سبيل التعريب .

وأبلغ من هذا ان العرب في جاهليتهم على غنى لغتهم الهائل وعلى انهم كانوا أجهل خلق الله بالعلوم والفنون ، لم يتحرجوا من ان يقترضوا كثيراً من الالفاظ الفارسية والحبشية وينظموها في صميم العربية .

وكان من أبلغ حجج الآخرين ان التعريب لايجوز الا للعرب . فهم وحدهم الذين يملكون ان يدخلوا في لغتهم ماشاؤا وان ينفوا عنها ماأرادوا . فكل دخيل بعدهم لا يمكن ان يقال انه من لغة العرب .

على ان السابقين في العصر العباسي وما وليه اذا كانوا قد اضطروا في سبيل الترجمة عن بعض مصطلحات العلوم الى ايراد كلمات اجنبية فما كان ذلك ليدخلها في لغة العرب ، بل انها مازالت تعتبر من لغى اجنبية .

ثم ان العباسيين قد استطاعوا ان يترجموا بالعربية الصحيحة الخالصة علوم اليونان ، وبديه ان وقوع طائفة يسيرة من المصطلحات الأعجمية فيها لا يخرجها عن عربيتها . اما نحن فاذا طرقنا اليوم هذا الباب فسنجد في كل عشر كلمات واحدة عربية وتسعة معربة ، او على الصحيح اعجمية ، اما لانه ليس في لغة العرب مايدل على المعنى الحديث ، واما باستسهال الناس للتعريب عن طول المراجعة والتنقيب ، وفي هذا القضاء كله على لغة الكتاب الكريم .

ويرى هذا الفريق من العلماء ان في ابواب النحت والاشتقاق والتجوز متسعاً لكل ما يعرض لنا من معنى حديث وزادوا على هذا انه اذا تعصت لغة العرب عن اداء معنى طريف بعد ان نقر كل تلك الابواب ، وننفد الحيل والوسائل ، فواجب ان نلجأ الى مجفوات

اللغة وما لم يعد يستعمل من مفرداتها فيطلق على ذلك المعنى ، وبذلك تؤدي الغرض من جهة ، ونبعث ميت العربية من جهة اخرى .

ثم يحتدم الجدال ، ويستعر الطعن والقتال ثم اذا الزمن يكر ، واذا الليالي تفر ، واذا اللغة في انقباضها ، واذا المعاني الحديثة ما زالت في اضطرادها ، لا نستدركها على رأي انصار القديم ، ولا نلحقها على رأي اصحاب الجديد .

وقبل ان نجوز هذا الموضع يجب ان نشيد بأثرين كريمين كان لهما حظ في انعاش اللغة العربية بقدر محمود . اولهما ، انه لما ولي المغفور له سعد زغلول باشا وزارة المعارف تقدم بتدريس العلوم المختلفة باللغة العربية ، فنشطت العزائم ، وتضافرت الهمم على التماس ما يترجم من صميم العربية عن مطالب تلك العلوم . وكان من مقتضيات هذه النهضة ان أنشئ في وزارة المعارف قلم للترجمة العلمية ، فاخرج في مختلف العلوم كتباً غير يسيرة ، اذا اعوز بعضها الدقة في حسن الاداء ، فلقد كان لها نفعها على كل حال .

والثاني انه لما تقلد المغفور له احمد حشمت باشا هذه الوزارة والى سعي سلفه العظيم ، واقبل على تشجيع تلك النهضة بتقريب علماء اللغة واذكاء هممهم ، وشق طرائق العمل لهم وبادر فألف لجنة دعيت (لجنة الاصلاحات العربيــة) يتولى رياستها وزير المعارف ، ووكالتها وكيلها ، ودعا الى عضويتهــا جماعة من خيرة العلماء : اسماعيل حسنين باشا ، احمد زكي باشــا ، حفني ناصف بك ، اسماعيل رأفت بك . الشيخ احمد السكندري وغيرهم .

ولولا حب الجدل ، الذي ابتلينا به نحن المصريين ، لآتت هذه اللجنة اجلّ الثمار ؛ على انها برغم ذلك قد حققت كثيراً من الاعلام والمصطلحات الجغرافية مازالـــ يؤخذ بها في التعليم الى الآن .

ثم فترت هذه الثورة بعد اعتزالــــ حشمت باشا وزارة المعــارف وجرى على تلك اللجنة القضاء المحتوم .

* * *

« المجمع اللغوي »

ادرك اهل العلم ثانياً ان جهود الافراد لا تغني في هذا الحدث كثيراً ، لان الواقع دل على ذلك اولاً ، ولأن عمل الفرد في مثل هذا لا يُكفَل له الضبط والدقة الواجبان ثانياً ، ولان اثر الفرد لا يلتزم به المجموع ثالثاً ، فتكون النتيجة نتيجة الارتكان على الجهود الفردية ان تختلف الدلالات على المعنى الواحد ، سواء في الالفـاظ المفردة او في الصيغ المحبوكة .

ومن هنا التفتت النيات الى وجوب عقد مجمع لغوي يضم اليه افذاذ العلماء واللغويين وكبار الادباء من الشعراء والنقدة والكتاب ، حتى يثمر السعي من جهة الدقة والتجويد ، ومن استراحة جمهور المتأدبين اليه واخذهم به في معالجتهم لالوان العلوم والآداب .

ووجهت الدعوة الى صفوة هؤلاء فعلا ، وجهها الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير دار الكتب يومئذ) فلبوا ، واجتمعوا ثم اجتمعوا ، ثم انفضوا لا عن شيء وتفرقوا كل مفرق .

وبعد بضع سنين شبت هذه النية مرة اخرى فدعا صاحب العطوفة ادريس راغب بك جماعة من صفوة العلماء والادباء الى عقد « مجمع لغوي » ايضاً . فاجتمعوا واشتعبوا لجاناً تتجرد كل واحدة منها لمطلب خاص ، ثم اجتمعوا وانتضح مسعاهم عن اثر يسير ، لا ادري مصيره اليوم ، ثم انفضوا وتمزقوا كل ممزق .

لم يبق بعد كل هذا بد من احالة الامر على الحكومة فالحكومة قوية بمالها ، قوية برجالها ، قوية بقوانينها . ما تأخذها هوادة في بسطها على موظف فاتر كسول وبعبارة أخرى ، لا نجاح « لمجمع لغوي » الا اذا تولته الحكومة فاصبح فرعاً (رسمياً) من فروعها . ولهذا مزية اخرى ، وهي ان الحكومة تستطيع ان تفرض ما يخرجه (المجمع اللغوي) فرضاً في كتب التعليم وفي مكاتباتها (الرسمية) وغير ذلك . وفكر في ذلك الاستاذ علي الشمسي باشا مذ كان وزيراً للمعارف ، واحتفل للامر ايما احتفال ، وراجع فيه الاستاذ احمد لطفي السيد بك (مدير الجامعة يومئذ) والاستاذ احمد حافظ عوض بك وثالثاً . وقـدم كل منهم الى الوزير تقريره متضمناً المبادئ الاساسية التي ينبغي ان يقوم عليها بناء المجمع والغاية من قيامه ، وطريقة قيامه بمهمته ، على جهة الاجمـال لا التفصيل . وجعل الوزير يفكر بعد ذلك ويتدبر ، وفي خلال هذا التفكير وهذا التدبير تخلت الوزارة عن الحكم .

وقام على وزارة المعارف بعده الاستاذ احمد لطفي السيد بك فوالى مسماه سلفه ، وجد في الامر ايما جد حتى اتم مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ومشروع ميزانيته على ماروى لي الثقة الصادق ، والعهدة عليه ثم لم يظهر لهذا المجمع «الرسمي» الى الآن (حس ولا خبر) . وهكذا ظلت لغة العرب وحاجة العلم يناشد كل منهما صاحبه قول الشاعر :

أرى ماء وبي ظمأ شديد ولكن لا سبيل الى الورود

ولقد انتهى الي ان هناك ملاحظة قوية قد ارتفعت على مشروع انشاء «المجمع اللغوي» ذلك بان اللغة العربية ليست ملكاً لمصر يبن وحدهم حتى يستأثروا بالتصرف فيها ، بل هي ارث مشاع بين جميع الامم التي تنطق (الضاد) . وهيهات ان يكفل لهذا المشروع نجاح الا اذا اشترك فيه مندوبون عن سائر الامم العربية الاخر ، ليجري كل ما يستخرجه المجمع وما يولده على السنة المتكلمين بالعربية في جميع اقطار العالم ولقد يكون لهذا الرأي شيء من الاعتبار بتوحيد جميع الصيغ والدلالات في أقطار العالم العربي ، وان كان هذا برغم الف مجمع ومجمع ، مما يكاد يلحق بالمستحيل . ولكن اليست اقامة مجمع لغوي مصري بحت خيراً من ألا يقام مجمع البتة من اي نوع كان ؟ .

ثم لقد سبقنا اخواننا اهل الشام فألفوا « لهم مجمعاً علمياً لغوياً » فهل دعونا او دعوا غيرنا من المنتمين للعربية الى الاشتراك فيه ؟ وهل هم منتظرون حتى تبدي الامم العربية الاخرى رأيها فيما هم مخرجون ؟

والحق الذي لا ريب فيه ان مصر اعلى البلاد العربية حضارة واوفرها غنى ، واوسعها علماً وادبا ، فهي حاملة لواء الحضارة في الامم العربية ، وان غيرها ليقتدي بها . ولو انها نهجت في هذا الباب سبيلها لاتبعها غيرها واخذ عنها سواها من الامم الناطقة بالعربية .

ثم ماذا يضيرنا نحن اذا خالفنا غيرنا ، في الدلالة على المعاني الحديثة ، الى خير ما أستخرجه من المفردات وما نتواضع عليه من المصطلحات ؟

* * *

وبعد فلقد اوردت عليك موجزاً من تاريخ اللغة العربية من صدر النهضة الحديثة ، ومبلغ نقلها ، وكيفية تصرفها . والجهود التي بذلت في سبيل انبساطها لحاجات العلوم

الكونية . ومن هذا كله نرى ألاّ ملجأ ولامنجى الا بالاسراع في عقد مجمع لغوي (رسمي) تكفله الحكومة ، و يشد منه جمهرة العلماء والمتأدبين . .

بين القديم والجديد ايضاً

قلت لك في مقالي الماضي انه قد اتسع معنى القديم ومعنى الجديد ، اذ أصبح الى تناوله فقه اللغة ، يتناوله الادب في تصرفه وأساليبه ومطالبه والغاية منه ، وغيرذلك . والواقع ان الخلاف جد واضح في امر فقه اللغة ، فهناك قوم يقولون بالتعريب فيما لا غناء للعربية فيه وقوم لا يسيغونه البتة ، بل يذهبون الى معالجة ذلك بالنحت والاشتقاق وما اليهما على ماسلف به التفصيل . اما الخلاف في شأن الادب بين أنصار القديم وأنصار التجديد ، فالحق انه غير واضح المعالم ولا بين الحدود .

نعم ان هناك اختلافاً كبيراً نحسه وتستشعره بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء وهذا الاختلاف لقد يظهر مرة بقدر كبير وقد يظهر مرة بقدر صغير ، فهو من الجهة العملية قائم على كل حال . اما من الجهة النظرية فان احداً لم يتقدم الى الآن بتبيين حدوده واظهار وجوهه وتفصيل مسائله . وبعبارة أخرى : ان احداً من هؤلاء ولا من هؤلاء عبر في صراحة ونصاحة بيان عما يرى ان يكون عليه الادب العربي في هذا العصر الذي نعيش فيه . فان انت ظفرت بشيء من البيان في هذا ، ظفرت به على وجه الاجمال لا على وجه التفصيل . وعلى ذلك فليس من حقنا نحن المحايدين ان ندخل في تفصيل ما طواه اهله وأجمله ذوو الشأن فيه . بل ان كل ما علينا ان نأخذ في الامر كلامنا من الجهة النظرية بالاجمال . اما من الجهة العملية البادية في آثار اصحاب القديم وانصار التجديد ، فهذه من حقنا ان نخوض فيها على جهة التفصيل :

يعيب اصحاب القديم خصومهم بان آداب الافرنج قدغمرت احساسهم وطغت على مشاعرهم فانحرفت ملكاتهم عن الطبع العربي ، فهم اذا نظموا او أرسلوا البيان وان جلوه في لفظ عربي فانه لا يستقيم لطبع اللغة ولا يساير كرائم آدابها وبدائع أساليبها : صيغ حائلة ، وجمل ناصلة ، وتراكيب متزايلة ، وأخيلة ناشزة على الطبع ، وتشبيهات نابية عن السمع . وانزلاق الى معان غريبة لا يصلنا بها سبب ، ولا يربطنا بها نسب .

وهيهات ان يكون الادب كذلك أو يكون ذلك من الادب .

ويجيبهم الآخرون : انكم لاتفقهون الادب ، ولاتدركون اثر الادب ، ولاتعرفون الغاية من الادب ، لان كل همكم وهمتكم قد احتبسا على رص الألفاظ وتزيين الصيغ بالتماس ألوان المحسنات البديعية مهما استهلكتم المعاني في هذا السبيل ، والتجرد في تلقط جملة قديمة او مثل عربي تسوقون ذلك في غير شيء ، وقد تدافعون الكلام اليه دفعاً لتصيبوه وتستكرهوه على نظمه لما أنتم فيه . فالاصل في الادب عندكم نظم الفاظ وتصيد صيغ وتزويق كلام كائنة ماكانت معانيه ، والقمة ماوقعت مراميه . اما المعاني واما الاغراض ، واما إرضاء النفس بما يترقرق فيها من الوان الحس ، واما تصوير الجمال وإشعاره الخ فلستم هناك في شيء من ذلكم . وهذا هوالادب لو كنتم تفقهون .

هذه صفوة ماانتفض الينا من مناظرات الفريقين (أصحاب القديم وانصار التجديد) اما من الجهة العملية فقد حدثتك في صدر هذا المقال بان الاختلاف بين آثار هؤلاء وآثار هؤلاء لقد يظهر مرة بقدر كبير ، وقد يظهر مرة بقدر صغير والآن ، ونحن بسبيل الابانة عن الخلاف من هذه الجهة ان نعمد الى أطول أقطاره وأوسع مراميه لنظهر القارئ على أوضح صوره وأبين مجاليه :

فلان عندنا وفلان وفلان يقرضون الشعر فلا يكادون يأتون به الا بالغريب الشامس من مفردات اللغة لا يجد الخاصة انفسهم السبيل الى فهمه الا بمراجعة المعاجم .. فاذا سافروا (في اشعارهم) قطعوا بهم الموامي (الصحاري) وما يترقرق فيها من السراب ، وما يتراءى لهم من الآل ، يقطعونها على متون العيس ، وكيف وردت خمساً (بكسر الخاء) او سدساً (بكسر السين) وكيف صنع ذيلها؟ اوضمته عارضة؟ (فتقول ارخى فوقها ستر) ام رفعته شامذة (فتقول رنق فوقها نسر) وكيف حنت النجائب وكيف انت ، ولم تبلغ راكبيها طلبتهم الا بعد ان :

اكل الوجيف لحومها ولحومهم فأتوه انقاضاً على انقاض

فاذا بكوا الأطلال والاحجار من دوارس الآثار . واذا تعشقوا تعشقوا (بنت معتنق الفوارس في الوغى) واذا واعدوا الحبيبة اللقاء ففي (منعرج اللوى) واذا فاخروا

بالكرم ، فبغرالجزور لسنامه (شحم كهداب الدمقس المفتل) واذا كاثروا بالشجاعة فاداتهم للطعان (السيف اليماني ، والرمح السمهري ، والقنا الخطي) الخ الخ الخ .

اما المتطرفون من اصدقاء الحديث فعندهم (الموت اللازوردي) و (الهيولى الرائدة على سرير الابدية) و (العذاب الناعم) و (بالجحيم) و(بالشيطان) و (الشيطان المرتبك في نسيج عنكبوته) الخ مما لا أريد الاطالة فيه إشفاقاً على ذوق القارئ الكريم .

هذان مثلان ضربتهما اولهما شديد التطرف في التعصب للقديم . وثانيهما شديد التطرف في عدم المبالاة باللغة في سبيل اصابة معنى حديث .

ولا يذهب عنك انه يقع بين هذين الحدين مراتب متعددة ، حتى انك لا تكاد تحس في بعض الآثار فروقاً بين اصحاب القديم وانصار التجديد . ولا تنس ان العلة فيما ترى من هذا التبلبل او شبه التبلبل في الاساليب هي ماشرحته لك في المقال الثاني فراجعه ان شئت وجوه التعليل .

وبعد ففيم الخلاف في الرأي ، وفيم كل هذا الجدل والحوار ؟ لقد يفهم ان يقوم الخلاف جدياً في متن اللغة بين من يقولون بالتعريب ، ومن يحظرون التعريب . وهذه مسألة يجب ترك البت فيها لمجمع لغوي معقودة له ثقة العلماء وأئمة اهل البيان . اما الادب وأساليبه وسائر اسبابه فالخلاف عليه لا يزول بالمناظرة ولا بالاقناع ، وانما ينقاص و يزول بحكم الزمان ، وانه الى هذه الغاية لفي بعض الطريق .

لا أحسب ان هناك شكاً عند اصحاب القديم او دعاة التجديد في ان الأدب في كل لغة وعند كل أمة كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة مايجري على سائر هذه الكائنات فهو ينمو ويهزل ، وهو يطول و يقصر ، وهو يشتد و يضعف ، وهو ينبسط و ينقبض ، وهو يجود و يخبث ، وهو يتشكل و يتلون . يتأثر في كل هذا بما يدخل عليه من العوامل وما يحيط به من الاسباب والملابسات .

ثم اذا كانت ابلغ مظاهر الادب هي الترجمة عما يعتلج في النفس من العواطف ، و يتنزى فيها من الوان الاحساس ، وما يتعلق به الذهن من فنون الاخيلة ، فلا بد للأدب على هذا من ان يتلون ، ولا بد له ان يتطوّر .

واعلم وفقنا الله جميعاً للسداد ان اهل العلم اجمعوا على انه مامن صورة يبتدعها الذهن

او خيال يتراءى للوهم الا وهو منتزع من امر واقع مستمد من حقيقة ثابتة . وانك مهما تمثلت لنفسك من الصور ماتجاوز المعقول ، وطيرت من الأخيلة مالحق بالمستحيل ، فلست بستطيع ان تجاوز في شيء من ذلك الواقع ، ولا ان تخرج عن دائرة المحسوس ، وانما كل شأنك فيما تتصور او تتخيل انك ملفق صورك وأخيلتك من الواقع المحسوس ، انك تستطيع ان تتصور جبلاً من اللؤلؤ و بحراً من الزئبق وانساناً من الخشب وطائراً من الذهب ، فهل تراك في هذا جئت بشيء من العدم ، كلا فالجبل موجود واللؤلؤ موجود والبحر موجود والزئبق موجود الخ ، فكل ماصنعت انك لفقت من الحقائق الواقعة لحسك فأخذت من الجبل جرمه ، واستعرت اللؤلؤ لجوهره وهكذا ، و كيف يتهيأ لذهن انسان ان يتمثل اشياء لم تقدر في الخلق ولم يقع عليها حس ؟ ذلك المستحيل .

ولقد ترجم العرب عن احساسهم اصدق الترجمة ، وصوروا عواطفهم ابدع تصوير ، فوصفوا البيد لانها مساكنهم ، والنوق لانها مطاياهم ومادتهم في طعامهم ، وأن لهم (من اصوافها واوبارها واشعارها اثاثاً ومتاعاً الى حين) وافتنوا في وصف السيف والرمح لانها عدتهم في حروبهم ومغازيهم الخ ..

والناس هنا انما يسكنون الدور ، بله القصور . و يسعون في شوارع فؤاد الاول وقصر النيل (والكرنيش) لا في سقط اللوى ، ويمتطون في سفرهم وتجوالهم قطر السكك الحديد ، والترام ، والسيارات ، والمركبات ، لا متون العيس ، وعيونهم تقع كل يوم على ماتخرج الارض من مختلف الازهار والانوار ، لا على المحل ، ولا على الجدب المحل ، وهم يستصبحون بالكهرباء لا بالزيت الخ ، وهم من هذا الذي يقع لحواسهم اوفى ما شاع في نفوسهم من علوم الكون واسبابه ، انما يستلهمون الحس و يستوحون الشعور . ولا سبيل لهم الى غير ذلك . فمن أرادهم بعد هذا على ان يغمضوا جفونهم ، و يسدوا آذانهم ويحقنوا انوفهم ، و يبعثوا بمشاعرهم الباطنة وعواطفهم الكامنة ، الى جزيرة العرب تسلخ اليها الف عام مضت لتشهد ماشهد العرب ، وتحس ماأحس العرب ، وتقول ماقال العرب — فذلك من لا يحق له ان يعد في الناس .

ثم مالنا ولكل هذا ، ألم تكن للجاهلية آدابهـا ، حتى اذا فتح الاسلام للعرب ، واتصلوا بطرف من الحضارة في العصر الأموي تطور هذا الادب وتلون مسايرة لكل

صور الحياة ، حتى اذا استحصدت الحضارة وذاع العلم في العصر العباسي ازداد تطور الادب فواتى كل مطالب العلم والحضارة . وهكذا مابرح الادب يتشكل و يتلون في كل عصر وفي كل بيئة ، متأثراً بما يتداخله من العوامل وما يحيط به من الاسباب .

والشيء بالشيء يذكر ، فلقد قيل لابن الرومي كيف يسبقك هذا الغلام من بني العباس ؟ (يريدون عبد الله بن المعتز) فقال هذا غلام اذا شعر فانما يصف آنية بيته وصدق ابن الرومي ، ودعك من تشبيهات ابن المعتز في السحاب ، وفي الهلال والنجوم وفي الخمر وفي خيل الطراد ، وانظر كيف يقول حتى في مقام الاستعطاف والمديح . قال يصف قلم ابي القاسم :

قلم ما أراه ام فلك يجري بما شاء قاسم و يسير
خاشع ساجد يقبل قرطا سا كما قبل البساط شكور
مرسل لا تراه يحبسه الشك اذا ما جرى ولا التفكير
كم منايا وكم عطايا وكم عيـ ش وحتف تضم تلك السطور

أرأيت كيف يكون كلام الملك بن الملك حتى في مقام المديح والاستعطاف ؟ انه لا يرى القلم يجري الا بما شاء مرسله وانه لا يمثله في انحنائه على القرطاس الا بمن يرام في حضرة ابيه وحضرته خاشعين ساجدين يقبلون البساط شكراً على ما أوتوا من النعمة . ثم لا يرى هذا القلم الا يجري دائماً بالاسعاد والاشقاء و بالاحياء والافناء .

نظن ان هذه القضية من المسلمات عند اصحاب القديم وانصار الجديد .

وهنالك قضية أخرى لا احسبها كذلك موضع خلاف بين هذين الفريقين : وتلك ان هذا الادب الذي نحاور فيه انما هو قبل كل شيء ادب العرب . ولهذا الادب اصله وعنصره ، وله مادته وجوهره ، وله بدائع تراكيبه ، وروائع أساليبه ، وله نصاعة ديباجته واشراق بيانه ، وله تلاحم نسجه ورصانة بنيانه ، وله موسيقاه تنحدر الى النفس فتحفزها من عجب ، وتثيرها من شجى وطرب ، حتى انك لتصيب الجمال كله في تنسيق اللفظ ، وتستشعر اللذة اجمعها في تجويد النسج دون اي اعتبار لمعنى او تعلق بخيال .

ألبس يهزك قول البحتري :

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفـة بالعقيق

وقوله :

ذاك وادي الاراك فاحبس قليلا مقصراً في ملامة او مطيـلا
لم يكن يومنا طويلاً بنعما ن ولكن كان البكاء طويلا

أليس يهزك هذا الكلام ، يتزاحف الى كبدك ؟ ومع هذا اي معنى فيـه ؟ واي غرض أراد ان يشكه الشـاعر به ؟ اللهم لا شيء غير شرف اللفظ ، وتلاحم النسج ، والبراعة في تأليف الكلام فاذا خرج بنا طلب المعاني الطريفة والتشبيهات الحديثة عن ارضاء الذوق وانحرف بنا عن مواتاة الطبع فقد حق لنا الا ننتظم ذلك الكلام في الادب العربي لا على التفصيل ولا على الاجمال .

* * *

هاتان قضيتان ليس الجمع بينهما بالمنى ولا باليسير . فلقد زعمت لك في بعض هذا المقال ان الادب كائن حي يجري عليه من سنن الكون مايجري على سائر الاحيـاء . فاذا لم تر له الا ان يظل رابضاً في مجثمه من عصر طرفة وزهير فذلك تعسف ايما تعسف ، وانكار لحقوق الحس وواقع الشعور أيما انكار . واذا قدرت له ان يسلخ جلده ، ويجدع انفه و يصلم أذنيـه و يفري لحمه و يبري عظمـه . ثم يتزايل و يتتابع حتى يستوي للمعاني الحديثة ، و يتهيأ لمطالب الحيـاة الطريفة ، فذلك العسف بأدب العربية وذلك الخسف من دونه كل خسف .

اذن لقد اتفقنـا في تقديري على الاقل على انه لا سبيل لنا الى استمداد مشاعرنا واحساسنا من غير ما يحيط بنا من الاسباب كما انه لا ينبغي لنا أن نجانف لغة العرب وما ازلوا لنا من بارع الصيغ ورائع الاساليب .

فهل ترى يشق علينا الجمع بين هذين المذهبين ؟

كلا والله ما كان ذلك — لو بسطتم لغة العرب في البلاد — بعسير .

ولقد سبقكم القرآن الكريم بالترجمة عن السنة الامم الخالية ، فسوى المعنى بالضرورة ، كاملاً . ولكنه طبعه على ذوق العربية فروي عن ابليس في نشأة آدم (رب فانظرني

الى يوم الوقت المعلوم) وروى عن نوح (رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين) وروي عن شعيب وآل شعيب (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز . قال ياقومي ارهطي اعزُّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا — الآية الكريمة) وروي عن فرعون موسى يحدث الى وزيره : (ياهامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الاسباب . اسباب السموات فاطلع الى إله موسى واني لاظنه كاذباً — الآية الكريمة) وغيرهذا مما لا يستدركه الاحصاء من ترجمات الكتاب العزيز . افكان هذا كله ترجمة حرفية يدل فيها لفظ بلفظ ؟ ام ان الكتاب الكريم صاغها بما يتضمن المعنى كله و يتوافى في الوقت نفسه للهجة العرب .

صدق الله العظيم

وفي الواقع انك ترى فينا نفراً ممن اخذوا انفسهم بادب الغرب وطبعوا على ثقافته ، اذا ترجموا او اجتمعوا لاداء معنى حديث اخرجوه على سمت عربي لا ينبو عن الطبع ولا ينشز عن الذوق . وانما اعانهم على هذا فقههم في العربية ووفرة ماحصلوا من مفرداتها وكثرة ما قلبوا من النظر في صيغها واساليبها .

* * *

ولقد قلت لك في بعض هذا الكلام ان الادب كائن حي يجري عليه من نواميس الطبيعة ما يجري على سائر الاحياء اليس يندفع الوليد من رحم امه دقيقاً ضعيفاً لا يملك من امر نفسه كثيراً ولا قليلاً ، فما يبرح ، على الزمن ، بالغذاء ، والتربية والرياضة ينمو و يتفطن وتدرك جوارحه وتنضج حواسه حتى يصبح رجلاً كاملاً ، اذ هو هو مابدل بدأ ببدء ، ولا رأساً برأس ، ولكنه صنع الطبيعة تربيه وتنميه رويداً رويداً بما يدخل عليه من الغذاء ، وما يؤثر فيه من عناصر الحياة ، وانت ابوه ما تكاد تستشعر نموه ولا شبوبه للرجولة . وقل مثل هذا في الشجرة الباسقة المظلة المثمرة ، فلقد تخرج نجماً ، ثم لا تزال بموالاة السقي وحسن التعهد تنمو وتطول ، اذ انت لا تحس لها شيئاً من هذا حتى تنبسق وتزهر ، ومع هذا فالشجرة هي الشجرة ما غيرت ساقاً بساق ، ولا بدلت غصناً بغصن .

وكذلك ينبغي ان يكون الادب ، هو الادب العربي في اصله ومنجمه ، يتلون بتلون الزمن ، ويتشكل بتشكل الحضارة .

والحضارة لا تهجم هجوماً ، بل انها لتتسرب الى الناس في هوادة ولين ، فيسايرها الادب كذلك في هوادة ولين ، بحيث ان كل ما تنتظر له به من معان حديثة ، واغراض طريفة ، يمد له بعض جوانبه حتى يتناولها و يسيغها و يهضمها او يجريها في عروقه مجرى دمه حتى تندمج في نفسه وتصبح جزءًا من كله ، فيخرج بها وهو هو رابياً نامياً ، اذ تصبح هي به كذلك عربية لا شية فيها وعلى ذلك درجت العرب من اول جاهليتهم الى ان انقبضت لغتهم واوشك ان يتقلص ظلها بتقلص حضارتهم في هذا العالم ٠

لقد وضحت لك هذا المقام ابين توضيح ، وليس بعده من شك في ان من يريدنا على ان لا نعدو حدود الادب في الجاهلية أو ما بعد الجاهلية انما هو مخلوق لا يؤمن بالحياة ولا بنواميس الحياة ٠ وان من يريدنا على ان نطفر بالادب العربي انما هو انسان لا يؤمن بادب العرب ٠

باحث



رسالة الكرم

- ٧ -

« اللحق والخلفة »

اللحَق محركة كل شيء لحق شيئاً او أُلحِق به من الحيوان والنبات وحمل النخل واللحق الثمر الذي يأتي بعد الاول · وكل ثمرة تجيء بعد ثمرة فهي لحَق والجمع الحاق · وقيل اللحق في النخل ان ترطب وتُحمر ثم يخرج في بطنه شيء يكون اخضر قلما يرطب حتى يدركه الشتاء فيسقطه المطر وقد يكون نحو ذلك في الكرم يسمى لحقاً قال الطرماح في مثل ذلك يصف نخلة اطلعت بعد ينع ما كان خرج منها في وقته ·

أَلحَقَتْ ما استلعبت بالذي قد أنى اذ حان حين الصرام[1]

اي ألحقت طلعاً غريضاً كأنها لعبت به اذ اطلعته في غير حينه وذلك ان النخلة انما تطلع في الربيع فاذا أخرجت في آخر الصيف مالا يكون له ينع فكأنها غير جادة فيما أطلعت · وفي المخصص واذا أنى العنب واناه ادراكه ثم اتى الكرم بحصرم جديد فذلك اللحق والجمع الحاق · والخِلْفَة كاللحق ·

وقيل الخلفة شيء يحمله الكرم بعدما يسود العنب فيقطف العنب وهو غض أخضر لم يدرك بعد[2] والخلفة في جميع الشجر وهو في النخل اللحق · وفي اللسان والقاموس فيقطف

---

(١) الاستلعاب في النخل ان ينبت فيه شيء من البسر بعد الصرام · واستلعبت النخلة اطلعت طلعاً وفيها بقية من حملها الاول ·

(٢) هكذا في الاصمعي وفيه ايضاً وهو الخلفة في العنب والنضاج في جميع الشجر وهو في النخل اللحق · وفيه ايضاً يقول احدنا لصاحبه أندخل تحت العنب فتلقط من الخلفة اي ادخل ولم ار النضاج الا جمعاً لنضيج او ناضج ·

العنب وهو غض أخضر ثم يدرك وكذلك هو من سائر الثمر . والخلفة ايضاً ان يأتي الكرم بحصرم جديد . وخلفة الثمر الشيء بعد الشيء والاخلاف ان يكون في الشجر ثمر فيذهب فالذي يعود فيه خلفة و يقال أخلف الشجر إخلافاً اذا اخرج ورقاً بعد ورق قد تناثر . وخِلْفَة الشجر ثمر يخرج بعد الثمر الكثير . وأخلف الشجر خرجت له ثمرة بعد ثمرة .

وتخلّفت الفاكهة بعضها بعضاً تخلّفاً وخِلْفَة اذا صارت تخلّفاً من الاولى .

« الزبيب »

تقدم ان الضمير هو الذابل[1] من العنب .

والزبيب ذاوي العنب[2] اي يابسه واحدته زبيبة وقد أزبّ العنبُ وزبب فلان عنبه تزبيباً جعله زبيباً فتزبب هو . وفي التاج أزب العنب وزببه تزبيباً فتزبب ومن المجاز قولهم تزبب قبل ان يتحصرم وفي المخصص فان ترك العنب حتى يتكمش[3] فقد أزب فاذا فعل ذلك به فقد زُبّب .

والزبيبي والزبّاب كشداد بائع الزبيب .

العُجْد بالضم الزبيب وقيل حبه وقيل اردؤه وقيل ثمر يشبهه وليس به . وقيل حب العنب وقد تقدم وذكر في القاموس جواز الفتح فيه .

العنجد قال في القاموس كجعفر وقنفذ وجندب الزبيب ونقلها في اللسان عن ابي زيد .

وفي المخصص وهو الزبيب والعُنْجُد والعُنْجَد وقيل هما حب الزبيب وقيل هما من الزبيب الأسود .

وفيه عن ابن دريد العُنجُد ردي الزبيب او حب العنب وليس له اشتقاق بوضع زيادة النون لانه ليس في كلامهم تجّد[4] الا ان يكون فعلاً مماتاً . وفي اللسان والعَنْجَد

(١) ذبل كنصر وكرم النبات والغصن والانسان يذبل ذبلاً وذبولاً دق بعد الري وقيل ذوي . وذوى العود والبقل يذوي ذياً وذُوِيّاً ذبل فهو ذاو وهو ان لايصيبه ريه او يضر به الحر فيذبل ويضعف . وذوى العود يبس . (٢) والتين .

(٣) يقال تكمش جلده اي تقبض واجتمع .

(٤) في التكملة ليس في كلامهم تجْد ولا تجَد .

والعُنْجَد(١) رديءُ الزبيب وقيل نواه ·
الفَصَى بالفاء والصاد حب الزبيب واحدته فصاة وانشد ابو حنيفة :
فَصيٌّ من فَصَى العجد
الفصا(٢) بالفاء حب الزبيب ·
القضى بالقاف المفتوحة · مقصورة العجد وهو عجم الزبيب وهو لغة في الفضى ·
وقَفَّى الرجل بالتشديد اكل القضى ·
وفي المخصص العَرَق الزبيب ومثله في القاموس ·
النواة عجمة الزبيب والتمر ·
وقد تقدم ان كل ما في جوف مأكول كالزبيب وما اشبهه · عَجَم واحدته عَجَمة
وان الفرصد بلغاته عجم الزبيب ·
العَزْم بالفتح تجير الزبيب وجمعه عُزُم ككتب · والعَزمي بياع التجير · والتجير
كرغيف ثفل كل شيء يعصر والعامة تقوله بالتاء · وفي المصباح انه معرب · وثفل كل
شيءٍ وثافله مااستقر تحته من كدر · وقال الليث الثفل ما رسب خثارته او علا صفوه من
الاشياء كلها · والثفل الحب · وفي المصباح الثفل مثل قفل حثالة الشيء وهو الثخين الذي
يبقى أسفل الصافي ·
الحُفال كغراب بقية الثفاريق والأقماع من الحشف والزبيب ·
الصناب ككتاب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب يؤتدم به · والمصنب كمنبر
المولع باكل الصناب ·
المَيْس نوع من الزبيب وقد تقدم انه ضرب من الكرم ينهض على ساق ·
الوَيْنَة الزبيب الاسود ·
الطائفي زبيب عناقيده متراصفة الحب كأنه منسوب الى الطائف ·

* * *

(١) في التاج كجعفر وقنفذ فتأمل ·
(٢) هكذا في اللسان وفي التاج والصواب كتابته بالياء ·

« التزبيب وموضعه وما يتعلق به »

الجرين : الموضع الذي تجفف فيه الثمار جمعه جُرُن كبريد و برد وفي اللسان والجرين موضع البر وقد يكون للتمر والعنب والجمع أجْرِنَة وجُرُن وقد أجْرَنَ العنب وفي المخصص فاذا وضع في الجرين قيل أجْرِن ·

الرحبة بالتحريك موضع العنب بمنزلة الجرين للتمر قال الاصمعي ولا يسمون موضع العنب الجرين انما يسمونه الرحبه · وقال في موضع آخر وأُجْرِنَ العنب في الجرين اي يجمع فيه وقد اجرنته ·

ويقال فرش العنب في الرحبة بسطه ليزبب ·

الكتر بالفتح والتاء المثناة حائط الجرين اي جرين التمر والزبيب ·

الدَّشِيرَة هي الجرين كما في المخصص ·

المِحْمَل كمنبر والحاملة الزنبيل الذي يحمل فيه العنب الى الجرين ·

الكنهدر كسفرجل · هو الذي ينقل عليه العنب واللبن ونحوهما ·

المكتل كمنبر : والمكتلة زنبيل يحمل فيه التمر او العنب الى الجرين وقيل هو شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً · والجمع المكاتل ·

الزَّبيل الذي يحمل فيه العنب الى الجرين والوعاء يحمل فيه جمعه زُبُل وزُبْلان قال الجوهري اذا كسرته شددت فقلت زِبِّيل او زنبيل لانه ليس في الكلام فعليل بالفتح ونقل الصاغاني عن الفراء الفتح · وجمع زنبيل زنابيل وزبل الشيء وازدبله احتمله ·

المعقاب البيت يجمل فيه الزبيب ·

الميرحة بالكسر الانبار من الزبيب وهو المحل الذي يخزن فيه ذلك ·

« عصر العنب والزبيب »

يقال غَمَّلَ العنب يَغْمُله غملاً انضد بعضه فوق بعض وفي المخصص غَمَلت العنب في الزبيل أغْمُله وذلك اذا اردت ان تعصره لجملته قبل ذلك في الزُّبُل فلا يرى الشمس حتى يشرب العنب ماء العيدان ·

عصر العنب ونحوه مماله دهن اوشراب اوعسل يعصره عصراً من باب ضرب واعتصره اعتصاراً · استخرج ماءه او ما فيه فهو معصور وعصير فعيل بمعنى مفعول · وقيل عَصَرَه

عَصْراً وعصَّره تعصيراً ولي عصره بنفسه · واعتصره اذا عصر له خاصة وقد انعصر العنب وتعصر وعُصارة الشيء بالضم وعُصاره وعصيره ماتحلب منه اذا عصرته ·

وقال في المخصص اذا اعتصر العنب فاول ما يخرج منه العُصارة وجمعها عُصارات وعُصار وكذلك اسم كل شيء عصر · وقيل العصارة ماسال عن العصر · وما بقي من الثفل ايضاً بعد العصر · وكل شيء عصر ماؤه فهو عصير واعتصر عصيراً اتخذه ·

المَعْصَرة التي يعصر فيها العنب والمعصرة موضع العصر ·

المِعْصَر كمنبر ما يعصر فيه العنب والمِعْصار الذي يجعل فيه الشيء ثم يعصر حتى يحلب ماؤه ·

العواصر ثلاثة احجار يعصر بها العنب يجعلون بعضها فوق بعض الركوة مثلثة الراء رقعة تحت العواصر · والافصح فيها الفتح وجمعها رِكاء ·

الرَهْص شدة العصر رهص الشيء كمنع عصره عصراً شديداً ·

القَرْو مسيل المعصرة ومثعبها والجمع القُرِيّ والاقراء ولا فعل له ·

« للبحث صلة »

سليم الجندي
عضو المجمع العلمي العربي

آراء وافكار

تأثير اللغة العربية

« في اللغات الاوربية »

نشر السيد محمد امين محرز مقالة في المقطم عالج فيها بعضاً من المعلومات عن تأثير اللغة العربية و بالاخص اللهجات العربية العامية القديمة في اللغات المنحدرة من اللغة اللاتينية الام التي كان لها اتصال بالعرب . ولا يخفى على كل من تعلم اللغة اللاتينية خاصية عدم وجود أداة التعريف فيها مطلقاً حتى ان اللغات الحديثة المنحدرة منها والتي لم يكن للعرب بها اتصال حافظت على هذه القاعدة وهي عدم وجود أداة التعريف فيها مثل اللغة الرومانية في ولايتي « الافلاخ والبغدان » وكذا في لغة «الرومنش» المتحدث بها في شرق سويسرا اما اللغات المتولدة من اللغة اللاتينية وكان للعرب بها اتصال فقد أخذت أداة التعريف عنهم من دون ملاحظة الاحرف شمسية كانت اوقمرية وهي اللغات البرتغالية والاسبانيولية والفرنسوية والايطالية وبما ان أداة التعريف في اللغة البرتغالية هي (O) مثل كلمة (Opan) اي الخبز و (اوبورتو) (Oporto) اي (الميناء) فانت ترى انها أخذت بالاحرف الشمسية بلا تمييز بينها واللغة الاسبانيولية اخذت بالاحرف القمرية وأداة التعريف فيها (ال) . مثال ذلك (Elpain) الخبز وكلمة (Elporto) (الميناء) واداة التعريف في اللغة الفرنسوية هي (lo) وفي الايطالية (il) .

ولما دخل العرب اسبانيا وفتحوا جنوب فرنسا وجنوب ايطاليا وجدوا الشعب يقول عن الماء (Aqua) فنطق العرب حرف (Q) (قافاً) فصارت (اقوى) فاثرت اللهجات العامية في ذلك الوقت التأثير الملموس للآن في الصعيد وبعض مدن شمال افريقيا التي ينطق اهلها (القاف) (جافا) فأخذ الاسبان بهذه القاعدة وسموا الماء بدلاً من (Aqua) بـ (Agua) ومازالت مستعملة للآن وكذلك في البرتغال . اما في فرنسا فيظهر انهم اخذوا

باللهجة العامية المستعملة الآن في التكلم في عواصم المدن المصرية ونطقوا القاف (آ فا) ولا يخفى ان الاحرف المتحركة في آخر الكلمات اللاتينية تسكن في اللغة الفرنسوية فكلمة (Aqua) صارت (Aque) اي ان (أقوا) صارت تنطق (أقو) ونطقوا القاف همزة كما هو واقع في مصر الآن فصارت (آ او) واختصرت الى (او) (Eau) وهي ما يعني به في الفرنسوية (الماء) • وتروت بعض اللهجات في بلاد الارياف مثل القنايات والزنكلون في مديرية الشرقية يعطشون الكاف و يقولون عن كلمة (الحكومة) مثلاً (الحتشومة) •

وقد اخذت اللغة الايطالية الحديثة واللاتينية ايضاً بالنطق العامي فتعطش الكاف امام الاحرف المتحركة مثال ذلك انهم يقولون عن (Cicéron) (سيسيرون) المحامي الروماني الشهير (Cicérone) (تشيتشيرون) •

ولكن الالمان حافظوا على النطق اللاتيني الاصلي ومازالوا يسمونه الآن (Kekeré) كيكرو • وقد ذكر ابن بطوطة في رحلاته انه لما ذهب الى القسطنطينية ايام البيزنطيين في جملة رسل ملك التتار ليخطبوا بنت امبراطور القسطنطينية البيزنطي لابن ملك التتار سمع الاهالين حينما كان يمر بهم في الاسواق يشيرون اليه بكلمة (سراكنو) فاخذتها الامم الاوربية الغربية وسمت بهـا العرب • وقد عطش الايطاليون (الكاف) على ماسبق بيانه فكانوا يسمون العرب (سرانشيني) (Sarracini) وصحفهـا الفرنسويون تصحيفاً يسيراً فقالوا (ساराزين) (Sarrasin) وقد كثر ذكرها في حروب شرلمان والحروب الصليبية وقد اخذها عنهم الانكليز ونطقوا بها (سارازانز) (Sarrasins) •

ولنرجع الآن لترجمة لفظ البيزنطيين (ساراكينو) ولهـا معنى قبيح لانك لا تنتظر من عدوك طبعاً ان يسميك ملاكاً فلفظة (سارا) معناها (صحراء) ولفظة (كينو) باللغة اليونانية القديمة (كينوس) (Kynos) يعني (كلب) •

وكثير مثل هذه الكلمات تجده في اللغة الاوربية الحديثة ولها اصل عربي واضرب مثالاً بكلمة تطلق على كثير من محال تجارية صحية في القطر المصري وفي اوربا باجمعها وهي لفظة (فارمسي Pharmacie) وهي مجموعة كلمتين احداهما عربية اصلاً والثانيـة يونانية و (ماكيون) باليونانيـة (Makcion) معناها (مصنع) و (Phar) لو نطقنـا

بكل حرف على حدة لكانت (بهار) اي (مصنع البهـار) وكثير مثل ذلك في اللغة الفرنسوية مثل (كاف) (Cave) (قبو) اي محل خزن الخمر و (مسكين) (Mesquin) و (الجبر) (Algebre) وقد لاحظت في الاسكندرية بنفسي ان بعض صناع البلاط القادمين من جنوب ايطاليا عندما يسألون عن المقاطعة التي كانوا يستوطنونها في ايطاليـا يقولون (آلابريا) (Alabria) عن مقاطعة (كالابريا) (calbria) اي انهم ينطقون (الكاف) بـ (الآف) كما سبق التوضيح ·

من تعاليق صاحب مختار الصحاح
« على كتاب جامع الاصول في أحاديث الرسول »

نشرتُ في المجلد (٨) الصفحة (٦٤١) من مجلة مجمعنـا العلمي بحثاً عن صاحب مختار الصحاح ونقلتُ اليه السماع المدوّن على الجزء التاسع من كتاب جامع الاصول في أحاديث الرسول وقد وجدتُ في كناشي بعض تعاليق لصاحب المختار كنت نقلتها عن هوامش الكتاب المذكور فأحببت نشرها لاطلاع العلماء ·

قال : لم أجد اللحوق بمعنى اللحاق الا في لفظ الحديث وكفى به حجة ·

اما الحديث فهو ان بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلنَ يا رسول الله أينـا أسرع بك لحوقاً قال : أطولكنّ يداً فأخذوا قصبة فذرعوا بها فكانت سودة أطولهن يداً · فعلمنا بعد انما كان طول يدها الصدقة وكانت اسرعنا لحوقاً به وكانت تحب الصدقة · أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ·

وقال في تعليق آخر :

لم أجد من البيدر فعلاً الا في هذا الحديث ببدر تمرك الى آخر الحديث ·

وقال عند ذكر حديث « دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم » ان هذا حجة على أئمة اللغة في قولهم ان دع لايستعمل منه ماضٍ ·

عبد الله مخلص

مطبوعات حديثة

المخارج في الحيل

« للامام محمد (توفي ١٨٩ هـ) »

لم يكف المستشرقين خدمتهم لآدابنا العربية بنشر كتبنا التاريخية والادبية حتى سمت بهم همتهم الى نشر كتبنا الفقهية والدينية ايضاً . وهذا الكتاب أعني كتاب (المخارج في الحيل) هو من أعرق آثار السلف في الدين ، وأقدمها في التصنيف ، فهو للامام محمد بن الحسن الشيباني احد صاحبي ابي حنيفة اللذين رويا مذهبه وشرحاه وأكملا ما كان بدأ به من تقرير القواعد وتخريج المسائل وتقرير الاحكام .

وقد عمد الى هذا الكتاب المستشرق الالماني يوسف شخت (Josepf schacht) فطبعه في ليبسك طبعاً متقناً مصححاً . وألحق به رواية أخرى لهذا الكتاب لشمس الأئمة السرخسي . وقد بلغ مجموع صفحات الكتاب (١٣٦) صفحة . ورواية السرخسي لهذا الكتاب مفتتحة بهذه العبارة : (من كتاب المبسوط لشمس الأئمة ابي بكر محمد بن احمد ابن ابي سهل السرخسي المحتوي على كتب ظاهر الرواية للامام محمد بن الحسن الشيباني كتاب الحيل الخ) . فيفهم من هذا ان كتاب (مخارج الحيل) ليس كتاباً مستقلاً ألفه الامام محمد وانما هو جزء من كتبه الفقهية المشهورة المسماة (كتب ظاهر الرواية) وهي أصل الاصول في مذهب الامام ابي حنيفة . قال العلامة ابن عابدين في منظومته رسم المفتي :

(وكتب ظاهر الرواية أتت ستاً وبالاصول ايضاً سميت)
(صنفها محمد الشيباني حرر فيها المذهب النعماني)
(الجامع الصغير والكبير والسير الكبير والصغير)
(ثم الزيادات مع المبسوط تواترت بالسند المضبوط)

وقد جمع الامام الحاكم هذه الكتب الستة في كتاب سماه (الكافي) وقد شرح (الكافي)

الامام السرخسي في كتاب سماه (المبسوط) وعليه المعول في مذهب السادة الحنفية. ولذا قال ابن عابدين في منظومته المذكورة :

(ويجمع الست كتاب الكافي للحاكم الشهيد فهو الكافي)
(أقوى شروحه الذي كالشمس مبسوط شمس الائمة السرخسي)

فكتاب (مخارج الحيل) هو احد مضامين ظاهر الرواية للامام محمد. وقد رويت عنه كتب ظاهر الرواية بعدة طرق أهمها ماجاء في مبسوط السرخسي ، فالمستشرق (شخت) طبع كتاب المخارج هذا باحدى الروايات عن الامام محمد ثم ألحقها برواية السرخسي في كتابه (المبسوط) .

ومعنى كلمة (مخارج) ان المكلف اذا وقع في ضيق من امر الحلال والحرام يرجع فيه الى الفقيه فيجد له مخرجاً من ضيقه : بان يفتيه فتوى شرعية تحلل له ما كان حرم عليه او تحرم عليه ما كان حلّ له . فهذه الفتاوى التي تنير المخرج أمام المكلف المرهق سموها (الحيل) وقد ألف الفقهاء كتباً كثيرة في هذا النوع من الفتاوى أشهرها (حيل الخصاف) و ياليتهم لم يسموها بهذا الاسم القبيح فان التحيل في الدين ضرب من التلاعب به بل هو التلعب بعينه والعياذ بالله . وانا لنربأ بفقه ديننا وبكبار أئمتنا — ولاسيما الامام محمد وشمس الائمة السرخسي — عن مثل هذا الموقف الذي هو شأن من لاخلاق لهم من المتسمين بسمات العلماء . ولذا أنكر بعضهم أن يكون (كتاب المخارج في الحيل) للامام محمد . واسمع ماقاله شارحه السرخسي في فاتحة روايته وما كه بنصه :

« اختلف النـاس في كتاب الحيل انه من تصنيف محمد رحمه الله ام لا ؟ كان ابو سليمان الجوزجاني رحمه الله ينكر ذلك . و يقول من قال ان محمداً رحمه الله صنّف كتاباً سماه الحيل فلا تصدّقه . وما في أيدي الناس فإنما جمعه ورّاقوا بغداد . وقال ان الجهـال ينسبون علماءنا (يريد بهم علماء السادة الحنفية) رحمهم الله الى ذلك على سبيل التعبير (يعني ان الجهال من أتباع المذاهب الاخرى ينسبون الى علماء المذهب الحنفي ما لم يقولوه من امر الحيل الفقهية تعبيراً لهم وزرايةً عليهم) فكيف نظن بمحمد رحمه الله انه سمى شيئاً من تصانيفه بهذا الاسم ليكون ذلك عوناً للجهال على مايتقوّلون . واماابو حفص رحمه الله فكان يقول : هو من تصنيف محمد رحمه الله وكان يروي عنه ذلك . وهو

الاصح اه » هذا ماقاله الامام السرخسي وقد ختمه بقوله (وهو الاصح) فدل على ان (كتاب مخارج الحيل) هو للامام محمد نفسه . لكن الحيل التي علّم بها الامام محمد وشارحه السرخسي وأمثالها من ثقات أئمة مذهبنا الحنفي إنما هي حيل يراد بها تأييد حق بعد ان كاد هذا الحق يفوت صاحبه و يفلت من بين يديه ولم يجد نصاً صريحاً يحفظ له حقه فالفقيه يرشده الى طريقة شرعية تساعده على حفظ حقه من الضياع . اما اذا كانت الحيلة تساعد المبطل على بطله وعلى إضاعة حق ثابت لآخر — فان الأئمة رضوان الله عليهم وفي طليعتهم —الامامان محمد والسرخسي — لا يرضون هذه الحيلة ولا يعلمون بها . ولا يرشدون اليها . بل ينكرونها ويمقتونها أشد المقت . ويفسّقون الدالّ عليها والآمر بها : فالمدين الذي يحاول الفرار من دينه الثابت في ذمته اذا علّمه احد الفقهاء حيلة توصل بها الى أكل ذلك الدين كان المدين والفقيه آثمين بل فاسقين في نظر الامام محمد وشارحه السرخسي وسائر أئمة الاسلام — والدائن الذي له دين ثابت في ذمة آخر وكانت أدلة الاثبات في يده ضعيفة فله ان يلجأ الى فقيه يرشده الى طريقة شرعية تساعد القاضي على إثبات دينه والحكم به واستنقاذه من يد المدين الظالم — فيكون هذا الفقيه وذاك الدائن غير آثمين بالطبع . ولكن مع هذا كان يحسن ان لا يطلق على هذا النوع من الفتاوى الشرعية — اسم (حيل) ولعل الامام محمداً رحمه الله لاحظ هذا فسمى كتابه (كتاب المخارج في الحيل) وقد أحسن كل الاحسان ولو سماه كتاب (المخارج في المحارج) اي في المضايق والمآزق لكان اكثر احساناً لعمري .

والحاصل ان الحيل التي تضيع على الناس حقوقهم هي المذمومة المنهي عنها شرعاً — وهي التي يجب ان لا تسمى شرعية لان الشرع براء منها — وهي التي ورد في بعض الآثار بحق المفتين بها : « لا تعلموا أولاد السفهاء العلم فيعلّموا الناس الحيل » وكفى بهذا دليلاً على قبحها وسفاهة أربابها .

هذا وانا لنشكر للمستشرقين (ولا سيما الاستاذ شخت) عنايتهم بنشر مآثر أسلافنا حتى الفقهية الدينية منها . لكننا نأمل منهم ان يتفطنوا الى (المتشابهات) من امور ديننا : كمثل اشتباه (بحث الحيل) ويفهموا جيداً ماقاله الامام السرخسي نفسه في هذا الصدد وهو قوله (ص٨٨ من كتاب مخارج الحيل) : (فالحاصل ان ما يتخلص به الرجل من الحرام او يتوصل به الى الحلال من الحيل فهو حسن . وانما يكره من ذلك ان يحتال في

حق لرجل حق يبطله . او في باطل حق يموّهه او في حق حق يدخل فيه شبهة . فما كان على هذا السبيل فهو مكروه . وما كان على السبيل الذي قلنـا اولاً فلا بأس به . لان الله تعالى قال : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعـاونوا على الاثم والعدوان) ففي النوع الاول معنى التعاون على البر والتقوى ، وفي النوع الثاني معنى التعاون على الاثم والعدوان اه .

« المغربي »

—*«×»*—

البستان

« جمعه العلامة الشيخ عبد الله البستاني »

هو كتاب في اللغة أخرجته المطبعة الاميركية ببيروت يقع في قرابة ثلاثة آلاف صفحة من القطع الكبير متقن الطبع حسن التبويب والترتيب . فهو من هذه الناحية يغني في كثير من المواد عن كثير من المعاجم القديمة . ثم هو من حيث السعة والصحة ايضاً يغني عن المعاجم الحديثة التي لم يسلم اكثرها من كثير من الخطإ .

فانت في البستان تكاد ترى ما تراه في اللسان ، بل قد تجد بعض الفاظ أغفلها اللسان نفسه — واللسان من أغزر كتب اللغة مادة — تراه في البستان مبوباً مرتباً لا حشو فيه ولا تكرار .

لذلك يكون البستان قد سدّ ثلمة ظاهرة في دواوين اللغة لا كما قيل فيه : انه نسخة عن أقرب الموارد .

ولو كان لرجل فرد في العصر الحاضر ان يستبد بوضع معجم لكان أستاذنا العلامة عبد الله البستاني حقيقاً ان يكونه . وهو الرجل الذي انقادت اليه هذه اللغة بمفرداتهـا وغرائبها ، وواردها وشاردها .

بقي ان الترتيب والدقة ، على فائدتها ، ليسا كل ما نحتاج اليه في معاجمنا ، فهناك المصطلحات الحديثـة ، وتحديد بعض الألفاظ ، وتوضيح بعض المعـاني ، واقرار وجه واحد لالفاظ تكثر فيها اللغات ، الى غير ذلك مما أعرض عنه العلامة البستاني في معجمه

لانه من أعمال المجامع العلمية ، اوالجماعات اللغوية ، لا من عمل الفرد . فالكتاب من هذه الناحية ناقص ، ولا يسدّ حاجة العرب والعربية .

وثمة نقص آخر ، هو اغفال ألفاظ قد يفتقر اليها . وهذا مخالف للغرض الذي أراده المؤلف من وضع مطول يجمع اللغة كلها ، اختصره بآخر اقتصر فيه على الضروري من الالفاظ . وهناك أغلاط ترجع انها مطبعية ، غير ان وقوعها ثم تركها من دون تصليح ولا اشارة ، ليس مما يجوز في معجم يرجع اليه .

وفي رأينا ان هذين النقصين سببهما ايضاً الانفراد في التأليف ، ولا يسلم مؤلف من مثل هذا مهما علا قدره العلمي ، وسمت منزلته في اللغة .

الألفاظ المغفلة

فما أغفله : (السَّمْود) بمعني الطويل الشديد . و (ساد) بمعنى سوِد صار أسود . و(الاسود) العظيم من الحيات وفيه سواد . لم يورد صاحب البستان في جمعه الا (أساود) وفي اللسان : (اسودات) و (اساود) و (اساويد) . قلت ولعل اسودات جمع (اسودة) مؤنث (اسود) على خلاف القياس .

(السعدود) السيءُ الخلق لم يذكرها البستان . وكذلك : (السند) بمعنى المعتمد . وما أظن قوله : السند « مااستند اليه الانسان من حائط او غيره » كافياً . والسرد بمعنى الزرد . و (السرّاد) وهو الزرّاد . و (السرادة) البُسرة تحلو قبل ان تُزهي وهي بلحة .

أورد (مساعدة) مصدر (ساعد) ولم يذكر (سِعاداً) ولم يذكر من معاني : (سَمَد) رفع رأسه تكبراً بل خص هذا المعنى بـ (سمِد) وزان طرب . وفي اللسان سَمَد سموداً رفع رأسه تكبراً، وكل رافع رأسه فهو سامد ، وقد سمِد يسمَد ويسمُد سموداً . واغفل اسمأد وبعضاً من معاني اسمدّ واسمادّ .

واغفل . من معاني (السُمُد) القليل من النوم .

ولم يذكر في (سوِد) استادهم بمعنى (سادهم) ولا ذكر (المَسود) وهو الذي ساده غيره . ولا (المسوَّد) وهو السيد او الذي سوّده غيره . وأغفل (شاده) مشادة

وشداداً غالبه . و (شد) المئزر جد واجتهد .

هذا ماعثرت عليه في مواد معدودة متتابعة ، ولعل الناظر في هذا المعجم نظراً دقيقاً مطولاً ، يرى أشياء كثيرة قد أغفلها صاحبه . وفي ذلك اخلال بالغرض المقصود من جعل هذا المعجم مطولاً جامعاً . ولا يرد على هذا انها كانت استثقلها فاطّرحها اذ هو قد ذكر في جملة ما ذكره أمثال :

(القُراشياء) ضرب من النبت . (القِرشب) المسن و- السيئ الحال ... و(قرشم) وثب وثباً متقارباً . و(اقرنشم) (اقرنشاعاً) : ابرنشق ورفع رأسه ونشط . و (المقرنشم) المنتصب المنتشر المتهيئ للشر . و (قرشم) الشيءَ جمعه كقرمشه : كل هذا على ثقله وقلة فائدته جاء في حقل واحد من صفحة واحدة فما بالك في الصفحات الاخرى ؟

الاغلاط المطبعية

قلنا : (الأغلاط المطبعية) لان الاستاذ لا يخفى عليه صوابها ولا يمكن ان يقع مثله في مثلها . من ذلك :

الشُكُر : عُرفان الاحسان (كذا) بضم الشين والكاف من (الشكر) وصوابها سكون الكاف . وبضم العين من عِرفان وصوابها بالكسر .

(رصخة) جاء في (واث) عندي (والثة) من خبر ورصخة منه ، اي يسير . وليس في البستان الا (رصخ) في الامر (رسخ) بالسين . ولم ترد فيه (الرضخة) بالضاد . وانما جاء فيه (الرضخ) خبر تسمعه ولا تستيقنه . وفي اللسان (الرضخة) الشيءُ اليسير تسمعه من الخبر من غير ان تستبينه . فالصواب اذاً (رضخة) بالضاد .

(مرهّد) الصبيَّ أحسن غذاءه . برفع الصبي وحقها النصب وهي من الاغلاط الظاهرة .

(المسرهد) السمين من (الاسمنة) وصوابها من (الاسنمة) ففي لسان العرب سنام مسرهد اي سمين .

(يُمنة . وقطاف) جاء في (سند) ... و- ذنبُ الناقة خطر فضرب قطاتها يُمنة و يسرة . والصواب (قطاتها) بالتاء لا بالفاء على مافي التاج و(يَمنة) بالفتح لا بالضم .

وقد وردت (يُمنة) بالضم ايضاً في(لفت) قال: التفت - وبوجهه يُمنة(كذا) و يسرة .

(القرن) وفي (سند) ايضاً : (ناقة مساندةالقرن : اي صلبته متلاحكة) والصواب القرى على ما في اللسان والتاج · أنشد ثعلب :

مذكرة الثنيا مساندة القرى ‌‌‌‌‌ جماليه تختب ثم تنيب

والقرى الظهر : يقال جمل اقرى طويل القرا وهو الظهر والانثى (قرواء) وقد وردت القَرى والقَرا · مقصورة وممدودة ·

(المُسنَدَة) : ضرب من الثياب ولعل الصواب مُسنَّدة كمعظمة بالتثقيل ·

هذه أغلاط منها اربعة في مادة واحدة هي : (سند)· وعسى ان لا يجد المتتبع شيئاً كثيراً من مثل ذلك · على ان هذا الغلط اذا كان يسيراً ضبطه ومعرفته على المشتغلين باللغة ، فليس امره بالهين على الطلاب والشادين ·

القصور في التعريف

(السيكران) : نبت دائم الخضرة يؤكل حبه ؟

(السكر) : بالفتح بقلة من الاحرار ؟

(السمام) : بالفتح ضرب من الطير واحدته سمامة على ان ابن منظور في لسان العرب حدد هذا التعريف بعض الشيء بقوله : ضرب من الطير نحو السماني واحدته سمامة · وفي التهذيب ضرب من الطير دون القطا في الخلقة ·

(السملاج) : عيد للنصارى ! وكم للنصارى من عيد ؟

(سم السمك) : شجرة الماهيزهرة وتعرف باليوصير اه وترجع الى (اليوصير) فيعرفه بانه : نبت يتداوى به ويعرف بـ (سكر الحوت) أجوده الذهبي الزهر · فالطالب بين (سكرالحوت) و (الماهيزهرة) و (سم الحوت) لا يعرف كيف يخرج ولا بايها يأخذ ؟

وأخرى هي التعريف الدوري الذي أشار اليه المفضال الخوري بطرس البستاني في المقدمة الممتعة التي صدَّر بها الجزء الثاني من البستان · عدد فيها شوائب المعاجم وجعل التعريف الدوري احداهن ·

(الجو) : الهواء · و (الهوآء) الجو ·

(تلافي) تدارك · (تدارك) تلافي ·

وهذا بعض ماذكره صاحب المقدمة ووهم فيه صاحب البستان وامثال ذلك كثير :
(النصي) : نبت سبط مادام رطباً فاذا ابيض فهو الطريفة .
(الطريفة) : النصي والصليان اذا ابيضا او اذا اعظما وتما .
وليست بالحجة المعذرة ان المعاجم القديمة هكذا وضعت ، وان اصحاب المعاجم الحديثة على هذا جروا . فالزمن الذي نعيش فيه يتطلب غير ما كان يتطلبه عصر اصحاب المعاجم القديمة ، والعلامة البستاني كان يرجى منه غير ما يرجى من غيره ممن وضعوا المعاجم الحديثة والا كان الامر متابعة والعمل مراجعة .
هذا وقد أغفلت بعض الحركات في كلمات كان من حقها ان تضبط في مثل هذا المعجم وأدخلت بعض كلمات في غير مواضعها .
على ان هذه الهفوات لا تنقص شيئاً كثيراً من قدر الكتاب ، ومقام صاحبه . وعسى ان يقف الافراد في وضع المعاجم اللغوية بعد اليوم عند هذا الحد اذا كان التأليف متابعة .
وقد وعدت المطبعة الاميركية ان تخرج معجماً يجمع الالفاظ الحديثة والمصطلحات العلمية . فعسى ان ترجع في عملها هذا الى لجنة من الثقات ليكون العمل اكمل والثقة أكبر .
هذا ونحن نكرر الثناء على المطبعة الاميركية ونرجو ان يستأنف المرسلون الاميركان تلك النهضة العربية التي كانوا بدأوا بها في أوائل عهدهم . ونستمطر الرحمة والرضوان لاستاذنا العلامة عبد الله البستاني على خدمته الجلى للغة العربية وأبنائها .

عضو المجمع العلمي العربي
عارف النكدي

كتاب الدواجن

« لمؤلفه الامير مصطفى الشهابي »

وهذا ايضاً من الكتب الزراعية النافعة التي عاهد مؤلفها الفاضل نفسه على التصنيف فيها . والكتاب كما يظهر من اسمه يبحث بايجاز عن طرائق تربية الحيوانات الداجنة ويقع في ٢٣٢ صفحة ويحوي ١٦ شكلاً ، ويتناول في قسمه الاول القواعد العامة لهذا الفن « كالتعريفات والخصائص الفردية والتبدلات والوراثة وطرائق التسافد والانتخاب والاصطفاء والتهجين والتخليط والتبغيل والتغذية واهم الاغذية وتعيين الشحنة ومساكن الدواجن والغاية من تربيتها وتصنيف عروقها » . وفي قسمه الثاني القواعد الخاصة بحلية أهم الحيوانات الداجنة وتربيتها ، فيذكر مثلاً عن الخيل « خلقها وألوانها وشياتها ومعرفة سنها وتحلية عروقهـا العربية والافريقية والاوربية ، وتوليد الخيل ورياضتها وعلفهـا وتعهدها وعيوبها وأمراضها » ، وتتكرر هذه الأبحاث عن الحمير والبغال والبقر والجواميس والضأن والمعز والابل .

ومما يلفت النظر ان المؤلف قد اصطلح على تعريب لفظة (Genre) الافرنسية بجنس و (espèce) بنوع و (Variété) بصنف او ضرب و (Embranchement) بشعبة و (classe) بصف و (ordre) برتبـة و (race) بعرق (اورس او سلالة) و (Séléction) بانتخاب و (consanguinité) باصطفاء و(croisement) بتهجين و (métis) بهجين او مقرف و (métissage) بتخليط و (Hybridation) بتبغيل و (Hybride) ببغل (او نغل او خلاسي) و (Ration journalière) بشحنة الى آخر ماهنالك من المصطلحات العلمية التي نتمنى لو نتوحد في انحاء البلاد العربية فنتقذ بذلك المؤلفات العلمية العربية الحديثة من بلبلة المصطلحات واختلافها بين مصر والشـام والعراق والمغرب . وذكر المؤلف عدداً كبيراً من الاسماء الفصحى لاعضاء الخيل وألوانها وشياتها وما يقابلها بالفرنسية مما كان درجه في المجلدين الخامس والعاشر من هذه المجلة . وأظهر ان اسم العوسي الذي يعرف به احد صنوف الضأن في بلاد الشام مذكور في معاجمنا القديمة وان ضأن مرينوس الشهير في اوربا واميركا بجودة صوفه هو من اصـل افريقي وان اسمه

مشتق من قبيلة بني مرين · هذا والكتاب يعد في الجملة من خير ماوضع في هذا الفن لخريجي المدارس الزراعية وللمشتغلين بتربية الدواجن في البلاد العربية · فنهنئ مؤلفه الفاضل ببروز هذه الحلقة الخامسة من سلسلته الزراعية ونرجو له التوفيق لا كمالها ·

المهندس الزراعي
وصفي زكريا

المختارات

« جمعها الأب رفائيل نخلة اليسوعي وطبعها بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت »
« فجاء الجزء الاول منها في ٢٢٤ صفحة من القطع الصغير وسيليه »
« الجزء الثاني »

نظر المصنف الفاضل في جمع هذه المختارات المدرسية الى عوامل شتى ترغب التلامذة في دراسة آداب اللغة العربية منها ان تكون القطع المختارة لادباء القرن الحاضر دون غيرهم وان يكون بعضها في موضوعات وطنية والباقي في موضوعات متنوعة وتكون لغتها بسيطة متينة الحوك ، ويكون في الكتاب صور المؤلفين وموجز في تراجمهم · ولا شك ان نظرة المؤلف في عوامل التشويق هذه هي نظرة صائبة · لكن الاقتصار على الادباء المعاصرين لا يجوز الا في المدارس الابتدائية او في الصفوف الاولى من مدارس التجهيز اما في الصفوف العليا من تلك المدارس (كالتاسع والعاشر والحادي عشر) فيجب ان يدرس التلامذة قطعاً لفحول الأدباء الأقدمين اذ بغيرها لا يمكن اكتساب ملكة اللغة والوقوف حتى على البسيط من أسرارها ·

وجاء في الجزء الاول من المختارات قطع لثلاثين أديباً من المعاصرين منهم الفحول ومنهم الذين يعدون من الدرجة الرابعة · ولذلك نظن ان الأب المحترم لم ينظر في انتقائهم الى عامل ما من عوامل الانتقاء المختلفة · وعلى كل أرى ان كتابه هو من كتب القراءة المفيدة ولا سيما للأحداث · « الشهابي »

حقائق ودقائق

« وهي مقالات مختارة من عشرة مجلدات من مجلة العرفان »

صدر الجزء الاول من هذه المختارات حاوياً لاثنتي عشرة مقالة في ٣٢٠ صفحة . وموضوعات المقالات مختلفة وكلها مفيدة ومطبوعة طبعاً جيداً . وفي الكتاب صور لبعض رجال العرب المشهورين . فنشكر للأديب صاحب العرفان هديته ونتمنى صدور الاجزاء التالية من مختاراته . « الشهابي »

التعاون

« كتاب اجتماعي الفه الاستاذ احمد لاشين يقع في ٤٥٠ صفحة »
« بقطع الربع »

هو سفر تتجلى في كل سطر منه روح الغيرة الحميدة الكامنة في صدر المؤلف وغزارة معارفه في معالجة الادواء الاجتماعية . وهو فوق ذلك مكتوب بلغة فصيحة لاتكلف فيها يفهمها الفصحاء وغير الفصحاء ومزين بعدد من رسوم كبار الاساتذة الاجتماعيين الذين كان لهم القدح المعلى في نشر أساليب التعاون في اوربة ومصر وتأسيس الجمعيات التعاونية في مختلف البلدان .

ما لا يستطيعه الفرد تستطيعه الجماعة مشتركةً متعاونةً ، فالتعاون اذاً في الصناعة والزراعة والاقراض والبناء وخصوصاً في بيع الحاجيات نوع من الاشتراك بين جماعات يحمي بهذه الطريقة بعضها بعضاً من البطالة ومن الفقر بوضعها سداً يجابه استبداد المتمولين الذين يحتجون المنتوجات او يتجرون بها فيسلبون باثمانها الباهظة الشارين سلباً بلا شفقة غير ناظرين الا غاية واحدة وهي الاثراء العاجل . وقد تبين خصوصاً بعد الحرب العالمية التي قلعت من الناس روح الاستقامة والانسانية ان شركات التعاون خير سلاح لمقاومة جشع الرأسماليين ، وقد رفعت حالة الطبقة المتوسطة وخصوصاً الطبقة الفقيرة وحالت دون سقوطها في حفرة البؤس المحفورة لها بقصد استعبادها ، فأذاقتها شيئاً من الرفه والرغد

لم تكن لتستطيعه بجهودها المنفردة ، وحمتها من الامراض القتالة التي تتفشى فيها في المساكن المظلمة الرطبة القذرة حيث الاجور رخيصة لا يسمح للفقير بوسعه ان يؤوي عائلته الى أحسن منها ، ووزعتها عن إتيان المحرمات وارتكاب الجرائم التي يجر اليها الاعدام والجوع .

بون شاسع بين هذا النوع من الاشتراك وبين الاشتراكية المعهودة اليوم ونموذجها الاشتراكية البولشفية ، وشتان بين أضرار هذه في الحياة الاجتماعية ومنافع تلك . فلا نخلطن اذاً بين التعاون الاشتراكي والاشتراكية الصرفة ولنميزن الغث عن السمين عندما نقرأ الكتب التي تبحث في مبادئ الاشتراك .

يتمنى كل عاقل محب لوطنه ان تنتشر في بلدنا مبادئ التعاون التي شرحها الاستاذ لاشين شرحاً وافياً في كتابه ، وهي خير وأبقى من الجمعيات الخيرية الموجودة عندنا . فهذه تساعد الفقير المعدم مساعدة محدودة لا كبير تأثير فيها وكثيراً ما انفقت دانق الاحسان في غير محله ، وتلك تسنده كي لا يهوي وتطعمه حتى لا يجوع ، وتحفظ قواه من الوهن وذريته من الانقراض . وحري بكبار مفكرينا ان يشتغلوا بمثل هذه المنافع لعلهم يرفعون مستوى أمتهم .

عبد الله رعد
عضو المجمع العلمي

حكايات الاطفال

« نشرته المطبعة العصرية بمصر »

لم يؤلف في تربية الاطفال كتاب توفرت فيه جميع الشروط المرغبة للصغار في القراءة والمطالعة مثل هذا الكتاب الذي ألفه الاستاذ كامل الكيلاني . ويظهر انها سلسلة كتب صدر جزؤها الاول مزيناً بالصور المختلفة الألوان والاشكال مرسومة على ورق متين ويتخللها حكايات غاية في السهولة مكتوبة بخطوط ذات حروف ثخين مختلفة الحبر من أزرق وأحمر وغيرهما . فنلفت نظر المعلمين والمربين الى هذا الكتاب . « المغربي »

مبادىء الكشفية

اسم كتاب ألفه بالانكليزية (روبرت بونغ) الانكليزي ونقله الى لغتنا العربية السيد بهاء الدين الطباع . وقد تصرف في تعريبه ذاهباً مذهب الكشاف المسلم من حيث اللباس والعلامات والشعار ونحو ذلك . وهذا الفن (فن الكشاف) حديث النشأة في بلادنا من الوجهتين العلمية والعملية . لكنه آخذ في التقدم رويداً رويداً وهو اذا قارنه حسن التربية الأخلاقية والجد في تحصيل العلم كان منه فائدة عظمى لناشئة البلاد . لانها تبث في نفوسهم روح الرجولة والنجدة والنشاط والايثار وغير ذلك من الأخلاق النبيلة . فنشكر للفاضل عنايته بترجمة هذا الكتاب . له



نوابغ السريان

رسالة تضمنت محاضرة نفيسة في تراجم نوابغ السريان الذين نبغوا في لغتنا العربية كان ألقاها في حفلة مدرسة حمص السريانية سنة ١٩٣٠ الحبر العالم السيد (سويريوس أفرام) مطران سوريا ولبنان على السريان . وقد جاء في المحاضرة ترجمة نحو ٣٥ فاضلاً من علماء الطائفة السريانية ومعظمهم أطباء وفلاسفة ومؤرخون ومنهم المترجمون الذين نقلوا العلوم القديمة الى لغتنا العربية في عهد المأمون وغيره . فلا غرو اذا كان في مطالعة هذه المحاضرة فائدة لمحبي التاريخ والادب العربي . له



نظرة في كتاب

« الفلاحة الأندلسية »

—«»—

كتاب الفلاحة الاندلسية اهم ما اتصل بنا من الكتب الزراعية القديمة بعد كتاب الفلاحة النبطية . وهو تأليف الشيخ ابي زكريا يحيى بن محمد بن احمد المعروف بابن العوام الأشبيلي الأندلسي ممن عاشوا في القرن السادس للهجرة . وقد طبع بانكري هذا الكتاب في مجريط سنة ١٨٠٢ مع ترجمته الى الاسبانية فجاء في جزءين صفحاتهما من القطع الكبير .

وترجمه الاستاذ كليمان موله الى الفرنسية وطبعت تلك الترجمة في باريز سنة ١٨٦٥ وذكره دوزي في معجمه ونقل عنه كثيراً من الالفاظ ولا سيما التي لا توجد في معاجم اللغة الاصلية . وذكره ادورد فنديك في كتاب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » . والاستاذ صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة . ولم يفت ذكره احداً ممن الفوا في الزراعة وكانوا على صلة بما تركه الاجداد لنا من المصنفات العلمية لكنني لم اجد ذكراً لابن العوام في كتاب الصلة لابن بشكوال او كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار او بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس لاحمد بن يحيى الضبي وكلها مطبوعة في مجريط . وفات ذكره الاستاذ خير الدين الزركلي صاحب قاموس الاعلام .

ولكتاب ابن العوام شأن كبير لدى علماء الزراعة لأنه يعد اكبر معلمة زراعية في القرون الوسطى . وقد نقل المؤلف عن ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية وعن عدد من المؤلفين المسلمين الذين ضاعت كتبهم الزراعية ولم يتصل بنا شيء منها مثل كتاب ابي عمر بن حجاج المسمى بالمقنع وكتاب الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصال الاندلسي وكتاب الشيخ الحكيم ابي الخير الاشبيلي وكتاب الحاج الغرناطي

ما يسميه الفرنسيون (Pépinière) اي الارض التي تربى فيهـا الغراس ريثما تنقل الى مستقرها • وتسميها العامة (دندانة ومشتلة)• ولفظ المنابت اصح واجمل من لفظ الترمدانات التي لا تستعمل اليوم والتي تظهر عليها العجمة •

واطلق لفظ التغطيس والتكبيس (ص ١٨٢) على ما يسميه الا كارون « التدريك والتدريخ » اي حني غصن شجرة ودفنه في التراب دون فصله عنها فتبرز في الجزء المطمور جذور حتى اذا قطع الغصن وفصل عن أمه يصبح نباتاً مستقلاً محتوياً على جميع صفات الشجرة الاصلية • وهذا العمل يسمى بالفرنسية Marcottage وهو بالعربية الكبس وهو ايضاً الترقيد مع التوسع • والغصن المحني يسمى الكبيس و بالفرنسية Marcotte •

واذا لم يحن الغصن ولم يدفن في تراب الارض بل وضع حوله اصيص (او لنكة) مملوء تراباً كما يصنع فلاحة بلادنا بالكروم وبأشجار الفصيلة البرتقالية مثلاً فان هذا العمل يسميه ابن العوام الاستسلاف (ص ١٨٧) • وقد وصفه بدقة وسمى الاصيص ظرفاً كأن يكون قصرية او قدراً • ولم اجد لفظة الاستسلاف في الامهات بهذا المعنى او بمعنى يقرب منه • وذكر دوزي في معجمه عن موله الفرنسي الذي ترجم كتاب ابن العوام الى الفرنسية ان الاستسلاف هو الكبيس الموضوع في قصرية وذلك خطأ لان ابن العوام اطلق الاستسلاف على الفعل اي على طريقة العكس هذه لا على الكبيس •

وسمى الاصيص اي ما تسميه العامة (شقفة زريعة) قدراً واجانة (ص ١٩٩) وقصرية (ص ٣١٨) ومن الغريب انه سماه ايضاً (شقفة فخـار) وهي اللفظة الدارجة على لساننا قال في ص ١٩ من ج ٢ « ويجعل ذلك في شقفة فخار » وهي عامية •

واذا قطعت الارض قطعاً تفصل اعضادها بعضها عن بعض لكي يسهل سقيها فكل قطعة منها تسميها العـامة « مسكبة » وقد سماها ابن العوام « حوضاً » قال في ص ٣٩١ « • • • ويقطع احواضاً كل حوض ١٢ ذراعاً • • • » •

ومما يلفت النظر ان بعض الذين نقل ابن العوام عنهم كأبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصال الاندلسي كانوا يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية وهي يناير وفبراير الخ وهؤلاء نقلوها عن الكتب الرومية • وبعضهم كانوا يوردون اسماء الاشهر السريانية وهي كانون الثاني وشباط الخ ومنهم ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية • فيتضح اذن ان

استعمال هذه او تلك من اسماء الاشهر كان امراً مألوفاً . والشاميون لا يستعملون اليوم في كتبهم وجرائدهم ومجلاتهم الا الاسماء السريانية اما المصريون فيقتصرون على ذكر الاسماء الفرنجية . ولما كان من الضروري توحيد الثقافة في القطرين وكانت الالفاظ الفرنجية مألوفة لدى المغاربة من العرب والمتعلمين من ابناء الشام والعراق ارى من المفيد ان يستعمل الشاميون والعراقيون اسماء الاشهر الفرنجية في مطبوعاتهم بدلاً من الاسماء السريانية او ان يضعوا هذه بين هلالين بجانب تلك .

وعندما تكون الزروع والغراس كثيفة متآصرة تقلع الضعيفة منها لتجود البقية . فهذا العمل يسمى بالفرنسية Démariage وقد وجدت المصريين يطلقون عليه فعل أخفَّ فيقولون أخف الزرعَ و يُخف الزرع بمعنى يجعل خفيفاً اي يقلل عدد نبتاته في الارض المزروعة . اما ابن العوام فأنه استعمل لهذا الغرض التفريج ما بين الغراس بمعنى الكشف والتوسيع وهذه اللفظة اصلح من التي استعملها المصريون وكنا استعملناها نحن نقلاً عنهم .

ومن التعبيرات الغريبة التي لم نسمع بها اضافة الفلاحة للحيوان قال في الصفحة الاولى « . . . وما يتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان . . » وقد كرر هذه الاضافة في الصفحة السابعة . و يظهر انه يعني بقوله « فلاحة الحيوان » الفن الذي نسميه اليوم « فن تربية الدواجن » و بالفرنسية Zootechnie

وثمت الفاظ استعملها ابن العوام ما برحت شائعة الى يومنا هذا على السنة الفلاحين ولكن يندر ان تراها في كتاب حديث مطبوع وهي كثيرة مثالها :

ص ١ (وفلاحة الارض تنقسم قسمين بعلاً وسقياً) .

ص ٢١ (تدبير التفاح حتى يثمر في غير إبانه وتدبير غرس العنب حتى يكون حبه دون نوى) . ونحن نستعمل اليوم في الكتابة افعال المعالجة والتهيئة والتحضير وغيرها بدلاً من التدبير مع ان الفعل الاخير كثير الاستعمال في المكالمة وهو فصيح بمعنى الاعتناء والتنظيم .

ص ٣٨ (ولذلك كان وجه الارض اطيب من سائر اجزائها) ونحن نكتب اليوم اجود واصلح ونستعمل لفظة اطيب بلساننا .

أفسل وفسول[١] واقربها للفهم «قضبان الغرس» . وهي بالفرنسية Boutures .

واستعمل لفظة « الخلوف » للفسائل التي تنمو حول جذع الشجرة (ص ٢٦٨ و٢٢٩) وهي بالفرنسية Rejetons ويسميها اكارو الشام «سرار يش وأخلاف » وسميت واحدتها الشكير والعقان والركزة والبتيلة[٢] الخ وسماها العلامة امين المعلوف الحبلة والسرع والشكير والنامية[٣] . واخطأ دوزي في معجمه حيث قال ان ابن العوام استعملها القضبان الغرس فحسب اي Boutures .

واورد النقلة والنقل ج أنقال بمعنى الغريسة والشربة (نصبة في الشام) و بالفرنسية Plant وهذه اللفظة لا توجد في الامهات بهذا المعنى ولا يستعملها فلاحو الشام في هذه الايام .

ويحصل على ارومة الزيتون مثلاً حذاء سطح الارض او تحته نتوءات بارزة عليها عيون تنفتح عن فسائل . فاجزاء الارومة المذكورة تصلح للغرس وتسمى في بلادنا « الجذار » وقد سماها ابن العوام العُجَر واحدتها عُجْرَة (ص ٢٢٩) وسماها دوزي في معجمه نقلاً عن موله Loupe ou protubérance d'un olivier مع ان اللفظة الفرنسية المستعملة في الكتب العلمية هي Eclat de souche ويسمونها في بعض انحاء فرنسة Souquet و Souchet . والعجرة بمعنى النتوء والعقدة فصيحة ويفيد استعمالها للمعنى الذي نحن في صدده .

وذكر دوزي ان ابن العوام استعمل لفظة النوامي لما يسمى بالفرنسية Drageon مع انه استعملها لتلك اللفظة وللفظة Rejeton على السواء وكذا لفظة مَلْخ ج مُلوخ .

هذا جزء مما اقتبسته من الفاظ كتاب الفلاحة الاندلسية فلعل في ذلك فائدة لمن يؤلفون في العلوم الزراعية والنباتية .

مصطفى الشهابي
عضو المجمع العلمي العربي

---

(١) انظر ج ٥ ص ٥٥٨ . (٢) انظر ج ٥ ص ٥٥٩ .
(٣) انظر ج ٧ ص ٢٩٣ .

المحاضرتان الخامسة والسادسة

حياة الجاحظ(1)

—«»—

تفوتنا نواحٍ كثيرة من نواحي الجاحظ التي تشرع لنا باباً الى الوقوف على تفاريق حياته ، على اننا نستطيع ان نحيط بنبذ غير يسير من هذه الحياة وان لم يكن لنا بهذه الاحاطة مقنع ، فقد نستطيع مثلاً ان نعرف طائفة من امور ميلاد الجاحظ ، وأهله ، وهيأته ، وابتداء تثقيفه ، وحالات عقله في صباه ، وحرفته في أول امره ، وثروته ، وأعماله ، ولهوه ، واعتنائه بداره ، وأكابر الرجال الذين لازموه في حياته ، وتعذيبه بسبب صحبته لاحد هؤلاء الاكابر ، ومكاتبتهم له ، وأسفاره الى انطاكية والى دمشق والى مصر ، وآثار هذه الأسفار وطبيعة هذه الآثار ، وعلته في آخر حياته ، وتأثير هذه العلة في بعض كتاباته ، وتعقب الناس له في التماس بعض المطاعن ومداراته اياهم ، وضجره من لؤم اخلاقهم ، ووفاته .

ثم قد نستطيع ان نعرف هذا كله ، لكن هذه المعرفة لاتنقع غليلاً قياساً الى مايعرفه أدباء الافرنجة من امور كتابهم وشعرائهم وأشباه هذه الطبقات ، على ان أمرنا لا يشبه امرهم ، فان آثار عقولنا مبعثرة وقد ضاع كثير من هذه الآثار وما حفظ منها قد يصعب وصول الايدي اليه ، ولم يكتب لنا ان نكون أمة مجموعة الشمل من قديم الدهر يسلم كل عصر من العصور نتائج عبقريته الى العصر الذي يليه حتى تطرد هذه العبقرية فيزيد

(1) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣١ .

وقل : بالعلم كان ابي جواداً يقال : ومن ابوك ؟ فقل : يموت

من هذا كله نستطيع ان نستنبط أن من أقارب الجاحظ من اشتهر بمحبة العلم وبالملح والنوادر فكان بينهم وبين الجاحظ مشابه في هذا الباب فان الجاحظ طلاب للعلم مفتون بالنوادر —

هيأته

كان الجاحظ مشوه الخلق وانما قيل له الجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء وكان يقال له ايضاً الحدَقي · ومن جملة اخباره انه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني ·

تحصيله

أين طلب الجاحظ العلم في صغره

يظهر لنا ان الجاحظ كان في ابتداء امره يحمل اللوح بيده و يغدو على كتابه على نحو ما كانت عليه الحال في هذه الديار من عشرين سنة وعلى نحو حالنا في يومنا هذا فان الكتاتيب لم يبطل امرها في بعض القرى واحياء المدن · واليك القصة التي رواها لنا وهي من آثار الكتّاب قال(١) :

« وأنا حفظك الله رأيت كلباً مرة في الحي ونحن في الكتاب فعرض له صبي يسمى موديا من اولاد القصابين وهو قائم يمحو لوحه ، فعضّ وجهه ، فقدم ثنيّته دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ماظننت انه لا يعيش معه وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتّاب وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينبح الى ان برئ ولا هرّ ولا دعا بماء حتى اذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جرواً ولا علقاً ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير » ·

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص ٥) ·

« وليس شيءٌ ألذ ولا أسرّ من عز الامر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن عقد المنن في اعناق الرجال والسرور بالرئاسة وبثمرة السيادة لان هـذه الامور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس . »

وكيف كان الامر فاننا نحمد الله الذي لم يأته بالفرج ، فلو أتاه لحرمت العربية شيئاً غير يسير ، بيد انه ان فاتته الرياسة عن سبيل السلطان فقد اتته هذه الرياسة منقادة اليه عن سبيل الادب ولا شك في ان الادب اخلد اثراً من كل سيادة وسلطان !

فالذي نراه ان الجاحظ عاش في نعمة وربما اعطى نفسه حقها من اللهو فقد كان المكي يعشق جارية يقال لها سندوة ثم تزوجها نهارية وقد دعاه الجاحظ الى منزلها غير مرة .[١]

اعتناؤه بداره

عاش الجاحظ في نعمة وقد بقيت منه آثار فيها شيءٌ يدل على التحقيق العلمي لكن هذا الشيءُ لا يخلو من الدلالة على اعتناء الجاحظ بداره ، فمرة كان يصرف هذه العناية الى غرس الاشجار ، فمن قوله : [٢]

« ولقد اردت ان اغرس في داري أراكة فقالوا لي : ان الاراك انما تنبت من حب الاراك يغرس في جوف طين في قواصر و يسقى الماء اياماً فاذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين وضعت القوصرة كما هي في جوف الارض وتكنّ الى ان تصير في جوف الارض فان الذرّ تطالبه مطالبة شديدة وان لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها فعمدت الى مشارات من صُفْر من هذه المسارح وهي في غاية الملاسة واللين فكنت اضع القوصرة على الترس الذي فيه الاملس فاجد فيه الذرّ الكثير فكنت انقل المشارة من مكان الى مكان فما أفلح ذلك الحب . — »

ومرّة كان يصرفها الى تعليق الابواب الثمينة ، فمن هذا قوله : [٣]

« ومثل ذلك قول نجار كان عندي دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له : انـ

(١) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٣٨

(٢) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٢٥

(٣) — كتاب الحيوان — الجزء الثالث — ص ٨٥

إحكام تعليق البـاب شديد ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد وقد يذكر بالحذق في نجارة السيوف والقباب وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الاحكام والقباب عند العامة اصعب ولهذا امثال فمن ذلك ان الغلام والجارية يشويان الجدي والحمل وهما يحكمان الشيء وهما لا يحكمان شي جنب ومن لا علم له يظن ان شي البعض اهون من شي الجميع فقـال لي : قد احسنت حين اعلمتني انك تبصر العمل فان معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق فما زه فاحكم تعليقه ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب اذا اردت اصفاقه فقلت له أكره ان اجاسك الى ان يذهب الغلام الى السوق و يرجع ولكن اثقب لي موضعها فلما ثقبه واخذ حقه ولاَّ لي ظهره للانصراف والتفت الي فقال : قد جودت الثقب ولكن انظر اي نجار يدق فيه الرزة فانه انْ اخطأ بضربة واحدة شق البـاب فعلمت انه يفهم صناعته فهماً تاماً . — »

من هذا كله تستنتجون ان الجاحظ ملمّ بكل امر سواء أكان هذا الامر صغيراً أم كان كبيراً فهو لا يشبه بعض العلماء الذين تقوى فيهم ملكة وتضعف ملكات حتى يكاد يصل بهم الضعف الى البلاهة ، وانما هو كامل من الكملة .

ملازمته لاكابر الرجال — من هم الرجال الذين لازمهم في حياته .

قال ياقوت في معجم الادباء : [1]

« وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن احمد بن ابي دواد للعداوة بين احمد ومحمد ، ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل له لمَ هربت فقال : خفت أن اكون ثانيَ اثنين اذ هما في التنور ، يريد ما صنع بمحمد وادخاله تنورَ حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذّب الناس فيه ، فعذب هو حتى مات يعني محمد ابن الزيات . — »

من هو محمد بن عبد الملك ومن هو احمد بن ابي دواد وما هي العداوة بينهما . [2]

(١) معجم الادباء — الجزء السادس — ص ٥٧

(٢) اعتمدت في الكلام عليها على تاريخ ابن خلكان . —

اما محمد بن عبد الملك فهو أبو جعفر المعروف بابن الزيات وزير المعتصم وهذه قصة وزارته :

كان احمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال له المعتصم : ما الكلأ فقال لا اعلم ، وكان قليل المعرفة بالادب ، فقال المعتصم : خليفة امي ووزير عامي !

وكان المعتصم ضعيف الكتابة ثم قال : ابصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد ابن الزيات فادخلوه اليه فقال له : ما الكلأ ، فقال : الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطباً فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم انواع النبات فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه و بسط يده .

ولما مات المعتصم وقام بالامر ولده الواثق هرون أقر الواثق ابن الزيات على ما كان عليه في ايام المعتصم بعد ان كان ساخطاً عليه في ايام ابيه ، وحلف يميناً مغلظة انه ينكبه اذا صار الامر اليه ، فلما ولي أمر الكتّاب ان يكتبوا ما يتعلق بامر البيعة فكتبوا فلم يرض بما كتبوه فكتب ابن الزيات نسخة رضيها وأمر بتحرير المكاتبات عليها . فكفر عن يمينه وقال : عن المال ، والفدية عن اليمين عوض وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

فلما مات الواثق وتولى المتوكل كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيءٌ وسببه انه لما مات الواثق بالله اخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق واشار ابن ابي دواد الآتي ذكره بتولية المتوكل وقام في ذلك وقعد حتى عمّمه بيده والبسه البردة وقبّله بين عينيه وكان المتوكل في ايام الواثق يدخل على الوزير ابن الزيات فيتجهمه الوزير ويغلظ له في الكلام متقرباً بذلك الى قلب الواثق فأضمرها المتوكل في نفسه فلما ولي الخلافة خشي ان نكبه عاجلاً ان يستّر امواله فيفوته فاستوزره ليطمئن وجعل ابن ابي دواد يغريه و يجد لذلك عنده موقعاً حتى قبض المتوكل على ابن الزيات فلم يجد من جميع املاكه وضياعه وذخائره الا ما كانت قيمته مائة الف دينار فندم على عمله وقال لابن أبي دواد : اطمعتني في باطل وحملتني على شخص لم اجد عنه عوضاً .

كان ابن الزيات قد اتخذ في ايام وزارته تنوراً من حديد واطراف مساميره المحدودة الى الداخل وهي قائمة مثل رؤس المسالّ وكان يعذب فيه المصادرين وارباب الدواوين

المطلوبين بالمال ، فكيفما انقلب واحد منهم او تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك اشد الالم ولم يسبقه احد الى هذه المعاقبة وكان اذا قال له احد منهم ايها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة .

فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله في التنور وقيّده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال ابن الزيات : يا امير المؤمنين ارحمني ، فقال له المتوكل : الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس فلما كان في الحبس طلب دواة وبطاقة فأحضرتا اليه فكتب :

هي السبيل فمن يوم الى يوم ... كأنه ما تريك العين في النوم
لا تجزعنّ رويداً انها دول ... دنيا تنقل من قوم الى قوم

وسيرها الى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها الا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر باخراجه فجاؤا به اليه فوجدوه ميتاً وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وكانت مدة اقامته بالتنور اربعين يوماً فهذا هو التنور الذي خاف الجاحظ ان يكون فيه ثاني اثنين .

ولكن هل نجا الجاحظ من عذاب ابن ابي دواد بعد موت صاحبه ابن الزيات ، اظن انه لم ينج من شيء من ذلك وقبل ان ابين ماصنع به ابن ابي دواد لاحرج علينا ان أوجزنا في كلمة على ابن ابي دواد .

قال ابراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الانصار ليلة العقبة فاختلفوا في ذلك ودخل احمد بن ابي دواد فعدّهم واحداً واحداً باسمائهم وكناهم وانسابهم فقال المأمون : اذا استجلس الناس فاضلاً فمثل احمد فقال احمد : بل اذا جالس العالم خليفة فمثل امير المؤمنين الذي يفهم عنه ويكون أعلم بما يقول منه .

هذا هو احمد بن ابي دواد !

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن ابي دواد قاضي القضاة وعزل يحيى بن اكثم وقد خصّ به أحمد بن ابي دواد حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً الا برأيه .

ولما مات المعتصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن ابي دواد عنده ولما مات الواثق بالله وتولى اخوه المتوكل فلج ابن ابي داود في اول خلافته فولي موضعه ولده ابو الوليد محمد .

وكثر ذامّوه وقل شاكروه واستمرّ على مظالم العسكر والقضاء الى سنة سبع وثلاثين ومائتين فسخط المتوكل على القاضي احمد وعلى ولده محمد وصرف ولده عن المظالم ثم صرفه عن القضاء واخذ من الولد مائة الف وعشرين الف دينار وجوهراً بأربعين الف دينار وسيّره الى بغداد من سرّ من رأى وفوّض القضاء الى القاضي يحيى بن اكثم الصيفي .

كان بين قاضي القضاة احمد بن ابي دواد وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء وقد هجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد ابياتها سبعون بيتاً فبلغ خبرها القاضي احمد فقال :

احسن من سبعين بيتاً هجا جمعك معناهن في بيت
ما احوج الملك الى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك ويقال ان بعض اجداد القاضي احمد كان يبيع القار فقال :

ياذا الذي يطمع في هجونا عرّضت بي نفسك للموت
الزيت لا يزري باحسابنا أحسابنـا معروفة البيت
قيّرتم الملك فلم ننقه حتى غسلنا القار بالزيت

تعذيبه

قلت : لم ينج الجاحظ من شر ابن ابي دواد لأنه كان منحرفاً عنه ، ملازماً لعدوه ابن الزيات . فماذا صنع به ابن ابي دواد ؟

قال ابو عبدالله المرزباني [1] :

« حدث اسحاق الموصلي وابو العيناء قال : كنت عند احمد بن ابي دواد بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً وكان من اصحاب ابن الزيات وفي ناحيته ، فلما نظر اليه قال : والله ماعلمتك الا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة ، معدداً للمساوي ومافتئي باستصلاحي لك ولكن الايام لاتصلح منك [2] لفساد طويتك ورداءة دخلتك وسوء اختيارك وتغالب

(١) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس ص ٥٨

(٢) في الاصـل : لا تصلح منك الاّ لفساد طويتك . . . فأظن ان « لا » زائدة فلا محل لها .

طبعك فقال له الجاحظ : خفض عليك ايدك الله فوالله لئن يكون لك الامر عليّ خير من ان يكون لي عليك ولئن اسيء وتحسن أحسن عندك من ان احسن فتسيء ، وان تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن ابي دواد : قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك امام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ، ان اخذه اليم شديد . قال تلاوتها تأويلها اعز الله القاضي ، فقال : جيئوا بحداد ، فقال : اعز الله القاضي ، ليفك عني او ليزيدني فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالحداد فغمزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ و يطيل امره قليلاً فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة فضحك ابن ابي دواد واهل المجلس منه ، وقال ابن ابي دواد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه ثم قال يا غلام ، صر به الى الحمام وامط عنه الاذى واحمل اليه تخت ثياب وطويلة وخفاً فلبس ذلك ثم اتاه فتصدّر في مجلسه ثم اقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا ابا عثمان » .

مكاتباتهم له

هذه طائفة من اكابر الرجال الذين كان يلازمهم ويتردد اليهم وقد بلغ من استئناس محمد بن عبد الملك الزيات بالجاحظ . ان ابا عثمان كان يأكل معه في يوم من الايام فجاؤا بفالوذجة فتولع محمد بالجاحظ وأمر ان يجعل من جهته مارق من الجام فأسرع الجاحظ في الاكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً[1] .

ولقد رغب في مجالسه الامراء والخلفاء وصحب هؤلاء الامراء في أسفارهم وقد كانوا يكاتبونه ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي استوزره المتوكل وأمره على الشام وامره ان يستنيب عنه وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة .

وقد كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر

(١) تاريخ ابن عساكر .

داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة ، قال ابوهفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسماعيل القاضي [1] .

ومن رسائل الفتح بن خاقان الى الجاحظ كتاب كتبه اليه يقول في فصل منه [2] : « ان اميرالمؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسك لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به ، ومتوفر عليه ، وقد كان الى الي من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به الي وكن من جدا به على نفسه ونال مشاهرتك فقد استطلقته لما مضى واستسلفت لك سنة كاملة مستقبلة وهذا مما لم تحتكم به نفسك وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ولولا اني أزيد في تخيلتك لعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام » .

ولقد مدح الجاحظ جماعة ، منهم ابراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري الكاتب وكان والياً على الاهواز ، وابوالفرج نجاح بن سلمة وستنظر في شعره وكان يكاتب جماعة منهم ابراهيم بن المدبر وكان ابراهيم هذا ينبسط مع ابي عثمان وكانا يجتمعان في كل ثلاثة ايام .

أسفاره

فلنصحب الجاحظ في أسفاره وننقب عن الآثار التي خلفها بعد هذه الأسفار ، فقد كان ابوعثمان جوّاب آفاق ، كأنه دحا الارض من خبرته بها ، فقد دخل البلدان في صحاري جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك وجارى الطرق ودخل البراري وأمعن فيها وضرب الى المواضع الوحشية [3] .

ومن الذي يخامره شك في نعمة السفر ، ونتائجه في الأدب ، فقد يكون الضرب في مناكب الارض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور

(١) فوات الوفيات (الجزء الثاني) . (٢) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس) ص ٧٢ . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ١٥)

ومتباين الالوان مما يكون مادة لرجال العبقرية يستمدون منها في الشعر والتصوير ، فقد اقتبس (شاتو بريان) من سفره الى اميركة صوراً شتى وألواناً غريبة أسبغت على فكره وعلى لغته نعمة الشباب ، ومن أراد ان يعرف ماالذي أوحاه السفر الى « لوتي » فليقرأ كتبه التي صوّر فيها مازاره من مختلف الأصقاع فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد فأحيا في كتبه مصر القديمة والفريقية المحرقة وقسطنطينية الساحرة وكان لبلاد فارس ولديار الشام صورة في هذه الكتب ، وأحيا عواصف بحر من البحور ولذّات جزيرة من الجزائر ، وكان يمزج عواطفه بكل ماوقعت عليه عينه .

ولو نظرنا في أدبنا نفسه لرأينا للسفر اثراً في بعض هذا الأدب، فلو لم تحضر الهموم رحل ابي عبادة البحتري فيوجه عنسه الى (ابيض المدائن) لما كان لنا من شعره هذه السينية الخالدة التي لانجد سينية أفضل منها في شعر العرب .

اي شيء من ايوان كسرى لم يعرضه علينا البحتري ، أفاته شيء من صورة انطاكية ، أم فاته شيء من مواثل المنايا وتزجية الصفوف واخضرار لباس الجند واصفراره وعراك الرجال بين يدي كسرى واشاحتهم برمح او الاحتهم بترس فكأنهم احياء وكأنهم أموات .

أم فاته شيء من وصف مدامة كأنها مجاجة الشمس او كأنها ضوء الليل حتى حار البحتري في هذه المشاهد كلها واغتلى ارتيابه في العسكر فكانت يده لتتراءم باللمس فليس يدري أهو في حلم قد أطبق عينيه على الشك ام هي اماني غيرت ظنه فما تمالك في سحر هذه المشاهد وروعة هذه الصور ان اعانهــا بدموعه فبكى على ايوان بزّ من بسط الديباج واستلّ من ستور الدمقس لم يكن بانيه نكساً في الملوك ، وصبا الى قيان المقاصير بين حواء ولمساء ، وما تمالك ان بكى على رباع عمرت دهراً للسرور فصارت هذه الرباع للتعزي والتأسي !

ولو لم يغر المهلبي شعراء بغداد بابي الطيب المتنبي حتى تباروا في هجائه وأسمعوه مايكره وتماجنوا به وتنادروا عليــه لما اتخذ المتنبي الليل جملاً وفارق دار السلام متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد والى ابي شجــاع عضد الدولة فكان من رحلته الى بلاد فارس هذه الابيات التي وصف بها شِعْب بوّان فقال :

ملاعب جنة لو سار فيهـا سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كرمن،من الحران
غدونا ننفض الاغصان فيها على أعرافها مثل الجمان
فسرتُ وقد حجبن الحرَّ عني وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشـير اليك منـه باشربة وقفن بلا اوان
وأمواه تصل بهـا حصاها صليل الحلي في ايدي الغواني

وكان لنا من هذه الابيات صور ناطقة في الوصف أضفناها الى ميراثنا الأدبي .

فالسفر مادة من مواد التصوير والشعر ، وفيه نعمة ربما كانت اكبر من هذه النعم كلها ، فما أحسن ماقاله احد كتاب الافرنجة في هذا المعنى ، وليس يحضرني اسمه فقد قال : يسافر الانسان كي ينسى الحقائق . وفي كلـ هـذه معنى بعيد ، فكأنه يريد ان يقول ان الحياة تشتمل على حقائق لاتخلو من ايلام وايجاع فاذا سافر المرء نسي ألمها ، وذهل عن وجعها ، لان طرفه يلهو بامور تكاد تكون عزاء النفس وسلوانها .

واني اعتقد ان من جملة الامور التي أعانت الجاحظ على حياته المنبسطة كثرة أسفاره التي كانت تجدّد من قوة نفسه ونشاطها .

سافر الجاحظ الى انطاكية والى دمشق والى مصر ووضع كتـاباً اسمه : (كتاب البلدان) وغير بعيد انه وصف فيه الامصار التي عرفها ولكن هذا الكتاب لم يسقط الينا فلسنا نعلم خصائص الآثار التي خلّفها لنا بعد رحلته ، وانما نعرف طائفة من هذه الآثار مبعثرة في تضاعيف ماانتهى الينا من كتبه ، فاذا حكمنا عليه من هذه الناحية فلا يكون حكمنا قاطعاً ، وانما يتعلق هذا الحكم بما وصل الينـا من آثار أسفاره دون غيرها مما لم نطلع عليه .

فمن آثار سفره الى انطاكية قوله[1] :

« اني رأيت الثلث الاعلى من منارة مسجد انطاكية أظهر جدّة من الثلثين الاسفلين

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٥١) .

فقلت لهم : مابال هذا الثلث الاعلى أجد وأطرى ، قالوا : لأن تسميتنا ترفع من بحرنا هذا فكان لايمر بشوء الا أهلكه فمر على المدينة في الهواء محاذياً لرأس هذه المنارة وكان أعلى مما هي عليه فضربه بذنبه ضربة خرقت من الجميع اكثر من هذا المقدار فأعادوه بعد ذلك ولذلك اختلف في المنظر » .

فمن هذا الكلام يظهر لنا ان ديدن الجاحظ في كل امر من الامور التدقيق والتنقيب فكانت له نفس طُلَعة لا تريد ان يفوتها شيء .

اما آثار سفره الى دمشق والى مصر فانها أغرب وأعجب ، وقد كان سافر الى دمشق مع الفتح بن خاقان وذكر هذه الحكاية(١) :

« واحتاج أصحابنا الى التسليم من عض البراغيث ايام كنا بدمشق ، ودخلنا انطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرة فلم ينتفعوا بذلك لان براغيثهم تمشي ؛ براغيثهم نوعان : الابجل والبرد ، انما سموا ذلك الجنس على شبيه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد البرمكي فان يحيى زعم ان البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقا كما يعرض الطيران للنمل وكما يعرض الطيران للدعاميص فان الدعاميص اذا انسلخت صارت فراشاً فكأن اصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً وكانت له بلية أخرى وذلك ان الذي تسوره البراغيث لا يستريح الا ان يقتلها بالعرك والقتل والاّ ان يقبض عليها فيرمي بها من فوق السرير فيرى انهن اذا صرن عشرين كان أهون عليه من ان تكون احداً وعشرين ، وكان الرجل اذا رام ذلك من واحد منها انثنت يده وكانوا ملوكاً ومثل هذا شديد على أمثالهم فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني وجعلوها طويلة الابدان والاردان فناموا مستريحين . »

هذه الآثار التي تركها لنا بعد سفره الى بلد يكاد يكون جنة الدنيا فلسنا ندري انفى الجاحظ بغوطة دمشق ام نظر الى مسجدها ، وهو يعلم مقدار افتخار الدمشقيين بمسجدهم فمن قوله :(٢)

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ١١٣) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الاول —

« وقول الدمشقيين ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا الا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها وما ندري اجواهر مقطعاته اكرم في الجواهر ام لنضيد اجزائه في تنضيد الاجزاء» .

انه ليعلم هذا كله فهل استماله شيء من المسجد ومحرابه وقبة مصلاه وجواهر مقطعاته أم آلمه عض البراغيث في دمشق فشغله هذا العض عن كل حسن من محاسنها .

على انه قد اشار الى المسجد اشارة خفيفة فقال : [1]

« وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ومن رآه فقد علم ان احداً لا يرومه وان الروم لا تسخوا انفسهم به فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّله بالجلال وغطاه بالكرابيس وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب الى ان ذلك الصنيع مجانب لسنة الاسلام وان ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع وان البال لا يكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه و يعترض عليه . »

ولئن ابقت دمشق في ذهنه صورة البراغيث فقد ابقت مصر في هذا الذهن العجيب صورة أبشع لمن قوله : [2]

« كنت بجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحد نحو ارزة . »

براغيث وعقارب !

هذا ما عرفناه من آثار سفره الى مصر ودمشق ، فاذا كان كلامه في كتاب البلدان وفي رسالة مصر من هذا النمط فلم يكن الجاحظ في اسفاره شاعراً ، اي لم يصور لنا ألوان التربة التي زارها تصويراً فيه حياة وشعور وانما كان يبحث عن حقيقة من الحقائق العلمية فلم يبعج بطن العقرب على سبيل اللهو وانما فعل هذا واضرابه على سبيل التحقيق وسننظر في هذا في كلامنا على تحقيقه وتجريبه . على ان صاحب صبح الاعشى ذكر ان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الاول — ص ٢٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦

للجاحظ رسالة في مدح مصر قال فيها : وانما سميت مصر بمصير الناس اليها ، فاين هذه الرسالة [1] ؟

***

علته

كيف انطفأ نور هذا العقل الذي تطلع في قرن متكامل الى كل ضرب من ضروب المعرفة حتى ازدحمت فيه المعارف على متباين اشكالها فكان لنا من مزدحمها كنز لا يفني تجبس الليالي .

حكى ابو علي القالي عن ابي معاذ عبدان الخولي المتطبب قال : [2]

دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج فلما اخذنا مجالسنا اتى رسول المتوكل اليه ، فقال : وما يصنع امير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ثم اقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، احدهما لو غرز بالمسال ما احس والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث واكثر ما اشكوه الثمانون . »

وقد حدث يموت بن المزرع شبه هذا الحديث اقال : [3]

وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة فقال لمن اراد حمله : وما يصنع امير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل حائل . »

وحدث المبرد قال : [4]

دخلت على الجاحظ في آخر ايامه ، فقلت له كيف انت ، فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقر به لآلمه واشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ثم انشدنا :

---

(١) الجزء الثالث — ص ٣١٨

(٢) امالي القالي — الجزء الاول — ص ٥٠

(٣) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

(٤) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

أترجو ان تكون وأنت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لوقرض بالمقاريض لما احس به من خدره وشدة برده .

وكان يقول في مرضه[1] : اصطلحت على جسدي الاضداد ان اكلت بارداً اخذ برجلي وان أكلت حاراً اخذ برأسي ، أنا من جانبي الايسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت ومن جانبي الايمن منقرس فلو مر به الذباب لتألمت وبي حصاة لا ينشرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون سنة . »

هذه جملة الروايات التي تتعلق بعلته ، وقد اثّر هذا المرض في كتاباته حتى قال في كتاب الحيوان ، وكتاب الحيوان ألّفه في الربع الاخير من عمره[2] :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، اول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان والثالثة طول الكتاب الى ان قال :

فان وجدتَ فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد ان صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي» .

شكواه من اللؤم

ولكن الناس لم يسامحوه في هذه الحالة التي صوّرها فكانت طائفة منهم يتعقبونه ملتمسين المطاعن والمغامز فلم ينج الجاحظ من داء العبقرية ، وأريد بهذا الداء شر جماعة لا تهدأ أعصابهم الا اذا تقلبوا في المناهش والملاسع .

فمن قول ابي عثمان في هذه الجماعة[3] :

« فان كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ومدارسة العلم يقفون من جميع هذا الكتاب (كتاب الحيوان) على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه ، وناله بعض الاضطراب او كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم

(١) مرآة الجنان — الجزء الثاني — ص ١٦٤ . (٢) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٢) .

والمثالات الضجر ومن خطإ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى اهله لو تدبره بعقل غير مفسد ونظر غير مدخول وتصفحه وهو محترس من عوامل الحسد ومن عارض التبرع ومن أخلاق من عسى ان يتسع في القول بمقدار ضيق صدره ويرسل لسانه ارسال الجاهل بكنه مايكون منه ولو جعل بدل شغله بقليل مايرى من المذموم تنقله بكثير مايرى من المحمود كان ذلك أشبه بالادب المرضي والخيم الصالح وأشد مشاكلة للحكمة وأبعد من سلطان الطيش وأقرب الى عادة السلف وسيرة الاولين وأجدر ان يهب الله تعالى له السلامة في كتبه والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ومقارعة اعدائه » .

من هذا يتبين لكم ان الفالج قد اثر في تأليف الجاحظ حتى انبرت جماعة لتطلب اللفظة السخيفة والكلمة الضعيفة في كتاب الحيوان فكان يضطر الى مداراتهم واستمالتهم والى كثرة الاعتذار فمن قوله[1] :

« ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب الى هذه الرياضة الطويلة والى كثرة هذا الاعتذار حتى كأن الذي أفيده اياهم استفيده منهم وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » .

فما زال الجاحظ في خاتمة حياته يشكو مرة فالجه ومرة شيئاً أشد من الفالج وهو لؤم بعض الأخلاق حتى ورد الخبر بموته .

وفاته

حدّث احمد بن يزيد بن محمد المهلبي عن ابيه قال[2] :

قال لي المعتز بالله : يايزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ، قال وذلك سنة ٢٥٥ ، قال لي المعتز : قد كنت أحب ان اشخصه اليّ وان يقيم عندي ، فقلت له : انه قد كان قبل موته عطلاً بالفالج » .

وكان موته بالبصرة وقد قال فيه ابو شراعة :

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٥١) . (٢) تاريخ ابن عساكر .

في العلم للعلماء ان يتفهموه مواعظ
واذا نسبت وقد جمعت علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضت ايامه وهو الرئيس الواعظ

* * *

هذه خلاصة حياة تقلب صاحبها في كل أفق من آفاق العيشة ، وخبر كل امر من امور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزه ، وتقلد جلائل الاعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات بمجامعها فلم يخف عليه شيء من لذة السفر ولذة العلم وماشابههما ، ومد الله في أجله فكأنه يقول :

متى يأت هذا الموت لاتبق حاجة لنفسي الا قد قضيت قضاءها

ان حياة مثل حياة الجاحظ مزدحمة الحوادث ، قد يجد الانسان في دقائقها كثيراً من العبر ، ولكني لا أرى الا بعبرة واحدة أجعلها خاتمة الكلام على هذه الحياة ، لوجودنا أشباه هذه العبرة في حياة طائفة كبيرة من رجال العبقرية .

حبس الجاحظ نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل وكان همه الا بعد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ، على نحو ما نبينه في الاشارة الى تحقيقه العلمي ، فما هو جزاء هذه العناية بالأدب وبالعلم ، جزاءه هذا كله تعقب الناس اياه وهو في أشد حالة من الحالات ، واي حالة أشد من الفالج ، فقليلاً مانسامح وقليلاً مانلاين ، لقد طبعنا على التعقب ، ولهجنا بما يؤدي اليه من لواذع القول ولواسع اللفظ ، ننظر الى سيئة أسترها حسنات فلا تفترق العين الا هذه السيئة ونغضي على الحسنات فنمحي عنها او نتعامى ، وقد لؤلمنا المحاسن في كثير من الأحوال فلا نحب ان يبرع الى جنبنا بارع ، هذه طبيعتنا ، وعبثاً نحاول ان نهذب هذه الطبيعة ، هل هذب العلم من أخلاقنا ، ألا نزل في هذه الأخلاق أشباه أجدادنا الذين كانوا يأوون الى الكهوف والغيران في شباب البشرية !

نعم ، هذا مالقيه الجاحظ من الناس في أواخر ايامه ، وأغرب من هذا كله انه ربما

ألّف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته حتى كان ينسب كتبه الى من اقدم عصرهم فيأتيه اولئك الطاعنون باعيانهم فيكتبون كتبه المنسوبة الى غيره بخطوطهم و يتدارسونها بينهم و يتأدبون بها و يستعملون الفاظها ومعانيها ، ولو علموا ان هذه الكتب ألفها الجاحظ نفسه لما كان منهم الا الطعن والقدح !

وقبل ان انظر في سيرة الجاحظ كنت أنظر في سيرة المتنبي ، فما أشبه الذي كان يلقاه الجاحظ بالذي كان يلقـاه المتنبي فأبو عثمان شكا الحسد ، وابو الطيب لم يسلم من شر الحساد .

كلنا نعلم ان اباالطيب كان في ابتداء امره في خشونة من عيشه ورقة من حاله يشتهي كل شيءٍ ، يشتهي النـاعم من الملابس والكريم من المطايا . توفي ابوه وهو فقير فضرب في مناكب الشام التماساً للرزق وكثيراً ما أشار الى فقره والى إخفاقه في السعي والى كساد شعره في اسواق بعض الممدوحين ، ومع هـذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشـامتين وكيد الكائدين ، فكان ضجره من هذه الأخلاق اللئيمة يطفح على جنبات شعره ، ولقد أفضى الامر بحساده الى ان شمتوا بموت جدته لانه كان يذهب في حبها كل مذهب .

لم يسلم المتنبي من شر الحساد وهو فقير فأخلق به ان لا يسلم من هذا الشر بعدان غرق في مكارم سيف الدولة الباهرات وبعد ان أنعل أفراسه عسجداً بنعمي ملك حلب فقد آلم كثيراً من الشعراء وكثيراً من رجال اللغة ، فكانت شكوى الحسد تفيض في شعره وربما تمنى القوم موته فنعوه وهو حي ولكنه كان ينتفض من بعد منعاهم فيزول القطن والكفن .

ترك المتنبيُّ سيف الدولة واتصل بكافور الإخشيدي فاندفع في شكوى الحسد وغادر كافوراً فوقع في بغداد في شر شعرائها الذين نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه .

لم يسلم المتنبي من داء العبقرية في كل طور من أطواره ولئن كان الجاحظ يهزأ بحساده فلم يكن المتنبيُّ اقل هزأً منه بهؤلاء الحساد فلم يفكر في واحد منهم وربَّ بيت

قاله في الشعر بعض بهم أشد من وقع السهام في غلس الدجى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

* * *

نظرت في سيرة الجاحظ وفي سيرة المتنبيّ وكنت أقرأ من ايام قليلة مقالاً أنشأه الكاتب الفرنسي (زولا) في وصف نعش الشاعر (فلوبر) .

لم يمش حول نعش هذا الشاعر الا ثلاثمائة رجل من باريز فقد غاب كثير من الذين كان يجب عليهم ان لا يغيبوا ، ومدينة الشاعر نفسه وهي (روان) لم تشيع اشهر ولد من أولادها فقد قالوا ان اهل (روان) انما هم تجار يسخرون من الادب على ان في (روان) كثيراً من الاساتيذ والمحامين والاطباء والشباب المستنير ، ان فيها من قرأ رواية مادام بوفاري فلم يتحرك واحد منهم ، فلم يصحب النعش الا مائتا رجل من (روان) وكثير من الناس كانوا ينظرون الى النعش على سبيل اللهو فلم يكن على وجه واحد منهم اثر من آثار الحزن والحقيقة ان اربعة اخماس اهل روان لا يعرفون فلوبر والخمس الآخر كانوا يكرهونه وقد ختم (زولا) مقاله المبكي بهذه العبارة : هذا هو المجد .

نعم هذا هو المجد ، وهذا ما يصادفه رجال العبقرية في حياتهم وفي مماتهم !

أفهدأت أفكار هذه الطبقة من الناس في عصر من العصور ؟ أفنال رجال العبقرية ما يستحقونه من الجزاء ؟ استغفرالله . انهم لا يريدون جزاءً ولا شكوراً انهم اجل من كل جزاء ومن كل شكور ، وانما الذي يريدونه ان نكف عن نهشهم وعن لسعهم هذا هو كل جزائهم .

ومن البلاهة ان يبلغ من وساوسنا ان نعتقد أن مجرد الطعن على بارع من البارعين يحطمه تحطيماً أفحطم الجاحظ طعن الطاعنين ؟ أفهدم المتنبيّ نهش الناهشين ؟ أفلم يذهب اولئك الناهشون اللاسعون بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق الا ذكر الجاحظ والا ذكر المتنبيّ !

اننا نستطيع ان نهدم الجاحظ واننا نستطيع ان نحطم المتنبيّ والسبيل الى ذلك ان نأتي بادب ابرع من ادب الجاحظ و بشعر اروع من شعر المتنبيّ . فنعفي يومئذ على آثارهما ، فاما الهذيان وأشباهه فيذهب جفاءً واما النبوغ فيمكث في الارض !

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

البستان

« في الميزان »

—«»—

البستان معجم عربي وضعه الشيخ اللغوي عبد الله البستاني ، لتتداوله ايدي المحققين عند احتياجهم الى مراجعة بعض الألفاظ الضادية ، وقد قرظته بعض الجرائد والمجلات ، ونسي النقدة انهم قد اوتمنوا على لغة آبائهم ، وحفظها من الفساد وان لا ينظروا الى لوجوه ولا الى الصداقة ، ولا الى كل شيء يفكك عرى هذا اللسان البديع البناء المحكم الأركان . على اننا كنا قد نقدنا بعض النقد المجلد الاول من هذا الديوان ليكون المجلد الثاني أتقن تأليفاً وأسدّ انشاء وذلك في مجلتنا لغة العرب (٦ : ٦٨ وما يليها) وظن بعضهم ان في الحوباء حوبةً ، تبرئة لمديحهم المكيل كيلاً ، اذ غايتهم غير الغرض الذي رمينا او نرمي اليه . وقد أشرنا الى ما في الجزء الثاني من الأوهام اشارة قابس نار في مجلتنا ايضاً (لغة العرب ٩ : ٥٠٣) لكن ذلك غير واف بالغرض ، اذ لم نتعرض لهذه التفلية الا كمن يمر بالديار راكب القطار ، او ناقل الأخبار على أجنحة البرق خاطف الابصار .

والآن أردنا ان نعيد نظرة ثانية في هذا المجلد الثاني ، ليعلم الواقف على هذا المقال ان هذا الديوان الجديد مفسدة للغة العربية ، ولكلام كل من ينقل عنه ، او يقتبس منه .

والدليل : انك لا تجد فيه صفحة واحدة سالمة من عدة أغلاط . ولو كانت قليلة و يسيرة وخفيفة لهان الامر واحتقر ، لكنها مخلة بالمعنى والمبنى ، فاقتضى التنبيه على أمثلة منها ، لتجلي الحقيقة بصورتها الواضحة ، وتزول اللائمة من صدور بعض الثقات الاثبات ، الذين يتوخون الصدق في جميع شؤونهم .

الصفحة الاولى من هذا المعجم هي نصف صفحة على الحقيقة ، وقد طالعناها بتؤدة ، فلم نر فيها خلالاً مميزة لها دون غيرها ، فقد بالغ بعض الكتبة في اعلاء شأن هذا

الكتاب ، مبالغةً مخالفةً لكل واقع . والذي ثابتناه ان هذا المعجم نسخة ثالثة من محيط المحيط ، (والثانية هي أقرب الموارد كما قلناه مراراً) ، والأغلاط الواردة في الأم ، واردة بعينها في الابنة مع زيادة . نعم قد أصلح الشيخ عبد الله بعض هفوات محيط المحيط ، الا انه عوّض عنها باوهام شنيعة ، كرّهت المطالع ان يديم النظر في ما حرره قلمه . ونحن نذكر لك بعض الأمثلة .

جاء في اول باب الضاد : « قال ابو منصور الضعضع الصدفة » وهي عبارة التاج . لكن الوارد في الشرح (اي التاج) هو من خطإ الطبع . والصواب : الضعضع الصدف ، كما في لسان العرب ، والضعضعة : الصدفة . اي صواب التعبير ان يفسر المفرد بالمفرد ، والجمع بالجمع على ماهو معهود .

وقال : « الضوْبان كقربان السمين الشديد من الجمال » ولم يذكر جمعه ، لان سائر الدواوين لم تذكره . الا ان التاج ذكره في مادة ض و ب : واحده كجمعه سواء . وهذا يجب ان يعرف ، لان المعاجم وضعت لمثل هذه الامور .

وفيها : « المضؤُد المزكوم » والصواب المضؤود بواوين الاولى مهموزة والثانية ساكنة ، لان المضؤود على المفعول . وفي هذا اللفظ خمسة أحرف ، فيجب ان يكون في الموزون خمسة أحرف ايضاً ، كما هو فعل بنفسه حينما قال في ضأكه «مضؤوك» .

وقال « وضأز فلاناً ، بخسه ومنعه » — والصواب ضأز فلاناً حقه بخسه ومنعه .

وفي تلك الصفحة « الضُؤْضؤ كهدهد والضِئْضِئُ كجِرْجِر ، والضِئْضِئُ كجرجير والضُؤْضُؤه كسُرسُور وضيضأ كضِفْدَع ، الاصل ... » والصواب وضِئْضَأ كضفدع . لكن المؤلف اتبع رسم الكلمة على ماجاء في التاج المطبوع الكثير اغلاط الطبع . والصواب ان تثبت الهمزة الاولى الواقعة بعد الضاد الاولى ، لان اللفظ مهموز الثاني والرابع . وقد نبه على ذلك صاحب مد القاموس . — ثم ان اتخاذه (جرجراً) ميزاناً له فقد اتبع فيه صاحب القاموس . والذي كان يجب عليه ان يتخذ ميزاناً له لفظاً مشهوراً بين الخاصة والعامة . اي يقول كجعفر او كسبسب كما فعله القاموس نفسه ، في جميع المواطن الشبيهة لهذا الحرف . اما المشهور في وزن جَرْجَر ففتح الجيمين . نعم ان الجِرْجِر بكسر الجيمين وارد ايضاً ، ومعناه غير المعنى المفتوحيها ، بيد أن المعهود في الجرجر عند جميع

الناس هو فم الجبين ، وبمعنى آخر ، وهو ماتداس به الكدس من آلات الزراعة . فكان يحسن بالشيخ ان يتخذ اللاحب من الطرق لا المندرس منها .

وقال في تلك الصفحة : وفي خطبة ابي طالب « الحمد لله الذي جعلنا من ضِئْضِيءِ مَعَدّ وعُنْصُر مُضَر » ... والذي في دواوين اللغة : «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضِئْضِيءِ مَعَدّ ، وعُنْصُر مُضَر » . فكان يجب ان يراعي الامانة التي اوتمنها ولا يخالفها ، امّا اذا كانت نيته الاختصار ، فكان يحسن به ان يحافظ على الطريق التي اتبعها من تعمد الحذف و يجعل ثلاث نقط بدلها . فيكتب مثلاً هكذا : « الحمد لله الذي جعلنا من ... ضئضيء معدّ وعنصر مضر . » وعلى هذا الوجه يسلم من كل نقد ، ويرضي الحزبين : حزب المحافظين على سلامة النصوص . وحزب مختصريها .

وجاء فيها : « المضوضي: المصوّت » . وليس هذا صحيحاً ، فان المُضَوْضِيْ خاصّ بالرجال ، وكان عليه ان يقول : رجل مُضَوْضِيْ او : المُضَوْضِيْ من الرجال المصوّت . — ثم قوله : « المضوضي بتسهيل الهمزة الاخيرة ليس هذا موطنه . بل مظنّته في مادة (ض وض) امامنا فكان يجب ان يقال المضوضيء اي بهمزة في الآخر لكنّه نقل ما جاء في القاموس ومن نقل عنه ولم يترو كل التروّي في ما نقل . واللغوي الضليع من يميز الغثّ من السمين ، ويأخذ الحسن وينبذ الرديء .

ومن منقولاته ، انه قال « الضُوضُوُه ايضاً كهدهد . الاخيل . توقف فيه ابن دُريد فقال ما ادري ما صحته » اه . قلنا في هذا التعبير يقف عدة مغامز الاول انه قال الاخيل . وللاخيل عدة معان ، منها ، الكبر ، وذو الكبر وذو الخال اي الشامة ، وطائر مشؤوم ، او هو الصرد ، او هو الشقراق ، فأيّاً من هذه المعاني اراد صاحب البستان ؟ والذي يظهر من سياق عبارته أنه أراد معنى الطائر ، فكان عليه ان يقول ، الضوضوه ايضاً كهدهد الاخيل للطائر المعروف ، او لهذا الطائر المعروف ، او ان يقول الأخيل بمعنى الطائر حتى تنتفي سائر المعاني التي تنطوي تحت الاسم المذكور . وهذا يتجلى من كتابه نفسه اذا راجعنا معنى الاخيل . — وقوله توقف فيه ابن دريد يصح على المعنى الذاهب الى الطائر ، امامعانيه الباقية فلم يتوقف فيها ابن دريد . فهذا المغمز الثاني .

اما المغمز الثالث فهو : ان توقف ابن دريد في هذا المعنى ذكره صاحب حياة الحيوان ، على مانص عليه صاحب التاج ، والدميري ليس بحجة في نقل الأسانيد اللغوية ، والدليل ان صاحب المخصص قال في كتابه (٨ : ١٥١) [قال] ابن دريد : (الشقراق) وهو الضوضؤ ايضاً والشرشق » اه ، ولم يضعف هذه الرواية ولم يجرحها ولم يطعن بها ، ولم يقل ان ابن دريد توقف في معنى الضوضؤ .

والمغمز الرابع : لو صح نسب هذا التوقف الى ابن دريد لما جازله ان يذكره في كتابه ، لانه كثيراً ماحذف الزوائد من الشروح والتفاسير والتأويل ، فكان عليه ان يسير في طريقه لايلوي عليها ولا على أمثالها ، بل يتمسك بالمبدإ الذي عاهد نفسه عليه ليكون معجماً حاوياً لباب اللغة ، لا قشورها اوزوائدها التي تترك للمعاجم الكبرى ، كلسان العرب أو تاج العروس أو مدّ القاموس ، الى نحوها .

والمغمز الخامس انه لم يحقق شيئاً بنفسه عن لفظة الضوضؤ وعن معناه الحقيقي ، والذي ظهر لنا ان الكلمة لغة في اليُؤْيُؤ ، في لسان من يقلب الياء ضاداً بعد ان يجعلها جيماً (راجع لغة العرب ٦ : ٧٨٧) فهو من الصوائد الجوارح لامن البغاث . وقد نبه على هذا الامر ابن سيده في مخصصه . فليراجع (في ٨ : ١٥١ وفي عدة مواطن بعد تلك الصفحة) .

وجاء في تلك الصفحة الاولى (ضَؤُلَ الرجل ضُؤُولةً وضَآلة ، صغر وضعف ...) قلنا : والذي في لسان العرب (ابومنصور ، ضَؤُلَ الرجل يضؤُل ضآلةً وضُؤُولة ، اذا قال رأيه . وضَؤُل ضآلة ، اذا صغُر) اه . فانظر كيف خلط مصدراً بمصدر ، ومعنى بمعنى ، ومبنى بمبنى .

وقال : « يقال (ماطيك فيه ضُؤُولة) اي صغار وضعف » اه . وهذا كلام لاغبار عليه . والذي عهدناه في هذا الديوان ان يفسر الصعب من الكلم بالفاظ سهلة يفهمها الجميع . فقوله صغار ، عوض (مذلة) التي استعملها سائر اللغويين ، من باب وضع الشيء في غير موضعه .

* * *

فقدنا اتفاقاً بعد الصفحة الأولى من هذا (الكنز الثمين) الصفحة ١٤٠٤ فرأينا فيها يقول فيها « الفِرِسْ يسُ بالكسر وفتح الياء طائر يقال له الطيهوج وهو المعروف بالحجل » اه .

فكم من غلط في هذه العبارة الصغيرة ! — واول هذه الاوهام انه ضبط الضريس ضبط قلم وكليم بكسر الضاد واسكان الراء وفتح الياء نقلاً عن محيط المحيط ، بحر الاغلاط وماوية الاوهام . والصواب وزان زُنَّيْر اي بالتصغير . قال الكمال الدميري في طرغلودس « يعرفه اهل الأندلس ويسمونه الضُرَّيْس (بضاد معجمة مضمومة وراء مهملة مفتوحة وياء ساكنة منقوطة اثنتين من تحتها وسين مهملة) . قال الرازي في كتاب الكافي هو عصفور صغير أصغر من جميع العصافير ، لونه رمادي واحمر وأصفر وفي جناحيه ريشة ذهبية ومنقاره رقيق ، وفي ذنبه نقط بيض متواترة ، وهو دائم الصفير واجوده السمين» اهـ على انه قال في رسم الضريس « الضُرَّيْس : الطيهوج » فالدميري ضاد نفسه بنفسه . ولم نر في سائر كتب اللغة ذكراً للضُرَّيْس في مادة ض ر س ، ولا في مادة ط هـ ج ولا ط ي هـ ج . والذي عليه العلماء ان الضُرَّيْس تخفيف اليونانية طرغلوديس او ضرغلوديس .

هذا من جهة ضبط الكلمة . ولم نجد مؤلفاً قبل صاحب محيط المحيط ضبط اللفظ بالوجه الذي ذكره الشيخ عبد الله . على ان دوزي ذكر ان بعضهم سماه : (الضُرَّيْس) بضم الضاد وتشديد الراء المفتوحة ، ويحيل النظر على القزويني . وقد رأينا ان الضبط الصحيح هو ماذكرناه عن الدميري وذكر عن ابن البيطار ان الطيهوج اي الدرّاج الا ان صاحب المعجم المنصوري يضعف هذه الرواية بقوله « وزعم ابن سمجون انه (اسمه الطيهوج) الضُريس ولم يصح . وقد ذكر الافرنج مايقابله عندهم في لسانهم فقال فو بتغ هو الطرغلوديس (Motacilla troglodytes) وقال شرْبُونُو إنه الضخم المنقار (Gros - bec) وذهب بابني انه الزرزور وهو في نظر (طُرَّة) ويسميه الدرّيس ايضاً طويئر يقيم في الغابات اسمه (pajarillo) او (Triguero) .

جئنا الآن الى معنى الكلمة . فقد رأينا فيما نقلناه من الأقوال ان كثيرين منهم يقولون انه الطيهوج ، لكن الطيهوج غير الحجل ، نعم انه من جنس الحجل اوشبيه به ، لكنه ليس به . فالطيهوج هوالمسمى بلسان العلم (Tetras bosania) لا كما قال احد الادباء انه (Ommoperdrix bonhami) إذن على من يؤلف المعاجم ان يتوخى اصدق المعاني والا لم يبق فيها فائدة .

ثم لحقنا بالاتفاق ايضاً الصفحة ١٤٥١ وفيهـا « الطازر محركة : النبت الصيفي معرب تزر بالفارسية » اهـ . — قلنـا : والكلمة الفارسية (تزر) تعني النَبْتَ الصيفي لا النَبْت الصيفي ، لكن الرجل حاطب ليل ، يحطب فيما يحيط به من محيط المحيط ، فوجد العبارة التي نقلها ، فأدى النقل بامانة ماوراءها امانة . ولم يلتفت الى صحة ما كتب . على ان المعلم بطرس وجد هذا النقل في بعض دواوين اللغة فنقله ، إذ يُرى وارداً في لسان العرب . وخطأ الطبع سهل الوقوع . اما المحققون الاثبـات فلم يفسروه الا بما فسرناه اعتماداً على لفظه الاصلي الفارسي .

وذكر في مادة (ط غ م) الطُغْمة . قال « الطُغْمة (وضبطها بالضم) الجماعة اسم واحد » . فكم غلطاً في هذه الكلمات الاربع ؟ . (١) انه ضبطها بالضم وهي بالفتح . (٢) ذكرها كأنها من حر كلام العرب وعتيقه . وهي مولدة . نقلها بقطر وأمثاله ، فدخلت كتب النصارى الدينية . (٣) لم يشر الى انهـا دخيلة حديثة النقل في لغتنا وهي باليونانية (Tagma) . (٤) قال (الجماعة) ولم يذكر اي جماعة . أجماعة الناس ، ام الحيوانات ، ام الطير ام السمك . اذ لكل هذه المخلوقات جماعات وقد يكون لها شأن واحد كالحيوانات التي شأنها تقليد حركات الانسان ، وكالطير التي شأنها الطيران على وجه من الوجوه ، وكالسمك التي شأنها نوع من السباحة . فعلى كل هؤلاء البرايا تصدق الجماعة . وكان حقه ان يقول جماعة الناس ، لكن الرجل أراد ان يختصر فقصر ، — وفاته ان ينقل من محيط المحيط قوله وعنـد الحسابيين ما بين الربوة والملك ، وهما [اي الطغمة بمعنى الجماعة من الناس و بالمعنى الحسابي] من كلام المولدين اهـ . فلاستعجال الشيخ عبدالله في النقل نسي ان ينقل تتمة الكلام ، واهمل قوله من كلام المولدين ، فقطع العبارة ، فجاءت الطغمة انها فصيحة في نظر من يبحث عنها في البستان .

وكلام محيط المحيط بقوله « بين الربوة والملك » أغلق على دوزي . فنقل العبارة ووضع وراءها علامة استفهام كأنه لم يفهم المراد من هذه الرطانة الغريبة — فلذا والصواب بين الربوة والالف لكن زاد المنضد من عنده ميماً فانقلب الكلام طمطمانية .

احتجنا الى ان نطلب معنى (الطقس) اليونانية الاصل فرأيناه يقول مفسراً اياها « الطقس الطريقة . وغلب على الطريقة الدينية (نصرانية دخيلة) » اهـ . اما عبـارة

محيط المحيط فهي هذه «الطقس . . . يطلق عند النصارى على شعائر الديانة واحتفالاتها معرب تكسيس باليونانية ، ومعناها نظام وترتيب ج طقوس » اه . فانت ترى من هذا الكلام ان صاحب محيط المحيط فهم معناها أحسن من الشيخ . لان الطقس الشعيرة الدينية و « الشعيرة واحدة شعائر الحج ، وهي منـاسكه وعلاماته وآثاره واعماله وكل ما جعل علماً لطاعة الله» (التاج) وهذه ما يسميه الافرنج (Rit, Rite) او (Cérémonie) اما الطريقة الدينية فهي — على ماعرفهـا السيد الشريف الجرجاني — (السيرة المختصة بالسالكين الى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات» اه . ومنها الطريقة القادرية والنقشبندية والمولوية والرفاعية والبدوية والسُهْرَوردية والشاذلية والسنوسية والدسوقية الى غيرها . وهذا ما يسمى عند الفرنجية (Ordre) او (Congrégation religieuse .

وهناك إدلة عديدة على انه يتعسف الامور لجهله قواعد العربية ، فتراه يقول في مادة ع م رس « العمروس . . . ج عماريس وعمارس وهو نادر كقوله :

اولئك لم يدرين ما سَمَكُ القُرى ولا عُصُبٌ فيها رئات العمارس » اه .

فأنت تراه يقول « وعمارس وهو نادر » لانهـا عبارة محيط المحيط ، والقاموس الفيروزابادي . وكأنه يجهل ان فعاليل ومفاعيل والفاعيل قد تحذف منها الياء في الشعر ، كما ان فعالل ومفاعل والفاعل قد تشبع الكسرة في الشعر فيتولد منها ياء وكل ذلك غير نادر بل كثير الوقوع في اشعارهم ، ستفاض في منظوماتهم .

قال صاحب التاج في مادة (س ن د) وحديث مسند ، واحاديث مسانِد ومسانيد بزيادة التحتية إشباعاً ، وقد قيل انه لغة . وحكى بعضهم في مثله القياس ايضاً . كذا قاله شيخنا » اه . وقال المذكور في مادة ع ج ج « يوم معج ذو إعجاج . ورياح معاجيج اي ذات إعجاج . وضدها مهاوين . ومعجاج الريح التي اثير الغبار ، كما يصح ان تكون معاجيج جمع مُعِج . ومهاوين جمع مِهْوان . وقال ابن سيده يجوز ان يكون جمع مِهْوَن (التاج في هون) .

والظاهر من سرد البيت المذكور انه لم يفهم معناه ، لانه اورد رئات العمارس التي هي جمع رئة بصورة (رثاث) بمثلثتين قبل الالف وبعدها ، ولا معنى لها يتسق اتساقاً مقبولاً في هذا البيت .

ومن غريب امره انه كثيراً مايعرف الشيء او يجليه ، ولا يتصور حقيقة مايقوله . فقد ذكر مثلاً في مادة (ع ن ج ر) ماهذا نصابه « عنجر الرجل مدّ شفتيه وقلبهما ثم صات ، والعنجرة بالشفتين والزنجرة بالاصابع » اه . — قلنا هل تصور الاستاذ اللغوي معنى ما كتبه ؟ — لانه اذا مدّ الرجل شفتيه ، وقلبهما ، فكيف يمكنه ان يصوت بهما ؟ ان هذا الامر بعيد الوقوع . والذي ذكره الثقات من أئمة اللغة « عنجر الرجل اذا مد شفتيه وقلبهما » ولم يزيدوا « ثم صات » لان الامر غير ممكن .

ومن جمله احكام هذه اللغة قوله في مادة (ع ن ز) «العنزة، العنز» وهذا لم يرد في كلام رجل فصيح يحسن العربية ، انما يقولها بعض العوام لاغير . وكيف جاز له ان يذكرها في الفصيح وقد تعمد نبذ العامي والمولد والوحشي من ديوانه ؟

ومن غريب امره ان ليس فيه سليقة معرفة الكلام العامي اوفساد الحرف الحوشي ، فتراه يقول مثلاً في مادة (ع ن ظ ز) « عنظز عنظزة ، صاث كالمعنز » وليس في دواوين اللغة هذه الكلمة ، انما هي من كلام بعض العوام ، الساقط كل السقوط ، فالرجل نقلها عن محيط المحيط . وهذا نقلها عن فريتغ . ولما كانت عبارة فريتغ لاتينية وبطرس البستاني لا يفهم لغة الرومان أوّلها بالمعنى الذي ذكرناه . اما عبارة فريتغ اللاتينية فهي : (eucurrit Saliens ut capra) ومعناها عدا قافزاً كالمعنز ، فأين العدو قفزاً من صوت المعنز ؟ — والذي نعلمه ان فريتغ نقل عنظز من كتاب الف ليلة وليلة الذي طبعه هبخت (في ٢ ، ٨٢) ولم يعتبر احد كلام الف ليلة وليلة فصيحاً عالياً حتى يحتج به او يؤخذ به او يدوّن في المعاجم تدوين الفصيح . نعم لو نبّه على انه من العامي لما عترضنا عليه ، لكننا نعلم انه نفى من معجمه ما كان من هذه اللغة ولذا نعاتبه على خلطا الفصيح الصحيح بالمسيخ القبيح .

وليست هذه المرة هي المرة الاولى اعتبر فيها العامي فصيحاً فقد وهم هذا الوهم عشرات ان لم يكن مئات . فقد ذكر العُنْقُب والعُنْقُوت لنباتين . والعنقد والعنقريط لضربين من السمك وكل ذلك من كلام العوام . وهذا عن فريتغ ، وفريتغ عن بعض المستشرقين الذين قد لا يعرفون العامي من الفصيح ، فنشأت من عدم تحقيق بعضهم هذه الفوضى في اللغة . اننا لسنا من الذين لا يودون تدوين العامي ، بل بالعكس نحب ان يُقيّد ، لكن نريد ان ينبه عليه لكي يتميز من الفصيح ، اذ للكلام طبقات بعضها أرفع من بعض ، كما ان

للناس طبقات ، وللمادن طبقات ، ولكل شيء طبقات ، يميز فيها الدون عن الرفيع القدر او الثمين . ومن الجهة الثانية ان الشيخ عبدالله اخذ على نفسه ان لا يلتفت الى كلام العوام ، إذن لماذا عاد الى ماحجره على نفسه .

يقول في مادة (ع و ل) في ص١٦٨٣ « ماله عال ومال » وفسرها هكذا : « دعاء عليه . اي كثرت عياله وجار في حكمه » اه . ثم عاد الى هذا الكلام عينه في الصفحة التاليـة فقال : « ماله عال ولا مال ، اي شيء » اه . وسبب وهمه هذا انه نقل مرة عن قاموس الفيروزابادي (وهي العبارة الاولى) ومرة عن محيط المحيط (وهي العبارة الثانية) ولم ينتبه الى مافعل لمخالف بين الشرحين .

ويتفق له انه لا يفهم مايكتب . فقد ذكر مثلاً في الصفحة ١٦٨٤ ماهذا نصه : « العالة ، النعامة وشِبْه الظلَّة يسوّيها الرجل من الشجر يستتر بها من المطر » اه . فظن ان النعامة هنا الطائر المعهود . والدليل انه فصل معناها عن المعنى الذي يليها كما رأيت ، والحال ان المراد بالنعامة هنا شبه الظلة ... كما شرحها لكن جهل المعنى فوقع منه ماوقع . وقد تأثر في عمله هذا صاحب محيط المحيط فقد قال هو ايضاً ، العالة ، النعامة والظلة يستتر بها من المطر . وكان حقه ان يقول : النعامة وهي الظلة ... او النعامة اي الظلة ... او النعامة هي الظلة ...

وقال في مادة (ع ي هـ ن) « العيهون نبت طيب » وهي عبارة محيط المحيط وهذا النبت لا يعرفه احد لانه لاوجود له في الكون . والمعروف العرهون لا سواه .

وقال مثلاً في مادة (غ ر ر) « غرّ الراعي يغُرُّ [كيمدّ] ... رعى ابله ... و — الرجلُ والدابةُ أكلا الغَرْغَر [كسبسب] ... اه . واول هـذه الاوهام انه ضبط مضارع غرّ بالضم وهو بالفتح في هذا المعنى الذي يشير اليه . وهناك غلط آخر هو ان معنى غَرّ يَغَرُّ (المفتوح العين) رعى إبلَهُ الغِرْغِر . فان لم يرعاها هذا النبت ، فلا يقال غَرّها يَغَرُّها . كذا نقله صاحب التاج عن الصاغاني . — ثم انه وضع الرجلَ والدابةَ على مستوىً واحد . وكيف يقبل العاقل ان يضع نفسه موضع الدابة ؟ والصواب ان الرجل لا يأكل الغِرْغِر بل الدابة لا غير . ثم انه ضبط الغِرْغِر بفتح الغينين المعجمتين وليس للعرب نبات بهذا الاسم . والذي يعرفه السلف بهذا الرسم هو الغِرغِر بكسرتين

والدليل على ذلك انك لا تجد في كتابه الغَرغَر بفتحتين بل بكسرتين ? وقوله وغر الرجل والدابة ، اكلا الغرغر ، كان حقه ان يقول : اكل الغرغر حتى لا يرجع القول الى الاثنين معاً كأنهما شدّا في قرن واحد ، اوكأن الرجل والدابة هما مما يجمع احدهما الى آخر ، مع الواو هنا ليست واو عطف كما توهمه ، بل واو تقسيم اي انها وردت بمعنى (او) ومثل ذلك ماجاء في لسان العرب ومعجمه وغيرهما . فقد قالوا في مادة (ذ ي ل) ذالت المرأة والناقة تذيل ، هزلت وفسدت . وأذالتهما امتهنتها » اه . ولم يقولوها بالتثنية . وقالوا اذال فلان فرسه وغلامه ، اذا أهانه » اه . ولم يقولوا اذالأهانهما ترفعاً من جعل الواحد في منزلة الآخر . فهكذا يجب ان تكتب الكُتُبُ وتصنف لا كما فعل . اما هو فقد عاد وقالها وهو غلط بيّن .

ولم يفكر ابداً في ان الغِرغِر (بكسرتين لا بفتحتين كما فعل) ، من الانبتة التي لا تأكلها البشر وان كان ذلك ممكناً . فالغِرغِرُ على ماجاء في تاج العروس ولسان العرب عشب من عشب الربيع وهو محمود ولا ينبت الا في الجبل . له ورق نحو ورق الخزامى ، وزهرته خضراء . قال الراعي :

كأن القتود على قارح اطاع الربيع له الغرغر
وزياد بقمآء مولية وبيهي انابيها تقطر

اراد اطاع زمن الربيع واحدته غرغرة » اه . وهذا العشب معروف الى يومنا هذا في ديار اليمن واسمه عند العلماء (Lavandula dentata) .

وقال مثلاً في مادة (ك ح ل) « تكحلت المرأة والارض (كذا) واكتحلتا كما كتحلتا في المنهين » . ومثل هذا التعبير لم يرد في كتاب من الكتب ، بل لم يرد في محيط المحيط نفسه فكيف بلغ به الامر الى هذه الدرجة من تحقير المرأة حتى انه ساواها بالارض .

وقال مثلاً في المادة المذكورة « كَحْل بغير أل ، ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث » ثم قال بعد ذلك « كحل ايضاً السنة الشديدة المجدبة و يجوز فيها المنع والصرف كهند »— قلنا : فكيف منعها في الاول ثم جوزها في الآخر ، والصحيح انه يجوز فيها المنع والصرف فهي كهند . — وفي تلك المادة «و يقال» صرّحت كَحْل اذا لم يكن في السماء غيم . قال سلامة بن جندل :

قوم اذا صرّحت كحلٌ خيؤهم مأوى الضريك ومأوى كل قرضوب

والقرضوب هو الفقير» . واي صلة بين خلو السماء من الغيم وبين قول جندل ؟ أفاذا غامت السماء ، كان يمتنع على ذلك القوم قرى الضيف ؟ فالمعنى الذي اورد له هذا البيت هو ان كحل جاءت للدلالة على السنة الشديدة ، وهي من معاني كحل ، وليس كما قال . افتدري ماذا فعل صاحبنا ؟ — ذكر هذا المعنى ولم يستشهد بهذا البيت الذي يزيد كلامه قوة وأسراً ، بل ترك اللفظ والمعنى بلا سند ولا عماد من النظيم .

وهناك غرابة أخرى هي انه نسي نص البيت الذي كان انشده في مادة (ص رح) . فقد ورد ثم بهذا الوجه شرحاً لقوله « صرحت كحل ، اي أجدبت وصارت صريحة اي خالصة في الشدة . قال سلامة بن جندل :

قوم اذا صرحت كحلٌ بيوتهم مأوى الضيوف ومأوى كل قرضوب »

ومن العجيب انه لا يستعمل اللفظ المعرب بين الموجهة أحسن توجيه لاتخاذها ، بل يعدل الى الاعتماد على بعض مصطلحات البربر التي لا نعرف الا في ديار المغاربة او في لغتهم ، وما ذلك الا لانها وردت في تاج العروس . نعم لو ذكر جميع الحروف الواردة في التاج من أوضاع العوام التي دوّنها المرتضى ، لكنه ينتقي قضاً ويهمل قضيضاً . ذلك مما تأباه النفوس العربية . لقد قال مثلاً في تلك المادة « المُكْحُلَة ايضاً : الآلة يضرب بها بندق الرصاص في لغة المغاربة . يقال « هو يرمي بالمكاحل » وهو مجاز . شبهت بمكحلة العين لما فيها من السواد » اه . ولم يعزها الى قائلها وهو صاحب التاج ، هذا فضلاً عن انه لم يذكر البندقية ولا البارودة ، اللتين هما اصح استعمالاً من المكحلة التي ترادفها ، ثم من قال له ان تفسير الزبيدي هو الصحيح ؟ — نعم قد يصح وجه تأويله ويقبله بعض الادباء او المتأدبين ، لكن هناك فريقاً لا يرضى بهذا التأويل الهزيل . أما الذي يراه الغير فهو ان المكحلة سميت كذلك لان في نحو وسطها حفرة صغيرة كالعين ، تشبه المكحلة ، يوضع فيها البارود الذي يشبه الكحل بلونه ودقته .

الاب انستاس ماري الكرملي
عضو في المجمع العلمي العربي



ادبنا القومي
- ٩ -

عود على بدء

الآن وقد فرغنا مما اطرد فيه الكلام من الالمام بتاريخ النهضة اللغوية الحديثة، والعلل في الاختلاف بين لهجات الادباء والكلام في القديم والجديد — نعود مستعينين بالله الى الكلام في ادبنا العام او (الأدب القومي) .

وقبل كل شيء ينبغي ان أقرر ان في مصر والحمد لله أدباً عربياً بارعاً وان فيها شعراء لا يتخلفون عن فحول الشعراء في ازكى عصور العربية ، وان فيها كتاباً لهم من فصاحة البيان وقوة التصرف ما لا يقل عما أثر عن السالفين من أئمة البيان . وأزيد على هذا ايضاً انهم اجدوا على اللغة نفسها بما طبعوا من الالفاظ وما نظموا من الصيغ في اصابة المعاني الحديثة واداء الاغراض الطريفة . ولا يمكن مؤرخاً ان ينسى في هذا الباب ماجاء به الشيخ حسين المرصفي . وتلميذه البارودي . والشيخ محمد عبده . واللقاني . وسعد زغلول . والمويلحي الكبير . والمويلحي الصغير . ومحمود واصف . وامين واصف . واسماعيل صبري . واحمد شوقي . وحفني ناصف . وحافظ ابراهيم . وخليل مطران . وقاسم امين . ولطفي السيد . وعبد الخالق ثروت . واحمد زكي . والدكتور عبد الحميد بدوي . وطه حسين . وعبد القادر حمزة . والدكتور هيكل . ومحمد الهراوي . والمنفلوطي . والسكندري . وعباس العقاد . وابراهيم المازني . ومصطفى صادق الرافعي . وعبد الرحمن شكري . وغيرهم كثير . فانني لم اذكر من ذكرت على سبيل الحصر ، بل على سبيل التمثيل .

ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك ايضاً ان هذه النهضة مازال يعوزها شيئان : الاول ان مابعث من ادب العرب وماجددت من لغتهم انما ظل دائراً في الخاصة ، على حين ظل

سواد المصريين بنجوة عن تذوق بلاغة العرب ، فعكفوا على ادبهم الذي امتّ الى بعضه فيما سلف ، والذي سأعود اليه في شيء من التفصيل . والخلاصة انه لم ينبعث احداث بسيط هذه اللغة وتيسيرها حتى تتعلق بروائعها أذهان جمهرة الناس ، او عمل على رفع مستواهم حتى يدركوها ويتذوقوا بلاغاتها .

اما الثاني فان جل ماتجدد في اللغة وتطرق منها الى اصابة المعاني الحديثة ، ان لم يكن كله ، انما كان من حظ المعنويات دون الماديات حتى اضطر الخاصة ، بله العامة . الى ان يعوذوا في سبيل الترجمة عنها بالتعريب .

ومما يحسن ذكره هنا ان بلاغة الخاصة لا يتذوقها الا الخاصة وحدهم ، اما بلاغات العامة وأشباه الخاصة فالكل في تذوقها واستشعار حلاوتها بمنزلة سواء .

ولست في هذا المقام بمجشمك ان تطلع على العامة ، بل وانصاف المتعلمين . بقصائد امريء القيس . وطرفة . والأعشى . ولبيد . والأحوص . وأراجيز رؤبة . والعجاج مثلاً . لتمتحن مداركهم وتستخبر أذواقهم . بل أرو لهم من ذلك الشعر المرسل السهل اللين القائمة معانيه في ظواهر الفاظه ، او هو الشعر الذي يسميه صديقنا شاعر النيل بالشعر (الدباح) اطلع بهذا على العامة وانصاف المتعلمين ترهم حتى ان فهموه لم يتذوقوه ولم يحرك فيهم من الشجون كثيراً ولا قليلاً ، اذ تراه يهز نفوس الخاصة هزاً ، ويحز في كبودهم حزاً !

هلم فانشد العامة وأنصاف المتعلمين قول الشاعر :

اقضي نهاري بالحديث و بالمنى	ويجمعني والهمّ بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا بدا	لي الليل هزتني اليك المضاجع

او قول الشاعر :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا	كلانا على طول الجفاء ملوم

وقوله :

ابكي الذين أذاقوني مودتهم	حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتهضاً	بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبهم	بين الجوانح لم يشعر به احد

وقول الشاعر

حدثوني عن النهـار حديثاً أو صفوه فقد نسيت النهارا

* * *

ومازال يخفي الحب حتى حسبته تنفس في احشائه وتكلما

* * *

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
يا ليت من نتقي عند خلوتنا اذا خلا خلوة يوماً تمنـانا

* * *

احمامة الوادي بنمرج اللوى بحياة من ابكاك مالبكاك ؟
اما انا فبكيت من ألم الجوى وفراق من أهوى أأنت كذاك ؟

* * *

ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً وقال القلب أين تريد
وقال لي الغادون ما أنت مشته غداة قطعنا الرمل ؟ قلت أعود

* * *

ولقـد وقفت على ديارهم وطلولها بيـد البلى نهب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الديار تلفت القلب

* * *

يامسرحة الماء قد سدت موارده اما اليك طريق غير مسدود ؟

* * *

وكنت اذا ماجئت سعدى بارضهـا ارى الارض تطوى اليّ ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسها اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيـدها

* * *

ولما التقينـا قرب الشوق جهده شجيّين فاضـا لوعة وعتابا
كأن صديقاً في خلال صديقه تسرب اثناء العناق وغابا

* * *

ابا برق ليس الكرخ داري وانما رماني اليـه الدهر منذ ليـالي

وهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالي

* * *

الا يا حمامي قصر دوران هجتما بقلبي الهوى لما تغنيتما ليا
وابكيتماني وسط صحبي ولم اكن أبالي دموع العين لو كنت خاليا

* * *

أأترك ليلى ليس بيني وبينها سوى ليلة إني إذن لصبور

* * *

وان مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

* * *

فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وانصاري لديك قليل
وكنت اذا ما جئت جئت بعلة فافنيت علاتي فكيف أقول؟

* * *

يا ليت ماء الفرات يخبرنا أين تولت باهلها السفن

* * *

آخر شيء أنت في كل هجعة واول شيء انت عند هبوبي

* * *

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ما ذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

ومن هذا الطراز في اشعار العربية كثير، فلم انشده العامة وانصاف المتعلمين، بل وبعض المتعلمين فلست بواجده متدسساً منهم الى نفس ولا محركاً فيها شجنا، وهذا على سهولته وانكشاف الفاظه، ووقوع معانيه اكثرها للآداب العامية!

والوجه في هذا واضح جلي: ذلك ان الملائمة بين الألفاظ والمعاني انما هي علاقة وضعية بحتة، وان زعم بعضهم (كالصيمري) ان هناك علاقة عقلية بين الالفاظ ومدلولاتها بحيث لو تجرد الانسان وشحذ حسه، وتخلى عن شواغله لوقع على المعنى من نفس اللفظ ما له به عهد من قبل، وهذا على بعده وغرابته لا تراه يجدي من الجهة العملية كثيراً ولا قليلا

فلقد نشأنا نسمع اللفظ وندل (بضم النون) على معناه ، وبحكم التكرار في اللفظ واستحضار المعنى ، كلما وقع في السمع ينعقد بينهما تمام الاتصال حتى لايكاد الانسان يجيل المعاني في قرارة نفسه من غير ان تقوم في الفاظها المقسومة لها . اما تصور المعاني مجردة من الفاظها فذلك من الشاق العسير .

ثم ان النفس تستريح الى اللفظ بطول ترديده وتقليب اللسان فيه . ثم ان الألفاظ فضلاً عن دلالتها على معانيها الاصلية بتطاول الزمن والاستعمال كثيراً ماتنم على دقائق لاينم عليها غيرها . بل كثيراً مايعجز عن تجليتها الشرح والتفسير .

فاذا كان الخاصة يتذوقون الأدب العربي ويتطربون بروائعه فلانهم تعلموه وحذقوه وسلخوا السنين في حفظه وترديد النظر فيه . كما ان من حذقوا منا الفرنسية او الانجليزية مثلاً ودرسوا آدابها وقلبوا النظر في بدائع آثارها — يستريحون من غير شك ، اليها ، ويطربون بها .

وبعد فأنت تعلم ان العامية هي الفاشية في البلاد . وقد استقرت الفاظها على مختلف المعاني من الزمان البعيد ، وجعلت هي الاخرى تتناول من الدقائق مالايكاد يغني فيه الشرح والتفسير . كما استراحت اليها آذان العامة والخاصة جميعاً بطول الاستعمال وكثرة التكرير . ولأورد عليك طائفة يسيرة من الألفاظ العامية ، لعلك مستخرج من صحيح العربية مايؤدي معانيها ، بل ومانتم عليه من الدقائق ، ولكن نفسك لاتستشعرها وتطبعها لحسك الا بعد العلاج الكثير في الزمان الطويل :

تقول : « فلان مزمزق مني » و « فلان ماله كده بينقمص بالعجل » و « الكوز اتلمق منه » و « يادوب نوصل العصر » و « الواد ده ابن حنت » و « يقعد ويجمص » و « خده على مشمه » و « سابه يرن » و « فلان ده قفا » و « قل له ينبط » و « اما راجل مقص » و « وفلان راجل عكي » و « فلان راجل صرم » و « التين المهبطل » و « كان فلان بيجهطه مهط » و « الولد صبح منيق » و « فلان ده مفلوت عياره » و « المسألة كانت بغمه » و « الولد ده دلوعة » و « استذوق » و « شوف لك قط غمضه » .

وارجو ان تبدل كل مايقع لك من (القافات) في هذه الكلمات (همزات) هذه طائفة من الفاظ العامية يشعرك كل منها معنى خاصاً ، ويجلي في نفسك صورة لايستطيع ان يجليها

عليك غيره الا بطول الإلف وكثرة العلاج والترديد ·

والقد قلت لك فيما سلف ان للعامة احساسهم وعواطفهم ولابد لهذه ان تختلج ولا بد لهذه ان تترقرق ولا سبيل الى حقنها في الصدور حتى يأذن الزمان فيحذقوا العربية الخالصة ، و يطبعوا ملكاتهم على آدابها فكان لابد لهم من ان يحتثوا آدابهم من لغتهم و يصوغوه من متواضع لفظهم فكان لهم على هذا أدب بارع تلوّن في عدة صور ولوضاع · منها الزجل ، ومنها الادوار ، والموالي ، والواوات ، والطقاطيق ، والمنولوجات ، والامثال ، والنكات البلدية ، او ما يعبر عنه عندهم (بالقافية) والتطرف (القفش) وغير ذلك ولقد احسنوا من هذا في كثير ·

واني اوق هذا لأ زعم ان لغة العامة تمتاز على لغة الخاصة بشيئين : الاول اننا جميعاً نشأنا في العامية وبها نتحدث ونتقاول في جميع اسبابنا · ولا نستثني من هذا الخاصة انفسهم · فهي ألصق بنفوسنا وادنى الى طباعنا ، وأقدر على تبيين أغراضنا وتصوير عواطفنا ·

والثاني : انه اذا كانت أبلغ مظاهر الآداب هي الترجمة عما يعتلج في النفس من فنون الاحساس وألوان العواطف وكانت هذه مستمدة مما يلابسنا و يحيط بنا اذ ان لكل معنى من ذلك في العامية اسماً ، ولكل معنى لفظاً ، لان العامية لا تتحرج ولا تتورع ، فان العامية من هذه الناحية أغنى وأعظم ، بالنسبة لنا ، وفراً ·

وهنا أرجو من القارئ الا يخلطني فيخلق بين منية الكاتب وبين مجرد تقريره للواقع وانا انما أقرر الواقع في رأيي على الاقل ، اما أمنيتي واما سعادتي كلها فبأن يتقلص ظل العامية عن البلاد بحيث تخلفها على الالسن كلها سيدة اللغات ·

—((**))—

رسالة الكرم

- ٨ -

« عصير العنب والزبيب »

السُلافة والسُلاف بالضم من الخمر أخلصها وأفضلها وذلك اذا تحلب من العنب والزبيب والتمر بلا عصر ولا مرث مالم يعد عليه الماء بعد تحلب اوله . قال الراغب السلافة ماتقدم العصر . وفي المخصص اذا أنقعت الزبيب اياماً فأول ما يرفع من عصارته السلاف ثم يصب عليه الماء فيكون مايخرج منه بعد الماء نَطلا . وفي اللسان والسلاف ماسال من عصير العنب قبل ان يعصر . وسلافة كل شئ عصرَته اوله .

الخُرطوم كزنبور اول ما يجري من العنب قبل ان يداس . وقال ابن الاعرابي انه السُلاف الذي سال من غير عصر .

مُجاج العنب ماسال من عصيره .

العُنفوان ماسال من العنب من غير اعتصار . وعنفوان كل شئ اوله وقد غلب على الشباب والنبات .

الدبس بكسرة وبكسرتين عسل التمر وعصارته وقيل عصارة الرطب وقيل ماتحلب من الزبيب والعنب .

الصَقْر والصَقَر ماتحلب من العنب والزبيب والتمر من غير ان يعصر والصقر الدبس عند اهل المدينة .

السَقْر الدبس ومنه نخلة مسقار يسيل سقرها اي دبسها .

الاسفِنْط بكسر الهمزة مع كسر الفاء وفتحها المطيب من عصير العنب وقيل هي اعلى الخمر وقيل خمر فيها افاويه وقيل هي الخمر بالرومية . قال ابن السكيت وهي الاسفنط وهو

اسم بالرومية معرب وليس بالخمر انما هو عصيره:ب · ويسمي اهل الشام لاسفنط الرّساطرن يطبخ ويجعل فيه افواه ثم يعتق وفي اللسان واهل الشام يسمون الخمر الرساطون وسائر العرب لايعرفونه · ثم قال ومنهم من يقلب السين شيناً فيقول رَشاطون ·

تقدم ان النطل ماعلى طعم العنب من القشر وان النَّطْل مايرفع من نقيع الزبيب بعد السُلاف وبعد صب الماء عليه ثانية · والناطل الخمر والجرعة من الماء واللبن والنبيذ · والنِطل بالكسر خثارة الشراب · والمناطل المعاصر التي ينطل فيها ·

النبيذ الشيء المنبوذ والنبيذ مانبذ من عصير ونحوه · والنبيذ مايعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك · يقال نبذ التمر والعنب اذا ترك عليه الماء ليصير نبيذاً فصرف من مفعول الى فعيل وسواء كان مسكراً او غير مسكر فانه يقال له نبيذ · و يقال نبذ النبيذ وأنبذه وانتبذه ونبّذه ونبذت نبيذاً اذا اتخذته · و يقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ كما يقال للنبيذ خمر ·

الزبيبي بالفتح النقيع المتخذ من الزبيب ·

النَقيع والنَقُوع شراب يتخذ من زبيب ينقع في الماء من غير طبخ · والنقيعُ والمنقع كمكرم كل ما ينقع تمراً كان او زبيباً اوغيرهما كالعناب والقراصيا والتين وما اشبههما ثم يصفى ماؤه و يشرب (والنقيع المحض من اللبن يبرد كالمُنقع والنقيعة) · والنقوع ماينقع في الماء من الليل لدواء او نبيذ و يشرب نهاراً و بالعكس ·

وذلك الاناء منقع ومنقعة وبكسرهما · وفي اللسان والنَقيع والنَقوع شيء ينقع فيه الزبيب وغيره ثم يصفى ماؤه و يشرب · والنقـاعة ماأنقعت من ذلك · قال ابن بري والنقاعة اسم ما انقع فيه الشيء ·

النقد بفتح فسكون ولايحرك هكذا قال في القاموس وفي التاج وصوب الصاغاني سكون القاف · وقد ضبط في اللسان بالشكل محركاً — شراب يتخذ من زبيب اوعسل و يقال ان العسل ينبذ ثم يلقى فيه النقد فيشدده وهو نبات يشبه الكشوث وهو نبت يتعلق باغصان الشجر من غير ان يضرب بعرق في الارض ·

القِنديد بالكسر عصير عنب يطبخ ويجعل فيه أفواه من الطيب ثم يفتق و يقال انه ليس بخمر وقيل هو الخمر ·

الفضيخ عصير العنب . وشراب يتخذ من بسر مفضوخ . والمِفضَخة بالكسر حجر يفضخ به البسر ويجفف . والمفاضخ الأواني التي ينبذ فيها الفضيخ وقد تقدم . أفضخ العنقود اي حان ان ينفضخ و يعتصر ما فيه .

البُختُج كقنفذ العصير المطبوخ واصله بالفارسية (مِيبُختَه) اي عصير مطبوخ .

الجمهوري بالضم اسم شراب مسكر او نبيذ العنب أتت عليه ثلاث سنين . وفي حديث النخعي انه اهدى له بختج قال هو الجمهوري وهو العصير المطبوخ الحلال . وقال ابو حنيفة واصله ان يعاد على البختج الماء الذي ذهب منه ثم يطبخ و يودع في الاوعية فيأخذ أخذاً شديداً . وقيل انه سمي الجمهوري لان جمهور الناس يستعملونه اي اكثرهم .

الصَّعْف والصَّعَف شراب لاهل اليمن وصناعته ان يشدخ العنب ثم يلقى في الاوعية حتى يغلي . وقيل هو شراب العنب اول ما يدرك وقيل هو شراب يتخذ من العسل . والصَّعْفان المولع بشرب الصعف وهو العصير .

الباذق بكسر الذال وفتحها ما طبخ من عصير العنب ادنى طبخة فصار شديداً . قيل اول من وضعه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر .

الخَمْر كفلس ما أسكر من عصير العنب لانها خامرت العقل . وقال ابو حنيفة قد تكون الخمر من الحبوب . قال ابن سيده واظنه تسمحاً منه لان حقيقة الخمر انما هي للعنب دون سائر الاشياء . وفي التاج الأصح عند الجمهور ان الخمر عام اي هو عصير كل شيء يحصل به السكر .

والخمر تذكر وتؤنث والأعرف فيها التأنيث . وذكر في التاج والمصباح ان الاصمعي أنكر التذكير ولكن كلامه في كتاب النخل والكرم يخالف هذا فقد قال فيه : قالوا هي الخمر وهو الخمر مذكر ومؤنث لغتان . وفي اللسان والخمر ما خمر العقل وهو المسكر من الشراب وهي خمرة وخمر وخمور مثل تمرة وتمر وتمور . وفي القاموس الخمر ما أسكر من عصير العنب كالخمرة . وفي المصباح و يجوز دخول الهاء فيقال الخمرة على انها قطعة من الخمر كما يقال كنا في لحة ونبيذة وعسلة اي في قطعة من كل شيء منها .

وخَمَّر الرجل والدابة يخمُره خمراً سقاه الخمر والمُخَمِّر كمحدث متخذ الخمر والخمّار بائعها . و يقال غالت الخمر فلاناً اذا شربها فذهبت بعقله او بصحة بدنه .

والغول الصداع اوالسكر و به فسّر قوله تعالى : « لا فيها غولٌ ولا هم عنهـا ينزفون » اي ليس فيها غائلة الصداع . وقال ابوعبيدة : الغوْل ان يغتال عقولهم وأنشد :

وما زالت الخمر تغتالنـا وتذهب بالأول الأول

اي توصل الينا شراً وتعدمنا عقولنا .

وعنب خمري يصلح للخمر ، ولون خمري يشبه لون الخمر . وقد تقـدم ان العنب يقال له الخمر كما يقـال للخمر العنب . و يقال للخمر سو يق الكرم أنشد سيبو يه لزياد الأعجم :

تكلفني سو يق الكرم جَرْمٌ وما جرم وما ذاك السو يق
وماعرفت سو يق الكرم جرم ولا أغلت به مذ قام سوق
فلما نزلـ التحريم فيهـا اذا الجرمي منهـا لا يُفيق

و يقال للخمر ام الخل .

السكر بفتح السين والكاف الخمر المعتصر من العنب قال ابن الاثير هكذا رواه الاثبات ومنهم من يرو يه بضم السين وسكون الكاف . والسكّار النبّاذ .

الخل كفلس ما حمض من عصير العنب وغيره جمعه خلول كفلوس سمي بذلك لانه اختل منه طعم الحلاوة . يقالـ اختل الشيءُ اذا تغير واضطرب . والخل واحدته خَلّة يذهب بذلك الى الطائفة منه . وقال ابوزياد جاؤا بخَلّة لم فلا أدري أعنى الطائفة من الخل أم هي لغة فيه كخمر وخمرة . و يقال خلل الرجل النبيـذ تخليلاً اذا جعله خلاً . ويستعمل لازماً فيقال خلل النبيذ اذا صار بنفسه خلاً . وتخلل النبيذ في المطاوعة .

قال الأصمعي وانـ أردت صنعة الخل اخذت من العنب ما بدالك فتنزع ثفار يقه وتلقي بعضه على بعض في جرة وتتركه حتى يجود ثم تصفيه فتعزل ماءه الاول وتصب على الثفل من الماء ما يغمره فاذا احتاج اليه صفي ماؤ. واستعمل وترك الماء حتى يدرك . وقال آخر يصب على العنب مثلاه من الماء و يترك حتى يحـذق اي يحمض ثم يصفى و يصب مثلما يؤخذ منه ولم يصف .

وخلل الرجل البسر جعله في الشمس ثم نضحه بالخل ثم جعله في جرة وكذا غير البسر كالخيار والكرنب والباذنجان والبصل . فهو مخلل . والاختلال اتخاذ الخل من عصير العنب

والتمر . وفي اللسان والتخليل اتخاذ الخل . والخلاّل كشدّاد بائع الخل وصانعه .

وخللت الخمر وغيرها من الاشربة تخليلاً فسدت وحمضت وخلل شراب فلان اذا فسد وصار خلاً .

وفي المثل ماهو بخل ولا خمر اي لاخير فيه ولا شر. وحكى ثعلب ما له خل ولا خمر اي ماله خير ولا شر .

التجير كرغيف . تقدم ان التجير ثفل كل شيء يعتصر . والتجبير ما عصر من العنب فجرت سلافته وبقيت عصارته و يقال هو ثفل البسر يخلط بالتمر فينتبذ . وقال ابوحنيفة يقال لما بقي من ثفل العنب التجير . والتّجر طرح التجير في النبيذ ليشتد وهو الخمر فان طبخ بعد ذلك حتى يؤتدم به و يشرب ولا يغلي فقد ارتب وهو الرُب وأعقد وهو العقيد وكل شيء يطبخ حتى يثخن فقد أُعقد . وقال ابوعبيد عقّدته حتى عقد يعقد وهذا في القطران والرب والعسل ونحو ذلك . وقال ابو حنيفة ويسمى ذلك العقيد دبس العنب وهو الطلاء تشبيهاً بطلاء الابل .

الرُبّ بالضم الطلاء الخاثر وقيل هو دبس كل ثمرة وهو سلافة خثارتها[1] بعد الاعتصار والطبخ والجمع الرباب والرُبوب .

وارتُب العنب اذا طبخ حتى يكون رُباً يؤتدم به . قال الأصمعي قال الطائفي اذا أردت صنعة الرُب اخذت من الغربيب والأقاعي الفارسي او الأقاعي العربي او النواسي ما بدا لك حين يعقد فتُخُمله وإخماله ان تجعله في غرارة اومكتل فتصب بعضه على بعض فتدعه في الشمس ثلاثاً اواربعاً ثم تفضخه ثم تصفيه وتجعله في قدر متوقد وقوداً غير شديد وتخرج رغوته وزبده وتطبخه حتى يعقد . وقال غير الطائفي تَحمّله يغمّله .

وان أردت صنعة المريث[2] اخذت ثفاريق العنب والحبة فيبستها ثم دققتها دقاً شديداً ثم بللتها بفضيخ العنب شيئاً ثم تلته برغوة الرُب ثم شيء (كذا) من رُب تخلط فيها

(١) الخثارة بالضم البقية . (٢) لم نجد المريث في اللسان والتاج ولعله فعيل بمعنى مفعول من مرث الشيء في الماء اذا انقعه فيه او من مرثه لينه حتى صار مثل الحساء ثم تحساه و يقال مرثه اذا مرسه في ماء وغيره حتى تفترق اجزاؤه .

شيئاً من سويق البلسن وهو العدس فتكبه به . وقال بعضهم المريث يعمل من سويق البلسن ومن البَهْش(١) يعني المقل ومن النطل ومن الثفار يق ومن الحَدَل(٢) والحدل شجرة تكون بتهامة يقال لها الاعاليف فذلك ما كان طحن ثم سقي الرُب والحدل يعمل من الطفق وهو مما وصف الحَمَصيص(٣) يربب بعصير العنب ثم يؤكل .

الطلاء ككتاب ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه . وفي القاموس الطلاء خاثر المنصف(٤) . وقال ابن الاثير هو بالكسر والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب قال وهو الرُب واصله القطران الخاثر الذي تطلى به الابل . والطِلاء في اللغة كل ما طليت به .

و يقال عقد العسلُ والرُبُّ ونحوُهما يعقِد وانعقد وأعقدته فهو معقَد وعقيد اي غلظ . وكذلك عقيد عصير العنب . و يقال للقطران والرب ونحوه أعقدته حتى تعقّد . وفي القاموس عقدته تعقيداً أغليته حتى غلظ كأعقدته .

عضو المجمع العلمي
سليم الجندي

---

(١) البهش رديء المقل وقيل الرطب من المقل والخَشْل يابسه والمَج نواه والحتّي سويقه . (٢) في اللسان الحَدَال شجر بالبادية وقال الصاغاني صوابه بالذال .

(٣) في اللسان الحمصيص بقلة دون الحماض في الحموضة طيبة الطعم واحدته حمصيصة وقال ابو حنيفة بقلة الحمصيص حامضة تجعل في الاقط تأكله الناس والابل والغنم . ولا يخفى ما في هذه العبارة من الركاكة والغرابة اللتين تدلان على براءة الاصمعي من هذا الكتاب وقد أشرنا الى ذلك في المقدمة . وانا لم أجد للطفق ذكراً في اللسان والتاج وغيرهما مما لدينا من كتب اللغة .

(٤) والمنصف كمعظم الشراب يطبخ حتى يذهب نصفه .

آراء وافكار

واسطة السلوك
« في سياسة الملوك »
— ومثال رائع من أمثلة الحضارة العربية —

وصف السيد محمد السعيد الزاهري « تلمسان — الجزائر » كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف السلطان ابي حمو موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان (مجلة المجمع العلمي م ١١ ص٩٧ — ١٠١) وذهب الى انه « لا يزال مخطوطاً لم ينشر بعد » . والحق ان الكتاب قد طبع في تونس سنة ١٢٧٩ ه كما ورد في « كشف القنوع بما هو مطبوع » (ص٣٨٧) ويقول زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (م ٣ ص٢٥٩) انه طبع في الاستانة ايضاً سنة ١٢٩٥ ه .

اما الطبعة التونسية وهي في (١٧٥ صفحة) بقطع متوسط ، في كل صفحة ٢٦ سطر وفي كل سطر زهاء ١١ أو ١٢ كلمة . وقد عُني بتصحيحها الشيخ محمود قبادو ومحمد البشير التواتي ، ونجز طبعها « ... بمطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية في رابع ثاني الربيعين سنة تسعة(؟) وسبعين بعد المائتين والالف من الهجرة » . وصدرت بكلمة نصف بعض نواحي المؤلف زعموا انها ترجمته ، وقد استوعبت صفحةً وبعض صفحة ، ومن الخير ان نروي طرفاً منها على علاته فان فيه حديثاً رائعاً اذا صح كان غرة شادخة في جبين الحضارة العربية يضاف الى ما فيها من غرر معلومة ومجهول .

ودونك ذلك « الحمد لله . ذكر ترجمة المؤلف ، هو السلطان ابو حم (؟) موسى بن يوسف احد ملوك بني زيان بمدينة تلمسان ، وكان رحمه الله يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال بما هو فوق مواسم العام على ماهو منقول من راح الارواح

ومن نظم الدر والعقيان فيقيم مدعاة (؟) يحشر لها الناس عامة وخاصة فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وبسط موشاة ، ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالاسطوانات (؟) وموائد كالهالات ، ومباخر صفر ، منصوبة كالقباب يخالها المبصر من تبر ، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفس وتستلذها الاعين . وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بامداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وبقرب السلطان خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فمها مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من ابوابها و برزت منه جارية صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويدها اليسرى على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة . هكذا حالهم الى انبلاج الصباح ، ونداء المؤذن : حي على الفلاح ... » .

وقد أشار الزاهري الى ان النسخة التي يصفها لم يذكر في اولها اسم المؤلف وانما ذكرت بعض اخبار بني زيان وذكرت معها توار يخهـا يستطيع الباحث ان يعلم منها اسم المؤلف وانما هو موسى بن حمو (؟) مافيه من شك ، ثم أورد بيتين من قصيدة للمؤلف في الكتاب تأييداً لما ذهب اليه ، وهما :

وانا موسى بن حمو أصلح للملك ولا (؟) يصلح لي
فأنا للطفل كوالده وأسوق الشيخ على مهل

والطبعة التونسية تصرح باسم المؤلف في فاتحة الكتاب تصريحاً لاتبقى معه حاجة الى الاستدلال بالشعر وما اليه ، وهذا نص ما جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد . كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك تأليف الامام الملك الهام الاسد الضرغام اميرالمسلمين مولانا موسى بن يوسف ابوحمو بن زيان العبد الوادي رحمه الله تعالى . الحمد لله الذي لم يزل ولا يزال ، وهو الكبير المتعال ، خالق الأعيان والآثار ، ومكور الليل على النهار ... » .

وقول الزاهري « هو موسى بن حمو » من خطإ الطبع فيما يظهر لانه ذكر مراراً

أنه موسى ابو حمو كما هو الحق وكما جاء في البيت الذي أورده ، وقد وقع فيه غلط وصوابه كما في الطبعة التونسية :

وأنا موسى وابو حمّو أصلح للملك ويصلح لي

والبيت الثاني الذي أورده إنما يقع في القصيدة قبل هذا البيت بخمسة أبيات ، وفيه : أحنو للطفل ... بدل : فأنا للطفل ... وقد شك في كلمة « الاعتناء » التي جاءت في مقدمة المخطوطة « ... وقرة كل عين ، ووصلة الانساب ، وسلسلة التناسل والاعتناء ... » وهي في المطبوعة « والاعتقاب » كما ان قوله « ووصلة الانساب » فيها « ووصلة للانساب » . وقد لاحظت في المطبوعة أغلاطاً كثيرة خفيت على المصححين أو هي من المؤلف ، ولست أريد ان أعرض لتحليل لغته ونمط انشائه لقد قصدت الى غير هذا ولكل مقام مقال .

بغداد : محمد بهجة الاثري
عضو المجمع العلمي العربي

—«*»—

مطبوعات حديثة

الشرع الدولي في الاسلام

« وضعه السيد نجيب الارمنازي »

— الحكيم في الحقوق والمجاز في العلوم الدولية العليا —

Les principes Islamiques

&

Les rapports Internationaux en temps de Paix et de Guerre .

الناس الا اقلهم ، يأخذون الامور بظواهرها ، ويتوهمون الحاضر صورة عن الماضي ، فاذا رأوا أمة ناهضة خيّل اليهم انها كذلك منذ كانت ، وأخرى عاثرة حسبوا العثار طبعاً فيها ، لا تقال منه . وهم بعد ينسبون الى الاولى كل محمدة عرفوها . ويلصقون بالثانية كل مثلبة انكروها .

ولقد لقينا نحن العرب من هذا الامرّين . عرّفنا الناس وقد اضعنا تراثنا القديم ، فقاسوا على حاضرنا الباهت ، ماضينا الزاهر ، فجاءت احكومتهم فينا مغلوطة جائرة .

ولقد تفطن لذلك فريق من الناشئين النابهين ، الذين قصدوا في طلب العلم الى دار الغرب ، فجدوا في التنقيب عن أمجادهم الغابرة ، وعلومهم المنسية ، وتناولوا في أطروحاتهم العلمية طائفة من علوم العرب وآرائهم وأقوالهم التي توافق — من حيث المبدإ والاساس — كثيراً من علوم العصر الحاضر . وقد أشرنا في هذه المجلة الى كثير من هذه الاطروحات القيمة . وبين أيدينا الآن أطروحة السيد الارمنازي .

والموضوع دقيق ، بل هو ايضاً غريب على السمع وقعه (الشرع الدولي في الاسلام) فهل في الاسلام شرع دولي ؟ وهل كتب العرب في شيء لم تعرفه الامم الا في العصور

المتأخرة ؟ ام هي خطرات يوسوس بها شيطان الغرور في صدور هذه الامم المتناغية بماضيها ، فتكثر من التحدث عن مفاخر ، منها ما كان ، ومنها ما لم يكن . شنشنة معروفة في العاجزين ؟

هذا اول مايتبادر الى ذهن القارئ اوالسامع ، ولسنا ننكر ان مثل هذا البحث يتطلب مدارسة وعناء حتى يستخرج المؤلف من حادثات الماضي ووقائعه ، ماينطبق على ما أسموه بـ « الحقوق الدولية » . غير ان جهود السيد الارمنازي وعلمه ، وخصب التاريخ العربي ، ومنابع السياسة الشرعية الاسلامية ، كل هذا ، ذلل جميع تلك الصعاب . فاذا بالذي كان شكاً يصبح يقيناً ، واذا بالمرتاب يعود مؤمناً ، والمنكر يرجع مقراً ، بعد الحقائق التاريخية التي أتى بها المؤلف .

فهو يسرد الاسس التي يتعين على المسلمين ان يجروا عليها في معاملة غير المسلمين : محاربين او مسالمين ، اشخاصاً كانوا ام دولاً . في دار الاسلام وفي خارجها . ويلم بشريعة الحرب ، ومذاهب المسلمين في القتال ، وفي السياسة العسكرية ، وفي السلم والتحكيم ، والامان والمعاهدات . ثم ينوه بالعلاقات السياسية والتجارية التي أقرها الاسلام ، وفي بعث الرسل والسفراء .

هذه خلاصة بعض الابحاث القيمة التي عالجها السيد الارمنازي . ولقد انفرد دون باقي اخوانه بان نقل كتابه هذا الى العربية بلغة عالية ، وتبسط في البحث فأتى بالحسنيين ، واستحق الشكر مرتين . عارف النكدي

نشرة الجمعية الخلدونية

« بتونس عن السنة ١٩٣٠ »

اذا قيل للشامي ان في تونس جمعية علمية أهلية لها مدرسة تجهيزية تحوي في قسميها الابتدائي والثانوي نحو ٦٠٠ تلميذ يدرسون العربية لاستغرب الأمر ولما صدق هذا النبأ . ذلك ان انقطاع الصلات بين الشام وتونس جعلنا نعتقد ان هذا القطر العربي مقضي عليه علمياً وادبياً واقتصادياً إن عاجلاً وإن آجلا . وقد جاءت هذه النشرة لتدحض هذا

الوم ولنبيء بان هنالك نهضة علمية وأدبية لا بأس بها اليوم قد تأتي بأينع الثمار اذا تعاهدها المستنيرون من التونسيين بعزيمة وثبات ٠

أسست الجمعية الخلدونية سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) وغايتها نشر المعارف بين التونسيين وارسال بعثات مدرسية الى فرنسة وتأسيس دور للكتب واظهار مدنية العرب للفرنسيين ومدنية الفرنسيين للعرب بنشر جريدة عربية فرنسية ٠

وقد جعلها مقام الباي العالي تحت رعايته وانخرط في سلكها كثير من وجهاء البلاد والتحقت مدرستها منذ ذلك الحين فأخذت تسير الى الأمام سيراً مطرداً حتى قارب عدد تلامذتها اليوم ٦٠٠ تلميذ وصار لديها خزانة كتب تحوي خمسة آلاف مجلد تقريباً منها مخطوطات نادرة ٠ وبلغ معدل الذين يختلفون اليها للمطالعة الف مطالع في الشهر وهو عدد لا يستهان به في تونس ٠

واتضح لنا من برنامج الدروس ان المدرسة الخلدونيـة تعادل الصف التاسع او العاشر من مدارس التجهيز لدينا ، وان فيها علاوة على ذلك محاضرات يلقيها بعض الأساتذة في تاريخ آداب اللغة العربية والاقتصاد السياسي وحفظ الصحة والمواقف الحاسمة في تاريخ الاسلام ٠ وعدد هذه المحاضرات خمس في الاسبوع وهي مباحة لطلاب الفائدة من الأهلين ٠ والجمهور يقبل على استماعهـا حتى ان عدد المستمعين لا يقل عن ٢٠٠ — ٣٠٠ مستمع لكل محاضرة ٠

وجاء في النشرة نموذج من تلك المحاضرات يدل على فضل المحاضرين وتضلعهم بالموضوعات التي يعالجونها كمحاضرات الاستاذ ابن عاشور في القاضي الفاضل وفي محمد المويلحي والاستاذ عثمان الكعاك في ديانة ابن المقفع وفي ابي السلط أمية بن عبد العزيز ، والأستاذ احمد المهدي النيفر في الأعشى ٠

وجاء فيها ايضاً مقالة في « شهيرات الدور الماضي » للعالم الكبير حسن حسني عبدالوهاب احد اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق عن كتاب « شهيرات التونسيات » تأليف المومأ اليه وهو لم يطبع بعد ، ومقالة ممتعة عنوانهـا « مصير الأندلسيين » لمحمد الطاهر بن عاشور كبير اهل الفتيا من السادة المالكية ، وبحث أدبي علمي عن النحل للأستاذ مصطفى الكعاك المحامي ورئيس جمعية قدماء الصادقية ، وفصل في الجاذبية العالمية للأجرام

السماوية بقلم الأستاذ الهادي الكسوري مدرس علم الفلك في الخلدونية ، وكلمة في حفظ الصحة للدكتور محمود الماطري .

فحيا الله جهود اعضاء الجمعية الخلدونية ورئيسها الأستاذ عبدالرحمن الكعاك وحبذا لو طبعوا أهم المحاضرات في كتاب على أجزاء وجعلوا تلك المحاضرات تتناول العلوم المادية أحياناً وزادوا في صفوف المدرسة وعلومها حتى تعادل مدارس التجهيز في الشام ومصر واوربة . « الشهابي »

تاريخ الحركة القومية

— وتطور نظام الحكم في مصر —

« الجزء الثالث في ٦٣٥ ص من القطع المتوسط »

« تأليف عبد الرحمن بك الرافعي »

من الكتب مالاتكاد تقرأ في واحدها بضع صفحات حتى تحس بقوة عجيبة تطبق جفنيك حثيثاً وتبعث بك الى عالم الأحلام . ومنها التي هي على العكس من ذلك محارة أخاذة تفعل في النفس فعل النشوق من الأثير فيأبى الجفنان ان ينطبقا الا على آخر كلة منهـا وبودهما لو طالت صفحاتها أضعافا .

وبعدُ ان كتاب الاستاذ الرافعي هو من القبيل الثاني اي من الكتب التي تستهويك بسلاسة عبارتها وغزارة مادتها وتسلسلة أبحاثها . ولقد كنت تكلمت في الصفحة ٢٥٣ من المجلد العاشر عن الجزءين الأول والثاني وهما يتنـاولان بدء الحركة القومية المصرية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر اي منذ ما احتل نابليون مصر الى ان ارتقى محمدعلي الكبير أريكة الحكم فيها . اما الجزء الثالث فهو يبحث عن عصر ذلك الرجل الكبير الذي كفل استقلال مصر وشاد فيهـا صرح القومية الباذخ وكاد يحقق غاية العرب الخلّص ببناء مملكتهم الكبرى لو لم تخنه الدول الاوربية وتتألب عليه وبرأسها انكلترا . وهو يحوي ١٧ فصلاً كل موضوعاتها مهمة كالزعامة الشعبية في بدء حكم محمد علي والحملة الانكليزية سنة ١٨٠٧ وفشلها وانفراد محمد علي بالحكم بعد اختفاء الزعامة

الشعبية وحرب الوهابية وفتح السودان وحرب اليونان والحرب في الشام والاناضول ومعاهدة لندن والجيش والاسطول والمدارس التي فتحت في مختلف العلوم والبعثات التي أرسلت لتلقي العلوم في اوربة واعمال الارسقاء والاعمال الزراعية والصناعية ونظم الحكومة وأحكامها وحالة مصر الاجتماعية والحكم على عصر محمد علي ·

وختام الفصول فصل في ابراهيم باشا ذلك القائد الباسل الذي يعدّ من اكبر قوّاد العالم والذي كان يجاهر بانه ينوي في فتوحاته إحياء القومية العربية وإعادة استقلال العرب اليهم · وقد نقل المؤلف الفاضل جملة عنه تنطوي تحتها سياسته وسياسة ابيه العظيم وهي « انا لست تركياً فاني جئت مصر صبياً ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً» ·

وكانت فرنسة تساعد محمد علي في سياسته لكنها تخلت عنه بتأثير انكلترا التي كانت من ألدّ أعدائه · وكان حكم المصريين في بلاد الشام أعدل من حكم الأتراك وذكر المؤلف الفاضل رأي بعض مؤرخي الشام في هذا الصدد ولا سيما رأي رئيسنا الجليل صاحب خطط الشام فقد نقل عنه المؤلف بضع صفحات قارن فيها حكم الترك بحكم المصريين وأظهر حسنات الحكم المصري في الشام وبين كيف قضت الدسائس الاجنبية وخاصة الانكليزية على فكرة الدولة العربية الكبرى ·

والخلاصة ان الجزء الثالث من سفر الاستاذ الرافعي هو أثمن موجز تاريخي لاعمال محمد علي العظيمة وهو من الدروس الوطنية التي يجب على كل شاب مستنير تلاوتها بإمعان ·

« الشهابي »

١٢٦ ، ١٢٥

المجلد الحادي عشر   الجزء ٥ و٦

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

أيار — حزيران

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي المدفع مقدماً

في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل ٥٠٠ من السنة الاولى الى الرابعة كل سنة منها
» ٣٠٠ » الخامسة الى العاشرة » »
في الخارج ٦٠٠ » الاولى الى الرابعة » »
» ٣٥٠ » الخامسة الى العاشرة » »

حركات الاعراب

« في اللغة العربية »

— فائدتها ، من اين جاءت ، كيف وضعت ، آخر عهد البادية بها —

من البديهي ان مفردات اللغة مؤلفة من الألفاظ وان مادة اللفظ لا تتعدى حروف الهجاء . ولكن للحروف هيآت في اللفظ من حركات وسكون يُطلق عليها على سبيل التغليب اسم الحركات ، وهذه الحركات اما عارضة لمادة الكلمة ومبناها ، او عارضة لآخرها . وتسمى الاولى حركات المباني كما في حركات عَمْر عِمْر عُمْر عَمِر عَمَر عُمَر فهذه الكلمات الست مع اتفاقها في الحروف وترتيبها مختلفة المعنى باختلاف حركاتها اختلافاً من أصل الوضع .

وتسمى الثانية حركات الاعراب او (علامات الاعراب) لانها تعرب عن مراد المتكلم بموقع الكلمة من الجملة ، ولا تؤثر هذه الحركة بمعنى الكلمة الوضعي شيئاً ، فسعيد في قولك رأى سعيد احمد هو سعيد نفسه اذا رفعته فاعلاً او نصبته مفعولاً به ولكن حاله واقعاً منه الفعل غير حاله واقعاً عليه الفعل وانما يعرف اختلاف حاليه من اختلاف حركات الاعراب .

فائدتها

ان هذه الحركات تؤثر أثرها في المعنى التركيبي خاصة وتعطي الجملة ايجازاً بديعاً لا مثيل له في غير العربية من اللغات فيما أحسب والايجاز في اللفظ مع الوفاء بالدلالة على المراد من أعظم ميزات اللغة . انظر الى قولنا ما أحسن زيداً فانك تجد لهذه الكلمة ثلاثة معانٍ تختلف باختلاف الحركات في أواخر كلماتها مع بقاء مبانيها وتراكيبها اللفظية كما هي .

فتقول ما أحسن زيداً بنصبهما وانت تريد التعجب فيكون قائماً مقام قولك أعجب كثيراً لحسن زيد . (٢) وتقول ما أحسن زيد برفع أحسن وخفض زيد وانت تريد الاستفهام وهو قائم مقام قولك استفهم عن أحسن شيءٌ في زيد . (٣) وتقول ما احسن زيد تفتح أحسن وترفع زيداً وانت تريد الاستفهام ايضاً وهو قائم مقـام قولك استفهم عن ماهية احسان زيد .

ثم انظر الى قولنـا هذا كريم أحسن منه عالم فاذا رفعت كريماً وعالماً كان المراد بهما شخصين اثنين احدهما كريم والآخر عالم ولكن العـالم أحسن من الكريم واذا نصبتهما كانا شخصاً واحداً عالماً وكريماً لكنه في كرمه أحسن منه في علمه .

وانظر الى قولنا كم كتاب قرأت فاذا رفعت كتاباً كنت مريداً الاخبـار بكثرة ماقرأت من الكتب واذا نصبت كنت مريد الاستفهام على حقيقته .

قال ابن قتيبة في كتابه مشكلات القرآن مانصه :

« وللعرب الاعراب الذي جعله الله وشياً لكلامها وحلية لنظامها وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما اذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل ان يكون لكل واحد منهما — الا بالاعراب ولوان قائلاً قال هذا قاتلٌ اخي بالتنوين ، وقال آخر هذا قاتلُ اخي بالاضافة لدل بالتنوين على انه لم يقتله وبحذف التنوين على انه قتله .

ولو ان قارئاً قرأ : فلا يحزنك قولهم انا نعلم مايسرّون وما يعلنون . وترك طريق الابتداء بانا واعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب ان بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى على جهته وأزاله عن طريقته وجعل النبي محزوناً لقولهم ان الله يعلم مايسرون ومايعلنون وهذا كفر ممن تعمده وضرب من اللحن لايجوز الصلاة به . وقال رسول الله (ص) لايقتل قرشي صبراً بعد اليوم فمن رواه جزماً أوجب ظاهر الكلام ان لا يقتل إن ارتد ولايقتص منه ان قتل . ومن رواه رفعاً انصرف التـأويل الى الخبر عن قريش انه لا يرتد احدٌ منهـا عن الاسلام فيستحق القتل . أفما ترى الى الاعراب كيف فرق بينهما » . ثم قال : وقد تكتنف الشيءُ معانٍ فيشتق لكل معنى منها اسم من ذلك الشيء

كاشتقاقهم من البطن الخميص (مبطّن) وللعظيم البطن اذا كان خلقة (بطين) فان كان من كثرة الاكل قيل (مبطان) وللمنهوم (بَطِن) وللعليل البطن (مبطون) انتهى .

في كل هذا انما اختلف المراد باختلاف الحركات الاعرابية مع ان الجمل المذكورة لم يتغير شيء من تركيبهـا وتنسيقها غير علامات الاعراب ولكن المعنى التركيبي قد تغير معها تغيراً لا يستهان به كما سمعت من كلام ابن قتيبة .

وكذلك اذا قلت علّم زيد خالد الكتاب لا تعلم ايهما المعلم وايهما المتعلم فاذا رفعت ونصبت عرفت ان المرفوع المعلم والمنصوب المتعلم تقدم او تأخر لا فرق وبقي للتقديم والتأخير افادته الخاصة من البيان . فاذا طرحت الحركات جانباً وجعلت الدلالة على الفاعل تقدمه وعلى المفعول به تأخره على ان تجعل الفاعل واجب التقديم مطلقاً كما اذا كانا مقصورين — فاتتك النكات البيانية والمعاني التي يأتي بها تقديم المتأخر او تأخير المتقدم وهي الافادات تأتيك من ترتيب الجملة دون زيادة في اللفظ وهذا من خصائص العربية فيما أحسب وقد أسهبت القول قليلاً في فوائد الاعراب في اللغة ليُعلم ان القول بتفضيل اهمال الحركات على استعمالها لان المعنى لا يفسد باهمالها فكل أبناء العربية يفهمون من قولنا زيد مسافر بالتسكين كما يفهمون زيدٌ مسافرٌ بالتحريك — ليعلم ان هذا القول — عجيب لاسيما من علامة مدقق ذي غيرة على الفصحى كصاحب المقتطف . وقد ظهر مما تقدم من القول ان كثيراً من الجمل اذا اهمل فيها الاعراب اشتبه على السامع فهم معنى الجملة لانها تحتمل معاني لا يميزها الا الاعراب او إطالة الجملة بكلام يدل على المعاني المرادة .

من اين جاءت

من الحقائق التي لا أحسب ان فيها جدالاً او يكون فيها جدال غير معتدٍ به ان العرب الذين قلّ امتزاجهم بغيرهم من الامم كانوا أحفظ لجدّة اللغة ولقديمها من غيرهم لان الامتزاج بغير اهل اللغة من اكبر الاسباب في تطور اللغة فنشؤ اللغة العربية من أم اللغات السامية لم يكن فيه من التغير ما كان في أخواتها فهي اذاً على هذا أقرب اللغات السامية من لغة الام . وهذه الحقيقة ليست بغريبة عن استنتاج العلماء فقد ذكرها كثير من الباحثين كمسألة لاتحتمل الجدال .

ثم انه جاء في التاريخ القديم ان اللغة التي انتشرت في المملكة البابلية الاولى قبل زمن حمورابي بعشرين قرناً او اكثر (وهي ام اللغات السامية) كانت ذات حركات للاعراب وانها قضت اكثر من الفي سنة وهي ذات حياة في سجلات الحكومة ودواوينها وعلى السنة العلية من القوم قال مسبيرو (Maspero) ان اللهجة المصقولة التي كان كتبة نينوى و بابل يستعملونها في عهد هيردوتس لانشاء الكتابات الرسمية كانت منذ زمن طويل مايشبه لغة نبيلة يفهمها نخبة الناس ويجهلها العامة وكان العامة من سكان المدن والقرويون يتكلمون باللهجة الارامية التي كانت أثقل من تلك » وكلام مسبيرو ظاهر في ان لهجة العامة من سكان المدن والقرى (اهل الحاضرة) كانت الارامية ولكن لهجة سكان البوادي (اهل البادية) ما كانت ؟ ؟

ان اهل الحاضرة هم الذين امتزجوا بغيرهم من الامم فاستعجمت لغتهم بهذا الامتزاج وكانت منه اللهجة الارامية (العامية البابلية) كما امتزج بعد الاسلام اهل الحاضرة من العرب بغيرهم من الامم فاستعجمت لغتهم وكانت منه لهجتنا العامية ٠

وكذلك ضيّع الاولون حركات الاعراب باستعجام لغتهم وكانت هذه اول شيء أضاعوه منها بدليل ان اللغة الفصحى الاولى (الام) ذات الحركات الاعرابية انما فقدتهـا في سكان الحواضر والمدن والقرى الذين تطوّرت لغتهم فكانت منها الارامية (السريانية القديمة) وهي ليست بذات اعراب ، ولم يفقدها سكان البوادي فكانت لهم لغة بدو الاراميين (وهي العربية) تزدهي باعرابها الذي رأيناه ملكة راسخة فيهم مثلما ضيّع الآخرون حركات الاعراب باستعجام لغتهم وكان هذا اول شيء أضاعوه منها ، بدليل ان اول انحراف وقع في اللغة كان في خلافة عمر (رض) لما جاء الاعرابي يتعلم القرآن في المدينة فسمع اللحن في الحركات الاعرابية وانكره ولو سمعه في غيرها لما سكت عنه فكان بذلك نصيب سكان البوادي الأولين كنصيب سكان البوادي الآخرين من حفظ اللغة بحركاتها الاعرابية مااستطاعوا اليه سبيلاً وبقدر مابعدت عنهم الامم الاخرى وهكذا نقيس بين العصرين بقياس التمثيل ونعلم حال القديم الذي لم نره ولا تحققنا خبره بحال الحديث الذي عرفناه وتحققناه ونطمئن الى القول بان حركات الاعراب التي كانت في اللغة الاولى (الام) قد حفظتها لها البداوة والبعد عن الامم الاخرى حتى ظهرت في

عربيتهم الاخيرة ولقد خلت منهـا اللغات الاخرى الاخوات الا آثاراً في لغة بطرا وافة ادس لان اهلها من بقايا العمالقة[1] ثم نقول :

لكن بدء الارامبين الذين سكنوا البادية العربيـة والذين سموا عرباً لارتحالهم عن الوطن الاول غرباً[2] لم تذهب منهم هذه الحركات او اشباهها بدليل وجودها عند أعقابهم يوم اخذت اللغة عنهم وبدليل انها كانت حينئذ راسخة فيهم رسوخ الملكة في النفس تجري على السنتهم في مواقعها دون قصد ولا كلفة ولا تعمل مما يدل على طول عهدهم بها حتى أصبحت جارية مجرى الطبع .

فهذه الحركات اذاً متصلة الينا من ميراث اللغة الاولى ام لغتنا العربية حفظتها لنـا البداوة وبُعْد حامليها عن الامتزاج بغيرهم من الاعاجم .

قلنا ان هذه الحركات كانت في العرب اتصلت في الاعقاب على مدى الاحقاب حتى وصلت الينا وسواء أكانت هي كما هي او دخلها التطور جرياً على سنن الكائنات فهي لم تكن عينها فليست بعيدة عنها بل هي في واديها ربيت ونشأت وعلى غرارها طبعت وبدرها غذيت والقول بان العرب عرفوا هـذا بمعرفتهم النحو وانهم احتذوا فيه مثالـ اليونانيين فلا أراني كثير الحاجة لدفعه لان الالمام باحوال العرب قبل الاسلام فضلاً عن الاضطلاع بها يكفينا امره . وانى لسكان البادية بمعرفة قواعد النحو كعلم من العلوم وقد سئل اعرابي اتجر فلسطين؟ فقال انيإذن لقوي فقيل له اتهمز اسرائيل فقال اني اذاً لرجل سوء . ففهم هذا البـدوي وهو ممن يوثق بعربيته ويتخذ الائمة كلامه حجة في النحو واللغة — فهم الجر والهمز بمعناهما اللغوي ولم يكن للاصطلاحي الفل مساس بفهمه وعلمه .

وان الاعرابي القادم من البادية الى المدينة ليتعلم القرآن وهو بعد لم يبل بفساد اللسان — عرف تغير المعنى بتغير حركة (ورسوله) من الرفع الى الجر لامن حيث انها رفع وخفض بل من ان في افادتها مرفوعة معنى مغايراً لما تفيده مخفوضة .

* * *

(١) العرب قبل الاسلام . (٢) العلامة فاندبك .

كيف وضعت

ان الذي عليه المحققون ان وضع اللغات لم يكن بالتنصيص على لفظ خاص لمعنى خاص وانما كان الوضع بالتوسع في الاستعمال على قدر الحاجة وامتدادها وتنوعها بامتداد الزمن وتطاول المدة وعلى حسب ما هو معروف من سنن التطور الجاري على الالسنة و يبعد في مثل هذه الحال ان توضع الحركات الاعرابية بمثل هذا النحو من الوضع وان تكون على هذه الطريقة لان الحركات الاعرابية على ما هو الظاهر ليست مما تدعو اليه الحاجة الماسة بان تكون ركناً من أركان التفاهم لا يتم بدونها حتى يقال انها جاءت على قدر الحاجة اليها ثم نمت وامتدت كما يصح ان يقال هذا في الكلمات ولهذا تجدها لا تطرد على لسان من لم يتعودها دون مران او ممارسة فكيف كانت اذاً هذه الحركات الاعرابية (او علامات الاعراب) هل هي بقايا كلمات كانت تدل ماندل عليه علامات الاعراب ثم اختزلت بتطاول المدة وصقلت بالاستعمال فصارت كما نراها . يقول بذلك كثير من العلماء . وجاء في المقتطف[1] ما نصه « يستدل من علم اللغات ان اصل هذه الحركات كلمات فاختصرت على تمادي الزمن وبقيت هذه الحركات دلالة عليها » ولكن هل كانت هذه الكلمات التي هي اصل هذه الحركات خاصة بام اللغة العربية المعربة وفي حيزها اختصرت هذا الاختصار او انها كانت قبلها في أمها الاولى ثم جاءت الى أم اللغة العربية المعربة بالارث ؟ وعلى تقدير انها كانت في اصل الفرع الاسيوي الاول الذي منه كانت اللغات السامية والآرية والمغولية وأخواتها فهل اصابها الاختصار كله او بعضه قبل انفصال السامية (امالعربية) عنه او انه كان من صيغ اللغة السامية . ربما يعرف ذلك و يكشف هذه الامور ويحل هذا الاشكال الباحثون في مقابلة اللغات وتحليلها اذا تسنى لهم وكان في اخوات العربية وخالاتها ماينيرلهم الطريق بان يكون لهذه الكلمات (الاعرابية) مايدل عليها او يشير اليها في هذه اللغات .

اما اذا كان هذا مجرد حدس وتخمين فللحدس والتخمين مجال ايضاً في غير هذا

---

(١) مجلد ١٩٢٩ .

الطريق وحينئذ يجوز للذاهب ان يذهب الى ان هذه الحركات الاعرابية ربما تكون وضعت بوضع خاص وذلك بان يقال ان ابناء اللغة الاولى كانوا في تمدنهم وعلومهم في منزلة صالحة تدل عليها آثارهم . وقد دلت الآثار انه كان للبابليين مدارس منظمة يعلمون فيها الحكمة والطب والفلك والحساب ، وظهر في الآثار من آثار هذه المدارس جداول الضرب الحسابية التي كانت تدرس فيها ، واخبرنا التاريخ عن مزيد عنايتهم بلغتهم الفصحى التي حفظوها واتخذوها اللغة الرسمية وكانت مصقولة مهذبة كما يدل عليه كلام مسبيرو المتقدم وانها كانت لغة النخبة والطبقة العليا .

فلا يبعد والحال هذه عن الذين صقلوا لغتهم وهذبوها ان يكونوا في جملة صقلها وتهذيبها وتحريهم البلاغة فيها تعمدوا الاختصار في الكلام مع الوفاء بالدلالة على المراد مما يسمونه اليوم بالايجاز وهو من أعلى ضروب البلاغة ومن جملة هذا الاختصار وضع العلامات الاعرابية وهي حركات في الغالب لا تطول بها الجملة ولا تضخم ولا يتغير بها وضع الكلمة فدلوا بها على مرادهم من الكلمة في جملتها فاعلة او مفعولة او غيرذلك . مقدمة او مؤخرة لتدل في التقديم والتأخير على معنى مراد ، وان يكون ذلك جرى في مجامع لهم خاصة او عامة ، او من جماعات او أفراد لهم محل المقتدى به في الامة فأخذه عنهم علية القوم وتبعهم في ذلك المقتدون المتشبهون بهم وجرى مجرى الاستحباب اولاً ثم أصبح عادة وتقليداً ثم ملكة راسخة ويكون ذلك منهم حيث قل انتشار الفساد في اللغة . وسرى ذلك في سكان البادية فحفظوه وجروا عليه ولنفرض لذلك مثلاً فنقول استعمل أبناء اللغة ما الاستفهامية بدلاً من اي شيء فاشتبهت بما التعجبية ووقعت أفعل بعدها كاحسن في قولك ما أحسن زيداً . واشتبه على السامع اي المعنيين يريد المتكلم آ الاستفهام ام التعجب ونصبُ القرينة اللفظية كزيادة اللفظ تطويل والمفروض اننا فررنا منه فحركوا حينئذ ماوقع بعد ما التعجبية بالنصب ومابعدالاستفهامية بالرفع وليس فيذلك مشقة ولاتطويل . وكذلك كان الفعل يكون من فاعل لا يكون مفعولاً به وعلى مفعول به لا يكون فاعلاً ، وفي مثل هذا لا يشتبه الفاعل بالمفعول به سواء أتقدم ام تأخر مثل كسر الزجاج الحجر ونظم الشاعر قصيدة . وتبقى اعتبارات التقديم والتأخير البيانية صالحة في مثله ، ولكنهم وجدوا الفعل وكثيراً ما يكون يقع من فاعل يصح ان يكون مفعولاً به ، وعلى مفعول به

يجوز ان يكون فاعلاً وقد تقضي الاعتبارات البيانية التي هي حلية اللغة تقديم المفعول به على الفاعل للاهتمام به او لغير ذلك من الأسباب البيانية فيحتاج والحال هذه الى ما يميز الفاعل عن المفعول فجاؤا بالحركات الاعرابية فكان المرفوع في مثل هذا تقدم او تأخر فاعلاً والمنصوب مفعولاً به . ولعل مثل هذا احتاج الى مدة متطاولة وبعد اختلافات كثيرة بين الأصقاع والقبائل في الاستعمال حتى استقر وثبت منه الاحسن والأصح في الاستعمال فعمّ وشاع وذهب ما عداه .

وان القول بالكلمات المختصرة الى الحركات يعترضه صعوبات كبيرة في تعليل هذا الاختصار وتطبيقه على حركات الاعراب لايمكن تذليلها الا بتكلف كثير ، واذا رأينا من السهل مثلاً ان نقول ان علامة الرفع (الضمة) اختصرت من الكلمة التي تدل عليها الى الواو الذي هو علامة للرفع ايضاً ثم اختزل الواو الى الضمة ، فلسنا نرى من السهل تطبيق ذلك على غير هاتين من علامات الرفع كالالف وثبوت النون وكذلك الحال في النصب وعلاماته والخفض وعلاماته والجزم وعلاماته .

كما يعترض الحدس المفروض للوضع الخاص ان هذه العلامات نراها اول ما يذهب في اللغة عند امتزاج اهلها بغيرهم وان صيرورتها الى الملكة من الوضع الخاص في أمة لم تكن بعيدة عن الاختلاط في غيرها بقدر ما يفرض لها من البعد — امر لا يقبله العقل بسهولة وبدون مشقة .

وكيفما كان الحال فقد اتصل الينا ام ان اللغة العربية أورثتها نظام الاعراب بالعلامات فنقف عند هذا القدر المحقق من البحث ونترك ماعداه للمحققين في اللغات حتى يظهر البحث ما تطمئن اليه النفس فيه . وتحقق لدينا ان العرب (بدوالاراميين) اتخذوا هذا الميراث وجرى فيهم مجرى الملكة وهم في عزلتهم فلم يتسرب اليهم الاهمال وحفظته لهم البادية فلم يؤثر فيه عندهم ما اثر فيه عند اخوانهم .

كما حفظت البادية البعيدة عن الامصار هذه اللغة الفصحى الى زمن ظهور الاسلام وفي صدره برونقها وبهجتها وصونها من اللحن الطارئ على ألسنة العرب المجاورين للاعاجم كان ذلك حتى أصبحت هذه الحركات ملكة طبيعية ثابتة في ألسنتهم . وليس معنى قولنا هذا انهم لايقدرون على اللحن كما كنا نتلقاه من مشايخنا زمن الدراسة بل معناه ان السنتهم

تجري بلا تعمل ولا كلفة على هذا النظام شأن من يمرن عليه في هذه الايام فينطلق به لسانه دون تعمل ايضاً ، ولئن كان لا يسلم متمرن اليوم من الخطإ الذي يكثر و يقل بحسب مرانه وتعود لسانه فلأن مرانه ناقص من حيث انه يتمرن في بيئة ملؤها الخطإ والغلط وعلى العكس متمرن ذلك العصر الذي كان في بيئة كلها صواب وصحيح .

ان سكان هذه الجزيرة اتخذوا حفظ هذه اللغة على هذا النحو تقليداً لم في التجاوز عنه العيب والعار ، ولا ترسخ عادة في قوم ما لم تتخذ تقليداً مستحباً يعاب تاركه على تركه فتمرنوا عليها مراناً تاماً يشب عليه الصغير و يشيب عليه الكبير حتى أصبح عاماً شائعاً بين صغيرهم و كبيرهم عالمهم وجاهلهم ولم يحجم النقلة من الأئمة الآخذون اللغة عن الاعراب ان يعتدوا بلغة الصبيان والمجانين لانهم آمنون على ملكاتهم من الخطإ فكان بعضهم يحتج لمذهبه بكلام امثال هؤلاء فلا ينكره عليه منهم منكر .

قال ابن دريد في اماليه عن الاصمعي قال سمعت صبية بحمى ضرية يتراجزون فوقفت وصدوني عن حاجتي واقبلت اكتب ما أسمع واذا شيخ أقبل فقـال أتكتب عن هؤلاء الاقزام الادناع ؟ .

لم يحجم الاصمعي وهو الامام اللغوي عن ان يكتب عن هؤلاء الاقزام الادناع لانه يرى في كلامهم حجة . وقول الشيخ أتكتب الخ مستنكراً . ما هو الا استصغار لامرهم واحتقار لشأنهم من حيث انهم أقزام أدناع (من صغار النـاس وأراذلهم) لا من حيث انه مخطيء او مصيب بالاخذ عنهم فهو نظير ان تختار لامرك حاذقاً فيـه ولكنه صغير المنزلة دنيء الحسب مستقذر العيش مع انك لا تعدم حاذقاً مثله رفيع المنزلة كريم الحسب ظاهر المروءة فيصح حينئذ لمن يغار عليك ان يلومك على هذا الاختيار وليس معنى لومه الطعن في حذق من اخترته بل الطعن فيه من حيث نفسيته .

* * *

آخر عهد البادية بها

ان هذه الملكة الراسخة في نفوس هؤلاء الاعراب لحفظ اللغة باعرابها اهملت في القبائل المجـاورة للأعاجم الكثيرة الاختلاط بهم ولم يسمع عن احد من العرب الجاهليين

ان الائمة تحرزوا عن الاحتجاج بلغته قبل عدي بن زيد العبادي الذي نشأ بين أيدي ملوك الفرس .

فسدت لغة اهل الاختلاط والامتزاج بالام الاخرى وكانت قوة هذا الفساد وضعفه تابعين لقوة الاختلاط وضعفه ثم سرى الفساد من الحاضرة الى البادية بقوة الامتزاج والاختلاط سرياناً تابعاً لهذه السنّة وكانت السلامة تتقهقر امام هذه القوة وبقي هذا الغزو مستمراً الى أخريات القرن الثالث للهجرة وما بعده بقليل حتى ذهبت هذه الملكة او كادت وعم اللحن أقطار العربية باديها وحاضرها الا قليلاً لا يعتد به .

وصينت اللغة الفصحى المعربة في دفاتر العلماء والادباء وفي المجامع الادبية وعلى السنة الشعراء والخطباء والكتاب .

احمد رضا
عضو المجمع العلمي العربي



ثقافة الجاحظ(1)

— «» —

مرّ بنا ان الجاحظ طلب العلم في ابتداء امره في كتّاب والظاهر ان الكتاتيب كانت شائعة في عصر الجاحظ فكان يتردد اليها اكابر علماء اللغة أمثال النضر بن شميل وابي محمد اليزيدي وابي زيد الأنصاري احد أساتيذ الجاحظ حتى قال النضر بن شميل : كنا ثلاثة في كتّاب ، انا وابو زيد الانصاري وابو محمد اليزيدي .

فاذا كانت كتاتيبهم في تلك الايام الطيبة على نحو كتاتيبنا في هذه الديار لا تطلع عليها شمس ولا يهبّ في نواحيها نسيم فمن ظلمة الكتّاب الذي ترعرع فيه الجاحظ انبلج ضياء أضاء مدارك العرب احد عشر قرناً ولا ندري الى اي قرن يمتد .

ولكن من الذي يعلمنا كيف انصرف الجاحظ من بعد خروجه من الكتّاب الى التوسع في مذاهب الأدب والدين والعلم والفلسفة ومن الذي رغّبه في هذا التوسع فاننا نجهل هذا كله وانما نعلم ان ابا عثمان قرأ على طائفة من العلماء لم تغب عنا اسماؤهم واذا علمنا هذا هان علينا ان نعرف كيف نما عقل الجاحظ فلسنا نرتاب بان لأساتيذه اثراً بليغاً في نمو عقله وامتداد ثقافته .

من هم أساتيذ الجاحظ ؟

سمع الجاحظ من ابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري واخذ النحو عن الاخفش

---

(1) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

أبي الحسن وكان صديقه واخذ الكلام عن النظّام وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد [١] .

لقد كشف لنا هذا النبأ الغطاء عن تثقيف الجاحظ فاذا بحثنا عن خصائص الرجال الذين روّضوا عقل أبي عثمان ونقبنا عن المذاهب التي عرفوا بها استنبطنا من بحثنا ان للجاحظ أربع ثقافات : التفقه في اللغة والأدب والدين والعلم .

اما اللغة وربما كانت هذه الناحية أعجب نواحي الجاحظ فقد اخذها عن اهلها الذين لم يفسد بيانهم شيء من العجمة فاذا ملك الجاحظ من زمام الفصاحة ما لم يملك غيره من الكتّاب فان لمخالطته عرب المربد سراً في هذه الفصاحة وسننظر في هذا كله في كلامنا على لغته .

واما الأدب فقد خرّجه فيه رجال كانوا مضارب الامثال فيه واذا قلنا الادب أردنا بهذه اللفظة ما كانوا يريدونه بها في عصر الجاحظ فالأدب كان يتضمن أخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شابه ذلك .

وكذلك الدين والعلم والفلسفة فقد استضاء في هذا كله بضياء رجل كان مضرب المثل في مذهبه .

فلننظر في كل من اساتيذ الجاحظ نظرة عجيلة حتى نلمّ الماماً بعقول الذين ثقّفوا رجلاً مثل الجاحظ فان إلمامة من هذا الشكل تمهد لنا مجازاً الى الاطلاع على أسرار عبقرية الجاحظ لاننا اذا علمنا ان اباعثمان قرأ على أشياء النظام وابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري والأخفش ابي الحسن واخذ اللغة عن عرب المربد سهل علينا بعد هذا كله أن ندرك سرّ هذه الآفاق التي تبسّط فيها الجاحظ واذا أضفنا الى معرفتنا هذه مانعرفه من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها في حياته ومن ولعه بالكتب على وجه عام لم تشكل علينا نشأة هذه العبقرية الفتانة .

من هو ابوعبيدة ومن هو الاصمعي ومن هو أبوزيد الانصاري ومن هو الأخفش ابوالحسن ومن هو النظّام وما هو رأي الجاحظ في اساتيذه ؟

---

(١) معجم الادباء (الجزء السادس ص٥٦) مطبعة هندية بمصر .

فلنبحث قبل كل شيء عن جماعة العلماء الذين تولوا تثقيف الجاحظ من ناحية الأدب وأريد بهذه الجماعة أباعبيدة والاصمعي وأبازيد الانصاري والأخفش اباالحسن ولنذكر على سبيل الايجاز آراء اهل عصرهم فيهم(١) .

اما ابوعبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري فهو الذي قال فيه الجاحظ نفسه : لم يكن في الارض خارجي ولا اجماعي أعلم بجميع العلوم منه .

وقد كان ابونواس يتعلم منه و يقول فيه : ذاك أديم طوى على علم .

أقدمه هرون الرشيد من البصرة الى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة وقرأ عليه اشياء من كتبه .

وقد كان الفضل بن الربيع يقول : هذا علاّمة اهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه .

الا انه كان سيئ العبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة .

وقد كان جبّاهاً لم يكن بالبصرة احد الا وهو يداجيه و يتقيه على عرضه .

خرج مرة الى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي فلما قدم عليه قال موسى لغلمانه : احترزوا من أبي عبيدة فان كلامه كله دق ثم حضر الطعام فصبّ بعض الغلمان على ذيله مرقة فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق وانا اعطيك عوضه عشرة ثياب فقال ابوعبيدة : لا عليك ، فان مرقك لا يؤذي ، اي ما فيه دهن ففطن لها موسى وسكت .

وكان الأصمعي اذا أراد الدخول الى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك يعني أبا عبيدة خوفاً من لسانه .

ولما مات ابوعبيدة لم يحضر جنازته احد ، لانه لم يكن يسلم من لسانه احد لا شريف ولا غيره وكان وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل الى مذهب الخوارج وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام .

كانت ولادته سنة عشر ومائة في الليلة التي توفي بها الحسن البصري .

وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة وقيل سنة احدى عشرة وقيل سنة عشر وقيل سنة ثلاث عشرة ومائتين .

(١) رجعت في الكلام عليهم الى الانباري صاحب الطبقات والى ابن خلكان .

وكان سبب وفاته ان محمد بن القاسم بن سهل النوشجاني أطعمه موزاً فمات منه ثم اتاه ابوالعتاهية فقدّم اليه موزاً فقال له ابوالعتاهية : ماهذا يا ابا جعفر قتلت اباعبيدة بالموز وتريد ان تقتلني به ، لقد استحليت قتل العلماء ٠

وتصانيفه تقارب مائتي مصنف منها كتب في الحمام والحيّات والعقارب والخيل والابل والزرع اي في الموضوعات التي عالجها الجاحظ ذاته ٠

* * *

واما الأصمعي فهو صاحب لغة ونحو وامام في الاخبار والنوادر والملح والغرائب وهو من اهل البصرة قدم بغداد في ايام هرون الرشيد ٠

قيل لأبي نواس : قد أحضر ابو عبيدة والاصمعي الى الرشيد فقال : اما ابوعبيدة فانهم ان امكنوه قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين واما الاصمعي فبلبل يطربهم بنغماته ٠

كان حسن الانشاد والزخرفة لرديء الاخبار والاشعار حتى يحسن عنده القبيح ٠

وقال عمر بن شبة : سمعت الاصمعي يقول : أحفظ ستة عشر الف ارجوزة ٠

وقال اسحق الموصلي : لم ار الاصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه ٠

وكان الشافعي يقول : ما عبّر احد عن العرب باحسن من عبارة الاصمعي ٠

وقد حرص المأمون على الاصمعي وهو بالبصرة ان يصير اليه فلم يفعل واحتج بضعفه وكبره فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيّرها اليه ليجيب عنها ٠

كانت ولادته سنة اثنتين وقيل ثلاث وعشرين ومائة وتوفي في صفر سنة ست عشرة وقيل اربع عشرة وقيل سبع عشرة ومائتين بالبصرة وقيل بمرو ٠

* * *

واما ابو زيد الانصاري فهو من أئمة الادب وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب ٠ كان ثقة في روايته وكان سيبويه اذا قال : سمعت الثقة أراد به ابا زيد الانصاري ٠

حدّث ابوعثمان المازني قال : رأيت الاصمعي وقد جاء الى حلقة ابي زيد المذكور فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال : انت رئيسنا وسيدنا من خمسين سنة ٠

وكان الثوري يقول : قال لي ابن مناذر أصف لك اصحابك : اما الاصمعي فأحفظ الناس واما عبيدة فأجمعهم واما ابو زيد الانصاري فأوثقهم ٠

و يروى عن ابي عبيدة والاصمعي انهما سئلا عن ابي زيد الانصاري فقالا : ما شئت من عفاف وتقوى واسلام .

كانت وفاته بالبصرة في سنة خمس عشرة وقيل اربع عشرة وقيل ست عشرة ومائتين وعمّر عمراً طويلاً حتى قارب المائة وقيل عاش ثلاثاً وتسعين سنة وقيل خمساً وتسعين وقيل ستاً وتسعين .

* * *

واما الأخفش ابو الحسن فهو من اكابر أئمة النحو في البصرة .

أخذ النحو عن سيبويه وكان اكبر منه وكان يقول : ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً الا وعرضه عليّ وكان يرى أنه أعلم به مني وانا اليوم اعلم به منه .

حكى ابوالعباس ثعلب عن آل سعيد بن سالم قالوا : دخل الفراء على سعيد المذكور فقال لنا سعيد : قد جاءكم سيد اهل اللغة وسيد اهل العربية فقال الفراء : اما ما دام الأخفش يعيش فلا .

وكان الأخفش أجلع والأجلع الذي لانتضم شفتاه على أسنانه والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين وقيل سنة احدى وعشرين ومائتين .

هذه جماعة العلماء الذين اخذ الجاحظ عنهم النحو واللغة والنوادر والغريب والاخبار والملح ولا ندري ماذا اخذ عنهم ايضاً .

وللجاحظ رأي في أساتيذه فاذا اتسع له مجال النقد نقدم ولم يتهيب والظاهر انه كان يستعصي عليه في بعض الاحايين فهم كلام أستاذه في النحو الاخفش أبي الحسن حتى قال له يوماً (١) .

« انت اعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم اكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : انا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني اليه

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٥) .

فأت حاجاتهم الي فيها وانما كانت غايتي المنالة فانا اضم بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة مافهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا وانما قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت ولكن ما بال ابراهيم النظّام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم اكثرها » .

من هذا نتبين لنا ناحية من نواحي عقول اساتيذ الجاحظ فلئن كان الاخفش من اكابر النحويين فلقد كان صاحب حيلة وفطنة يعرف كيف يتصرف في جرّ مرغوب . وكما ان ابا عثمان نقد الاخفش في غمغمته في النحو فقد نقد الاصمعي وابا عبيدة والاخفش في مقدار نظرهم في الشعر فقد قال (١) :

« طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لايتقن الا إعرابه فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لاينقل الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والأنساب فلم اظفر بما أردت الا عند أدباء الكتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات ... حتى قال الصاحب على اثر هذه الحكاية : فلله ابو عثمان فلقد غاص على سر الشعر واستخرج أرقّ من السحر » .

غير أن هذا النقد قد لا يخلو من شيء من الانحراف عن الصواب فقد قال الجاحظ في الاصمعي : طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه ولكن الذي وصل الينا من امر الاصمعي ان له آراء في الشعر لا تدل على انه لا يحسن الا غريبه حتى كان الرشيد يقول له : يا أصمعي مانطاق في الشعر وقد كنت ذكرت لكم في محاضرتي الاولى رأيه في بشار ومروان بن ابي حفصة فان الذي يقول في بشار : سلك طريقاً لم يُسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ومروان لم يجاوز مذهب الاوائل، ان الذي يقول نظير هذا القول قد يحسن من الشعر على مااعتقد غير غريبه .

مالنا ولهذا فاننا نتكلم على نقد الجاحظ لاساتيذه ولسنا نتكلم على وجه الصواب او الخطأ في هذا النقد .

(١) العمدة لابن رشيق (الجزء الثاني ص ٨٤) .

هذا ماانتاهى الينا من تخريج الجاحظ في الادب والى جنب هؤلاء العلماء عالم في طبقة مختلفة عن طبقاتهم قد اثر في الجاحظ من ناحية غير الناحية التي اثروا فيها فلئن كان لابي عبيدة والاصمعي وابي زيد الانصاري والاخفش ابي الحسن اثر بليغ في تثقيف عقل الجاحظ من جهة الادب فقد كان للنظّام اثر ابلغ في تثقيف هذا العقل من جهة الدين والعلم ٠

والتلميذ محمول على تقليد أستاذه وربما قلده في حركاته وسكناته وفي مشيته ٠

يقول الجاحظ في النظّام [١] :

« الاوائل يقولون : في كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحاق النظام » ٠

وقال فيه في مقام آخر [٢] :

« ماراأيت احداً أعلم بالكلام والفقه من النظام » ٠

وقال ايضاً في كلام له على تأثير النظّام في المعتزلة [٣] :

« أنهج لهم سبلاً ولفق لهم اموراً واختصر لهم ابواباً ظهرت فيهـا المنفعة وشملتهم بها النعمة » ٠

صور لنا الجاحظ أستاذه ابا اسحق النظّام في صور شتى فمرة كان يعرض علينا طبيعة نظره وتمييزه فقد قال [٤] :

« وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب ولم أزعم انه قليل الزيغ والزلل على ان ذلك قد كاد يكون منه وان كان قليلاً بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء وانت لست تريد حياء البتة وذلك انهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس وانما كان عيبه الذي لايفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التماس تصحيح الاصل الذي

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص٢٩) ٠ (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص٣٠) ٠

(٣) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) ٠

(٤) الحيوان (الجزء الثاني ص٨٣) ٠

كان قاس عليه أمره على الخلاص ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء امره كان ظناً فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته ».

ومرة كان يعرض علينا مبلغ ثقة اصحابه به فقد قال [1] :

« وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع او بيان » .

وحيناً كان يصف لنا مقدار حمله السر فقد قال [2] :

« وكان ابو اسحق ابراهيم بن سيّار النظّام أضيق الناس صدراً بحمل سره ، وكان شر مايكون اذا يؤكد عليه صاحب السر ، وكان اذا لم يؤكد عليه ربما نسي القصة فيسلم صاحب السر . وقال له مرة قاسم التمّار : سبحان الله ما في الارض أعجب منك أودعتك سراً فلم تصبر عن افشائه يوماً واحداً والله لأشكونّك للناس فقال : ياهؤلاء سلوه نممت عليه مرة واحدة او مرتين اوثلاثاً اواربعاً فلمن الذنب فلم يرض بان يشاركه في الذنب حتى صيّر الذنب كله لصاحب السر » .

وحيناً كان يصف لنا اخلاقه فقد قال [3] :

« وكان انفاً شديد الشكيمة اباءً للضيمة » .

هذا بعض ما اتصل بنا من آراء الجاحظ في أستاذه النظّام واني ارى ان اذكر لكم من اليوم نماذج من مذاهب النظّام في الدين والفلسفة والعلم وانماطاً من تهكمه وخصائص عقله حتى تعرفوا من هو الرجل الذي اثر في الجاحظ من نواحٍ كثيرة .

ابراهيم بن سيّار بن هانئ النظّام رئيس من رؤساء المعتزلة وقد انفرد عن اصحابه بمسائل تبعه فيها جماعة سموا بالنظّامية ، فاعتزاله يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل فلا محل للافاضة في ذكرها في مثل هذا المقام ولكنني لا أرى بأساً ببيان بعض آرائه في الدين ، من هذه الآراء ان استواء الطاعات يؤدي الى

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص١٠٦) . (٢) الحيوان (الجزء الخامس ص ٦١) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص١٣٦) .

استواء اهلها في الثواب وكذلك الحال في المعاصي قال الجاحظ [١] :

« وزعم ابواسحق ان الطاعات اذا استوت استوى اهلها في الثواب وان المعاصي اذا استوت استوى اهلها في العقاب واذا لم يكن منهم طاعة ولامعصية استووا في التفضيل وزعم ان أجناس الحيوان يحس ويألم في التفضيل سواء » .

فكأن النظّام يريد بهذا القول ان الله عزّ وجلّ ينظر الى الناس اذا استوت طاعاتهم او معاصيهم نظرة واحدة فلا يقدم صالحاً على صالح ولا يؤخر طالحاً عن طالح وكذلك نظره الى كل حيوان ذي شعور فلا يفضل ديكاً على كلب ، مثلاً وان رأياً مثل هذا الرأي يدلنا على طبيعة المباحث الدينية التي كانوا يبحثونها في عصر الجاحظ .

وقريب من هذا الرأي قوله في دخول الأطفال الجنة وفي الفرق بين الاطفال وبين البهائم فاليكم هذا القول على نحو ما اشار اليه الجاحظ وهو لايخلو من يسر ومسامحة [٢] .

« وزعم ان اطفال المشركين والمسلمين كلهم في الجنة وزعم ان ليس بين الاطفال ولا بين البهائم فرق وكان يقول : ان هذه السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ولكن الله عزّ وجلّ ينقل تلك الارواح خالصة من تلك الآفات فيركّبها في اي الصور الحسان أحبّ » .

ولما قالوا بقتل الكلب وأشباهه ردّ عليهم بما يلي ، قال الجاحظ [٣] :

لما قال معبد في قتل الكلب وتلا قول الله عزّ وجلّ : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص . قال ابواسحق : وان كنت انما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلة فقد قال على نسق هذا الكلام : ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، فالذي قال في الابل والبقر والغنم أعظم فأسقط من اقدارها

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٢) . (٢) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٢) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص١٧٥) .

بقدر معنى الكلام وادنى ذلك ان تشرك بين الجميع في الذم فانك متى انصفت في هذا الوجه دعاك ذلك الى ان تنصفها في تتبع مالها من الاشعار والامثال والاخبار والآيات كما تتبعت ما عليها » .

ولا ارى لي مندوحة عن التنبيه على رأيه في بعض المفسرين لمشاركة الجاحظ له في هذا الرأي على نحو ما يتبين لنا هذا في كلامنا على دين الجاحظ ، كان ابو اسحق يقول [1] :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا انفسهم للعامة واجابوا في كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير اساس وكلما كان المفسر اغرب عندهم كان أحب اليهم وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وابو بكر الأصم في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسير واسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ : وان المساجد لله ، ان الله عزّ وجلّ لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل انما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة وقالوا في قوله تعالى : أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت انه ليس الجمال والنوق وانما يعني السحاب واذا سئلوا عن قوله : وطلح منضود قالوا الطلح هو الموز ، وجعلوا الدليل على ان شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الامم وان الناس غيروه ، قوله تعالى : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، وقالوا في قوله تعالى : ربّ لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قالوا يعني انه حشره بلا حجة ، وقالوا في قوله تعالى : ويل للمطففين الويل وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ومعنى الويل في كلام العرب معروف وكيف كان في الجاهلية قبل الاسلام وهو من أشهر كلامهم ، وسئلوا عن قوله تعالى : قل اعوذ برب الفلق ، قالوا : الفلق وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفونه ، وقال آخرون : الفلق المقطرة بلغة اليمن ، وقال آخرون في قوله تعالى : عيناً فيها تسمى سلسبيلا قالوا : أخطأ من وصل بعض هذه الكلمة ببعض ، قالوا : وانما هي سل سبيلاً اليها يا محمد ، فان كان كما قالوا فأين معنى تسمى وعلى اي شيء وقع قوله : تسمى ، فتسمى ماذا وماذلك الشيء ... » .

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ١٦٨) .

هذا من ناحية بعض معتقدات النظّام في الدين اما من ناحية الفلسفة فاليكم رأيه في مذهب الشكاك فقد قال (١) :

« نازعت الملحدين والشكاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من اصحاب الجحود » .

وقال في موطن آخر (٢) :

« الشاك اقرب اليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل احد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

فاذا عرفنا طائفة من آرائه في الدين والفلسفة فلا بأس بان نعرف شيئاً من ناحيته العقلية فقد كان مطبوعاً على البحث عن اصل كل شيء وعن علته دون ان يقتصر على الانقياد والتقليد وهذا من خصائص الجاحظ نفسه ، فقد قال (٣) :

« بلغني وانا حدث ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اجتثاث فم القربة والشرب منه ، قال : فكنت أقول ان لهذا الحديث لشأناً وما في الشرب من فم القربة حتى يجيء فيها هذا النهي ، حتى قيل ان رجلاً شرب من فم قربة فوكعته حية فمات وان الحيات تدخل في افواه القرب علمت ان كل شيء لا اعرف تأويله من الحديث ان له مذهباً وان جهلته » .

من هذا يتبين لنا ان النظّام لا يؤمن بالامور قبل ان يعمل عقله في اصل هذه الامور وهذه صفة من صفات الجاحظ تظهر لنا في الآتي .

واليكم مايدل على حسن تصرفه في الاختبار والامتحان فقد قال (٤) :

« اذا أردت ان تعرف مقدار الرجل العالم وفي اي طبقة هو واردت ان تدخله الكير وتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصحة من الفساد فكن عالماً في صورة متعلم ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه » .

---

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) . (٢) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .

(٣) الحيوان (الجزء الرابع ص ٨٨) .

(٤) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .

على ان النظّام لم يكتف بطلب الفلسفة والكلام وانما عكف على طلب العلم ولا سيما علم الطبيعة وكان الجاحظ ينقل عنه ، ولا بأس بان أشير الى نموذج من آرائه في هذا العلم فأشير الى رأيه في انتشار الضياء والحرارة دون ان اتعرض لصحة هذا الرأي او لفساده وانما اكتفي باثباته في هذا المقام حتى نعرف كيف كانت مباحثهم عن الطبيعة في عصرهم اذ ان الضياء والحرارة معروف امرهما في عصرنا هذا فلا ارى حاجة الى الخوض في مثل هذا المعنى ، قال ابو اسحق [1] :

« النار اسم للحرق والضياء فاذا قالوا : احرقت او سخّنت فانما الاحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين وهو الحر دون الضياء وزعم ان الحر جوهر صعاد وانما اختلفا ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما لانهما متى صارا من العالم العلوي الى مكان صار احدهما فوق صاحبه وكان يجزم القول و يبرم الحكم فان الضياء هو الذي يعلو اذا انفرد ولا يعلي ، قال : ونحن انما صرنا اذا اطفأنا نار الأتون وجدنا ارضه وهواه وحيطانه حارّة ولم نجدها مضيئة لان في الارض وفي المادي الذي قد لابس الارض حراً كثيراً وتداخلاً متشابكاً وليس فيها ضياء وقد كان حر النار هيّج تلك الحرارة فأظهرها ولم يكن هناك من ضياء ملابس ليهيجها الضياء و يظهرها كما اتصل الحر بالحر فأزاله من موضعه وابرزه من مكانه فلذلك وجدنا ارض الأتون وحيطانها وهواها حارة ولم نجدها مضيئة » .

ولقد كان النظّام مع هذا العلم ومع هذه الفلسفة يميل الى التنكيت في بعض الأحوال ، قال الجاحظ [2] :

« وانشد ابراهيم بن هانئ وعبدالرحمن بن منصور :

جنونك مجنون ولست بواحد طبيباً يداوي من جنون جنون

وكان ابراهيم لا يقيم شعراً ولا ادري كيف أقام هذا البيت وكان يدعي بحضرة ابي اسحق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون وانه يقول الشعر فقال ابو اسحق نحن لم

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٢) .

(٢) الحيوان (الجزء الثالث ص ٣٤) .

نخونك في هذه الامور التي ان تدعيها عندنا ، كيف صرت تدعي قول الشعر وانت اذا رويته لغيرك كسرته ، قال : هكذا اني طبعت انا قيمه اذا قلت واكسره اذا انشدت ، قال ابواسحق : ما بعد هذا الكلام كلام ! » .

فقوله : ما بعد هذا الكلام كلام لايخلو من تنكيت باطن .

* * *

بقي ان نعرف بعض ماوقع الينا من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها الجاحظ في حياته حتى نعلم بعناصر ثقافته بحذافيرها .

سمع الجاحظ من الفلاسفة وقرأ كتب الاطباء والمتكلمين فضلاً عن كتب الأدب التي تبحث عن اللغة والنحو والنوادر والاخبار والاشعار والغرائب وما شابهها وقرأ كتباً غيرها نقل عنها منها : كتاب الفراسة لافليمون وكتاب طباع الالبان لصاحبه ماسرجويه وكتاب المنطق لارسطاطاليس وكتاب إقليدس والنقل عن بُختيشوع وعن حنين وعن جالينوس وعن صاحب الديك وغيرهم .

فقد نظر في الذي اودعته الاوائل كتبها وخلدته من عجيب حكمتها ودوّنته من أنواع سيرها بحيث أصبح له اطلاع عام على الأفكار والمعاني فهو من هذا الباب كامل من الكملة وأربد بالكامل من اخذ من كل شيء بطرف واذا تكلمنا على عبقريته في الآتي تبينت لنا نتائج ثقافته العامة فلم يخف عليه موضوع من الموضوعات قد يجوز انه لايتعمق في الموضوع تعمق اهل الاختصاص الا انه قد يلمّ به الماماً بحيث لايكون غريباً عنه وقد طبعت قراءته الكتب على مختلف معانيها ثقافته بطابع خاص واعني بالطابع الخاص تنوع أفكاره ومعانيه حتى أصبح خصيب العقل لاتشكو منه قحطاً في فكر اوجدباً في معنى .

لم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية فانه على الرغم من انقياد ادب العرب له وعلى الرغم من دفاعه عن هذا الادب في مواطن شتى من كتبه ماتذمم من الاخذ عن اليونانيين او عن الفرس فقد ذكر الامم التي فيهـا الأخلاق والآداب والحكم والعلم فقال : هذه الامم اربع ، وهي : العرب والهند وفارس والروم .

ورأى ان العرب أنطق وان لغتها اوسع وان لفظها ادلّ وان اقسام تأليف كلامها اكثر والأمثال التي ضربت اجود واسير والبديهة مقصورة عليها والارتجال والاقتضاب

خاص فيها [١] .

وكره الشعوبية وطعن عليهم :

« واعلم انك لم ترقوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا اشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً ولا أقل غنماً من اهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة وتسعّر تلك النيران المضطرمة ولو عرفوا اخلاق كل ملة وزي كل لغة وعللهم في اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم وما علة كل شيء من ذلك ولم اختلقوه ولم تكلفوه لأراحوا انفسهم وتخففت مؤنتهم على من خالطهم [٢] .

ومع هذا كله فما كان يستنكف عن ان يقول : قال جالينوس وقال صاحب المنطق وقال بختيشوع وأضرابهم فالجاحظ نزّاع الى التجديد فهو لا يرى بأساً بان يدخل العربية عنصر من عناصر آداب الامم المعروفة في عصره المشهورة بالعلم والحكم والأخلاق والآداب ، واي ادب لم يحمل فيه ادب غيره .

« اي ادب من الآداب لم يؤثر فيه ادب غيره ولسنا نعرف ادباً قومياً محضاً مستقلاً كل الاستقلال وقد يذهب وهمنا الى ان الأدب اليوناني مصبوغ بمثل هذه الصبغة وانما نتوهم هذا لأن الأدب اليوناني قد عاش وحده دون بقية الآداب التي كانت في عصره وقد يؤثر ادب وسط في ادب اعلى منه على شرط ان يكون هذا الادب الوسط فيه شيء من الغرابة والجدة .

الجدّة انما هي غذاء الأدب وهل تأتي هذه الجدّة الا من ادب غيره اننا لا نستطيع ان نتغذى بمواد بدننا وحدها لقد اقتبست فرنسة عناصر ابداعها عن آداب غيرها من الامم وقد كان هذا الابداع يتجدد في كل عصر ولقد اقتبست آداب اوربة على اختلافها معظم مادتها التي سكر بها أعاظم العبقريين عن الادب الفرنسي ، هل من سبيل الى فهم (غوتي) مجرداً من الثقافة الفرنسية ؟ ام هل من سبيل الى فهم (شاتو بريان) مجرداً من

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٢٠٤) .

(٢) البيان والتبيين (الجزء الثالث ص ١٤) .

الثقافة الانكليزية [١] .

فالجاحظ لم تخل ثقافته من عنصر يوناني ولا يبعد انه كان يعرف الفارسية ولست أقول هذا استناداً الى طائفة من الألفاظ الفارسية التي أوردها في بعض كتبه وفسرها فهذا غير كاف ان يستدل به على معرفته الفارسية فلا يخلو عصرنا من جماعة يعرفون بعض الفاظ أعجمية ثم يزعمون انهم واقفون على أسرار اللغة التي تدخل فيها هذه الألفاظ وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يذهبون الى البحث عن اشتقاقات الألفاظ وردها الى اصولها وهم جاهلون بالفروع و بالاصول وهذا منتهى الخلط والتدجيل . وانما الجاحظ تغلغل في بعض الأحيان في أسرار الفارسية فلم يقتصر على ذكر اللفظة ومعناها فمن قوله :

« والفرس تسمي الاشياء بالاشتقاقات كما تقول للنعامة : اشترمرغ وكأنهم في التقدير قالوا : هو طائر وجمل فلم نجد هذا الاسم أوجب ان تكون النعامة نتاج ما بين الابل والطير ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سموها بذينك الشيئين وهم يسمون الشيء المرّ الحلو : ترش شيرين وهو في التفسير « حلو حامض » [٢] .

وقال في مقام آخر [٣] :

فالجاسوس بالفارسية « كاوماش» وتأويله : ضاني بقري لانهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور » .

وقد كانت الفارسية مستفيضة حتى انهم كانوا يدخلون شيئاً منها في الشعر نفسه كقول العماني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :

من يلقه من بطل مسرند في زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه و (الكرد)

قال الجاحظ والكرد «العنق» .

و يقول العماني في الرشيد ايضاً :

---

(١) النزه الادبية — السلسلة السابعة لصاحبها (Remy de Gourmon[t]) (ص١٠٧) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٥) . (٣) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٩) .

لما هوى بين فياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر (آب سرد[1])

ودليل آخر على استفاضة الفارسية في كلام العرب قول الأصمعي[2] :
« ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكبا ، اوسمعته يعرب اوشممت منه رائحة طيبة .
وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل او سمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية او رأيته على ظهر الطريق ينازع في القدر » .

***

هذا مارأيت ان اذكره من ثقافة الجاحظ وهذه هي عوامل ثقافته : قراءته الادب والدين والعلم والفلسفة على أساتيذ كانوا الأمثال في مذاهبهم واقتباسه عن علم اليونانيين في بعض الاحيان ومطالعته لكتب في موضوعات شتى ثم خواطره وتجاربه ومعايناته .
لقد كان مولعاً بقراءة الكتب حتى قال ابوهفان[3] : « لم ار قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان حتي انه كان يكتري دكاكين الوراقين و يبيت فيها للنظر .
ولقد تظهر لنا آثار هذا الولع في الفصل الذي عقده في الكلام على الكتب فقد تفنن في هذا الكلام التفنن كله .

فتراه يجد في الكتب النزهة والانس والظرف والمزاح[4] :
« والكتاب نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشغل والحرفة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ... والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً واناء شحن مزاحاً وجداً ... ان شئت ضحكت من نوادره وان

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٧٩) . (٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ص٢٩٦) . (٣) معجم الادباء (الجزءالسادس ص ٥٦) .
(٤) الحيوان (الجزء الاول ص١٩) .

شئت عجبت من غرائب فرائده وان شئت الهتك طرائفه وان شئت اشجتك مواعظه ...»

ومرة يجد فيها آثار العقول ونتائج العصور (١) .

« ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمع لك الكتاب »

وحيناً يجد فيها شحذ الطباع وتجبيع النفس (٢) :

« والكتاب هو الذي ان نظرت فيه أطال امتاعك وشحذ طباعك و بسط لسانك وجوّد بيانك وفخم الفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك» .

وحيناً يجد فيها الاستغناء عن ملابسة صغار الناس وما ينتج عنهم (٣) :

« ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الاّ منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارّة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر ومن عادة الحرص ومن ملابسة صغار الناس وحضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة واخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ... »

والخلاصة انه يجد الكتب اشد تقييداً للمآثر على مر الايام والدهور من البنيان (٤) :

« وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل و يبقى اثره ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا لجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا مالم نكن ندركه الاّ بهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة ولوألجأنا الى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٢١) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص٢٦) .

(٣) الحيوان (الجزء الاول ص٢٧) .

(٤) الحيوان (الجزء الاول ص٤٢) .

وارتفعت العزيمة وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً وكلّ الحدّ وتبلد العقل » .

الى آخر ما جاء في هذا الفصل البليغ الذي يدلنا على قدرة الجاحظ على الانشاء . ولقد شحذت الكتب فهمه وفتقت عقله وأرهفت طباعه ، وان رجلاً هذه هي مبالغ ثقافته وهذا هو مقدار ولعه بالكتب لانعجب من خصب عبقريته واذا شئنا ان نحيط بهذا الخصب فلنرجع الى فهرست كتبه .

فكأن الجاحظ قد أمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ماقدر عليه من أصناف الموضوعات فلم يكن غفلاً من كل مايجري فيه الناس ويخوضون فيه ، فاذا اردنا ان نصفه بكلمة قلنا فيه انه كامل على نحو قول الافرنجة في امثاله : فلان Encyclopédiste والصحيح ان الجاحظ قد لخص معارف عصره فهو في هذا الباب يشبه ارسطاطاليس في القديم ، وقد هيأته ثقافته لهذا التلخيص .

—«※※»—

الشرع الدولي في الاسلام(1)

تساءل كثير من العلماء عن وجود شرائع دولية عند الأقدمين كاليونان والرومان والصين وتباينت الآراء في ذلك . ومما لامجال للشك فيه ان في العهد الطويل الذي خلا بين الحضارة القديمة والحضارة الحديثة اي بين القرن السابع والثالث عشر — ذلك العهد الذي سادت فيه الحضارة العربية والآراء الاسلامية — أسست قواعد ومذاهب في المعاملات الدولية يستطيع المؤرخ ان يجد فيها سوابق تاريخية جليلة يقايس بينهما وبين ماوصل اليه المحدثون من الآراء والأوضاع .

وما كنت أعرف بادئ الرأي ماعسى ان يقع لي من الوثائق وماذا اجده من المظان والمراجع . وحسبت انني لاأعثر الا على النزر اليسير الذي لا يطفئ غلة الباحث الحريص . فما كدت استشير دفائن التاريخ وأرد ينابيع الفقه حتى وجدت فوق ما كنت اؤمل واكثر مما كنت أتوقع . واذا كان كثير من مؤرخي الشرائع الدولية قد أغفلوا هذه المرحلة العظمى فانهم قد أغفلوا بذلك اعظم المراحل التي قطعها الشرع الدولي قبل المرحلة الحديثة .

نعم ان الشرع الدولي من أوضاع المحدثين . ولم يتقرر حقيقة الا منذ معاهدة (وستفاليا) ايام أصبحت الصلات الدولية قائمة على قواعد محكمة . ولكنه كسائر ما تنتجه عقول البشر ، ثمرة المساعي المشتركة التي تقوم بها جميع الشعوب وتتعاقب عليها الأجيال . ويكفي ان توجد جماعتان حتى تشتبك بينهما المصالح وتضطرهما الى التعامل والتعاقد، وتقرير قواعد الحرب والسلم . فلذلك نرى الاوضاع الدولية رغم مافيها من ضعف ظاهر ، قليلة

(1) محاضرة الاستاذ نجيب الارمنازي القاها في ردهة المجمع العلمي العربي .

القول كثيرة التشابه . ولابد لكل جماعة ذات كيان من ان تحرص على توثيق عرى الصلات بمجاوريها ، وان تحافظ بقدر ماتستطيع في علائقها على المبادئ الشريفة والقواعد العادلة ، التي يحترمها في الغالب اهل العصر ، ويوحي بها الوجدان والعقل .

ثم ان الامم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، وميراث العلوم عام مشترك بين الجميع ، والتشابه عظيم بين القواعد التي اخرجت للناس . ولكن ينبغي ان ينظر المرء حينما يقايس بين آراء المتقدمين وآراء المتأخرين الى الفرق بين هذا الزمان وبين تلك الازمان . فقد تغيرت الامم ، وتبدلت قواعد الدول ، وأصبح الانسان اليوم غيره بالامس . ولم تبق شؤون الرجال على ما كانت عليه من قبل وبدلت حالاً بعد حال .

* * *

والمقصود بالشرع الدولي في هذه الايام مجموع القواعد التي تعين حقوق الدول وواجباتها المختلفة في علاقاتها المتبادلة . ولكنه في المعنى الذي نقصده مجموع القواعد التي يتعين على المسلمين التمسك بها في معاملة غير المسلمين محاربين اومسالمين . سواء أكانوا اشخاصاً ام كانوا دولاً ، وفي دار الاسلام اوفي خارجها . ويدخل في جملة هذه القواعد احوال المرتدين والبغاة وقطاع الطريق وقد سميت في كتب الفقه بالسير جمع سيرة لانها طريقة معاملة المسلمين لغيرهم . فلانكون مغالين اذا قلنا ان الائمة عنوا منذ البدء في وضع أسس لما نسميه بالشرع الدولي ، وان كانت هذه الاصول تخص شريعة الحرب في اكثرها .

وقد وجد الاسلام منذ نشأته الاولى اعداء مناضلين ، فحارب من حاربه وسالم من سالمه ، ووضع الحدود والقواعد لحربه وسلمه ، ومايعرض له فيهما من المسائل الكثيرة التي تتعلق بالمحاربين والمسالمين ، وأشباه ذلك مما احله الفقه الاسلامي أسنى مكان . وحقيق ان يقال انه عني بماتقدم من القواعد واتسع لها صدره اكثر من احكام العقوبات وسياسة الدولة . لانها نشأت مع الاسلام ونمت بنموه وسايرت الحروب المستمرة والفتوحات العظيمة .

وقد قرر كثير من المؤلفين مثل (هولتزندروف ور يني) ان الفقه الاسلامي يضم جميع القواعد الجوهرية التي تتعلق بشريعة الحرب ، ولم تقتصر على الفيء والغنيمة بل تجاوزتها الى فرض الضرائب وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها . مما لايختلف الا اسمه عما

يستعمل في يوم الناس هذا [1] . وأشار (نيس) الى ما في تاريخ الامم الشرقية — يعني الروم والعرب — بين القرن السابع والقرن الثالث عشر من اعمال وأوضاع تتعلق بما يسمى في ايامنا بالشرع الدولي . نعم انه لا يوجد شيء ثابت ، وليس ثم نظام معين ، وان هناك مظاهر غير متسقة ولا مستقرة ، ولكنها مع ذلك جديرة بان نقف عليهـا الانظار بكل تدبر وامعان [2] .

وجميع كتب الفقه الاسلامي على اختلاف المذاهب ، تفصل على قدرها موضوعات الصلات بين المسلمين وغير المسلمين في باب الجهاد والسير كما ذكرنا . وقد يكون احسن ما الف في هذا الباب كتاب السير الكبير للامام محمد بن حسن الشيباني صاحب ابي حنيفة . وشرحه شمس الائمة السرخسي مؤلف المبسوط وأملاه في السجن على تلاميذه . وهو كتاب غزير المادة ، جم الفوائد ، قد استوعب اصول هذا العلم واستقصى غريب مسائله ، ولم يقتصر فيه على ماذهب اليه اعلام المذهب الحنفي بل أورد كثيراً من مذاهب الآخرين وناقش أصحابها في حججهم . وطريق محمد في الترجيح في هذا الكتاب ، هو النظر فيما اختلف فيه اهل العراق واهل الشام واهل الحجاز فرجح ما اتفق عليه فريقان فأخذ به دون ما انفرد به فريق واحد .

والف الامام ابو يوسف كتاب الخراج لهرون الرشيد ، وهو يصح ان يكون كتاباً في التشريع المالي ، وقد عالج فيه كثيراً من مسائل الحرب والسلم ، لان الحروب من اعظم المصادر التي تمد بيت المال ، والف في الموضوع نفسه قدامة بن جعفر ويحيى بن آدم .

ومن المؤلفات الفريدة كتاب الاحكام السلطانية للقاضي ابي الحسن الماوردي ، الذي كتب في الغالب على مذهب الامام الشافعي وجمع كثيراً من الامور التي تتعلق بالشرائع العامة للدولة ومن جملة ذلك شريعة الحرب وقد فصلها في امارة الجهاد وفي مطالب الخراج والجزية والغنائم . ورجع الى هذا الكتاب المقبس اكثر من واحد وعدوه مؤلفاً على غير مثال . وقد وضع القاضي ابو يعلى كتاباً سماه (الاحكام السلطانية) وعالج فيـه نفس

(١) تمهيد في حقوق الاشخاص .

(٢) حقوق الاشخاص في معاملات العرب والبيزانطيين .

الابحاث على مذهب الحنابلة . ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق رديئة الخط غير كاملة . وفي هذه المكتبة وجدت كذلك نسخة من كتاب السير الكبير الذي وضعه الامام محمد ، وهي كثيرة التحريف وان كان خطها جميلاً مونقاً . وقد قيل ان الكتاب مطبوع في الهند ، ولم اطلع على نسخة مطبوعة .

* * *

والشرع الدولي فيما نريد ان نقرره جزء من الفقه الاسلامي الذي لا يفرق بين الشرع الخاص والشرع العام ولا بين الشرع الداخلي والشرع الدولي . وهو كذلك شرع مكتوب لا يستثني العرف والعادة وشرع داخلي يحتم تطبيقه في العلاقات الدولية . وكما ان حكمه يجري على الدول فكذلك يجري على الافراد مباشرة وبدون مباشرة اي كونهم من متعلقات احدى الدول . وللافراد حقوقهم وواجباتهم كمقاتلين ومعاقدين ومستأمنين وغير ذلك . والمرأة الغربية مثلاً اذا دخلت بلاد الاسلام أثارت جملة من مسائل تدرس فيه شؤونها الشرعية بعناية وتدقيق .

فما هو الاساس الذي بني عليه الشرع عند المسلمين ؟

انا نجد انفسنا قبل كل شيء اماما شرع مصدره وحي آلهي ، ولكن هذه الفكرة المستندة على العقيدة والايمان لا تكفي لتعريفنا تماماً بالاوضاع الشرعية الاسلامية . ويرى المستشرق الكبير الكونت استرورغ ان الفقه الاسلامي بقيامه على أسس الوحي وتفرعه من علوم الدين ووقوفه عندما حدده اصحاب المذاهب الاربعة التي لا يصيبها التغيير والتبديل ، يشابه اكثر شيء بين الشرائع شريعة الكنيسة او الشرع القانوني [1] . ولا يخلو ما قال هذا المستشرق من مبالغة في شأن المذاهب الاربعة خصوصاً في نظر الاصلاحيين من المسلمين . وعلى كل حال فان الفقه الاسلامي مزيج مؤلف من شرع ودين يمتان بسبب واحد فالفقهاء من علماء الدين وعلماء الدين من الفقهاء .

وصدور الفقه عن وحي آلهي يجعله ثابتاً لا يتغير . ولكن اي شيء في الدنيا لا يتغير . والمسلمون مأمورون باتباع اوامره والانتهاء عن نواهيه ، وما لأحد منهم ان يتبع في مذهبه

(١) حقوق الخلافة .

خياله ورأيه وادبه وفلسفته فهنالك حدود لا يجوز له ان يتعـداها ، على ان الفقه واسع النطاق كثير التفريع للمسائل ، يجمع بين العادات والمعاملات والعقوبات واقامة الحدود وسياسة الحرب وتدبير السلم وسائر صنوف الشريعة وطرائق الحياة السياسية والاجتماعية. فالوحي إذن من الوجهة العملية والنظرية لم يكن وحده مصدر القواعد الشرعيـة كلها. وقد اكتفى المسلمون في اول امرهم بما كان يأتيهم به القرآن من الاحكام وما كان يحدثهم به الرسول (ص) و يبين لهم فيما يعرض من الامور والحوادث. فلما امتدت الفتوحات وطرأت على المسلمين حاجات جديدة واحتكوا بحضارات راقية وعقائد مختلفة ، لم يجدوا بدأ من وضع قواعد الفقه الذي يطابق معنى الحكمة عند الرومانيين . وهو كما حدده هؤلاء ، ولكن بمعنى أضيق لمعرفة الشرائع الآلهية والبشرية وتعيين حدودها . وقد استعان المسلمون بالاجماع و بالقياس الذي تفرع عن الرأي لسد حاجاتهم الجديدة ولجأوا في اكثر ما يحتاجون اليه الى الاساس العام لجميع الشرائع القديمة : أساس العرف والعادة . اليست القاعدة الاساسية الكبرى هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهل الامر بالمعروف الا التمسك بما تعارف عليه الناس . والنهي عن المنكر الا محرماً نكروه اوجهلوه . واذا وجدنا في الاسلام قواعد مماثلة لما كان عند الرومان والعبرانيين وسائر الشعوب التي تقادم عليها العهد ، اليس ذلك لان هذه القواعد كانت شرائع متبعة في البلاد التي نشأ بها الاسلام ، ولم يشأ ان يقضي عليها لأن المجتمع كان يستفيد منها ، فإذن نستطيع ان نحكم حكماً لم يذكر بوضوح كاف وهو ان الاسلام لم يعوق سير حضارة الشعوب ولم يعترض في سبيلها ، بل أجل ميراث الامم التي سبقته في ديوان العالم ، وكانت حلقة اتصال كبرى في سلسلة الأوضـاع القديمة والأوضاع الحديثة تلك السلسلة التي تمثل لنا جهود الانسانية الدائمة الدائبة في معارج التقدم ، وقد اكتفى الاسلام بحذف ما رآه ضاراً وابقاء ما رآه نافعاً ، اما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

ولكن خصيصة الشرع الاسلامي واذا شئت فقل تفوقـه ، قائم بما قرره من المؤاخاة العـامة والتسوية بين أفراد الامة ، وهو لا يعرف حدوداً ولا يقف دون حائل ، يشمل الجميع ولا يميز بين احد ، وكل انسان مطلق الحرية في حدود الشرع ، محفوف بالحماية حيثما كان ، هو واهله وماله . وهذا هو السبب الذي جعل الاسلام عند امتداده العظيم

على تمادي العصور في آسية وافريقية واوربة بين الملايين الذين يعتقدون به . واذا كانت هذه القواعد لا تزال حتى اليوم مصدراً لشرائع كثير من الشعوب التي اختلفت عناصرها ولغاتها وحضاراتها ، فذلك لان نظام الاسلام الادبي والخلقي لم يكن قائلاً اصفاتهم وخصائصهم . على اننا لا ننكر ان الرجال الذين وكل اليهم تطبيق هذه المبادئ لم يكونوا اكفاء لها وجديرين بها . فقد وجد الذين سوّدوا صحائف التاريخ بسوء صنعهم وفسادهم الذي عم القريب والبعيد وأصاب العربي والاعجمي والمسلم وغير المسلم فلا ذنب على القواعد والمذاهب . ولكن الذنب على الرجال أنفسهم اذا ظلموا باعتدائهم حدود الله .

ثم ان الاسلام بتوحيده أساس الشرع وتعميمه ، منع في عهد طويل ما يمكن وقوعه من الخلاف بين الديني والمدني وبين الشرع العام والشرع الخاص وبين الشرع الوطني والشرع الدولي . وقد سنّ العقوبات اللازمة حتى لا يكون العمل ناقصاً . والله عند المسلمين مصدر الشرائع الاسمى وهو الحكم العدل في الدار الاولى والدار الاخرى ، وهذا هو المذهب الثيوقراطي الذي يعمر قلوب الساميين ، ولكن كيف يكون الحكم وتكون العقوبة في هذه الحياة ، خصوصاً اذا شجر الخلاف بين طوائف مختلفة حتى نشب القتال وسالت الدماء ، فقد قال تعالى : انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم . وقال : وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين . فما أحسن هذه الأسس ، الا نجد فيها نظيراً لما يسعى له الناس اليوم في الصلات الدولية وتعقد لاجله المجامع وتحتفل المؤتمرات ، الاصلاح والتحكيم وبعد ذلك الجزاء وعقوبة الباغين والمعتدين .

غير ان هذه القواعد الشريفة لم تجد في الاسلام (وضعاً) عملياً يقوم بتطبيقها وينظر في امرها ، نعم انهم يذكرون اهل الحل والعقد الذين هم رجال السياسة والتدبير ، ولكن هذا الوضع الذي كان يرجى ان يكون عظيم الفائدة بعيد الأثر ظل في طي الابهام والنسيان غالباً ، ولولا ذلك لما أصيب الاسلام بما أصيب به من أثرة المسيطرين وسوء ملكتهم ، على ان هذه القوة العظمى للامة ، هؤلاء الناس الذين سماهم الشارع باهل الحل والعقد ، ليكون لحكمهم في الجماعة مقام الارادة عند الفرد ، كان لهم جانب عزيز في صدر الاسلام

وان لم تكن لهم صفة معينة ، وقد اضمحلوا رو يداً رو يداً مع اضمحلال الاسلام وتشتت
قواه . وما من تبعة تقع على الدين والشريعة ، فكلاهما قابل للتطور يتسع لمختلف
المذاهب ، ولكن الجماعة الحية الكائنة لم تكن لها ارادة او لم تكن لها فئة تملي هذه الارادة

* * *

وأساس قواعد الشرع الدولي وطرق تطبيقه في الاسلام ، ان الارض تنقسم ا
قسمين : دار الاسلام ودار الحرب ، وأراد بعضهم ان يضيف الى هاتين الدار
دار العهد .

فدار الاسلام تشمل البلاد التي يسود بها حكم الاسلام ، سواء أكان سكانها مسلمين
غير مسلمين . وهي وطن كل مسلم مهما كانت جنسيته وحيثما كان ميلاده ، يتمتع فيها (بحر
المدنية) وحقوق الشريعة كما انه يلزم باداء واجباتها .

والبلاد الخارجة عن سلطان المسلمين تؤلف دار الحرب ، حيث ينبغي ان نتبع قوا
معينة تختلف عن الاولى ، هي أشبه بما يسمونه اليوم بقواعد الشرع الدولي العام والشر
الدولي الخاص .

واما دار العهد او دار الصلح فهي البلاد التي لم يستول عليها المسلمون استيلاء حتى يطب
فيها شرائعهم وسننهم ؛ ولكن أهلها دخلوا في عقد المسلمين وعهدهم ، على شرائط اشترطو
وقواعد عينت ، فتحتفظ بما فيها من شريعة وأحكام ، وتكون شبيهة بالدول التي لا تتم
باستقلالها كله ، سواء بحماية مفروضة او معاهدة معقودة . ومثال ذلك ما كان من عه
الرسول (ص) الذي كتبه لنصارى نجران اوالعهد الذي كتبه معاوية لاهل ارمينية فأ
به سيادتهم الداخلية المطلقة وابقى لهم رؤساءهم وأوضاعهم العسكرية وطبقاتهم الدينية
وحالفهم على دفع الروم عنهم وانجادهم بقدر ما يحتاجون اليه من الجنود وان يكون لهم جيش
خاص لا يستعين به الخليفة في الشام . ولا يقول كثير من الفقهاء بدار العهد وما هي عند
الا من قبيل الهدنة ومن المعاملات القائمة على المعاقدات المتقابلة ، واذا لم يكن هذا المذهب
واضحاً كل الوضوح فانه مع ذلك يتخذ اصلاً للتعامل والتعاقد وضمان المواصلا
السلمية .

و يشبه التقسيم الاسلامي من حيث المبدأ على الأقل ، ماقبله البلشفيك في روسية

فهذه البلاد هي الوطن العام لكل شيوعي ودارالسلام للقائلين بهذ المذهب والمتعصبين بجبله ، ومابقي من العالم حيث يسود اصحاب الاموال واولياء الجبروت ، يعتبر دار حرب يتعين فيها على كل ثائر يقول بقول الشيوعيين ان يتخذ جميع الوسائل هو وجماعته للانقاض عليها والاستيلاء على مقاليد السلطة فيها .

ولا نعدم وجوهاً للشبه كذلك بين المسلمين على اختلاف اقطارهم وأجناسهم وبين نصارى الكاثوليك على اختلاف أقطارهم وأجناسهم ونظر الكنيسة لهم نظرها الى مجموعة عامة .

ومن هذا القبيل ماصنعه الاستاذ الشهير (لوريمر) في تقسيمه العالم بالنظر الى الشرائع الدولية وجعله ثلاث طبقات : الاولى تتمتع بجميع الحقوق ، وهي الانسانية المتمدنة التي تشمل الامم النصرانية في الغالب ، والثانية تتمتع بقسم منها ، وهي الانسانية البربرية ، اي التي هي نصف متمدنة ، وتدخل فيها الامم الاسلامية ، والثالثة لاتتمتع الابجزء يسير من معاملة الانسان للانسان وهي الانسانية المتوحشة . وكذلك نجد عند المسلمين درجات مختلفة لتطبيق قواعد الشرع . الاولى تخص المسلمين الذين يتمتعون بكل حق حيثما كانوا في الممالك الاسلامية ، والثانية تخص الذين ينزلون في بلاد الاسلام ويتمتعون بحماية الدولة وصيانتها على حسب قواعد الذمة والامان ، او على حسب المعاهدات والمعاقدات ، والثالثة الحربيون وهم الذين يعاملون بحسب القواعد الاستثنائية التي لايخفف من شدتها غير الرخص المبذولة والعهود المقطوعة ، والمصلحة التي يراها صاحب الامر .

ومما يحسن ذكره ان سيادة الأحكام في عرف الامامين ابي يوسف ومحمد هي فوق سيادة الامير في التمييز بين دار الحرب ودار الاسلام اذ المعتبر في حكم الدار — كما جاء في السير الكبير — هو السلطان وظهور الحكم ، فان كان الحكم حكم الموادعين بظهورهم على الدار الاخرى كانت الدار دار موادعة ، وان كان الحكم حكم غيرالموادعين او سلطان آخر في الدار الاخرى ليس لواحد من أهل الدارين حكم الموادعة .

وتعد الجبال والانهار وسواها مما يفصل دار الاسلام عن دارالحرب من دارالحرب وان لم تكن حقيقة من الواحدة ولا من الثانية ، وهذا الحكم لعدم الامن والطمأنينة .

وليس على غير المسلمين في دار الاسلام ان يراعوا جميع قواعد الشرع الاسلامي

بتحريم مايحرمه وتحليل مايحلله . وتجري أحكام الحدود على الذمي واختلف باقامتها على المستأمن ، فاستحسن ابو يوسف ان يؤخذ بالحدود كلها ، وقال آخرون من الفقهاء لا أقيم عليه الحد لأنه لم يدخل الينا ليكون ذمياً تجري عليه أحكامنا وهذا في الزنى والسرقة ، اما في القذف والشتم فانه يُحدّ ويُعزّر لانهما من حقوق النـاس[1] وكذلك فان الاوامر الخاصة بالمسلمين مثل تحريم الخمر لاتطبق على سواهم من الذميين ولا من المستأمنين . وفي بعض المعاهدات التي عقدت في القرن الثاني عشر والثالث عشر بين الدول الاسلامية والدول النصرانية كان المسلمون يستبقون لانفسهم حق العقوبة في بعض الجرائم الكبيرة ، ويتركون للقضاة النصارى حق الحكم بما سواها . وكان القضاء موكولاً الى رؤساء الطوائف في امر ابناء دينهم . وقد جاء في صبح الاعشى كثير من المراسيم في هذا المعنى وفي حض الرؤساء على معاملة مرؤوسيهم بالرفق والحسنى والمؤاساة واجتنـاب الحيف والاجحاف وكان في الاندلس قضاة من المسلمين يفصلون في دعاوى غير المسلمين ويسمونهم بقضاة الاعاجم على ماجاء في رسالة ابن القوطية في فتح الاندلس .

وقد ذكر الماوردي في الاحكام السلطانية عند كلامه على اهل الذمة (انهم اذا تشاجروا في دينهم واختلفوا في معتقدهم لم يعارضوا فيه ولم يكشفوا عنه واذا تنازعوا في حق وترافعوا فيه الى حاكمهم لم يمنعوا منه ، فان ترافعوا فيه الى حاكمنا حكم بينهم بما يوجبه دين الاسلام واقام عليهم الحدود اذا أتوها ، ومن نقض منهم عهده بلغ مأمنه ثم كان حرباً ، ولأهل العهد اذا دخلوا دار الاسلام الأمان على نفوسهم وأموالهم ولهم ان يقيموا فيهـا أربعة أشهر بغير جزية ولا يقيمون سنة الا بجزية وفيما بين الزمنين خلاف ، ويلزم الكف عنهم كأهل الذمة ، ولا يلزم الدفع عنهم بخلاف اهل الذمة .

والقضاة المسلمين حق الفصل فيما بين المسلمين وغير المسلمين من الخصومات الا اذا كان منشأها دار الحرب لان سلطان الاسلام لايبلغها ، والقضاء يعقد الولاية وما ثمة من ولاية للمسلمين . وهذه القواعد ونظائرها تعد اليوم من مسائل الشرع الدولي الخاص .

وهنالك قواعد أخرى تضاهي ما عند المعاصرين من قواعد الشرع الدولي العام

---

(١) كتاب الخراج : ص٢٢٤ — ٢٢٥ طبعة المكتبة السلفية .

وتذكرنا بها . فما يتعلق بالسلام نجد مثلاً وجوب الوفاء بالعهود المقطوعة وحرمة العقائد وعدم الاكراه في الدين والوساطة والتحكيم وصيانة الرسل واجتناب اذى المحايدين وقواعد المعاهدات والمحالفات وشؤون الامارات التابعة . اما شريعة الحرب فهي المجال الواسع لابداع الشارع الاسلامي والقائه . فقد أفاض في قواعد اعلان الحرب ومقدمات القتال وأساليبه وصيانة الأولاد والنساء والشيوخ والرهبان وحرمة الموتى بوجوب مواراة قتلى الفريقين واجتناب المثلة واصلاح حال الأسرى والسبايا والعطف على الرقيق .

وقد وجد في العالم المتمدن منذ معاهدة وستفاليا قواعد تتعلق بحرية الدول وتضامنها والتسوية بينها وما أشبه ذلك مما لا يمكن ان يتفق وروح تلك العصور المتقادمة النزاعة الى بسط السلطان في الارض كلها ، هذه الروح التي كانت تخفق في قلوب العرب خفقانها في قلوب الفاتحين العظام قبلهم ، لم يكن يبحث في حرية الدولة ولا ينظر في قواعد التسوية والتضامن بين الدول . ومع ذلك فقد اعترف المسلمون عملياً بوجود دول أخرى ، وذلك بعقد المعاهدات معها ومشاركتها بالصلات السياسية ، وهذه الصلات اما ان تكون مؤسسة على قاعدة الامان الذي يتفرع عن حق الجوار عند الاقدمين ، او على قاعدة العرف والعادة ، او على قاعدة الوفاء بالعهود والعقود .

* * *

استوقف ناظري وانا أتأمل في تطور المعاملات الدولية وقواعدها بين المسلمين وسواهم امور كثيرة أشرت الى بعضها فيما تقدم وخصوصاً الشروط التي عاقد عليها معاوية ابن ابي سفيان ارمينية وكانت وثيقة استقلالها الداخلي ومحالفتها مع الدولة الاسلامية الكبرى التي هي أشبه بمحالفة حماية بين دولة كبيرة وصغيرة على نحو ما نراه اليوم في المعاهدات التي تبذلها بريطانيا العظمى شأن سواها وتحرز قصب السبق على غيرها .

وقد استحسنت كثيراً وتدبرت ملياً وصايا الخلفاء للجيوش في صدر الاسلام . وتذكرت عندها ماعده المحدثون من مفاخر الامة الاميركية في الوصية التي عمل بها قادتها في حرب الفصال سنة (١٨٦٠) واتخذت أساساً لشريعة الحرب الى يوم الناس هذا .

أليس حسناً ماقاله ابوبكر : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة

ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة وسوف تمرون باقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .....» .

اليس حسناً ما كان يقوله عمر بن الخطاب عند عقد الالوية : « لا تجبنوا عند اللقاء ولا تسرفوا عند الظهور ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات ، ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا » .

وما عسى ان أستثير مثل هذه الدفائن وأبحث عن مثل تلك الذخائر، إذن لتجاوزت القدر الذي وضعته لهذا المقال . ومهما أوجزت فلا بد لي ان أذكر ان فريقاً من أئمة المسلمين في عهدهم الاول كسفيان الثوري أنكروا فريضة القتال ابتداءً ولا يجب القتال عندهم الا دفعاً للعدوان ، وهذا المذهب يذكرنا بتحريم حروب الاعتداء الذي ما برحت عصبة الامم تسعى له منذ عشر سنين وتدعو اليه حتى كان ميثاق كيلوج .

ولا بدّ لي كذلك ان أشير الى حديث ابي عبيدة في اثناء فتوح الشام فقد كان الصلح جرى بين المسلمين واهل الذمة في أداء الجزية وفتحت المدن على ان لا يهدم المسلمون بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى ان يحقنوا لهم دماءهم وعلى ان يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم ويذبوا عنهم وعلى ان عليهم ارشاد الضالّ وبناء القناطر على الانهار واصلاح الطرق وعلى ان يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة .

قال ابو يوسف في كتاب الخراج فلما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعيوناً للمسلمين على أعدائهم . فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون ان يصنعوا ، فأتى اهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بان الروم قد جمعوا جمعاً لم ير مثله ، فأتى رؤساء اهل كل مدينة الامير الذي خلفه ابو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك . فكتب والي كل مدينة الى ابي عبيدة يخبره ، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين ، فكتب ابو عبيدة الى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمرهم ان يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج ، وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رددنا عليكم أموالكم لانه

قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ماأخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننـا وبينكم ان نصرنا الله عليهم ، فلما قالوا ذلك لهم وردّوا عليهم الاموال التي جبوها منهم ، قالوا : ردّكم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردّوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئاً .

وسيرة عمر بن الخطاب في فتح بيت المقدس (ايلياء) سائرة مشهورة نكتفي بالالماع اليهـا . ولكننا نذكر قليلاً من سيرة امراء المسلمين ايام الحروب الصليبية التي أطلق فيها عقال النفوس فركبت هواها في سفك الدماء واستباحة الحرمات ، وذلك نقلاً عن المسيو (بورغا) المؤرخ الكبير ووزير معارف رومانية في كتابه الموجز في تاريخ الصليبيين . قال : « لما استرد صـلاح الدين بيت المقدس بذل الامان للصليبيين ووفى لهم كل الوفاء بالشروط المعقودة ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم ، حتى ان الملك العادل شقيق السلطان أطلق الف رقيق ، ونودي ان كل من يخرج من بيت معين في المدينة يكون آمناً ، ومنّ على جميع الأرمن . وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينـة الكنيسة . وأبيح للاميرات والملكة في مقدمتهم بزيارة أزواجهن ، وكان الجنود الذين يصحبون اللواتي أمرن بالجلاء يعطفون عليهن أشد عطف و يواسونهن كل المواساة . ولا يمكن ان يظهر فضل صلاح الدين وكمال خلقه باحسن من تهديده السفن الايطاليـة حتى ترد اولئك البائسين الى ديارهم » .

وكذلك كانت سيرة الملك الكامل لما أخذ بمخنق الصليبيين في واقعة دمياط فاحاط بهم النيل وهددتهم المجاعة . واليك ماوصف المسلمين به احد الذين حضروا الوقعة من مؤرخي النصارى قائلاً : « هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وابناءهم وبناتهم واخوانهم واخواتهم بطرق شتى ... هؤلاء الذين سلبناهم أموالهم وأخرجناهم عراةً من منـازلهم تداركونا وسدوا خلتنا وأطعمونا بعد ان أهلكنا الجوع . ومازالوا يحسنون الينـا حتى غمرونا ببرهم واحسانهم لما كنا في ديارهم وفي قبضة أيمانهم . فلو ضاع لاحدنا عير لما ابطأ انـ ردّ الى صاحبه » .

* * *

وقد آن لي بعد ان أوردت طرفاً من قواعد الشرع الدولي في الفقه الاسلامي ان أبين بايجاز ماأراه من اثره في نمو الشرع الدولي عند الاسبانيين . وتاريخ الشرع الدولي يدلنا على انه وجد في بلاد الآخرين نشأته الكبرى وفيها ظهر اكثر المؤسسين لقواعده والمشيدين لاركانه . واذا أثبتنا هذا التأثير استطعنا ان نستنتج منه ان الشرع الدولي الحديث لم يخل من اثر للشرع الاسلامي . وقد بحث كثيراً فيما أبقته فلسفة العرب وحضارتهم من الاثر في الاندلس وبالتالي في اوربة ولكنه قلما عني بالبحث في اثرها من الوجهة الشرعية . على ان مؤلفاً بلجيكياً (المسيو ستوكار) وضع في أوائل هذا العصر كتاباً فيما ابقاه سلطان العرب من الاثر في الشرائع الاسبانية والحالة الاجتماعية .

ولا يمكن تحديد اثر الثقافة العربية في نمو الشرع عند الاسبانيين ، ولكن في اثناء هذه المدة الطويلة التي حكم بها العرب اسبانيا ، عقدت بين الفريقين عرى وثيقة وتمكنت بينهما الصلات المختلفة . وقد أذن العرب للمغلوبين ان يحتفظوا بعاداتهم ويحكموا بسننهم وشرائعهم ، ولكن قواعد العرب وعاداتهم كانت تدخل رويداً رويداً في معاملاتهم مع الاسبانيين او في تعامل هؤلاء بعضهم مع بعض . ومن ذلك الالتجاء الى المحكمين في فصل الخصومات وأشباهه مما الفه الاسبانيون وجروا عليه . فلما جمع الاسبانيون كلمتهم على مناوأة العرب واخرجوهم شيئاً فشيئاً من ديارهم كانت هذه القوانين تؤلف القسم الاكبر من شرائعهم .

ثم ان فلاسفة العرب الذين تعلموا فلسفة اليونان وورثوا علومهم ، نقلوا ما تعلموه وورثوا مادونوه مؤلفي القرون الوسطى ، فشهد الناس الخليفة الحكم الثاني في القرن العاشر ينفق في عهده المجيد تلك الحلقة الزاهرة من العلوم التي تحل المكان الارفع من الحضارة بما أبقته من الاثر الحميد في اوربة النصرانية[1] وكان العلماء من البلاد الاخرى يؤمون اسبانيا في تلك العصور ليرتووا من مناهل عرفانها ويحملوا من علومها مالا يجدونه يومئذ في فرنسا ولا في ايطاليا . ولم يأت على الفلسفة العربية الا عصران حتى أصابها التوقف فجأة بسبب القلاقل السياسية والغارات الاجنبية وشيء من التعصب الممقوت .

---

(١) Renan, Averroès et l,Averroïsme

ويمكن ان يقال ان سلطانـ العرب في اسبانيا على الرغم من انهياره لم يزل مؤثراً في أوضاعها السياسية والاجتماعية والشرعية ، وقد احتفظ المسلمون بعد تغلب الاسبانيين بشرائعهم الخاصة حيناً من الدهر فانـ سياستهم الحميدة التي كانوا اتبعوها في معاملة النصارى جعلت هؤلاء يواسونهم ويحاسنون من بقي منهم قبل زمن الاضطهاد والاكراه في الدين . وكان للعرب واليهود ايضاً معاهد علم مستقلة وعلماء منهم يعلمون فيها ، فانتهى امرهم بان سادوا وتمكنوا في قشتالة . فظهر حينئذ اثر الشرق اولاً بتأثير فلاسفة العرب ورجال الأخلاق منهم ، ثانياً باذاعة تآليفهم وترجمتها ، ثالثاً بوجود كثير من علماء قشتالة من محتد اسلامي ويهودي ، رابعاً بما كان يبذله علماء العرب واليهود من العون للنهضة العلمية في هذه المملكة الاخيرة [١] .

وعلاوة على ماتقدم فان المجموعة الثمينة المنسوبة الى الفونس العاشر والمسماة بالاجزاء السبعة لم تخل من اثر ظاهر للشرع الاسلامي وهي تحتوي على الشرع الكنسي والمدني والسياسي والعقوبات بتفصيل لا حدّ له من الاحتمالات والفروض . وقد فصلت شرائع الحرب فكانت هذه المجموعة مصدراً عظيماً لما قرر من قواعدها فسبقت اسبانيا بذلك سبقاً عجيباً في القرون الوسطى بشرائعها وخصوصاً بمجموعة الاجزاء السبعة . فكانت هذه اتقدم ماعند الشعوب الاخرى بقرون . وكأن اسبانيا على ما يقول الاستاذ (نيس) ورثت الرومان مباشرة في وضع الشرائع [٢] .

ثم قال كذلك في مقام آخر : « ان مجموعة الأجزاء السبعة تدلنا دلالة واضحة على صفة المقاتلين وتنظيم توزيع الغنائم . وقد امتازت اسبانيا على سائر اوربة ، انها حافظت على الاختيار في جيشها ، على حين ان سائر الشعوب الغربية في القرون الوسطى كانت تعدل عن الاختيار شيئاً فشيئاً وتجعل المراتب العسكرية مما يرثه الابناء عن الآباء . وبقي في اسبانيا المقدمون والقواد ينتخبون انتخاباً » .

نحن لا يسعنا بعد ذكر ما تقدم الا ان نشير الى نصيب العرب في تقدم الشرع عند

(١) Bollester : Histoire de l' Espagne ·

(٢) Les Origines du droit International ·

الاسبانيين ، فالعرب — كما قال (جول مهل) مع شيء من المبالغة — هم والرومان اقدر الشعوب في التشريع [1] . وتقسيم مجموعة الاجزاء السبعة يذكرنا بتقسيم كتب الفقه الاسلامي ، ونحن نقول في الختام بقول الاستاذ (نيس) نفسه . ان شريعة الحرب والأنظمة العسكرية عند الاسبانيين ، تأثرت كثيراً بشريعة الحرب عند المسلمين كما تأثرت فلسفتهم بفلسفتهم وآدابهم بآدابهم .

* * *

وقد وضعت رسالة باللغة الفرنسية في موضوع الشرع الدولي في الاسلام ، قدمتها لمعهد الحقوق في جامعة باريس ، وستنشر عما قريب في اللغة العربية مع تهذيب واضافة وقسمتها الى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة . هذه سياقتها :

المقدمة في تطور المملكة الاسلامية وما يتصل بها من تاريخ العرب وسيرة الرسول والفتوحات والنزاع بين النصرانية والاسلام .

الفصل الاول في الشرع الدولي والشرع الاسلامي وما يضاف الى ذلك .

الفصل الثاني في اوضاع الدولة وشؤون الخلافة وما اليهما .

الفصل الثالث في شريعة الحرب وما يذكر معها من اساليب القتال وسياسته وتوزيع الفيء والمغانم وحروب المصالح .

الفصل الرابع في قواعد السلم وما يلحق بها من الامان وعقد الذمة والجزية والخراج والمهادنات والمعاهدات .

الفصل الخامس في الصلات السياسية والعلاقات التجارية وما يذكر معها .

الخاتمة في تلخيص بعض ماتقدم وايراد وجوه الشبه والتباين بين قواعد المسلمين وقواعد الغربيين في الشرع الدولي .

هذا ولم احفل بالعلاقات الدولية في زمن الترك العثمانيين الا اذا جاءت عن عرض ، لانها تخص في الغالب تاريخ السياسة والشرع الدولي في اوربة ، وقد عولجت في الكتب التي أفردت لهذه الأبحاث .

نجيب الارمنازي
دكتور في الحقوق

(١) ص ٤٣١ Journal Asiatique, 3e Série t. XVII

ادبنا القومي

- ٥ -

في الادب العامي

وقد آن لنا ان نورد عليك صدراً من الادب العامي وسنحري ، فيه قدراً يسيراً من مقتبره . اما تقسيم أنواعه واقامة الحدود لكل منها ، والبحث في اصله ومنجمه ، وكيف درج وكيف سار وكيف تلون ، فذلك كله مما يحتاج الى دراسات طويلة لا احسبها استقرئت او استوفت بالتمحيص العلمي الى الآن ، على ان موضوعنا الذي نعالجه اليوم عن هذا في غناء . ويحسبنا ان نقرر محققين ان الادب الذي يدركه اكثر من تسعة وتسعين في المائة من سكان هذه البلاد هو هذا الادب العامي ، وهو الذي يتذوقونه وتستريح به نفوسهم وتتحرك له عواطفهم .

واعلم ان الزجل والموالي مشتقة في الاصل من أوزان الشعر ، وان كانت تنحرف عنها بقدر كبير اوصغير ، ثم انها مصبوبة في قوالب عامية او أدنى الى العامية . فكتابتها بالعربية الخالصة اوالنطق بها كذلك فيه افسادها وإضاعة لأوزانها وإخراجها عن جميع حدودها . قال صاحب السفينة في الكلام على فن الموالي مانصه : « وهو من الفنون التي لايلزم فيها مراعاة قوانين العربية بل قال جلال الدين السيوطي انه يجب فيه اللحن ، وعليه فيجوز استعمال الألفاظ الجارية في تخاطب العوام من الناس لفظاً وخطاً معاً ، لانك لونطقت به حسب التخاطب ، واخذت تكتبه على قوانين الرسم المعتبرة مراعياً للحروف لتغيرت وضع ما نطقت به وخالفت حروفه وكسرت وزنه ، وفوّت غرض الناظم عليه من تجنيس او غيره » اه .

هذا وللزجل ضروب وأشكال وتقاسيم لا يكاد يدركها الاستقصاء ، وهو على هذا

كل يوم في ازدياد بما تولد قرائح الزجالين . اما المواليا فتنحصر في أنواع معدودة لا تكاد تعدوها . وليس هنا موضع تفصيلها .

والزجل والمواليا كلاهما يعمد فيه الى التماس المحسنات البديعية ، ومنهـا التجنيس ، في المواليا بنوع خاص ، ولقد يبالغ في هذا الى حد التعسف والتلفيق واستكراه الألفاظ ولو أدى ذلك الى استهلاك الاغراض والتدلي الى أسخف المعاني .

ولقد يظهر لك وانت تستعرض المواليا ان اكثر ناظميها انما يدورون باذهانهم قبل كل شيء ليتصيدوا الجناسات من مختلف الألفاظ حتى اذا استوت لهم جعلوا ينظمون من الألفاظ مايفضي اليها وينتهي بها واقفة ماوقفت معانيها . من ذلك قول القائل :

ان زارك البدر بالوعد الذي اوفاه اقبل وقبل خديده ان سمح او فاه
واستغنم الوصل منـه أيسره اوفاه ولا عليك من عذولك ان وشى اوفاه

وقول غيره :

فكري وسهدي وكثر الدمع وصبيبه في حب من زاد بالهجران وصبي به
والقلب زاد احتراقه فيـه ولهيبـه لولا يجيني حبيب قلبي يسلبني
لاحترق في لظي من كثر ولهي به

وقول الآخر :

اصل اشتباكي مع المحبوب أهدابه لأوهب الروح لمن جابه واهدى به
وحق موسى كليم الله وأصحابه مالي مؤانس بطول الليـل يؤانسني
إلا خياله أنام به الليل واصحا به

وقول الآخر :

بشراك ياقلب آدي اللي كنت به موعود
زارك حبيبك وطاب أنسك على ما وعود

ولا ننس قبل كل شيء ان تنطق بالألفاظ عامية ، وتبدل القافات همزات حتى يستقيم لك الكلام .

والى جانب هذا لقد ترى في هذا الادب (البلدي) اشياء تهز وتروع . انظر كيف يقول الموال الصعيدي :

يا قلب لا كويك بالنــار وان كنت عاشق لأزيدك
يا قلب حملتني العــار بتريد من لا يريدك ؟

ويتصل بهذا قول الآخر :

مسكين من يطبخ الفــاس و يريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس و يريد من لا يريده

ثم تأمل قول القائل :

ما العيش إلا العيش وان كان ناشف بله
والعورة يسترها الخيش فضك من دا كله

أرأيت في شعر الشعراء ونثر النثار ما يعلو على هذا الكلام (فضك من دا كله) ولو قد تعمد أديب ان يشرح هذا المصراع وحده ويدل على ماتحته من دقائق المعاني لاحتاج الى أسطار طويلة ، ثم هيهات له ان يشعرك كل مافيه من حلاوة ٠

وانظر قول القائل :

خايف اقول له ، يقول له منيه مرعوب خايف
بالله يا قله قللــه حين توردي عالشفايف

وهذا كلام يحتاج الى تفسير يسير فابدل القافات منه اولاً (جيمات) على منطق اهل الصعيد وسائر ريف مصر على التقريب ٠ والناظم يناجي (قلة) الماء ويتخذها الى هواه رسولاً فهو يقول : « انا خائف من ان أقول له فيقول لا ! فانا منه في رعب وخوف سألتك بالله يا (قله) ان تقولي انت له حين تردين على شفتيه ٠ أرأيت ابداعاً في الطلب كهذا الابداع ؟ هو يطوي اولاً مقول القول ، فلم يسأل (القلة) الا ان تقول ، ولكن تقول ما ذا ؟ هذا ما اخذ نفسه بالأدب عن التصريح به او تركه للذهن الدقيق يفهمه من قوله في غاية الموالي (حين توردي على الشفايف) !!

وقول القائل (ويروى للمرحوم محمد سلطان باشا) ٠

اصل البلاوي ما هو انتم وقول العذول كان صايب
شاورت قلبي ما هنتم فراق الأحبة مصــايب

وانظر بعد هذا الى ضروب من البلاغة فيمايدعونه بالغناء (الهلاوي) ٠

سبع سواقي بتنهي ما طفوا لي نار
يامنية القلب قل لي إزاي عشق الجار
يبقى النظر في النظر والقلب قايد نار

أترى ، بعيشك ، هذا يقل حلاوة او براعة في اعلان الوله عن قول المجنون :

وان مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلي وهاتيك دارها

وانظر الى قول القائل ايضاً :

طليت ياحلو من شباكك العالي ياهل ترى طلتك للناس ولا لي ؟

وقول القائل :

امانة الله في دي الغيبة افتكرتو ناش يالي رضيتم بمادنا واحنا مارضيناش
سنتين نستنظر رسول من عندكم ولا جاش والصبر اهوه فرغ والدمع ما ينحاش

وقول غيره :

سافرت وادي اليمن وبعدت عن عيني مثلك ظريف المعاني ما رأت عيني
وان كان غيرك قمر ما انظره عيني
يالي انا الورد وانت الماء تسقيني ان غبت دبلتني وان عدت تحييني

وقول الآخر :

يا شمس قبل ان تغيبي خبري اهلي بي انت سبب غربتي عنهم وتعذيبي
خايف يصادفك غمام ياشمس يخلي بي

ولا شك في ان من أحسن ما اثر من الشعر في بلاغة الاشارة قول الشاعر :

فاستبق عينك لا يودي البكاء بها واكفف بوادر دمع منك تستبق
فما الشؤون وان جادت بباقية ولا الدموع على هذا ولا الحدق

* * *

فهل تخلف عنه ناظم هذا (المذهب) :

على الملاح انت لأمير وانا على العشاق كده

وهل تخلف عنها الشيخ النجار حين يقول (واني لأرويه ولا حياء في العلم) .

ياأهل البلد شفتوش عيلة بالوصف ده

الأم والبنت تلدع والواد كده

* * *

والبنت نادت في الجرة يا مسلمين
لا امي ولا أختي حرة واطلع لمين

أرأيت البلاغة البالغة في قوله (والواد كده) ؟ ثم أرأيت كيف أدت كلمة (تلدع) من المعنى ما لا يغني في أدائه لفظ آخر ، وهي لمرأة التي لا هي بالحرة الخالصة ، ولا هي بالبغي الخالصة . بل لقد جرى العرف على انها التي تعيش عيش الحرائر ، ولكنها لتناب الخنى وقتاً بعد وقت Demi Mondaine كما يقول الفرنسيون . ولذلك ترى لها هنا بنتين وولداً .

ثم انظر بعد ذلك كيف كان هذا الكلام سلساً جارياً على الطبع حتى لكأنك تسمع حقيقة بنتاً تدلي الى النـاس بعذرها فيما تتورط فيه من الخروج عن الفضيلة والانحراف عما تقضي به آداب الدنيا وآداب الدين معاً !

وأروي لك شيئاً لا يعجبك اوله ولكن سيبهرك آخره :

الحديد لو انطبع لان وانت ما تلين ياحبيباني
انا مستغني وانت غضبان طالت علينا الليالي

ولعل (طالت علينا الليالي) تدعو اليك قول العباس بن الأحنف :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا كلانا على طول الجفاء ملوم

ثم كيف ترى في قول القائل :

(الليل أهو طال وعرف الجرح ميعاده) الخ .

ولا يذهب عنك قول القائل :

ساهي الجفون ما كفاك الهجر يا ساهي سهران بتلعب وعن وصل الشجي ساهي

ثم انظر كيف يقول القائل في (طقطوقة) :

يا ست ليه المكابدة مش يكفي قلبي المناهدة
تكايدني ليه حاينوبك ايه
مفيش من النقل فايدة

وانظر الى قول الآخر في (طقطوقة) ايضاً على لسان جارية تطالع أمها بهواها :

يا حمامه يا أمه عدي المنصورة بخلاجله الفضة وشعور ضفيرة

يا شيلة عيونه يا أمه يا ضني حالي

وقبل ان أفارق هذا الموضع أذكر انني كنت في سياحة نيلية مع شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، وسمع ملاحاً يغني :

والفرش حيران بهم بالليل ما ناموا

فارتج رجة عنيفة من (الفرش حيران بهم) ورأى من فوره ان هذا المعنى البديع ينبغي ان ينظم في شعر العرب فنظم بيته المأثور :

حار الفراش بنا مما نكابده وضاق صدر الليالي عن تشكينا

وبعد ، فقد نلاحظ وخاصة في المواليا ، ان الكلام كثيراً مايعلو فيها الى حد الفتنة ، ثم مايلبث ان يهوي الى الحضيض حتى لايصح بين أجزائه شيء من التجانس والاتساق . وذلك بالضرورة من اثر ضعف النظام ، فان احدهم لتجيش نفسه بالمعنى الكريم فينشده ثم ينقطع به النفس فلا يستطيع ان يتم المقال الا بالفسل المتهافت الذي لا يتراءى لغرض ولا يتراءى فيه عاطفة ، اما اذا كان الناظم قوياً فانك وان رأيت بعض أجزاء الكلام يعلو على بعض فان السلامة مكفولة له على كل حال ، وهذا تحسه فيما نظم صبري في هذا الباب وما ينظم شوقي وأضرابهما من أئمة اهل البيان .

ومن الأدب الشائع في العامة (القصص) واكثرها شيوعاً في المدن والقرى على السواء أمثال قصص ابي زيد الهلالي والزناتي خليفة والبردو يل بن راشد الخ . على ان بعض العامة يستريحون بالاستماع الى قصص الف ليلة وليلة ، بل وعنترة بن شداد ، على انه قد شاعت في هذا العصر القصص الجديدة (الروايات) وهي تلقي من الناشئين في التعليم إقبالاً ايما إقبال .

* * *

ومن الوان الأدب التي لم يعن الخاصة — مع الأسف الكثير — بالقاس وسيلة لكتابتها واثباتها مع انها انما تعني الخاصة وأشباه الخاصة — التطرف او كما يسميه المصريون (بالقفش) وهو قائم على قوة البديهة وسلامة الذوق وسرعة وثوب الذهن الى ملابسات

المعنى وطبع الكلام في صورة عجيبة تبعث الطرب وتثير الضحك ·

وخير هذا النوع يجري على السن سكان المدن ، اما اهل الريف فلهم تطرف ولكنه مليخ لا طعم له ·

وممن أعرف ممن لهم اكبر الحظ في هذا النوع المرحومون الدكتور بكير ، محمد بك البابلي ، محمد رشاد بك ، محمد المويلحي بك ، الدكتور رأفت بك ، خليل خير الدين بك امام العبد افندي ، وما زال في الاحياء والحمد لله كثير ·

وانما أردت (بالوسيلة) لكتابة هذا الادب وتدوينه ، تلك التي تحفظ له رونقه وبهاءه · فانه اذا أثبت بالعربية حال لونه ونضب ماؤه ·

ومن آداب العامية النكات البلدية المعروفة (بالقافية) وقد أسلفت عليك انهـا من توليد مخ الحشاش المصري ، وهي قائمة على التلفيق وحده ، ذلك ان يعمد الرجل الى كلمة مأثورة او جملة معروفة في اي غرض من الأغراض فيسبقها باخرى حتى اذا اتصلت بها حرّفتها عن وجهها وأخرجتها الى لون من التطرف مضحك عجيب ·

ولقد كان هذا النوع من التطرف شائعاً في الاعراس ، وله رجال يحفظونه ويحذقونه فكان اذا انقطع المغني للاستراحة قام رجلان فتطارحا النكات في شتى المعاني ، حتى اذا غلب احدهما في باب من القول تحول بصاحبه الى باب آخر و يدعى عندهم (قافية) كذا والناس مما يسمعون في ضحك شديد ، وتصفيق حديد ·

ثم الامثال العامية وما أدراك ما الامثال العامية ! · حقاً لقد تناولت كل شيء وأصابت كل غرض ، وتدسست الى كل معنى ، فما يكاد يعرض لك رأي او يسمح لك خاطر ، وخاصة في تقرير مبدإ ثابت ، او امر عام واقع ، الا تهيأ لك ان تصل به مثلاً عامياً غاية في الدقة وحسن الاداء ·

واهل العامية في هذا الباب من أغنى لغات العالم ·

وهنالك ألوان من الادب العامي آخر مما يتغنى فيه العامة و يتناشدون ، ومما يتملحون به و يتفكهون واني أدع الكلام فيه لمن يريدان يتجرد في حصر أنواع الأدب العامي وضبطها ، والابانة عن حدودها واصلها وتصرفها على الزمان ·

و بلغ القول بعد هذا ان من ينفي عن (ادبنا القومي) كل هذا الادب الذي تعيش

به لامة كلها على جهة التقريب ، ويزعم انه محصور في الادب العربي الخالص (الشعر والنثر الفني) وهذا ما لا يدركه الا القليلون ، ولا يستذوقه الا الاقلون — فذلك احد رجلين : رجل لا يعرف الأدب ، او رجل لا يعرف مصر .

« باحث »

رسالة الكرم

— ٩ —

« الحطاب والأجمام »

الحطاب ككتاب ان يقطع ما يبس من شكر الكرم حتى ينتهي الى حد ما جرى فيه الماء وزمانه حين يجري الماء في العود .

و يقال أحطب العنب واستحطب اي احتاج الى ان يقطع شيء من أعاليه .

واحطب الكرم حان ان يقطع منه الحطب . و حطَبه ، قطعه .

واحطب عنبكم واستحطب حان ان يعنب (١) .

واستحطب عنبكم فاحطبوه حطباً اي اقطعوا حطبه .

ويسمى ما يقطع منه الحِطاب والمِحْطب المنجل الذي يقطع به .

قنب الرجل العنبَ تقنيباً قطع عنه ما يفسد حمله . وقنَّب الكرم قطع بعض قضبانه للتخفيف عنه واستيفاء بعض قوته . وقنبوا العنب اذا قطعوا عنه ما ليس يحمل وما قد يؤذي حمله يقطع من إعلاه . قيل هذا حين يقضب عنه شكيره رطباً .

قضب الكرم تقضيباً قطع أغصانه وقضبانه في ايام الربيع . والمقضب والمقضاب

---

(١) هكذا نقله في التاج عن الاساس وقد رأيته في نسخة الاساس ان يُقْنَب ولعل الصواب ان يُقَنَّب من باب التفعيل .

المنجل الذي يقطع به . وقُضابة الشجر ما يتساقط من أطراف عيدانهـا اذا قضبت . وقضابة الكرم والشجر ما يأخذه القاضب .

أجمّ الرجل العنبَ اذا قطع كل ما فوق الارض من أغصانه . وفي المخصص فاذا بلغ الكرم ان يقطع فاضل قضبانه للتخفيف عنه واستيفاء قوته قيل قُضّب وشُذّب وقُلّم (١) .

فاما الأجمام فقطع جميع ما على الارض منه يقال اجمّ العنبَ قال ابو حاتم وناس يُجمّون العنب كل عام ولا يغرسون والجمّ ان يقطع من وجه الارض ثم ينبت قال يقطعونه من وجه الارض عامين ثم يتركونه في الثالثة فلا يقطعونه حتى يكبر شجره فيحمل .

وقد تقدم معنى أقطع فلاناً قضباناً من الكرم اذن له في قطعها والقطيع الغصن تقطعه من الشجرة . والإقطِع كالقطيع والجمع أقطاع .

وتقدم معنى أغلى الرجل الكرم ومعنى غمله .

حبك عروش الكرم قطعها .

المِتْلَة حديدة يقطع بها فسيل النبات والكرم .

ويقال رشّح العنب ترشيحاً قام عليه وأصلحه وفي حديث ظبيان يأكلون حصيدها ويرشحون خضيدها اي المقطوع من شجر الثمر قال في اللسان وترشيحهم له قيامهم عليه واصلاحهم له الى ان تعود ثمرته تطلع كما يفعل بشجر الاعناب والنخيل .

« أنواع العنب »

— العنب الابيض —

الملاحي كغرابي ويشدد (٢) . عنب ابيض طويل الحب قال ابو قيس بن الاسلت :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى ككنعقود ملاحية حين نورا

وقال الشاعر :

---

(١) في اللسان قلّم الظفر والعود والحافر يقلّمه قلماً وقلّمه قطعه بالقلمين واسم ما قطع منه القلامة . وقال والقلمان الجلمان لا يفرد له واحد .

(٢) في المخصص والتشديد قليل .

ومن أعاجيب خلق الله غاطية يعصر منهـا ملاحي وغربيب

والملاحي نوع من الذين صغار املح صادق الحلاوة ويزبب ·

العنب الرازقي : ضرب من عنب الطائف أبيض طويل الحب والرازقيـة والرازقي الخمر المتخذ من هذا العنب · وفي الاصمعي الرازقي أبيض داخلتـه زرقة طوال الحب · وفي التهذيب الرازقي هو الملاحي · ويقال له الطاهر والطهار ·

الدُّواسي : بالضم[1] عنب أبيض عظيم العناقيد مدحرج الحب كثير الماء حلو جيد الزبيب · وفي اللسان مدور الحب متشاشل[2] العناقيد طويلها مضطربها · قال الازهري لا أدري الى اي شيء نسب الا ان يكون مما نسب الى نفسه كدوار ودواري وان لم يسمع الدُّواس هنا · وفي المخصص ومنه الدَّوّاسي والدُّوّاسي وهو الشامي وهو كأنه أذناب الثعالب وهو عنب أبيض كثير العناقيد مدحرج الحب كثير الماء حلو ويزبب ·

الاوقاعي : قال في المخصص الالف منه مكسورة وقيل الأقاعي وهكذا ضبط في اللسان · عنب ابيض واذا انتهى منتهاه اصفر اصار كالورس وحبه مدحرج كبارمكتنز العناقيد كثير الماء وليس وراء عصيره غاية في الجودة وعلى زبيبه المعول · وهو غلةالناس واصل العنب الذي يعتمد عليه · والاقاعي ضربان فارسي وعربي · فالعربي ابيض عظام الحبة كثير الماء والفارسي اعظم حباً من العربي واقل ماءً واكثر شحماً ·

التَّبُوكي : ضرب من عنب الطائف أبيض قليل الماء عظيم الحب نحو من عظم الاقاعي ينشق حبه على شجره كذا في اللسان والتاج وزاد ابن عباد كأنه نسب الى تبوك · وفي المخصص والتبوكي وهو عنب احمر كبار كالضروع في العظم الا ان الضروع أحلى منه واكبر عناقيد ويزبب كأنه التمر الشهريزي في الكبر · وقد ذكر في كتاب الاصمعي : الشوكي : اكثر من مرة وعرفه بنحو ماتقدم عن اللسان والصواب التبوكي كما ذكرناه ·

---

(١) هكذا ضبطه في التاج وضبط في اللسان بالشكل مثله وفي الاصمعي والدُّوّاجي والدُّوّامي الواو مشددة ثم قال والدُّوّامي الشامي ولم اجد النواجي فيما لدي من كتب اللغة ولا من ضبط النواسي بتشديد الواو كما ضبط في كتاب الاصمعي ·

(٢) كذا في اللسان وفي الاصمعي متسلسل العناقيد ·

أطراف المذارى : عنب أبيض طوال كأنه البلوط يشبه باصابع المذارى المخضبة لطوله وعنقوده نحو الذراع متداحس[1] وقد يزبب كذا قال في المخصص . وفي الاصمعي أجود العنب الأبيض أطراف المذارى والضروع وهما متقاربان كل واحد يشبه صاحبه يقال هذا عنقود من الأطراف . وقال في موضع آخر واما الأطراف فابيض طوال رقاق وفي التاج أطراف المذارى ضرب من العنب ابيض رقاق يكون بالطائف يقال هذا عنقود من الاطراف كذا في الأساس .

وفي اللسان وأطراف المذارى عنب أسود طوال كأنه البلوط يشبه باصابع المذارى المخضبة لطوله وعنقوده نحو الذراع . ثم قال وقيل هو ضرب من عنب الطائف أبيض طوال دقاق .

هذه أقوال هؤلاء الائمة في تفسير أطراف المذارى . وهو متضارب وقولهم يشبه باصابع المذارى المخضبة يدل على انه غير ابيض . والذي يظهر لي انه وقع التباس في هذا النوع من العنب فان هناك نوعاً آخر يقال له أصابع المذارى وهو اسود كما يأتي فعلى هذا ينبغي ان يكون الأبيض أطراف المذارى والأسود أصابع المذارى و يؤيد ذلك قول الأصمعي أجود العنب الأبيض أطراف المذارى وقوله : واما الاطراف فأبيض ، وقول الاساس : ابيض رقاق ، فتأمل .

الآء بوزن الماع عنب ابيض يأكله الناس ويتخذون منه رُبّاً وقيل هو ثمر السرح . الناهر والنهر ككتف العنب الأبيض هكذا ذكره في القاموس ولم يحله .

الكُلافي بالضم عنب ابيض فيه خضرة واذا زبب جاء زبيبه اكلف[2] ولذلك سمي الكلافي . وقيل هو منسوب الى كُلاف وهو بلد في شق اليمن معروف كما نسبوا الجرشي والتبوكي والثُّرَبي[3] .

---

(١) يقال دحس الزرع اذا امتلأ حباً ودحس الشيء ملأه ودحس السنبل امتلأت اكمته من الحب ودحس الصفوف زاحمها بالمناكب . (٢) في التاج ادم أكلف .

(٣) هكذا قال في المخصص ولم ينعته ولعله منسوب الى تربة كهمزة وهو واد بقرب مكة على يومين منها وقيل وادٍ للضباب طوله ثلاث ليال فيه نخل وزروع .

القُبَّر كَصُرد عنب ابيض فيه طول وعناقيده متوسطة ويزبب ٠

الرَّعْناء عنب بالطائف ابيض طويل الحب هكذا في اللسان والتاج ٠ وفي الاصمعي عنب له حب طويل ٠ ولم ينعته ٠

الضروع بالضم عنب ابيض كبير الحب قليل الماء عظيم العناقيد منه[1] الزبيب الذي يسمى الطائفي وعناقيده متراصفة الحب ٠ وفي الاصمعي واما الضروع فأبيض وهو اطول العنب حباً واقله حبّة وقد تقدم قوله ان الضروع يشبه اطراف المذارى ٠

أَلوَرْن : العنب الأبيض عن ثعلب عن ابن الاعرابي وانشد :

كأنه الوَرْنُ اذا يُجنى الوين

وقال ابن خالويه الوين العنب الاسود والطاهر والطهار العنب الرازقي وهو الابيض وكذلك الملاحي وقد تقدم هذا ٠

الشآمي عنب ابيض فاذا أينع احمارَّ هكذا قال الاصمعي ٠ وقال في موضع آخر ٠ والدوامي الشامي وقد تقدم عن المخصص نحوه ٠

الجُرَشي كقرشي ضرب من العنب ابيض الى الخضرة رقيق صغير الحبة وهو اسرع العنب إدراكاً ٠ وزعم ابو حنيفة ان عناقيده طوال وحبه متفرق قال وزعموا ان العنقود منه يكون ذراعاً كذا في اللسان ٠ ثم قال ومن الاعناب عنب جرشي بالغ جيد ينسب الى جرش[2] ٠ وفي المخصص الجرشيّ وهو اطيب العنب كله وهو اصحر[3] رقيق يبكر فيلح عليه الناس وقد يزبب وعناقيده طوال وحبه متفرق يكون العنقود منه ذراعاً

(١) في التاج مثل الزبيب الخ ٠

(٢) جرش بضم الجيم وفتح الراء مخلاف باليمن من جهة مكة نسب الى جرش وهو لقب منبه ابن أسلم بن زيد بن الغوث بن حمير وجرش بفتح الجيم والراء بلد بالشام وفي التاج بلد بالاردن من فتوح شرحبيل بن حسنة ٠

(٣) السَّحَر والسُّحْرة بياض يعلو السواد يقال بالسين والصاد الا ان السين اكثر ما يستعمل في سحر الصبح والصاد في الالوان يقال حمار اصحر واتان صحراء وقيل الصحرة لون الاصحر وهو الذي في رأسه شقرة وقيل حمرة تضرب الى غبرة ٠

وفي الاصمعي فأما الجرشي فأبيض صغار الحب اول العنب إدراكا .

الجُرَشِي كقرشي عنب كجرشي كذا ذكره في التاج .

الَبيْضَة بالفتح عنب بالطائف أبيض عظيم الحب .

حَبَلة عمرو بالاضافة ضرب من العنب بالطائف بيضاء محددة الأطراف متداحضة العناقيد كذا في اللسان وفي التاج والمخصص متداخصة وفي الاصمعي متداخشة .

ولعل متداحضة مأخوذة من الدحض بمعنى الدفع او محرفة عن متداخصة كما جاءت في عبارة التاج والمخصص ولعلها من دخصت الجارية من باب منع دُخوصاً . امتلأت لحما[1] . فهي دَخُوص .

واما متداخشة فلعلها من دخش كفرح اذا امتلأ لحما .

السُّكَّر بالضم وتشديد الكاف المفتوحة عنب يصيبه المرق فينتثر فلا يبقى في العنقود الا أقله وعناقيده أوساط وهو ابيض رطب صادق الحلاوة عذب وهو من احسن العنب واظرفه[2] ويزاب (والمَرَق آفة تصيب الزرع) ومرقت النخلة كفرح نفضت حملها بعد الكثرة . وفي اللسان مرقت النخلة وأمرقت سقط حملها بعد الكبر والاسم المَرْق . وَمَرَق حب العنب يمرُق مُرُوقاً انتثر[3] من ريح او غيره .

الَجوْزة بالجيم ضرب من العنب ليس بكبير[4] ولكنه يصفر جداً اذا أينع هكذا قال في المخصص واللسان والأصمعي وفي التاج ولكنه يصفر جداً والظاهر انه تحريف .

الَحوْزة بالحاء عنب ليس بعظيم الحب نقله في التاج عن الصاغاني ولم ينعته .

سليم الجندي

عضو المجمع العلمي العربي

—«*»—

(١) كذا في اللسان وفي التاج شحماً . (٢) في اللسان والمخصص من طرائف العنب .

(٣) في اللسان انتشر . (٤) في الاصمعي ليس بعظيم الحب غير انه الخ .

آراء وافكار

—«»—

التفاؤل والتشاؤم[1]

« بكلمات اللغة »

من الناس من يتشاءم بكلمات اللغة فلا يرضى ان يستعمل منها في كتابته او خطابته الا ما كان لطيف الجرس . لذيذ الوقع في النفس . لكننا اذا أقررناه على تشاؤمه هذا ووافقناه على اطراح كل كلمة من كلمات اللغة احتكم فيها بذوقه الشخصي — اضطررنا ان نكنس من بين سطور معاجمنا كثيراً من الكلمات في وقت نحن محتاجون فيه الى تنمية اللغة وتكثير سواد كلماتها : فاذا كنا لا نجوز استعمال الكلمات غير القاموسية من مولدة . ودخيلة معربة . ولا يمكننا ان نضع كلمات وضعاً جديداً ثم بعد ذلك كله أخذنا نتشاءم بالكلمات التي نشعر فيها ببعض الغرابة او الكراهة في السمع ونحكم ذوقنا الخاص في هذه الغرابة او الكراهة — كيف يتيسر للغتنا ان تجاري اللغات الحية ولتسع دائرتها لمطالب الحياة الجديدة . فعلينا إذن ان نقاوم هذا التشاؤم اللغوي بتفاؤل لغوي مثله او أشد منه : فنتفاءل بكلمات اللغة . ونعمل على إحيائها معها احسسنا لأول الامر بكراهتها في السمع . فان تداولها وتكرر استعمالها كفيلان بتهذيبها . وصقل خشونتها . والشرط الاصلي في جواز استعمالها مراعاة المقامات : اي ان يعرف الكاتب او الخطيب كيف يستعمل الكلمة وفي اي المقامات يجلسها .

فاذا أوتي حظاً من الذوق اللغوي وعرف كيف يميز بين الكلمات . وما تصلح كل واحدة له من المقامات . راجت الكلمات التي كنا نعدها غريبة او متنافرة وحسن وقعها في الأذواق . وتعاورتها أقلام الكتاب وألسنة الخطباء : اذا لم يكن ذلك في كل موطن ففي مواطنها الخاصة . بها ولنضرب لذلك المثل الآتي :

(١) قرئت في احدى جلسات المجمع .

اذا قال العرب (فلان سَبْط الشعر) أرادوا انه مسترسل الشعر غير مجعّده . و (سَبْط القامة) اي ممتدّها طويلها . واذا قالوا : (فلان سِبَطْر) كان معناه ايضاً الطويل الممتد القامة . فالراء في (سبطر) هي قطعاً زائدة في آخر كلمة (سبط) لاتحادهما في المعنى . وكما تكون الزيادة في آخر الكلمة تكون احياناً في اولها وهذا نحو اقشعرّ من (قشر) فان قافها زائدة في اول كلمة (شعر) لان معنى (قشعر) قفّ شعره والتصب .

ثم ان العرب اذا وصفوا الاسد بكونه (سِبَطْراً) حصل بعض التغيير في معنى الامتداد : ذلك لأنهم يريدون امتداده عند الوثبة على الفريسة . فامتداده في تلك الحالة هو امتداد جسمه او امتداد المسافة التي يقطعها .

واذا قالوا (اسبطرّ) فلان على وزن (اقشعرّ) أرادوا معنى الاضطجاع : لان المضطجع يمدّ بدنه على الارض .

ومن الادلة على ان الاسبطرار هو امتداد الجسم وانبساطه ما حكاه علماء اللغة قالوا : حاكمتْ امرأة صاحبتها الى (شُرَيْح) القاضي في هرّة بيدها . ومع المدعية درص هرة . ودرص الهرة ولدها الصغير (وكذلك ولد الأرنب والجرذ ونحوهما في الجحر كله يسمى درصاً) . فقالت المدعية : ان الهرة هرتي وهي أمّ هذا الدرص الذي بيدي . وقالت الاخرى كلاّ وانما هي هرّتي . ولما جاء دور الكلام للقاضي (شريح) فصل القضية بينهما على هذه الصورة :

أدْنُوا الدرصَ من الهرة فان هي قرّت (اي سكنت) ودرّت (اي سال الدرّ من ثديها) واسبطرت (اي امتدّت على الارض متهيأة للارضاع) فالهرة للمدعية . وان هي فرّت وانقبضت وازبأرّت (اي انتفش شعرها) فليست لها (لان الهرّة لا تهرب من ابنها الصغير عادةً) .

هذا هو معنى اسبطرّ الحقيقي اوالأصلي أعني امتداد الجسم . وضد (اسبطرّ) بهذا المعنى انقبض وتكمّش وتقاعس واختنأ وتجمّع الخ .

ثم توسع العرب في (الاسبطرار) فاستعملوه في معنى السُرعة وأن يمضي السائر أمامه قُدُماً من دون ان يُعَرّج او ينثني : فقالوا : (اسبطرّت الابل) اذا أسرعت .

وإنما سمّوا السرعة اسبطراراً لان المسرع يمتد جسمه بطبيعة الحال .

ومن استعمال الاسبطرار بمعنى السرعة قول عمر بن ابي ربيعة :

(قالت لها أختهـا تعاتبهـا لتُفسدنّ الطواف في عمر)
(قومي تصدّي له ليُبصرنا ثم اغمزيه يا اخت في خفر)
(قالت لها قـد غمزته فأبى ثم اسبطرّت تسعى على اثرى)

فقول عمر (اسبطرّت) يريد انهـا أُسرعت وجدّت في الجري خلفه . ويروى (ثم اسبطرت تشتدّ في اثري) .

وليس في قول هاتين الفتاتين مايدعو الى الريبة او سوء الظن في اخلاق عمر وهو نفسه الذي يقول :

(إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظّ لي فيه إلا لذة النظر)

بقي علينا قول عمرو بن معدي كرب الزُّبَيْدي وهو من ابيات الحماسة :

(ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أُرسلت فاسبطرّت)

مامعنى قوله (اسبطرّت) وهل ضميره يرجع الى الخيل ام الى جداول الماء المنسابة بين الزرع ؟ وعلى كل حال هل (الاسبطرار) هنا بمعناه الاصلي اعني امتداد الجسم ؟ فان الماء يمتدّ على الارض والخيل تمدّ اجسامهـا وهي مسرعة — او بمعنـاه الفرعي : وهو الاسراع : فان الماء يسرع والخيل تسرع — كل ذلك جائز .

ومن توسع اهل اللسان في الاسبطرار ان نقلوا معناه من الامتداد الحسي الى الامتداد المعنوي من ذلك قول الحريري في احدى مقاماته :

(قد دفع الليل الذي اكفهرا الى ذراكم شعثاً مغبرا)
(اخا سفار طال واسبطرّا) الخ

وضمير (اسبطرا) راجع الى السفار اي السفر فهو يقول ان سفره طال امده واشتد ولا يخفى ان امد السفر وزمنه ليس امراً محسوساً بل معقولا .

ويقول قائل : ولكن ما الفائدة من تحليل كلمة الاسبطرار وبيان اشتقاقها وطرائق استعمالها اذا كانت غريبة لايمكن اقتباسها في الكتابة والخطابة ؟

اقول بل ينبغي ان نحييها بالاستعمال بل نحيي ما كان افصح لفظاً منها بشرط ان نعرف

كيف نستعمله ؟ وفي اي المواطن والمقامات ندخله ؟

مثال ذلك كلمة اذا ذكرتها للقارئ استقبحها وأنكر جوازاستعمالها . حتى اذاشرحت له طريقة الاستعمال والمقامات التي يجب ان تقع فيها أعجب بها . وعوّل على استعمالها من دون تردّد ولا نكير .

تلك الكلمة هي (المجاحشة) وهي في اللغة بمعنى المزاحمة وهذا المعنى إما ان يكون جاءها من مادة (الجحش) ابن الأتان فان الجحاش اذا أرسلت العراك زاحم بعضها بعضاً . وإما ان يكون جاءها من (الجحش) مصدراً بمعنى السحج اي قشر الجلد : يقال جُحشت فخذه أو ساقه اذا قُشِر جلدها : فمن يجاحش الآخر اي يزاحمه في امر من الأمور انما تكون مجاحشته له في أشد حالاتها حتى تصل الى حدّ ان يقشّر احدهما بدن الآخر فهو مبالغة في تصوير المزاحمة وفرط اللزاز .

هذا هو معنى (المجاحشة) في أصل اللغة ثم استُعملت في مطلق مزاحمة : بين الجحاش او غير الجحاش . نتج عنهـا قشر جلد وخدش بدن او لم ينتج شيء من ذلك . ولهذا لما رأوا ان الذي يدافع غيره عن نفسه تقع منـه مزاحمةٌ له سموا المدافعة مجاحشة فقالوا : جاحشَ فلانٌ فلاناً اذا دافعه وقاتله .

ثم توسعوا في الاستعمال فقالوا : جاحشَ فلان عن فلان اذا دافع عنه وحامى عنه . ومنه قولهم (فلان يجاحش عن خيط رقبته) اي انهم يحاولون الحكم عليـه بالقتل وقطع العنق وهو يجتهد في المجاحشة والمدافعة عن نفسه بمختلف الوسائل .

نقول : ولكن مهما كان من امر اشتقاق كلمة (المجاحشة) ومهما كان من استعمال بلغاء العرب الأقدمين لها فالواجب في عصرنا هذا ان تموت موتاً ، اذ لا يحسن ان يقال : فلان يجاحش في المحكمة عن فلان . ولا أن فلاناً أحسن المجاحشة في هذه الدعوى . ولا أنه مجاحش بارع كما يقال محام بارع .

نعم لا يجوز ان يقال ذلك جميعه ولا ان تستعمل كلمة (المجاحشة) في هذه المقامات لوجود كلمات غيرها تُغني عنها . وهي أليق بالاستعمال منها .

ولكن ماقول السادة الفضلاء . في هؤلاء الذين يزاحم بعضهم بعضاً على أبواب الامراء . وكلٌ منهم يريد ان يتقدم على إخوانه . ويتبوأ المكان الأرفع من مجلس الامير وديوانه .

فهذه المزاحمة الممقوتة التي تقع من اولئك البلداء . على هذه الصورة السوآء بمرأى ومسمع من العامة والدهماء . أليست جديرة بان تسمى (مجاحشة) لا (مزاحمة) وان يقال عن اصحابها في معرض التهكم بهم والتعبير . انهم كانوا يجاحش بعضهم بعضاً على باب الامير .

لا جرم ان العلم الذي عرّف (البلاغة) بانها مطابقة الكلام لمقتضى الحال يجوّز لنا استعمال كلمة (المجاحشة) وادّخارها لمثل ما ذكرنا من المقامات او المناسبات .

« المغربي »

حول « واسطة السلوك »

قرأت في الجزء الثاني من المجلة (شباط ١٩٣١) ما كتبه السيد محمد السعيد الزاهري عن كتاب ابو حمّو سلطان تلمسان وقال ان الذي ترجمه الى اللغة الاسبانية هو الاستاذ ماريتو غاسبار نقلاً عن نسخة عربية مخطوطة موجودة في مكتبة الاسكوريال .

واني استميحكم تصحيح هذا الخطأ اذ المترجم ذكر في مقدمته ص ٧ مانصه :

انه ترجمه عن النسخة العربية المطبوعة في المطبعة الملكية في تونس سنة ١٨٦٢ واسم النص العربي « واسطة السلوك في سياسة الملوك » والكتاب موجود منه نسخة في مكتبة المجمع العلمي التاريخي في مدريد .

مدريد : م . أسين

مطبوعات حديثة

—«»—

المراح في المزاح

موضوع هذا الكتاب (أعني المزاح والدعابة) من أشهى الموضوعات وانفعها بشرط ان يتجرد مما لاخير فيه من الكلام · وما تنبو عنه أسماع الكرام · ويكون الحال فيه كما قيل عنه صلى الله عليه وسلم (انه كان يمزح ولا يقول الا حقاً) وقد راعى المؤلف العلامة بدرالدين الغزي الدمشقي المتوفى سنة ٩٨٤ ﻫ هذه الشرائط في كتابه هذا : (المراح في المزاح) اقتصر فيه على ماورد في كتب السنة وأخبار السلف · فبدأ بما ورد من ذلك عنه صلى الله عليه وسلم ثم عن صحابته والتابعين · فجاء الكتاب في سبعين صفحة · وكل أخباره مروية بالسند على طريقة المحدثين · وقد وقعت مخطوطة هذا الكتاب في يد ناشرها السيد أحمد عبيد (احد اصحاب المكتبة العربية في دمشق) فطبعها بنفقة مكتبتهم المذكورة طبعاً بلغ حد الاتقان · وقد قدمها بكلمة منه ثم بترجمة المؤلف وعني عناية خاصة بتخريج أحاديث الكتاب فردها الى مصادرها او مصادر أخرى معتمدة · ولم يحذف من اصل المخطوطة سوى خبر خوات ابن جبير المشهور وهناك خبر آخر ذكره في ص ١٥ و يابنه حذفه كما حذف خبر خوات · ومن جملة ما استفدناه من هذا الكتاب ان كلمة (الادب) التي يكثر أدباء العصر من البحث عن معناها وتحقيق اس مدلولها واطلاقها في زمن الجاهلية والاسلام — وجدنا لها معنى مناسباً لمعناها الذي لا يكاد متأخروالادباء يفهمون سواه : وهو مصطلح الأخبار التي تتضمن شعراً ولغة وفصاحة قول : ففي ص١٩ ان السيدة عائشة(رض) عابت (القاسم) مذ لحن في كلامه وفضلت عليه (ابن ابي عتيق) وقالت للقاسم « امالي علمت من اين أتيت ؟ هذا (تعني ابن ابي العتيق) قد أدبته أمه · وانت أدبتك أمك »

فلتقويم اللسان وتعويده الفصاحة في القول كان من الأدب في عرفهم . وجاء (في ص٣٧) ان ابن ابي عتيق المذكور وهو مشهور باللهو والمطايبة — داعب عبد الله بن عمر رضي الله عنه دعابة فيهـا شعر وشيء من رفث هاله امره اولاً حتى اذا فهم حقيقته ابتسم وطابت نفسه وقال لابن ابي عتيق (أحسنت فزدنا من هذا الادب) وهو يعني به الشعر وما احتف به من هذه الدعابة المفكهة .

والغلط في الكتاب قليل جداً أهمه غلطة وردت في (ص ٥١) في حكاية الاعمش الذي قدم لجليسه سلة (فيها رغيفان يابسان وسكرجة كامخ شُبِّثَت) هكذا ضبط المصحح كلمة (شبِّت) بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول من مادة (شبّ) وتاؤه للتأنيث وقال في تفسيره ان معنى شبثت أثيحت وهيأت .

وصواب الكلمة (شِبِثّ) وهي اسم على زون (فِلِزّ) اي بكسر اوله وثانيه وتشديد ثالثه وهو بقلة معروفة كما في كتب اللغة ويسميه بعضهم بالسنّون اي الكمون فهو من الكوامخ المشهية للطعام . تارة يعالج كامخاً مستقلاً وتارة يضاف الى الطبيخ . وتارة يطبخ وحده كما يفهم من كلام ابن البيطار في مفرداته وهاك قوله (والكامخ المعمول فيه الشبث أصلح الكوامخ وانفعهـا للمعدة . . . وهو اصلح من كامخ الحندقوقا . . . وكامخ الشبث جيد لمن أراد ان يتقايأ . . . والشبث لا يصلح للمحرورين فان هم اكلوا من طبيخ فيه شبث كثير فليشربوا عليـه من السكنجبين . وقال الخوز يبيون طبيخ الشبث ينفع من وجع الكلى الخ . وبالجملة فان الكتاب مفيد وقد أحسن ناشره في نشره فالشكر له .

« المغربي »

ارشاد الاريب

« الى معرفة الاديب المعروف بمعجم الادباء وطبقات الادباء لياقوت الرومي »
« عني بنسخه وبتصحيحه الاستاذ د . س . مرجليوث الجزء السادس الطبعة »
« الثانية بمطبعة هندية بمصر سنة ١٩٣٠ »

صدرت الطبعة الاولى من هذا الجزء في مصر ايضاً وفي نفس تلك المطبعة سنة

١٩١٣ وهو احد الاجزاء التي يتألف منهـا هذا الكتاب النفيس الذي احيـاه بالطبع صديقنا الاستاذ مرجليوث الانكليزي فاستحق إعجاب المشتغلين باحياء آثار الامة العربية . وقد نظر الاستاذ في الطبعة الثانية من هذا الجزء نظراً ثانياً وشفع طبعته هذه بفهرس مطول في اسماء الرجال قرّب على الباحثين منـاله استغرق ٥٦ صفحة ، ثم ثناه بفهرس في اسماء الكتب الوارد ذكرها في هذا الجزء وقد بلغت ٢٣ صفحة . فنكرر للاستاذ المشار اليه تهانينا على توفيقه لنشر معجم ياقوت وللانتفاع به على هذه الصورة من الاتقان والاجادة .

م . ك



المعيد في ادب المفيد والمستفيد

« اختصره من الدر النضيد للبدر الغزي — الشيخ عبدالباسط بن موسى بن محمد »
« العلوي المتوفى بدمشق سنة ٩٨١ هـ ووقف على طبعـه السيد احمد عبيد »
« الطبعة الاولى في مطبعة الترقي سنة ١٣٤٩ هـ ص ١٥٢ »

هذا الكتاب كما قال الاستاذ ناشره يشتمل على ادب العلم والمعلم والمتعلم وادب الفتوى والمفتي والمستفتي وادب المناظرة وشروطها وآفاتها والادب مع الكتب وما يتعلق بها الى غير ذلك من الفوائد ، وقد طبعه منقولاً من مخطوطته بقلم المختصر ، وجدت في حلب وعليها ايضاحات وتعليقات فأبقاها على ماوجدها ولم يعلق من عنده سوى تعليقات طفيفة لكنه بالغ العنـاية بالتصحيح على عادته في معظم ما طبع من آثار السلف فاستحق شكر الآداب على دؤوبه في خدمة الآداب .

م . ك



مجالس اناتول فرانس(1)

—«×»—

كان في كل حضارة قامت في الارض ، وكل اجتماع بلغ حد الكمال اوكاد ، شأن عظيم لمجالس ارباب العقول والقرائح في تكوين ملكة العقل في تلك الامة ، وتعليم الناشئين بالتلقين مافاتهم تلقفه في دراسة الاسفار والآثار . هكذا رأينا المجالس العلمية والفلسفية والادبية والصوفية في العصور العربية الراقية ، ولو دوّنت كلها لصوّرت لنا مجتمعات الأجداد على جليتها ، وعرفنا اكثر مما عرفنا طرق تفكيرهم وخوالج نفوسهم . بيد ان الشيء القليل الذي انتقل الينا في كتب المسامرات والمحاضرات وقفنا به الى حد لا بأس به على روح تلك القرون الزاهية ، ومن أهمها المجالس التي نقلها ، فيما انتهى الينا من تآليفه ، ابوحيان التوحيدي وأشرنا الى اكثرها في هذا المكان منذ اربع سنين . لقد صوّر لنا مجالس الفقهاء والفلاسفة والمتكلمين والادباء في القرن الرابع في بغداد تصويراً يدهش من يقرأوه ، حتى ليكاد يخيل اليه ان بغداد في عصرها الرابع للهجرة لم تكن في طرق البحث والنظر أقل من باريز ولندن و برلين ونيويورك في القرن العشرين للميلاد .

ثم كانت للقوم مجالس اومجتمعات في قصور الخلفاء والملوك والامراء والعلماء والاعيان يختلف اليها المتماثلون من عشاق الآداب والفضائل ، فيتكلم فيها ارباب العقول الراجحة والممتازون من كل رعيل ، بما تمليه عليهم قرائحهم المبدعة ، وعلومهم الناضجة ، فكانت المنافسة على أتمها بين المتصدرين لهذه المطالب . يحفظون احسن ما يقرأون ، ويتكلمون

(1) محاضرة للاستاذ السيد محمد كردعلي وزير المعارف في دولة سورية ورئيس المجمع العلمي العربي القاها في ردهة المجمع يومي ٧ و١٤ أيار سنة ١٩٣١ .

باجمل مايحفظون . وهناك التفاضل ، وهناك التنافس في اقتناء المحامد ، واستفادة كل طالب وقاصد .

وأعظم يحظ من كانوا يختلفون الى تلك الاندية ، يطبقون مايقرأونه على مايسمعونه . ولغة الكلام المسموع ، أعمل في النفوس من لغة المقروء في المخطوط والمطبوع ، وصوت الحي يحيك في الصدور فيحي الملكات ، اكثر مما تحيك الرسوم والأشكال من حروف وكلمات . ورب كلمة تتلقفها عن عالم ، تكون أشد تأثيراً في مجرى حياتك من مدارسة الصحف المكتوبة زمناً . ورأينا مجالس الوعظ التي كان يعقدها ابوالفرج ابن الجوزي في بغداد ودمشق يستمع الناس لفصاحته وخلاصة تجاربه في الحياتين الدنيوية والاخروية ، لم تكن في تأثيراتها في عصره اقل بكثير من تأثيرات علم الجاحظ بكتبه وتآليفه ، على مابين الرجلين من تفاوت في العصر وتفاوت في العلم . وشارك النساء الرجال في هذا الباب . هكذا كانت مجالس علية وسُكينة وولادة ، وهكذا كانت المجالس التي نقل أخبارها الاصفهاني في الاغاني والتنوخي في نشوار المحاضرة .

والناظر في المجتمع الغربي منذ هب يلتمس الفوائد ، ويتحضر بنور العقل والثقافة يراه على حصة موفورة في عقد مثل هذه المجالس التي كان للملوك والامراء وأعيان الناس الفضل الاول في جمعها ، فقد فتحوا قصورهم وصدورهم لمجالس كان ، من أوتوا العلم ورزقوا الفصاحة من ابنائهم ، بلابلها المغردة ، عرفنا منها غرام الانكليز والفرنسيس بتلك المجتمعات منذ القرن الرابع عشر والى اليوم . وكل من تلمس أخبار مجالسهم في القرون الخمسة الاخيرة يقول معنا ، ان مجالس الادب الخاصة في كل مدينة من مدنهم ، كانت من العوامل الكبرى في تهذيب الملكات ، وبعث القرائح الكامنة والعبقريات الفائقة ، فكان صاحب المجلس او صاحبته يفاخر بمن قدر له ان يضم شملهم من ارباب المكانة والتجارب ، يجمعهم في اوقات معينة من ايام الاسبوع ، يتذاكرون صنوف العلم والأدب وينصتون لمن ميزتهم الطبيعة عن غيرهم ، ليحمل الصغير عن الكبير ، وينقل الخلف عن السلف من ضروب الآداب ، ماهو مفخرة الاجيال والاحقاب . و يبلغنا لهذا العهد عن الانكليز ان حب البلاغة تمكن من طبقاتهم العليا ، حتى انهم امسوا اذا اجتمعوا في ناد او الى مائدة لا يتكلمون الا بافصح مايعرفون ، فترى أحاديثهم مجموعات ادب ، ودروس

فصاحة وبلاغة ، اما الفرنسيس فهم بالاجماع سدنة هذه المقاصد ، ذلك لانهم أمة آداب قبل كل شيء ، وعنهم تحمل ومن لغتهم تنقل .

وآخر من انتهى الينا خبره بل أخباره من هذا القبيل كاتب فرنسا الاكبر (اناتول فرانس) ، فقد كان له صديقات منار باب اليسار يرين من أعظم مفاخرهن ان يجالسهن في قصورهن في باريز ، يلقي عليهن وعلى جلسائهن ثمار قريحته وتجربته ، ليفيد بها النساء والرجال علماً يأخذ منه كل مستمع على قدر مبلغه من شهوة العلم ، والاستعداد للانطباع بالافكار الناضجة . وما خلت مجالسه في بيته وبيوت صويحباته منذ اشتهر بنبوغه من أناس نقلوا عنه مارواه في ردهاتهم من تصورات ، فنشروها للناس بعد وفاته ، وكانت صورة من بلاغة لسانه وازت بلاغة قلمه التي شهد بها كل عارف قرأها في اصلها او مترجمة الى لغة أخرى .

كان اناتول فرانس مولعاً بالقرن الثامن عشر يحيي آثاره ، ويتمم في تقيّل خطى أهله ، ومن زاروه في داره أثبتوا انه لايختلف عن رجال ذاك القرن في المسكن والملبس والرياش والاثاث والعادة والمنزع الا فيما لابال له ، ولم يفترق عن اعاظم ارباب العقول المفكرة من اهل القرن السابق ، الا بما فطرت عليه نفسه من اطلاق الحرية الفكرية في مجالسه الى أقصى حد يصل اليه ابن القرن العشرين ، وفي مدينة مثل باريز وما يحمل اليها من ثمرات الادب الافرنسي خاصة والادب الغربي عامة .

شبهت معلمة لاروس (اناتول فرانس) بفولتير على اختلاف قليل بينهما ، فقد كان لهما ذوق واحد بمباهج الحياة ، ونفرة متحدة من الألم ، وتشابها في قلة الصبر على احترام مايحترمه الناس ، وطال عمرهما كلاهما ، وكان كل منهما في عصره ملكاً على الآداب . وقالت في مكان آخر : ان فرانس اذا كان في كلامه على السيدات صريحاً فانه كان يطرّس على آثار قدماء اليونان واللاتين ومصوريهم في هذا الشأن ، فهو مأخوذ بالقديم و يريد احياءه بما فيه من وثنية ووضوح . واناتول فرانس على ماظهر اخذ ما وضعه فولتير باليمين وقدمه وشرحه ، وكانت صلته برنان كبيرة ، فالأحرى ان يقال ان رنان خلف فولتير ، واناتول خلف رنان ، ورث كل منهم من صاحبه منازعه في الحرية ونقمته على المجتمع ، على أسلوب استطابه من استطابه ، وبعض الناس له منكرون .

وممن نقلوا افكاره وأطواره بعد وفاته امين سره جان جاك بروسون كتب كتاباً سماه (اناتول فرانس في مباذله) اي في بيته ، ونقله الى العربية صديقنا العلاّمة الامير شكيب أرسلان . وكان نقولا سيغور[1] من ارباب الأقلام الزم لاناتول فرانس من منشعرات قصه مدةطويلة ، نقل حكايات اناتول في مجلد، واحاديثه في مجالسه في مجلدين ، وهذه المجلدات الثلاثة لم تنقل الى العربية ، وعليها نعتمد في الحدث اليكم بنموذجات من مجالس نابغة أدباء هذا العصر غير مُدافَع .

وما قدحان الوقت لننقل جملاً مما فاه به أديب الفرنسيس في حياته ، ودوّنوه عنه ونشروه بعد وفاته ، فصح فيه ماقاله الشاعر العربي من بعض الوجوه . لان من عرفوا فضل الأديب الكبير في حياته اكثر ممن شاغبوا عليه ونقموا منه اشياء لم يستطيبها مذاقهم ، ولم تدخل او لم يريدوا ان يدخلوها في قلوبهم ويعوها في صدورهم ، وشاعرنا قال :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى لؤماً وخبثاً فاذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب

* * *

قال اناتول فرانس في المجد الباطل : اياك يا صاح ان تثق بالمجد والعبقرية ، فان المرء اذا فكّر فيهما تهتز أعصابه . ولاشيء في هذه الدنيا كما يقول مونتين ، والدنيا هذه هي الارجوحة المستديمة ، أدعى الى التضعضع والتذبذب من شهرة عظماء الرجال ، فقد يوشك

(1) Nicolas Ségur : Conversations avec Anatole France ou les mélancolies de l,intelligence .

احاديث اناتول فرانس اوسويداء الذكاء لنقولا سيغور .

Nicolas Ségur : Dernières conversations avec Anatole France .

أحاديث اناتول فرانس الاخيرة لنقولا سيغور .

Nicolas Ségur : Anatol France Anecdotique .

أناتول فرانس القصاص لنقولا سيغور .

بعضهم ان يتناسى امرهم بسوء طالعهم ، وهكذا ترانا نحب الشاعر رونسار الذي دلنا ذكره مع ان دو بارتاس كان هو الشاعر العظيم ومثال العبقرية في ذاك العصر ، وكان كيتي الشاعر يعجب به الى الغاية ، وكان هذا على شيء من الذوق مثلنا . ان من احرزوا شهرة لا يستمتعون بها ابداً ، فان مصافق (بورصات) القيم الادبية على ما أرى اكثر اضطراباً واقل ثباتاً من مصافق المضاربات المالية ، وكل قرن يهزأ بما تعبد به قرن آخر ، والقرون تتعجب بما أعجبت به قرون قبلها ، والاسماء الكبيرة قد تصغر . واذا قدر لنا ان أحببنا ماأحبه الماضي ، فانا نأتي ذلك عرضاً او لأسباب أخرى ، خلافاً لما كان يذهب اليه آباؤنا ، وكل فكر يموت في الحقيقة بموت الزمن الذي ولد فيه .

وليس أدعى الى الهزوء والمذلة من تاريخ زعموا انه « اسمى التآليف » على وجه الدهر . مثّل لنفسك العجب الذي يأخذ دانتي الشاعر لو قدر له ان يلقي نظرة على هذا الركام من الزيادات التي اثقل بها الشراح روايته الهزلية الآلهية . وانظر هوميروس الشاعر لو عاد الى الارض فنظر الى الهذر بفسات والزيادات والترهات المصنعة بايدي العلماء التي عاقت بالالياذة . وتصور شكسبير الشاعر يستمع الى الوف من التأويلات في رواية هملت .

لا جرم ان هؤلاء الشعراء يجنون اذا شهدوا ما تم لشعرهم بعدهم ، وبعمل المعجبين بانفسهم الذين يتمثلون الاشياء على الاغلب ويعملون من تفاسيرهم الكاذبة مايبثون به السبل الى تلك التآليف السامية حتى تدوم شهرتها ، فهم ابداً يكربونها ويجددونها ، فتزيد بهم على الدهر جدة وصقالا .

وليت شعري كيف نعتقد بحقيقة المجد وقد رأينا القرن العريق في المدنية اي قرن فولتير قد احتقر هوميروس ودانتي ، ووصف شكسبير بانه متوحش خشن ، ولذلك يجب ان لا يكون البحث الا في شهرة زائلة قامت على المصادفات والاوهام ، ونشأت من المهارة في اكتساب الصيت . قال : لما كنت متحفزاً الى الدخول في المجمع العلمي لفت نظري لودفيك هاليفي الى رصفائنا الماهرين قائلاً : ان الواجب يقضي ان ارعام باحترام زائد ، لانهم كانوا أدعى الى الاعجاب من غيرهم ، اذ كاثروا الجماعة وهم في الحقيقة لا قرائح لهم . قال : انهم جد اقوياء ، جد اقوياء ، فاياك واياهم . نعم يا صاح ان ستاندال الذي لم يكن على شيء من العبقرية بل على جانب عظيم من صفات الملاحظة والحذاقة ،

قد ظل خاملاً طول حياته لقلة مهارته ، واضعف في عشرته ، فالمجد يكتسب لمن يطلبونه ، ولا أزال أسائل نفسي كيف استطاعت الوصول الى ماوصلت اليه وانا الى القصور ، في استبطان هذه الامور . ولقد حظي الحظ ببعض الأصحاب فرفعوا من شأن ما كنت اكتب امثال « كاتول مانديس » و « كوبيه » . وكتب في « لميتر » مقالات نوه فيها بما انشأت ، فجزت القنطرة الصعبة حتى اصبحت في مأمن من نقد البله المغرورين . واذا كنت اعتقد اني اغتررت بفهم المعاصرين لي فقد ضللت ضلالاً بعيداً . ان كتبي وان عريت من المعاني العظيمة لاتستحق هذا الاقبال عليها ، الذي لا يغتبط به الا طابعها ، وهي لاتلابسني الا بما تحوي في مطاويها من المعاني الباطلة ، والاستطرادات التي تتخلل في تضاعيفها وتبدو بين سطورها ....

ما من احد فهم احداً حق الفهم ، ومن يفهم كلامهم بعض الفهم في العادة ، هم الذين يتحمس الناس للثناء عليهم ، وهذا سر المجد المؤلم . واعني بقولي المجد الذي ناله سوفكلس ودانتي وشكسبير بقوة التسلسل وبدون تمحيص ، واصاب منه ابسين الشاعر النروجي ، وان كان الى القصور وغير جدير بما بلغه . فهذا هو المجد الذي يرفع الناس به أناساً لم يفهموا ماقالوه وهم يقدسونهم . لان اولئك العظماء قلما يقرأ كلامهم ، وماتتناقله الامم بسرور عظيم حقيقي لا شوب فيه هو ما كتبه في الدهر الغابر أناس منذ عهد المصر بين مثل ساندر بون والبوسة الصغيرة ، والناس يقدرون غير مداجين بعض الكتب المتوسطة الاعتبار ، مدفوعين الى ذلك بما عم هذا العصر من التفاهة ...

وما يدريك ان المقالة الشديدة التي كتبتها على خلاف عادتي في جورج اوهنه قد كان فيها شيء من الحسد ، بيد انه كان المعيا مجيداً ان انصفنا ، وهو جدير بهذا المجد ، ولم يكن الغرض العمل للحط منه ، فقد كانت القلوب كلها تخفق بالاجماع لمايخفق له قلبه . كان نابهاً متأثلاً واقل مهارة في صناعته من قوليه ، مبجلاً للأدب والمصانعة الاجتماعية ، وهو غاية الكمال للكل ، فكان يعطف على الفضيلة ويشجب الرذيلة ، يؤيد حقوق الاشراف والاغنياء والشعب ، و يسر قراءه و يحسن انتقاء العبارات التي في مكنتهم كلهم ان يكتبوها ، وهي ملك دائم لهم جميعاً . وان العبرات المخلصة لتسيل من مآقي بل على نحور من كن يقرأن رواية « لميتر دي فورج » ولا يجرح هذا الادب القراء بجديد

يأتيهم به كاتبه ، ولا يقلقهم بحقيقة يحملها اليهم ، ولا يؤذيهم بشخصية احد، ولا يسقطون في كلامه على خشونة الابداع التي تتعلق بها الافهام على غير رضى ، ولا تسيء الى الجهل الظاهر ، قلما يهتم الناس بالاقاصيص البشرية التي يقصها ارباب العقول الكبيرة ، ولكنهم يهتمون كل الاهتمام بما يطرز به كثير من الكتاب الحاذقين المسائل العالمية والمالية وحوادث الجنايات حيث تبدو الفضيلة والمال والحرمة الممزقة الارهاب والشهوة المتعذرة او المحققة الحين بعد الآخر . ان واحداً في العشرة الآلاف من القراء يتأثر بعمليات ويفهمه ، ولكن سكريب يرضى عنه جميع الاذكياء ، فلا تصعب الاحاطة بكنهه ، بل هو على طرف الثمام من كل قلب ، وقراءته مدعاة اليسر والسرور .

فقال له راويته : ومع هذا فقد قضيتم على شهرة أوهنه بقصر باكم الدامية . فأجابه : ليس الامر بقدر ماتقدره فلا تداجيني . وان مات فقد خلفه غيره ممن « دهن بزيت القداسة في زجاجة النفاهة » وهذا الجنس دائم لا يفنى . ثم انتقل الى الانحطاط العقلي في اوربا فقال : اذا قلت لك ان العبقرية معدومة فأنا ذاكر لك الماضي ، لان القرائح هي نتيجة التهذيب والثقافة والثمرة المجتناة من القرون الجرافة الفائقة ، ولكن ما عم اوربا من الجهل والمادية المسلوفة وحب التسلق والتصلف لا يسمح للمرء ان يتكلم في العبقرية الآن وربما كانت الحال كذلك غداً . أصبحت الكتابة صناعة يسهل على الناس تعلمها ، لانها لا تتطلب الا حذقاً ، والاديب او الكاتب هو بمثابة مرآة لعصر يخلده ، والعبقرية وهي مسر الماضي ، ومنار المستقبل ، لا تلبث ان تزول وتضمحل . فالثقافة تتوارى والرغبة في استقصاء كنه الامور تنقص ، ونحن ننظر الى القرون الماضية كأنها قرون ذهبت ، اللهم الا ان يحدث حدث يضرب العقول ويجدد المواد ، فندخل في دور قصير امل يشبه دور القرون الوسطى في الادب والفن الخ .

وعاد فرانس في مكان آخر وكرر هذا المعنى من كره التمجيد وأبان اشمئزازه من الشهرة مخاطباً رجلاً كان يمتدح اليه آخر كتاب له بقوله : اياك والمبالغة ، لقد قلت مراراً ان الحظ واتاني بان عضدني بعض الاصحاب مثل ليتر وكوبيه وماندس فكتبوا في المقالات ونوهوا بكتبي ، فنبه ذكري بعد خموله وقال : ان اكثر ما كان يشمئز منه رسائل كانت تتوارد عليه وهي تسميه دكتور فرانس ، وكان هذا كاتباً ايضاً يكتب

قصصه في أجرام العبيد ، فكانت نفس اناتول تتألم من نسبة الناس اليه اموراً ليست له . حتى قال لاحد أصحابه : انه يودّ ان ينتحر كما فعل روبنستين المزوّر فقتل نفسه ، لكثرة ما وجه الناس اليه من المديح عن القطع الموسيقية التي كان يضعها روبنستين الحقيقي . ثم قال : واني لأنزل عن هذا المجد كله مقابل قليل من الجمال ، ان إهاجة أجسام النساء أفضل من اثارة أفكار الرجال .

ولأناتول مواقف مع النساء وآراء بشأنهن قد لا تروقهن ، ونحن قد نستعظم صدور مثل هذه الأقوال من رجل عظيم كهذا : ومع هذا ننقل بعض آرائه في هذا الشأن لانها صورة من مجتمعه ، عرضت لخاطره فباح بها بلسانه ، وهي أشبه بما يدعوه الاوربيون الأدب المكشوف . وكان للعرب شيء منه يصرحون به من غير نكير . ولكن من اهل المجتمع الحديث من ينكرونه ، و يعدونه خروجاً عن قواعد الأخلاق واللياقة . ورب كلم يقبل في مجلس او مجمع ، و يعدّ من البذاءة او السلاطة التفوه به في مجلس او مجتمع آخر . وحرية الغرب اليوم لاتشبه حرية الشرق ، ومصطلح أمة لا يوائم مصطلح أخرى ولكن البشر مهما تكتم لم يبرح بشراً ، وان كان منه من يسرّ ومنه من يعلن .

فقد وقع لأناتول في احد مجالسه ان غنت فيه فتاة بولونية قطعة لشاعر الطليان دانونزيو فعلت الوجوه مؤثرات دلت على التبسط في اللذة ، وأخذت النفوس بما اهتزت له طرباً . وحاول أناتول ان يخلو في زاوية من الردهة بالفتاة يكلمها ، ولكن صاحبة الدار أبت على اناتول الا ان يكون حديثه علنياً ، وشق عليها ان تراه يخرج عن موضوع الجلسة ، فانتحى اناتول جانباً من الغرفة وقال في جملة ما قال : اني اسف ان يودع المرء شبابه ، فان الانسان عندما يصبح حقاً يعرف كيف يحب لا يستطيع الحب ولا يكون محبوباً . يجب ان يكون الحب من عمل الشيخوخة ، هذا ما قلته وأقوله ، ولو كنت أشارك المولى في إرادته ، لوضعت للمرء الحب في أواخر الحياة لا في مباديها ، والخالق تعالى رأى ذلك فجعل من بعض الحشرات ما يحب قبل ان يموت ، ثم بدل هذه الطريقة ، ولو كان لي من الامر شيء لخصصت الاعمال والمشاق للانسان في الوقت الذي يشبه فيه دودة الفراشة حتى اذا وافته الشيخوخة يغدو كالفراشة ، وتكون ايامه سعيدة ووقفاً على الحب ، فاذا قوي ساعده وعلت ثقافته يحسن الحب ومتى كثرت تجاربه يعرف العناق .

وذكر في احد مجالسه ان رجلاً افرنسياً من اهل القرن السابع عشر اشتبه في ان امرأته تخدعه فنكر ودبر مراراً ، وصح عزمه بعد ذلك على ان يفاجئها بالامر ، ويحمل اليها كأساً من السم يسقيها نصفه و يشرب النصف الآخر ليموتا معاً ، فرأت المرأة نفسها بريئة مما نسبه زوجها اليها ، ولكنه اضطرها الى تناول الكأس وقال لها : اني استدعيت اهلي واهلك ليشهدوا مصرعنا ، وجلبت الكاهن لتعترفي له ، وما كادت امرأته تشرب ما ناولها زوجها حتى اتى الكاهن فحلفت له بكل محرجة من الايمان انها ما كانت خائنة في زواجها ، وانها اذا غازلت احدهم او غازلها فما كان ذلك في غير محرّم ، فلما سمع الزوج قولها أيقن ان غيرته كانت في غير محلها ، فقفز من سريره الذي كان اضطجع عليه ، وقبل زوجه ورضي عنها ، وقال لها في الحال : ليس لك ان تخافي البتة الكأس التي شربتها سماً بل هي مادة مرة ٠

فسأله راويته وكيف شعرت المرأة بالسم وما هو به ، فأجابه بانها توهمت الكأس سماً زعافاً ، فان كل شيء في الوجود وعالم المعنويات عبارة عن أوهام واستهواء ، فرب مريض ينام بحقنة ماء وهو يتوهمها افيوناً ، وكم من امرأة ظنت نفسها حاملاً ولا تزال تعتقد ان في احشائها ولداً الى الشهر التاسع حتى يتجلى لها وهمها ٠ وليت شعري اما كان الشهداء في العصور الاولى يحسون ان الملائكة تمسح وجوههم وهم يحرقون ٠

* * *

اناتول فرنس ممن شاكسوا الطبقات المتغلبة على المجتمع فأورثوه ذلاً وصغاراً ، فمن أجمل ما وصف به نفسه وعمله ومنزعه قوله : هنالك حقائق مرة المذاق على الطبقات المتألمة والحكم الحاضر والمفهوم العام ، فمثل هذه الحقائق يجب عرضها على الناس بصورة تدل على عدم الاعتناء ، فاننا قوم نكتب للاولاد الذين هم في الواقع وحدهم القراء ، فلا تهتكن ستر الهيكل بيد خشنة ٠ بل اهتكه تدريجاً واخرقه بثقوب صغيرة خفية وبحجة انك تريد ان ترقعه ٠ اقطع من هنا ومن هناك خرقاً واعمل منها ألاعيب صبيان ، وسهل على القارئ ان يفهم هو من نفسه ما لم ترد ان توضحه له ٠٠٠٠ يظنونني ماجناً و يقولون عني احياناً مشعوذاً وأحياناً سفسطائياً ٠٠٠٠ والحقيقة اني قضيت حياتي الرق ديناميتاً في قصاصات ورق ٠

وبينا تمجد الامة الافرنسية تمجد جان دارك وتحتفل لها كل سنة يقول عنها فرانس انها لو ظهرت هذه الايام لكان نصيبها السجن اوالمستشفى او وضع الماء البارد على رأسها ... وبينا تمجد تلك الامة عبقرية نابليون تراه لا يصفه هو بما يخرج عن وصف المؤرخ المنصف ولا ينسب اليه شيئاً من الاعمال ولا سيما العلمية ، كمجموعة قوانينه المدنية ، الا انها من صنع من كانوا حول نابليون ومن عمل حملة غاشيته . وسئل مرة عن غمبتا خطيب فرنسا فقال فيه : قد هاجم فرنسا بسيل من جمله الفارغة ، ولقد كان مهذاراً عظيماً على الدهر ، وما أثر عنه انه قرأ كتاباً ، لانه لو قرأ لمنعته قراءته عن الكلام .

وذكرت في مجالسه مسألة دريفوس ومدح كليمانسو وجرى ذكر فيكتوريا ملكة الانكليز . فقال هرفيو وكان في المجلس : ان عهد الملكة فيكتوريا يعد من حيث السياسة والآداب من أحسن العهود ، فهو حري بان يشبه عهد الملكة اليصابات ، وان عهود النساء كرينوبيا واليصابات وماري تريز وفيكتوريا وغيرهن قد كانت بالنسبة لعهود الملوك اكثر تعقلاً ، وان عدد الملكات اللائي كانت عهودهن مجيدة كثير . فقال فرانس : النسبة معروفة لا تنافر فيها ، وهلا ادركت شرح ذلك من نفسك ياعزيزي هرفيو ، فان النساء والسيدات على عهد الملوك هن الحاكمات فتجري الامور على طريق وسط . ويكون عهد الملكات اكثر مجداً لان الرجال يصبحون فيه اصحاب الشأن فيكون العشاق والمستشارون هم الحاكمون ، فافهم ذلك وفقت الى الخير . فضحك هرفيو من هذا الجواب .

تكلم فرانس ذات يوم وحط من قدر العلوم ولا سيما من بعضها كعلم الجنايات (Criminalogie) الذي وضعه لومبروزو الايطالي مدعياً ان المجرمين يعرفون بسيماهم في الماضي والحاضر والمستقبل وقال انه شهد بعض القضايا المهمة من الجنايات في المحاكم ، فكان الجناة على الاكثر من جمال الوجوه على جانب ، ومن الدعة مايشبه دعة الحملان ، ومن الهشاشة والبشاشة ماهو موضع الاعجاب . وقال : ان الفرص تخلق اللصوص ، ثم التربية ثم جناية المجتمع على بنيه . وقال انه هو نفسه كان وجهه غير متناسب الاعضاء ، وان سقراط كان مشوه الوجه ايضاً ، وهو ما كان جانياً وكذلك الفيلسوف اليوناني ، وان ما يأتيه المجرمون قد يأتيه بعضهم بسائق عرضي .

ورأى العالم اشبه بما يصنعه الفاخوري من الاوعية والاواني وقال : ان منها مالا يصلح لشيء بل يلقى كما تلقى القامات للاسمدة ، وان على الارض قلائل جداً من المخلوقات الحية وما عداها ذو نبات موقتة لا تعرف نفسها انها تعيش ، ولا تعيش الا على صورة مضحكة ، وعليهم يطير كثير من الطيور الغريبة ، وهذه الطيور هي أ.هامهم ، وان سماء البشر مغشاة برفرفة الاوهام ، فان اوهامنا مؤلفة من كل ضرب من ضروب الألوان ، من الضاحكة كالندى وصوت العندليب الى الألوان القاتمة كالظلمات والحزن ، فاذا جمعت أجنحتها طرفاً الى طرف يظلم العالم من اوهام البشر . اما من يحيون حياة حقيقية وهم الذين يفكرون في ملكوت السموات والارض ، ممن تجردت عقيدتهم عن الاوهام الا قليلاً ونظروا الى السماء مجردة فانهم قلائل يعدون على الاصابع .

وقال مرة (بتعريب شكيب) يعجب النـاس بسعة اطلاعي واما انا فما عدت أريد ان اكون واسع الاطلاع الا في مسائل الحب فالحب قد اصبح اليوم هو مجدي الوحيد الخاص ، وعلى الحب أريد ان احبس ما بقي من حرارة قريبة الخمود . ولا ارى في ملياً بنص كل مايُقذَف في روعي من هذا الموضوع . فروح الطهر والصيانة اصبحت غالبة على آداب الدرس . ان المرأة صارت عندي كتاباً يقرأ وليست كتاباً .فسداً كما قلت لك . ولا بد لكثير التصفح فيه ان يسقط على موضع منه يجد فيه مكافأته على اتعابه . فانا اتصفح واتصفح كثيراً ياحبيبي . . ومتى اظفرني الله بمخلوقة من مخلوقات الله فانني أطالع هذا الكتاب البديع سطراً فسطراً ولا أجوز منه نقطة ولا شكلة وقد أضيع فيـه احياناً نظاراتي .

ويرى اناتول فرانس ان البدع لؤيد الشريعة وكان يقول : لا يوجد محصنون وانما يوجد مراؤن ويوجد مسلوبو العقل ويوجد مرضى ويوجد مجانين . اعلم انه بدون شهوة لايوجد شعور وبقدر مانكون شهوانيين نكون اذكيـاء . واحسن فصول الحياة هو فصل اللذات . فالحكيم من يجتهد في إطالة هذا الفصل . بعض الناس يسخرون من الشيخ الذي يعشق . فياالحماقة البالغة . فاما انا فأقلب قضية ديكارت فأقول احب اذاً انا موجود . ما عدت احب ما عدت اذاً في الحياة شيئاً .

وتكلم في احد مجالسه متصنعاً في يأسه فقال : ان الاشتراكية متعذر تحقيقها ،

فكونوا على بينة من امركم ، فان التقاليد المالية «الرأسمالية» التي أشرف الثروة هي في الغاية من السلطان ويستحيل علينا ان نغلبها . والفقراء انفسهم يحترمون هذه التقاليد اشد من احترام الاغنياء لها . انظروا ماحدث لي فان منازعي وافكاري اشتراكيـة ، ولكن اي فائدة من ذلك مادام كل من يحيطون بي معارضين لي في هذه السبيل ، فقد جاءني منذ مدة نجار يرتب خزانة كتبي ، فاجتهد ان يضع المجلدات ذات التجليد النفيس في مكان تأخذه العين ، وان يخفي المجلدات التي كانت جلدها ساذجًا في داخل الخزانة على الحائط ، له الويل انه يخجل من الكتب الفقيرة . وكذلك حال الوصيفة فانها تلقي في الحال في سلة سقط المتاع كل كتاب ممزّق حاكمة عليـه بمنظره ، حتى ان كلبي او كاب مدام كاليافيه في الباب يعوي في وجوه الفقراء ويريد ان يمزق باسنانه كل من لا تكون بزتهم حسنة . فكيف والحالة هذه نتوطد أركان الاشتراكية . ولقد أراد تولستوي الفيلسوف الروسي — ان يعيش بحسب قواعد الانجيل اي عيشة اشتراكية فلم يسعه الا الفرار من داره . فالمرء متى ملك داراً او كلباً وكان له أناس من حوله يصبح مالكاً ، فيشعر بالقوة التي تأتيه من التقاليد الرأسمالية . وثقوا بان روتشيلد هو متفوق علينا ابداً ، هو آخذ بعنان الاموال ، وجالس على عرش الماضي ، وحالته متأصلة واي تأصل بعادات الوف من السنين ، لم تكن تحوي غير الحرمة للغنيمة المستحصلة ، على حين ترانا نحن لانقف على غير ارجلنا صعاليك ولا مال لنا ، ورأسمالنا بعض مقالات في الصحف ، وبعض اوهام مشوشة في رؤوسنا ، فالمنافسة بيننا وبينهم ليست على أتمها . على اننا لايجب ان نفقد قوتنا ، فربما كتب لنا النصر يوماً ، فان غمامة تكون بحجم منديل الجيب تنشر العاصفة ، وشيعة قليلة من المجانين صدرت منها النصرانية القادرة اه .

وقال في موضع آخر : انا لا أرجو ان تكون الغلبة الدائمة للاشتراكية في عهدنا ، فالاشتراكيون كثير عددهم ، على حين يؤلف ارباب رؤوس الأموال أقليـة صغيرة ، وبذلك كانت قوتهم . لانهم يستطيعون ان يحسنوا البحث والاتفاق اكثر من الاشتراكيين وكان من الطبيعي ان يقل فيهم البله المتحزبون ، ويستطيعون ان ينفذوا خططهم في الخفاء وبدون ظهور وضجة وبشيء من الصبر . ثم ان المثلاء يدافعون عن حوزتهم وأموالهم فيستميتون في دفاعهم ، وعلى هذا يكونون الى التماسك وتكون صفوفهم متراصة ، على حين

لا يفـادي صعاليك الاشتراكيين الا بما لا يملكون ، ولهذا ينقصهم النظام ، ولا يحفلون بما يأتون . هم يدافعون بصدورهم ، و باوهام ومقالات في الصحف ، وبآمال لهم في المستقبل اما خصومهم فيدافعون بسندات على المصارف وبأسهم مالية وبيوت وحلي وصاحبات وسيارات . فخاسة الصعاليك ظاهرة . وعبثاً تزداد وتحدث ضجة الخ .

وذكرته صديقته بمشهد من الاصحاب بقصة الغني الخجول فقال : وهل في العالم غني خجول ، الخجل من شأن الفقراء ، لان الاغنياء سلبوهم نعمتهم ، ومع هذا يلجأون اليهم كأنما يلجأون الى خالقهم والاغنياء لا يخجلون ، فهم لا عمل لهم يطفحون سكراً بالخمور ، وتكتظ معدهم بالمآكل ، ثم تحدثهم انفسهم ن يستولوا على كل ما فيه الجمال ، ويقتنون بدائع الصنائع ، وكان من حقها ان تكون وقفاً على الناس ، وهم لا يعطون شيئاً لمن هم الاصل في غنام ، وأرى انه كان عليهم ان يخجلوا ، لانهم يتجسد فيهم الظلم وقلة المساواة وجميع شرور المجتمع الانساني . ثم قال : كان رجل انكليزي اسمه دبلي أعجوبة في أطواره ، وذلك قبل عهد الملكة فيكتوريا لا يحلم ليله ونهاره الا في إغاثة المحاويج ويرقب الفقراء في غدوه ورواحه . ولا يستمع الا لأصوات البائسين ، ولا يهتم الا لارباب الاحذية البالية والالبسة الممزقة والصحفات الجائعة ، فيعطي ويطب ويغيث . فبصر ليلة برجلين يتكلمان في احد المنعطفات ، فأنصت الى حديثهما ، وكان فحواه ان احدهما يحتاج الى مائتي جنيه وانه اذا خانه السعد ولم يسدد بها ديونه يفلس لا محالة ، و يكون مصيره الانتحار غرقاً ، وقال له صاحبه انه من المستحيل ان يحرز هذا المبلغ ، فأجابه المحتاج ليس الا دبلي هو الذي يمكنه ان انجده بالمال المطلوب ، فاقترب منهما دبلي وقال اني سمعت حديثكما . وانا أعرف دبلي شخصياً ، ولكن أريد ان لا يذهب عنكما ان في المدينة أناساً كثيرين على شاكلة دبلي يحبون عمل الخير ، فأواعدكما الى المقهى الفلاني غداً لاعطاء المحتاج مائتي جنيه على ان لا يفوتكما ان الخير في الناس عندنا لا ينقطع . وهكذا كان .

(البقية للآتي) محمد كرد علي

—((*·✻·*))—

عصر الجاحظ(1)

- ١ -

« حرية الفكر »

اذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ فلا نستطيع ان نصور هـذا العصر باحسن من تصوير الجاحظ له ، على ان الجاحظ لم يتبسط في هذا التصوير وانما جرت له عبارة في ترغيبه في اصطناع الكتاب ، واحتجاجه على من زرى على واضع الكتب ، وهذه العبارة على وجازتها وعلى سهولتها قد مثلت لنا الدهر الذي عاش فيه الجاحظ اكمل تمثيل على ان أبا عثمان قد قذف بها عرضاً وأعني بذلك انه نطق بها في مقام وصف غير وصف عصره ، قال(2) :

« و ينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أنا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيد وهبت ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم » .

فاذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي مثلت لنا كيف تتسلسل آثار العقول فيؤدي كل عصر نتائج مايجده من العبرة الى العصر الذي يليه ، و يزيد كل عصر في هذه العبرة بقدر مايتيسر له من العلوم والتجارب ، اذا جاوزنا هذا كله تراءت لنا صفة عصر الجاحظ

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص٤٣) .

نقية صالية وبرزت لنا متكاملة متّسقة فما هي هذه الصفة بل ماهي هذه الصفات: امكان القول وصلاح الدهر وخواء نجم التقيد وهبوب ريح العلماء وكساد العي والجهل وقيام سوق البيان والعلم ·

هذه خصائص عصر الجاحظ أفلا يحق لنا بعد معرفة هذه الخصائص ان نقول في عصر الجاحظ ماقاله احد شعراء فرنسة في عصره : واي عصر أخصب من هذا العصر في المعجزات وكيف لا يكون عصر ابي عثمان خصيباً وقد تهيأت لابنائه حرية الفكر وانبسط فيه سلطان البيان وانفسحت آفاق العلم فان عصراً اقوم فيه سوق البيان وتقوم فيه سوق العلم ويمكن اهله ان يفصحوا عما يوحي اليهم هذا الادب وهذا العلم لعصر ريّان الجنبات مخصاب التربة ·

فلندقق في هذه الخصائص دون شيء من التطويل ·

قلنا : صفات عصر الجاحظ حرية الفكر وانبساط العلم وقيام سوق الادب فلنشرع في الكلام على حرية الفكر · ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا ان نشير الى ناحية من اختلاف الجمهور في امور الدين دون الخوض في النواحي كلها ·

يقول المأمون[1] :

« لنا اختلافان : احدهما كاختلافنا في الأذان وتكبير الجنائز وصلاة العيدين والتشهد والتسليم من الصلاة ووجوه القراآت واختلاف وجوه الفتيا وما اشبه ذلك وهذا ليس باختلاف وانما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من السنة فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ومن ربع لم يأثم ·

والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا مع اجتماعنا على اصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر » ·

فلنوضح هذا القول بعض التوضيح ·

انكم لتعلمون ان علوم الدين قسمان : قسم يتعلق باصل الدين وهو علم الكلام او التوحيد وقسم يتعلق باحكام الاعمال وهو الفقه واصوله ومرجع المسلمين في هذه الاحكام القرآن والحديث ·

---

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٢٥٥) ·

والمسلمون في هذا كله طائفتان : طائفة ترجع في اصول الفقه واصول الدين الى الكتاب او الى السنّة او الى اثر من آثار السلف متقيدين بهذه المراجع دون ان يعمل الواحد منهم عقله في تفسير آية او تأويل حديث وهم اهل الحديث .

وطائفة يستعملون عقولهم في تفسير الآيات او تأويل الاحاديث دون شيء من التقيد وهم المعتزلة او اصحاب الفكر الحر .

وبين اهل الحديث وبين المعتزلة اختلاف في امور شتى منها : القضاء والقدر وافعال العباد وصفات الله تعالى وخلق القرآن وغير ذلك .

فالمختلفون في اصول الفقه لايكفّر بعضهم بعضاً وانما المختلفون في التوحيد قد يكفر بعضهم بعضاً فالحديثي يرى ان المعتزلي صاحب بدعة قد نفض يديه مما أجمع عليه الجمهور وما هدت اليه الآثار والاخبار والمعتزلي يرى ان الحديثي انما هو عامي .

هل كان يجرأ احد قبل عصر الجاحظ ممن خالف الجماعة على التصريح برأيه ؟

ان الذي اتصل بنا علمه ان الخلفاء من قبل المأمون كانوا يعاقبون على الزندقة منهم المهدي ومنهم ابنه الهادي .

اما المهدي فقد قال يوماً لموسى ، اي لابنه الهادي وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى ان يتوب فضرب عنقه وامر بصلبه : يابني ان صارلك هذا الامر فتجرد لهذه العصابة (يعني اصحاب ماني) فانها تدعوالناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : احدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من طرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السيف وتقرّب بامرها الى الله لاشريك له فاني رأيت جدّك العباس في المنام قلّدني سيفين وأمرني بقتل اصحاب الاثنين » .

واما الهادي فقد كان في جملة من قتله يزدان بن باذان الكاتب فقد حج هذا فنظر الى الناس في الطواف يهرولون فقال : ما أشبههم الا ببقر تدوس في البيدر .

وقد منع الرشيد عن الجدال في الدين وحبس اهل علم الكلام[1] .

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص ٣١) .

فلما جاء المأمون أطلق القول وفسح في المناظرات وقد كان المأمون نفسه يحاجّ الفقهاء في كثير من الأمور منها احتجاجه عليهم في فضل علي فكان يأمر قاضي القضاة يحيى بن اكثم ان يحضر معه رجالاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ويحسن الجواب فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه وعليه سواد، وطيلسانه والطويلة وعمامته فاذا استقر بهم المجلس تحدّر عن فراشه ونزع عمامته وطيلسانه ووضع القلنسوة وما كان يمنعه من خلع خفيه الا العلة ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالستهم ويقول لهم : انما بعثت اليكم معشر القوم في المناظرة ثم يلقي مسائل من الفقه و يردّ على كل واحد منهم مقالته ويخطيءُ بعضهم ويناظرهم في مذهبه الذي هو عليه واذا قال لهم : ان اميرالمؤمنين يدين الله على أن علي بن ابي طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الناس بالخلافة قالوا له دون شيء من التهيب : ان فينا من لا يعرف ماذكر اميرالمؤمنين في علي ، وقد دعانا امير المؤمنين للمناظرة . وكان يخيّرهم أن يسألوه او ان يسألهم ، وكان يتبين له عنادهم في بعض الاوقات وقد يطول مجلسهم و يرتفع النهار وهم في مناظرة[1] .

وقد كان يردُّ على الملحدين واهل الاهواء واذا قال لمرتدّ كان أسلم على يديه : اخبرني ماالذي أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا وقال له المرتدّ غيرهيّاب ولا وجل : أوحشني منكم مارأيت من الاختلاف في دينكم ، لم يتنكر له المأمون وانما كان يردّ عليه فلا يزال يخرج من حجة الى حجة حتى يرجع به الى الاسلام [2] .

واليكم نمطاً من مناظرته ، قال الجاحظ :

« ومسألة أخرى سأل عنها أميرالمؤمنين الزنديق الذي كان يكنى بابي علي وذلك عندما رأى من تطويل محمد بن الجهم وعجز العتبي وسوء فهم القاسم بن سيّار فقال له المأمون : أسالك عن حرفين فقط خبرني هل ندم مسيءٌ قط على إساءته اونكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط ، قال : بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم ، قال : فخبرني عن الندم

(١) راجع العقد الفريد (الجزء الثالث ص٤٢) .

(٢) راجع العقد الفريد (الجزء الاول ص ٢٥٥) .

على الاساءة ، إساءة اواحسان ، قال : احسان ، قال : فالذي ندم هوالذي أساء او غيره ، قال : الذي ندم هوالذي اساء ، قال : فأرى صاحب الخير هوصاحب الشر وقد بطل قولكم : ان الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة ، قال : فاني أزعم ان الذي اساء غيرالذي ندم ، قال : فندم على شيء كان منه ، اوعلى شيء كان من غيره ، فقطعه بمسألته ولم يتب ولم يرجع حتى مات[1] » .

واننا لانستطيع ان نفهم روح هذه المناظرة الا اذا فهمنا روح المذهب الذي ناظر فيه المأمون وهو مذهب ماني ، وسيأتي الكلام عليه .

وقد كان غرض المأمون في هذه المناظرات كلها اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين وكان يكره في المناظرات الشتم والبذاءة لان الاول في نظره عي والثانية لؤم وانما اباح الكلام واظهر المقالات فمن قال بالحق حمده ، ومن جهل ذلك وقفه ، ومن جهل الامرين حكم فيه بما يجب .

غير انه لم يصل في مجامع مناظراته الى ما رمى اليه فلم ير بدّاً من الاستعانة بسلطانه في اقامة الدين ولاسيما في خلق القرآن واحداثه فعزم على ان لايستعين في عمله ولا يثق فيما قلده الله واستحفظه من امور رعيته بمن لايوثق بدينه وخلوص توحيده و يقينه .

وادّى الامر في هذا كله الى ان الذي كان لايقول بخلق القرآن يشد في الحديد ولما حضرته الوفاة تقدم الى اخيه المعتصم في ان يبني على اصوله في مناظرة القوم في خلق القرآن فكان المعتصم يجمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة لامثال هذه المناظرات وكان يقول في بعضها :

« ما شيء أحب اليّ من الستر ولا شيء اولى بي من الأناة والرفق ، وكان يقول لمناظره : لئن استحييك بحق أحب اليّ من ان اقتلك بحق[2] » .

الا ان من خالفه كان يلقى الضرب والتعذيب . وكذلك الواثق فانه سار سيرة ابيه

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٤١) .

(٢) هامش الكامل — رسائل الجاحظ (الجزء الثاني ص ١٣٤) .

المعتصم وعمه المأمون في المناظرة في خلق القرآن فمن خالفه في رأيه قتله ، حتى جاء المتوكل فترك الناس وشأنهم .

فالى هذه الحرية أشار الجاحظ في قوله : وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقييد ، واخذ من بعد هذا يستنهض العلماء لاظهار ما عندهم وللقيام بما يلزمهم وكان هو نفسه يُظهر ماعنده غير مبال بالجمهور .

فلنضرب مثلاً لحرية فكره في التفسير وقد خرج عما يعتقده الجمهور ، قال[1] :

« وقد قال الناس في قوله تعالى : انها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فزعم الناس ان رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى الا رؤوس شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم ، فقال اهل الطعن والخلاف : كيف يجوز ان يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته بكتاب ناطق او خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخفيف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى انه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون انسان كذلك والناس لا يفزعون الا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، او صوّره لهم واصف صدوق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صوّرها لنا صادق وعلى ان اكثر الناس من هذه الامم لم يعاين اهل الكنائس وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف ولا يتوهمون ذلك ، لا يقفون عليه ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً ، قلنا : وان كنا لم نر شيطاناً ولا صوّر رؤوسها لنا صادق بيده ففي اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يصفون ذلك في مكانين احدهما ان يقولوا : لهو أقبح من الشيطان . والوجه الآخر ان يسمي الجميل شيطاناً على جهة التطير به كما تسمي الفرس الكريمة : شوهاء ، والمرأة الجميلة صمّاء ، وقرناء ، وخنساء ، وجرباء ، وأشباه ذلك على جهة التطير به ، ففي اجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على انه في الحقيقة

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ٦٤) .

أقبح من كل قبيح والكتاب انما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم بغاية التثبت ، وكما يقولون : لهو أفصح من السحر الحلال ، وكذلك يقولون كما قال عمر بن عبدالعزيز لبعض من أحسن الكلام في طلب حاجته : هذا والله السحر الحلال ، وكذلك ايضاً ربما قالوا : ما فلان الا شيطان على معنى الشهامة والنفاذ وما أشبه ذلك » .

وقد بلغ من هذه الحرية ان المجوس أنفسهم كانوا يعارضون علماء المسلمين ، من هذه المعارضات ما رواه الجاحظ فقد قال[1] :

« وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل ايضاً صاحبكم انما توعد أصحابه بالنار لان بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دهن ، وانما هي ناحية الحرور ، والوهج والسموم ، لان ذلك المكروه أزجر لهم فرأى هذا المجوسي انه قد عارضني فقلت له : ان اكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف وشدة البرد في الشتاء لانها بلاد صخور وجبال ، والصخر يقبل الحر والبرد ، ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والأعراب : كهيان ، والله بالفارسية هو الجبل فمتى أحببت ان نعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرها في الصيف فانظر في أشعارهم وكيف قسموا ذلك وكيف وضعوه لتعرف ان الحالتين سواء عندهم في الشدة ، والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج وقلته ، فقد تكون بلدة ابرد وثلجها اقل ، والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها اكثر حكمنا ان نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون . وقد خبرني من لا أرتاب بخبره انهم كانوا في موضع من الجبل يستغنون به بلبس المبطنات ، ومتى صبوا ماء في اناء زجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط ولا بد من شرط ومقادير واختلاف جواهر ومقابلات احوال كسرعة البرد في بعض الادهان وابطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله في الماء المغلي وفي الماء المتروك على حاله وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ وكما يعتري البول من الخثورة والجمود على قدر طبائع الطعام والقلة والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص٢٥) .

ليستحيل من الحرارة الى مقدار لا يستحيل اليه ماهو أحرّ. وحجة أخرى على الخصوص وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال: لم أبعث الا الى اهل مكة لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة فأما وأصل نبوته والذي عليه مخرج امره وابتداء مبعثه الى ساعة وفاته انه المبعوث الى الأحمر والأسود والى الناس كافةً. وقد قال الله تعالى: قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً. وقد قال تعالى: نذيراً للبشر فلم يبق ان يكون مع ذلك قولهم معارضة وان يعد من باب الموازنة».

دمشق: ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٣١



عصر الجاحظ

- ٢ -

« الزندقة »

هذا شيءٌ من حرية الفكر التي أشار اليها الجاحظ في عصره الا انها حرية لم يتراخ أمدُها وقد خالطتهـا الشدة في خاتمة الامر فكانت المناظرات في مجالس خلفاء لا تخلو من ضرب المخالفين لآراء الجمهور وتعذيبهم وقتلهم الا انه كيف كان الامر فقد اتى على علماء المسلمين حين من الدهر كانوا فيه يمالئون بمعتقداتهم دون ان يخافوا صولة السلطان وقد كان غيرالمسلمين من المجوس وأضرابهم يعارضون هؤلاء العلماء في امور متعلقها الدينُ من غير ان يتجهّمهم احد بما يكرهون وكانت لاهل الكتاب من نصارى ويهود حرمة تختلف على اختلافهم في جلالة القدر قبل الاسلام وبعده فكانت النصارى أحبَّ الى المسلمين من غيرهم وأقربَ مودةً وقد اصّل لنا الجاحظ اسباب هذه المحبة وقرب هذه المودة فقال[1]

« جاءالاسلام وملوكالعرب رجلان : غساني ولخمي وهما نصرانيان وقدكانتالعرب تدين لها وتؤدي الاتاوة اليهما فكأن تعظيم الوبهم لها راجع الى تعظيم دينها وكانت تهامة وان كانت لقاحا لاتدين ولاتؤدي الاتاوة ولا تدين للملوك الا انهـا كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظّم النـاس وتصغير ماصغروا ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب معروفة عند اهل النسب ولولا ذلك لدللتُ عليها بالاشعار المعروفة والأخبار الصحيحة وقدكانت تتجر الى الشـام وتنفذ رجالها الى ملوك الروم ولها رحلة في الشتاء

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٦٢) .

والصيف في تجارة مرةً الى اليمن ومرةً قبل الشام ومصيفها بالطائف فكانوا أصحاب نعمة وذلك مشهور مذكور في القرآن وعند اهل المعرفة وقد كانت تهاجر الى الحبشة وتأتي باب النجاشي وافدةً فيحبيهم بالجزيل ويعرف لهم الاقدار ولم يكن يعرف ذلك كسرى ولا تأنس بهم وقيصر والنجاشي نصرانيان فكان ذلك ايضاً للنصارى دون اليهود والآخر من الناس تبع للاول في تعظيم من عظَّم وتصغير من صغَّر .

وأخرى وهي ان العرب كانت النصرانية فيها فاشيةً وعليها غالبةً الا مضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ولم تفش فيها النصرانية الا من كان قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد ، فانهم كانوا نصارى وهم مغمورون مع نبذ يسير في بعض القبائل ولم تعرف مضر الا دين العرب ثم الاسلام وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطي في قبائل كثيرة وأحياء معروفة ثم ظهرت ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس واحياء بكر ثم في آل ذي الجدين خاصة وجاء الاسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة الا ما كان من ناس من اليمانية ونبذ يسير من جميع اياد وربيعة ومعظم اليهودية انما كان بيثرب وحمير وتيماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملكُ الذي كان فيهم والقرابة التي كانت لهم » .

هذه طائفة من الاسباب التي من أجلها كانت النصرانية ارفع منزلةً من اليهودية في عيون المسلمين وأظهر هذه الاسباب الملك الذي نشأ للنصارى قبل الاسلام اما اليهود فلم تلن قلوب المسلمين لهم لينها للنصارى ولنرجع الى الجاحظ في معرفة العلل التي غلَّظت قلوب المسلمين على اليهود . قال ابو عثمان[1] .

« ان اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الاقارب في شدة التمكن وثبات الحقد ، وانما يعادي الانسان من يعرف ويميل على من يرى ويناقض من يشاكل ويبدو له عيوب من يخالط وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ولذلك كانت حروب الجيران وبني الأعمام في سائر الناس وسائر العرب أطول وعداوتهم أشد فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً وقد كانت الانصار متقدمة الجوار مشاركةً في الدار

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٠٩) .

حسدتهم اليهود على نعمة الدين والاجتماع بعد الافتراق والتواصل بعد التقاطع وشبهوا على العوام واستمالوا الضعفة ومالؤا الاعداء والحسدة ثم جاوزوا الطعن وادخال الشبهة الى المناجزة والمنابذة بالعداوة فجمعوا كيدهم وبذلوا أنفسهم واموالهم في قتالهم واخراجهم من ديارهم . وطال ذلك واستفاض فيهم وظهر وترادف لذلك الغيظ وتضاعف البغض وتمكن الحقد . وكانت النصارى لبعد ديارهم من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ومهاجره لا يتكلفون طعناً ولا يثيرون كيداً ولا يجمعون على حرب فكان هذا اول أسباب ما غلظ القلوب على اليهود ولينها على النصارى . ثم كان من امر المهاجرين الى الحبشة واعتمادهم على تلك الجهة ما حببهم الى عوام المسلمين وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود ومن شأن الناس حب من اصطنع اليهم خيراً او جرى على يديه » .

هذا ما كان من مقدار نظر المسلمين الى اهل الكتاب ولما كان المسلمون على النصارى أعطف واليهم أميل كان للنصارى شيء من الميزة ظهرت في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم قال الجاحظ في كلامه عليهم[1] :

« اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة وتحذفوا المدني ولبسوا الملحم والمطبقة واتخذوا الشاكرية وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتنوا بذلك أجمع ... فرغب اليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير وعقدها آخرون دون ثيابهم وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم ومالهم لا يفعلون ذلك واكثر منه وقضاتنا وعامتهم يرون ان دم الجاثليق والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة » .

وقد كان منهم كتاب السلاطين وفراشو الملوك واطباء الاشراف ولم يكن اليهودي الا صباغاً او دباغاً او حجاماً اوقصاباً اوشعاباً[2] .

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص١٧٠) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص١٦٩) .

وبلغ من استصغار شأن اليهود ان الصبيان كانوا يصيحون بالفهد اذا رأوه : يا يهودي وكانت العامة تزعم ان الفأرة كانت يهودية سحّارة والارضة يهودية ايضاً عندهم والضب يهودي حتى قال بعض القصاص لرجل اكل ضباً : اعلم انك اكلت شيخاً من بني اسرائيل».

وبلغ من إجلالهم للنصرانية انهم كانوا لا يضيفون اليها شيئاً من السباع والحشرات[1]

* * *

الى اي شيء ادّت حرية الفكر التي لمّح اليها الجاحظ .

من جملة عواقب هذه الحرية استفاضة الزندقة في جمهور المسلمين وكثرة الفرق وكما نبّهنا الجاحظ على إمكان القول في عصره فكذلك نبهنا على المانع إمكان هذا القول فلئن حمد دهره في مبدإ الامر فمالبث ان ذمه حتى قال[2] :

« وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً وأعرضوا عنه صفحاً فليس الا : لا أو نعم الاّ ان قولهم : لا موصول منهم بالغضب وقولهم : نعم موصول منهم بالرضا وقد عزل الحق جانباً ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن قال عمرو بن الحارث : كنا نبغض من الرجال ذا الرياء والنفخ ونحن اليوم نتمناها »

واذا أردنا ان نعرف كيف استفاضت الزندقة في عصر الجاحظ فلنرجع الى الجاحظ نفسه فقد كشف لنا ناحيةً من استفاضتها فقال في اثناء كلامه على فريق من أهل الكتاب[3] :

« يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالاسناد من روايتنا والمتشابه من آي كتابنا ثم يخلون بضعفائنا و يسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين وحتى مع ذلك ربما تبرؤا الى علمائنا واهل الأقدار منا و يشغبون على القوي و يلبسون على الضعيف ومن البلاء ان كل انسان من المسلمين يرى انه متكلم وانه ليس

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٦٢) .

(٢) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٣) .

(٣) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٧٤) .

احد أحقّ بمحاجة الملحدين من احد وبعد فلو لا متكلمو النصارى واطباؤهم ومنجموهم ما صار الى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المانية والديصانية والمرقونية والفلانية ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكانت تلك الكتب مستورة عند اهلها ومحلاّة في ايدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في احداثنا واغبيائنا فمن قبلهم كان اولها » .

والظاهر ان تزندق القوم بالعراق كان فاشياً بين المسلمين غير العرب فقد روى الأصمعي عن الخليل بن احمد عن ابي عمرو بن العلاء انه قال : اكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية [1] .

الا ان السلطان لم يغفل عن معاقبة الزنادقة فكان منهم من هرب من وجه السلطان ومنهم من يقتل ومنهم من يستر زندقته حتى ينجو من الشر فقد قال الجاحظ [2] :

« والزنادقة لم تكن قط أمة ولا كان لها ملك ومملكة ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » .

* * *

وقد شاعت الزندقة في طبقات الادباء وظهرت على اشعارهم آثارها .

فمن الذين اتهموا بالزندقة حماد الراوية فقد عرّض به حماد بن الزبرقان قال [3] :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدّوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد

ومنهم ناس ذكرهم حمّاد عجرد في هجائه لبشار فقال [4] :

(١) طبقات الادباء للانباري (ص ٣١) .
(٢) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٣٨) .
(٣) « « « ١٤٢
(٤) « « « ١٤٢

لو كنت زنديقاً عمار حبوتني أو كنت اعبد غير رب محمد
او كنت عندك او تراك عرفتني كالنضر او الغيث كابن المقعد
او كابن حماد ربيئة دينكم جبل وما جبل القوي بمرشد
لكنني وحدت ربي مخلصاً فجفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت والارض خالقها لها لم يمهد
والنجم مثل الزرع ان حصاده منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : وحماد هذا أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الابيات واما قوله : وحبوت من زعم السماء تكونت ... البيت فليس يقول احد ان الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه .

ومنهم يونس بن فروة وفي يونس يقول حماد عجرد[1] :

ماالناس عندك غير نفسك وحدها والخلق عندك ما خلاك بهائم
ان الذي أصبحت مفتوناً به سيزول عنك وانف جارك راغم
فتعض من ندم يديك على الذي فرطت فيه كما يعض النادم
فلقد رضيت بعصبة آخيتهم واخاؤهم لك بالمعرة لازم
فعلمت حين جعلتهم لك دخلة اني لعرضك في اخائك ظالم

وكان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان ويونس بن هارون وعلي ابن الخليل ويزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة بن الحباب وابان بن عبد الحميد وعمارة بن حربية يتواصلون وكأنهم نفس واحدة وكان بشار ينكر عليهم ويونس الذي زعم حماد عجرد انه قد غر نفسه بهؤلاء كان أشهر بهذا الرأي منهم وقد كان كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب وعيوب الاسلام بزعمه[2] .

وذكر ابو نواس أبان بن عبدالحميد اللاحقي وبعض هؤلاء ذكر انسان يرى لهم قدراً وخطراً في هجائه لأبان وهو قوله :

(١) الحيوان (الجزء السابع ص ١٤٣) .
(٢) « « « « ١٤٣

جالست يوماً ابانا لا درّ درّ ابان
ونحن حضر رواق الامير بالنهروان
حتى اذا ما صلاة الاولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو فصاحة وبيان
فكل ما قال قلنا الى انقضاء الاذان
فقال: كيف شهدتم بذا بغير عيان
لااشهد الدهر حتى تعاين العينان
فقلت: سبحان ربي فقال سبحان ماني
فقلت عيسى رسول فقال: من شيطان
فقلت: موسى كليم المهيمن المنان
فقال: ربك ذو مقلة اذاً ولسان
فنفسه خلقته أم من، فقمت مكاني
عن كافر يتمارى بالكفر بالرحمن
يريد ان يتسوّى بالعصبة المجّان
بعجرد وعباد والوالبي الهجان
وقاسم ومطيع ريحانة الندمان

وتعجبي من ابي نواس وقد كان جالس المتكلمين أشدّ من تعجبي من حمّاد حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولاً لايقوله احد وهذه قرة عين المهجو والذي يقول :

سبحان ماني يعظم امر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول انه من قبل شيطان واما قوله : فنفسه خلقته أم من فان هذه المسألة نجدها ظاهرة على السن العوام والمتكلمون لايحكون هذا عن احد . وفي قوله : و لوالبي الهجان دليل على انه من شكلهم والعجب انه يقول في ابان انه من يتشبه بعجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وعلي بن الخليل واصبغ وابان فوق ملء الارض من هؤلاء ولقد كان ابان وهو سكران اصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة فاما اعتقاده فلا أدري ما أقول فيه لان الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظير ولكن للناس تأس وعادات وتقليد للآباء والكبراء

ويعملون على الهوى وعلى مايسبق الى القلوب و يستشقلون التحصيل ويهملون النظر حتى يصير في حال متى عاودوه وأرادوه ونظروا بابصار كليلة وأذهان مدخولة مع سوء عادة ، والنفس لا تجيب وهي مستكرهة وكان يقال : الطفل اذا كره عمي ومتى عمي الطباع جسا وغلظ وأهمل حتى يألف الجهل ولم يكد يفهم ما عليه وله فلهذا وأشباهه قاموا على الالف والسابق الى القلب .

ومن الذين اتهموا بالزندقة ابو نواس فقد كان يتعرض للقتل بجهده وقد كانوا يعجبون من قوله :

كيف لا يدنيك من امل   من رسول الله من نفره

فلما قال :

فاصحب قريشاً لحب أحمدها   واشكر لها الجزل من مواهبها

جاء بشيء غطى على الاول —

وانكروا عليه قوله :

لو اكثر التسبيح ما نجاه

فلما قال :

يا احمد المرتجى في كل نائبة   قم سيدي نعص جبار السموات

غطى هذا على الاولى وهذا البيت مع كفره مقيت جداً وكان يكثر في هذا الباب (١)

واكثر من قتل في الزندقة من كان ينتحل الاسلامَ ويظهره هم الذين آباؤهم وامهاتهم نصارى (٢) .

وقد صحب هذه الزندقة وهذا الكفر شتات المسلمين و كثرة الفرق فبعد ان كانوا يجمعهم نظام واحد ودين واحد لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم حتى أصبح الانسان يحار في كثرة الفرق ما بين حديثي ومعتزلي وشيعي وزيدي ورافضي وبكرية وجبرية وفضلية وشمرية ومرجئة وعثماني وخارجي واباضية ونابتة وحشوية وغالية

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص١٤٣) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص١٦٩) .

وسميطية وكيلية وسبلية وديصانية وجهمية وصوفية وناجبة وصفرية والازارقة فضلاً عن المارقة والمانية والدهرية واشباهها .

ولا بأس بان اذكر لكم نبذاً من معتقدات الزنادقة مما أورده الجاحظ في كتبه .

فالمانية[1] تزعم ان العالم بما فيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونور وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسة وحارّة ، وان الانسان مركب من جميعها على قدر مايكون في كل انسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشر او رجحان الشر على أجناس الخير وان الانسان وان كان ذا حواس خمسة فان في كل حاسة ذوناً من ضده من الاجناس الخمسة فمتى نظر الانسان نظرةَ رحمةٍ فتلك النظرة من النور ومن الخير ومتى نظر نظرة وعيد فتلك النظرة من الظلمة وكذلك جميع الحواس وان حاسة السمع جنس على حدة وان الذي في حاسة البصر من الخير والنور لا يعين الذي في حاسة السمع من الخير ولكنه لا يضارّه ولا يفاسده ولا يمنعه فهو لا يعينه لمكان الخلاف والجنس ولا يعين عليه لانه ليس ضداً وان أجناس الشر خلاف لاجناس الشر ضد لاجناس الخير وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ولا يضاد وان التعاون والتأذي لا يقع بين مختلفها ولا بين متضادّها وانما يقع بين متفقها .

والدهري[2] ليس يرى ان في الارض ديناً او نحلة او شريعة او ملة ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ولا يتوقع العقاب على الاساءة ولا يتوخى الثواب على الاحسان وانما الصواب عنده والحق في حكمه انه والبهيمة سيان وانه والسبع سيان ليس القبيح عنده الا ماخالف هواه وان مدار الامر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والألم وانما الصواب فيما نال من المنفعة وان قتل الف انسان صالح لنالة الدرهم الرديء .

وقال في موطن آخر[3] :

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٤١) .
(٢) « « « « ٦
(٣) « « « « ٣٢

« فان كان الدهري يريد من اصحاب العبادات والرسل ما يريد من الدهري الصرف الذي لا يقر الا بما أوجده العيان وما يجري مجرى العيان فقد ظلم وقد علم الدهري ان لنا رباً يخترع الاجسام اختراعاً وهو حي لا بحياة وعالم لا بعلم وانه شيء لا ينقسم وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق وان الانبياء تحيي الموتى وهكذا كله عند الدهري مستنكر » .

واما الديصانية فقد زعمت – على ما قال ابو اسحق النظّام — ان اصل العالم انما هو من ضياء وظلام وان الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة انما هي نتائج على قدر امتزاجها [١] .

دمشق : ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٣١

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ١٧) .

باب الهمزة والسين (١)

« وما يثلثهما »

(أسف) الهمزة والسين والفاء اصلٌ واحد يدل على الفوت والتلهف وما أشبه ذلك . يقال أسِفَ على الشيء يأسف أسفاً مثل تلهف . والأسِفُ الغضبان . قال الله تعالى : (ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسِفا) . وقال الأعشى (شعر) :

ارى رجلاً منهم أسيفاً كأنما   يضمّ الى كشحه(٢) كفاً مخضبا

فيقال هو الغضبان . ويقال ان الأسافة الارض التي لاتنبت شيئاً وهذا هو القياس لان النباس(٣) قد فاتها . وكذلك الجمل الأسيف وهو الذي لا يكاد يَسْمَن . واما التابع وتسميتهم اياه أسيفاً فليس من الباب لان الهمزة منقلبة من عين وقد ذكر في بابه .

(أسك) الهمزة والسين والكاف بناؤه في الكتابين . وقال اهل اللغة (المأسوكة) التي اخطأت خافضتها فأصابت غير موضع الخفض .

(اسل) الهمزة والسين واللام تدل على حدّة الشيء وطوله في دقة . وقال الخليل (الأسل) الرماح قال وسميت بذلك تشبيهاً لها بأسل النبات وكل نبت له شوك طويل فشوكه أسل والأسلة مستدق الذراع مالأسلة(٤) مستدق اللسان . قالوا وكل شيء محدّد فهو مؤسّل قال مزاحم (شعر) :

---

(١) نقتبس هذا البحث من كتاب (مقاييس اللغة) الذي كنا نشرنا عنه مقالاً في ص ٦٥ من هذا المجلد ووعدنا باقتباس شيء منه — ننشر ما نقتبسه على علاته سوى بعض أغلاط قد نشير الى تصحيحها في ذيل الصفحات . (٢) كشحه صوابه كشحيه .
(٣) النباس صوابه النبات . (٤) ما الأسلة لعل صوابه والأسلة .

يباري سديساها اذا ما تلجّمت شبا مثل ابزيم السلاح المؤلّل

(يباري) يعارض (سديساها) ضرسان في أقصى الفم طالا حتى صارا يعارضان النابين وهما الشبا الذي ذكر . وا (لإبزيم) الحديدة التي تراها في المنطقة دقيقة تمسك المنطقة اذا شدت .

(اسم) الهمزة والسين والميم كلمة واحدة وهو أسامة اسم من اسماء الاسد .

(اسن) الهمزة والسين والنون اصلان احدهما تغيّر الشيء والآخر السبب فالاول فيقال[1] أَسَنَ الماء يأسِنُ ويأسُنُ اذا تغير هذا هو المشهور . وقد يقال أَسِنَ قال الله تعالى : من ماء غير آسن . وأسِنَ الرجل اذا غُشي عليه من ريح البئر وههنا كلمتان مغلولتان[2] ليستا باصل . (احديها) الأُسُن وهو بقية الشحم وهذه همزة مبدلة من غين . انما هو غُسُنٌ . (والاخرى) قولهم تأسّن تأسناً اذا اعتل وابطأ . وعلة هذه ان ابا زيد قال انما هي تأمّر تأمراً فهذه علتها . والاصل الآخر قولهم ان الاسانَ الجبالُ[3] . قال (شعر) :

وقد كنت أهوى الناقية حقبة فقد جعلت اسانُ بين تقطّع

واستعير هذا في قولهم هو على اسانٍ من ابيه اي طرائقَ .

(اسو) الهمزة والسين والواو اصل واحد يدل على المداواة والاصلاح . يقال اسوتُ الجُرحَ اذا داويته . ولذلك يسمى الطبيب الآسي . قال الحطيئة (شعر) :

هم الآسون امّ الرأس لما تواكلها الاطبّة والاساه

اي المعالجون كذا قال الأموي . ويقال اسوتُ الجُرح اسواً واساً اذا داويته قال الأعشى (شعر) :

عنده البرّ والتقى واسا الشّقـ وحملٌ لمضلع الانقال[4]

ويقال آسوتُ بين القوم اذا أصلحتَ بينهم . ومن هذا الباب : لي في فلان إسوةٌ اي قدوة اي اني اقتدي به . وأسّيتُ فلاناً اذا عزيته من هذا اي قلت له : ليكن لك

(١) صوابه يقال او اما الاول فيقال . (٢) مغلولتان صوابه معلولتان .
(٣) صوابه الحبال بالمهملة . (٤) لعل صوابه الاثقال .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ادبنا القومي

- ٦ -

صفوة الكلام

خرج لنا مما سلف من القول ان في مصر لونين من الأدب ادب الخاصة ، وادب الجمهور ٠ او الادب العامي ٠ أما ادب الخاصة فقد عرفت انه داثر في فئة قليلة لا تقوم في العدد بشيء اذا أضيفت الى سائر الناس هذا الى انه جد فقير في أداء هذه الماديات التي تتدافع الينا من الغرب في كل يوم ٠ واذا ذكرت ان العربية لا تجمن من أسماء الزهر الا الورد والنرجس والبهار والقرنفل والياسمين والآس والنسرين (واكثرها ان لم يكن كلها معرب) وثلاثين او اربعين اسماً أوردها صاحب المخصص للزهر والنبات الشذي ايضاً ، على ان احداً لا يعرف الآن لاكثرها مسمى — اذا ذكرت هذا وذكرت ان العالم ومن بينه مصر نفسها يولد في كل عام آلاف الازهار والانوار ويفيض على كل منها الاسم الذي يعينه ويميزه عما عداه اذا ذكرت هذا قدرت مبلغ فقر العربية في هذا الباب ٠

على ان الرأي في هذا يجب ان يصير الى مجمع لغوي قوي غني ثابت الاصل باسق الفرع ٠ ولقد كررنا هذا فيما سلف من الكلام ٠

وقد عرفت ان في مصر انصاراً للقديم وانصاراً للتجديد وعرفت مدى ماببنهما من الخلاف ٠ وعلاج هذا يجب ان يترك للطبيعة فهي وحدها الكفيلة ببقاء الاصلح والقضاء على ماعداه ٠ وهي وحدها التي تنضج ماتدعو اليه حاجة الزمان وحاجة المكان ٠ وعرفت ان هناك اختلافاً في اللهجات : تارةً بقدر كبير وتارةً بقدر صغير ٠ وهذا يجب ان يترك علاجه للزمن ٠ على ان اللهجات جعلت تتقارب وتتشاكل بتسريح نظر كل اديب فيما يبعث غيره من القول ٠ وتلقط أحاسنه ٠ واحتذاء كرائمه ٠

واما الادب العامي فهو الشائع المستغرق لسواد الناس خاصتهم وعامتهم في ادراكه وتذوقه بمنزله سواء . وأعلاه الزجل والموالي لانهما ادناه الى الادب العربي . وقد عرفت مبلغ سلطان العامية في هذه البلاد ، فانها الجارية على ألسن الناس حتى الخاصة . فبهما يتحاورون وبها يتقاولون في جميع اسبابهم . الا ان يجتمع احدهم لمحاضرة او يتكلف لالقاء خطبة . وعرفت كذلك انهـا أثبت في النفس والصق بالحس بطول استعمالها وتقليب الألسن بها . كما انها أعظم غنى وأبلغ وفراً باداتها كل جديد . وترجمتها عن كل طريف بالتعريب وتارة بغيره من وسائل الترجمة والاداء .

واذا كانت العربية الخالصة تنتعش الآن وتعلو بما يبعث اهل البيان من شريف الفاظها وروائع صيغها فان العامية من جهة أخرى تنتشر وتستحصد بنشرها وقدرتها على المواتاة . وخاصة فيما يحصبنا به الغرب كل يوم من خلق جديد . واذا اطردت هذه الحال ايضاً طائفة من السنين انبتت العربية الخالصة وعاشت عنا بنجوة . الا ان تقتصر على ضئيل من مطالب الحياة . والا ان تستعمار للزينة والتبهج الحين بعد الحين .

هذا هو الواقع الذي لا يتداخله الشك ، والمكابرة فيه عبث من العبث لا يستحق المناقشة ولا الحوار .

* * *

وبعد فخقيق ببلد كمصر له تاريخه الضخم . وله حاضره الفخم . وله مطلبه في الحياة وهو جسام — حقيق به ان يعيش على العامية في لغته وفي ادبه جميعاً .

والعامية مهما ايسرت في الفاظها ومهما تهيأ لها بعض الحين ان تشك من دقائق المعاني فليست هي اللغة التي تستوي لعظام المطالب ، ولا التي ترضي الذوق الناضج . هذا الى انها لا تكتب ، فاذا كتبت نصل ماعسى ان يكون لها من رونق وبهاء . اما مايثبت منها على الكتابة كالزجل والموالي ونحوهما فهيهات ان يؤدي مجرد النظر في نقشه الى صحة النطق به حتى اذا لفظته على حكم ما بين يديك من حروفه اضطرب نظمه واختل وزنه وفسدت معانيه وذوت نواضره .

ثم لا يذهب عنك ان أجود ماخرج في الادب العامي انما هو من صياغة اعيان الادب العربي ، فمنه استمدوا . وبه استعانوا . فاذا اعتلجت اللوعة في نفس العامي فنفث بهـا

تمثلت في بعض القول بديعة رائعة ، فسرعان مايسطو به جهله فيرديه في سائر الكلام الى الحضيض · واذا كان في العامة من يجيد لوناً من ألوان هذا الادب ويحذله كلما اجتمع للقول فذلك لان له طبعاً · وهذا الضرب من الناس نادر ، والنادر لاحكم له ·

ثم ان بلاغة الكلام ليست حبساً على إصابة المعاني ، بل ان هناك ماهو اجل واعظم · هناك — وخاصة في بلاغة العربية — فحولة القول ، وشرف اللفظ ، وتلاحم النسج ، واشراق الديباجة · وليس للعامية في شيء من هذا حظ كبير او ضئيل · واذا لم تكن تحضرك الامثلة التي سبق لنا ان ضربناها لك في هذا الباب فلنأت اليوم بما يشبهها ليتضح بها المقام ·

قال الشاعر :

فقلت لجساد خذ السيف واشتمل · عليه برفق وانظر الشمس تغرب
واسرج لي الدهماء واعجل بمطري · ولا يعلمن خلق من الناس مذهبي

وقال الشاعر :

ياليتنا في غير امر فادح · طلعت علينا العيس بالرماح

وقال الشاعر :

فقلنــا لساقيها زياد يرقمــا · لقد هد بعض القوم سقي زياد

وقال الشاعر :

فسائل بني جرم اذا ما لقيتهم · وسعدا اذا جئت عليك بنو سعد
فان يخبروك الحق عني تجدهموا · يقولون أبلى صاحب الفرس الورد

ولا شك في ان هذا الشعر يخلب اللب ويهز النفس ، على انك لو فتشته لرأيته فارغاً من كل معنى شعري ، اوخيال يحلق بك في جو السماء ، او تشبيه يترقرق لنفسك ترقرق السراب على متن الصحراء · ولكنه سري بفحولة اللفظ و براعة التأليف وجودة النسج وسطوة الكلام ·

وفي الغاية ، الى اين نصير بكتاب الله العزيز ؟ وهو مجدنا ، وهو ذر بعثنــا ، وهو آية ديننا ، وهو ميراثنا التالد ، وهو مجدنا الخالد ، وهو حصننا نعوذ به كلما قهرتنــا الاقدار ، وهو مشكاتنا نستصبح بها كلما غم علينــا وجه النهار — اين نصير به ؟ وكيف الحيلة يومئذ في لفهمه ؟ وكيف الوسيلة في تأمل نظامه وتعرف احكامه ، وكيف السبيل

الى إمتاع النفس به ونقع الغلة بروائع آياته ، ومعجز بلاغاته ؟

في الحق اننا لانستطيع ان نعيش على هذه العامية التي يحدرنا اليها الجهل والغرور والغفلة عما تفعل بنا الايام ·

وصدق ابو العتاهية فيما قال :

الليل يعمل والنهار ونحن عمـ ـــا يعملان باغفل الغفلات

وبعد ، فما كنت لأذهب الى إزالة العامية واستئصال شأفتهـا من هذه البلاد ، فذلك مما يتصل بالمستحيل ، وقد كانت العامية قائمة في أنضر عصور العربية وأزكاها · ولا سبيل الى إزالة العامية لا بازالة العامة ، وانما أريد ان يعمل العاملون على إشاعة صحيح العربية في سواد الناس وتيسيرها لهم حتى يفهموها و يتذوقوا — ولو بمقدار حلاوتها ، ويلمحوا مالها من روعة وجلال ، وذلك سهل ميسور · فاذا تم هـذا أمكن الوصل ، بقدر محدود ، بين لغة العامة ولغة الخاصة ، وبين أدب هؤلاء وادب هؤلاء ، وذلك لان ما يتروونه من فصيح العربية وناصع بيانها سيهذب أذواقهم ، ويفسح في ملكاتهم ، و يبعث نفوسهم الى الاستشراف كما أصابوا في العربية قولاً جميلا ، ولاشك في ان هذا سيعلق على تطاول الايام بطباعهم ، فتنضح باثره السنتهم ، وذلك الذي يدفعهم الى الارتفـاع بلغتهم وبادبهم حتى يتصلا بصحيح العربية وفصيحها ، وبهذا يصبح للبلد لغـة واحدة وادب واحد · وان تفاوتت مراتبه ، وتلونت مذاهبه ·

ولقد زعمت لك في بعض الكلام ان السبيل الى هذه الغاية سهل ميسور ، ذلك اننا الآن جاهدون حقًا في إشاعة التعليم ، حتى اكتظت الحواضر بدور العلم · وهي بحمد الله كل يوم في ازدياد ، ولا ننس التعليم الالزامي المفروض الآن على جميع المصر بين من بنين وبنات · فالرأي ان يتخير من شعر العربية ونثرها أسهل الكلام وألينه و يروّى التلاميذ اثناء نشأتهم · وهكذا يتدرج بهم بما لا يرهقهم ولا يند عن طاقتهم ·

ولقد قلت لك 'يروّى' ولم أقل يحفظ لان كثيراً من أساتيذ البيان عندنا مع الاسف انما يعتمدون في تعليم تلاميذهم على مجرد التحفيظ وتفسير ماعسى ان يقع في الكلام من لفظ غريب ، فلا يعدو مايتلقاه الطلاب من مختار الشعر ومصطفى النثر ان يجاز الى الحافظة فيختزن فيها اختزاناً ، وما هكذا يكون تعليم البيان · إنما يكون تعليمُ البيان بان تلقي على الطالب

القطعة المختارة من المنظوم او المنثور وانت توقعهـا ايقاعاً يتسق لما حوت به من بلاغة ، ثم لانفتأ تنبه حسه لما أضمرت من سرّ ، ومانفثت من سحر . ولا تزال خلال ذلك تظهر الافتنان والانبهار بما تلوكه من الكلام ، و بهـذا تشحذ طبيعته ، ويربو ذوقه ، و يتصل ذوق البلاغة بنفسه حتى ليجري من أعراقه مجرى دمه . ولو قـد ختم دروسه على هذا وانطلق لشأنه في الحياة ا بهات ان يسلو الادب . او يقصر في إمتاع النفس بالاكباب على بيان العرب .

ومما يخطيء فيه كثير ان ملكة البيان انشاء او مجرد تذوق لا تستوي للمرء الا اذا درس علوم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع . نم انهم ليخطئون في هذا : لان بناء الكلام وتذوقه لايحتاج شيء منها . في الواقع ، الى هذا كله ، واني اختزل لك الطريق فاؤكد لك ان تسعين في المائة من اعلام البيان في هذه النهضة الحديثة لا يعرفون اكثر من بضع قواعد من قواعد النحو . اما أبنية المفردات وتصرفاتها فقد حصلوها من مراجعة المعاجم . ومذاكرة كتب العربية في الآداب والعلوم . حتى العروض فاكثرهم لا يجيده ، وكثير منهم من لايعرف من امره شيئاً . واما مايدعونه علوم البلاغة فهي على ما انتهت الينا ، لاتغني في البيان كثيراً ولا قليلا ، لان البيان الى انه طبيعة فان ملكته انما تنفسح بالتروي وترديد النظر والمحاكاة وطول التمرين .

واقد كان للوزير المصلح المرحوم احمد حشمت باشا في هذا الباب رأي حكيم ، ذلك انه يحب الا يشاع كتاب ، وخاصة كتب التعليم ، الا اذا كان مضبوطاً بالشكل الكامل حتى اذا درج الناس على المنطق الصحيح وداموا بضع سنين يقلبون فيه السنتهم ، استقامت فطرهم ، وصحت ملكاتهم ، فلا يدخل عليهم الخطأ او اللحن الا في النادر القليل .

ولاشك ، بعد هذا ، في انه اذا تهيأ للمصلحين ان يبلغوا بالجيل الناشيء هذا المبلغ ، فان الطبيعة نفسها تأبى ان تنتشر في هذا الجو الا القصص الفصيحة والمنظومات البارعة ، والاناشيد الرائعة ، ادنى مانكون اتصالاً بالعربية ان لم تنفذ الى صميم العربية .

ولا ننس ان المفردات وهي متن اللغة ومادتها انما يتكفل بها المجمع اللغوي ، واقد تكرر في هذا الكلام .

* * *

يا رجال الادب ، ويا حماة لغة العرب ، و يا كل مؤمن بالكتاب الكريم ، و يا كل غيور على جلال هذا الذكر الحكيم ، و ياظهراء العلم ، و ياالقائمين على شأن التعليم ، و يادعاة الاصلاح و يا قادة النهضة في البلاد — أنشدكم الله والدين والعلم والادب والوطن ان تهبوا بجمعكم للذياد عن لغتكم ، والجهد في شد متنها ، وتدعيم ركنها ، حتى ينبعث في البلاد لسانها ، و يسود كل بيان بيانها ، فما ذلك عليكم بعسير .

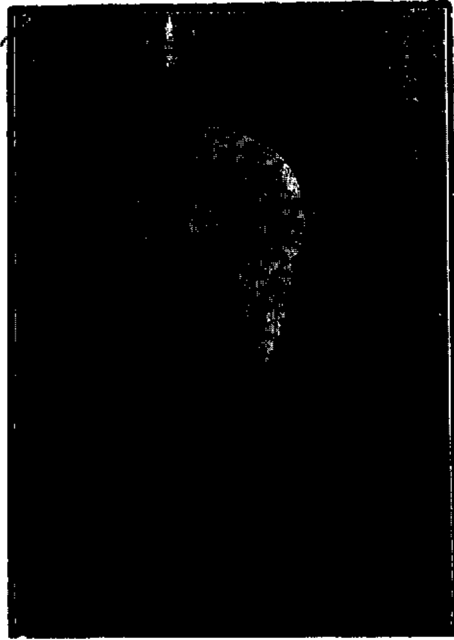
* * *

وبعد فلقد تطوحت في هذا البحث الذي أعلم ، وانا أعلم بنفسي ، انني له غير كفء وما دفعني اليه ولا اغراني به الا صديقي الاستاذ الجليل محرر المساء . ولعله بهذا انما أراد لي ان أذكي قريحة خامدة ، وان احد [redacted] فد صدئ وانثلم . ولعلي بالتعرض لهذا الموضوع اكون قد اثرت لمعالجته همم الاكفاء القادرين ، وهذا حسبي ، وهذا عما قصرت فيه نعم العزاء .

وعلى كل حال ، فانني ان كنت قد أصبت في بعض القول فذلك من فضل الله وتوفيقه واذا كنت قد اخطأت ففي عفو الله مفيض وفي حلم القارئين متسع (ان اريد الاالاصلاح مااستطعت وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت اليه أنيب) صدق الله العظيم اه .

باحث

الاستاذ جرجس منش [1]



هو رشيد بن فرنسيس بن يوحنا بن فرنسيس بن شكري بن بولس بن ابراهيم المكنى بابي منش . فهو ينتسب الى ابي منش . و يظهر ان ابراهيم الجد الأعلى المحدث عنه كان متزوجاً قبل توطنه حلب ورُزق من امرأته الاولى ابنته المسماة مريم المعروفة (بمنش) فكني بها وعُرف (بابي منش) ومن بعده أطلق على أسرته فلقبت (ببيت منش) وهو في لغة العامة مخفف (منّوش) محرف (مروم) الذي هو تصغير (مريم) عليها السلام . وهذا العلَم لايزال شائعاً متداولاً بين الارمن خاصة فيسمون (بمنش) البنات اللاتي يريدون تسميتهن بمريم . وعليه فاما ان يكون ابراهيم الجد الأعلى كني بابي منش من قبيل الاشتراك

(١) عضو المجمع العلمي المتوفى في حلب في شهر كانون الثاني من هذه السنة .

الاتفاق وإما ان يكون له صلة باصدقاء من الارمن لدعوا ابنته مريم بماألفوه وهو منش فغلب عليه وعلى أسرته من بعده فبقي عليها علماً بالغلبة ·

وقد ولد رشيد بحلب في ١٦ كانون الاول سنة ١٨٧٣ ونصّره نسيبه القس جرجس منش في اول كانون الثاني لافتتاح سنة ١٨٧٤ فانصرف والده الى تربيته وتوفر على تعليمه واعداده للدعوة الاكليريكية فكان ينشطه الى الدرس والاستفادة ويصحبه الى الكنيسة باقنه في الآحاد والأعياد قراءة الفصول النبوية ليتلوها على الشعب حتى اذا بلغ السادسة من عمره ضوى الى مدرسة الارمن الكاثوليكية فأخذ فيها مبادئ اللغة العربية والارمنية وتحوّل الى المدرسة المارونية فواصل درس العربية وتلقى اصول اللغة السريانية والخط والحساب · ولما أدرك الثانية عشرة اختاره المطران بولس حكيم لاتمام دروسه في احدى المدارس الاكليريكية الطائفية · فدخل مدرسة مارعبدا هرهريا الشهيرة واقتبس فيها اللغات العبرية ، العربية والسريانية ومبادئ اللاتينية والايطالية ودرس الفلسفة والخطابة والجدل واللاهوت النظري والأدبي وشروح الكتاب المقدس وقال الشعر وهو في الحادية والعشرين وله عدة قصائد ومقطعات نظمها في سنته المدرسية الأخيرة ·

وبعد الامتحان النهائي رقاه المطران الياس الحويك (وهو غبطة بطريرك الموارنة الحالي) الى درجة الكهنوت في حفلة حافلة في ٣١ تموز سنة ١٨٩٥ فأمره البطريرك يوحنا الحاج بعد كهنوته ان يمارس اعمال الرسالة لاجل زيادة مرانه على الوعظ والخطابة فامتثل الامر وزاولها صحبة المرسلين الكريميين في شمالي لبنان كحصرون و بشرّي واهدن وما اليها نحواً من ثلاثة أشهر ·

وعاد الى حلب في ١٧ تشرين الاول سنة ١٨٩٥ وتقيّد بخدمة الابرشية الحلبية وتقلّب في خططها الكهنوتية · وانصرف من اول امره الى التثقيف والتوقيف فدرّس اللغة العربية في مدرسة الآباء الفرنسيسيين خمس عشرة سنة ثم في مدرسة الروم الكاثوليك ثم في مدرسة الارمن الكاثوليك فتخرّج عليه عدد عديد من ناشئة حلب وأدبائها ·

وهو على رغم شواغله العديدة كان يرحل في اوقات الفراغ الى ليرب وارفاد وقورش وجرابلس وقنسرين والرقة وجبل سمعان من بلاد سورية الشمالية القديمة للبحث عن آثارها وتقصي أحوالها وله فيها فصول ضافية الذيول في جغرافيتها ووصف آثارها ومرافقها وذكر

وقائعها ومشاهيرها وما أشبه ذلك . نشر بعضها و باقيها لا يزال مطويا .

وفي أواخر الحرب العامة كان رغب عبدالخالق والي حلب في ان يتحدّى زميله اسماعيل حقي بك (متصرف لبنان) في تأليف كتاب في بلاد سورية الشمالية يشتمل على جغرافيتها الطبيعية والسياسية وما ينطوي تحتها من المباحث . فألفت لذلك لجنة من أدباء العرب والترك وضمت اليها المترجَم فأخذ على نفسه البحث في النصرانية وأحوالها وتواريخها وآثارها وفنونها وسائر شؤونها الادبية والعمرانية والدينية ووضع في ذلك فصولاً وأبحاثاً عديدة قبل تمتها كانت وضعت الحرب أوزارها فانفرط عقد اللجنة وحرم عالم العلم من هذا الكتاب الجليل الممتع .

وقد راسل المترجَم من الجرائد عدة جرائد شامية وخصّ الأرز بعنايته لصداقة كانت تربطه بصاحبها فراسلها مدة صدورها . وكاتب من المجلات العلمية الادبية المشرق والزهور وكوكب البرية والآثار والشعلة ورسالة السلام والحارس ، وله صلة بادباء العصر وعلمائه الأفاضل ولديه مطارحات ومراسلات عديدة تبلغ سبعمائة صفحة .

ومن آثاره الأدبية المطبوعة تقويم المطبعة المارونية ، والطرفة الشهية في الرهبانية الفرنسيسية المعروفة بالثالثة ، والتحفة الادبية في المجامع المارونية وعليها حواش ضافية في الطقوس والقوانين والآداب الكنسية ، والمستطرفات في حياة جرمانس فرحات ابي النهضة الادبية الحديثة مذيلة بجدول تصانيفه ومعرباته ومختصراته ، ورحلة علمية الى عاصمة الحثيين نشرها على صفحات مجلة الآثار .

ومن آثاره المخطوطة الحق القانوني عند الموارنة ، وخطط البلاد المارونية ، وحلب على عهد العرب ، وحلية النسب في أسر حلب ، ومفاخر الحقب في آثار حلب . نشر بعضها في مجلة الآثار . ومعين الأدب في وصف مكاتب حلب ، والصلوات القانونية في كنيسة حلب المارونية ، وجامعة البراهين في حكاية زقاق الاربعين وهي حكاية انقراض النصارى من حلب في القرن الرابع عشر او الخامس عشر . والعرف المسكي في اوتيخيوس البعلبكي والطقس الملكي وفيه أبحاث تاريخية انتقادية دقيقة في قضية بعينها ، وضروب الافانين في الخطب والتأبين وهي مجموعة خطبه وتآبينه التي لفظها في أوقات وأغراض متباينة الى غير ذلك مما هو غير تام التأليف .

وفي ٢٣ آذار سنة ١٩٢٣ انتخب عضواً للمجمع العلمي في حلب . وبعد بضعة أشهر تقرر تعيينه عضواً عاملاً في فرع حلب التابع للمجمع العلمي المركزي . ومن جملة آثاره في مجلة المجمع مقال نشره في مجلد السنة السابعة وصف فيه كتاب (تتمة يتيمة الدهر) احدى مخطوطات المكتبة المارونية بحلب . ومقالاً آخر نشره في مجلد السنة التاسعة حقق فيه ان مدينة (ذات الزيتون) التي كان عبدالرحمن الداخل مقيماً فيها وفر منها الى إفريقية — هي الزيتونة على الفرات او قريبة منه في بادية الشام . ونشر في المجلد نفسه مقالاً حقق فيه ان كلمة (العربة) بمعنى العجلة او المركبة ليس اول من استعملها ابن بطوطة في رحلته بل هي معروفة قبل ذلك ولعل أصلها آرامي سرياني . وقد ناقشه الاب انستاس الكرملي في الموضوع فعاد هو ورد عليه . وكل ذلك نشر في المجلد التاسع .

—«*•◊◊◊•*»—

رسالة الكرم

- ١٠ -

« العنب الأسود والاحمر والاصفر »

الرّماديّ ضرب من العنب بالطائف أسود أغبر .

الكِشْمِش بالكسر : قال في اللسان ضرب من العنب وهو كثير بالسراة ولم يزد على ذلك . وفي المخصص الكشمش وهو الحمنان وعناقيده ببعض أمثال أذناب الثعالب وسيأتي عنه ان الحمنان أسود الى الحمرة . وفي التاج عنب صغار لا عجم له ويكون أصفر واحمر واسود ألين من العنب واقل قبضاً وأسهل خروجاً قال القطمش يصف امرأته .

كأنّ الثآليل في وجهها   اذا سفرت برد الكشمش

قال في التاج و يقال بالقاف ايضاً اي قشمش .

الغِرْبيب بالكسر: ضرب من العنب بالطائف شديد السواد وهو أرق العنب وأجوده وأشدّه سوادا .

أصابع العذارى : صنف من العنب أسود طوال كالبلوط شبه ببنان العذارى المخضبة وعنقوده متداخس[1] الحب وله زبيب جيد ومنابته السراة كذا في التاج ونحوه في اللسان .

عيون البقر : قال في اللسان ضرب من العنب ولم يزد على ذلك . وفي التاج وعيون البقر ضرب من العنب أسود كبير مدحرج غير صادق الحلاوة . وفي المخصص وهو عنب أسود ليس بالحالك عظام الحب مدحرج يزبب وليس بصادق الحلاوة .

الحَمْنان[2] : عنب طائفي اسود الى الحمرة صغير الحب قليله كذا في التاج وفي اللسان

---

(١) لعله من دَخس اللحم وهو اكتنازه والدَّخَس امتلاء العظم من السمن والدَّخيس اللحم الصلب المكتنز . (٢) الحَمْن والحَمْنان صغار القردان واحدته حمنة وحمنانة .

أسود الى الحمرة قليل الحبة وهو اصغر العنب حباً . وفي الاصمعي واما الحنان فأسود احمر وهو اصغر العنب حباً . وقيل الحنان الحب الصغار بين الحب الكبار وقد تقدم هذا .

الدَّوَالي(١) : عنب اسود غير حالك وعناقيده اعظم العناقيد كلها تراها كأنها تيوس معلقة وعنبه جاف يتكسر في الفم مدحرج و يزبب هكذا في اللسان والتاج ونحوه في المخصص وفي الاصمعي واما الدوالي فأسود يضرب الى حمرة عظام الحب .

ام حبيب : قال الاصمعي واما ام حبيب فسوداء زرقاء تعظم عناقيدها وبعظم حبها .

« ما لم ينعت من العنب »

الحبشي ضرب من العنب قال في اللسان . قال ابوحنيفة لم ينعت لنا ومثله في التاج والمخصص .

الرعشاء عنب له حب طوال سمي بذلك على التشبيه بالزنمتين وفي اللسان ورعشنا الشاة زنمتاها تحت الاذنين . وشاة رعشاء من ذلك . ورعشت المعز من باب فرح ومنع ابيضت اطراف زنمتيها . وزَنَمة الشاة هنة معلقة في حلقها تحت لحيتها . وخص بعضهم به المعز و يقال ازنم الشجر اذا صار له زنمة كزنمة الشاة . والزنمة بالضم شجرة لا ورق لها كأنها زنمة الشاة .

المُخَتَّم ذكره في المخصص ولم ينعته وقال زنة حبة منه اكثر من اربعة اساتير . والاستار وزن اربعة مثاقيل ونصف .

القُبُوعي نوع من العنب ذكره الاصمعي ولم ينعته ولم اره لغيره .

« تعريش الكرم وعرشه »

العريش ما عُرِّش للكرم من عيدان تجعل كهيئة السقف فتجعل عليها قضبان الكرم جمعه عُرُش كقليب وقُلُب . وفي المصباح وعريش الكرم ما يعمل مرتفعاً يمتد عليه الكرم والجمع عرائش .

وعَرْش الكرم ما يدعم به من الخشب وجمعه عروش .

وعرَّش الكرم يعرِشه و يعرُشه عَرْشاً وعُرُوشاً وأعرشه إعراشاً . وعرشه

(١) ضبط بالشكل في اللسان والمخصص بكسر اللام فقط وفي الاصمعي بكسر اللام وتشديد الياء ولا اعلم ما يوجب التشديد .

تعريشاً عمل له عَرْشاً ورفع دواليه على الخشب · وعرشه تعريشاً اذا عطف العيدان التي ترسل عليها قضبان الكرم ·

واعترش العنبُ العريشَ اعتراشاً اذا علاه على العراش[1] ·

واعترشت القضبان على العريش علت واسترسلت وهو مطاوع عرش كرفع وارتفع ·

وقوله تعالى وجنات معروشات ، المعروشات الكروم ·

وفي المخصص فان سند بعد ذلك فهو مُقَردس ومُقَرَّح ومعروش وعريش ومعرّش ثم قال واسم ذلك الخشب العريش والعَرْش والجمع عروش ·

المرزح كمنبر الخشب يرفع به الكرم عن الارض وفي التهذيب يرفع بها العنب اذا سقط بعضه على بعض · ورزحَ العنبَ وأرزحه اذا سقط فرفعه والمرزحة الخشبة التي يرفع بها ·

الجُزْءة بالضم المرزح وهي خشبة يرفع بها الكرم عن الارض ·

القلال ككتاب الخشب المنصوبة للتعريش لانه يقل بها الكرم قال الشاعر :

من خمر عانة ساقطاً افنانها رفع النبيط كرومها بقلال

اراد بالقلال اعمدة ترفع بها الكروم من الارض ·

الدعمة والدعامة والدعام بكسرهن الخشب المنصوب للتعريش جمعه دعم بكسر ففتح ودعائم ودعم الشيء مال فأقامه كما ندعم عروش الكرم ·

الدِّجْران بالكسر الخشب المنصوب للتعريش الواحدة دِجرانة ··

الدُّقران بالضم خشب ينصب في الارض يعرش عليه الكرم واحدته دُقرانة · وفي الاصمعي قد قَبَّع كرمه اذا ماحفر الدقران حفراً يثبته فيه ·

الجازع الخشبة التي توضع في العريش عرضاً تطرح عليها قضبان الكرم لترفع عن

(١) هذه الجملة مذكورة في اللسان والصحاح ومختاره ونقلها في التاج عن المفردات (ولكني لم ارها في المفردات) وقد ورد لفظ العراش في المخصص ايضاً ولم يذكرها احد منهم في جمع عَرْش او عريش بل ظاهر كلامهم يدل على ان جمع عرش عروش وجمع عريش عُرُش ولعلها جمع عرش لان فعالاً يطرد جمعاً لَفعْل على ما ذكره ابن مالك ككعب وكعاب وثوب وثياب وضيف وضياف وصعب وصعاب فليراجع ·

الارض فان نعت تلك الخشبة قلت خشبة جازعة . وكذلك كل خشبة معروضة بين شيئين ليحمل عليها شيء فهي جازعة . وفي اللسان الجازع خشبة معروضة بين خشبتين منصوبتين وقيل بين شيئين يحمل عليها وقيل هي التي توضع بين خشبتين منصوبتين عرضاً لتوضع عليها سروعُ الكرم وعروشها وقضبانهـا لترفعها عن الارض . وفي المخصص ويقال للخشب التي يعرش فوقهـا العوارض والمعالج والجوازع الواحد جازع فاذا وصفت الخشبة فهي جازعة وسيأتي معنى العوارض . واما المعـالج فلم أر من ذكرها ولعلها محرفة عن المساطح .

المِسطح كمنبر الخشبة المعرّضة على دعامتي الكرم بالأُطُر . قال ابن شميل اذا عرش الكرم عمد الى دعائم يحفر لها في الارض لكل دعامة شعبتان ثم تؤخذ شعبة (١) فتعرّض على الدعامتين وتسمى هذه الخشبة المعرّضة المسطحَ ويجعل على المساطح أُطُر من ادناها الى أقصاها .

والمسطح كمنبر وتفتح ميمه مكان مستو يبسط عليـه التمر ويجفف و يسمى الجرين . يمانية . والمسطاح لغة فيه .

القَتْل بالفتح عود يجعل تحت سروغ القطوف لئلا تتعفر ويقال له المِشحَطُ .

والمِشحط عويد يوضع عند القضيب من قضبان الكرم يقيه من الارض كالشَّحْط والشحطة .

وقيل الشحط خشبة توضع الى جنب الاغصـان الرطاب المتفرقة القصار التي تخرج من الشكر حتى ترتفع عليها . وقيل هو عود ترفع عليه الحبلة حتى تستقل الى العريش .

والشحطة العود من الرمان وغيره تغرسه الى جنب قضيب الحبلة حتى يعلو فوقه . وفي الاصمعي الشحطة عود ترفع به الحبلة حتى تنتقل الى العريش ويقال شُحِط الكرم وتشحّط الحبلة اذا وضع الى جنبها خشبة حتى ترتفع اليها وقيل حتى تستقل الى العريش .

الحُرْدِيّة قصبات تضم ملوية بطاقات الكرم تحمل عليها قضبانه .

(١) هكذا في اللسان والتاج وفي الاصمعي ثم تجيء بخشبة فتعرضها وهو الموافق لقول اللسان وتسمى هذه الخشبة المعرضة الخ .

والهردية الحردية قال الازهري والذي حفظناه عن أئمتنــا الحردي بالحاء ولم يقله بالهاء غير الليث . وفي المصباح والحردي بضم الراء وسكون الحاء حزمة من قصب تلقى على خشب السقف كلمة نبطية والجمع الحرادي . وعن الليث انه يقال هردية قال وهي قصبات تضم ملوية بطاقات الكرم يرسل عليها قضبان الكرم وهذا يقتضي ان تكون الهردية عربيــة وقد منعها ابن السكيت وقال لا يقال هردية اه . وقد اقتصر صاحب المخصص على الهردية بالهاء ولم يذكرها بالحاء وكذا صاحب اللسان . ولم يذكرها صــاحب القاموس في مادة ح ر د وانما قال في مادة ه ر د والهردية الحردية ولم يذكرها صاحب الصحاح بهذا المعنى وانما قال والحردي من القصب نبطي معرب ولا يقال الهردي .

الزَّوافر خشب تقام وتُعرَّض عليها الدعَم لتجري عليهــا نوامي الكرم وزافرة البناء ركنه الذي يعتمد عليه . والزفر بالتحريك الذي يدعم[1] به الشجر و يسند .

السِماك ككتاب خشبة يرفع بها العنب والجمع السمك ككتب والسماك ما سمك به الشيء اي رفع حائطاً كان او سقفاً وفي المخصص عن ابي حنيفة . وكل ما رفع به الكرم فهو مِسماك وسماك والجمع سُمُك لانه يسمك بها .

العوارض الخشب التي يعرش فوقهــا ولعلها مأخوذة من عوارض البيت وهي خشب سقفه المعرَّضة . واحدتها عارضة وفي كتاب الاصمعي والسمك التي يرفع بهــا العنب من الخشب والواحد السماك والتي تعرَّض فوقها السمك العوارض .

التمريح التعريش قال في التاج وكرم ممرح كمعظم مثمر او معرش على دعائمه .

الإمراح تعريش الكرم قال في اللسان وأمرح كرمك بقطع الألف بمعنى عرِّشه .

الترجيب ان تدعم الشجرة اذا كثر حملها لئلا تنكسر أغصانهــا . ورُجِّب الكرمُ سويت سروغة ووضع مواضعه من الدعم والقلال .

سليم الجندي
عضو المجمع العلمي

---

(١) كذا في التاج وفي اللسان التي يدعم بها الشجر بتأنيث الضمير وفي المخصص التي يدعم بها تحت الشجر وفي كتاب الاصمعي ما يدعم به الشجر .

آراء وافكار

—«»—

معهد مصر العلمي

Institut d' Egypte et Institut Egyptien

في اول سبتمبر سنة ١٧٩٨ وطئت قدما بونابرت مصر وقد عين قائداً عاماً لجيش الشرق وما تم ان أصدر امره بتاريخ ٣ فركتيدور[1] (Fructidor) من السنة السادسة الجمهورية (سنة ١٧٩٨م) بتأسيس معهد علمي يكون الغرض منه البحث في مختلف الشؤون للعلوم والفنون الخاصة بمصر . وقد عقد اول جلساته بعد ثلاثة ايام اي في ٦ فركتيدور بمنزل حسن كاشف في قسم الناصرية الحالي بالقاهرة حيث حارة مونج خلف المدرسة السنية للبنات بشارع الناصرية ، فانتخب مونج رئيساً للمعهد وبونابرت وكيلاً وفوريه سكرتيراً دائماً وترى لليوم بطاقة لجنة حفظ الآثار العربية برقم خاص موضوعة على منزل ابراهيم بك السناري القديم حيث نقلت اليه المجموعة النفيسة التي تعب في التنقيب عليها واقتنائها المرحوم شارل جلياردو بك المتوفى بمصر في سنة ١٩٢٧ وكان قد نقل الى ذلك المنزل مكتبته ومجموعته باسم «متحف بونابارت» وافتتح رسمياً بحضور اللورد اللنبي وغيره من العظماء في ٥ مايو سنة ١٩٢١ .

وقد عين قرار التأسيس الغرض من انشاء هذا المعهد فجاء به ان مهمته تنحصر فيما يأتي :

(اولاً) للرقي ونشر نور الثقافة .

---

(١) يظهر ان هذا اسم من أسماء الأشهر التي وضعها رجال الثورة الافرنسية مكان أسماء الأشهر القديمة .

(ثانياً) للبحث والدرس ونشر الحوادث الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر ·

وحدد ايضاً عدد العلماء أعضاء المعهد فجاء فيه بانه يتألف من خمسين عضواً يكونون مقيمين كلهم بمصر· وقسم الى اربعة اقسام : الاول للرياضيات والثاني للطبيعيات والثالث للشؤون الاقتصادية والسياسية والرابع للآداب والفنون · وكان انه تأسس بعد ثلاثة ايام من صدور القرار ظل كل عضو فيه يعمل باهتمام ثلاث سنوات وهي مدة الاحتلال الفرنسوي ومع انه انحل كهيأة منظمة واستمر الاعضاء الذين الفوه يبذلون جهودهم لتحقيق الغرض من تأسيسه واخيراً جمعوا بحوثهم وطبعوها في المؤلف العظيم المرسوم بوصف مصر (Description de l'Egypte) وقد طبع لاول مرة في سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨١١ في سبعة مجلدات وأعيد طبعه بحجم أصغر للمتون سنة ١٨٢٦ في ٢٦ مجلداً غير الاطالس في احد عشر مجلداً للطبعتين وظاهر ان الطبعة الاولى كانت في عهد الامبراطور نابليون الكبير وبأمره كما هو مكتوب واما الثانية فكانت في عهد لويس الثامن عشر وانه حقاً عمل جليل عمله علماء اختصاصيون ولا يزال الى اليوم اثراً عظيماً جمع بين دفتيه المعلومات الجزيلة النفع ففيه فوائد مهما قلت لا يستهان بها وعملاً قام على أصدق البحوث واكملها الى ذلك الوقت (منذ نيف ومئة عام) ومع ذلك فهو الى اليوم المؤلف الجليل والمرجع الذي يرجع اليه في كل موضوع خاص بمصر· وقد قسمت موضوعاته الى ثلاثة اقسام الاول عن الآثار والثاني عن وصف مصر في عهد الفرنسويين والثالث عن التاريخ الطبيعي ·

هذا مجمل مايقال وماتحسن به الاشارة الى المعهد في دوره الاول الذي أراد بونابارت ان ينشئه بمصر على مثال ما كان في فرنسا وكان يفتخر بانه عضو في Jnstitut de France فكأنه أراد ان يفتخر ايضاً بانتسابه الى معهد مصر العلمي الذي امر بتأسيسه وبقي ولكن الى حين · وبعد مضي نصف قرن تماماً اي في ٦ مايو سنة ١٨٥٩ كان الوالي يومئذ محمد سعيد باشا فأصدر امره باعادة المعهد بناء على اقتراح العلماء مثل جونار Jonard المستشرق الاشهر الذي يعتبر اكبر صلة بين باريس ومصر وارجست مارييت بك (باشا فيما بعد) Mariette ; كونج بك Konig Bey طبيب الوالي الخاص ود كتور شنب ديريريرا Dererira Chinepp وغيرهم فأعيد المعهد في الاسكندرية باسم المعهد المصري العلمي Institut Egyptien ; ظل الاعضاء يواصلون اجتماعاتهم الى ان نقل الى القاهرة

في سنة ١٨٨٠ وسن له قانون جديد في ١٢ صفحة بالفرنسوية وهكذا وجد بجانب اسماء المشهورين من كبار المؤسسين الاولين وهم بونابارت ومونج ولو بير و برتوليه وجولو واسنيت هيلر وغيرهم اسماء ماسبرو ونيرونسوس بك وشو يتفورث و بروخش وسيكبارجر ومحمود باشا الفلكي وفيجري بك ودلسيس وغيرهم من العلماء الاجانب والوطنيين الذين اقترنت اسماؤهم بالاستكشافات الحديثة والاعمال والبحوث المهمة الخاصة بمصر ·

واخيراً في اول نوفمبر سنة ١٩١٨ صدرت ارادة من مولانا الملك باعادة الاسم الاول Institut d'Egypte وان يكون مؤلفاً من خمسين عضواً كما كان عددهم في بدء تأسيسه وهم الذين يحملون لقب العضوية والانتساب مدة الحياة · اما اختصاص المعهد فقسم الى اربعة اقسام : (١) في الادب والتاريخ والآثار · (٢) في العلوم الادبية والسياسية · (٣) في العلوم الطبيعية والرياضية · (٤) في الطب والهندسة الزراعية والتاريخ الطبيعي · ويمكن انتخاب خمسين عضواً من اعضاء الشرف او من المكاتبين لكل قسم ·

وتعقد الجلسات عادة بعد ظهر الاثنين الاول من كل شهر في المدة من نوفمبر الى مايو وتقوم لجنة ادارة المعهد بطبع (١) نشرة سنوية بالمحاضرات العلمية ومحاضر الجلسات والملحقات وجدول باسماء المشتركين (٢) مذكرات وهذه تصدر في اوقات غير محددة شاملة البحوث المهمة التي تقدم للمعهد و يقرر قبولها واصدارها ·

اما مكتبة المعهد فتعد من أهم مكتبات القطر وتشمل ثلاثين الفاً من المجلدات بعضها منقطع النظير نادر الوجود وفيها كل مايهم الباحث في الشؤون المصرية على الاخص · وأبواب المكتبة مفتوحة طول السنة عدا الأعياد الرسمية سواء للاعضاء العاملين اوللعلماء والجمهور ، و يقضي النظام المتبع بها بعدم اخراج كتب منها الا للاعضاء او لمن يضمنونهم من الاجانب · و يتبادل المعهد مطبوعاته مع مطبوعات المعاهد العلمية في انحاء المعمور ·

هذا و يتألف مجلس الادارة لسنة ١٩٢٩—١٩٣٠ من الرئيس الدكتور جيورجيادس بك الكيمائي المعروف ومن الوكيلين اودبيو بك المهندس ومسيو هور بيه المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية ومن السكرتير العام مسيو هرجو يتيه كاتم أسرار مصلحة الآثار المصرية ومساعده دكتور لبفي سكرتير شركة صناعات القطر والامين

الصندوق مع المكتبة مسيو ايمونجللي المهندس والمقاول . ولجنة النشر والمطبوعات مؤلفة من حضرات احمد زكي باشا ومسيو كولمبيه والشيخ مصطفى عبد الرازق ومسيو لوكاس .

وقام المعهد باصدار المطبوعات بين نشرات ومذكرات من سنة ١٨٥٩ الى الآن على التتابع وقد فقد بعض المطبوعات الاولى كالحلقة الاولى الصادرة من سنة ١٨٥٩ الى ١٨٧٥ فانها اصبحت غير موجودة الا في دور الكتب العامة .

والمعهد مركزه بباقي الحكومة بجوار وزارتي الاشغال العمومية والمواصلات وتقوم الحكومة بدفع نفقات الطبع ومايضمن ظهور النشرات والمطبوعات والمذكرات وقد كانت الاعانة اولاً ٦٦٠ جنيهاً مصرياً رفعت الى ١٢٠٠ في سنة ١٩٢٨ لما كان المعهد برئاسة حضرة الاستاذ فيكتور موصيري ثم الى ١٥٠٠ جنيه اخيراً برئاسة جورجيادس بك .

عن المقطم باختصار : توفيق اسكاروس

حول كتاب الاعتبار

في ص ٧٧٣ ج١٢ من مجلة المجمع العلمي العربي سنة ١٩٣٠م ورد كلام لـ (م ك) في كتاب الاعتبار الذي حاول نشره العالم السيد فيليب حتي أستاذ جامعة (برنستون) وعضو المجمع العلمي العربي وقال في ضمنه ان السيد فيليب حتي نشر كتابين من كتب العرب قبل نشره هذا الكتاب وهما مختصر كتاب (الفرق بين الفرق) لمختصره عبدالرزاق الرسعني واصله لابي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي .

وكلاهما لا يُعدان في كتب الدرجة الاولى التي تشتد حاجة العلم والادب الى احيائها فمختصر الفرق بين الفرق ضئيل الفائدة لان الاصل مختصر فما بالك بمختصره الخ .

ألفت نظر الاستاذ الناقد ان فائدة الكتب ليست بالاختصار والتفصيل بل فائدتها باهمية موضوعها وكتاب مختصر الفرق بين الفرق واصله يُفيدان كثيراً في البحث عن حدوث الآراء والمقالات الدينية وتاريخ ظهورها وأسباب نشوئها في الاسلام .

ولكن في المختصر الذي نشره الاستاذ فيليب حتي بعض نقصان يحتاج الى التكميل منه ان الاستاذ مع تتبعه لم يظفر بترجمة الرسعني يقول في ص ٤ من مقدمته (المختصر

هو عبد الرزاق الرسعني ولم أظفر له بذكر فيما بيدي من الكتب والمستنتج انه من (رأس عين) بالجزيرة . ومما يدل على انه لم يكن مجرد ناسخ بل انه كان على شيء من الأدب والمقدرة العقلية كونه اعمل ملكة الانتقاء في المادة التي امامه فعرف ما يصح الاستغناء عنه) .

القول المختصر هو احد محدثي القرن السابع . ذكر بهاء الدين ابو الحسن علي بن عيسى ابن فخر الدين الاربلي[1] المحدث الاديب الشاعر الشيعي من علماء القرن السابع في كتابه (كشف الغمة في معرفة الائمة [2]) الذي فرغ من تأليفه سنة سبع وثمانين وستمائة ٦٨٧ هـ ما نصه :

« نقلت من أحاديث نقلها صديقنا عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله بن ابي بكر المحدث الحنبلي الرسعني الاصل والموصلي المنشأ وكان رجلاً فاضلاً اديباً حسن المعاشرة حلو الحديث فصيح العبارة جمعت به في الموصل وتجارينا في أحاديث فقلت له ياعز الدين أريد ان اسألك عن شيء وتنصفني فقال نعم : فقلت : هل يجوز ان تلزمونا معشر الشيعة بما في صحاحكم ومن رجالها (عمرو بن العاص) و (معاوية بن ابي سفيان) و (عمران بن حطان) وكان من الخوارج فقال لا والله وكان منصفاً رحمه الله وقتل في سنة اخذ الموصل وهي سنة ستين وستمائة (٦٦٠) انتهى كتبت هذه الكلمة لما فيها من فائدة للقراء وتكميل المقدمة الاستاذ لكتاب الرسعني » .

وقد وقعت في كتاب البغدادي اوهام في ذكر آراء الفرق وكذا وقعت شبهات قليلة في الحواشي التي ألحقها السيد فيليب حتي بالمختصر نشأت من اعتماده على الكتب التي اخذ موادها منها . عسى ان نشير اليها في مقالة أخرى .

ابو عبدالله الزنجاني
عضو المجمع العلمي العربي

---

(١) اربل مدينة كبيرة بين الزابين تعد من اعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين معجم البلدان ج ١ ص ١٧٣ طبعة مصر . (٢) كتاب كشف الغمة مطبوع في ايران ولكني نقلت عبارته عن كتاب مخطوط قديم يتضمن بعض اخبار واحاديث وحجج دينية وهو في خزانة كتب العلامة الشيخ فضل الله الزنجاني احد اعلام زنجان .

استدراك

ذكرتُ في وصفي لكتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك » المنشور في مجلة المجمع (ج٢ م ١١) انه « لا يزال بدوياً مخطوطاً لم يُنشر بعد ... » ، والواقع انه طبع في تونس منذ سبعين سنة ، وقد ظفرتُ بنسخة مطبوعة منه ، فاذا هو مطبوع بحروف قديمة دقيقة رديئة جداً . ولم تطبع منه الا نسخة قليلة نفدت كلها فيما نظن وعاد الكتاب نادراً لا يكاد يوجد .

في ١ أيار سنة ١٩٣١

تلمسان (الجزائر) : محمد السعيد الزاهري

مطبوعات حديثة

—«»—

كتاب تهذيب الاخلاق

« للعلامة ابي زكرياء يحيى بن عدي الفيلسوف السرياني ، نشره السيد »
« مارسو يريوس افرام برصوم سنة ١٩٢٨ في مجلة اللغات السامية في »
« شيكاغو بالطبع الحجري في ١٢٩ ص »

نشرنا منذ سبع سنين هذا الكتاب عن مخطوط كتب سنة ١٠٤٧ ﻫ منسوباً الى الجاحظ وقد تبين ان الكتاب نسب الى محيي الدين بن عربي والى يحيى بن عدي ثم ثبت من مخطوط حديث في خزانة الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس حداد ان الكتاب ليحيى بن عدي وان في نسبته الى الجاحظ او الى محيي الدين بن عربي نظراً . وها قد نشر السيد أفرام هذا الكتاب ايضاً عن نسخة قديمة كتبت سنة ٦٧٢ ﻫ ١١٧٣ م وجدت في مكتبة دير مارمرقس السريانية في القدس معارضاً لها على نسختنا وقال ان هذه أقرب الى النسخة القدسية وأثبت مع من أثبت ان الكتاب ليحيى بن عدي اليعقوبي لا محالة وقال انه طبعه على علاته ولم ير التعليق عليه وان كان له مايقال في كلامه الخ .

م . ك

مطبعة المعارف واصدقاؤها

١٨٩٠ — ١٩٣١

هذا عنوان رسالة في تراجم طائفة من المؤلفين والكتّاب والشعراء الذين اتصلوا بمطبعة المعارف في مصر من ابتداء أمرها الى يومنا هذا ٠

يدخل في هذه الطائفة اليازجي وحافظ ابراهيم وقاسم امين وفتحي زغلول واحمد شوقي وخليل مطران وولي الدين يكن والدكتور منصور فهمي والمنفلوطي ولطفي جمعة وعبد العزيز البشري والنشاشيبي وطه حسين وحرم منصور فهمي والسيدة دوبوك والسيدة إحسان احمد القوص والآنسة مي وغيرهم من رجال اللغة والأدب والشعر والاجتماع والفلسفة ٠

و يدخل فيها بعض المؤلفين من الفرنسيس والانكليز ٠

وضع الرسالة أصحاب مطبعة المعارف فأتقنوا طبعها وجوّدوا ورقها و حسنوا صورها فكانت نموذجاً صالحاً يدل على استعداد رجال الشرق ٠

قدّم الرسالة الدكتور احمد فريد رفاعي بك فأثنى جميل الثناء على رجال العلم الذين يتعبون في سبيل راحة الناس و يشقون في سعادتهم ، ونوّه بفضل المرحوم نجيب متري وبجهوده في إخراج المؤلفات القيمة وبتقبّل لجليه شفيق وإدوار طريقته ٠

تشتمل هذه الرسالة على مقال في تاريخ دور الكتب في الشرق وفي اوّل من ألّف في الاسلام أنشأه الاستاذ السيد محمد البيلاوي ٠

وعلى مقال في العجائب الثلاث : الكلمة والحرف والمطبعة ، أنشأتها الآنسة مي ٠

وعلى شذور طريفة من تاريخ الطباعة في الشرق ، وعلى بعض مشاهدات شاهدها الاستاذ انطون الجميل بك في مطبعة المعارف ٠

وعلى وصف المطبعة ذاتها وصفه الاستاذ محمد امين لطفي بك ٠

اما تراجم المؤلفين والكتّاب والشعراء التي تضمنتها الرسالة فهي وجيزة ٠

في بعض الأحوال قد نجد دقة في التعبير وأريد بهذا ان الفكر مفرغ في قالب مهيأ له لا يزيد هذا القالب ولا ينقص فيكاد يكون كالثوب الذي يفصّله الخياط على

مقدار صاحبه لا قصر فيه ولا طول ، ولا سعة ولا ضيق ، من هذا الشكل الكلام على الشيخ ابراهيم اليازجي ٠

وفي بعض التراجم قد نجد اشتطاطاً في التعبير من هذا القبيل القول في حافظ ابراهيم بك :

الطائر بجناحين بين الخافقين ، فلست أدري اي تصوير يصوّره هذا الكلام ٠

فهل عرفنا الموصوف بهذا اللفظ حق المعرفة ، اننا لانزال نفتقر في بياننا الى دقة في التعبير اي الى إفراغ الفكر في القالب المهيأ لهذا الفكر دون شيء من الزيادة والنقصان ، اننا لانزال ننزع الى الغلو في بعض بياننا ، فهذا البيان محتاج الى يسير من صقل الحواشي ٠

هذا وقد وقع في الرسالة بعض عجمة من هذا النحو : لعب دوراً بديعاً ، فالعربية لاتعرف هذا الكلام قد وقع بعض خطأ في الغلو ، لقد جاء في مقال الاستاذ السيد محمد البيلاوي : لم يمض عليها خمسة وعشرون سنة بدلاً من خمس وقد يكون هذا الخطأ من المطبعة ٠

على ان الغاية من وضع الرسالة التلميح الى ماوصلت اليه مطبعة المعارف من الاتقان والتجويد والتحسين والحقيقة ان المطبعة قد بلغت هذا كله ، فابلغته في هذا الباب غير قليل ٠

شفيق جبري

امرأتنا في الشريعة والمجتمع

« تأليف الاستاذ الطاهر الحداد التونسي طبع في المطبعة الفنية بتونس »

« سنة ١٩٣٠ م في مئة واربعين صفحة »

ظهور هذا الكتاب في تونس يشبه ظهور كتاب قاسم بك امين في مصر وكتاب الآنسة نظيرة زين الدين في سورية من حيث وحدة الموضوع والجرأة في بسط مباحثه واستنكار الشيوخ له ٠

ويمتاز هذا الكتاب بكون مؤلفه (الطاهر الحداد) من شيوخ الدين ومن خريجي جامع الزيتونة ٠ وقد قال المؤلف في خاتمة كتابه مشيراً الى الموضوعات والابحاث التي عالجها فيه :

« لقد أوضحنا ما للمرأة في الاسلام من حق صريح وماادّخر لها في نصوصه الخالدة

من روح العطف والتقدير حتى المساواة . وبينا حالة المرأة التونسية وما في انحطاطها من صور الشقاء الذي يغمرنا في الحياة الزوجية وفي عائلتنا وفي تربية ابنائنا التي تخرجهم عاجزين عن اي عمل منتج في الحياة . وأعطينا صورة عامة عن رأينا في الخروج بامرأتنا من الهوة التي وقعت فيها بحكم أجيال التدلي الطويلة التي حرمتنا معها من بلوغ الحياة السعيدة التي نتخيلها ولا نراها الا في الامم الحية التي حاسبت ماضيها وطعنت فيه روح الذبول والموت الذي كان سائداً عليها . وما قصدنا من ذلك كله الا ان ندرك جلياً حقيقة موقفنا قبل ان نذهب طعمة لماضينا السخيف » .

هذه هي المباحث التي خاض المؤلف عبابها وقد صوّر لنا حالة المرأة التونسية وما هي عليه من الانحطاط تصويراً جايـاً . ولم يقتصر على هذا بل شرح في كتابه كل ما له علاقة بالمرأة من مظاهر الاجتماع التونسي حتى انه اطلعنا على رأي علماء تونس في المرأة فسألهم اثني عشر سؤالاً واخذ أجوبتهم عليها ونشرها بنصها في كتابه . ومن جملة جرأته في بحثه انه اعتبر لتنصيف ارث المرأة المسلمة وتعدد الزوجات من قبيل التشريع الموقت : أذن بها النبي صلى الله عليه وسلم ربما تصل الامة الى طور أكمل فيحظرها المجتهدون بحكم قاعدة (تغير الاحكام بتغير الازمان) . ومما حض عليه المصنف واكد فيه القول تأكيداً إحداث (محاكم طلاق) و (رياض أطفال) لترقية العائلة والتربية الاسلاميتين . وقد وصف حالة العائلة التونسية وصفاً مؤثراً يستدعي العناية والاهتمام باصلاحها . ويمكن ان أقول ان كل ماذكره في هذا الموضوع صورة طبق الاصل عن الحالة النسوية اوالاجتماعية في بلادنا المشرقية سوى شيء واحد فاني عجبت منه و يظهر انه خاص بالقطر التونسي ولا عهد لنا به . ولذلك أنقل عبارته نفسها المتعلقة بهذا الأمر . قال المؤلف : « بعد ان وصف ما تلاقيه المرأة التونسية مذ تنتقل من بيت ابيها الى بيت زوجها مكرهة هنا وهناك » ما نصه :

« ان المرأة في هذه الحال قد يقوى فيها عامل السخط فتهمل شؤون بيتها وزوجها او حتى بعض شهواتها التي لا تلزم ولكنهم (لعله يعني ولاة الامور او قضاة الشرع في تونس) أسسوا لها معهداً خاصاً بها لعلاجها — هو ما يسمى (دارجواد) منزل خاص يقيم عليه القاضي رجلاً قيماً يسمى (جيدا) وامرأته وتسمى (جيدة) يضع الرجل زوجته باذن

قاضي الشريعة عندهما في المنزل و يضيق عليها في طعامها و كسائها ونوم وحدها ليلاً ولا تباح زيارتها الا باذن ومشقة . كل ذلك لتنزل الوحشة في قلبها فتطلب بنفسها الرجوع الى بيت الزوجية تائبة مستغفرة معلنة الرضى تملصاً من تلك النكايات القاسية عليها وليس بعيداً ان تثور الفتنة مرة بعد أخرى وتتكرر زيارتها الى ذلك المعهد الزجري . فأي معنى بقي لهذه الزوجية المضطربة كن به جنة » اه . وختم المؤلف كتابه بقوله :

« انني أدعو جميع التونسيين مهما اختلفت آراؤهم وأميالهم لا الى تصديقي فيما أقول — فهذا ما يبعد كثيراً عن مثلي — ولكنني أدعوهم الى التأمل معي في ذات الموضوع وخطره على مستقبل حياتنا اذا بقينا مستسلمين للحوادث العابثة بنا تاسبين ذلك الى الاقدار التي لا تغالب الخ » . «المغربي »

—«×»«×»—

فضل الخيل

« تأليف شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي من رجال القرن السابع الهجري »

« و(رشحات المداد) فيما يتعلق بالصافنات الجياد تأليف الشيخ محمد الجنشي الحلبي »

« من رجال القرن الحادي عشر الهجري »

وهما مخطوطان طبعهما وصححهما الاستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ صاحب كتاب اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء فجاء الاول في ١٩٣ صفحة والثاني في ١١٨ صفحة من القطع المتوسط والأحرف الكبيرة .

تطبع المخطوطات القديمة اذا كان من وراء طبعها احدى فوائد ثلاث علمية او ادبية او لغوية . فأما من حيث العلم فالكتابان المذكوران خاليان من كل فائدة علمية الا بحثاً في أدواء الخيل وعلاجاتها جاء في آخر الكتاب الثاني ومعظمه خلط لا يجوز ان يتعلمه ارباب الخيل في أيامنا هذه لأن في تطبيق تلك العلاجات ازدياد الأدواء لا زوالها .

واما من حيث الأدب فالكتابان ليسا من الكتب الأدبية فان نصفهما او اكثر أحاديث في الخيل وحكايات يمكن اختصارها بقليل من الصفحات لأن معظمها أسانيد لاتهم الا الفقهاء .

واما من حيث اللغة ففي الكتابين بحث طريف في خلق الخيل وألوانها وشياتها لكن حضرة الناشر لم يعتن بضبط الألفاظ التي وردت في هذا البحث فجاء كثير منها مغلوطاً فمن الأغلاط التي وجدتها في صفحة واحدة وهي الصفحة ٢١ من الكتاب الثاني قوله :

١ً — ونظير الشفر من الانسان الجحافل والصحيح ونظير المشفر من الانسان الجحافل .

٢ً — والشعر النابت عليها القيد والصحيح الفيد بفاء موحدة .

٣ً — ومنبت العنق المعرفة والصحيح ومنبت العرف المعرفة او ومنبت شعر العنق المعرفة .

٤ً — ورؤوس الوركين يقال لها النجات والصحيح الحجبات .

٥ً — ووعاء الجرذان يقال له القنب والصحيح الجردان بالدال المهملة .

٦ً — وما اكتنفه من خارج كالحلين هو الثفروران والصحيح الثمروران .

وجاء في الصفحة التي تليها الداعضة للعظم المتحرك على رأس الركبة والصحيح الداغصة .

وضبط الفسكل بفتح الكاف (ص ٨٣ من الكتاب الاول) للفرس الذي يجيء آخر الخيل في الحلبة والصحيح بكسر الكاف . قال المؤلف « والعامة تسميه الفُسكُل » قلت وهذا الضبط فصيح .

وجاء في الصفحة الخامسة من المقدمة كتاب الزروقة والصحيح كتاب الزردقة والزرطقة وذكر في الصفحة ٤٥ من الكتاب الاول السلغذ بالذال المعجمة وهي بالدال المهملة .

وهكذا ترى في الكتابين عدداً لا يستهان به من الغلطات المطبعية التي كان يجب على الاستاذ المحقق طابع هذين الكتابين ان يتلافاها .

وقد قدم الناشر الفاضل للكتابين مقدمة أجاد فيها وهي تشتمل على موجز في حياة المؤلفين الدمياطي والحلبي .

مصطفى الشهابي

هدايا كتب

أهدى السيد مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر من مطبوعات مطبعتهم المشهورة بمصر الى مكتبة مجمعنا العلمي الكتب الآتية :

(١) الجزء (١٧ و١٨ و١٩) من كتاب (الجواهر : في تفسير القرآن) وهو التفسير المشهور الذي يضعه الاستاذ طنطاوي جوهري . وهذه الاجزاء الثلاثة هي تتمة أجزاء التفسير التي كان أهداها الى مكتبتنا السيد مصطفى وأولاده الموما اليهم من قبل .

(٢) كتاب السيرة الحلبية وهي من أشهر السير النبوية في مجلدين ضخمين تبلغ صفحاتها زهاء الف ومائة صفحة .

(٣) كتاب (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) بقلم الاستاذ (محمد ابو زيد) وهو نسخة القرآن نفسه قد طبع طبعاً متقناً وترك حوالي صفحاته بياض أودعه تفسير القرآن بالقرآن اي انه يطبع في الهامش رقم الآية و يقول راجع بمعناها الآية الفلانية رقم كذا في سورة كذا وقد يعلق المفسر على بعض الآيات تعليقاً يوضح المعنى الذي نزلت لاجله الآيتان او الآيات . لكنه في بعض المواطن خالف المشهور من أقوال المفسرين ولذلك منعته الحكومة المصرية كما بلغنا أخيراً .

***

وأهدي الينا ايضاً الجزء (الحادي عشر في الوكالة) من كتاب (درر الحكام شرح مجلة الأحكام) تأليف العلامة (علي حيدر) وتعريب السيد فهمي الحسيني المحامي المشهور وقد طبع على نفقته في مطبعة غزة طبعاً حسنا .

وكتاب (مبادي الاسلام) تأليف السيد عبد الحق منصور من علماء مدينة طرطوس وقد ضمنه مباحث جليلة في فضائل الدين الاسلامي ومكارم الأخلاق التي اتى بها وحض عليها . وقد طبع في المطبعة الوطنية ببيروت .

وكتاب (ذكرى السويدي) وهو الشيخ (يوسف افندي آل السويدي) عليه الرحمة يتضمن طائفة مما قيل في رثائه جمعتها لجنة تأبينه في بغداد .

والجزء الاول من كتاب (دروس الدين الاسلامي) يتضمن بحث العبادات وهو مطابق

لمقرر السنتين السادسة والسابعة اي السادسة والخامسة من المدارس التجهيزية تأليف السيد محمد زهدي الخماش مدرس العلوم الدينية في المدارس التجهيزية سابقاً وقد طبع بنفقة المكتبة الهاشمية بدمشق ·

وكتاب (بديعية العميان) في فن البديع احد فنون البلاغة الثلاثة عُني بنشرها الاستاذ عبدالله مخلص احد أعضاء مجمعنا العلمي وطبعها طبعاً حسناً في المطبعة السلفية وهي تقع في ٥٢ صفحة مع تقريظ اوملاحظات ملحقة بها بقلم احمد تيمور باشا رحمه الله ·

وكتاب (تلقي علم الدين) وهو رسالة صغيرة الحجم تتضمن البحث في تقصيرنا في علم الدين وطرق تلافي ذلك — بقلم الاستاذ عبد الحميد الجابري من علماء حلب واحد أعضاء مجمعنا العلمي ·

وكتاب (تعليم المرأة) وهو كتاب اجتماعي تدور مباحثه حول المرأة لمؤلفه الاستاذ جعفر حسين احد علماء الشيعة في العراق وقد طبع بمطبعة الشعب ببغداد ·

وكتاب (الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري) من مصنفات الشيخ عبد الغني النابلسي وهي رسالة صغيرة في (٢٤ص) عني بنشرها غب تصحيحها ومقابلتها على نسختين خطيتين في حلب — الشيخ راغب الطباخ احد أعضاء مجمعنا العلمي · وموضوع هذه الرسالة يبحث من مباحث العقائد الاسلامية ينبغي درسه درساً عميقاً للتوصل به الى تعيين موقف الانسان بالنسبة الى العمل الذي كلفه الشارع اياه وهل هو مجبر عليه او حر مختار فيه والى اي حد تنتهي هذه الحرية ·

وكتاب (مسجل الآداب) ألفه السيد جميل سلطان وتدور مباحثه حول (المفردات · المشتقات · المحفوظات · الانشاء) وهو كما يرى القارئ كتاب مدرسي طبق المنهاج المقرر تدريسه لطلاب الصف الخامس وقد نشرته مكتبة عرفة بدمشق ·

« المغربي »

١٢٨ و ١٢٧

المجلد الحادي عشر — الجزء ٧ و ٨

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تموز — آب

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي الدفع مقدماً

في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الرابعة	كل سنة منها
»	٣٠٠	» الخامسة الى العاشرة	» »
في الخارج	٦٠٠	» الاولى الى الرابعة	» »
»	٣٥٠	» الخامسة الى العاشرة	» »

السحر والتمائم والحجب

« والرقى والعزائم »

—«×»—

— في معتقدات الشعوب الشرقية والامم السامية وغيرها —

لا بد انك أيهــا القارئ رأيت أطفالاً من الطبقة الفقيرة حملتهن أمهاتهن أحمالاً من الحجب المختلفة الأشكال والألوان والأوزان ، فمن « الخمسة » او الخميسة التي ترد بها عين الحاسد الى قرنـ الخرتيت ، وعرق السودان ، وقطعة « الفاصوخ » الملتصقة بشعره ومدلاة على جبينه ، وبجوارها عقد صغير من الخرز الأزرق ، الى منطقة من القيطان ينتهي بحجاب ضخم ، قد كتبه احد المشايخ في ليال وايام عدة ، واخذ ثمنه جنيهاً او جنيهين بعد ان رقاه برقيــة من « شمس المعارف» واذا تحولت ببصرك عن هذا الطفل المسكين الذي تراه على الرغم من تلك الوسائل لحمايته منـ الشر ، أصفر ضعيفاً خائر القوى ، ومرت بجــانبك سيارة تنهب الارض نهباً فلا تهمل انـ تلقي عليها بنظرة ، فسترى فوهة الماء بمقدمتها ، وقد ركبت عليها صورة شيطان بذيل او نسر طائر او قزم ضاحك وحوله عقــد من الخرز الأزرق . واذا مرت بك السيارة والقيت نظرة على مؤخرها لتأخذ عينك بالمائم المضطجعة ، او الباشا المسترسل في أحلامه ، تلمح في نافذتها الخلفيــة ، صورة عروس او قرد « تخآمـ الحبايب » يتدلى ويترجح ، لانه مربوط من عنقه الى سقف المركبة بخيط دقيق كالمشنوق ، فاعلم ياأخي العزيز ان العفريت المذنب ، والخرز الأزرق والعروس المشنوقة ، كلها وقايات للسيارة واصحابها ، لتحويل عين الحاسد عنـ فخامة السيارة وسرعتها وجمال من فيها وثروتهم . فاذا كنت محباً للتاريخ او لعلم الاجتماع او باحثاً فيـ علم النفس ، أدركت لساعتك ان المسافة بيننا ونحن الآنـ في

القـاهرة في منتصف القرن العشرين ، وبين أجدادنا الأولين الذين عاشوا منذ عشرة آلاف سنة ، لاتزال من حيث العقل والاعتقاد قريبة جداً . . . .

فقد كان الانسان الاول في فجر التاريخ يعيش وهو مملوء بالرعب من الكائنات والاحياء ، يحب الحياة ويتعلق باهداب النجاة بكل الوسائل ، فكان يلجأ الى التمائم والرقي والحجب ، ليحمي نفسه من الحسد او العين الشريرة ومن سحر خصومه ، وقوتهم ، ومن تألب أعدائه عليه . وكذلك تحمل المرأة الحجب لتجذب قلب زوجها ، او معشوقها وتجلب محبته ، وكان بعضهم يلبسون الحجب ، لتقيهم الاصابة بالسلاح في ميدان القتال . وقيل ذلك عن عثمان دقنة في حروب السودان . وروى مثله الكولونل لورنس عن عودة ابو تايه الصديق العربي الشهير للحلفاء . فقد روى للكولونيل الشريف المخلص للعرب ، وللثورة العربية . . . انه لايصاب برصاص الاعداء لانه محجب ، وابرز حجابه الذي اشتراه باربعة عشر جنيهاً « وكان يطلق على الجنيهات كلمة (ابرات) محرفة عن ليرات» فلما استأذنه لورنس في فحص هذا الحجاب ، ألفى انه نسخة فوتوغرافية مصغرة من القرآن الشريف المطبوع في جلاسكو عاصمة اسكوتلاندا ، وثمنها شلن وثمانية بنسات .

وكذلك يلبس الشرقيون الحجب لتحمل نساؤهم العواقر وليتغلبوا على اعدائهم من ظهر منهم ومن اختفى . فلما انتقل الانسان من حالة الفطرة وبدأ يعبد الآلهة ، اخذ يعتقد ان إلآهه المعبود في حاجة الى الحجاب مثل حاجة العابد اليه ، ولم يتخيل ان الآهه يستطيع العيش بغير حاجة الى القوى السحرية التي تنطوي عليها الرقى والعزائم والحجب . ثم تطور فصار يعتقد ان الآلهة أنفسهم يمنحون البشر قوة السحر ، وكانت هذه الفكرة شائعة عند كهنة مصر المتحضرين ورفاقهم كهنة سومير و بابل .

وانتحل هؤلاء الكهنة معتقدات أسلافهم ومزجوها « بالخفاء الديني » اوسر الاسرار ، ومن ذلك الحين اخذ السحر والدين يسيران جنباً الى جنب و بدأ يبد . . . فصار الآلهة سحرة ! واخذوا يوزعون السحر على الناس ، بواسطة الكهنة ! لاجل هذا ترى فرعون محاطاً بكهنة وسحرة . وترى المعجزة الاولى التي ظهر بها النبي السامي الاول الذي بعث به الى مصر — كانت معجزة السحر ، من نوع مانبغ به اهل الملة التي بعث بها اليهم .

فاذا اطلعت على الأدب المصري القديم والأدب البابلي ، وجدت السحر في معتقدهم

جزءاً لايتجزأ من حياة الآلهة الذين مازالوا في حاجة اليه ليستعينوا به ، ويعينوا بعضهم بعضاً ، وينقلوه الى الناس عن طريق الكهنة .

وقد تفضل العالم الفاضل الروسي الاستاذ جولينشيف (Golénisceff) الذي كان حيناً أستاذاً للتاريخ المصري القديم بالجامعة المصرية ، فنشر كاغداً مصرياً اسمه « البابيروس الهيراتيكي » عدد ١١١٥ و١١١٦ حرف (أ) وحرف (ب) بمتحف الارميتاج ببطرسبرج في سنة ١٩١٣ ، وعهد هذا الكاغد لايتجاوز الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنه نسخة من اصل يرجع تأليفه لعهد الأسرة التاسعة او الأسرة العاشرة . وهو خاص بالسحر وقد أطلق عليه بين العلماء اسم (بابيروس بطرسبرج) واليك بعض ما جاء فيه خاصاً بالسحر .

« ان الاله الاعظم (ربما كان يقصد رع) خلق السحر لمنفعة البشر » . وقد كتب الملك خاتي الذي حكم في الفترة الوسطى بين الأسرة السادسة وبين ملوك طيبة ، في الالف الثالثة قبل المسيح رسالة امر فيها ابنه « مري — كا — رع » ان ينفذ ما جاء بها بالدقة . قال الملك : ان الله (كذا) قد أنعم على الناس بخيرات كثيرة ، لانهم رعيته وقطيعه المحتاج لعنايته ورعايته وعطفه ، وقد خلق السموات والارض لاسعادهم وهنائهم وبدد ظلمات البحار (يقصد المحيط الاول) وخلق نسيم الحياة ليستنشقوه ، وخلق الله جميع الخلق (رجالاً ونساء) على صورته وصنعهم من اعضائه ، وهو يصعد الى السماء ليفرحهم و يحسن اليهم و ينعم عليهم ، وخلق الفواكه والخضر والطيور ذات الريش والدواجن المجنحة (الدجاج والأوز والبط) والأسماك السابحة والأغنام والمواشي ليأكلوها . وتبارك الله فقتل اعداءه ، وأهلك اولاده اذ تمردوا ، وتألبوا عليه . ان الله الذي جلت قدرته قد جعل نور النهار احساناً منه اليهم . ثم انه سبحانه خلق لهم السحر ليكون سلاحاً يحاربون به قوة الشر التي تحيق بالحوادث ، و يقاومون احلام الليل وأحلام النهار وما يزعجهم من رُؤى !

وقرأ الاستاذ جولينيشيف كلمة (حيكاو) بمعنى السحر ، وهي التي تكتب في الهيروغليفية من الشمال الى اليمين « حبل مفتول — ذراعان مرفوعان - طائر الصقر — واو مقلوبة — رجل راكع » . وكلمة (حيكاو) هذه تؤدي معنى السحر والطلاسم والصلوات المرتلة ، وكلمات القوة وكل فن من فنون السحرة .

و يوجد في المتحف البريطاني بابيروس تحت عدد ١٠١٨٨ يدل على القوة السحرية العظيمة التي كان يتمتع بها الرب (نِيب - أرْ - چر) رب الحدود الذي كان اسمه ايضاً خبيرا (او الخبير !!) . وجاء في « كتاب معرفة أجيال رع » ان الرب وجد بنفسه وذاته ، بمفرده في المحيط الاول (استوى عرشه على الماء ؟ !) بالاسم فقط ، وذلك بطريقة « الحكا » او السحر ولكن هذه الطريقة لم توصف ، وقد اشتغل بقلبه اي بعقله الى ان صار كائناً ، فعرف المصريون بعد ذلك انه خبيرا او رع ! . .

ومعنى هذا ان الرب قد وُجد بالاسم فقط ، وقد جاء في الاسطورة ان الرب قد باح بهذا الاسم السري او الاسم الاعظم لايزيس لتتمكن من حكم العالم به ، وسبب ذلك ان ايزيس تمكنت بسحرها من خلق أفعى عظيمة سامّة واصرتها بلدغ الاله ، فلما لدغته وسري السم في بدنه وأيقن انه لاشك هالك ، باح لها بالاسم الأعظم ، فقرأت ايزيس تعويذةً شفته من لدغة الافعى . فظهر حذق ايزيس في السحرين الأسود والابيض لانها أماتت ثم أحيت .

وترى عند اهل بابل والأحباش عقائد لا تختلف عن معتقدات المصريين في السحر والتمائم . كعقيدة احتياج الارباب جميعاً للسحر ، وما ينفع الأرباب ينفع البشر حتماً ، فترى عند اهل بابل « دوبو شيماتي » اوألواح القدر . وقد شمل السحر قدرة الشيخ على تفسير الأحلام ، وهو دليل اعتقاده بان الآلهة تزيح الستار عن الحقيقة لبني آدم بطريق الرؤيا الصادقة ، فذكر في كتب القدماء كثير من الأحلام ، وجاءت في الكتب المقدسة رؤيا يوسف الصديق ورؤيا فرعون وغيرهما . وكان اليهود يعتقدون في (اوريم) و (تميم) وكانوا يسألونهما عن المستقبل كما كان شاول يستخير الله ، وكما كان اليونان يستفتون الوحي في دلف ، وكما كان العرب يسألون اهل الكهانة وكانت الكهانة علماً محترماً عندهم ، ونبغ فيه كاهنة اليمن التي أنذرت بخراب سد مأرب ومجيء سيل العرم ، وزبراء وسلمى الحميرية وعفيراء وفاطمة الخثعمية وزرقاء اليمامة .

ولما جاء الدين المسيحي صارت صور الرسل والشهداء والعذراء وبعض آيات من الكتاب المقدس بمثابة تمائم وحجب ، وقبل اختراع الورق كانت هذه الاشياء تكتب او ترسم على الجلد والعظم والمعدن . واكتشف المسلمون أن لأسماء الله الحسنى فعلها

السحري ، وكذلك بعض آيات القرآن الكريم مثل « ان بصرك اليوم حديد » وفي القرون الوسطى انتشر السحر الشرقي في انحاء اوربا ولا تزال منه آثار باقية حتى الساعة . وفي فرنسا قرى يعتقد اهلها في السحر و يطلقون اسم الساحر على احد اهلها ، وهذا مشاهد في مقاطعة ساڤوا . وألف هنري بوردو كتاباً اسمه « الجبيرة السوداء » ، قصة رجل يقتل زوجة خصمه بفعل السحر عن بعد ، وأسس علماء الفلك والطبيعة والرياضيات علومهم على علوم السومريين والبابليين والاشوريين ، ويقول الاستاذ والاس بدج ان في انجلترا وامريكا الوفاً من الناس يعتقدون بامور كانت محترمة في بابل وآشور ، منذ ٥٠٠٠ سنة . فمها كبر شأن العلم واتسع نطاق المعرفة وتأصلت الحضارة ، فلن يشفى الانسان من عقيدة السحر ، والتعلق بالتمائم والحجب والتعاويذ والاعتقاد بالتنجيم وصدق التنبؤ بالغيب والكهانة . وفي اوربا الآن اشخاص يعيشون و يربحون ارباحاً طائلة من التنجيم وعمل الطوالع وكتابة الحجب والتنبؤ عن المستقبل ، وزاد الاقبال عليهم بعد الحرب ، وظهر في الثورة الفرنسوية كاليوسترو الذي قبض على زمام باريس بسحره وشعوذته ، وفي اوربا وامريكا مئات من أمثال هذا الرجل . ليس علم التنجيم من العلوم الحقة ولكنه يصدق غالباً في معرفة اخلاق الناس بواسطة الطوالع التي تسمى (هوروسكوب) . وفي اوربا لعهدنا هذا آباء خرجوا لاولادهم طوالع وهم يربونهم ولا يحيدون عن نبوة الطوالع قيد شعرة . و يوجد أطباء اوربيون وعلى الخصوص انجليز ، يعملون لمرضاهم طوالع و يتبعون العلاج الذي يظهر وصفه فيها . و يظهر في انجلترا في كل عام تقاويم فلكية للتنجيم أشهرها تقويم مسترورايت وتقويم سيفار يال ومس آدمز . وكانت مدام تيب تصدر في فرانسا تقويماً سنوياً شهيراً ولما توفيت حل محلها كثيرون يتنبأون عن المستقبل واذا خاطبت عالماً طبيعياً في هذه الشؤون فانه يؤكد لك انها شعوذة ، فاذا ضربت له الأمثال بحوادث تعرفها معرفة شخصية يقول لك « لا بد ان يكون في الامر سر لا أدري ما هو ! » .

اما علم الكف فقد ظهر في الشرق والغرب ، وكان له شأن عظيم ، وألفت فيه كتب كثيرة وأشهر أربابه شيرو وهو رجل مختف وراء اسم مصطنع ، وتنبأ بمستقبل كثيرين من العظماء بمحض النظر الى خطوط اكفهم . وترى بعض علماء الكف

بدلولك على ماضيك وحاضرك بمهارة ، وأطلق اسم شيرو على هـذه الصناعة فصـارت شيرومانسي .

وأشهر قراء الكف والوجه (علم الفراسة) من طائفة البارسي او مجوس الهند الذين نوطنوا في بومباي بعد ان هاجروا من بلاد الفرس . وأقل مايستفيده البارسي لنفسه من علمه بالكف ان يتقي الاختلاط بالشرار ممن يكتشف شرهم بقراءة وجوههم والتفرس في أيديهم وكانت للعرب قدم راسخة في الفراسة .

اما طريقة «المندل» فطريقة علمية ، لانها مبنية على تنويم الناظر مغنطيسياً ثم تستعمل العصب البصري في التأثير في المخ فيحفزه فيبعث الى العين بمناظر الغيب ، وهو على أنواع أشهرها في اوربا الطريقة الهندية او النظر في كرة البلور ، او في كأس ماء او في بحيرة او في مداد مسكوب في الكف . وقد عرف بعض اصدقائنا رجلاً كان يقرأ المستقبل في عظمة من لوح الضأن فيسرد الوقائع بانتظام عجيب ، ولا يزال في ايرلاندا واسكوتلاندا واسبانيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وبولونيا سواحر يعشن من قراءة «البخت» بالورق او بغيره من أدوات المعرفة مثل فحص فنجان القهوة او «الحمص» او «قياس الاثر» ونعلم ان في السودان وغرب إفريقية سحرة وبعضهم يقصدون لقتل الناس بالايحاء ، فيذهب الساحر الى الرجل و يأمره بان يموت يوم كذا ثم يتركه « ويحصر ارادته في موته » ولا يزال هكذا حتى يموت الرجل ، وقد وضع مستر سومرست موغام قصة في هذا الموضوع وأيده الاستاذ بدج في مقدمة كتابه في العلوم الخفية ص ٣٣ .

وروى بدج نفسه ان مرشداً عربياً صحبه من دمشق الى بغداد ، وأخبره بان السر في وصولها سالمين يرجع الى خمس خرزات زرق معلقة باعلى جبين كل جمل في القافلة وأقنعه بان نجاح الاستاذ المؤرخ في شراء الكتب المخطوطة في وادي تياري يرجع الى الخرز الأزرق وحجب القرآن التي كان يحملها العربي . ولما بلغوا الموصل اخذوا حفنة تراب من قبر الحاخام «هرمزد» فأنقذتهما من شر اليزيدية او عبدة الشيطان ثم أخذوا حفنة مثلها من قبة ادريس فنجوا من الخطر في الشلال الثالث . ولما نهب عرب شمر قافلتهم لم يجرؤوا على قتلهم بسبب حجاب من القرآن كان يحمله المرشد العربي .

وجاء في ص ٣٦ من الجزء الثاني من كتاب التجريد الصريح لاحاديث الجامع

الصحيح (البخاري) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سُحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشيء وما يفعله حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت ان الله أفتاني فيما فيه شفائي أتاني رجلان فقعد احدهما عند رأسي والآخر عند رجليَّ فقال احدهما للآخر ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم ، قال فيما ذا ؟ قال في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر ، قال فأين هو ؟ قال في بئر ذروان ، فخرج اليها النبي (ص) ثم رجع فقال لعائشة : حين رجع « نخلها كأنه رؤوس الشياطين » فقلت : استخرجته ؟ فقال : لا ! اما انا فقد شفاني الله ، وخشيت ان يثير ذلك على الناس شراً ثم دفنت البئر .

وفي رواية أخرى أوردها الشرقاوي والغزي في الحاشية انه صلى الله عليه وسلم وجد في الطلعة تمثالاً من شمع تمثال النبي صلى الله عليه وسلم واذا فيه إبر مغروزة واذا وتر فيه احدى عشرة عقدة فنزل جبريل بالمعوذتين فكلما قرأ آية انحلت عقدة وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً ثم يجد بعدها راحة . اه البخاري وشرحه .

وطريقة صنع التماثيل من الشمع او القماش ووخزها بالابر او الدبابيس لاحداث الألم في الشخص المقصود والمصنوع التمثال على صورته شائعة في الشرق ، وكانت معروفة لدى القبائل الوحشية من سكان اوستراليا الاصلاء والهنود الحمر وغيرهم . ولا تزال تعملها الضرائر بعضهن لبعض في مصر .

وكان قيصر روسيا يلبس خاتماً فيه قطعة من خشب الصليب الصحيح و يتعلق به ، وكان يعتقد ان هذا الخاتم قد وقى حياة جده فنسيه يوماً فصادف حدوث قتله في ذلك اليوم (راجع كتاب اصول الاوهام الشعبية تأليف شار بر نولصون ص١٥٦) وكان مستر روكفلر الشهير يحمل في جيبه حجر النسر وفي داخله أجسام لها كالا تز رنين خاص و يؤمن بان هذا الحجر يقيه المرض والغرق وغيرهما من المصائب (الكتاب نفسه ص١٠) وكا . الاستاذ رايت المعلم في كامبردج يلبس خاتماً من الذهب من لوانجو عليه رسم خاتم سليمان ، و يقول انه لا يستطيع العمل ان لم يكن متختماً به .

وكان هنري سيجراف يحمل تميمة في جميع مسابقاته فنسيها يوم موته . والانجليز من اهل اوستراليا يعتقدون بان صورة الكانجرو تحميهم وتأتيهم بصنوف من النجاح والنصر .

وروى لي شاهد عيان ان الخديوي عباس حلمي يوم أطلق عليه الرصاص في الاستانة (يوليو سنة ١٩١٤) بيد الطالب المصري محمد مظهر ، كان يحمل في احد جيوبه حجراً من الزبرجد عليه بيت البردة الشهير :

وقاية الله اغنت عن مضاعفة　　من الدروع وعن عالٍ من الأُطُم

فمرت الرصاصة على الحجر وانزلقت ، ولم تصب جسم الرجل ولو انهـا تخطت الحجر الكريم ، لأصابت القلب نفسه .

واحة عين شمس (مصر) :　　محمد لطفي جمعة

—((*~~*))—

مجالس اناتول فرانس

- ٢ -

كانت مجالس اناتول تغص بكبار الناس عقائل وأوانس وسادات مشهورين من رجال السياسة الى الأدب الى رجال الفن الى الصحافة والطباعة الى الشعراء والشاعرات والكتاب والكاتبات الى المشتغلين بالمشرقيات ، وكانت هذه الطبقة ملازمة له كل اربعاء ، ومنها من يتناول الطعام على مائدته ، ومن جملة من كان يغشى مجلسه المفيد جوريس وطومسون وكليمانسو وبريان ولوتي وسوللي برودوم وريجان ولوبي فوللر وهالفي وبريال ، ولم ينقطع عن مجلسه سوى ليمترو باريس وموريس وكوبيه لانه تطوع في قضية دريفوس فأصبح في الوسوم شيء منه ، ومع هذا كان يجعل لكرام العقائل والغادات الفاتنات نصيباً من الكلام وربما فاه أمامهن بامور قد تستنكرها العادة والعرف .

تكلم مرة على البكارة في العوانس وهزأ بها ضمناً ، وقال ان الفتاة اذا بلغت الثلاثين كيف يطلب منهـا وهي بهذا الاختلاط ان تحتفظ بنفسها الخ . وذكر في مجلسه ذات يوم ان فتاةً خطبت وانتظرت خطيبها مدة الحرب اربع سنين لم تلبس بنت شفة ، وقالوا ان من كانت على هذه الصورة لا بد ان تحفظ بعد العهود الزوجية ، فقص اناتول قصة شاب انكليزي من أصحـاب الأطوار الغريبة ومن ارباب السعة . قال انه خطب فتاة وكان غيوراً جداً وادعى ليلة البناء عليها انه طلب الى مكان بعيد وان شرفه يقضي عليه بالاسراع . فزوّد خطيبته مالاً تعيش به وسافر في الارض خمس سنين ، ثم جاء الى لندرا وعاد ثانية مدة طويلة ، ثم عاد الى بلده واكترى دكاناً في حي خطيبتـه واخذ يستقري أخبارها ، فعرف انهـا صابرة على الفراق تنتظر أوبته ، وانه دخل عليها الدار بعد مدة وقد علاه المشيب وقال انه وان أضاع كثيراً من السنين في البعاد الا انه يرجو

ان يعيش في السنين الباقية له مغتبطاً . قال اناتول : ان هذا الرجل بعد التجربة الطويلة يكون من حظه ان لاتخونه زوجته ، اما ان يكون على ثقة من ذلك فليست موضوع بحث .

كان فرانس عجيباً في نقده المجمع العلمي الباريزي ، يصف اعضاءه بانهم أناس رجعيون ، وانهم يؤلفون دولة في وسط دولة ، وانهم يتألفون رجال السياسة بالمباقة . وانهم لا يعنون بالانشاء والتأليف وانهم اعداء الحكم الجمهوري ، وهم يسكنون في قصر من قصور الأمة ، ويتمتعون بامتيازات طيبة ، والوصايا تتدفق على مجمعهم من كل صوب وحدب ، فهم أغنياء لا تخضع موازنتهم لمراقبة الدولة ، وينفقون الأموال والجوائز على الجمعيات الدينية وعلى الناقمين وارباب الثقافة التافهة ، والمجمع آلة فساد ادبي لغوي ، وأشهر ساسة فرنسا يقدمون على أنواع الدناءات والسفاسف لينالوا شرف الدخول فيه .

وسألته امرأة اميركية لها صلات كثيرة بالماليين — وكان يهزأ بها في باطنه ، فاذا غشيت مجلسه يسألها عن اسهم شركات الذهب وعن اسعار الاوراق المالية والسندات — قائلة اني لم أذهب قط الى المجمع العلمي فما تصنعون هناك اذا اجتمعتم . وكان فرانس منقطعاً عن المجمع العلمي منذ مدة ، فتلقى كلماتها بدهشة وأجاب بقوله : اننا ايتها العقيلة نخوض في الموضوعات السامية ، ونحاول ايضاً ان نحل المسألة التي طالما ذهبت فيهاالآراء مذاهبها ، وأعني بها خلود الروح ، وأحياناً نلقي نظرات وتأملات في الجمال على ما عرفه أفلاطون ، فنحن ابداً في نظام غير مادي ، نبحث فيما وراء المادة ، وحديثنا في السموات العلى . فدهشت السيدة لمقاله ، وأعجبت بهذه الجلسات التي يجلسها رجال المجمع ، فعاد هو يعقب على قوله : لا ياسيدتي ليست جلسات المجمع على شيء من الجمال ، فلاتصدقي شيئاً من ذلك ، فانا في الحقيقة نتكلم قليلاً ونظل سكوتاً هناك وكثيراً مانشعر بالبرد لعدم التدفئة في قاعات المجمع . ولما كانت جمهرتنا من الشيوخ تربدنا محزونين فانا هناك نحمل معنا أحقادنا وهمومنا القاسية ، ونحن مخلوقات على صغرنا اي نحن أناس يقل فينا الذكاء ، فجلسات المجمع العلمي موحشة لا تخلو من رقاعة .

وقال مرة انه لم ينتفع من لقب المجمع العلمي الا يوماً واحداً وذاك انه كان مع فتاة في مكان لا تسوغه القوانين العامة فجاء الشرطي فلما اقترب منه ، اخرج فرانس من جيبه

بطاقته وشفعها بريال ودفعها له ، فسلم الشرطي تسليم اجلال ، وقال : ولكن ياسيدي ان لسطان السيدة احمر وهو يبدو عن بعد كأنه علم القتال لا بأس ٠ فان القسطان سيرافع عما قريب ٠ وهذا من غرائب فرانس و يستدل من كثير من وقائعه انه كان يعبث بمصطلحات المجتمعات ويضحك من القوانين والعادات وتغلب عليه امور الحس ٠

تكلم يوماً على الشاعر فقال انه اكبر من ملك ، وهو رب في الارباب فان قريحته توليه سلام القلب وافراح الفكر ، فهو بدون ان ينقلب من سريره يكتشف مثل خريستوف كولمبس قارات جديدة ، وبدون ان يتحرك يفتح مثل شارلمان بلاد الامم الاصلية الاربع ، ومن دون ان يبتعد عن منضدته يحب جميع النساء مثل دون خوان ٠ فالناس من اجله يكشفون الجمال ، وينفذون المشاريع العظيمة ، وهو الذي يرى ان هيلانة فتانة وكليوباترا ملولة ، وهو يلتقط جميع الحركات ، و يرى جميع ضروب الحياة ، ويستمتع بكل ما في العالم من سرور وهو من القدرة على التصرف بحيث يجمع الكلمات ولكنه يبدد صورة العالم ٠

وقال مرة اثناء كلامه على فيني الشاعر : ما من احد يتلو شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، وهذا المجد خاص بالشعراء عامة فهم أداة تمين العشاق على الحب وهم سماسرة من الطراز الاول ، وأرى ان الناس اليوم يحبون قليلاً ، فان الناس يتلاقون ويتضامون ولكنهم قلما يحبون ولذلك تخلوا عن تلاوة أقوال الشعراء ٠ واي امرأة تستطيع اليوم ان تكرر كلة شقيقة شاتو بريان وهي تحتضر قلقةً امام الراهب بقولها : آه ايها الأب ماذا اقول للمولى اذا مثلت أمامه وانا لا أعرف غير أبيات من الشعر ٠ اي انها كانت تحاذر ان تلقى الله وهي لم تتعلم غير الغزل ٠

* * *

كان فرانس خلال الحرب العامة يلتزم الصمت ولا يجاهر بافكاره بعد ان رأى ماحل بصديقه جوريس من الاغتيال ، بل كان كثيراً مايصانع القائمين بالحرب ويمتدحهم ويثني على اعمالهم ٠ وقد رأى ذات يوم فتاة اصدقائه وراويته تحمل اليه باقة زهر فتذكر قصة وقال : هل في وسع الفتيان والفتيات ان يقضوا ياترى بتأثيراتهم على الحرب ، فقد حدث في الحرب الدينية بين الكاثوليك والبرتستانت ان الموسيين في ناحية كوتزبو

ضاق خناقهم من محاصريهم ، فأرسلوا ذات يوم أولادهم ذكوراً واناثاً من سن السادسة الى الثانية عشرة يحملون أغصان الزيتون ، فدهش المحاصرون من هذا المشهد ، وكفوا عن الطعن بحرابهم ونشابهم ، وتصالح الاخوان المتقاتلون على الدين ، وكان ذلك اول مرة تغلبت فيه الشفقة على القسوة . وقال : ان عصر الموسيين كان متوحشاً ، ونحن ارتقينا منذ ذلك العهد ، ولا نستطيع ان نتصور اليوم ان جيشاً من الأطفال ذاهباً الى الالمان ، فانهم قبل ان يلتحموم العدو تكون المدافع قد أتت عليهم بجملتهم ، واذا ساغ تحريك عواطف الجندي القديم فهل في المكنة تحريك عواطف السياسيين وأرباب الاموال ، فنحن قد تمدنا ولذلك ليس للعواطف سلطان علينا .

حدث راويته قال : ان اناتول كان ذات يوم يتمدح الماضي بفصاحة زائدة وانه كثيراً ما كان يحب المتناقضات ويوردها مختاراً قال : أصبحنا بارتقائنا اقل صبراً من أجدادنا واقل قابلية لتحمل المكاره ، فان المدنية لا تساعد على توسيع الأمل ، وتحمل الشدائد ، لانها تظهر الحقيقة على علاتها ، ولذا يذهب بي الفكر الى الاسف على الماضي ، وعلى الرغم مما تم من المخترعات والمظاهر والمعارف المنوعة ، وعلى الرغم مما اخترع من الطيارات والغواصات والاسلاك البرقية ، لا أرى اننا بلغنا من حيث المعنويات ما بلغه أجدادنا . لقد كان للمجتمعات قديماً شراب مسحور عجيب في اسكاره ، وبلاسم مؤثرة تعينها على الاحتمال . ولم يكن الامل والحرية قد افقرت منهما الارض ، وكان آباؤنا يعترفون مثلنا ان الحياة ممزوجة بآلام ، بيد انهم كانوا يرون انه لابد ان يعقبها سرور دائم ، فكان الشر في نظرهم كظل صورة جميلة ملئت بالمنازع ، والالم شارة اصطفاء ، والموت ممر الى النور ، وكانوا على ثقة اذا رفعوا عيونهم خلال صلواتهم ان عيوناً أخرى تأتيهم من السماء فتقابلهم . واي عزاء للنفس أحسن من الاعتقاد بان صوتاً الهياً يناديها يوم الحشر في قبورنا ، ويتجلى لنا تعالى ولو ليعاقبنا على جنايتنا . وأحب ايضاً ان أعتقد ان الارض خلقت خلقة اسمية وانها متصلة بالسماء كل الاتصال وذلك بطائفة من الملائكة او وسطاء الشياطين وانها في وسط الوجود .... ولكم كانت الأوهام عذبة في مذاق من يعانون المصائب ، ونحن نعلم الآن ان هذه الكرة الارضية ليست سوى نقطة من الطين في محيط غير متناه مما يتألف منه العدم . نعرف هذا ونعرف ان الانسان ليس من العوالم

الخسارة ، بل هو درجة من السلم الكبيرة في العوالم .... ولم يبلغ الانسان من العظام مبلغاً يؤهله الى فهم الحقيقة ولا يرى ولن يري ابداً شيئاً من الحق فهو مخدوع ومنخدع على الدوام . وذكاؤه اوصله الى معرفة الفناء ، وهو في الواقع ذكاء محدود لا يطلعه على شيء اللهم الا على أوهام في الحواس .

بقيت مسألة الوجدان فانها ما زالت منذ عهد (كانت) الفيلسوف موضع نظر الفلاسفة المحدثين ، يدعون ان صوته يسمع فينا ، وهو يملي علينا واجباتنا ، وينادينا حي على المعنويات ، ويدعونا الى ان لا نعمل بالغير مالا نريد ان يعمله معنا . وهكذا فانا نشاهد الفيلسوف رنان مثلاً يريد الاحتفاظ بمظهر المقصد الاسمى ، فبعد ان انكر وجود ادنى أثر للارادة الآلهية في العالم صادق على فكرة الوجدان الذي يستلزم فكرة وجود الاله تعالى . وهذا يذكرني ببعض الفلكيين الذين ظلوا على نصرانيتهم يقومون بما تفرضه عليهم و يؤكدون انه اقتضى للنور مليون من السنين حتى وصل الينا ، وان الشمس ونظامها تسيران في اللانهاية منذ مليارات من القرون ، ومع هذا فانهم لم يبرحوا يعبدون الاكاذيب التي اتى بها ذاك الشيخ اليهودي الذي زعم ان الارض خلقها في سبعة ايام و يؤكد انه أدار الشمس حول الارض وان اصل الخليقة لا يرد الى اكثر من سبعة آلاف سنة .

وقال يوماً : الناس في غفلة عن ان العالم ينقضي و يتداعى فهم لا ينظرون الى ما يحدث مع ان الحالة بادية محسوسة فالعالم بل وكل عالم لا يعيش اذا لم يجعل الكمال له غاية الغايات ، بيد ان المقصد الأسمى على ما يظهر آخذ بالنفاد ، مشرف على الانتهاء . وما من امر يأخذ بيدنا ، وما تمدننا المرائي سوى ركام من المظالم آخذ بالخراب ، فقد كان الناس فيما مضى يعيشون بالمعتقدات والرجولية والذكاء ، فكان عيشهم وحشياً ، ولكنهم يعيشون بقوة ونشاط . ولا يعيش الناس اليوم الا بالمال ، وكل أمانينا منصرفة الى الاستمتاع . كانت الكمالات المحبوبة التي نتمالى في القرون الوسطى عبارة عن تأليف الاغاني وعن الابتعاد عن الاختلاط . وأقصى غاياتنا اليوم ان نبلغ ما نريد وان نخادع ونخدع وان نضارب ونضرب ولا شيء يكبح من جماحنا . والناس لا يحسنون التفكير ولا يجيدون الكتابة . وما خلا هذه البلاغة السياسية التي هي فن الغش بالألفاظ وصوغ الوعود بدون القيام بهــا ، والقاء البارود في العيون ، والاختفاء وراء حجاب لا شيء يبقى و يدوم .

لقد خلف ارباب الأموال فرسان القبر المقدس وكبار العلماء وعظماء المحاربين والقديسين والأبطال وأصبحت المجتمعات في ثورة متقدة لانها لاتقوم على اساس، ولانها خالية من رأس مال حقيقي في الأخلاق وكل انسان يطالب بالسعادة ، و يعتقد انها عبارة عن ان يأكل طيباً وان يقتني مركبات لحسابه ، امالامل والمفاداة والصبر والشعور وانها فرع من أسرة في مجموع العالم فهذا ما لا بال له . ولانزال نتبجح بكلمات مبهمة لا محصل لها كالحب والاخاء ، ولكننا أضعنا معناها او وضعنا لها معنى نرتجله وهو الفدامة بعينها . أصبح المجتمع على خطر لانه ضعف ضعفاً طبيعياً وتبدل لمكان المدنية من التسرب اليه وهو يقضي بامراض السرطان والسل ، وهو الى المرض أدبياً لانه لا يقوم على أساس راهن . وتكثر في هذا المجتمع المصائب والنوائب ، ولذا كان حرياً بالهلاك ، وذلك لان كل ما هو ماثل لا اثر فيه للفضيلة . وعزّ فيه ظهور العظماء من الناس وانقطعت الحماسة الحقيقية .

ولما قال له مخاطبه : ان حكمك على هذا العصر قاسٍ ياسيد ، اجاب : وبعد فما أعمل وانا لم أرزق ملكة الاستسلام للأوهام ، وهي من العوامل المساعدة على الحياة . ولما كنت أنظر الى الامور نظراً واضحاً فقد ارى أناساً ليست لهم اقل قيمة في الأخلاق والعلم وهم مع هذا يضطهدون غيرهم . واذا طمحت المجتمعات الى ان تظل قائمة بتعذيب الضعاف فعلى الاقوياء ان ينجوا و يبرزوا و يخلصوا لما هم بسبيله ليكونوا اهلاً لماامتازوا به من الخصائص ، بيد اننا لانفتأ نعيش في الظلم على حين نتساوى في التوسط والاعتدال وفي كل مكان نجد للاتجار بالسلع الرديئة رواجاً ، وا ينما تطلعت ترى الطمع في الاستمتاع على صورة بشعة مفرطة آخذاً باعنة الناس . قال : واني لأرى المصانع القديمة آيلة الى مرض شديد ولا أعتقد ان في المكنة احياء الأموات ، وارى شعلة الدين والحكم المطلق ، وكانت مما يعزّ على بلزاك ، قد اخذت تنطفئ ، اما الجمهورية التي هي طراز من الحكم طالما دعوت اليه ، فالظاهر انها لاتحوي عناصر لمقاومة الاعاصير ، بيد ان تبديل الحكومات ليس الا ظاهرة من الظواهر ، والأزمة عمت وطمت ، فنحن يا صاح في حالة تشبه حال العالم الروماني غداة غارات البرابرة . عالم ينتهي وآخر يبتدي .

ومن آرائه (بتعريب فاخوري) : ليس التاريخ بعلم بل هو فن ، ولا ينجح فيه الا صاحب المخيلة ، ينسخ المؤرخون بعضهم عن بعض فيكفون انفسهم العناء ولا يتهمون بالغرور . اقتد بهم ولا تكن مبتكراً ، فالمؤرخ المبتكر موضع ريبة واحتقار واشمئزاز عند الناس كافة . ومما قاله ان التاريخ ليس مجموعة أقاصيص اخلاقية او مزيجاً من الحوادث والخطب البليغة لقد لا توجد فيه لمطع بيانية جميلة ولكن لا ينبغي ان نلتمس فيه حقيقة ، لان الحقيقة هي اظهار مابين الاشياء من نسب لازمة ولا سبيل الى اثبات هذه النسب لان المؤرخ عاجز عن اتباع سلسلة العلل والمعلولات . فليس التاريخ اذاً بعلم لانه مقضي عليه بعيب في طبيعته ان يلزمه غموض الكذب وان يعوزه السياق والاتصال اللذان لا معرفة حقيقية بدونهما . . التاريخ ليس بعلم لان الثورات والحروب لا تنضبط بحساب . قال : على م َ تؤلف تاريخاً وليس عليك الا ان تنسخ من أشهر كتب التاريخ كما هي العادة ، ان كان عندك فكر جديد او رأي خاص ، او كنت تظهر الناس والاشياء من وجهة غير مألوفة . فانك اذاً تباغت القارئ والقارئ لا يجب ان يباغت . هو لا يلتمس في التاريخ الا الحماقات التي يعرفها فاذا اجتهدت بتعليمه كانت ثمرة جهدك ان حقرته في عين نفسه فأغضبته . لا تحاول إثارة فكره والا صرخ قائلاً : انك تسفه عقائده .

وقال ان الحرب اليوم عار الانسانية وكانت من قبل فخرها ، لقد أوجبتها الضرورة على الممالك فكانت مربية النوع البشري الكبرى . بها مارس ابناء آدم الفضائل التي تشاد عليها الحضارات وتدعم بها قواعدها ، علمتهم الصبر والحزم والاستهانة بالمخاطرة ومجد التضحية . ويوم دحرج الرعيان قطع الحجارة الضخمة ليبنوا منهـا سوراً يحامون وراءه عن نسائهم وثيرانهم ، أنشئ اول مجتمع انساني وضمن ترقي الصناعات . وهذا الخير العظيم الذي ننعم به أعني الوطن او المدنية او ذلك الشيء الجليل الذي عبده الرومان ورفعوه فوق الآلهة انما هو ابن الحرب .

وقال في هذا المعنى : لا مراء في انه ستقع ايضاً حروب كثيرة فان الغرائز الوحشية والاطماع الفطرية والكبرياء والجوع التي أتلفت العالم خلال عصور متطاولة ستبتهر على إتلافه ايضاً . وهذه الكتل البشرية الكبرى الآخذة اليوم في التألف لم تجد بعد قاعدتها ولم توفق الى توازنها . وكذلك لم ينتظم تداخل الشعوب بعضها في بعض الانتظام الكافي

لضمان الرفه العام بحرية المبادلات و يسرها كما ان الانسان لم يصبح بعد محترماً في نظر الانسان ولم تتساو أجزاء البشرية في دنوها من روح الاشتراك والتعاون لتكون جميعاً كالحجيرات والاعضاء في الجسد الواحد ، وليس بمقدر حتى لاحدثنا سناً ان يشهد ختام عهد السلاح . بيد ان تلك الايام السعيدة التي لم نعرفها نحن نحس بمجيئها ، فاذا مددنا الى عالم الغيب هذا الخط الذي نرى بدايته كان في وسعنا ان نرى مواصلات أوفروا كل بين الامم والشعوب ، وشعوراً أعم وأقوى بالتضامن الانساني ، وتنظيماً أفضل للعمل ، و بالنهاية قيام (الدول المتحدة) في العالم بأسره ، وستحقق السلم العام ذات يوم لا لأن البشر يصبحون خيراً مما كانوا (هذا لم يؤذن لنا ان نرجوه) بل لأن نظاماً شديداً للاشياء وعلماً جديداً وضروريات اقتصادية ستلزمهم بحالة السلام .

* * *

هذه بعض جمل اثرناها مما نقل من كلام اناتول فرانس في مجالسه ونظن انها تمثل لكم روحه ومنازعه في الحياة ويتخلص منها انه من اصحاب الشكوك يشك في كل شيء و يقدح في المدنية الحاضرة و يسيء الظن فيها ، فليس هو اذاً من القصصيين العاديين الذين أنبغهم الغرب ، بل هو عالم يحسن بث علمه في الجمهور ، وعلمه هذا تقرأونه في قصصه منثوراً نثر الذهب على نمارق من مختلف الزهور ، ولا تتفهمها على جليتها الا اذا قدرت لك تلاوتها باللسان الذي كتبها به ابو عذرها ، وهو الغاية في الابداع والبيان وجمال المأتى .

واذا رأيت الكاثوليكي المتدين فد تنقبض نفسه لذكره فاعرف ان اناتول لم يترك للصلح مكاناً مع اهل الاديان . واذا سمعت بان مالياً غنياً يحتقر افكاره فاعرف ان اناتول حاول ان يسقط هذه الطبقات لانها جائرة على مايري على المجتمع . ومعظم ما أصابه من الشرور كان بصنعهم و كزازة ايديهم ، وما ارتكبوه من الموبقات للاحتفاظ بمكانتهم والاستمتاع بشهواتهم . واذا قيل لك ان بعض طلاب التوسع في فتوح الممالك احصوا عليه أنفاسه في حياته ، وخافوه وعدوا موته نعمة عليهم فأيقن انه حاربهم طول حياته ، يريد ان يقنع كل مالك بملكه ، وترجع كل دولة الى حدودها الطبيعية . والحاصل ان اناتول عادى كل الطبقات في الباطن وان ألان لها في الظاهر أساليب الكلام ولذلك قلّ في قومه خصوصاً أنصاره وأعوانه ، وزامر الحي لاتطرب مزامره ، ورحم الله عمر بن الخطاب إذ قال ماترك الحق لمر من صاحب ، فالناس مذ كان اول اجتماعهم قد يرضون عمن

برائيهم ، ولا يرضون بحال عمن يتقدم ليقودهم الى الخير والسلام .

وبعد كتابة ما مضى القول فيه حملت جريدة لنوفيل ليترير Les nouvelles littéraires الباريزية ، مقالة لروزني البكر من اعضاء مجمع كونكور العلمي ، جاء فيها ان امرأة من مدهشات النساء كانت هي الملاك الحارس لأناتول استولت زمناً على عقله ، فكانت تصرفه كما تريد ، وتعنى بماديانه عنايتها بمعنوياته ، لتتعهده في لباسه وهندامه ، وتحمله على حضور جلسات المجمع العلمي ، وتفصل في قضاياه مع الناشرين بادبه لتحفظ له حقوقه بما تعقده لمصلحته من الشروط ، وتكسبه من قلمه أقصى ماتمكنه احتياجاته من مال ، وكانت تريده من حيث المعنويات ان يكتب كتابات حية ، بعيدة ماأمكن من مقتبسات الكتب ، وقد وُصف اناتول بانه أرضة المكاتب او جرذ الخزائن . ومع هذا حملت كتبه كمية وافرة من آراء الناس وعتيق فلسفتهم . ذلك لان اناتول كان بطبيعته مهملاً متوانياً يرضيه ان يضيع اوقاته في معالجة النصوص التي أكل الدهر عليها وشرب ، وهو على نوع من البلاهة يحملق فيما يشاهد ، ولا حظ له من امور الدنيا ، فكانت العقيلة تشذب من حواشيه ، وتحمله على الجادة لتخلد اسمه ، وتدخل النظام في عمله ، وتنحيه عن موضوع المحاورات الكثيرة فيما يكتب ، وتبعثه على ادخال الحياة في كتاباته ، وتجد كل الجد ان تلقي في روعه قصصاً حية قائمة على الملاحظة مملوءة بالغرام والحب ، وكان معها اذا ضايقته يغضب و يقف باهتاً لاحركة ولاسكون ، لانه عرف بميله الى الكسل ، ولا يتلذذ الا بقراءة المفكرات والامالي القديمة ، ينشر ما ينم عن تحقيق علمي ودقة في الانتفاع بالأسفار ، والاخذ بمذاهب الفلاسفة .

وكان يضيق صدره من معالجة قصة جديدة وكثيراً ما يقول : انا لاتطمئن نفسي اذا حاولت ان اقص شيئاً من عندياتي ، بل خلقت في حاجة لان أقع على قصة كتبت بقلم غيري ، وهيأت في الجملة . اما صديقته فكانت تعذله وتسوقه الى وضع قصصه مباشرة من تلقاء نفسه ، وتطلب منه عملاً وحباً ، وبعملها وصراقبتها جوّد اناتول روايات تايس ، والزنبقة الحمراء ، وسلسلة قصص برجريه البديعة ، وكان من احسانه فيها مكافأة له ومكافأة لها ، ولكن ذلك لم يمنعه من الرجوع الى مايحلو له من القصص البالية . و بالجملة فقد كان لها تأثير حقيقي في فن اناتول ، وهي لم تعدّل اصول عمله ، ولاحسنت ذوقه ،

بل بددت فيهما ، وحقنتهما بدم طري ، فأسدت اليه معروفاً لايبلى على الايام ، حتى اذا أطلق وشأنه أوشك ان يعود « جرذ كتب » مع ما يتخلل عمله من فترات وخلاعات . كان لايتعب مما يدون من مطالعاته ، ولا يربأ بنفسه ان يكون عبد الكتب القديمة ، ومغرماً في التحدث بما كان يقرأ من الأسفار .

قال : ولقد كان لهذا الملاك الحارس بعض التأثير في آراء اناتول السياسية الظاهرة . قلنا الظاهرة لانه كان من المتعذر علينا ان نعرف حقيقة آرائه ، وكيف يتصور في هذا السفسطائي العام ان يدخل في حزب او يدين بمذهب اجتماعي ، فقد رأيناه الا قليلاً من حزب البولانجيين لما كانت هذه العقيلة منهم . فلما حدثت قضية دريفوس وتحزبت له ماشاها اناتول ايضاً ، وأصبح اشتراكياً عندما اخذ جوريس يعد من ندماء بيت السيدة ، وكان في آخر مرحلة من حياته يميل الى الشيوعية السوفيتية حتى قال علناً : اني احب لينين حباً مازج قلبي . ويرى من المضحك ان يتشدد المرء في الاحتفاظ بمعتقده ، وكل عمله خروج على المعتقدات ، وما كان أمام المعتقدين الا هازئاً او مشفقاً او خائفاً .

وقال ، بعد ان وصف كيف كان ذاك الملاك الحارس يفتح قصره يرضى زوجه لاناتول وضيوفه وكانوا علية الطبقات السياسية والعلمية والفلسفية وفيهم أجمل العقائل والاوانس : ان اناتول كان ناكراً للجميل وذلك انه لما بلغ قنة الشرف ، واغتنى بتآليفه ، وأصبح يأنيه منهـا ريع عظيم ، نفض يديه ممن عملت كل شيء للاخذ بيـده ومزجت شخصيتها بشخصيته ، فأصبح لايحب ان يراها ، وتركها كأنه لم يغن امس في حماها . وما يدريك انه كان حانقاً عليها على غير رضاه ، لانها حاولت دون سيره السير الطبيعي . وحقيقة انها منذ اخذت بزمامه انشأ في الأحايين يبدو كأنه يحاول التفلت من قيد ، ويسير على غير هواه وميله . لقد كان الكسل حبيباً الى قلبـه ، والعقيلة تحاول ان تطرد عن فطرته تشرده العقلي كما تطرد ربة الدار نسيج العنكبوت عن متاعها . انها لم ترم الى تهذيبـه ، اما هو فاستطاع بدون عائق ولا هم كبير ان يتذوق طعم الجمع والبحث الى آخر ايامه اه .

***

هذا ما قاله روزني في اناتول وكتب جورج لوكونت من أعضاء المجمع العلمي البار يزي

في آخر عدد صدر من مجلة لاروس الشهرية المصورة Larousse Mensuel Illustré · خلال كلامه على القصاصين في فرنسا ان اناتول فرانس من الرجال الذين أحرزوا مكانة الخطة الجريئة التي ساروا عليها في المعارك السياسية الرنانة التي وقعت في عهدهم · فهو بلا جدال كاتب محمود بالنظر لما يتخلل افكاره من حرية تنطوي على جرأة جميلة ، ولادائه المعاني الجليلة المفرغة في ديباجة ناصعة كاملة ، ولسعة معارفه الدقيقة · واذا ذكر اناتول فلا يذكر الا بالاعجاب والاحترام · وهو ممن رنّ صدى صوته الساحر في القاصية · وربما وضعوه في مكانة عظيمة قد يظن ان التاريخ الادبي لا يقره فيها جملة · وبلغ من الناس بالنظر لما خصت به أقاصيصه من السحر البراق ، ولاحكامه الحرة ولدعابته في نقده النفاقَ والمظالم الاجتماعية ، ان اصبحوا لا يرون فيما خطته انامله ما كان فيه ناسجاً على منوال غيره مقتبساً عن الكتب على سبيل الذكرى · ولا مراء في ان اناتول قد قيد نفسه في حدود خزائن الكتب اكثر من تقيده بمشاهد الحياة ، فهو نظار في الاسفار اكثر مما هو نظار في الانسان ، هو مبدع في أحاديثه ، رزق ذاكرة مطواعة مجهزة اجمل جهاز علمي ، وكان يطرب في التبسط في ايراد آرائه فيما يقرأوه من الاسفار ، وفيما سقط عليه من امور تافهة في ذاتها ، وهو يوردها باسلوب الحاذق الفنان ، ولذلك قلما كان يهتم ليستمع لما يقال ، او ليجول في علم الحال كل مجال · ولما كان يأتي بشيء كان مستمعوه الواقفون على طريقته في صناعته ، وعلى نظامه في أفكاره ، يتساءلون من اي كتاب مجهول صاد تلك النكتة الشاردة ، وحمل تلك الفائدة الدقيقة ياترى · وماعدا كتبه التي أوحى بها تاريخ المعاصرين ما كان المعجبون به يلحظون ابداً في سطح هذه الصورة عن كتاباته مهما بلغ من سحرها وجاذبيتها · ولذلك كانوا يدعون ان السخرية البادية في كتبه قد اخذها عن فولتير وعلى طريقته سار و بهديه اهتدى · اما لغته السهلة العذبة فهي لغة احسن كتّاب القرن الثامن عشر اه ·

هذان رأيان لاديبين كبيرين من معاصري اناتول وهما احدث الآراء فيه · واذا جاز لمثلي ان يلقي دلوه في الدلاء امام اولئك الفحول ، فانا انظر اليه من الوجهة التي تحدث أفكاره فيمن يطالعها منا مطالعة امعان لا مطالعة تسلية وتفكهة ساعات الفراغ · انظر في تأثيراته بعد الذي تلوته من مجموعة تآليفه التي انتهت اليّ في العام الغابر وهي في اثنين

وثلاثين مجلداً ، وفيها كتابه الذي اسماه (الحياة الادبية) وهو يدخل في اربعة مجلدات عرض فيه لكتاب عصره وأدبائه وشعرائه وقصاصيه وممثليه ، فجاءت في مقالاته عبقة من النقد الشهي نشرها اولاً في جريدة الطان ايام كان يتولى فيها منصب الناقد الادبي . ثم جعلها في مجلدات برأسها على نحو مافعل صديقه من قبل جول ليمتر ، ونشر في الطان مقالات في أدباء عصره ثم كسرها على ثمانية مجلدات وسماها (المعاصرون) . ولهذه المقالات مدين اناتول فيما أحسب بالجزء الاعظم من شهرته الاولى .

والشهرة رأس مال الكاتب في الغرب وكم كاتب لم تكتب له شهرة مستفيضة فبقي ذكره مطوياً عن اهل جيله والأجيال التالية . اما الباقي من أقاصيصه ورواياته فهي المرآة الصقيلة التي تعكس على انظارنا نبوغه وعبقريته تراه تارة يأتي بقصة قد تظنها تافهة بادئ الرأي حتى اذا سرت في تلاوتها شوطاً ورأيت اناتول يحلّيها بدرره الغوالي التي ظفر بها خلال مطالعته وعدّ ذلك (روزلي ولوكونت) المشار اليهما من موجبات مؤاخذته ، تستعظم عمل المؤلف فلا نعرف بماذا نصف قصصه ، اذ تشهده يورد عليك بالمناسبات مسائل اجتماعية وتاريخية واخلاقية وعلمية ومادية ، وسدى اكثر مايكتب ولحمته من هذا الطراز الممتاز ، فهو ملمّ واي إلمام بعامة علوم البشر ، يعرف الناس من قرب ومن بعد لا كما حاول ناقدوه ان يصوروه ليسلبوه محامده ، و يشوّهوا من طرف خفي محاسنه المجسمة للفكر والنظر ، و يعدوا غرامه في الاخذ عن القدماء واستخراج المدفون من الآراء من أسباب ضعفه ، وربما حسب المتجرد عن الغرض ان ذلك كان من دواعي فخره وعظمته .

الكتاب الجيد هو الذي يقفك على فكرة جليلة ، و يقرب من ذهنك علم ما لم تكن تعلم من أيسر سبيل ، لا الذي تنتقل بين سطوره وصفحاته فتحدث لك تلاوته لذة موقتة ثم تنساه او تتناساه بحيث لا يضرك علمه ولا جهله . يختص كل واحد من القصاصين في الغرب اليوم بناحية من نواحي المجتمع الانساني يلونون الكلام فيه ، والقصة عندهم هي الاداة الكاملة التي تفعل في اصلاح الجماعات والافراد فعلاً محمود الأثر في الجملة ، ولكم هذبت من حواشي مجتمعهم وعلمت جاهلهم وأصلحت بما تبث من معوج شؤونهم . اما أقاصيص اناتول فهي الادب السامي والافكار الناضجة الطريفة ، والحرية المطلقة النادرة ، ولذلك لم ير خصومه او من كان في حكمهم ، الا ان ينالوا منه من ناحية ضعف تخيلوها فوصفوه بانه

ماجن هزأة هدّام للنظم الاجتماعية ، والمنصف يتجلى له في تضاعيف كتب اناتول ان أسلوبه الممتع لا يبلغ عقول من يريد تهذيب عقولهم ان لم يبرز بهذه المظاهر المتنوعة العجيبة . ولطالما شوهد كأنه يعبث وهو يجدّ وكم تخيل انه يضحك وهو في الواقع يبكي .

الاصلاح طرق وطريقة اناتول راقت البعيد والقريب ، بيد ان القريب قد يبدو منه بعض تأفف لدن سماعها ، لمكان التقاليد والوراثة ، ولمرض الداعي الى الاكتفاء بما علم وتقرر في العرف ، وللكسل المغروس في أغلب الخلق لا يتعبون انفسهم للاجادة في عملهم و يلوكون السنتهم فيمن يستلذون التعب فيه . وهناك شيء آخر يقال له الحسد يأكل قلب صاحبه ، والحسد مسألة المسائل في كل مجتمع ، والحساد يرون ان مما يسكن ثائر نفوسهم ان يطعنوا في مثل اناتول يحطون من ادبه ومكانته لانه ينعم بنعمتهما . وكل ذي نعمة محسود . وما يدريك ان كان معظم الناقدين من الناقمين عليه لذهابه بفضل السبق دونهم ولان منهم من يحاولون اقامة بنائهم الضئيل على حساب مجده المؤثل ، ليوهموا العوام ومن يعلو فوق طبقتهم بعض الشيء انهم سباق في حلبة الأدب ، وان اناتول مهما بلغ من المنزلة وزيد بسطة في العلم لا يتطاول الى مساماتهم ولديهم العلم الجم الذي لا يعرفه ، ومن صحيح الافكار ماانفردت به أذهانهم الثاقبة . وقلما خلا مجتمع من حسد مرمض ، والمعاصرة كما قيل حرمان ، والناس معادن ، والفضل لا يخفى مهما حاول المنطعون ستره . والشهرة ربيبة الدرس الطويل ، والبحث المتواصل ، وقلما سلب دعيّ شهرة غيره فاستأثر بها دونه ، او كتب له ان يتعدى طوره ، ويخرج عن مقدار حجمه .

محمد كرد علي

عصر الجاحظ(١)

- ٣ -

« الانقلاب الفكري »

بقي علينا الكلام على الناحية العجيبة من نواحي عصر الجاحظ أي على ناحية استفاضة العلم ، لقد جاءت العربية من هذه الجهة ببرهان بليغ على صلاحها للحياة وعلى استعدادها لقبول ما يندمج فيها من صور الفن والعلم ، وأعجب من هذا كله استعداد العرب للدخول في كل طور من أطوار الحياة ، ولا شك في ان التطور من علامات الحياة ففي أسرع من رد الطرْف نقل معاوية الملك من شكل الى شكل فبعد ان كان هذا الملك مصبوغاً بصباغ بدوي صبغه بصباغ حضري ، كلنا نعلم رغبة امير المؤمنين عمر بن الخطاب في الخشونة سواء أكانت هذه الخشونة في الملابس ام في المآكل ام في المراكب ولكن معاوية لما كان عاملاً لعمر على الشام تلوّن بالوان البيئة اي بيئة الشام فما لبث ان نحا في ملكه على نحو تفخيم الروم حتى ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبدالرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل اليه فأعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال عبدالرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر فقال : يامعاوية انت صاحب الموكب آنفاً مع مابلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال : نعم ياامير المؤمنين قال: ولمَ ذاك ، قال : لأنا في بلد لانمتنع فيه من جواسيس العدو ولابدّ لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني بذلك أقمت عليه، وان نهيتني عنه انتهيت فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فانه رأي أريب وان كان باطلاً فانها خدعة اديب

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

وما آمرك به ولا انهاك عنه فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ماصدر هذا الفتى ثم أوردته فيه . فقال : لحسن موارده جشمناه ماجشمناه [1] » .

ففي زمن غير طويل بل رأب معاوية الملك في الاسلام وفي زمن غير طويل بل ادخلت طائفة من خلفاء بني العباس ميراثنا الادبي في باب لم يدخله من قبل حتى رفل ملك العرب وادبهم في برد قشيب في قرن او في قرنين وما هو قرن وبعض قرن في استيقاظ الامم .

كان الادب قبل بني العبـاس لا يحيط الا باخبار العرب وايامهم واشعارهم وخطبهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شاكل اضراب هذه الامور فكان فيـه شيء من الشعور والعاطفة وانما كان يعوزه التبسط في مذاهب الفكر كالفلسفة والرياضيات والسياسة والتوحيد والطب واشباه ذلك فلما جاء ابوجعفر المنصور شرع يحيى بن البطريق وابن جبرائيل الطبيب وابن المقفع وابن ماسويه وسلام الابرش و باسيل المطران في الترجمة فنقلوا الى العربيـة بعض كتب المنطق والطب ولما جاء المأمون اندفق يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبـد المسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن اسحاق واسحـاق بن حنين في نقل الآثار فترجموا كتب بقراط وجالينوس وارسطاطاليس وأفلاطون .

وقد كان الجـاحظ يراقب كل حركة من حركات عصره فلم يغفل عن شيء مما كان يجري في ايامه فكأنه صورة ناطقة تفصح لنا عن أحوال عصره فقد أشار الى التجديد إشارة خفية فقال [2] :

وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ماانتقص شيئاً ... وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان حتى انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

وكما انه لم يغفل عن التلميح الى النقل فكذلك لم يغفل عن التلميح الى الآثار المنقولة فأشار الى كتب إقليدس وجالينوس والمجسطي مما تولاه الحجاج وأشار الى مافي ايديـه الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٧) .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص٣٨) .

وأبواب الاصباغ والعطر والاطعمة والآلات[1] وأشار الى كتاب الكون والفساد وكتاب العدوى لأرسطاطاليس والى كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون وفلان وفلان وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون[2] .

ولقد كان يحذر كذب التراجمة وزياداتهم وجهل المترجم بنقل لغة الى لغة[3] فمن حذره هذا يتبين لنا وجه من وجوه الترجمة في عصره واليكم بعض ماجاء في بعض كتبه من هذا المعنى[4] .

« ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له : ان الترجمان لايؤدي ابداً ماقال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ويؤدي الامانة فيها ويقوم بمايلزم الوكيل ويجب على المجرى وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها والاخبار عنها على حقها وصدقها الا ان يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابوقرة[5] وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ولا بد للترجمان من ان يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي ان يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيها سواء عليه ومتى وجدناه ايضاً قد تكلم بلسانين علمنا انه قد أدخل الضيم عليهما لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتأخذ منها وتعترض عليها وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة وانما له قوة واحدة فان تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به اقل كان أشد على المترجم وأجدر ان يخطيء فيه ولن تجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء هذا قولنا في كتب الهندسة

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٠) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٦٧) .

(٣) الحيوان (الجزء السادس ص ٩٠) .

(٤) « « الاول ص ٣٨ .

(٥) هكذا وردت ولعلها ابن قرة .

والتنجيم والحساب واللحون فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين ... »

هذا ما أبقاه لنــا الجاحظ من آثار الاشارة الى الترجمة والى الكتب المترجمة والى التراجمة والى آداب الترجمة في عصره وان هذه الآثار على قلتهــا لنستطيع ان تصور لنا ناحية من نواحي الحياة التي عاشتها العربية في ذاك العصر فندرك ان العربية خرجت من شكل الى شكل بدخول عناصر فيها لم يكن لها عهد بامثالها من قبل .

لاشك في ان الكلام على النقل وعلى الكتب المنقولة في عصر الجاحظ يطول مداه فمن أراد التوسع في هذا فليرجع الى الفهرست لابن النديم والى طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة والى أخبار الحكماء للقفطي ولكن كيف كان الامر لانجد لنا مندوحة عن الايجاز في الكلام على هذه الناحية الجديدة من نواحي ميراثنا الأدبي التي طبع بها هذا الميراث بطابع خاص ظهرت آثاره على الفكر العربي حتى مزجوا الادب والدين بالعلم فلبس الادب بهذا المزج لباساً لم يكن له في ماضيه .

وقبل الكلام على النقل من اليونانية وغيرها من اللغات لا بأس بالاشارة الى ان الجاحظ قد عاش في عصر تمّ فيه اختلاط العرب ببعض الأعاجم فقد اتصلت باهل هذا العصر أخبار من بقي من الاعاجم كالصقالبة والترك والروم والهند وفارس والحبشات والنوبة وأصناف السودان وتناهت اليهم اخبار الاكاسرة وعرفوا كثيراً من صفات نساء الروم وفارس والهند واستجلبوا العبيــد من السند واشتروا الغلمان للطبخ وربما سموا بعض سككهم باسماء الأعاجم فقالوا : سكة اصطفانوس وربما سمعنا اسماء غير عربية مثل طيغانوا ومنو يل وسموعين ونوفيل وميخائيل وغير ذلك وقد خالط بعض اليونانيين العرب في أمصارهم فعرف العرب طائفة من نوادرهم .

***

استفاضت الروح اليونانية في آفاق آسية بعد فتوح الاسكندر فأصبحت الاسكندرية زمناً غير قصير ملجأ يلجأ اليــه اهل العلم والبحث وأشباه هذه الطبقات من الرجال الذين أبعد غاياتهم تثقيف عقولهم وترو يض أذهانهم وعلى الرغم من العوارض التي عرضت لدور الكتب فأدخلت الضيم عليها بقيت طائفة من التصانيف مستفيضة في الناس تدل على ان فكر المتقدمين لا يزال حياً .

وقد كانت بلاد الشام والعراق داخلة في حضارة يونانية فكانوا في أديرة الرهبان السريانيين ينقلون من اليونانية الى السريانية في احقاب متطاولة كتب فلسفة اليونانيين وعلومهم ، اما تراجمة العرب فقد كانوا في عصر الترجمة يعمدون الى الكتب السريانية فينقلونها الى العربية .

وقد كان المجمع العلمي الذي أنشأه كسرى الاول سنة ٣٥٠ في جنديسابور ينشر في الشرق علوم اليونانيين و يثبّت رغبة القوم في ذوق الفلسفة والطب .

وبقيت مدينة حرّان في بلاد مابين النهرين وثنية فاجتمع آلهة اليونانيين وآلهة رومة الى آلهة الساميين القديمة وكانت حرّان ايضاً في القرون الوسطى ناحية حضارة يونانية فكان اهلها ينصرفون خاصة الى الرياضيات والى علم الفلك .

من هذا كله يتبين لكم ان الثقافة اليونانية هي التي عملت فعلتها في ميراثنا الادبي وأريد بهذا ان العرب وجدوا في آفاقهم في اول يقظتهم مستودعاً لآثار عقول اليونانيين فاستخرجوا من هذا المستودع ما قدروا عليه .

لا ريب في ان نقل هذه الآثار قد شرع فيه القوم على زمن المنصور وانما المأمون هو اول خليفة في الاسلام كانت له جلائل الآثار في استيقاظ العقول من رقدتها فقد أنشأ في بغداد بيت الحكمة وهو اشبه شيء بجامعات هذا العصر وجعل لها دار كتب ورصداً فلك فنقلت على ايامه كتب من السريانية الى العربية كانت في الاصل منقولة عن اليونانية فزادت هذه الكتب في ادبنا النامي الاصول المختلف الأشكال .

ثم نهض المأمون بالمسلمين نهضة لم يقتصر فضلها على العرب وحدهم وانما انتقلت اصداؤها الى آفاق اوربة الراقدة فاستفاقت اوربة من نومها بفضل الاندلس وتلك الايام نداولها بين الناس .

واظن ان الخوض في ذكر مانقل من الكتب الى العربية يمتد بنا مداه كما قلت لكم وانما اجتزئ بالاشارة الى العلوم التي دخلت العربية حتى تعرفوا طبيعة الطابع الذي طبعت به ثقافتنا فقد نقل العرب كتب افلاطون وارسطاطاليس وبقراط وجالينوس واقليدس وارخميدس وبطليموس وهي في موضوعات شتى في السياسة والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والطب والرياضيات والنجوم واضراب ذلك .

وكان منهم من يذهب الى بلاد الروم فيتعلم اليونانيـة كحنين بن اسحق وهو ابن صيدلاني نصراني من الحيرة فقد سافر الى آسية الوسطى وتعلم اليونانيـة وعاد الى بغداد فكان طبيباً للمتوكل وكتب في الطب والفلسفة ٠

انشأت قراءة كتب ارسطاطاليس رغبة في الفلسفة فكانت الفلسفة في المسلمين فاشية في طبقات قليلة من جمهرة المفكرين والعلماء اي لم تستفض في طبقات العامة الا ان رجال الفكر انصرفوا اليها بمجامعهم ٠

وقد طبقوا الفلسفة على السياسة فمن أقدم المؤلفـات السياسية التي تشتمل على بعض نظرات فلسفية كتاب « سلوك المالك في تدبير الممالك » لصاحبه شهاب الدين بن ابي ربيع وضعه على ايام المعتصم ومنه نسخة في باريز وقد طبع في مصر ٠

ومشت الرياضيات الى جنب الفلسفة فنقل العرب الهنـدسة الى لغتهم من كتب اليونانيين ولا سيما كتب اقليدس وربما اخذوا الحساب عن الهند ٠

اقدم العلماء الرياضيين من العرب انما هو الخوارزمي الذي كان على زمن المأمون فقد طلب اليه المأمون ان يؤلف خلاصة الكتاب الهندي « سدهاند » ونقلت كتبه في الجبر والحساب الى اللاتينية واستفاضت في اوربة ومن الخوارزمي اشتق الفرنجة كلمة (Algorithme) ٠

ثم وضعوا كتباً في النجوم ففي بدء القرن الثالث ظهر كتاب ابي يوسف يعقوب القارشي اما الطب فقد جاء المنصور بطبيبه بختيشوع من فارس الا ان الطب العربي عملت فيه عوامل هندية فكان للرشيد طبيب هندي وهو منكه ٠

ومن جندي سابور جاء ابوزكريا يحيى بن ماسويه فكان ينقل عن اليونانية كتباً كثيرة ووضع كتباً من عنده ككتاب نوادر الطب[1] ٠

وقد نقلوا ايضاً عن النبطية وعن العبرانية ٠

هذه خلاصة النقل في عصر الجاحظ فما اكثر الأفكار الحديثة التي دخلت في ميراثنا الفكري فاستلزمت صوراً حديثة تمثلها للعقول وتقربها من الأذهان فبعد ان كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط الا بما تنتزعه الحواس انسلخ بعض الشيء عن هـذه المادة وتعلق

(١) ادب العرب للاستاذ هوار (Huart) ص ٢٧٨ ؛

بالامور المجردة فتغلغل في باطنه ففكك اجزاء النفس وقواها وحسّها وتفكيرها واخلاقها وطمح الى مافوق البشر والى مافوق العالم فنظر في المبادئ والنتائج ونظر في العلل والقوانين ومن عكف على دراسة اللغة وأطوارها في هذا العصر الذي نقلت في خلاله آثار اليونانيين وآثار الهند وآثار فارس وغيرهم من الامم الى العربيــة لا يتمالك ان يدهش لبيان العرب وان يقول : ما أمرنَ هذا البيان ! وما اقدره على الحياة ! دخلته عناصر لا عهد له بهــا فقبلها ولم يعجز عن تمثيلها وتصويرها وهذا يظهر لنا سلطان العربية في أوضح مظاهره فما ضاقت العربية في يوم من ايامها عن تصوير نتائج القرائح وثمرات الخواطر .

والى جنب هذه العلوم التي استفاضت في الجمهور خرافات لا بأس بذكر طائفة منها نقتبسها عن كتب الجاحظ نفسه فكأن العلم لم يفش في الطبقات كلها . بذكر نبذ من هذه الخرافات نحيط بنا حية من نواحي عصر الجاحظ فكأن الجاحظ لم يغادر لنا شيئاً من عصره تفوتنا معرفته ومن هذا يتبين لكم مقدار تدقيقه فهو الذي نبهنا على كل ناحية من نواحي عصره على حرية الفكر وعلى صلاح الايام وعلى فساد الدهر وعلى كثرة الزندقة وعلى شيوع العلم وعلى ذيوع الخرافات .

فمن هذه المعتقدات جلب الخنافس للرزق قال ابو عثمان[1] :

« سقط الى المقابيس ان الخنافس تجلب الرزق وان دنوها دليل على رزق حاضر من صلة اوجائزة او ربح او هدية او حظ فصارت الخنافس ان دخلت في قمصهم ثم نفذت الى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً واكثر ماعندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق ويظن بعضهم انه اذا دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ثم دافعهــا فعادت ان ذلك كلما كان اكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها اكثر فانظر أية واقية دائمة حافظة واي حارس واي حصن ان شاء الله تعالى لها بهذا القول واي حظ لها حين صدقوا هذا التصديق والطمع هو الذي أثار هذا الامر من مدافنه والفقر هو الذي سبّب هذا الطمع واجتلبه ولكن الويل لها ان ألحت على غني عالم وخاصة ان كان مع حدوثه وعلمه حديداً عجولاً وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد البطش الملحّ في ذلك الجهير الصوت الذي تسميه العوام امير الذبان فكانوا يحتالون في صرفه وطرده اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه فانه

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٠٦) .

لا يغير فلما سقط اليهم انه مبشر بقدوم غائب و برء سقيم صاروا اذا دخل المنزل واوسعوهم شراً لم يجسه احد منهم واذا أراد الله عزّ وجلّ ان ينسيءْ في اجل شيءْ من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما انه اذا أراد ان يقصر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً » .

ومن هذه المعتقدات طول العمر بطول الاذن قال الجاحظ[1] :

« قد سمعت من يذكر ان اذن الانسان دليل على طول عمره . حتى زعموا ان شيخاً من الزنادقة لعنهم الله تعالى قدموه لتضرب عنقه فعدى اليه غلام سعدي كان له فقال : أليس قد زعمت يامولاي ان من طالت أذنه طال عمره . قال : بلى . قال : فهاهم يقتلونك . قال : انما قلت ان تركوه » .

وكانوا يعتقدون انه اذا كان في الدار ديك أبيض أفرق لم يدخلها الشيطان ويقولون من اكل لحم سنور اسود لم يضره سحر واذا دخنت الدار بالدخنة التي سموها بدخنة مريم او باللبان لم يكن عليها لعمّار الدار سبيل وان من نام بين البابين تخبطه العمار وخبلته الجن[2] .

والعامة تزعم ان لبس النعال السود يورث النسيان[3] .

وكأن أمثال هذه المعتقدات لم تختص بها العامة وانما لهج بها فريق من العلماء والمؤلفين حتى قال الجاحظ[4] :

« ومما لا اكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها الا كل وقاح اخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها ويدارس اهل البصرة ويحفظها زعموا ان الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن اسحق : انا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد قال : ومن العفص مايكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثى وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم أخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ماهو أعجب وأظرف وقد ذكرت العلماء الضباع

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١١٧) .
(٢) « « الثاني ص ٧٥ .
(٣) « « الخامس ص ١١٥ .
(٤) « « السابع ص ٤٩ .

في مواضع من الفتيا لم نر احداً ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به واذا لم يأتنا في تحقيق الاخبار شعر شائع او خبر مستفيض لم نلتفت اليه » .

وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة فقال [1] :

« وزعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره ان يأمر الاسد فيعطس ولما عطس خرج من منخره زوج سنانير من ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الايمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤونة الجرذان ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكا الى الله تبارك وتعالى فأمره ان يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤونة رائحة ذلك النجو وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص » .

واذا كانت اشباه هذه المعتقدات نافقة عند اهل الحضر فاستفاضتها في الاعراب اولى فالاعراب لا يصيدون يربوعاً ولا قنفذاً ولا ورلاً من اول الليل وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء ... فان قتل الاعرابي قنفذاً او ورلاً من اول الليل او بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل ابله ومتى اعتراه شيء حكم بانه عقوبة من قبلهم [2] .

وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذا ذنب وان الضب سلبه اياه [3] .

وتزعم المجوس ان سوسن الذي ينتظرون خروجه ويزعمون ان الملك يصير اليه يخرج على بقرة ذات قرون ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود النمور لا يقول : هرا وبرا حتى يأخذ جميع الدنيا [4] .

—«*»—

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ١٠٦) .
(٢) « « السادس ص ١٤ .
(٣) « « الخامس ص١٥٣ .
(٤) « « السادس ص ١٦٢ .

تحقيق الجاحظ

أفلا يجدر بنا بعد ان أتينا على ذكر عصر الجاحظ ووصفنا أفقاً عجيباً من آفاق ذلك العصر وأريد بذلك استفاضة العلم فأشرنا الى طائفة من الآثار التي اتصلت بميراثنا الفكري فطبعته بطوابع خاصة أفلا يجدر بنا بعد هذا كله ان ننظر في جهة من جهات ثقافة الجاحظ وهي جهة العلم ٠

انكم لتذكرون ما أثبته لكم في كلامي على اول عهدي بالجاحظ من رأي (رنان) في المسلمين من حيث اهتمامهم بالبحث فقد وقع في خلده ان المسلمين يعتقدون ان البحث لا طائل فيه ولا شأن له ٠

وقد قلت لكم في حينه ان الجاحظ قد يكون حجة يحتج بها من يريد ان يثبت ان في العرب علماء وانما عصرهم غير عصرنا فلنتفرغ في مجلسنا لتقليب النظر في هذه الحجة أهي قاطعة ام هي غير قاطعة ٠

كنت أطالع من ايام غير بعيدة كتاب (مفكري الاسلام) لصاحبه البارون (كارا دي فو) Baron Carra de Vaux فانتهيت الى كلام المؤلف على الجاحظ فقد قال(١) :

« اكبر كتبه كتاب الحيوان وهو كتاب جليل أدمجت فيه فصول كثيرة لا متعلق لها بالحيوانات قد يجمع الجاحظ فيها مايوحيه اليه حيوان من فكرة ومن ذكرى أدبية ومن شعر ومن قصة فاذا شرع القارئ في قراءة هذا الكتاب وفي نيته ان يجد فيه بحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه ولكنه اذا قرأ دون غرض من الاغراض منقاداً الى مشيئة المؤلف غير سائله خطة مرتبة فقد يجد فيه كثيراً من لذة البال ٠

(١) الحيوان (الجزء الاول ص٢٩٦) ٠

لا أظن اننا نستطيع ان نستنبط من الجاحظ فلسفة اومقاييس ولكننا قد نجد له روحاً فلسفية تنبسط في أعلى هضابها وذوقاً للحياة العقلية يذهب في ابعد مداه » .

يشتمل هذا الكلام على رأيين : رأي في الجاحظ من جهة العلم ورأي فيه من جهة الفلسفة لصاحب هذين الرأيين يجرّد احد كتب الجاحظ من قيمته العلمية تجريداً واضحاً فهو لا يجد في كتاب الحيوان بحثاً علمياً عن اصناف الحيوان وانما يقرّ له بقيمة فنه وهو ما افصح عنه في قوله : قد نجد في كتاب الحيوان كثيراً من لذة البال .

وكما جرّده من فضل العلم فقـد جرّده من فضل الفلسفة فهو لا يستطيع ان يستنبط من الجاحظ فلسفة او مقاييس وانما يعترف له بروح فلسفية متسعة الافياء وبحياة عقليـة بعيدة المدى .

فالمنظر في هذا كله أصحيح ان الجاحظ ليس له اساليب فلسفية في كل مذهب من مذاهب تحقيقه وتدقيقه فهل يدقق ويحقق دون ان يبني على اصول مرتبة وقبل ان أقلب النظر في نفي العلم عن الجاحظ رأيت من الواجب عليّ ان أبين لكم : من هو العالم وما الفرق بين علم العامة وعلم الخاصة .

عقد الاستاذ (ريشه) احد اعضاء معهد باريز في كتابه (العالم) فصلاً عرّف فيه العالم تعريفاً بيناً ولمح الى ضروب العلماء والذي يستنتج من الفصل كله ان العالم انما هو الذي يتوخى البحث عن حقيقة مجهولة فهو الذي يرمي الى المعرفة[1] .

فالفرق بين علم العالم وبين علم العامي من الناس ان العامة تقتصر على معاينـة الاشياء ولكن العلماء يحاولون ان يعرفوا اسباب هذه الاشياء اي ان يعرفوا مبادئها وقوانينها فقد قال ارسطاطاليس : يبتدئ العلم بالعجب و ينتهي بضده فالعامة لا تعجب من الاشياء التي تعاينها كل يوم وتقع عليها حواسّهم ولكن العلماء يعجبون منها ويجتهدون في البحث عن عللها فهم يريدون ان يعرفوا مثلاً لماذا لا يصعد الماء في جوف المضخة الاّ الى حدّ معلوم فاذا عرفوا علّة هذا بطل عجبهم وصاروا يعجبون من ضد هذا الامر .

فالعالم في نظر الاستاذ (ريشه) انما هو الذي ينقب عن الحقيقة المجهولة ولكن لكل

(١) الاستاذ شارل ريشه (Charles Richet) كتاب العالم ص ٧ .

علم من العلوم اصولاً في التنقيب عن هذه الحقيقة فلنبحث في صدر الامر عن الاساليب التي يجري عليها الجاحظ في البلوغ الى حقائق العالم وكشف الغطاء عن غرائبه وطرائفه ·

يقول ابو عثمان في مقدمة كتاب الحيوان[1] :

« وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم وتتشابه فيه العرب والعجم لانه وان كان عربياً إعرابياً واسلامياً جماعياً فقد اخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة » ·

لخص لنا الجاحظ في هذه الاسطر أصوله التي يبني عليها في الوصول الى معرفة الحقائق فهو يستعين بالحواس وبالعقل على إدراك الحقائق ·

اما الاستعانة بالحواس فقد أشار اليها في كثير من المواطن كقوله الذي سمعتموه من قبل : ليس يشفيني الا المعاينة داخل في الاستعانة بالحواس والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق في علوم الطبيعة يضم اليه التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف فكل قول في نظره يكذبه العيان فهو أفحش خطأً وأسخف مذهباً وأدلّ على معاندة شديدة او غفلة مفرطة[2] ·

ولم يقتصر الجاحظ على المعاينة وحدها وانما جمع بينها وبين التجربة في كثير من تحقيق الغرائب في هذا العالم وسأذكر لكم في مجلس آخر أنماطاً من تجربه على أصناف الحيوان ولقد وثق بهذه الطريقة الثقة كلها حتى أصبح لا يجد سبيلاً الى رد الخبر المعروف بتواتره وترادفه الذي حققه العيان وضمت اليه التجربة[3] ·

فهو في هذا المعنى اي في الاستعانة بالحواس في التحقيق من اصحاب الفيلسوف (باكون) الذي ظهر من سنة ١٥٦١ الى سنة ١٦٢٦ فقد سعى هذا الفيلسوف في تجديد العقل فحاول ان يصلح مناحي الفكر البشري واساليبه في التحقيق فمن رأيه انه لا ينبغي لنا الاستناد الى المتقدمين لانهم لا يعاينون الامور عياناً كافياً فما ينبغي لنا ان نكون اصحاب أفكار مهيأة

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٥) ·
(٢) « « « الثالث ص ١١٢ ·
(٣) « « « الثاني ص ٤٧ ·

نؤمن بها فان هذه الافكار انما هي بمنزلة الأصنام فلكل حزب اصنام ولكل مذهب أصنام ولكل عصر أصنام فما ينبغي لنا ان نرى في كل ناحية من نواحي الطبيعة مزاعم فاذا كانت الشمس تدفئ فايلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتدفئ واذا كانت الارض تغذي فما يلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتغذي فايلزمنا ان نرى العالم كله متوجهاً نحو الرجل مستعداً لخدمته ، يجب علينا ان نلجأ الى المعاينة والى التجربة ثم الى استنباط نتائج عامة من الامور التي نعاينها والامور التي نجربها فالاستنباط مداره الذهاب من الخاص الى العام ومن طائفة من الامور الى وضع القوانين .

هذه فلسفة (باكون) وقوامها : التجربة والعيان ، ولئن لجأ (باكون) الى هذه الفلسفة من ثلاثة قرون فقد لجأ اليها الجاحظ من أحد عشر قرناً الا ان (باكون) توسع في أساليبه فجعل للعيان وللتجربة قواعد عامة فالتجربة في نظره ينبغي لها ان تكون متنوعة ممتدة مقلوبة .

وكأن الجاحظ رأى ان هذه الطريقة وحدها لاتضمن له الافضاء الى الحقائق لان الحواس التي يعتمد عليها في التحقيق قد تخادع في بعض الاحيان فأحب ان يجمع الى معونة الحواس معونة العقل فقال [1] :

« فلا تذهب الى ماتريك العين واذهب الى مايريك العقل وللامور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » .

فكان لا يجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار [2] .

فالأدلة والبراهين من أعمال العقل وهذه الطريقة انما هي طريقة (ديكارت) الذي ظهر من سنة ١٥٩٦ الى سنة ١٦٥٠ فان فلسفة (ديكارت) ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لاتصدق الا ما كان واضحاً ، صدّق ما كان واضحاً فالوضوح انما هو اصل الامر في اليقين فماينبغي لقوة من القوى الظاهرة ان يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا وماالقوى الظاهرة الا السلطة والاوهام والمصلحة والاحزاب .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص٩٧) .
(٢) « « « السابع ص٤١ .

فما أشبه قول (ديكارت) لاتصدق الا ما كان واضحاً بقول الجاحظ : لاأجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ولكن (ديكارت) قد تبسط في هذه الطريقة فأنشأ لها قواعد منها تجزئة المصاعب ومنها الذهاب من المبسوط الى المركب وغير ذلك .

الا ان (ديكارت) يشك في كل شيء وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الاحلام ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة فهو يشك في كل شيء فقد يزعم ان العالم لا حقيقة له على امل ان يصل الى حقائق يثبتها العقل فالشك في مذهبه سبيل الى اليقين .

واذا توسعنا بعض التوسع في التنقيب عن مذهب الجاحظ في التحقيق من جهة العقل تبين لنا انه قد يميل الى الشك على نحو ما مال اليه (ديكارت) في العصور الاخيرة وقد يجعل هذا الشك سبيلاً الى اليقين ، من ذلك قوله[1] :

وزعم لي ان ابن ابي العجوز ان الدساس تلد وكذلك خبرني به محمد بن ايوب بن جعفر عن أبيه وخبرني به الفضل عن اسحاق بن سليمان فان كان خبرهما عن اسحاق فقد كان اسحاق في معادن العلم وقد زعموا بهذا الاسناد ان الاروية تضع مع كل ولد وضعته أفعى في مشيمة واحدة . وقال آخرون : الاروية لانعرف بهذا المعنى ولكنه ليس في الارض ثمرة الا وهي تضع ولدها وفي عنقها أفعى في مكان الطوق وذكروا انها تنهش وتمض ولاتقتل ولم اكتب هذه للتقوية ولكنها آية أحببت ان تسمعها ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه ، ثم اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات في القوة والضعف ولما قال ابو الجهم للمكي : انا لا أكاد أشك قال المكي : وانا لا اكاد اوقن ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين » .

فقول الجاحظ : اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له يشبه مذهب (ديكارت) في جعل الشك سبيلاً الى اليقين .

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٠) .

هذا مذهب الجاحظ في التحقيق في كل امر من امور العلم والدين جمع فيه بين معونة المادة ومعونة العقل فكان هذا المذهب مقدمة للاصول التي بنى عليها (باكون) و(ديكارت) في العصور الأخيرة فالجاحظ صاحب طريقة في تحقيقه ، انكم لا تجهلون قيمة الطريقة في العلوم فقد قالوا فيها انها فن استكشاف الحقيقة فاذا أراد البشر ان يصلوا الى الحقائق لزمهم ان لا يخبطوا خبطاً وان ينهجوا منهجاً قد اختطوه لانفسهم قبل التفرغ للبحث فلا يمكننا الوصول الى الحقائق الا اذا مشينا على خطة معينة اي على طريقة ومايكفينا ان نلجأ الى طريقة ما في دراسة من الدراسات وانما يجب علينا ان نستعمل لكل صنف من الحقائق الطريقة الخاصة بهذا الصنف ففي صنف يحسن التجربة وفي صنف يحسن العقل وفي ناحية يحسن التجربة والعقل معاً فاذا تجرّد الفكر البشري من هذه القواعد ومشى دون ان يعرف مبدأ طريقه ومنتهاه او ان يعرف الطريق التي يسلكها أضاع قواه دون ان يصل الى الحقيقة .

والتاريخ يدلنا على ان الفلسفة والعلوم انما وصلت الى ما وصلت اليه بفضل الطريقة وبفضل عبقرية الذين استعملوا هذه الطريقة .

ان واضع الفلسفة وهو سقراط انما هو اول من عاين طبيعة الرجل العقلية وطبيعته الخلقية وطبق هذا العيان على درس النفس وعلى درس الخالق .

واذا تقدمت في عصرنا هذا علوم الطبيعة تقدماً عظيماً فالفضل في ذلك يرجع الى الطرائق التي وضعها (باكون) و (كلود برنار) و (باستور) واستعملها العلماء من بعدهم .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الطريقة وحدها ولكنه احب ان يزجها بشيء من روعة الفن فما ذكر غريبة من غرائب العالم وطريفة من طرائفه الا ومعها شاهد من كتاب منزل اوحديث مأثور او خبر مستفيض او شعر معروف او مثل مضروب او يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب او من اكثر من قراءة الكتب او بعض من قد دارس الاسفار وركب البحار وسكن الصحاري واستذرى الهضاب ودخل في الغياض ومشى في بطون الاودية [1] .

نعم ، الجاحظ صاحب طريقة في التحقيق ، ومن هذه الطريقة المعاينة والتجربة ومن

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص٥) .

اكبر صفات المعاين التطلع فان هذا التطلع يحملنا على الاهتمام بامور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني مثل مصباح (غايله) او مثل تفاحة (نوتون) واظن اني لا احتاج الا الى ذكر مثل اومثلين في هذا المعنى ، من ذكرهما تتبين لكم خصائص الجاحظ في حب التطلع والاستشراف فقد يقف على الامور وقوف معتبر و يتأملها تأمل مفكر فاذا اعترض لواحد منها فلا يهدأ باله الا اذا نفذ حقائقه وعرف علله وعلم بمقادير قواه وتصرف اعماله وانتقال حالاته . قال ابوعثمان في اثناء كلامه على الفيلة[1] :

« خرجت يوم عيد فلما صرت بفساذ واذا فيل مجلل بمقطوع ومقطعات واذا برجال جلوس عليهم الاسلحة فسألت بعض من شهد العيد فقلت : مابال هذه المسلحة في هذا المكان وقد اختلط الناس بذلك التل ، فقال : هذا الفيل ، فقصدت نحوه ومالي هم الا النظر الى أذنيه وما كانت لي في ذلك علة الا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه وكله كان شاغلاً عن أذنه التي اليها كان قصدي فذاكرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لي انه ابتلي بمثلها وأنشد في ذلك بيتين من شعره وهما قوله :

اتيت الفيل محتسباً بقصدي   لابصر أذنه و يطول فكري
فلم أر أذنه ورأيت خلقاً   يقرب بين نسياني وذكري

فهذه القصة على حقارة شأنها تصوّر لنا مقدار ميل الجاحظ الى التطلع فاذا مر بمشهد من المشاهد سأل عنه وقصد نحوه ونظر اليه وشغل قلبه به .

واليكم المثل الثاني وهو ليس باقلّ دلالة من الاول على تطلع الجاحظ قال[2] :

« ولقد تنازع بالبصرة ناس وفيهم رجل ابس عندنا أطب منه فأطبقوا جميعاً على ان الجمل اذا نحر ومات فالتمست خصيته وشققته انها لا توجدان فقال ذلك الطبيب فلعل مرارة الجمل ايضاً كذلك ولعله ان تكون له مرارة مادام حياً ثم تبطل عند الموت والنحر وانما صرنا نقول لا مرارة له لانا لانصل الى رؤية المرارة الا بعد ان تفارقه الحياة فلم اجد ذلك عمل في قلبي مع اجتماعهم على ذلك فبعثت الى شيخ من جزاري باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال : بلى لعمري انها ليوجدان ان ارادهما مريد وانما سمعت العامة

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٦١) .
(٢) « « « السادس ص١٤٩ .

كلة وربما مزحنا بهـا فيقول خصية الجمل لا توجد عند مخره ، اجل والله ما توجد عند مخره وانما توجد في موضعها . وربما كان الجمل خياراً جيداً فتلحق خصيته بكليتيـه فلا يوجدان لهذه العلة فبعثت اليه رسولاً ، انه ليس يشفيني الا المعاينة فبعث الي بعد ذلك بيوم او بيومين مع خادمي نفيس بشقشقة وخصية ، ومثل هذا كثير قد يغلط فيـه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب » .

فانظروا الى مقدار ولع الجاحظ بالتطلع ، يسمع كلام اهل الصناعة على امر من الامور ويجمعون على هذا الامر فلا يعمل الكلام في قلبه فيسأل شيخ الجزارين عنه فيعترف له بصحته ولكن الجاحظ ليس يشفيه الا المعاينة فهذا الافراط في حب التطلع انما هو من صفات العلماء ومن خصائصهم وهل الفرق بين معرفة العالم ومعرفة غير العالم الا في بحث العالم عن كل علة واقتصار غيره على العيان وحده دون الاهتمام بالعلل وبالقوانين .

يقول صاحب كتاب (مفكري الاسلام) لا يجد المرء في كتاب الحيوان مجثاً علمياً عن الحيوان .

فلنرجع الى كتاب الحيوان فهو الكتاب الذي صوّر لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر ففي شواهد كثيرة على توخي الجاحظ الوصول الى الحقائق في مباحثه وفيه بيان لمختلف أساليبه في التحقيق وفيه أنماط من نقده العلمي ومن فلسفته العلميـة فضلاً عن قيمته الفنية التي نرجئ الكلام عليها الى حينه وقد ألّف الجاحظ كتاب الحيوان وهو ابن سبعين بوجه التقريب اي بعد ان اختمر عقله واستوى فكره واتسعت تجاربه ومعايناته .

فلنستخرج من هذا الكتاب طائفةً من الأقوال ولنحكم على طبائع هذه الأقوال وعلى خصائصها .

من هذه الأقوال مايتعلق بخلق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته ، قال ابو عثمان[1] :

وليس شيء من صنف الحيوان أردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها في الاصل موصولة بكفايات الناس فأسندت اليهم في كل امر يصيبها ولولا ذلك لأخرجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها فاذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ولم يكن ممن يستطيع

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٢٥) .

الانسياب الى جحر أو صدع صخرة اوفي ذروة جبل وكانت مثل الدجاجة فان اكثرما عندها من الحيلة اذا كانت على الارض ان ترتفع الى رف وربما كانت في الارض فاذا دنا المغرب فزعت الى ذلك وربما كان عند الجنس من الآلات ضروب كنحو زبرة الاسد ولبدته فانه حمول للسلاح الا في مراق بطنه فانه من هناك ضعيف جداً وقال التغلبي :

ترى الناس منا جلد أسود سالخ   وزبرة ضرغام من الأسد ضيغم

وله مع ذلك بعد الوثبة واللزوق بالارض وله الحبس باليد وله الطعن بالمخلب حتى ربما حبس البعير بيمينه وطعن بمخلب يساره في لبّته وقد ألقاه على مؤخره فيتلقى دمه شاحياً فاه وكأنه ينصب من فوّارة حتى اذا شربه واستفرغه صار الى شقّ بطنه وله العض بانياب صلاب حداد وفك شديد ومنخر واسع وله مع البرثن والشدة باظفاره دق الاعناق وحطم الأصلاب وله انه أسرع حضراً من كل شيء اعمل الحضر في الهرب منه ، وله من الصبر على الجوع ومن قلة الحاجة الى الماء ماليس مع غيره وربما سار في طلب الماء ثمانين فرسخاً في يوم وليلة ولو لم يكن له سلاح الا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه وربما كان كالبعير الذي يعلم ان سلاحه في نابه وفي كركرته والانسان يستعمل في القتال كفيه في ضروب ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه يستوي في ذلك العاقل والمجنون كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب الى الفم والمرأة اذا ضعفت عن كل شيء فزعت الى الصراخ والولولة التماساً للرحمة واستجلاباً للغياث في حماتها وكفاتها او من اهل الحسبة في امرها » .

ومن هذه الأقوال مايختص بتلوّن كل صنف من الحيوان بالوان بيئته حفظاً لحياته قال الجاحظ [1] :

حدثنا ابوجعفر المكفوف النحوي العنبري واخوه روح الكاتب ورجال بني العنبران عندهم في رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير باعجب صيد زعموا انها اذا انتصف النهار واشتد الحر في رمال العنبر وامتنعت الارض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز او عود ثابت فيجيء الطائر الصغير اوالجرادة فاذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حرّه وقع على رأس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٣٨) .

الحية على انها عود فاذا وقع على رأسها قبضت عليه فان كان جرادة او جعلاً او بعض ما لا يشبههما مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها وان كان الواقع على رأسها طائراً يشبهها مثله اكلته وانصرفت وان ذلك دأبها ما دام الرمل جانبه في الصيف والقيظ في انتصاف النهار والهاجرة وذلك ان الطائر لا يشك ان الحية عود وانه سيقوم له مقـام الجذل للحرباء الى ان يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب ان تكون هذه الحية تهتدي لمثل هذه الحيلة وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيوان والعود وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر وصلح ان يكون ملة وموضعاً للخبزة ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات » .

ومن هذا القبيل ما نقله عن صاحب المنطق من ان لكل طائر يعشش شكلاً يتخـذ عشـه منه فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى اختلاف صور تلك القراميص والافاحيص[١] .

ومن هذه المباحث الكلام على تأثير البيئة وقد نقل قول صنف من الناس فقال[٢] :

وقال الصنف الآخر لا ننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضرا وتراها في غير الخضرة على غير ذلك وترى القملة في رأس الشاب الاسود الشعر سوداء وتراها في رأس الشيخ الابيض الشعر بيضاء وتراها في رأس الأشمط شمطاء وفي لون الجمل الأورق ورقاء فاذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فان نصل خضابه صار فيهـا شكله من بين بيض وحمر وقد نرى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء وقد خبرنا من لا يحصى من الناس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٦١) .

(٢) « « « الرابع ص ٢٤ .

انهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولم أذناب الا تكن كأذناب التماسيح والاسد والبقر والخيل والاً كأذناب السلاحف والجرذان فقد كان لم عجوب طوال كالأذناب وربما رأينا الملاّح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المشوهين والأنباط ويكونون جهالاً فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون فاذا طال ذلك عليهم زاد في ذلك الشعور وفي تلك الأذناب وفي تلك الألوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقرود .

وقال في التناحر على الحياة(١) :

ومن العجب في قسمة الأرزاق ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية والحية تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل شيء يكون أفحوصه على المستوى والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها .

واذا أردت الإفاضة في هذا الباب اتسعت مذاهب الكلام فأقتصر على ما ذكرت دون التعرض لما نبّه عليه الجاحظ في كتاب الحيوان او لما وصفه من غرائز أصناف الحيوان ومن إحساساتها وما شابه ذلك .

أظن أن اشباه هذه المباحث لا تخرج عن العلم وأظن ان الذي يخوض فيها لا يعبث انها لم تخل في تضاعيفها من امور جليلة تكاد تكون أجلّ ما اكتشفه علماء الطبيعة في العصور الأخيرة أمثال داروين ولامارك وسبنسر وأضرابهم ، من هذه الامور التناحر على الحياة والتلون بالوان البيئة وتأثير البيئة والارث وغير ذلك فكان الجاحظ يتعرض لأعاجيب الطبيعة ويفكر فيها لان التفكر فيها على نحو ما قال مشحذة للأذهان ومنبهة لذوي الغفلة وتحليل لعقدة البلدة وسبب لاعتياد الروية وانفساح الصدور وعز في النفوس وحلاوة تقتاتها الروح وثمرة تغذي العقل(٢) .

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١٠٢) .
(٢) « « الثاني ص ٣٩ .

ولكن لا ينبغي لنــا ان ننسى ان الجاحظ ظهر من احد عشر قرناً وان العلم الحديث لايتجاوز عمره قرناً ونصف قرن فالجاحظ مشى على آثار ارسطاطاليس وغيره من العلماء اليونانيين في رومة والاسكندرية في تلخيص المعارف فلئن لم يكتشف في علم الحيوان مكتشفات علمية فقد لخص معارف عصره فكتب كتباً علمية في اشياء مختلفة ٠

فقولنا لانجد في كتاب الحيوان مبحثاً علمياً لايخلو من شيء من المجازفة واذا نظرنا في مجلسنا الآتي في أساليب الجاحظ في التحقيق تبين لنا ان الجاحظ لا يلهو وانما يبحث وينقب ٠



الحُطيئة

— «×» —

شاعرٌ مخضرمٌ أدرك الجاهلية والاسلام وعمّر بهما طويلاً ثم ادركتهُ الوفاة وقد بلغ الثمانين · اسمه جرول العبسي وكنيته ابو مليكة والحطيئة لقب غلب عليه لقصره ودمامته · وهو احد فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في كثير من فنون الشعر كالمديح والفخر والنسيب · يعدونه في الطبقة الثالثة بين متقدمي شعراء الجاهلية · وهو صاحب البيت المشهور وهو فيما قيل احكم بيتٍ روي عن العرب :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لايذهب العرفُ بين الله والناس

ولكنه مع ذلك كان هجّاءً خبيث اللسان دنيّ الطبع كثير الالحاف اشتهر بقبح ورثة زيه وسوء نسبه وفساد دينه لم يسلم احد من لؤمه وشره حتى أبويه واهله وذوي قرابته ومما قاله في هجاء أمه :

تنحي فاجلسي مني بعيداً   أراح الله منك العالمينا
اغربالاً اذا استودعت سراً   وكانوناً على المتحدثينا
حياتك ما علمتُ حياة سوء   وموتك قد يسرّ الصالحينا

وقال في زوجته :

أطوّف ما أطوّف ثم آوي   الى بيتٍ قعيدته لكاع

وقال في ابيه وأمه :

ولقد رأيتك في النساء فسئتني   وابا بنيك فساءني في المجلس

وهو في كل ذلك فذٌّ لاشبيه له ولامثيل الاّ الهلالي شاعر حماة وهو من المعاصرين أدركته وعاشرته في مقتبل ايامي وسمعت منه قوله في هجاء أمه :

تالله لولا الخوف من دعواتها والخاطئات مجابة الدعوات
لهجوتها هجواً أخسّ من الـ . . . لكن خشيتُ نجاسة الكلمات

وقوله في هجاء ابيه :

لو كان مثلك في زمان محمدٍ ماجاء في القرآن برُّ الوالدِ

وهو من امرّ الهجاء وأسوأه كما لا يخفى ·

(عود الى الحطيئة) ويستدلون على سوء نسبه انه كان سأل أمه الضراء وهي أمة لأوس بن مالك — عن ابيه فتلكأت وأجابته بقول غير سديد فغضب وخرج عنها لاحقاً باخوته بني الأفقم وفي ذلك يقول :

تقول لي الضـراء لست لواحدٍ ولا اثنين فانظر كيف شرك اولئكا
وانت امرؤٌ تبغي اباً قد ضللتـه هبلتَ الما تستفق من ضلالكا

وهكذا عاش متدافع النسب · وكان قد أسلم في صدر الاسلام الاول على عهد النبي (ص) فلما كانت الردّة على عهد ابي بكر الصديق كان في طليعة المرتدين وفي ذلك يقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثهـا بكراً اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ثم أسلم بعد ذلك نفاقاً ومجاملةً وبقي على حالاته الجاهلية حتى مات · قيل التمس يوماً من يهجوه فلم يجد فقال :

ابت شفتاي اليوم الا تكلماً بسوء فلا أدري لمن انا قائله

وجعل يردّده حتى ورد غدير ماء صافٍ رأى فيه وجهه فقال يهجوه :

ارى ليَ وجهاً شوّه الله خلقه فقبّحَ من وجه وقبّح حامله

وهذا من أعجب حالاته ·

وقيل مرّ رجلٌ يعرف بابن الحمامة بالحطيئة وهو جالس بفناء بيته فبادره بالسلام فقال له (قلتَ ما لا ينكر) قال اني خرجتُ من اهلي بغير زاد قال (ماضمنتُ لاهلك مراك وراؤك اوسع لك) · قال افتأذن لي ان استظلّ ببيتك قال (دونك الجبل فهو

بظلك) . قال انا أبن الحمامة . قال (انصرف وكن ابن اي طائر شئت) وهذا لعمري غاية ماينتهي اليه البخل » وقد رويت هذه القصة مع زيادة قليلة عن ابي الاسود الدؤلي ايضاً » .

قال الأصمعي : لم ينزل ضيف بالحطيئة الا هجاه . وقال عمرو بن العلاء كان الحطيئة متين الشعر شرود القافية وما تشاء ان نطعن في شعر شاعر وجدت فيه مطعناً وما اقل ما تجد ذلك في شعر الحطيئة . وانما أخّره عن الحاق بكبار الشعراء واعاظمها سوء اخلاقه وضعة مكانته وقبح هيأته .

قيل أراد يوماً السفر فأتته امرأته براحلته وهي تقول :

اذكر تحننا اليك وشوقنا   واذكر بناتك انهن صغار

فعدل عن رحلته وقال لا سافرتُ بعد اليوم ابداً .

وقيل نزل الحطيئة في سنة ضيقة ببني مقلد بن يربوع فمشى بعضهم الى بعض وقالوا هذا رجلٌ لا يسلم احد من بوادر لسانه تعالوا نسأله عما يحب لنفعله به وعما يكره فنجتنبه فأتوا اليه وسألوه فقال لاتكثروا زيارتي فتملوني ولا تقطعوها فتوحشوني ولا تجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم ففعلوا ما أراد واحتاطوا لذلك كل الاحتياط فلم يجد ما يؤاخذهم به فلما انقضت السنة رحل وهو يقول :

جاورتُ آلَ مقلدٍ فحمدتهم   اذ ليس كل اخي جوارٍ يُحمدُ

ايام من يردالصنيعة يصطنع   فينا ومن يرد الزهادة يزهد

وممن اشتهر بهجائه اياه الزبرقان[1] بن بدر وهو احد سادات العرب واعلامها كان النبيُّ ولاّه عملاً وأقرّه عليه ابوبكر في خلافته فقدم الى المدينة في سنة مجدبة يؤدي الى عمر صدقات قومه فلقيه الحطيئة ومعه أسرته في بعض الطريق فقال له الزبرقان وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة اين تريد ؟ قال العراق لعلّي أجد فيه رجلاً يكفيني مؤونة عيالي في هذه السنة وأصفيه مدحي ابداً . فقال الزبرقان : قد اصبتَ ذلك عندي فسأوسعك لبناً وتمراً وأجاورك اكرم جوار ثم عرّفه بنفسه وبعث به الى زوجته فأكرمته عملاً بوصية زوجها . وكان بغيض بن عامر وعشيرته بنو أنف الناقة يفاخرون

(١) من اسماء القمر

الزبرقان وقومه فلما رأوا منها التقصير بحق الحطيئة بعد ان رأت من دميم خلقه وزري حاله ما رأت اغروه على التحول الى جوارهم كيداً بالزبرقان وحباً بالتمداح فأبى وقال هذا شأن النساء ولست بعاتب على صاحب المنزل فانه براء من ذنب المرأة . ثم تمادى جفاء المرأة له لبعض الاسباب وألحّ عليه بنو أنف الناقة ان يأتيهم حتى ابرموه فتحول الى جوارهم فضربوا له قبةً وزينوها واكثروا له من اللبن والتمر واعطوه كسوةً وإبلاً . فلما عاد الزبرقان أخبر بقصته فجاء بني أنف الناقة يعاتبهم ويطلب ان يردوا عليه جاره فأبوا وقالوا انت اطرحته واضعته وهو الآن جارنا . ولما تمادى بين الفريقين اللجاج خيّروا الحطيئة فيما يريد فاختار جوار بني انف الناقة وقال للزبرقان اني لم أترك جوارك عن سخط وذم فرضي منه وانصرف واخذ الحطيئة يمدح بني بغيض ومن جملة ماقال فيهم :

قومٌ همُ الانف والاذناب غيرهمُ ومن يساوي بانف الناقة الذنبا

وكان هذا اللقب عاراً عليهم فصار من يومئذ فخراً لهم . ثم لم يزالوا يغرون الحطيئة بهجاء الزبرقان ويكثرون له الهبات والوعود حتى هجاه ومن جملة هجائه البيت المشهور :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

فاستعدى عليه الامام عمر فقال لا أراه هجاك في هذا القول وكان حسّان بن ثابت حاضراً فقال له بل هجاه أشدّ الهجاء فاستقدم عمر الحطيئة وحبسه في جب فقال يستعطفه :

ما ذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
القيتَ كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ
انت الامام الذي من بعد صاحبه القى اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بهـا اذ قدّموك لها لكن لانفسهم كانت بك الأثر

وهذه الأبيات غاية في السهولة والانسجام ظاهر على ديباجتها عدم التكلف .

فرقّ له عمر وأفرج عنه وقيل بل سلّمه الى الزبرقان فقاده بعمامته ليعاقبه فاستوهبته منه غطفان . وقيل ان عمر قال له لما أطلقه إياك وهجاء الناس قال اذاً يموت عيالي جوعاً هذا مكسبي ومنه معاشي . فاشترى عمر منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

ولما أدركته الوفاة قيل له اوص يا ابا مليكة فقال ويلٌ للشعر من رواة السوء ثم أنشد قول ضابئ :

لكل جديدٍ لذةٌ غير انني رأيت جديد الموت غير لذيذ

ولما الحوا عليه بالوصاة وسألوه بما يقول في عبيده قال هم عبيد انْ ما عاقب الليل النهار . قالوا فبم توصي للفقراء ، قال أوصيهم بالالحاح في المسألة فانها تجارة لن تبور . قالوا فما تقول في مالك ، قال الانثى ضعفا ما للذكر ، قالوا ليس هكذا قضى الله ، قال ولكني هكذا قضيت . ثم طلب بعد حديث لايجدر بنا ذكره ان يحملوه على اتان و يتركوه راكباً حتى يموت زاعماً ان الكريم لا يموت على فراشه ، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون حتى فاضت روحه وهو يقول :

لا أحدٌ ألأم من حطيّة هجا بنيه وهجا المريّة

من لؤمه مات على فريّة [(١)]

وهذه الوصية ان صحت فهي دالةٌ على ان الرجل أدركه الخرف في أخريات ايامه حتى لم يعد يعقل ماذا يفعل ، لان المجون لا سبيل اليه ، وشبح الموت ماثلٌ لديه .

هذا بعض مايؤثر عن الحطيئة أثبتناه في هذه الصفحات تفكهةً لقراء مجلة المجمع الذين قلما رأوا بين ثناياها غير الجد والعويص من المسائل ، فما عليهم لو تملوا منهما الفينة بعد الفينة بامثال فكاهات الحطيئة ونوادره ، فانه على كل حال يمتُّ الينا بنسبة الادب واللغة والشعر فما هو عنا — وان كرّت العصور دونه — بغريب او بعيد .

عضو المجمع العلمي
سليم عنحوري

(١) الفريّة الأتان اي أنثى الحمار .

آراء وافكار

—«»—

موءلفو الفنون الحديثة

« إزاء كلمات اللغة العربية »

قضيتُ حيناً من الزمن في تصحيح بعض المصنفات العربية الحديثة التي وضعت وضعاً او ترجمت من اللغات الاخرى · ولقد وجدتني وانا أقلب النظر في عبارات المؤلفين إزاء ضربين من الكلم :

(الضرب الاول) كلمات او جمل خولف فيهـا الفصيح المألوف من كلام العرب · فصححتها من دون تردد ولا توقف : وذلك مثل كلمات (مخابرة) فقلت مكانها (مراسلة) و (اختصاص) (إخصاء) و (مفاداة اوتضحية) — (بذل النفس) او (مغامرة) و (أشهر سيفه) (شهّر سيفه) و (أعتادالحرب) (عُدداً وأعتدة) و (هذا الامر يجلب نظر الدقة) فقلت مكانها (يستدعي الاهتمام اويستميل النظر) و (هذا الامر ذو أهمية) فقلت مكانها (ذو بال او ذو خطر او ذو شأن) الخ الخ ·

وتصرفتُ في بعض الكلمات تصرف تجديد في الوضع والاستعمال : فمثل قولهم (قلعهبند) اي السجن داخل أسوار القلعـة · قلت مكانه (سجن مسوَّر) · وأشرت ان تستعمل كلمة (أعفاج) لأمعاء الانسان وسائر أكَلة اللحوم · و (مصارين) لأمعاء أكَلة النبات · بدلاً من ان تستعمل (أمعاء) في الجميع الى غير ذلك من الترميم والتجديد · على ان المعروف من مبدإي أني احب التساهل في الكلمات المعربة والدخيلة · وأفضل استعمالها على إهمالها · وذلك تنميةً للغة وتوسيعاً لدائرة التخاطب بها ·

(الضرب الثاني) كلمات او تراكيب جرت لدى المؤلفين في الفنون الحديثة مجرى

الاصطلاح والمواضعة بحيث صاروا اذا استعملوها في مواضعها اللائقة بها فهمها الناس بسهولة . وتبادر الى أذهانهم معناها الخاصّ بها جليّاً واضحاً . فلا يترددون فيه . ولا يستزيدون ايضاحاً منه .

هذه الكلمات الاصطلاحية كثيرة جداً ومتكررة في المؤلفات التي عانيت تصحيحها . وهي — وان كانت عربيـة المبنى والمادة — محوّلة او محرّفة عما يعرفه اهل اللسان من معناها .

وقد جرّبت ان استبدل بها كلمات أخرى أفصح منهـا . واكثر ملاءمة لأوزان العرب ومناهجهم . نزولاً مني عند رغبة الحافظين على الفصيح . المتشائمين بالدخيل — وجريتُ على هذه الطريقـة منفرداً من دون ان أطلب موافقة المؤلفين . حتى اذا دروا بالأمر عارضوني . وابوا الا الاحتفاظ بكلماتهم . والابقاء على اصطلاحاتهم .

واذ ذاك حمي الوطيس واشتد الجدال بيني وبينهم . واحتجوا لأنفسهم بما يأتي :

(١) ان هذه الكلمات والتعابير الاصطلاحية من قبيل (الدخيل) . واللغة العربية كريمة النجر . واسعة الصدر . فهي ترحّب بالدخيل والمعرب متى أنست بهما الافهام . وعذب وقعها في الآذان . وفي القرآن الكريم والسنة وكلام فصحاء العرب الشيء الكثير منهما .

(٢) ان هذه الكلمات والتراكيب قد اصطلحنا عليها معشر الكتّاب والمؤلفين في الفنون الحديثة وتواضعنا على استعمالها والتفاهم بها فيما بيننا : فهي من قبيل مصطلحات العلوم الاخرى المتداولة بين أربابها منذ صدر الاسلام الى اليوم : فالمحدثون والمتكلمون والفقهاء والنحاة والصوفية والمناطقة والفلاسفة وعلماء الهيأة والهندسة والكيمياء — ككل هؤلاء اصطلحوا او وضعوا كلمات جديدة لمعانٍ حديثة في فنونهم . بل ان الاسلام نفسه اصطلح على كلمات استحدث لهـا معاني جديدة كالصلاة والصيام وغيرهما . وما زالت هذه الاصطلاحات الى اليوم مقبولة عند المشتغلين بتلك الفنون . ولم يعبها عليهم عائب . حتى ان اكبر كاتب نقّاد في الاسلام (ابن خلدون) أشار الى هذه المصطلحات في مقدّمته وسلّمها لاهلها تسليماً . وهذا ابن ابي الحديد يقول في خاتمة شرحه لنهج البلاغة :

« وقد استعملتُ في كثير من فصوله فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة — ألفاظَ القومِ مع علمي بان العربية لا تجيزها نحو قولهم (المحسوسات) وقولهم (الكل والبعض) وقولهم (الصفات الذاتية) وقولهم (الجسمانيات) وقولهم (اما اولاً فالحال كذا) ونحو ذلك مما لا يخفى عمن له أدنى أنس بالأدب . ولكننا استجهنا تبديل ألفاظهم . وتغيير عباراتهم . فمن كلَّم قوماً كلّمهم باصطلاحهم » اه .

(٣) اننا اذا عدلنا عن هذه الكلمات الاصطلاحية الى غيرها وألزمنا بها الطلاب — أطاعونا قليلاً . ثم خالفونا كثيراً . ولا سيما حينما يحاولون الاخصاء والتوسع في هذه الفنون ويرجعون الى أمهات كتبها في التركية والافرنسية : فان هذه المصطلحات ترجمت عنها حرفياً . فيقعون من جراء تغييرها في حيرةٍ وارتباك .

ثم قال المؤلفون : وبالجملة فان اصطلاحاتنا لنا . لا نتعدى فيها مواضعها من فنوننا . واذا كتبنا في غيرها استعملنا التعابير والتراكيب التي يريدها المتشائمون . كما ان المناطقة مثلاً اذا كتبوا في فنهم قالوا (ماهية) و(هوية) . أما اذا كتبوا هم اوغيرهم في الاجتماع والسياسة والأخلاق استعملوا مكان (الماهية والهوية) كلمات (حقيقة . كنه . عين) وماشاء الله ان يستعملوا من الكلمات القاموسية .

فقلتُ لهم : اما انا فأبارك لكم في اصطلاحاتكم هذه . غير ان اخواننا المتشائمين يخشون على اللغة العربية أن تفسد على مدى الزمن بتزاحم هذه الاصطلاحات الكثيرة على أبوابها . وهم يقولون ان اصطلاحات الفنون الحديثة لم يضعها علماء عرب كالذين وضعوا اصطلاحات العلوم القديمة وانما وضعها الأتراك والمدرسون فيها أبناء العرب الذين لم يشتغلوا بحق في اللغة العربية وآدابها . فلا يصح قبول مصطلحاتكم الفنية ما لم يوافق عليها مجمع لغوي عربي .

فأجاب الاساتذة :

ولكن اصطلاحات الفنون القديمة لم يقرها (مجمع لغوي) ايضاً وانما وضعها العلماء الاخصائيون في تلك الفنون . فشاعت وألفتها النفوس . ونحن اليوم قد باشرنا طبع مصنفاتنا واحداً واحداً . ووزعناها على تلاميذنا : ملزمة ملزمة . فإرجاء العمل بهذه الاصطلاحات ريثما ينظر (المجمع اللغوي) فيها ويجيزها — من الصعوبة بمكان .

فقلت لهم : لنعرض الامر إذن على أعضاء مجمعنا العلمي . وعلى علماء الامة في بلاد (الضاد) ولنضع تحت مواقع أنظارهم نموذجات من اصطلاحاتكم هـذه . فلعلهم اذا رأوا كثرتها . وعذوبة ألفاظهـا . وسهولة انفهامها عند اربابها أجازوها لكم . ووافقوكم على رأيكم . ولا سيما اذا رأوا انفسهم تجاه امر واقع . ما له من دافع :

« الهيأة التشريعية » « هيأة المحكمة » « تشكيلات المحاكم » « تعقيبات قانونيـة » « تطبيق النظام » «التصديق او المصادقة على القرار » «مأمورية» « مسؤولية» «صلاحية» «تعليمات» «مقررات» «اقتراع» «تصويت» « أعمال ادارية » « حاكمية » «تابعية» «ميزانية» « تأمين المنافع الوطنية » « مناسبات دولية » « حكومة محلية » « مؤسسات خيرية » « تأسيس محل تجاري » « فتح اعتمادات مالية » « سدّ العجز » « المتعهـد » «الملتزم» «التمتع» «الرسوم» « بدلات الأعشار » الخ الخ .

وكل هذه الكلمات عربية الاصل . وقد حوّلها المصطلحون عليها الى معانٍ جديدة حدثت في فنونهم . قالوا : فاذا تكلفنا لهذه المعاني إيجاد الفاظ عربية غيرها اشد انطباقاً على اللغة ومناهجها فقلنا مثلاً :

(طائفة المحكمة او جماعة المحكمة)	مكان	(هيأة المحكمة)
(أوضاع المحاكم)	«	(تشكيلات المحاكم)
(حالة الحكومة الحاضرة)	«	(وضعية الحكومة الحاضرة)
(إلقاء التبعة)	«	(إلقاء المسؤولية)
(علاقات دولية)	«	(مناسبات دولية)
(معاهد اجنبية)	«	(مؤسسات اجنبية)

لو قلنا ذلك وحلا هذا الاستبدال والتغيير في بعض الأذواق فانه لا يحلو في كثير منها . ولاسيما عند الذين الفوا هذه الكلمات وانطبع حسهم اللغوي بطابعها الخاص . مثال ذلك ان فاضلاً من رجال المحاكم يضرب بسهم في اللغة العربية وآدابها وهو جدّ حريص على استعمال فصيحها . كما انه كثير التشاؤم بمعربها ودخيلهـا — صرّح بان قولهم (عضو دائمي) — وهو ما اصطلح عليه رجال المحاكم — افيد غير ما تفيده عبارة (عضو دائم)

التي ارادوا استبدالها به . وان كلة (حقيقة) أو (كنه) لا تفيد نفس المدنى الذي تفيده كلمة (ماهية) . فهو بفضل البقاء على استعمال كلمتي (الدائمي) و(الماهية) الاصطلاحيتين .

على ان التعابير الاصطلاحية ليست سوى وسائط نقل : تنقل المعاني من نفس المتكلم الى نفوس المخاطبين . فكلما كثرت هذه الوسائط واسرعت في ايصالها ومرنت الجوارح على استعمالها — عمت الفائدة . وحسنت العائدة . «المغربي»

—«*»—

كتاب الفلاحة الاندلسية

« وملاحظات الامير مصطفى الشهابي »

اطلعت في « مجلة المجمع العلمي » على بحث ممتع للعالم الامير مصطفى الشهابي يتعلق بكتاب (الفلاحة الاندلسية) لابن العوام الاشبيلي وأنعمت النظر في ملاحظاته الدقيقة ومطالعاته الجليلة في وصفه لهذا الكتاب الذي هو من اجل ما كتب العرب في الزراعة فأحببت ان أضم الى هذا البحث الكلمات الآتية :

في شهر يونيو (حزيران) من السنة الماضية (١٩٣٠) كنت في مجريط (مدريد) حيث أقمت مدة اسبوعين في اول رحلتي الى الاندلس . وفي اثناء مقامي بتلك العاصمة ترددت الى المكاتب التي فيها ومن جملتها « مكتبة اكادمية التاريخ) واطلعت فيها على كتب قيمة وقيدت اسماءها ونقلت بعض فصول او بعض عبارات منها على قدر ما سمح لي الوقت .

فمن أعظم الكتب التي استجلبت نظري كتاب الفلاحة للشيخ ابي زكريا يحيى بن محمد ابن احمد بن العوام الاشبيلي الاندلسي رحمه الله . وكتب أخرى سأذكرها واذكر من بعضها بعد ان أنتهي من الكلام على هذا الكتاب .

ولم اطلع على النسخة المطبوعة من هذا الكتاب في مجريط وهي التي أشار اليها الامير مصطفى الشهابي ولا علمت حينئذٍ ان هذا الكتاب كان قد طبع . بل النسخة التي اطلعت

عليها مخطوط يقع في ٨٤١ صفحة و ينقسم الى جزءين . واوله : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على النبي محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه الطيبين وسلم تسليماً . اما بعد فاني لما قرأت من كتب الفلاحة المسلمين الاندلسيين ومن كتب غيرهم من القدماء المقدمين في صنعة فلاحة الارضين المطمئنة كيفية العمل في الزراعة والغراسة ولواحق ذلك ومايتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان ماوصل الي منها ووقفت على مانصوه فيها نقلت من عيونها الى هذا التأليف ما ان نظر فيه وحفظ أبوابه وفصوله ومعانيه من يريد ان يتخذ هذا الفن صناعة يصل بها بحول الله الى معاشه و يستعين بها بحول الله على قوته وقوت عياله واطفاله وجد فيه حاجته وبلغ فيه ارادته واستعان بذلك على منافع دنياه ومصالح أخراه بتوفيق الله تعالى اياه اذ بالغراسات والزراعات تكثر بمشيئة الله الأقوات وقيل انه الى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم : اطلبوا الرزق في خبايا الارض .

وروي عن النبي (ص) : من غرس غرساً او زرع زرعاً فأكل منه انسان او طائر او سبع كان له صدقة . وروي عنه : من غرس غرساً فأثمر أعطاه الله من الاجر بقدر ما يخرج من الثمر .

روي عن ابن حزم الاندلسي : اعلموا ان الراحة واللذة والسلامة والعز والأجر في اصحاب فلاحة الارض اذا كانت عشرية فقط . وفلاحة الارض هي اهنى المكاسب جملة . انتهى .

وصاحب هذا الكتاب ينقل كثيراً عن الفقيه الامام ابي عمر احمد بن محمد بن حجاج في كتابه المقنع وهو الذي الفه سنة ست وستين واربعمائة . و ينقل فيه عن الرازي وعن اسحاق بن سليمان وعن ثابت بن قرة وعن ابي حنيفة الدينوري . وقد اخذ ايضاً عن الفلاحة النبطية تأليف قوثامي وهو مبني على أقوال جلة من الحكماء منهم آدم وصفريث و ينبوشاد واخنوخا وماسي ودونا وكامثري وغيرهم .

واخذ ايضاً عن كتاب الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصّال الاندلسي وهو المبني على تجاربه وعن كتاب الحكيم الشيخ ابي الخير الاشبيلي وهو مبني على آراء جماعة من الحكماء والفلاحين وعلى تجاربه الخاصة وعن كتاب الحاج الغرناطي وكتاب ابن ابي الجواد وكتاب غريب بن سعد وعن حكماء اليونان .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

وكذلك إخواننا المصريون ، ولم يكن هذا اصطلاحاً جديداً نقلوه عن الاوربيين بل هو اصطلاح قديم عندهم باقٍ من القرون الوسطى وليس من يؤرخ بالاشهر السريانية غيرنا نحن الشاميين ومن الينا · وانا على رأي الاخ الشهابي في وجوب وضع اسماء الاشهر الافرنجية بجانب السريانية بين قوسين · ولقد أورد الاخ كثيراً من الالفاظ التي جاءت في كتاب ابن العوام وفسرها وقابلها بامثالها من مصطلحات اهل بلادنا في معناها ووضع بجانبها ترجمتها بالافرنسية وأورد ابحاثاً لغوية زراعية معاً دلّت على ضلاعته في كل من الفنين اللغة والزراعة ·

لوزان : شكيب أرسلان
عضو المجمع العلمي

حول الاكليل

استفهم العلامة الاميرشكيب[1] عن تاريخ الاكليل العديم المثال بعدان بشرنا بان لديه منه جزءين · وقد علمت وانا بحضرموت سنة ١٣٤٦ ه ان منه نسخة في خزانة السيد العلامة المرحوم الحبيب احمد بن حسن العطاس العلوي ، فكتبت لحفيده السيد محمد بن سالم بن احمد العطاس فأجابني بكتاب مؤرخ ١٥ رجب سنة ١٣٤٦ بانه لا يوجد في الخزانة غير جزء واحد · ومما اخبرني به هذا السيد ايضاً انه يوجد بخزانة جده تاريخ يوسف بن احمد الازدي ، و يوسف هذا معاصر لسيدنا الامام المهاجر احمد بن عيسى · وكتاب مصباح الظلام فيمن بحضرموت من العرب وخالطهم من الاعجام للعاملي · وعجائب الزمن في اخبار حضرموت وصنعاء واليمن لابن مطروح الصنعاني · وتاريخ بن عقبة وديوانه · وتاريخ ملوك حمير · وهو غير التيجان المطبوع بالهند سنة ١٣٤٧ ه · وقد اخبرني الوالد العلامة المحقق زعيم الرابطة العلوية السيد علوي بن طاهر الحداد انه يوجد

---

(١) كان استفهام الامير في مقال نشره في العدد ٢٨٧ من جريدة (حضرموت) ·

في مكتبة الحبيب احمد بن حسن العطاس نسخة خطية من هذا الكتاب ، ومما يوجد فيها ايضاً تاريخ ابي حسان . وتاريخ عدن وتاريخ بامخرمه كاملاً .

وفي كتاب لي من سيدي العلامة المحقق الوالد محمد بن عقيل بن يحيى العلوي بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٤٩ من عدن ان في خزانته الخاصة يوجد الجزء الاول من الاكليل وتاريخ زبيد وذيله والشرجي والخزرجي وعنده نسخة من تاريخ ملوك حمير وحجمها تقريباً من نحو ٢٠ — ١٥ سنتيمتر وتقع في نحو ٤٠٠ صفحة ولكن الخط ضعيف ، وعنده نسخة من مقامات السيد باعبود وهي بحجم ملوك حمير . وقد تفضل عليّ سيادة الوالد محمد بن عقيل بهذين الكتابين الاخيرين في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٥ عند عودتي الى الوطن ومروري بالمكلا لاطالعها غير اني لم اتمكن من المطالعة لمرض الم بي ولسفري الى الشحر وقد أجر سيدي الوالد محمد بن عقيل كاتباً لينقل تاريخ ملوك حمير للعلامة المرحوم احمد تيمور باشا .

و يوجد عند سيدي الاستاذ الوالد المحقق علوي بن طاهر الحداد جزء من كتاب الاكليل وعلى ما أتذكر انه الجزء السادس وقد استعاره منه الوزير المرحوم السيد حسين ابن حامد المحضار العلوي .

ثم اني أؤيد (حضرموت) فيما اقترحته على عطوفة الامير من نشر الجزءين من الاكليل والتعليق عليهما لتتضاعف حسنات هذا الأمير الجليل .

صولو (جاوه) : علي باعبود العلوي



الالفاظ التركية

« في لهجة الدماشقة العامية »

أتانا مع البريد كناشة من المقالات المفيدة أصدرتها شعبة المستعربين في المعهد العلمي الفرنسي بدمشق عن سنة ١٩٢٩ فلفت نظري فيها مقالة للاستاذ سوسي E. Saussey عنوانها « الالفاظ التركية في لهجة الدماشقة العامية » أجاد فيها المؤلف كل الاجادة وغلط في بعض الالفاظ على ما أعتقد كما سها عن ذكر الفاظ تركية مهمة يستعملها الدماشقة اليوم .

فما غلط فيه :

اولاً الفاظ عربية او معربة موجودة في الأمهات من المعاجم العربية مابرحت شائعة على الألسنة وفي بطون الكتب القديمة والحديثة ولا يجوز الظن باننا اقتبسناها من الأتراك العثمانيين اونسيناها حتى أتوا فنبهونا اليها مثل عرصة وبكرة والبيع والشراء وبندق ودبوس وامضاء وفانوس وجورب ومعدن ومرجم وامبري وفرميد وقنبيط (وكذا قرنبيط) وقسط وصراحية وسروال وغيرها .

ثانياً الفاظ أعجمية (وخاصة ايطاليـة) يرجح لأسباب شتى ان العرب (ومنهم الدمشقيون) اقتبسوها عن الفرنج مباشرة قديماً او حديثاً وليس للترك فضل في تعريف العرب بها مثل : بالة ، بطاطا ، بيرا ، بوصلة ، برتقال ، بورصة ، دامة ، فاصوليا ، فانورة ، غارصون ، كستنا (وقسطل وشاهبلوط) غاز ، كديش ، مانيفاتورة ، قبطان ، قرصان ، شوال (بجوالق) ، ليرا ، معكرونة الخ .

ثالثاً الفاظ لم نسمع بها ولا يستعملها سكان الشام اليوم الا اذا تكلموا بالتركية مثل عيش وقونش (من قونشمق) ، گل (من گلمك) ومرابعجي (لأنهم يقولون مرابع) وناكردي (لافردي) .

رابعاً الفاظ غلط في تفسير معانيهـا مثل : « دبوثك بريسي » فمعناها دبوث منا لارأس الدبوثين كما ذهب اليه (دبوثلرك اك بريسي) . والدماشقة يستعملون هذا اللفظ للمعنى الاول دون غيره .

ومثل الفئة فهي من الفيء بمعنى الخراج والغنيمة او من الفئة بمعنى النوع لا كما ذهب اليه .

خامساً الفاظ لم يستعملها الترك الا قبيل الحرب العامة مثل كاتب العدل للنوتير . فهي قد وردت في القرآن وكان الترك يسمون كاتب العدل محرر مقاولات .

ومن الألفاظ التركية (اوالفارسية المقتبسة عن الأتراك) التي يستعملها الدماشقة ولم يذكرها صاحب المقالة . خوش بوش وطنبرجي ودَرِن (من درآن) ودزكين (ديزكين اي المقود) وهو يدوشن (من دوشمك) وجرمشتخن (من شش خانة) ودربين (منظار ومُدْنِيَة) وضاين (من ضايانمق) وآلش (من آلشمق) وبجايج (من بجايش) وبيشروش (من بيش رَوِش) ودا كش (من دكشمك) وشو باصي (تصحيف صو باشي) .

والخلاصة انه ليس من الغريب ان يترك الأتراك هذا العدد من الألفاظ في اللغة العامية الدمشقية بعد ان حكموا الشام بضعة قرون ، على ان هذه الكلمات زال استعمال كثير منها بعد تقلص حكمهم عن هذه البلاد . والباقي على وشك الزوال . ومع هذا لو حسب الكاتب الفاضل في قائمته حساباً مضبوطاً لعدد الألفاظ العربية الأصل والألفاظ الأعجمية غير التركية لوجد ان الكلمات التركية الخالصة فيها عدد قليل لا كبير كما ذهب اليه . ولا أحد يجهل ان الترك لو جرّدوا لغتهم من الكلمات الفارسية والفرنجية وخاصة العربية فان ما يبقى لديهم من الألفاظ لا يعبر عن معان مهمة .

مصطفى الشهابي

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

فعينه مباحث الحرف والصناعات حتى الرقص والغناء والطبخ ولعب الصبيان بالطيور الخ ثم ذكر النصوص التي لها علاقة بالعلم والتعليم · ووصف ما كان عليه الصحابة من استجماع الفضائل العلمية شارحاً اختصاص كل منهم بنوع العلم الذي امتاز به عن غيره · وهذا الجزء في ٤٨٠ صفحة من القطع الوسط · عدا نحو ٦٥ صفحة ملئت تقاريظ في مدح الكتاب وتماجيد في مناقب مؤلفه ·

ومن مزايا هذا التأليف بل كل تأليف أشرق علينا من المغرب ان نعثر فيه على نقول تاريخية ودينية اقتبسها هؤلاء المؤلفون من مصنفات علماء بلادهم (المغرب والاندلس) مما لاعهد لنا بمثله في مصنفات علمائنا وأئمة مشرقنا ·

اما المزية الخاصة بكتاب (التراتيب الادارية) فهو ان مؤلفه اذا خاض بحثاً من مختلف المباحث الاسلامية تراه يتقصى المصادر والاسفار التي كتبت في هذا البحث : من قديم وحديث و ينفضها نفضاً فلا يدع شيئاً يضيع عليه من نثارتها ·

غير اننا نأسف لما وقع في هذا الجزء من الاغلاط الكثيرة وكنا نتمنى لو نتنزه عنها · ولاسيما ماوقع منها في النصوص الدينية كحديث أم زرع · وقد ألحق طابع الكتاب به جدولاً للخطإ والصواب بلغ تسع صفحات بخط دقيق · ولا اظنه استوعب جميع ما في الجزء من الاغلاط ·

والمصنف يجيد ايما إجادة في لمّ متفرق الموضوع وسرد النقول المختلفة للاستشهاد له · وتقصّي آراء العلماء والموازنة بينها وتقديم مايراه احق بالتقديم منها ·

ونسمعه احياناً يستشهد بكلام ابن خلدون في (المقدمة) لكنه قلما يسلّم له نظريته بل تراه يرجّح عليهـا آراء الحشو بين ممن لبسوا من هذه المباحث التي كتب فيها ابن خلدون ولا قلامة ظفر ·

ومعظم ماقرأته في هذا الجزء نصوص وآثار للسلف الصالح يسردها المؤلف · واقوال واختلافات رُويت عنهم : فهو يلخصها او يرويها على علاتها · وقد يعلّق عليها او يجمع بينها بعبارات موجزة من عنده يظهر عليها مسحة من ضعف الأسلوب الانشـائي من ذلك قوله في ص ٣٦٣ ·

« المقصد الثاني في ماحازه اصحابه عليه السلام من السبقيات · وما تميز به افرادهم

من علوّ المدارك والكيفيات · مما يعرّفك ان المدينة المنوّرة كانت في الزمن الاول مجموعة مهولة بصنوف واختلاف الأعمال والأفكار والصفات · والأشغال الحياتية التي لا بد منها في كل بلدٍ مصر · واتخذت عاصمةً لمدنية عظمى سادت على العالم في اقرب وقت · وما وصل اليه ذلك العصر الزاهر · والمصر الطاهر · من الاختلاط والاختلاف في الأحوال · والاتفاق في الآمال · وانه من اندر ما حفظه التاريخ عن الاجيال والدهور » اه ·

على ان ماتخلل هذا الجزء من كلام المؤلف قليل جداً كما قلنا آنفاً فيكون الكتاب بهذا الاعتبار فهرستاً عاماً لما ورد في السنّة المطهرة من النصوص المتعلقة بموضوع الحضارة والاجتماع والسياسة والعلم والتعليم والصناعات الخ ·

وقد لحنا ان إخواننا المغاربة ما زالوا على الشنشنة الشرقية القديمة من حيث التهويل في سرد الالقاب والاعتداد بالضخم الرنان منها يظهر ذلك من التقاريظ الكثيرة في آخر هذا الجزء ومما سطّره ناشره على غلافه ·

و ياليت إخواننا المغاربة يخفّفون من هذه اللهجة كما فعل إخوانهم المشارقة · وليدعوا الاعمال تشهد لفاعلها · والآثار تنطق بفضل قائلها ·

ولعمري ان مطالعة هذا الجزء من كتاب (التراتيب الادارية) تركت في نفسي أثر إكبار للفوائد التي تُلتقط من جوانب كتابه – أمثلَ وأكملَ من الاثر · الذي تركه لقب الشيخ الاكبر · والكبريت الاحمر ·

« المغربي »

هدايا كتب

أهدي الينا كتاب (يوبيل لسان الحال) الذهبي وهو يتضمن ما قاله المحتفلون في بيروت بذكرى مرور خمسين سنة على جريدة (لسان الحال) التي هي من أقدم صحف بيروت السياسية .

— ورواية (من عرابي الى زغلول) وهي رواية اجتماعية تضمنت أبلغ دروس في الوطنية من تصنيف السيد نقولا حداد احد صاحبي مجلة (السيدات والرجال) .

— وكتاب (الحصاد الاول) وهو يتضمن احدى وثلاثين قصة عراقية وضعها السيد انور شاؤل من أدباء بغداد .

— ورواية (اليهودي شيلوخ وأقاصيص أخرى) تعريب السيد سامي شمعة وقد الحقت بمقدمة من قلم السيد كامل عياد . عنيت بنشرها مكتبة عرفة بدمشق .

— وكتاب (مع الحقيقة) وهو يبحث في تطبيق الفروع والمظاهر على الاصل بقلم السيد نجيب شعيا . وقد طبع بالمطبعة التجارية بمصر . والكتاب مقدم الى (فرانسا) إقراراً بجميلها .

« المغربي »

النقد التاريخي

« وعروبة آل معروف »

—*—

نقل المؤرخ الاستاذ فيليب حتّي في كتابه عن الدروز جميع ماخلط الخالطون من الفرنج وغيرهم في اصل هذه الفرقة وجرى هو نفسه مجرى بعض مؤرخي الافرنج ولم يردّ تعليلاتهم الكثيرة التي لا تزيدها كثرتها الا فراغاً والتي سمتها الكبرى وعلامتها الفارقة ان يجتهد المؤرخ بكل قدرته في الاتيان برأي طريف لم يكن موجوداً والاطلال على عالم العلم بنظرية جديدة غيرمسبوقة .

ولعمري حسنٌ جداً ان يدقق المؤرخ في كل رأي يطلع عليه وان لا يقبله بالغاً ما بلغ من الشهرة الا بعـد تمحيص تطمئن به نفسه وتحقيق يصل به الى برد اليقين . ولكن قبيح جداً ومضرٌ بالعلم جداً ومغرّر بالمتعلمين ان تدور جميع اجتهادات الباحث حول نقطة الاتيان ببدع والسبق الى رأي لم يقل به احد او تقوية رأي ضعيف .

مخالف لشروط العلم على الاطلاق ان يتعمّد الباحث المستطلع مخالفة الرأي المشهور لانه مشهور ومحاولة كسب الشهرة باحداث رأي جديد يقوم مقام القديم . قد تقع هذه الامور موقع القبول في الازياء والألبسة والمساكن والمطاعم والمشارب وغيرها من ضروب المعيشة وثرتاح الانفس الى التغيير وتتلذذ بالمعاقبة والمداولة وتملّ من الشكل الواحد بدون انقطاع وتسأم الذوق الواحد بلا تنوع ولا تصرف و كل هذا معقول ومقبول وطبيعي و بشري ولكنه لايجوز في الحقائق العلمية . حقيقةٌ من الحقائق التاريخيـة مثلاً تكون مقرّرة على وجه من الوجوه بعد استيفاء شرائط البحث فيها وانطباقها على المتواتر بين الناس والمنقول من الخلف عن السلف والمأثور في الكتب المعهود باصحابها الاطلاع وتأيدها بالقرائن القوية

م : ٥

كالسنن والاخلاق والعادات والمذاهب والمشارب ونأتي فنتعمد نقضها تعمداً او نحاول ان ننقصها من أطرافها تحكماً لمجرد مللنا من تواتر القول بها وتبرمنا بتوالي الخلق على نقلها او لاجل الاتصاف بسلامة الاختراع واحراز شهرة الابتداع . هذا خلق لا يجوز في العلماء ولا يحسن ان يفشو في دوائر العلم . فالاختراع جميل في الطبيعيا . والكيمياء والعلوم المادية . والتسابق في ميدان التغيير والتنويع والتنافس في الاتيان بالشيء الذي لم يعهده الناس من قبل كل هذا لذيذ ومفيد وقد يكون ضروريا لاجل المجتمع الانساني . ولكن اختراع الآراء التاريخية حباً بجدة الآراء والبحث عن خبر جديد نأتي به ولو لم يركب في عقل ولا نقل ولو بدء ولو كان متداعياً بمجرد اللمح كل هذا ولوعاً منا بالاطراف والابداع هذا جناية على العلم .

ولست أقصد بهذا الوصف كتاب الاستاذ حتى الذي ليس له فيه شيء من هذه الآماد البعيدة في حب الطرافة . وانما اقصد بعض الشرقيين الذين أولعوا بهذا المشرب السقيم زاعمين انه منزع تحقيق سار عليه علماء الافرنج وانهم انما يقلدونهم فيه . وانا أحذر الدكتور حتي من ان يسلك هذا الشعب الضيق الذي يجل عن مثله . فمنزع التحقيق هو منزع التحقيق وافق الرأي القديم ام خالفه لا يبالي بما يجيء في طريقه . وانما الذي نحذر الناس من التهافت عليه هو منزع الاغراب حباً بالشهرة وتعمداً لمخالفة الجمهور وجعل «التحقيق» مرادفاً «للاغراب» والحال انه ليس التحقيق إغراباً ولا الاغراب تحقيقاً . فان الاغراب هو ان يأتي الانسان بامر غريب قد يكون صحيحاً في نفسه وقد يكون خطأً او كذباً . وان التحقيق هو ان ينصح الانسان جهد طاقته و ينتهي في البحث الى الغاية فاما ان يصل الى تأييد ما كان مقرراً سابقاً واما ان يصل الى نقضه واما ان لا تطمئن نفسه الى القديم ولكنه لا يجد من الأدلة ما يكفي لهدمه فيختار الوقوف . وليس الوقوف بعيب اذا لم تتوافر الأدلة ولم تُفد القطع وانما العيب هو القول بلا علم والجزم بدون جازم والهجوم بدون سلاح .

واما ان الافرنج إجمالاً يحبون هذا المشرب الشاذ فليس بصحيح . فالافرنج كالشرقيين فيهم المحقق المحص الذي اذا استوفى البحث شروط الصحة جديداً كان الحق ام قديماً اخذ به وعوّل عليه . وفيهم المولع بالابداع والاطراف ولو كان إبداعه واهياً وإطرافه سخيفاً . ولقد اتسعت مدنيتهم وتشعبت ثقافتهم الى حد ان كثرت عندهم الغرائب وفشا

الشذوذ وملوا النظريات القديمة بصرف النظر عن صحتها وعدم صحتها . ولكن العلماء المحققين منهم لا يزالون يميزون بين الصحيح والفاسد من المباحث واذا جاء مؤلف او مؤلفون فكتبوا ماينفي وجود المسيح مثلاً لم يتلقوا أدلتهم بالتسليم لمجرد انهم أتوا بادلة وقرائن وامائر واشارات تجعل لهذا القول وجهاً ، بل وازنوا بينها وبين الأدلة والقرائن والنصوص الواردة على مجيء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فوجدوا أدلة الايجاب أمتن جداً من أدلة النفي وحكموا بان مجيء المسيح حقيقة وعلموا انه اذا كان الحكم للمرجوح على الراجح بطل التاريخ وارتفع العلم من الارض .

فأما مايكثر فيه خلط الافرنج الى الحد الذي لا يتصوره العقل احيـاناً وما يبلغون منه الدرجة التي تضحك وقد تبكي وقـد تثير الغضب ومن اي الجهات جاءها الانسان وجدها مصيبة من المصائب — فهو كلام الافرنج عن الشرقيين : ولا اقول اني قرأت كل ما كتب الاوربيون عن الشرق والشرقيين وأحطت بهذه المسألة علماً ولا احد يقدر ان يدعي هذه الاحاطة .

ولكني قرأت بدون شك في هذا الباب مايندر ان يكون تيسر مثله لغيري وصار لي الحق في ان أدلي برأيي في هذه المسألة . فأقول ان خلط الغربيين في كلامهم عن الشرقيين زائد جداً و يكاد يكون عاماً لمؤلفيهم الى انه صار الاسترسال الى أقوالهم في احوال الشرق والشرقيين عبثاً . ولقائل ان يقول : اني أراك مبالغاً او جائراً في الحكم أفهؤلاء العلماء المنقبون الذين فكوا مغلقات الألسن الشرقية القديمة وحلوا طلسمات الآثار العتيقة التي كان الشرقيون لا يعرفون منها شيئاً وأفاضوا أشعة تحقيقاتهم على التـاريخ القديم سواء عن مصر او عن فلسطين او عن فينيقية او عن جزيرة العرب او عن بابل ونينوى الى غير ذلك حتى جلوا منه تلك الصفحات التي لم يكن شرقي يعرفها من قبلهم — تعدهم انت من الخلاطين الذين لا يؤخذ بكلامهم ولا يوثـق بسبيل أقلامهم ! فأجيب على ذلك : حاشا ان أقصد ذلك فيما يتعلق بالتواريخ القديمة والخطوط الهيروغليفية والمسمارية والآثار الحفرية التي صارت فناً من الفنون اتقنه الافرنج وكشفوا به مخبآت عظيمة واضاءوا به ظلمات من التاريخ الشرقي لاشبهة فيها . ولكني أقصد ذلك فيما يتعلق بتواريخنا العصرية واحوالنا الاجتماعية ومانعرفه نحن جيداً ونقدر ان نميز به الصحيح من الفاسد وما هو واقع تحت

حواسنا او متواتر خبره عندنا ٠ ففي هذه الامور نجد خلط المؤلفين الاوربيين بحراً عباباً وعجباً عجاباً ونجد المعصوم منهم أقلهم خلطاً وأندرهم خبطاً ٠ ولعلهم يخبطون ايضاً في مباحثهم عن اللغات والخطوط الشرقية القديمة ويخطئون في نتائج تنقيباتهم عن الآثار الحفرية الاركيولوجية في كثير من الامور الا اننا في هذه قل من يقدر منا ان يجاذبهم الحبل ويقنعهم بخطإهم لانها علوم قديمة عادية دهرية استوى أمامها الشرقي والغربي وصارت بعيدة عن الجميع لنأيها في ظلمات القدم فلم يزد الشرقي بها علماً كون تلك الآثار هي في بلاده اذ كانت نسبتها من آلاف من السنين قد انقطعت وعلاقتها بالحاضر كادت تكون معدومة ٠ فصار الاوربيون اعرف بها من الشرقيين ولو كان هؤلاء جيرانهـا لان مدنيتهم صارت ارقى من مدنية الشرقيين ٠ ولما كانت المدنية تقتضي البحث والاستطلاع كانوا هم اجدّ وانهض للبحث وارغب في التنقيب واملك لوسائله ٠ فعلى كل حال اصبحنا لانقدر ان نجاريهم في هذا المضمار وان وجد منا من يعرف هذه العلوم فيكون قد اخذها عنهم وتخرج فيها عليهم ٠

ولكن ليس الشأن كذلك في التاريخ الاسلامي مثلاً لاننا نملك من وسائل معرفته تواتراً ونقلاً وخطوطاً ونقوشاً وآثاراً مالا نحتاج فيه اليهم بل ما لا يملكونه هم ثم لاننا عائشون في نمثيله مندمجون في نحمنه نقدر ان نفهم منه مالا يفهمه الغرباء عنا مهما اجتهدوا في تفهّم تاريخنا ٠ وليس الشأن كذلك في امورنا الاجتماعية وخططنا الجغرافية وأحوالنا الاحصائية التي نحن بها أدرى من الغريب لاننا نشاهدها كل يوم ونعرف منها مالا يعرفه الاوربي وان علا كعبه في العلم ٠ فاذا ضلّ الاوربي في ظلمات تاريخ الشرق القديم فلا نحسن ان نردّه الى الصواب كما اذا ضلّ في تاريخ الحقب التي بعد الاسلام او اذا أخطأ في أوصاف الحالات التي نحن عليها الآن ٠

ففي هذه نحن نملك من أسباب العلم ما يحصل لنا به برد اليقين ونقـدر ان نبين الحق من الباطل ونفرق بين الحالي والعاطل ٠ ومن جراء هذا نقضي العجب العجاب من شطط اكثر الاوربيين الذين يتكلمون عنا ومن تعسفهم الطرق ومن بنـائهم على التخيلات والتفرضات ومن تعلقهم باسباب واهية يخرجون منها الى إطلاقات عجيبة غريبة ومن أخذهم بمقدمات غير ثابتة ومن افضائهم منها الى نتائج فظيعة ٠ وقد ثبت لنا بهذا ان الراقي

في العلم لايمكنه ان يكون راقياً في كل علم وان الاعتقاد باحاطته ضرب من الجنون ·

ويجوز ان يكون الاوربي اليوم في ثقافته ارقى من الشرقي على وجه الاجمال لكن هذا لايستلزم ان يكون أعلم من الشرقي في كل شيء ولا ان يكون اعلم من الشرقي بنفسه · ومن هنا جاء خطأ بعض الشرقيين الفظيع في تقديس معارف الغربي في كل شيء وتلقي كل مايحكم به قضايا مسلمة حتى فيماهو نفسه لايدعي فيه العصمة وحتى فيما هو نفسه يدعو الناس الى ان يصححوا كلامه · فتجدهم يكابرون انفسهم فيما هو واقع تحت حواسهم نظراً لكون احد مؤلفي الافرنجة قال خلاف ذلك ·

وبعد هذه المقدمة أقول ان كثيرين من كتّاب الافرنج هم منشئون او ممن تسهل عليهم الكتابة في موضوع اجتماعي اوسياسي او في رحلة الى بلد من البلدان يصف بها الافرنجي مارآه ومارتسم في مخيلته · ولكن ليس كل كاتب منهم عالماً ولا محققاً ولا متخصصاً في الفن الذي يكتب فيه · والحال اننا نحن الشرقيين قد تلقينا كل افرنجي تقريباً عالماً وصرنا نستشهد باقواله · ثم تلقينا كل عالم منهم متخصصاً حتى لو كان مقتصراً على مجرد المشاركة في الفن الذي استشهدنا فيه بكلامه · ثم تلقينا كل متخصص منهم معصوماً وقلنا لاسمه السجود · فهذا كله عبث وغير لائق بالعلم بل ضلال واضلال لا يغتفران · فالناس يجب ان ينظروا الى القول لا الى القائل ، وماذا يعنيني القائل اذا كان افرنجياً وانا أرى خبصه بعيني وألمس خلطه بيدي ؟ أأجعل كل كاتب من الافرنج عالماً وكل عالم عبارة عن انسيكلوبيديا وسعت كل شيء علماً وكل انسيكلوبيديا معصومة من الخطإ تنزيلاً من حكيم حميد ؟ لقد قرأنا الانسيكلوبيديا الاسلامية — التي لم تتم — ووجدناها من أنفع الكتب وهي محررة باقلام نخبة من المستشرقين الذين هم أعرف الافرنج بامور الشرق والعالم الاسلامي لكننا عندما عرجنا فيها على الموضوعات التي نقدر ان نفرق فيهـا بين الحق والباطل رأينا فيها خطأً كثيراً ·

واذا جئنا نستشهد على خطإهم في الكلام علينا وعلى الشرق أجمع حفيت الأقلام وضاقت بالشواهد الأجلاد الضخام · ولا يسلم من هذا العثار في امور الشرق احد من مؤلفيهم ولو بلغ من العلم ارفع الدرجات · وقد يقال لي : أفترى الشرقيين في امور الشرق أسد منهم رأياً وأصح معلومات ؟ فأجاوب :

اولاً ان غلط الشرقي سهل تداركه لانك بمجرد ما تقول للشرقي القارئ ان فلاناً الشرقي المؤلف اخطأ في كذا تلقى كلامك بالقبول او بالميل الى القبول وذلك لانه متهافت بطبيعته على تصديق ما يعزى من الخطإ الى ابن وطنه اوجلدته . فأما اذا قلت له ان المؤلف الافرنجي فلاناً اخطأ لم يمكنك ان تقنعه بسهولة . وان كان الافرنجي المؤلف مشهوراً لم تجرّ الشرقي الى التسليم بخطإه لا بحبال ولا برجال . وما هذا الا لما وقر في صدور الشرقيين من تقديس علم الافرنج والمبالغة في تنزيههم عن الخطإ حتى في الامور التي نحن أدرى منهم بها فعلاً . واقول ثانياً ان الشرقيين في تاريخ الشرق بعد الاسلام أدرى و زكن من الغربيين بلا نزاع .

كثير من المؤلفين الاوربيين اذا عثر على حادثة واحدة جرّد منهـا قاعدة ! فاذا اتسق له العثور على حادثتين او ثلاث ظن انه اختزن الحقائق كلها في جيبه . والحال ان الجزئيات لابد من ان تبلغ عدداً لا يكاد يحصى حتى تتجرد منها قاعدة كلية . فاذا تساوت الجزئيات في السلب والايجاب لم يمكن تجريد قاعدة كلية منها وتحتم الوقوف حتى تبرز الحقيقة بوجه من الوجوه اذ يكاد يكون من المستحيل خفاء الحقيقة الى الابد . وعلى كل حال الواقعة الواحدة والاثنتان والثلاث لا يبنى عليها حكم ولا يستنبط منهـا من العلم الا بقدرها . وهذا مالا يريد الافرنجي ان يفهمه اذا خاض في معامع البحث عن الشرق . فهو كلما وقع على حدث حاول ان يستخرج وان يستنتج وسبح في بحر الخيال ووصل الى نتائج ما أنزل الله بها من سلطان .

وعند الاولاد لعبة يسمونها « الغمّيضاء » يعصبون عيني احدهم ويختبأون كل واحد في زاوية ويدور هو والعصابة على عينيه فيبحث عنهم بيده ويتلمّس من هنا ومن هنـاك حتى يعثر على احدهم . وكثيراً ما تقع يده على حجر اوشجر اومتـاع من الامتعة او حيوان مربوط فيظن انه امسك واحداً من رفاقه المختبئين ويهتف صائحاً : هوذا انا قدامسكتك ! ولا يكون امسك احداً . وهذا النفر من الافرنج يبحث عن قضية لا تتجلى له فاذا لاحت له لائحة مهما كانت ضعيفة ظن انه قبض على مفتاح السر فيها وهتف : قد انكشف لي المغلق . اوكلما رأى شعباً من الشعاب اعتقد انه هو الطريق المؤدية الى المقصد وصاح : هذه هي المحجة !

وكم مؤلف منهم يبني تاريخاً طويلاً عريضاً على لفظة . وقد تكون محرفة او مصحفة او مصادفة . فهل يبني العاقل تاريخاً على مجرد كلمة ؟ يأتي افرنجي فيقول مثلاً ان الدروز هم من بقايا الصليبيين وان اسمهم مشتق من اسم الكونت «درو[1]» Dreux الذي كان من غزاة الصليبيين ونحن ننشر هذه السخافة ونرفع هذا الرأي الى درجة الآراء ولا نبالي باضاعة وقت الناس في اقرائهم سخافات كهذه ... وياليت شعري ماذا وجد في الدروز مما يشبه الافرنج الصليبيين أسحنتهم ام الوانهم ام تركيب رؤوسهم ام اخلاقهم ام عاداتهم ام لفظهم بالعربي الفصيح الذي لا يساويهم فيه احد من جميع سكان سورية ؟ وكيف امكن ان يتحولوا هذا التحول العظيم من افرنج صليبيين الى عرب اقحاح ؟ ومتى وقع هذا التحول واين وأنّى وهل كان الدروز موضوعين في علبة او في صندوق محكم الاقفال حتى تحولوا من افرنج الى عرب وهم بهذه السواحل الشامية وعرضة للتفتيش والبحث والنظر ولم يشعر بذلك احد من سكان هذه السواحل لا من مسلمين ولا من نصارى ولا من يهود . والدروز مع ذلك مختلطون بجميع هذه الطوائف ومساكنون لهم لا تقع عندهم صغيرة ولا كبيرة الا كان خبرها عند جيرانهم والمقيمين من هاتيك الطوائف بين اظهرهم . ومما لا مرية فيه ان تحول قوم من الاقوام عن جنسيتهم ولغتهم وعاداتهم واخلاقهم واندماجهم في أمة أخرى يقتضي اوقاتاً وآماداً متطاولة ولا يحصل في زمن قصير فكيف جرى هذا الحادث العجيب الذي لا يتم الا في القرون بدون ان يشير اليه مؤرخو الاسلام ولا مؤرخو الافرنج انفسهم ولا مؤرخو الموارنة الذين هم اكثر الطوائف اللبنانية اختلاطاً بالدروز . فلا ابن الاثير ولا ابن خلدون ولا ياقوت الحموي ولا ابو الفداء ولا ابن عساكر ولا الذهبي ولا ابو شامة صاحب الروضتين ولا ابن شداد ولا ابن العديم ولا ابن خلكان ولا ابن قاضي شهبة ولا العمري ولا شمس الدين ابن طولون ولا الصلاح الصفدي ولا النجم الغزي ولا شيخ الربوة ولا المحبي ولا احد ممن كتبوا عن سورية اشار الى حادث كهذا مع انهم نقبوا عما هو اصغر منها كثيراً . واغرب من هذا ان مؤرخي لبنان الذي فيه الدروز لم يشموا أدنى رائحة لامر كهذا فلا السمعاني ولا الحاقلاني ولا جبرائيل القلاعي ولا الدويهي ولا ابن اسباط ولا صالح بن يحيى ولا الصفدي مؤرخ الامير فخرالدين بن معن ولا طنوس الشدياق ولا بطرس البستاني ولا غيرهم ذكر ان الدروز هم من بقايا الصليبيين او انهم

منسوبون الى الكونت درو[١] .

فاذا كانت المشابهة في لفظة واحدة تجعلنا نقلب التاريخ رأساً على عقب ونضرب صفحاً عن جميع تلك الادلة المحسوسة فماذا أبقينا للعوام من الشرقيين والجهلاء من الحشوة الذين يقولون لك ان اسم حلب الشهباء اصله ان ابراهيم الخليل كانت له بقرة شهباء يحلبها ويجود بلبنها على الفقراء فيجتمعون عليه واذا حلبها قالوا : حلب الشهباء . فمن هنا جاء اسم حلب الشهباء ! او ان طبرية اصلها من ان ملكاً كان عنده ابنة اسمها « ريّا » وكانت عليلة فأرسلها تستحمّ في الماء السخن الذي على شاطئ بحيرة الجليل فنالت الشفاء فقالوا : طابت ريّا . ومن هناك جاء اسم طبرية ! او ان حاصبيا اصلها من ان فتاة رأت اباها قد حار في امره فأخذت تعول وتقول : حاص أبيّا . فصارت حاصبيا وهلم جرّاً . ولم ينحصر هذا البناء على مجرد المشابهة في اللفظ في العوام وحدهم بل تجد منه عند الخواص ايضاً او عند من يصح ان يقال لهم « عوام الخواص » لان في الخواص عوام ايضاً .

ففي جبل لبنان يروون ان اسم « الشوف » مشتق من كلمة «شُف» فعل امر من « شاف » اي رأى بحسب لغة العامة . وذلك بزعمهم ان الجد الاعلى للامراء المعنيين

---

(١) من عادتي اني اذا عربت عن الافرنجية كلة فيها eu كلفظة Dreux مثلاً أعربها بالواو وأضع فوق الواو الفاً صغيرة لانها بالافرنجية واو مائلة الى الفتح . واذا كانت لفظة فيها u كلفظة Rhur مثلاً او Ziurich أعربها بالواو وأضع فوق هذه الواو ياءً صغيرة لانها واو مشوبة بياء كما يعرف ذلك من يعلم اللغات الاوربية . وان كانت لفظة فيها واو شديدة الضم اي هكذا ou كما لو قلت Atnfou او Toulon مثلاً أكتبها هكذا « طوُلو » مع واو صغيرة فوق الواو . واما الواو التي في مثل Rome و Lausanne مثلاً فأعربها بالواو المعتادة هكذا «رومة» و «لوزان» وهذا التفريق بين الواوات الافرنجية مهم لانها اربعة أشكال كل منها يلفظه الافرنج بشكل خاص فواو طولون الاولى غير واو رومة . وواو لوزان غير واو مونترو . وواو زوريخ غير واو مونترو وغير واو لوزان . وعليه لزم ان يجعل لها فوارق في العربي حتى تلفظ بالعربي كما تلفظ بالافرنجي .

عندما قدم الى جبل لبنان يريد ان ينتقي منه محلاً لنزوله كانت الجهات التي تسمى اليوم بالشوف الحيطي والشوف السويجاني — واصلها الشويزاني — خراباً فجاء الامير المعني الى عبيه من ناحية غرب لبنان نزيلاً على الامير التنوخي واستشاره في المكان الذي يوافق نزوله فيه فيقال ان الامير التنوخي صعد به الى الجبل الذي فوق عبيه الذي يقال له « المطيّر » والذي منه تظهر من الجهة الشرقية بعقلين ونواحيهـا ودلّه باصبعه قائلاً له « شُف » فصارت «شوف» .

وما أرى شيئاً من هذا وانما ارى اللفظة آرامية او فينيقية معناها « الاجرد» لان جميع صرود لبنان يقال لها « الجُرد » بضم الجيم جمع أجرد . ويجوز ان تكون هكذا بالعربية ايضاً لان فعل «شاف» معناه بالعربي جلا وصقل و «الشَّوْف» بفتح اوله هو الجلو والصقل وكله يتضمن معنى «الجَرْد» بفتح اوله . فالجَرد في العربي هو قشر العود او نزع الشعر ومكان جَرد لانبات فيه . وكذلك المكان الجَرِد بفتح اوله وكسر ثانيه الذي لانبات فيه . وايضاً المكان الاجرد الذي لانبات فيه وجمعه «الجُرد» بضم اوله كما يتلفظ به اهل كسروان والمتن والغرب والشوف جميعاً . والجرّاد هو الذي يجلو آنية النحاس اي المعروف عند العامة « بالمبيّض » فأنت ترى ان الجرد والصقل والجلو كله بمعنى واحد ولذلك يكون «الشوف» بمعنى «الجرد» واذا رأى الانسان من بعيد رؤوس تلك الجبال وأسنادها وجدها جرداء صلعاء كأنها مجلوّة . وهذا هو الاقرب في اصل هذه اللفظة . وفي الافرنسية لفظة Chauve « شوف» هي بهذا المعنى ايضاً اي أصلع .

ومن هذا الضرب مايقولون في مدينة حماه عن محلة اسمها « الحاضر » فيها مساكن الاشراف بني الكيلاني . فيروون انه لما قدم جدهم من العراق مختاراً الاقامة بحماه أشار عليه ملك تلك البلدة بالنزول في المكان الذي يقال له « الحاضر » في الوقت الحاضر وقال له « هذا الحاضر » اي اسم فاعل من حضر ضد غاب . اي انزل بهذا المكان فهذا الذي يحضرنا الآن وفيما بعد نفكر . وهذا كلام عامي ، والاصح ان الحاضر كان من قديم الزمان محلة عامرة بحماة وهو اسم فاعل من الحضارة لا من الحضور . والحاضر في اللغة الحي العظيم . وقال الجوهري : هو جمع كما يقال سامر للسمّار وحاج للحجاج ومنه « كان ينام خارجاً عن حاضره وكان الحاضر اذا أتاهم الفزع صاحوا » .

وفي حلب حاضر ايضاً كما في حماه . ولكن حاضر حلب قد صار اليوم خراباً . واما حاضر حماه فقد قال فيه ياقوت الحموي : « وبظاهر السور حاضر كبير جداً فيه اسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهر ا المعروف بالعاصي » الى ان يقول : « ويقال لهذا الحاضر السوق الاسفل لانه منحط عن المدينة ويسمون المسوّر بالسوق الاعلى » .

ومن هذا القبيل تأويل عامي رأيته في «صبح الاعشى» مع افضل صاحبه وسعة اطلاعه ولكن علماءنا في الأغلب لا يخرجون عن دائرة العربية فكل مغلق يفسرونه بها . وهذا التأويل الغريب في صبح الاعشى هو قوله ان لفظة «تركمان» اصلها « ترك ايمان » لان الترك تركوا دينهم القديم وأسلم منهم مائتا الف في يوم واحد . فجعل لفظة « ترك » من فعل «ترك» العربي وهو غريب جداً . وجعل لفظة «مان» محرفة عن «ايمان» وهو لا يقل عنه غرابة ولم يفكر في ان تلك الامة لها لغتها القديمة ولها الفاظها وان الفاظها لا تؤوّل بالعربية وان معنى «مان» Mann باللغات الآرية هو رجل وان هذا الاسم «تركمان» اي رجل تركي قد يكون اطلق عليهم في فارس ولا يوجد مزلقة مدحاض في العلم اكثر من تشابه الالفاظ لانها تتشابه كثيراً بين لغات مختلفة وفي وسط اللغة الواحدة . فاذا أردنا ان نستخرج من تشابه كل لفظتين تاريخاً لم نعرف الى اية سخافة بعيدة يؤدي بنا ذلك . وقد سمعت ان اديباً تركياً نشر في الاستانة مقالة يزعم فيها ان التورانيين اي الاتراك كانوا من قديم الدهر في سورية وفي فينيقية واستدل على ذلك بلفظة «ارواد» اسم هذه الجزيرة التي هي قصد طرابلس . وقال : هذه محرفة عن «اروات» واروات محرفة عن « اورت» او «عورت» وهي « المرأة » بالتركي . ومن هنا تحقق ان هذه البلدان كانت تركية ! حقاً ان هذه من أعاجيب العصر . وهي لا تقل في الغرابة عن كون الدروز أصلهم من الافرنج الصليبيين بدليل انه وجد في الصليبيين من اسمه « درو » .

ومن أهم واجبات العالم ان لا يتهافت على الاخذ باول دليل والحكم بموجبه فقد يضل ضلالاً بعيداً ويندم او يصبح سخرة ومضغة في الافواه . وهذا مما يقع فيه مؤلفو الافرنج كثيراً عندما يتكلمون عن العرب والشرقيين . وسترى انهم خلطوا بين تنوخ وتنوخ من جراء اتحاد الاسم . وتابعهم في ذلك الاستاذ حتي . وظنوا جميعاً ان الامراء التنوخيين أمراء الدروز في لبنان هم من تنوخ القبيلة المؤلفة من ثلاث قبائل التي يقال انها تحالفت

على المقام بمكان بالشـام او على «التنخ» وهو الاقامة بالمكان فجاء من ذلك اسمها « تنوخ » وقد قيل فيها انهـا نزار وأسد وغطفان .. وقيل بل هي الضجاعمة ودوس الذين تنّخوا بالبحرين . وذهب ابو الفـداء الى انهم من جرم واسمه علاف بن زبان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة من العرب القحطانية . ونقل علي ظريف الاعظمي البغدادي في كتابه « تاريخ ملوك الحيرة » ان تنوخ فرع من قضاعة من القحطانيين هاجروا من اليمن مع من هاجر من اليمانيين بعد انفجار سد مأرب مما اسموه سيل العرم وذلك في أوائل القرن الثاني للميلاد ونزلوا البحرين وزعيمهم يومئذ مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . قال : ولما نزل بنو قضاعة بالبحرين نزل معهم الأزد مهاجرين ايضاً وزعيمهم مالك بن فهم بن غانم والتفّت حولهم القبائل اليمانية من بطون نمارة بن لخم وغيرهم من بني قحطان . ووافق خروج هذه القبائل اليمانية خروج قبائل من ولد اسماعيل فرقتهم الحروب فلجأوا الى البحرين وانضموا الى اليمانيين . ولما اجتمعوا بالبحرين اتفق الزعيمان زعيم قضاعة وزعيم الأزد على التعاضد والتنـاصر وتحالفوا على التنوخ اي المقام فسموا تنوخاً من ذلك الحين الى آخر ما قال .

والحاصل ان مؤرخينـا اتفقوا على قصة «التنوخ» هذه مما يطول بنا استقصاء رواياته واتفقوا ايضاً على ان قضاعة من قبـائل تنوخ هاجرت من البحرين الى العراق وذكروا ان مالك بن فهم زعيم قضاعة صار ملكاً على العراق وسميت دولته بدولة آل تنوخ واستمرت نحو ١٣٠ سنة واستفحل شأنها كثيراً في زمن جذيمة بن مالك بن فهم الملقب بجذيمة الوضاح عدو الزباء ابنة عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي ملك الجزيرة ومشارف الشام . وانه بعد ان غدرت الزباء بجذيمة وقتلته اخذاً بثأر ابيها انتقل ملك الحيرة من آل تنوخ الى آل لخم لان جذيمة لم يعقب ولداً فورثه في الملك ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي وكانت لاعقابه دولة من أعظم دول العرب اسمها دولة المناذرة . وعظمت الحيرة في زمانهم كثيراً . وقد انقرضت هذه الدولة بظهور الاسلام وفتح خالد بن الوليد للحيرة . وجملة ملوك الحيرة ٢٤ ملكاً منهم ثلاثة من التنوخيين وستة عشر من اللخميين وخمسة من الدخلاء الذين كان يوليهم الاكاسرة من وقت الى آخر في اثناء غضبهم على اللخميين ومدة الجميع ٤٩٤ سنة .

وقد ثبت انه بعد زوال ملك المناذرة هاجرت أفخاذ من تنوخ ولخم الى الشام واوطنت

الجهات الشمالية من سورية كالمعرة وقنسرين واللاذقية وكان الغالب عليهم النصرانية · ثم اخذوا يدخلون في الاسلام · وجاء في «فتوح البلدان» للبلاذري وهو من أوثق ماألف في فتوحات الاسلام يروي عن ثقات حديثي العهد بالفتح ان اباعبيدة بن الجراح بعد فراغه من ارض اليرموك سار الى حمص فاستقراها · ثم الى قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهل مدينة قنسرين ثم لجأوا الى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم ابوعبيدة على مثل صلح حمص وغلب المسلمون على ارضها وقراها وكان حاضر قنسرين (اي المدينة) لتنوخ منذ اول ماانخفوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل · فدعاهم ابوعبيدة الى الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة · فحدثني بعض ولد يزيد بن حنين الطائي الانطاكي من أشياخهم ان جماعة من اهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة امير المؤمنين المهدي (خلافة المهدي من ١٥٨ الى ١٦٩) فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين » ·

ثم ذكر البلاذري نقلاً عن هشام بن عمار الدمشقي عن يحيى بن حمزة عن ابي عبد العزيز عن عبادة بن نسي عن عبدالرحمن بن غنم ان هذا قال انهم رابطوا مدينة قنسرين مع السمط او قال شرحبيل بن السمط فلما فتحها أصاب فيها غنماً وبقراً فقسمها فيهم وجعل بقيتها في المغنم وكان حاضر طيئ قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين (أظنه يريد أجأ وسلمى جبلي طيئ) من نزل منهم وتفرق باقوهم في البلاد فلما ورد ابوعبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية · ثم اسلموا بعد ذلك بيسير الا من شذ عن جماعتهم · وكان بقرب مدينة حلب (وهذا الذي سبق لنا الكلام عليه) حاضر يدعى حاضر حلب تجمع اصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم ابوعبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك فكانوا مقيمين وأعقابهم به الى بعيد وفاة امير المؤمنين الرشيد (مات الرشيد في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣) ومن تنوخ هؤلاء ابوالعلاء المعري الضرير الفيلسوف الكبير والشاعر الشهير والمفكر المنقطع النظير وهو احمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن احمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن انور بن اسحم بن ارقم بن النعمان بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ·

ومنهم أمراء اللاذقية ممدوحو ابي الطيب المتنبي ٠ ومنهم سراة وأعيان وعلماء وفقهاء لا يأخذهم الاحصاء في المشرق والمغرب وليس هنا موضع هذا البحث ٠

واما الأمراء التنوخيون الذين كانوا في بيروت وغرب لبنان فليسوا منهم٠ وانما اتحاد اسم تنوخ هوالذي غبّى على الاستاذ حتي وعلى من اخذ عنهم من الافرنج حقيقة الامر ٠ فالتنوخيون اللبنانيون ليس لهم نسب الى تنوخ قضاعة ٠ وانما هم بحسب ماينسبهم الناس وماينسبون أنفسهم من لخم لا من تنوخ الذين كانوا نصارى وأسلمت منهم جماعات في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد العباسيين ٠ وصالح بن يحيى المؤرخ احدهم الذي عاش في أواسط القرن التاسع للهجرة يسميهم « أمراء بني الغرب » نسبة الى الغرب المقاطعة التي كانوا يسكنونها من لبنان وهي مقاطعة الارسلانيين ايضاً كانت مقسّمة بين الفريقين ٠ وماقيل لهم تنوخ الا نسبة لاحد اجدادهم تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن لخي بن تميم بن نعمان بن المنذر بن ماء السماء ٠ وهي ماوية بنت عمرو لقبت بماء السماء لجمالها ٠ والمنذر بن ماء السماء المذكور هو ابن امريء القيس بن النعمان الاعور ابن امريء القيس المحرق بن عمرو بن امريء القيس الاول بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم بن عدي بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد ابن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ٠ هكذا كما جاء في تاريخ صالح ابن يحيى ونقله عنه ابن سباط العاليهي ونقل عن هذا الامير حيدر الشهابي والشيخ طنوس الشدياق وغيرهم ٠ واذا كان الاستاذ حتي لا يسلم بهذه النسبة الواردة في تاريخ صالح بن يحيى وغيره من تواريخ لبنان ولا يجدها دليلاً كافياً فليس لدينا دليل آخر يثبت عكسها ولا حجة على ان الامراء التنوخيين اللبنانيين هم من تنوخ قضاعة ٠ والتواريخ لاتبنى على الظنون ولا على الخرص والحدس ٠ وغاية مايقال ان في تاريخ صالح بن يحيى أغلاطاً ٠ وربما لم تكن هذه النسبة كلها ثابتة بالتسلسل الذي هي عليه فإن هذه السلاسل القديمة وان كانت متواترة فإنه قد تواتر الخلاف ايضاً في كثير من رجالها٠ حتى ان النبي عليه الصلاة والسلام لما وصلت سلسلة النسب العدناني الى درجة معينة وقف وقال : كذب النسابون ٠

وسنسوق الى القاريء نسبة ملوك المناذرة كما هي واردة في تاريخ ابي الفداء وفي تاريخ

جرجي زيدان وفي تاريخ علي ظريف الاعظمي وفي تاريخ صالح بن يحيى التنوخي وفي سجل نسبنا الأرسلاني ونقابل بينها لنظهر ما بينها من الفروق التي وجودها لا ينفي صحة النسب من حيث الجملة . فان الاختلاف في بعض التفاصيل مع الاتفاق من حيث المجموع يزيد الثقة بدلاً من ان ينقضها او ينقصها .

كنت أرسلت الى الأخ المؤرخ المحقق سليمان بك ابي عز الدين المقابلة في سلسلة المناذرة بين سجل النسب الأرسلاني وتاريخ صالح بن يحيى التنوخي وتاريخ ملوك الحيرة لعلي ظريف الاعظمي البغدادي . فأرسل هو بالجدول الآتي . فوجدت مفيداً ان انقله :

« ملوك الحيرة اللخميين »

(ابو الفداء)	(جرجي زيدان)	(علي ظريف الاعظمي)
عمرو بن عدي	عمرو بن عدي	عمرو بن عدي
امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس الاول بن عمرو
عمرو بن امريء القيس	عمرو بن امريء القيس	عمرو بن امريء القيس
اوس بن قلام العمليقي	اوس بن قلام	اوس بن قلام
ملك آخر من العماليق	لم يذكره زيدان	ولا الاعظمي
امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو
النعمان الاعور بن امريء القيس	النعمان الاعور بن امريء القيس	النعمان الاعور بن امريء القيس
المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان
الاسود بن المنذر	الاسود بن المنذر	الاسود بن المنذر
المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر
لم يذكر احداً	النعمان بن الاسود	النعمان بن الاسود
علقمة الذميلي (لخمي)	علقمة ابو يعفر	علقمة بن مالك الذميلي
امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان
المنذر بن امريء القيس	المنذر بن امريء القيس	المنذر بن امريء القيس

(ابو الفداء)	(جرجي زيدان)	(علي ظريف الاعظمي)
الحارث ابن عمرو ابن حجر الكندي	الحارث ابن عمرو بن حجر الكندي	الحارث ابن عمرو بن حجر الكندي
عمرو ابن هند	عمرو ابن هند	عمرو ابن هند
قابوس ابن المنذر	قابوس ابن المنذر	قابوس ابن المنذر
لم يذكر	فيشهرت او زيد	فيشهرت او زيد
المنذر ابن المنذر	المنذر ابن المنذر	المنذر ابن المنذر
النعمان ابن المنذر	النعمان ابن المنذر	النعمان ابن المنذر
اياس ابن قبيصة الطائي	اياس ابن قبيصة الطائي	اياس ابن قبيصة الطائي
زادويه ابن ماهان الهمذاني	زادويه ابن ماهان الهمذاني	زاديه او زاودويه ابن ماهان الهمذاني
المنذر ابن النعمان ابن المنذر المغرور	المنذر ابن النعمان المغرور	المنذر ابن النعمان

هذه سلسلة الملوك اللخميين مع ذكر الذين تولوا خلال بعض فترات بامر الاكاسرة من غير ابناء البيت المالك . اما نسب الملوك اللخميين بحسب الاب والجد فينبغي ان يكون هكذا :

المنذر المغرور وهو المنذر الخامس	من سنة	٦٢٨	الى سنة	٦٣٢
ابن النعمان ابي قابوس وهو النعمان الثالث	من سنة	٥٨٥	الى سنة	٦١٣
ابن المنذر الرابع	«	٥٨٢	«	٥٨٥
ابن المنذر الثالث الذي أمه ماء السماء	«	٥١٤	«	٥٦٣
ابن امرئ القيس الثالث	«	٥٠٧	«	٥١٤
ابن النعمان الثاني	«	٥٠٠	«	٥٠٤
ابن الاسود (واما المنذر الثاني فهو اخوه)	«	٤٧٣	«	٤٩٣
ابن المنذر الاول	«	٤٣١	«	٤٧٣
ابن النعمان الاول الاعور	«	٤٠٣	«	٤٣١
ابن امرئ القيس الثاني	«	٣٨٢	«	٤٠٣

ابن عمرو الثاني	من سنة ٣٣٨ الى سنة ٣٧٧	
ابن امرئ القيس الاول المحرق	« ٢٨٨ « ٣٣٨	
ابن عمرو الاول ابن عدي اللخمي	« ٢٦٨ « ٢٨٨	

فاذا نظرنا الى تاريخ صالح بن يحيى التنوخي نجده يذكر نسبهم الذي تقدم لنا سرده على ان جدهم لتنوخ هو ابن قحطان ابن عوف ابن كندة ابن جندب ابن مذحج بن سعد ابن لحي ابن تميم ٠

بن النعمان

بن المنذر الذي أمه ماء السماء

بن امرئ القيس

بن النعمان الاعور

بن امرئ القيس المحرق

بن عمرو

بن امرئ القيس الاول

بن عمرو بن عدي اللخمي

فهكذا يكون نقص من السلسلة المنذر الرابع الذي يأتي قبل المنذر الثالث الذي أمه ماء السماء ٠ ويكون النعمان الأعور هو النعمان الثاني ابن امرئ القيس مع انه بحسب التواريخ الاخرى هو النعمان الاول ٠ و يكون نقص امرؤ القيس الثاني وعمرو الثاني ٠ و يكون نقص ايضاً الاسود ابن المنذر الاول ٠ اي اربعة أجداد ٠

واما في سجل النسب الارسلاني فالترتيب هو هكذا : ارسلان ابن مالك ابن بركات ابن المنذر ابن مسعود ابن عون ٠

بن المنذر المغرور (هو هنا الثالث لا الخامس)

بن النعمان ابي قابوس (هو الثالث)

بن المنذر (هو هنا الثاني)

ابن المنذر الذي أمه ماء السماء (هو هنا الاول)

ابن امرئ القيس (الثالث)

ابن النعمان الاعور (الثاني)
بن امرئ القيس (الثاني)
بن النعمان (الاول)
بن عمرو (الثاني)
بن امرئ القيس (الاول)
بن عمرو بن عدي اللخمي (الاول)

وهذه السلسلة تنقص اثنين عن سلسلة الاعظمي ليس فيها الاسود بن المنذر الاول ولا المنذر الاول ولكنها تجعل النعمان الاعور هو الثاني لا الاول كما هو في سلسلة الاعظمي . فهي من هذه الجهة متفقة مع سلسلة صالح بن يحيى . ولكنها تختلف عنها في ان سلسلة صالح بن يحيى ليس فيها الا منذر واحد وهو خطأ فظيع اذ لو لم يكونوا اكثر من واحد واثنين ماقيل لهم «المناذرة» . واما في سلسلة الاعظمي فالمناذرة خمسة منهم المنذر الثاني اخ للاسود بن المنذر الاول فيكون المناذرة الذين على عمود النسب اربعة . واما في سلسلة السجل الارسلاني فالمناذرة الذين على عمود النسب هم ثلاثة فقط . اما المنذر بن مسعود بن عون فهو ليس من ملوك الحيرة بل من أعقابهم الذين كانوا في الشام . وفي سلسلة صالح بن يحيى لا يوجد الا اثنان ممن اسمه النعمان احدهما ابو قابوس والآخر الاعور . واما في السجل الارسلاني فهم ثلاثة ابو قابوس فالنعمان الثاني الاعور فالنعمان الثالث وهذا كما في سلسلة الاعظمي والسلاسل الاخرى . وفي نسب عائلتنا ان النعمان الاعور تزهد وترك الملك وهو كما في تاريخ ابي الفدا وتاريخ الاعظمي . وفي سلسلة صالح بن يحيى ثلاثة اسمهم امرؤ القيس . وفي سجل نسبنا كذلك . وفي تاريخ ابي الفدا وتاريخ الاعظمي كذلك . وفي الجميع اثنان اسمهما عمرو . وهناك اختلاف في نسب ماء السماء أم المنذر الثالث التي لقبت بذلك لحسنها وجمالها واسمها الاصلي ماوية . ففي تاريخ ابي الفداء انها بنت عوف بن جشم . والاعظمي يقول انها بنت عوف بن جشم بن النمر بن قاسط . وصالح ابن يحيى يقول : « لقبت بذلك لجمالها واسمها ماوية بنت عمرو » ولا يرفع اكثر من ذلك وفي سجل نسبنا : « ماء السماء ماوية بنت ربيعة التغلبي اخت كليب والمهلهل لقبت بذلك لصفاء نسبها او لنقاء لونها » فهنا ايضاً اختلافات في الرواية لكنها لا تبطل النسبة من حيث

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تحقيق الجاحظ (1)

- ٢ -

« التجربة والعيان »

—«»—

بقي من بعد هذا كله أن ننظر في الاصول التي كان يبني عليها الجاحظ في التحقيق فنذكر أنماطاً من تجربته وعيانه ، ونشير الى بعض الخصائص في هذه التجربة وهذا العيان ونذكر معرفة سماعه ، واذا فرغنا من الكلام على استعانته بالحواس تعرضنا للكلام على استعانته بالعقل .

فلنأت على ذكر نماذج من تجاربه فقد جرّب على أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيّات والظليم والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل وجرّب على النبات ، وكان في كل تجربة من تجاربه يذهب مذهباً خاصاً ففي بعضها كان يقطع طائفة من الاعضاء وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمي في تجربته الى معرفة بعض الحيوان واستقصاء صفاته ، وحيناً كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته ، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في اناء من قوارير ليعرف تقاتلها ، وكان يلجأ في بعض الاحايين الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان .

من هذه التجارب قطعه طائفة من اعضاء الحيوان فقد عقد فصلاً في كتاب الحيوان

---

(1) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الآدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

بحث فيه عن نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب قال في مقدمة هذا الفصل[١] :

« اول ذلك طول الدماء وهو بقية النفس وشدة انعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس والطعن الجائف النافذ حتى يكون في ذلك أعجب من الخنزير ومن الكلب ومن الخنفساء وهذه الاشياء التي قد تفردت بطول الدماء ثم شارك الضب الوزغة والحية فان الحية تقطع من ثلث جسمها فتعيش ان سلمت من الذر فجمع الضب الخصلتين جميعاً الاما رأيت في دخال الاذن من هذه الخصلة الواحدة فاني كنت أقطعه بنصفين فيمضي احد نصفيه يمنة والآخر يسرة الا اني لاأعرف مقدار بقائهما بعد ان فاتا بصري » .

انكم لتدركون انه في خلال كلامه على صنف من الحيوان وفي اثناء تجربة من تجاربه قد يتعرض للمقابلة بين الحيوانات ففي هذه التجربة قد أشار الى مشاركة الضب للوزغة وللحية في بعض الخصائص والمقابلة ركن من أركان التحقيق في علم الحيوان .

ومن تجاربه القاؤه على الحيوان ضرباً من السم فقد قال[٢] :

« وقيل لي وقرأت في كتاب الحيوان ان ريح السذّاب يشتد على الحيات فألقيت على الافاعي نور السذاب فما كان عندها الا كسائر البقل فلوقلت لم في ذلك شيئاً لقالوا : الحيات غير الافاعي ، وهذا باطل ، الافاعي اوع من الحيات وكلهم قد عمّ ولم يخص» .

فانظروا كيف لا يصدّق مايقال له ولا يصدّق مايقرؤه في كتاب الحيوان حتى يقرن هذا كله بشيء من التجريب .

وقد كرر ذكر هذه التجربة في موطن آخر فوضّح الأعضاء التي جرّب عليها فقال[٣] :

« والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح وتستريح الى نبات الحرمل واما انا فاني القيت على رأسها وانفها من السذاب ماغمرها فلم أر على ماقالوا دليلاً » .

ومن تجاربه محاولته معرفة بعض الحيوان واستقصاء صفاته فقد قال[٤] :

« وقد رأيت بعض الحيات وكسرتها لأعرف ما فيها فاذا هو بعض مستطيل اكدر

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٦) .
(٢) « « الخامس ص ١١١ .
(٣) « « السادس ص ١٣٣ .
(٤) « « الرابع ص ٥٦ .

اللون أخضر ، وفي بعضه هش ولم فاذا داخله لم أر قيحاً قط ولا صديداً خرج من جرح فاسد الا والذي في بعضها أسمج منه وأقذر » .

ومن تجاربه القبض على الحيوان ليعرف حركته كقوله (١) :

« وفي الافاعي من العجب انها تذبح حتى يفرى منها كل ودج فتبقى كذلك اياماً لا تموت فأمرت الحاوي فقبض على خرزة عنقها فقلت له اقبضها من الخرزة التي تليها قبضاً رفيقاً فما فتح بينها بقدر سم الابرة حتى بردت ميتة » .

وفي هذه التجربة تظهر لنا صفة من محاسن صفات التجربة وهي التكرار فقد قبض الحاوي على خرزة عنق الحية فأمره الجاحظ ان يقبضها من الخرزة التي تليها .

ومن تجاربه محاولته ذبح الحيوان ليفتش جوفه وقانصته فقد كنت ذكرت هذه التجربة في كلامي على اول عهدي بالجاحظ وذلك ان بعضهم شهد من يلقي الحجر في النار فاذا عاد كالجمر قذف به قدام الظليم فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر وقد كان الجاحظ حاول ان يعرف أيستمري الظليم الحديد كما يستمري الحجارة فعزم على ذبح الظليم وتفتيش جوفه وقانصته فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعضهم الى سكين فأحمى ثم القاه اليه فابتلعه فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من مذبحه ثم خر ميتاً فمنع الجاحظ بحرقه من استقصاء ماأراد .

ومن تجاربه دفنه الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته كقوله (٢) :

« وفي الذبان طبع كطبع الجعلان فهو طبع غريب عجيب ولولا ان العيان قهر اهله لكانوا خلقاء ان يدفعوا الخبر عنه ، فان الجعل اذا دفن في الورد مات في العين وفنيت حركاته كلها وعاد جامداً تارزاً ولم يفصل الناظر اليه بينه وبين الجعل الميت ما أقام على تأمله فاذا أعيد الى الروث عادت اليه حركة الحياة من ساعته وجربت انا ذلك في الخنفساء فوجدت الأمر فيها قريباً من صفة الجعل ولم يبلغ ذلك لقرابة بين الخنفساء والجعل » .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٣٩) .
(٢) « « الثالث ص١٠٨ .

وقد كان لا يكتفي بان يجرب بنفسه وانما كان يعاين تجاريب غيره من هذا الشكل قوله (١) :

« ودخلت يوماً على ابن ابي كريمة واذا هو قد اخرج من اجّانة كان فيها ماء من غسالة اوساخ الثياب واذا ذبان كثيرة قد تساقطن فيه من الليل فمتن ، هكذا كان في رأي العين فغبرن كذلك عشيتهن وليلتهن والغد الى انتصاف النهار حتى انتفخن وعفّن واسترخين واذا ابن ابي كريمة قد أعد آجرّة جديدة وفتات آجر جديد واذا هو يأخذ الخمس منهن والست ثم يضعهن على ظهر الآجرة الجديدة و يذر عليهن من دقاق ذلك الآجر الجديد المدقوق بقدر مايغمرها فلا تلبث ان يراها قد تحركت ثم مشت ثم طارت الا انه طيران ضعيف » .

ومرة كان يذوق الحيوان ، من هذا القبيل ماحكاه لنا قال (٢) :

« والشبوط حفظك الله جنس كثير الذكور قليل الاناث فلا يكون أناثه ايضاً يجمعن البيض واذا جمعن فلو جمعت بيض عشر منهن لما كان كشطر بيض بنيّة واحدة فقد رأيت بعض الشبوط وذقته للتعرف فوجدته غيرطائل ولامعجب وكل صياد تسأله فهو ينبئك ان له بيضاً ولكنه اذا كان يكون ضئيلاً قليلاً لان الشبابيط في اصل العدد من أقل السمك وكذلك الجنس منه اذا كانت الانثى منه مذكاراً على انه رب نهر يكون اكثر سمكه الشبوط وذلك قليل كنهر رامهرمز الا في الأودية والانهار و يكره الماء الملح و يطلب الأعذب فالأعذب و يكون في الماء الجاري ولا يكون في الساكن » .

فما ذاق الجاحظ الشبوط الاّ على سبيل التعرّف .

ومرة كان يبعج بطن الحيوان ، من هذا النوع قوله (٣) :

« كنت بعجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة » .

وحيناً كان يلجأ الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص١٠٨) .
(٢) « « « «
(٣) « « الرابع ص ٥٦ .

كاستعماله الكبريت الأصفر والقطران فقد قال في كلامه على النمل[1] :

« ومن أسباب هلاك النمل نبات الاجنحة له وقد قال الشاعر :

واذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

واذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير لانها تصطادها في حال طيرانها وتقتل بان يصب في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر و يدس في أفواهها الشعر وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً » .

اما تجربه على النبات فقد ذكرت لك قصة في كلامي على حياته تتعلق باعتنائه بداره فقد أراد ان يغرس في داره أراكة فكان ينقل المشارات من مكان الى مكان فما أفلح حب الأراك .

وحيناً كان يجمع أضداد الحيوان في اناء من قوارير ليعرف تقاتلها كالجمع بين الجرذ والعقارب فقد قال[2] :

« ويزعمون انهم لم يروا قتالاً قط بين بهيمتين أشد من قتال يكون بين جرذين فاذا ربط احدهما بطرف خيط وشد رجل الآخر بالطرف الآخر فلها عند ذلك من الجلب والجش والعض والتشبث والنقاس مالا يوجد بين شيئين من ذوات العقار والمراش الا ان ذلك ماداما في الرباط فاذا انحلا وانقطع وأى كل واحد منهما عن صاحبه في الارض وهرب كل واحد خلاف جهة الآخر ، وان جعلا في اناء من قوارير أعني الجرذ والعقرب وانما ذكرت القوارير لانها لا تستر عن أعين الناس صنيعهما ولا يستطيعان الخروج لملاسة الحيطان فالفارة عند ذلك تختل العقرب فان قبضت على ابرتها قرضتها وان ضربتها العقرب ضرباً كثيراً فاستنفدت منها ما كان من أسباب حتفها .

والى جنب هذه التجاريب أعمال كان يعملها على سبيل الضحك كقوله[3] :

« واذا أردت ان ترى من الفيل مايضحك وتراه في أسخف حالاته فألق اليه جوزة

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ١١) .

(٢) « « الخامس ص٧٧ .

(٣) « « السابع ص ٥٤ .

فانه يأخذها بطرف خرطومه فاذا دنا منها لنفس فاذا لنفس طارت الجوزة من بين يديه ثم يدنو ثانية ليأخذها فيتنفس أخرى فتبعد فلا يزال ذلك دأبه » .

وهذا يدلنا على مبلغ ميله الى الهزل وعلى سر من أسرار روحه كما يتبين لنا ذلك في كلامنا على تهكمه .

هذه طائفة من تجاريب الجاحظ على الحيوان ، قد نجد فيها صفة من صفات المجرب الحاذق وأريد بهذه الصفة التطلع العلمي فان هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بامور لايكون لها في نظر العامة معنى من المعاني وقد نجد فيها شيئاً من الصفات التي تستلزمها التجربة كالانتباه والتنزه عن كل غرض وانما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا فمن هذه اللوازم تنويع التجربة وبسط آفاقها ونقلها من شكل الى شكل وقلبها وماشابه ذلك فلئن كان الجاحظ يجرّب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً الى الحقائق فما كان ينوّع هذه التجارب او يبسطها او يخرج بها من صورة الى صورة او يقلبها من وجه الى وجه .

ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله على ما أعتقد فما كان يذهب من التجريب على امور خاصة الى استنباط القوانين العامة وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ويصنف ضروب هذا الحيوان والمقابلة والتصنيف ركنان من أركان التحقيق في علم الحيوان وما رأيناه من بعض مقابلاته قد لايكون كثيراً .

على ان الجاحظ ظهر من احد عشر قرناً وليس من العدل ان نكلفه اموراً لم تهتد اليها الفلسفة والعلم الا من زمن غير بعيد .

وسواء أنقصت اصوله التي كان يبني عليها في التحقيق نواقص ام لم ينقصها شيء انه لم يخرج في تجربته من زمرة كبار العلماء . ومايقال في نماذج تجربته قد يقال في أنماط عيانه ولابأس بان أذكر طائفة من هذه المعاينات فقد اخذ عيانه أصنافاً مختلفة من البشر ومن الحيوان ايضاً كالفيل والذباب والسنور والعقارب والفار والحمير .

اما بعض معاينته لامور البشر فقد كان يختص بما يعرض للخصيان من هذا النوع قوله (١) :

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٦٣) .

« ومن العجب انهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء لا يعرض لهم التخنيث وقد رأيت غير واحد من الأعراب مخنثاً متفككاً ومؤنثاً يسيل سيلاً ورأيت عدة مجانين مخنثين ورأيت ذلك في الزنج الأقحاح وقد خبرني من رأى كردياً مخنثاً ولم أر خصيّاً قط مخنثاً ولا سمعت به ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانع منه ولكن كان الامر في ذلك الى ظاهر الرأي ولقد كان ينبغي لهم ان يكون ذلك فيهم عاماً » .

ومنه قوله (١) :

« وقد توجد المرأة ذات لحية وقد رأيت ذلك واكثر ما رأيته في عجائز الدهاقين وكذلك الغبب والشارب وقد رأيت ذلك ايضاً وهي ليست في رأي العين بخنثى بل أنثى تامة الا ان تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى حتى يظهر في غير ذلك المكان وليس يعرض ذلك للخصي » .

ففي هذه المعاينة شيء من المقابلة .

واما بعض معاينته لامور الحيوان فأذكر من هذا النوع كلامه على شيء من أعاجيب الذباب وفيه صورة العالم الطلعة الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، من هذا القوله (٢) :

[وعندنا بالبصرة في الذباب أعجوبة لو كانت بالشامات او بمصر لأدخلوها في باب الطلسم وذلك ان التمر يكون مصبوباً في بيادر التمر في شق البساتين فلا ترى على شيء منها ذبابة لا في الليل ولا في النهار ولا في البرد ولا في أنصاف النهار نعم وتكون هناك المعاصر ولأصحاب المعاصر ظلال ومن شأن الذباب الفرار من الشمس الى الظل وانما تلك المعاصر بين تمرة رطبة ودبس ثم لا تكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر في انتصاف النهار وفي وقت طلب الذباب الكنّ الا دون ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذباب وهذا الشيء يكون موجوداً في جميع الشق الذي فيه البساتين فان تحول شيء من تلك البادية الى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة غشيه من الذباب ما عسى ان لا يكون بارض الهند اكثر منه وليس بين جزيرة نهر دبيس وبين موضع

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص٥٢) .
(٢) « « « الثالث ص١٢٥ .

الذباب الا فيض البصرة ولا بين مايكون من ذلك بنهر اذرب وبين موضع الذبان مما يقابله الا فرسخان وهو ذلك التمر وتلك المعصرة ولا تكون تلك المسافة الا مائة ذراع أو ازيد شيئاً او انقص شيئاً .

وأعجوبة أخرى وهي عندي أعجب من كل شيء صدّرنا به جملة القول في الذباب فمن العجب ان يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والنتوط فانهما اذا كان الليل فان احدهما يتدلى من غصن الشجرة و يضم عليه رجليه و ينكس رأسه ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور والآخر لا يزال يتنقل في زوايا بيته ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه فلا يزال كذلك وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار مما يشبه بالليف فنفشه ثم فتل منه حبلاً ثم عمل منه كهيئة القفة ثم جعله مدلاً بذلك الحبل وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان الا ان ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ثم يتخذ عشه فيه و يأوي اليه مخافة على نفسه] .

ومن هذه المعاينات ماحكاه في بعض كلامه على غمس خراطيم الذباب في جوف لحوم الدواب وخرق جلودها الغلاظ قال[1] :

[وربما رأيت الحمار وكأنه منعر اومصفر فانهم مع ذلك ليجللون حرم و يبرقعونها وما يدعون موضعاً الا ستروه بجهدهم فربما رأيت الحمير وعليها الرجال بايديهم المناخس والمذاب وقد ضربت بانفسها الارض واستسلمت للموت وربما رأيت صاحب الحمير اذا كان أجيراً يضربها بالعصا بكل جهده فلا تنبعث وليس لجلد البقرة والحمير والبعير عنده خطر ولقد رأيت ذباباً سقط على سالفة حمار كان تحتي فضرب باذنيه وحك رأسه بكل جهة انا أتأمله وما يقلع عنه فعمدت بالسوط لانحيه به فنزا عنه ورأيت مع نزوه عنه الدم وقد انفجر كأنه كان يشرب الدم وقد سد المخرج بفيه فلما نحاه طلع] .

ولقد كان يراقب السنانير في داره نفسها فيشهد نقائلها والجراذين فقد قال[2] :

[وانا رأيت سنوراً عندنا ساور جرذاً في بيت الحطب فأفلت الجرذ منه وقد فقأ عين السنور] .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١١٠) .
(٢) « « « الخامس ص ٧٧ .

تحقيق الجاحظ
- ٣ -
« معرفة السماع »

—«×»—

والى جنب هذا المذهب الذي كان يذهبه في التحقيق اي مذهب الاستعانة بالعيان والتجربة مذهب آخر وهو معرفة السماع وقد أشار اليه في مقدمة كتاب الحيوان لما قال : فقد أخذ ، اي كتاب الحيوان ، من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وهذه الطريقة اي طريقة التحقيق بالسماع قد يلجأ اليها اكابر العلماء في عصرنا أمثال « سبنسر » فقد وجدت انه في كلامه على تأثير الحيوان في العمران كان يروي كلام احد التجار على النمل فقد كان الجاحظ يعتمد في تحقيقه في بعض الاحوال على ما يسمعه من أفواه بل متعاطيها الحيوان فكان يسمع اخبار العطارين والجزّارين والبحريين والسماكين والصيادين والملاّحين والحوّائين والأطباء والأكرة وغيرهم من اصدقائه واهل المعرفة والعلم ، وقد تدخل هذه الأخبار في أبواب شتى من أبواب الحيوان مثل تقطيع أصوات بعض الطير او اقتتال العقارب والفار او طعم العقارب او طعم الحيات او سم الأفاعي او أخلاق بعض الكلاب او بيوت الزنابير او خذل الاسد لفريسته او زواج الشفنين او تسافد الذئب والذئبة او بعض أخبار الفيل او اخبار السمك .

ولكن كيف كان الجاحظ ينظر في هذه الاخبار ، أفكان يلتقطها التقاطاً ليس فيه شيء من التمحيص ، أفكان يجمع هذه الاخبار دون ان يعرضها على تمييزه ، او يعمل فكرته فيها وهو المتوثق في تحقيقه المتثبت في تدقيقه ، الذي لا تشفيه الا المعاينة والذي لا يصدق الا ما تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار .

ام كان الجاحظ يعمل الرواية في الذي يتصل به من الأخبار فلا ينقل الا عن رجل لا يرتاب بخبره[1] او عن رجل قاطع الشهادة[2] او عن أمثال هذه الطبقة من الرجال ممن يصدق اخبارهم[3] . او عن أستاذ من الاساتيذ . او عن رجل يثق بعقله و يسكن الى خبره[4] .

ام كان ينقل عن جماعة اذا خالجه الشك في أخبارهم نبّه على غرابة أقوالهم وغثاثة عباراتهم وسماجة مخارج هذه الأقوال والعبارات حتى يجعل القارئ على هدى من أمره . لقد وقفنا على نماذج مختلفة من الأخبار التي كان ينقلها .

فمرة كان يسمع من هذه الاخبار ما لا يهتدي الى الاحاطة باسراره فيسأل عن هذه الاسرار أهل المعرفة حتى ينكشف له الامر .

من هذا النوع ما حكاه لنا لما قال[5] :

وقال ابن الكلبي : قال الشرقي بن القطامي ذات يوم : أرأيتم لو فكّر رجل منكم عمره الأطول في ان يعرف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها الحدقة بمثل المجالس المستوية في الأقدار المتحاجزة بالحيطان السخيفة في المنظر الخفيفة في المحمل المستديرة ، المضمر بعضها ببعض المتقاربة الاجزاء ، وهي البيوت التي نعلم انها بنيت من جوهر واحد وكأنها من ورق أطباق صغار الكاغد المزورة ، قولوا لي : كيف جمعته ومن اي شيء اخذته وهو لا يشبه البناء ولا النسج ولا الخياطة ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً فلم يصر في ايدينا منها الا التعجب والتعجيب فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرة فزعموا انها تلتقطه من زبد الممدود فلا يدري أمن نفس الزبد تأخذ ام من شيء يكون في الزبد والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علّم العنكبوت ذلك النسج » .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٢٥) .
(٢) « « « « ص ٧٠ .
(٣) « « « الثالث ص ١٦٢ .
(٤) « « « السابع ص ٤٢ .
(٥) « « « « ص ١٣ .

فلما رأى الجاحظ ان ابن الكلبي والشرقي لم يفسّرا له كيف جمعت الزنابير بيوتها ومن ايّ شيء اخذتها لم يطمئن فكره ولم يهدأ باله ، فقصد الى مشايخ الاكرة وسألهم عن ذلك وهذه صفة من صفاته الغالبة فانه مجبول على محبة الوصول الى الحقائق يسأل عنها ايّاً كان ممن له اتصال بها .

ومن هذا النوع قوله في طعم الحيات وقد سأل عنه بعض الحوائين ، فقد قال(١) :

[وسألت بعض الحوائين ممن يأكل الافاعي حيّة ونيّة مما دونها فقلت : ما بال الحيات منتنة الجلود والجذوم ، قال : اما الافاعي فانها ليست منتنة لانها لا تأكل الفأرة فأما الحيات عامة فانها تطلب الفأر طلباً شديداً وربما رأيت الحية وما يكون غلظها الا مثل الابهام الكبير ثم اجدها قد ابتلعت الجرذ اغلظ من الذراع ، وانكر نتن الحيات الا من هذا الوجه ، ولم ار الذي قال قولاً مثل قول اعرابي ودخل الامصار فلقي من الجرذان جهداً فوجد بها ودعا عليها فقال : الابيات .... »

ومرة كان يسمع الخبر فيثبته دون ابداء رأي فيه ، كقوله في سم الافاعي(٢) :

[ومن عجيب سم الافاعي ما اخبرني بعض من يخبر بشأن الافاعي قال : كنت بالبادية ورأيت ناقة وفصيلها يرتضع من اخلافها اذ نهشت الناقة على مشافيرها أفعى فبقيت والفة سادرة والفصيل يرتضع فبينما هو يرتضع اذ خرّ ميتاً فكانت مونه قبل موت أمه من العجيب وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب وكان ماصار من فضول سمها في ابن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجباً آخر] .

او قوله في بعض أخبار الفيل (٣) :

« وحدثني صديق لي قال : رأيت الفيالين على ظهر فيل من هذه الفيلة فأقبل صبي يريد السندي الراكب فكلّم الفيل بالهندية فوقف ، ثم كلّمه ، فمدّ يده رافعاً في الهواء حتى ركبها للغلام ثم رفع يده حتى مد السندي يده فأخذ بيد الصبي » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٨٠) .
(٢) « « « « ص ١١١ .
(٣) « « « الرابع ص ٧٠ .

او قوله في اخبار تسافد الذئب والذئبة(١) :

وحدثني احمد بن المثنى قال : خرجت الى صحراء خوخ لجناية جنيتها وخفت الطلب وانا شاب اذ عرض لي ذئب فكنت كلما درت من شق استدار بي فاذا درت له دار من خلفي وانا وسط برية لا اجد معيناً الا بشيء أسند اليه ظهري واصابني الدُوار وايقنت بالهلكة فبينا انا كذلك وقد اصابني ما اصابني وذلك هو الذي اراده الذئب والمدره واذا بذئبة قد عرضت وكان من الصنع وتأخير الاجل ان ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافدها فلما عاينها تركني وقصد نحوها فما تلعثم ان ركبها وقد كنت قرأت في بعض الكتب انها تلتحم فقومت سهمي وهما ينظران اليّ فلما لم ار عندهما نكيراً حقق ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمهما فشيت اليهما بسيفي حتى قتلتهما .

او قوله في بعض اخلاق الكلاب وعاداتها (٢) :

او قوله في السنانير(٣) :

وزعم بعض الاطباء ان السنور انما يدفن خرأه ثم يعود الى موضعه فيشمه فان كان يجد من ريحه بعدُ شيئاً زاد عليه من التراب لان الفأرة لطيفة الحس جيدة الشم فان وجدت تلك الريح عرفتها فأمعنت في الهرب فلذلك يصنع السنور ما يصنع » .

او قوله في طعم العقارب(٤) :

« وقد زعم ناس ممن يأكلون العقارب مشوية ونية انها كالفراخ السمان » .

وحيناً كان يسمع الأخبار فيرتاب بها ارتياباً شديداً وخاصة اخبار البحر بين فما كان يغفل عن التنديد بهم في كل فرصة يصيبها .

من هذا النحو قوله في بعض كلامه على كلام السمك (٥) :

« ولم يجهل لما يسكن الملح والعذوبة والانهار والاودية والمناقع والمياه الجارية من

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص٧٨) .
(٢) « « « ص ٤٥ .
(٣) « « « الخامس ص٧٨ .
(٤) « « « الرابع ص١٥ .
(٥) « « « السادس ص ٦ .

السمك ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك باباً مجرداً لاني لم اجد في اكثره شعراً يجمع الشاهد و يوثق منه يحسن الوصف وينشطه بما فيه من غير ذلك للقراءة ولم يكن الشاهد عليه الا اخبار البحريين وهم قوم لا يعدون القول في باب العمل و كلما كان الخبر أغرب كانوا به اشد عجباً ، مع عبارة غثة ومخارج سمجة ، وفيه عيب آخر وهو ان معه من الطول والكثرة ما لا تحتملونه ولو غذاكم بجميعه مخارق وضرب عليه زلزل وزمر عليه برصوماً فلذلك لم اتعرض له » .

او قوله في موطن آخر [(1)] :

« وقد روى لنا غير واحد من اصحاب الأخبار ان اياس بن معاوية زعم ان الشبوط كالبغل وان أمها برية واباها بحري وان من الدليل على ذلك ان الناس لم يجدوا في بطن شبوطة قط بيضاً وانا أخبرك اني قد وجدته فيه مراراً ولكني وجدتها اصغر جثة وابعد من الطيب ولم اجده عاماً كما اجده في بطون جميع السمك .

فهذا قول ابي واثلة اياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي وصاحب الازكان والموفق من كور بن علقمة وداهية مضر في زمانه ومفخر من مفاخر العرب فكيف اسكن بعد هذا الى اخبار البحريين واحاديث المساكين والي مافي كتاب رجل لعله ان لو وجد هذا المترجم ان يقيه على المصطبة و يبرأ الى الناس من كذبه عليه ومن افساد معانيه بسوء ترجمته » .

واذا كانت اخبار البحريين مما يتقبله بعض الناس وهو لم يوقن به كل الايقان نبه عليه كقوله [(2)] :

وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحي الموصل وانا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم و يتقبله جميعهم وزعموا ان الاسد ربما جاء الى قلس السفينة فيتشبث به ليلاً والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون ان القلس قد التف على صخرة او تعلق بجذم شجرة ومن عادتهم ان يبعثوا اول المدادين ليحله فاذا رجع اليه الملاح ابعده تمدد الاسد بالارض ولزق بها وغمض عينيه كيلا يبصر ويبصرها بالليل فاذا قرب منه وثب عليه فخطفه فلا يكون للملاحين هم الا القاء انفسهم في الماء وعبورهم اليه وربما اكله الا مابقي منه وربما

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ٦) .

(٢) « « « الثاني ص ٤٥ .

جزء في يسته الى عريسه وعرينه والى أجرائه واشباله وان ذلك على اميال » .

او اذا كان البحري مقتصداً في القول سديد الرأي قليل الكلفة اخذ عنه الخبر واشار الى صفاته حتى ينفي الشبهة عنه كما قال في بعض المواطن [١] :

واخبرني رجل من البحر بين لم ار فيهم الصد ولا اصدَ ولا اقلَ تكلفاً منه ، قال : لم اجدهم يشكون ان فيالاً ضرب فيلاً فأوجعه فألحّ عليه ، وانهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا لانئم حيث ينسالك فانه من الحيوان الذي يحقد ويطالب ولما اراد السائس القائلة شده الى اصل شجرة واحكم وثاقه ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ولذلك السائس جمة فتناول الفيل بخرطومه غصناً كان مطروحاً فوطئ على طرفه حتى تشعث ثم اخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرف على جمة الهندي ثم لواها بخرطومه فلما ظن انها تشبكت به وانعقدت جذب الهندي فاذا هو تحت رجليه فخبطه خبطة كانت فيها نفسه ، فان كان الحديث حقاً في اصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة وان كان باطلاً فانهم لم يخلوا الفيل هذه الخلة دون غيره من الدواب الا وفيه عندهم ما يحتمل عليه ويليق به » .

على انه كان ينقل عن فريق منهم من غير ان يتبين في كلامه الشك ، من هذا الشكل قوله [٢] :

« ويزعم البحريون ان طائرين يكونان ببلاد الصقالبة ، احدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهم وقبل ان يمكن البحر من نفسه لخروجهم ومتاجرهم فيقول الطائر : قرب أمد ، فيعلمون بذلك ان الوقت قد دنا وان الامكان قد قرب ، قالوا ويجيء به طائر آخر وشكل آخر فيقول : سماروا وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم فيسمون هذين الجنسين من الطير : قرب وسماروا ، كأنهم سموهما بقولها وتقطيع أصواتها كما سمت العرب ضرباً من الطير القطا ، لان القطا كذلك تصيح وتقطع أصواتها : قطا ، كما سموا الببغا بتقطيع الصوت الذي ظهر منه ، فيزعم اهل البحر ان ذينك الطائرين لا يطير احدهما ابداً الا في اناث وان الآخر لا يطير ابداً الا في ذكورة » .

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٧١) .
(٢) « « « الثالث ص ١٦٢ .

وربما نقل عن بعضهم كلاماً جعله حجة يحاج بهـا ارسطاطاليس في بعض رده عليه فانه لما قال [١] :

« وقـد قلت لرجل من البحريين : زعم ارسطاطاليس ان السمكة لاتبتلع الطعم ابداً الا ومعه شيء من ماء مع سعة المدخل وشره النفس فكان من جوابه ان قال لي : مايعلم هذا الا من كان سمكة او اخبرته به سمكة او حدثه بذلك الحواريون اصحاب عيسى ، فانهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا البحري صـاحب كلام وهو يتكلف معرفة العلل وهذا كله جوابه ولكني لم اقنع بذكر بعض ماوجدته في الأشعار والأخبار اذا كان مشهوراً عند من ينزل الاسياف وشطوط الاودية والانهار ويعرفه السماكون ويقر به الأطباء بقدر ما أمكن من القول » .

جعل قول البحري حجة له في رده على ارسطاطاليس [٢] :

« واما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء لان الصوت لا يجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيـان ، وانما زعمه بان السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأي عيان دل على هذا وهذا عسير » .

والخلاصة كان ينقل عن ثقة وهذا الثقة قد يكون أستاذاً كما في قوله [٣] :

ودخلت انا مرة وحمدان الصباح على عبيد الشونيزي فاذا عنده برنية زجاج فيهـا عشرون عقرباً وعشرون فاراً فاذا هي تقتتل فخيل لي ان تلك الفأر قد اعتراها ورم من شدة وقع اللسع ورأيت العقارب قد كات عنها وتاركتها ولم أر الا هذا المقدار الذي وصفت ، وحدثنا عنها عبيد باعاجيب ولوكان عبيد أستاذاً لخبرت عنه ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد » .

هذه جملة القول في معرفة سماعه ومنها يتبين لكم ان الجاحظ لم يخلُ من التوثق في أسقط اخباره فاذا وجد مجال الشك ذا سعة عمد الى الشك لان الرجل الذي يقول في

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ٦) .
(٢) « « « الخامس ص ١٥٦ .
(٣) « « « « « ص ٧٧ .

كلامه على الأخبار وعلى المولعين بها [1] :

« ان الناس موكلون بحكاية كل عجيب ومبشرون للاخبار عن كل عظيم وليسوا للحسن احكى منهم للقبيح ولالما ينفع أحكى منهم لما يضر وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم » .

والذي يقول في موطن آخر [2] :

« ان الخبر قد يكون اصله ضعيفاً ثم يعود قوياً و يكون اصله قوياً فيعود ضعيفاً للذي يعتريه من الاسباب ويحل به من الاعراض من لدن مخرجه وفصوله الى ان يبلغ موته ومنتهى اجله وغاية التدبير فيه والمصلحة عليه فلما كان هذا مخوفاً وغير مأمون على التقادم منه وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة وعلى غاية كل مدة امارة ليعيد قوة الخبر ويجدد ما اندرس بالدروس من أنباء المرسلين عليهم الصلاة والسلام اجمعين » .

ان الذي يقول هذا القول وأضرابه لعارف بما يدخل الأخبار عادةً من نقص الناقصين او زيادة الزائدين على حسب الاهواء او على قدر متانة الحفظ وضعفه او على قياس الفتنة بالحقيقة والولع بالخيال فلهذا لم يجد الجاحظ له بداً من التثبت في تصديق بعض الاخبار ومن الشك في طائفة منها .

دمشق : في ٢٨ آذار سنة ١٩٣١

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ٦٢) .

(٢) « « « « « « ص ٥٦ .

الشاعر الصنوبري

—«»—

قلما أنظر في كتاب موضوعه الشعر والادب العربي الا و يبرز لي في اثناء سطوره شيء من الشعر الرائع المنسوب الى الصنوبري اذ يقول مورده (قال الصنوبري) او (وللصنوبري) مقتصراً على هذه الكلمة غير مصرح باسمه ونسبه وشيء من سيرته . وقد لفت نظري كثرة ورود هذه الكلمة الى عظمة الصنوبري وانبهني الى علو كعبه بين شعراء عصره وصوره لي في مخيلتي شاعراً مفلقاً واديباً كبيراً جديراً باز ماطة الحجاب عن اسمه ووطنه وشيء من سيرته وعن العصر الذي وجد فيه وتاريخ وفاته خصوصاً وقد رأيت في عنوان بعض ما ينسب اليه من الاشعار كلمة (الحلبي) فقد ضاعفت هذه الكلمة شوقي الى الوقوف على حقيقته والاشراف على شيء من سيرته حرصاً على الفخر الذي يحرزه بلدي من هذه الناحية وتعصباً لرجل يهمل فيبقى شعره مبعثراً في شتى الكتب ومطاوي صحف التاريخ ، فجمعت نبذة من أخباره وبحثت عن هذه المقاصد وجلت في كتب الادب جولة تتبع واستقصاء حتى تيسر لي شيء مما قصدت واردت فجمعت من أشعاره زهاء اربعمائة بيت ولم ازل دائباً في البحث عنها واثبتُ في ترجمته مقدمة مختصرة وكان اول سفر عثرت فيه على كلمات في هذا الشاعر — مجموعاً قديماً مخطوطاً قال فيه صاحبه :

« احمد ابو بكر بن محمد بن الحسين الضبي الحلبي الشاعر المعروف بالصنوبري تكلم جده بين يدي المأمون فأعجبه شكله فقال انك لصنوبري الشكل فلزمه هذا اللقب ، وهو ممن يضرب بالمثل بروضياته توفي سنة ٣٣٤ » ثم قرأت في كتاب فوات الوفيات للكتبي ما صورته :

« احمد بن محمد الضبي الحلبي الصنوبري » ثم اورد نبذة من اشعاره مقتصراً على ذلك دون ان يتعرض لشيء من اخباره وتاريخ وفاته ، بعد هذا قرأت في كتاب معجم البلدان لياقوت عند الكلام على حلب ما نسخته : وقد اكثر الشعراء من ذكرها (حلب) ووصفها والحنين اليها وانا اقنع من ذلك بقصيدة لابي بكر محمد بن الحسن بن مروان الصنوبري وقد اجاد بها ووصف متنزهاتها وقراها القريبة منها ثم اورد القصيدة التي اولها :

احبس العيس أحبساها　　وسلا الدار سلاها

وهي قصيدة طويلة تعد ١٠٣ ابيات .

ثم رأيت في تاريخ الشام الكبير لابن عساكر ما نصه :

« احمد بن محمد بن الحسين بن مرار الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي الشاعر المحسن اكثر اشعاره في وصف الرياض والأنوار قدم دمشق وله اشعار في وصفها ووصف متنزهاتها ، قال عبدالله الصفري سألت الصنوبري عن السبب الذي من اجله نسب جده الى الصنوبر حتى صار معروفاً به فقال لي كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت المأمون فجرت له بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدة مزاجه فقال له انك لصنوبري الشكل يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج اه .

وقرأت في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ماخلاصته : ان الصنوبري كان يسمى حبيباً الاصغر لجودة شعره ، قال ولقيه المتنبي بالمصيصة او غيرها فقال له يهزأ به ، انت صاحب بغادين يريد قصيدته :

شربنا في بغادين[1]　　على تلك الميادين

لما فيها من المجون والخلاعة فقال له الصنوبري وانت صاحب الطرطبة يريد قصيدته :

---

(١) بغادين بغين معجمة ودال مهملة — غلط صوابه بعاذين بعين مهملة وذال معجمة — علم على ناحية من بساتين حلب وكانت قبلاً علماً على قرية في موضع هذه الناحية قال فيها ابوالعباس الصفري من شعراء سيف الدولة :

يا لأيامنا بمرج بعاذين　　وقد اضحك الربا نواره
وكأن الشقيق والريح تنفي　　الطل عنه جمر يطير شراره
اذكرني عناق من بان عني　　شخصه باعتناقها اشجاره

ماانصف القوم ضبه وامه الطرطبـة

لما فيها من اللين والركاكة اه ٠

وقرأت في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي ماصورته :

« وحكى ابن جني قال حدثني ابو علي الحسين بن احمد الصنوبري قال خرجت من حلب أريد سيف الدولة فلما برزت من السور اذ انا بفارس ملثم قد اهوى نحوي برمح طويل الى صدري فكدت اطرح بنفسي عن دابتي فلما قرب مني ثنى السنان وحدثت به فاذا المتنبي وانشدني :

نثرنا[1] رؤوساً بالاحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال كيف ترى هذا القول أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك قد قتلتني ٠ قال الثعالبي : قال ابن جني فحكيت انا هذه الحكاية بمدينة السلام لابي الطيب فعرفها وضحك لها وذكر اباعلي من التقريظ والثناء بمايقال في مثله ٠ قال وانشدت اباعلي ابلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها :

« واحر قلباه ممن قلبه شبم » الخ فلما وصلت الى قوله :

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

اعجبه جداً ولم يزل يستعيده حتى حفظه اه ٠

الاختلاف في ترجمة الصنوبري — اذا امعنا النظر في ترجمة الصنوبري التي اتى بها كل واحد من صاحب المجموع المخطوط وفوات الوفيات ومعجم البلدان وابن عساكر وابن جني — فاننا لاول وهلة يظهر لنا اختلاف عظيم في اسم الصنوبري واسم ابيه وجده وجدابيه ووصفه مرة بالصبغي وأخرى بالضبي وتسمية ياقوت لجده بمروان وتسمية ابن عساكر لجد ابيه بمرار وتفرد ابن جني باسمه واسم ابيه دون جميع من ذكرناهم ممن ترجموا له :

(١) هذا البيت من جملة ابيات من قصيدة للمتنبي اولها :

« على قدر اهل العزم تأتي العزائم » الخ ٠

واصل هذا البيت في هذه القصيدة هكذا :

نثرتهم فوق الأحيدب كله كما نثرت فوق العروس الدراهم

اما انا فانبه باسمه واسم ابيه ونسبه — الا كثر بذالتي انا ألف من صاحب المجموع المخطوط وصاحب الفوات وابن عساكر فأقول هو « احمد بن محمد الصبني الصنوبري الحلبي » وان كلمة الضبي الواردة فيما ترجم له ابن عساكر — محرفة عن الصبني ، اختار هذا في ترجمته واقتصر عليه واوكل تصحيح اسم جده وجدابيه الى رائدي التحقيق والبحث عنهما في معاجم الادباء وكتب التاريخ .

تاريخ وفاته — اما تاريخ وفاته فلم أر من صرح به سوى صاحب المجموع فزعم انها كانت في سنة ٣٣٤ وهذا بلا ريب تاريخ مغلوط اذا سلمنا بصحة الحكاية التي اوردها صاحب اليتيمة عن ابن جني فانها كادت تفيدنا صراحة ان الصنوبري كان في سنة ٣٤٦ حياً يرزق ، نستفيد هذا من قول ابن جني : وانشدت اباعلي ليلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها : واحر قلباه الخ فان هذه القصيدة آخر مانظمه ابو الطيب في حلب اي انه نظمها حين فارق سيف الدولة وذلك في السنة المذكورة . وعلى كل حال فان تاريخ وفاة الصنوبري لايخلو من إبهام فهو يحتاج الى تدقيق عميق .

عدم التنويه في شعر الصنوبري — رأيي في الصنوبري من هذه الجهة انه كان عالي النفس ضنيناً بماء محياه عن ان يبذله في طلب جوائز ممدوح صائناً لسانه عن قول الهجر والبذاء في هجاء من ناوأه او عاداه ، يقول الشعر تأدباً لا تكسباً مقتصراً فيا كثره على وصف الرياض والأزهار كعندليب يقيل في ظلالها ويتنقل في افيائها ويغرد في انوارها يشدو بذكر المحبوب ويلهو بالمذيذ المشروب قانعاً من دنياه بعيش مقرون بالعز وشرف النفس معتمداً على قول القائل « من قر عيناً بعيشه نفعه » .

وهنا استحسن ايراد نبذة من اشعاره التي تسنى لي جمعها ليستدل الناظر فيهـا على منزلته في الشعر وعلو كعبه في البديع وتفننه بانواع التشبيه التي كاد يضاهي بها براعة ابن المعتز الذي انفرد بهذه الصناعة ، فأقول :

قال الصنوبري كان اول شعر قلته وارتضيته قولي .

ما حل بي منك وانت منصرفي ما كنت الا وديعة التلف

كم قال لي الشوق قف لنلثمه فقال خوف الرقيب لا نقف

فكان قلبي في زي منعطف وكان جسمي في زي منصرف

كان للصنوبري ابن مسترضع ففطم فدخل الصنوبري يوماً داره والصبي يبكي فقال مالابني ؟ قالوا : فطم فتقدم الى المهد وكتب عليه ارتجالاً :

منعوه احب شيء اليه من جميع الورى ومن والديه
منعوه غذاه وقد كان مباحاً له وبين يديه
عجباً منه ذا على صغر السن هدي فاهتدى الفراق اليه

وله :

نار راح ونار خد ونار لحشا الصب بينهن استعار
ما ابالي ما كان ذا الصيف عندي كيف كان الشتاء والامطار

وله :

ما قضى في الربيع حق المسرا ت مضيع زمانه في الخريف
نحن منه على تلقي شتاء يوجب القصف او وداع مصيف
في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء منه خوفاً اذا ما لمسته يد النسيم الضعيف

وقال :

اني طربت الى زيتونة بطياس[1] بالصالحية بين الورد والآس
من ينس عهدهما يوماً فلست له وان تطاولت الايام بالناسي
ياموطناً كان من خير المواطن لي لما خلوت به ما بين جلاسي
وقائل لي أفق يوماً فقلت له من سكرة الحب ام من سكرة الكاس
لا اشرب الكأس الا من يدي رشإ مهفهف كقضيب البان مياس
مورد في الخد في قمص موردة له من الآس اكليل على الراس
قل للذي لام فيه هل ترى خلقاً يا املح الروض بل يا املح الناس

(١) بطياس قرية في باب حلب بين النيرب و بابلى وكانت قصراً لعلي بن عبد الملك ابن صالح امير حلب وقد خربت القرية والقصر وصار في موضعها بستان فستق يعرف الآن بكرم القصر .

وله :

سقى حلباً سافك دمعه ... بطيء الرقوء اذا ما سفك
ميادينه بسطون الرياض ... وساحاته بينهن البرك
ترى الريح تنسج من مائه ... دروعاً مضاعفة او شبك
كأن الزجاج عليها اذا ... ب وماء اللجين بها قد سبك
هي الجو من رقة غير ان ... مكان الطيور يطير السمك
وقد نظم الزهر نظم النجوم ... فمفترق النظم او مشتبك
كما درج الماء مر الصبا ... ودبج وجه السماء الحبك
بساتين اعلام قمص القيا ... ن ونقش عصائبها والتكك

وقال في دمشق وبعض متنزهاتها :

أمر بدير مران[1] فأحيا ... فأجعل بيت لهوي بيت لهيا
وتبرد غلتي برداً فسقيا ... لأيامي على بردا وسقيا
لفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكهن ابهى الـ ... ـمناظر في مناظرنا واهيا
فمن تفاحة لم تعد خداً ... ومن رمانة لم تعد ثديا
ونعم الدار دار يا[2] فثيها ... صفا لي العيش حتى صار ريا
ولي في باب جيرون ظباء ... أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها ... فلست أريد غير دمشق دنيا

وله يفضل فصل الربيع على بقية الفصول :

ان كان في الصيف ريحان وفاكهة ... فالارض مستوقد والجو تنور
وان يكن في الخريف النخل مخترفاً ... فالارض محسورة والجو مأسور

---

(١) دير مران كان بالقرب من دمشق فوق تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض جنة وبناؤه بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملون وكان ديراً كبيراً وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به اه معجم البلدان .

(٢) داريا من أمهات قرى غوطة دمشق ومنها يخرج العنب الزيني المنقطع النظير.

وان يكن في الشتاء الغيث متصلاً ... فالارض عريانة والجو مقرور
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا ... جاء الربيع اتاك النور والنور
فالارض ياقوتة والجو لؤلؤة ... والنبت فيروزج والماء بلور
ما يعدم النبت كأساً من سحائبه ... فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه لنا الورد منضود مورده ... بين المجالس والمشور منثور
ونرجس ساحر الابصار ليس لما ... كانت له من عمى الابصار مسحور
هـذا البنفسج هذا الياسمين وذا النـ ... ـسرين مذ قربا فالحسن مشهور
تظل تنثر فيه السحب لؤلؤها ... فالارض ضاحكة والطير مسرور
حيث التفت قمري وفاختة ... يغنيان وشفنين وزرزور
اذا الهزارات فيه صوتا فهما ... بحسن صوتهما عود وطنبور
تطيب فيه الصحاري للمقيم بهـا ... كما تطيب له في غيرها الدور
من شم ريح تحيات الربيع يقل ... لاالمسك مسك ولا الكافور كافور

وله :

ولم انس(١) ما عاينته من جماله ... وقد زرت في بعض الليالي مصلاه
ويقرأ في المحراب والناس خلفه ... ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
فقلت تأمل ما تقول فانه ... فعالك يا من تقتل الناس عيناه

وله في المواعيد الكاذبة :

قال لنا نخلة وقد طلعت ... نخلتنا فاصطبر لطلعتهـا
حتى اذا صار طلعها بلحاً ... قال توقع بلوغ بسرتها
حتى اذا بسرها غدا رطباً ... قال اصطبرنها لتمرتهـا
امدرعن نخلة كنخلة عرقو ... ب وعن قصة كقصتها

وله :

(١) هذه الابيات الثلاثة نسبها صاحب معاهد التنصيص الى ابي نواس وقد رأيتها في عدة كتب منسوبة الى الصنوبري ·

ولقبوه [1] بحب الظرف ليتهم ضاعوا كما ضاع وصف ذلك اللقب

ولنكتف هنا بهذا القدر من اشعار الصنوبري راجين من محبي الادب الحر يصين على إحياء ذكر هذا الشاعر ان يمدوا لنا يد المساعدة و يكتبوا الينا بما يظفرون به مما ينسب اليه لنضيفه الى ماجمعناه وما نجمعه بعد ونعده للطبع ، وهنا نذكر اسماء الكتب التي استقصيناها للبحث عن آثار الصنوبري كيلا يتكبد غيري مشقة استقصاءها مرة ثانية فأقول هي : (العمدة لابن رشيق) (معاهد التنصيص) (التبيان شرح ديوان المتنبي) (الشريشي شرح مقامات الحريري) (خزانة الادب للحموي) (نفحات الازهار للنابلسي) (فوات الوفيات للكتبي) (معجم البلدان لياقوت) (تاريخ الشام الكبير لابن عساكر) (صبح الاعشى للقلقشندي) (نهاية الارب في فنون العرب) (زهر الآداب للقيرواني) (نزهة الانام في محاسن الشام) (مواسم الادب) انتهت .

(حلب) كامل الغزي

---

(١) حب الظرف عند اهل العراق هو الجرب . (المجمع) كذا جاءنا هذا البيت وهو غير مستقيم الوزن فلعل صوابه (ضاعوا كما ضاع منهم ذلك اللقب) .

الغلاظة في اللغة

—*—

غلظ الشيء ـُ غِلظةً و غِلَظاً وغلاظةً : خلاف دقّ ورقّ وكذلك استغلظ جلدُه واستبل الشيء ٠

وعَرِدَ ـُ عرداً ، وشَئِزَ المكان يشأز شأزاً وشؤوزاً ، وحَزُنت الارض حزونة ، وجَفا الثوب يجفو جفاء ، واحزوزم المكان ، وتعقّد العسل والربّ ونحوهما ، واستكثف الشيء ، وكثب الرحل ـُ كثوباً ، وضمز عليه البلد او القبرُ ، وضمزر ٠

وشَنْصر الشيء : غلظ وصار شديداً ومثله احبجرّ وتكأّد البعير والكندي ، وعَرَز الشيء ـِ عرزاً ، واستعلب اللحمُ وحدُر الوتر حدورة ، وانعقد العسل والرب وتعقّد ، وقد اعلوّد الشيء اي غلظ واشتد ورزن ٠

(اليد) ـ وشَثِلت اصابعُه ـَ شثلاً : غلظت ـ ويدُه ورجلُه : غلظ لحمها وتراكب وكذلك شثُلت شثولة ، وشثِنت كفُّه تشثَنُ شثناً وشثُنت شثونة : غلظت وخشنت ومثله شنِثت ـَ شنثاً ، وعست يده عسواً : غلظت من العمل ، وكذا عظبت يده عظباً وعظوباً ، وكنبت كنباً ، وقد مجلت يده ـُ مجلاً ومجولاً : ومجِلت ـَ مجَلاً : نفطت من العمل فمرنت ومثله أمجلت وثفنت ـَ ثفناً واذا غلظ ظهرها من برد الشتاء فتشقق قيل شرثت يده ـَ شرثاً وانشرثت ٠

(خشن) ـُ وعبن جسمه ـُ عبناً : غلظ وخشن تقول في جسمه عَبْن اي غلظ وخشونة ، وكثّ الشيء ـِ كثّاً : غلظ وثخن ، وجشب الطعام ـُ : غلظ وخشن ومثله جشب جشباً ، وحثر الشيء : غلظ وخشن وضخم ٠

واستغلظ الشيء : صار غليظاً ومثله حزُن المكان حزونة اي صار حزناً جيء به

على بناء ضده وهو قولهم مكان سهل وقد سهُل سُهولة ، وأحزن بنا المنزلُ .

وضَرُك الرجل ـُ ضراكة : كان ضريكاً وضُراكاً والضُراك الرجل الغليظ الشديد عصب الخلق وعَثِل الشيء عثَلاً : كان عَثِلاً اي غليظاً ضخماً ، وجزُل الحطبُ وغيره جزالة : عظم وغلظ فهو جَزْل ، وأنَك الشيء ـُ أنْكاً : عظم وغلظ ، وتروّت مفاصله : اعتدلت وغلظت ، وجَمِم الجَمْاً : كان في شدته غلظ ، وعجِرت الناقة عجَراً : غلظ عجب ذنبها ، وعطَن جسمه : غلظ جسمه ، وتلكّد الرجل : غلظ لحمه ، وتبلخص زيد : غلظ لحمه وكثر . وجَبَل ـُ : صار كالجبل في الغلاظة ، وعَكت الابل تعكو عَكْواً : غلظت وسمنت ، وجفا القلم : غلظ قطه .

واكنب الشيء ، غلظ ومثله تاز توْزاً وتيْزاً (واوي يائي) واستجب السقاء ، وجبل الشيء ـَ جبَلاً فهو جبْل وجبِل . وجنّش ـُ وخنزر الرجل وادلعظى وعبُلت المرأة . وقد ثخُن الشيء ـُ ثخونة وثخانة وثخَناً اذا غلظ وصلب فهو ثخين ومثله ثخَن ـُ وحدَر جلده ـُ حدْراً وحدوراً ، غلظ وانتفخ وورم قال عمر بن ابي ربيعة :

لو دبّ ذرّ فوق ضاحي جلدها لأبانَ من آثارهن حدورا

وحدُر الغلام حدارة وحدَرت حدْراً كان حادراً اي سميناً غليظاً . وخثر اللبن ـَ خثراً وخثُر ـُ خثارة وخثُورة ، غلظ . وشَثِن البعيرُ ، غلظت مشافره من رعي الشوك وخثِرت عينه ، غلظت اجفانها من رمص او رمد . وأرثأ اللبن وارثأ ، خثر ومثله أرضّت الرثيئة وهي اللبن الحامض يخلط بالحلو .

(التغليظ) — وغلّظ الشيء ، جعله غليظاً ومثله اثفن العمل يده . واعقدت العسل والرُبّ وعقّدته اي اغلظته حتى غلظ . وأنبل قداحه ، جعلها جافية غليظة .

واستغلظ فلان الشيء ، رآه غليظاً ـ والثوب ترك شراءه لغلظه . واغلظ الثوبَ ، وجده غليظاً وقيل اشتراه كذلك ـ والمسافرُ ، نزل بالغلظ . وأعشّ الرجل ، وقع في ارض عشّة اي غليظة . واستجفن الفراشَ وغيره ، عدّه جافياً اي غليظاً او خشناً .

* * *

(الغِلاظ) — وهي الغلاظة والغِلاظة والغِلاظُ . قال احمد شوقي :

ان الشجاعة في الرجال غلاظة ما لم يزنها رأفة وسخاء

وقال خليل مطران في عنترة العبسي :

وليته في نصابه وغلاظته   في ملعب الموت بين السمر والخذم

وكذلك الخنزرة والشَّمرْز والشَّمرْص والشنزرة (الغلظ والخشونة) والشمرُّت والشُّمزُونة (الغلظ من الارض) والعُكْوة والكبْدة كقوله في وصف جمل :

ذا كبنة يملأ التصدير محزمه   كأنه حين يلقى رحله فدن

والجرز تقول انه لذو جرز . والوكاعة (الغلظ والشدة) والعُذف ، الغلظ والصلابة . والجَهْن ، غلظ الوجه وفي التاج غلظ الوجه والجسم . والكَشْء ، غلظ في جلد اليد والقبض . والحَدْر ، اجتماع الخلق مع الغلظ .

وتقول هذا رجل فيه غِلاظة اي فظاظة وقساوة ، وفيه غَلْظة اي فظاظة . وفيه عاكدة وجسارة في خلقه اي غلظ . وبه شِبْم اي غلظ في الساقين . وفي خلقه ضَمْرزة وضُمارز اي سوء وغلظ . وكتال وكَتَل اي غلظ جسم . وكنب وهو غلظ يعلو الرجل والخف والحافر واليد او خاص بهما اذا غلظت من العمل . وبلمثة اي غلظ جسم مع رخاوة . وانه لذو كندبرة اي غلظ وضخامة . وكيّح اي خشونة وغلظ . وتبغيل اي غلظ جسم وصلابة يقال بغّل الجسم اذا غلظ وصلب . ويقال انه لشديد الكدنة وشديد الجبلة اذا كان غليظاً . وبه خشّمة اي قصر في انفه وغلظ وتفرطح . وجفاء اي غلظ في العشرة ومثل الجفْوة . وعنجهية اي جفوة في خشونة مطعمه واموره . وعجْهرة أي جفاء وغلظ خلق . وجحش اي جفاء وغلظ ومثله العَيْدَهة والعَيْدَهية .

« للبحث صلة »

(النبك) :   سالم خليل رزق

—(*·*)—

آراء وافكار

عجز اللغات

وحين أصف (العجز) للغات لا أستثني واحدة من جميع اللغى المعروفة في العالم ، نعم كلها عاجز ، وان كان هذا العجز يتفاوت بينها بقدر كبير او صغير ، ولقد يخيل اليك وانت تطرح نظرك على ألوان المعاجم والموسوعات إن أكثر اللغات غنى مسري لم يدع غرضاً الا احصاه ، ولا معنى الا اداه ، ولا جليلاً الا شكله ، ولا دقيقاً الا اصابه ، وخاصة لغة العرب ، فانك تجد فيها من البذخ وعظم الافضال ما يمتد الى شدة الافراط وغاية الاسراف ، فهي تطلق على كل من الجمل ، والغزال ، والسيف ، والخمر ، وغير هذه من الاسماء والنعوت مالا يعلم عدته الا الله . وهي في كل باب تفيض على المعنى الواحد من الالفاظ اشكالاً والواناً ، و بحسبك ان تقرأ للمبهين من متقدمي اهل البيان من امثال الجاحظ ليعاجلك الانبهار من غنى هذه اللغة ومابلغت في ذلك العصر ، من اليسار ، الى حد ان الكاتب من هؤلاء يردد على المعنى الواناً كثيرة من التعبيرات والصيغ لا تدعو اليها حاجة في تقرير المعاني واساغتها لفهم القارئ ، وانما تدعو اليها موسيقى النظم من جهة ، ومكاثرة الكاتب بالوفر من اللغة من جهة اخرى .

ومع هذا كله فانني ما زلت ازعم ان اللغات المعروفة كلها ، وفيها العربية قاصرة من بعض النواحي واضحة القصور ، عاجزة شديدة العجز . ولست أريد بتلك الناحية ماسبق لي ان قررته في رسائل (ادبنا القومي) من عجز العربية عن أداء كثير من الاغراض الحديثة ، والمسميات الطريفة ، فان لغات الغرب تؤديها كلها احكم الاداء ، هذا الى ان للعربية عذرها في ذلك فلقد انقبضت دهراً طويلاً انبعث فيه العلم الحديث . واقبلت أذهان الغربيين على الاستنباط والاستكشاف والابتكار والاختراع ، حتى لم يكد ابناء

الشرق يفتحون عيونهم بعد طول هجعتهم الا وقد راعهم ان رأوا كل ما يحيط بهم غريباً عنهم، جديداً عليهم ، بل الذي أعنيه واثم اللغى جميعاً بالتقصير فيه هو شيء قديم جداً ، أقدم من العلم ، واقدم من الاختراع ، واقدم من اللغات نفسها ، وهو انفعالات الوجدان ٠

نعم ، لقد تهيأ للغات حقاً ان تؤدي حاجات العلم ، وان تفرغ الاسماء على كل ما يحيط بنا من الماديات ، وان تسبغ الصيغ على الاسباب الدائرة بين الناس ، وان تبسط الالفاظ للترجمة عن كل مايدور في رؤوسنا من الأفكار والآراء ٠ وبهذا استطاع الناس ان يتطارحوا الافكار ويتباثوا فنوناً كثيرة من المعاني ٠ ومع هذا قد بقيت انفعالات الوجدان كل هذه الادهار ، بحجزة لا تؤديها اللغة الا بالجملة ولا تمسها ، ان مستها ، الا من بعيد ٠

ومن بديه القول ان الناس من يوم درجوا على هذه الارض يحبون ويبغضون ، ويفرحون ويحزنون ، و يبصرون ويسمعون ، ويذوقون ويشمون ، ولكل شيء من هذا اثر خاص في الحس لايكون لغيره ولا يعدوه الى سواه ، وهذا يجده كل انسان ، بل لقد يجده كل حيوان فترى ماذا ارصدت اللغة للترجمة عن هذه الأحساس المشتركة بين الناس جميعاً ؟

لقد زعمت لك ان اللغة لاتصيب هذا الضرب من المعاني الا بالجملة ، ولا تمسه ، ان هي مسته ، الا من بعيد ، واني أضرب لك طائفة من الأمثلة يتضح بها هذا المقا ٠

هنالك شيء تعرفه انت ويعرفه الناس جميعاً من عهد آدم وولده يدعى (الحب)٠ وان المرء يحب أمه ، وانه يحب اباه ، ويحب اخاه ، ويحب أخته ، ويحب ولده، ويحب زوجه ، ويحب صحبه ، هو ، في الغاية ، يحب هؤلاء جميعاً وهو لا يستطيع ان يترجم لما يجده لكل منهم الا بكلمة (الحب) اذ الواقع انه انما يشعر لكل منهم بشعور خاص متميز لا يخالط غيره ، ولا يشبه في كثير من عناصر الحس سواه ، فاذا اقتضيتني الفروق بين هذه الالوان من (الحب) قررت لك اني عاجز عن بيانها بياناً واضحاً دقيقاً لان اللغة لم تبينها بياناً واضحاً دقيقاً وكل مااستطيع ان ابلغه من هذا ان اعين كل واحد منها باسبابه وملابساته لا بجوهره ومذاقه كأن اقول لك ان حب الام يمتاز بعرفان الجميل لما عانت في حمل الولد وولادته ، وإسهاد الجفن في إرضاعه وتعليله ، وتمحيضه اصدق الحب ، وإيثاره حتى على النفس ما تبغي من وراء

ذلك اجراً ولا شكراً ، وان حب الاب يمتاز فوق عرفان الجميل بما ربى وما انفق ، وما جهد في سبيل التربية والتأديب ، ويمتاز بالاعظام لانه سبب انحداره الى هذه الدنيا ، و بانه الاصل الذي ينتسب اليه ، ويتعرف الى الناس به . والقس مثل هذه الاسباب لحب الأخ والولد والام والصحب وغيرهم .

اني أستطيع ان أفعل هذا ، ولكني لا استطيع ان اقنعك على كل لون من ألوان هذا الحب بحيث تستحضره وتستشعره كما أستطيع ان اقنعك بفضل التعبير ، على مطالب العقل مثلاً ، فسرعان ما تدركها تامة وتتصورها كاملة . فان شئت ان تحسها وتستشعرها فليس هناك من سبيل الا ان تراجع فيها نفسك ، وتفتش عنها بين اضالعك ، فهناك تعرفها ابلغ المعرفة ، وتدركها اتم الادراك .

وان المرء ليحزن لان يغشى المكروه احداً من هؤلاء ، ولكن لكل حزن كذلك انفعالاً خاصاً لا يخالط غيره ولا يشاركه في مذاقه سواه .

ثم انك تشم الورد فتنتعش بشذاه ، وتشم الياسمين فتزكو نفسك بطيب رياه ، وتشم القرنفل والفل والنرجس والمسك والند والعنبر والطيب وغيرها من كل ما يستريح اليه الانف ، وتزكو به النفس ، ولكن مما لا شك فيه ان لكل من هذه ريحاً خاصة ، تنفعل بها النفس انفعالاً خاصاً لا يخالطه غيره ، ولا يشركه فيه سواه .

فقل لي عيشك ، كيف كان سبيل اللغة الى التعبير عن كل منها تعبيراً يحضره نفسك ، ويصله بوجدانك ؟ اللهم ان كل ما اتسعت له اللغة من نحو ما يأتي : هو نبات اوزهر طيب الريح ، له عرف ، له شذى ، له اريج يتضوع الخ الخ . وكل هذه نعوت تصلح للجميع . فاذا هي تزاحمت قليلاً للتمييز والتحديد لا تعدو ان تميز بين بعضها وبعضها بالخفة والشدة والضعف والسطوع ، وهذا مالا يغني في كثير .

ثم انك تطعم من الفاكهة التفاح والخوخ والمشمش والعنب والموز والرمان والكمثرى والسدر والتين والبلح بضروبه ، والكرز والمانجو والبطيخ والشمام والبرتقال واليوسفي ، والليمون الحلو ، وغيرها مما تخرج الارض من فاكهة وثمر ، أفترى في مذاقك واحداً منها مثل الآخر في اكثر مشابهه ؟ الواقع لا ! على ان كلها في تعبير اللغة ، حلو ! فاذا هي استشرفت للتعيين ، وشمرت للأداء لم تزد على حلو حامض ، او مز ، او نحو ذلك مما يسلكها

فضائل لا افراداً ! ومن تداعي المعاني أذكر في هذا المقام ان اميرالشعراء قد أبدع كل الابداع في قوله : (وكذاك كل مليحة بمذاق) ويقول الله تعالى في كتابه العزيز (والنخل والزرع مختلفاً أكله) وليس بعد كلام الله تعالى كلام .

ثم انك لتفرح و يشيع فيك السرور : تفرح لانك اصبت ثروة ، وتفرح لان ابنك أبلّ من مرض ، وتفرح لانك ظهرت على عدو ، وتفرح لانك وافقت حبيباً في غفلة من الرقباء ، وتفرح لانك أصبحت ذا منصب وجاه ، وتفرح لانك هديت الى زوجة صالحة — انك لتفرح لكل هذا ولغيره وتسرّ به وتغتبط ، ولكن لكل فرح من هذه مذهباً ، ولكل منها وجداناً يميزه عن غيره ، و يستقل به عما عداه . اذ اللغة لا تسعفك في هذا كله الا بالفاظ الفرح والسرور ، والاغتباط ونحو ذلك مما لا يجدي فيما نحن بسبيله فتيلا .

هذه طائفة من الامثال اوردتها عليك لتدرك بها مبلغ عجزاللغات في هذا الباب . ولا شك بعدها في ان امرءاً لم يرزق الولد يستحيل ان تشعره حب الولد ، وان امرءاً لم يطعم الكمثرى يستحيل ان تقرب من نفسه مذاقها . وان امرءاً لم يرتفع الى المنصب هيهات ان يستشعر لذة الجاه والسلطان ، وذلك ان اللغة التي واتت مطالب الانسان في كل شيء ، وافضلت عليه الافضال كله ، واذنت له في ان يسرف في الالفاظ ، ويتبذخ بفنون التعبيرات في كل جليل وحقير ، حتى لقد اسعفت خياله في الصعود الى جو السماء ، والغوص الى قرارة الدأماء ، واقامت له عند السماك مأربا ، وفسحت له في الأفلاك مطلبا ، ورحم الله ذلك الشاعر البارد يقول عن ممدوحه :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته   لما رأيت عليها عقد منتطق !

هذه اللغة التي واتت بهذا كله ، واسعفت في ذلك اجمعه ، ما زالت تضن على الناس بالاسعاد فيما يجده كل امرئ منهم كل يوم وكل ساعة وكل لحظة : مما تختلج به احساسهم وتجيش به عواطفهم ، ويتحرك له وجدانهم !

* * *

وبعد فثم مسألتان ان لم تدخلا في صميم هذا الموضوع فانهما متصلتان به اوثق الاتصال ، واحداهما جمال الخلق ، والثانية جمال الصوت . وقبل كل شيء نقرر ان

ارادة اللغة على ان تتناول موضوعها بالتبسط والتفصيل لاتخلو من الارهاق والاعنات . على انها اذا لم تكن مطالبة بالتفصيل فهي ولا شك مطالبة بالاجمال .

جمال الخلق في كل مكان من هذه الارض وفي كل زمان . وان الناس ليتعشقون الجمال ويكلفون به ، وانه ليأخذ في نفوسهم كل اخذ ، حتى مايكاد يدع بعضهم يفكر او يتحدث الا فيه ، او يطلب من دنياه غير هواه ، ولقد تبلغ به الفتنة في هذا الى حد الصرع والى حد الجنون . وكثيراً مانجرد الشعراء والادباء في وصف فتاة مليحة فافتنوا في هذا وتطيرت فيه أخيلتهم كل مطير ، ولكنهم كسروا كل جهدهم على ان هذه المرأة او تلك الفتاة فتانة ، بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، فاذا هم تدنوا الى التفصيل مازادوا على انهـا فارعة الفرع (هذا اذا كان شعرها مرجلاً) او انه (أثيث كقنو النخلة المتعثكل) اذا كان شعرها جعداً ، وانها واضحة الجبين ، وانها مقوسة الحاجبين ، حتى لكأنهما (نونان) وانها سابغة الهدب ، نجلاء العينين ، اسيلة الخدين حتى كأن الشمس تجول فيهما ، وان لها أنفاً كحد السيف ، وان لها شفتين قدتا من العقيق . وثنايا صيغت من الدر اوالتوم .

وثناياك انها اغريض ولآل توم و برق وميض
واقاح منور في بطاح هزه في الصباح روض اريض

الى آخر مايسبغ على الغانيات ، من فنون النعوت والصفات .

وانك لتخرج بعد هذا ، وذهنك لا يتصور كل جميلات النساء في عشرة قرون الا مطبوعات على غرار واحد ، بارزات للعالم في صورة واحدة ، بحيث لا يقع بين خلقهن اي اختلاف اللهم الا في الاسماء والالقاب . فهذه هند ، وهذه دعد ، وهذه تماضر ، وهذه بثينة ، وهذه ليلى العامرية ، وهـذه ليلى الاخيلية الخ . ولعمري ، لست أدري كيف كان كل شاعر متعشق من شعراء العربيـة يميز معشوقته و يهتدي الى هواه بين سائر الجميلات من النساء ؟ وما يحدث به عن الجمال ، في هذا ، حدث به ، عن القبح سواء بسواء .

الواقع انه من العنت والارهاق ان تريد اللغـة على ان تصف لك خلق انسان حتى كأنك تراه او ترى له تمثالاً محكماً او صورة من نقش صناع . وانه مهما جد المرء ودق وصدق في وصف انسان يتنـاول كل اعضائه وتصوير جميع اجزائه . فانك حين تراه

تراه على صورة مغايرة للصورة التي تمثلت في ذهنك تمام المغايرة . ولكن المشاهد المحسوس ان الناس مهما تفرقوا في خلقهم بالحسن والقبح . ومهما اختلف الخلق بين كل من هؤلاء وكل من هؤلاء ، فانه ما من انسان الا ينتسب في كيفية تكوينه ونظام خلقه الى فصيلة معينة تحس بها انت في نفسك ، و يشعر بها غيرك في نفسه ؛ سواء أكانت دارسة المعالم ام واضحة الحدود .

وهنالك اصوات المغنين مثلاً . تسمع منها العشرات او المئات فترى لكل واحد منها لوناً ، وتجد له مذاقاً خاصاً ، فاذا أردت ان تصف احداها لمن لم يسمعه فلست تعدو ان تقول انه جميل ، اوحلو ، فاذا طلبت (الفن) ليعينك و يسعدك في وصفك ، قلت انه رفيع او عريض ، وانه اذا ارتفع تسلخ او ظل على استمساكه ، وانه اذا تدلى الى (القرار) اقاص اودوى والخ الخ على انك لا تخرج من هذا بجليل ، اللهم الا ان يقول لك ان هذا الصوت من (بدلية) صوت فلان ولست خارجاً بشيء اذا لم تكن سمعت صوت فلان هذا .

والواقع ايضاً انه ما من صوت كريم او غير كريم الا ينتسب ، في الاصوات ، الى فصيلة معينة تحسها انت و يحسها غيرك ، سواء أكانت هي الاخرى دارسة المعالم ام واضحة الحدود .

والحاصل ان اللغات لم تعن العناية الكافية بتعيين هذه الفصائل فلم تحور لها من الالفاظ والصيغ ما يجليها تمام التجلية على النفس . و يصلها تمام الصلة بالشعور .

نعم ، لقد عنيت لغات الغرب بشيء من هذا ولكن الامر ما برح يتطلع منها الى مزيد . اما العربية فما احسبها عنيت منه بجليل ولا صغير .

* * *

وبعدُ فلو انه قدر للغات ان تندس الى مطاوي الوجدان فتحدث عن كل ما يشيع فيه من شعور ، ويترقرق من حس ، ثم لو انها استطاعت ان تمثل للنفس ، ولو على جهة التقريب ، صورة مما تقع عليه العين وتسمعه الاذن — لتم للادب كماله ، وتهيأ للنفس ان تنفض كل ما فيها واضحاً جلياً في غير مطاولة ولا كبير عناء . ثم اقام قلم الشاعر اوالكاتب

مقام ريشة المصور او (اسطوانة الفونغراف) وذلك المثل الاعلى للادب الصحيح . فهل تراننا بالغيه في يوم من الايام ؟ .

وربما كان من الخير ان نعاود هذا الموضوع نزلة أخرى فانه اجل واضفى من ان يستوفي الكلام فيه مقال .

« باحث »

مقتطفات

« من كتاب الحيوان للجاحظ »

كنت منذ سنين قرأت كتاب الحيوان للجاحظ وعدت الى قراءته فاقتبست منه عدداً من المصطلحات والملحوظات أذكر منها طائفة فيما يلي :

أوردتُ في الصفحة ١٩٥ من المجلد الحادي عشر من هذه المجلة ان ابن العوام استعمل لفظة «الصنف» بمعنى Variété وقد اتخذ الجاحظ ايضاً تلك اللفظة لذلك المعنى . قال في ج ٢ ص٧٩ و٨٠ « ومن اصناف الكلاب مايحمل ربع السنة » .

واستعمل حرفي القسمة والتصنيف بمعنى Classification فقال (ج ٤ ص ٩٠) « وقد وضع الكلام على قسمة أجناس الحيوان وعلى تصنيف ضروب الخلق . . . » .

ولقد قلت مراراً ان كتّاب العرب الأقدمين كانوا يطلقون الفاظ جنس ونوع وصنف وضرب على مختلف حلقات التصنيف لأن وضع هذه الحلقات وتثبيتها هما عمل من أعمال البارحة فترى الجاحظ مثلاً يستعمل لفظة « الضرب » «لأنواع » Espèces من الطيور حيث يقول (ج٣ ص٤٥) « والقمري حمام والفاختة حمام والورشان حمام وكذلك اليمام وضروب أخرى » . اما في الصفحة ٦٦ من المجلد ٥ فتراه يستعمل لفظة «الضرب» المذكورة بمعنى Catégorie او Division وذلك في الجملة الآتية :

« والطير كله على ثلاثة أضرب فضرب من بهائم الطير وضرب كسباع الطير وضرب كالمشترك المركب منهما جميعاً » . وهو يطلق لفظة « الجنس» على ما سمي بالفرنسية Espèce اذ يقول (ج ٥ ص٦٧) « والأجناس التي تعايش الناس الكلب والسنور

والفرس والبعير » . اما لفظة النوع فهو يعبر بهـا عن الحلقات Genre و Espèce و Variété على السواء في مواضع شتى .

وقرأت في الصفحة ٨٣ من الجزء الثالث « واجعل حمام النساء المسرولات العظام الحسان . . . واجعل حمام الفراخ من غير ذوات الأعراق الكريمة » . فالأعراق هنـا بمعنى Races لأن هذه الحلقة هي حلقة الأصناف التي رسخت صفاتهـا وتأصلت (انظر مجلة المجمع سنة ١٩٣٠ ص١٩٣) .

والخلاصة ان حسن حظ اللغة جعل علماء اليوم يتفقون على تخصيص Genre الاعجمية بلفظة جنس و Espèce بلفظة نوع حتى صار القول في هذا الباب شيئاً يكاد يكون من الفضول . اما تخصيص Variété بلفظة صنف فقد كان انكره عليّ العالم الدكتور محمد شرف صاحب المعجم في العلوم الطبية والطبيعية مع ان ابن العوام والجاحظ لم ينكرا ذلك . وانكر ايضاً اطلاق العرق على Race مع أن ذلك له وجه كما ترى وكذا لفظة رس للعلامة الأب انستاس .

والقضية ليست سوى تواضع العلماء على تخصيص كل حلقة من سلسلة التصنيف بلفظة واحدة ولهذا لا يجوز ان يفرض احد العلماء في هذا الصدد رأيه على سائر علماء العربية فرضاً . واذا كان المجمع العلمي العربي بدمشق يدرج في مجلته آراء اعضائه في هذه الألفاظ وفي كل المصطلحات العلمية الحديثة دون ان يقرها في جلسة رسمية فما ذلك الا لعلمه ان هنالك أقطاراً عربية أخرى غير الشام فيها علماء لهم آراء محترمة وانه لا يجوز ان تقرّ لفظة ما رسمياً الا في مجمع علمي مشترك ما برحنا نرقب تأسيسه . اما مجمعنا في دمشق يراعي هذه المسألة المهمة الى هذا الحد فأحرِ بالأفراد العلماء في مصر والعراق خاصةً ان يتئدوا ويتواضعوا قليلاً فلا يلزمونا بآرائهم كأنها قرآن منزل وليرقبوا مثلنا ظهور هذا المجمع المشترك حيث يرون المجال متسعاً لتحري أصلح الألفاظ للمعاني العلمية الحديثة .

وهنالك مؤلفون ربما اقتبسوا وانتحلوا الألفاظ التي وضعها أعضاء مجمعنا فحبذا لو عدل هؤلاء فلم يجعلوا حظنا منهم كحظ العلامة الدكتور امين باشـا المعلوف من الاستاذ المحقق الدكتور شرف فان الثاني اقتبس في معجمه كثيراً من ألفاظ معجم الحيوان تأليف الاول دون ان يذكر معجم الحيوان في جملة المنابع التي استقى منها . ولا شك ان ذلك

سهو وقع فيه الاستاذ شرف (جل من لاعيب فيـه) لكنه لايجوز ان يسهو علماؤنا عن مثل هذا ٠

ولنعد بعد هذا الاستطراد الى ذكر بعض الألفاظ التي لفتت نظرنا في كتاب الحيوان ٠ قال الجاحظ في (ج٣ص٨٣) : « جميع الفراسة لاتخرج من اربعة أوجه اولها التقطيع والثـاني الجسة والثـالث الشمائل والرابع الحركة ٠٠٠ فالتقطيع انتصاب العنق ٠٠٠ واتساع المنخرين ٠٠٠ وقصر المنقار » الخ ٠ وهنا يلحظ الله استعمل لفظة التقطيع بمعنى Morphologie تماماً قالـــ : « هذه أعلام الفراسة في التقطيع » ٠ قلت اي في المورفولوجيا ٠

اما الجسة فاستعملها بمعنى Maniement وكنت ذكرتها لهذا الغرض ٠ واما الشمائل فبمعنى Caractères ٠

وجاء في (ج٧ص٤٨) « وقد يكون في الخلق المشترك وغير المشترك ٠٠٠ فالمشترك مثل الانسان الذي يأكل الحيوان والنبات » ٠ فترى ان لفظة المشترك في هذا الباب تصلح للتعبير عن كلمة Omnivore الفرنسية ٠

وأورد في (ج٣ص٨٣) الجملة الآتية في تدجين بعض الحيوانات « ولا بد لجميعها من الصرامة ومن التعليم اولاً والتوطين آخراً » فلفظـة التوطين أطلقهـا على Acclimatation وهي كأيلاف الاقليم التي ذكرتها في مقال سابق ٠

ولفت نظري في (ج ٢ ص ٧٩ و ٨٠) تعبيرات يفيدات الغاية اي بمعنى Au maximum وهما « اطول مايكون » و « في الفرط » في الجملتين الآتيتين :

« والكلبة الانثى تحمل واحداً وستين يوماً أطول مايكون » ٠

« واكثر ماتضع الكلبة اثنا عشر جرواً وذلك في الفرط » ٠

ورأيت في (ج ٢ ص١١٥) الجملة الآتية : « ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً ٠ ورأيت فيها ايضاً عن الغراب « فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضـائه ٠٠٠ » ٠ فالذي يلفت النظر في هاتين الجملتين لفظة التركيب فالجاحظ ساقها بمعني Composition على حين ان بعض الكتاب يترجم هذه

اللفظة الأجنبية بحرف « بنـاء» . وأظن ان هذا الحرف الأخير كان استعمله العلامة الفقيد يعقوب صروف ثم عدل عنه للفظة التركيب وهي لا غبار عليها وتفيد المعنى المذكور.

وقرأت في (ج٤ص١٠٣) « غرائز أخر وخاصيات أخر » . وفي (ج٢ص٨٢) « ولم ينبهوني على هذه الخاصة التي فيه » . قلت ان لفظة الخاصة بمعنى Propriété موجودة في الأمهات لكنك لا تجد فيها لفظة الخاصية بالياء . ومع ذلك عثرت على اللفظة الاخيرة في مادة «سنبل» من القاموس مع ان الفيروزابادي لم يذكرها في مادتها . والخاصية من المولدات كالفاعلية وأشباهها .

وتمثل الجاحظ في (ج٢ص١٠٨) بالبيت الآتي :

يا ليلة لي في حوران ساهرة   حتى تكلم في الصبح العصافير

وأورد ذلك البيت في (ج ص ٧٢) هكذا :

يا ليلة لي بحوارين ساهرة   حتى تكلم في الصبح العصافير

قلت سواء أكانت ليلة الشاعر في حوران ام في حوّارين (قرية في عمل القريتين الى شرقي حمص الجنوبي) فان الذي يلفت النظر قوله ليلة ساهرة وهو تعبير نصت عليه المعاجم . وهنا يرد على البال السؤال الآتي وهو الا يجوز ان نقول على هذا القياس ليلة راقصة وليلة عازفة بمعنى Soirée dansante و S.musicale من البديهي ان الليلة لا ترقص ولا تعزف . لكنها لا تسهر ايضاً . فكما جاز استعمال اسم الفاعل من « سهر » كذلك يجوز استعماله من الفعلين المذكورين ولو مع التجوز . وأمثال ذلك كثير .

وأدخل الجاحظ في (ج٦ص١٥٩) ال التعريف على (غير) في الجملة الآتية : « وخبرني بعضهم انه رأى من يبكي باحدى عينيه و باقي يقترحها عليه الغير » . وهذا الوجه جائز لدى بعض اللغويين .

وكان بعضهم انكر استعمال حرفي جر متعاقبين مع انهم نصوا على جوازه . وقرأت في (ج٥ص١٢٠) « فكنت والله ارى البعوضة تطير من على ظهر الثور » .

وأدخل التاء على لفظة العنز وهو غريب قال في (ج٥ص١٤٧) « اني اتخذت عنزة رجوت رِسْلها ونسلها » . وجاءت ايضاً كذلك قبل بضعة أسطر .

واستعمل لفظة القوصرة بمعنى الأصيص « شقفة زريعة » . قال في (ج٥ص١٢٥)

فقالوا لي ان الأراك انما ينبت من الأراك بغرس في جوف طين في قواصر و يسقى الماء اياماً ... » .

وفي الصفحة ١١٠ من الجزء ٣ وجدت لفظة القبو (ج الأقباء) بمعنى (ave وبودروم) اي بالمعنى الذي نعرفه في ايامنا هذه . قال « والباقلاء اذا عتق شيئاً في الأقباء استحال كله ذباباً فربما أغفلوه في تلك الأقباء ... » .

وقسم الطيور الى قواطع وأوابد . و يقابلها بالفرنسية Oixaux migrateurs و O.indigènes قال في (ج٢ص٦٥) والخطاف من القواطع غير الأوابد اذا قطع الى الأنس لم يبن بيته الا في أبعد المواضع » .

وجاء في (ج٢ص١٠٤) « ولقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخة » .

واستعمل في (ج٣ص٩٩) لفظة القائلة بمعنى Sieste كما وردت في المعاجم . وكان استعماله اياها على أوجه شتى قال « كنت أريد القائلة فأمرت باخراج الذباب ... فكنت أدخل الى القائلة فيأكلني البعوض ... فأتيت ذات يوم المنزل في وقت القائلة ... » .

وفي (ج٣ص٤٥) ذكر الماعزة والضائنة بمعنى العنز والنعجة .

ومن التعبيرات الشيقة التي لفتت نظري « عبد عين » في الجملة الآتية الواردة في (ج٣ ص٢٦) وهي :

« ويقال للمرائي ولمن اذا رأى صاحبه تحرك له وأراه الخدمة والسرعة في طاعته واذا غاب عنه وعن عينه خالف ذلك انما هو عبد عين » .

ومنها « التفخ والتزيد » الواردة في (ج٧ص٥٦) حيث قال « واعلم ان هذه الأحاديث من أحاديث الفرس وهم اهل تفخ وتزيد ولا سيما في كل شيء مما في باب العصبية » .

ومنها الوصف الآتي للرجل المجد في (ج٣ص٢) « إلف تفكير وتدبير ودراسة كتب وحلف تبيين » .

ومنها في وصف الكتب القديمة ووصف حفظها الدمس من المترجمين والخطاط (ج١ص٤٠) « كتاب متقادم الميلاد دهري الصنعة .. فما ظنكم بكتاب يتعاقبه

المترجمون بالافساد وتعاوره الخطاط بشر من ذلك » .

ومنها تعبيرات مابرحت شائعة على الألسنة كضرّاب اللبن في الجملة الآتية التي تجدها في (ج٤ ص١٣٩) « ولم أر سقاء قط بلغ حال اليسار والثروة وكذلك ضرّاب اللبن والطيان والحراث ... » . وكما قوا على دوابهم في الجملة الآتية الواردة في الصفحة ١٣٥ من الجزء نفسه « .. حين نزلوا وبهم كلال السير وحين علّقوا على دوابهم ... » .

هذه طائفة مما اقتبسته من ذلك السفر الثمين فلعل فيها فائدة للكتاب والمترجمين .

مصطفى الشهابي

مطبوعات حديثة

النثر العربي في القرن الرابع للهجرة

— بقلم —

الدكتور زكي مبارك

— * —

رسالة أنشأها الدكتور زكي مبارك باللغة الفرنسية وقدّمها الى جامعة باريز .

بحث فيها عن خصائص النثر في القرن الرابع للهجرة فأشار الى محاسن هذا النثر والى معايبه وحاول ان ينسلخ في مباحثه من تأثير علماء المشرقيات .

القرن الرابع في نظر الدكتور انما هو من اعظم القرون شأناً فان للغة فيه خصائص لم تكن لها في العصور السالفة ، من هذه الخصائص اجتهاد الكتّاب في تمويق كتاباتهم بمحاسن الشعر فان قدماء الكتّاب لم يخطر ببالهم ان يقلّدوا الشعراء ، اما كتّاب العصر الرابع فقد قلّدوهم مقتصدين في تقليدهم دون شيء من الاسراف وانما الاسراف وقع من قبل خلفائهم في العصور اللاحقة .

ومن خصائص النثر في القرن الرابع التقفية والسجع وفي هذا العصر ظهرت المقامات وان لم تكن المقامات من وضع العصر الرابع وانما كانت من اقتباسه .

وقد ذكر الدكتور في رسالته انه نبّه على أضاليل في تاريخ ادب العرب من جملتها وضع البديع والبيان وانشاء المقامات واصل الصناعة اللفظية وما شابه هذه الامور .

تتضمن الرسالة مقدمة وخمسة وعشرين فصلاً وخلاصة .

اما الفصول فقد بحث فيها صاحبها عن النثر قبل الاسلام وبعد الاسلام وفي القرن الرابع للهجرة وعن البلاغة في ذاك القرن وعن مصادر الصناعة اللفظية او التكلف في الكتابة وعن الحياة العقلية وعن المقامات وعن أحاديث ابن دريد وعن روايات الأغاني وعن الاخبار يين والقُصّاص وعن تراجم ابن العميد والصاحب بن عبّاد وبديع الزمان والخوارزمي والتوحيدي وابن نباتة والخطيب والصابيء وابي حسن الجرجاني وابن فارس والثعالبي وابي هلال العسكري وابن شهيد الاندلسي واحمد بن يوسف المصري والتنوخي .

أبرز صفات هذه الرسالة بناء صاحبها على اصول برونتير (Brunetière) في مباحثه ، فمذهب (برونتير) في الأدب انما هو مذهب (التطور) فان (برونتير) لا يؤمن بمذهب التولد الذاتي في الأدب فالطريقة الغنائية في القرن التاسع عشر لم تظهر فجأة وانما هيئت من القرن الثامن عشر .

وعلى هذه الأساليب جرى الدكتور زكي مبارك في مباحثه فالنثر العربي لم يخلق فجأة وانما العرب كان لهم قبل الاسلام نثر يفصح عن شرف نفوسهم وعن طبيعة احساسهم وانما آثار هذا النثر قد فقدت فقد كان قبل الاسلام أدب وفلسفة وفن فلا يتصور العقل ان ينفجر فجأة في جاهلية جهلاء لا يفكر احد منها في بلاغة او في عروض او في نقد أثر كالقرآن رائع الحسن ، فالدكتور زكي مبارك من هذه الناحية يخالف الدكتور طه حسين ويصرّح بهذه المخالفة .

وكذلك المقامات لم تخلق فجأة وانما اقتبسها الحريري عن الهمذاني والهمذاني عن ابن دريد صاحب الأحاديث وعلى هذه الصورة انتقلت أحاديث ابن دريد على الأيام من طور الى طور حتى طبعها الهمذاني والحريري من بعده بطابع خاص .

* * *

لا شك في ان أدب العرب في أمثال هذه المباحث يدخل في طور خاص فلا يأتي عليه حين من الدهر الا وأوائله مرتبطة بأواخره بحيث يصبح سلسلة محكمة الحلقات ·

على اننا اذا أردنا ان نصل الى هذه الخواتيم المحمودة لزمنا ان نوازن بين الآثار فاذا ذكرنا مثلاً ان اصل المقامات مقتبس عن احاديث ابن دريد وجب علينا ان ننبه على مواطن الاقتباس حتى يتبين لنا كيف انتقل هذا النوع الأدبي من حال الى حال او من طور الى طور على الأيام ولئن تعذّر علينا ان نقايس بين آثار اللغة الجاهلية واللغة الاسلامية لفقدان المصادر الجاهلية فما يتعذر علينا ان نقايس بين الآثار التي جاءت بعد الاسلام حتى ندرك مختلف أطوارها وانما الرأي المجرّد غير المبني على امثال هذه الموازنات والمقايسات لا يفعل فعله في العقول · « شفيق جبري »



أشعة رونتجن

« الجزء الاول في تشخيص الامراض الباطنة لمؤلفه الدكتور محمد فريد »
« خريج جامعة برلين والاختصاصي في الامراض الباطنة والأشعة »

هو كتاب يقع في ٦٥ صفحة قسمه مؤلفه قسمين بحث في الاول منهما عن فحص المعدة باشعة رونتجن وتشخيص امراضها فبين مكانة فحص المعدة بالاشعة فطريقة الفحص فشكل المعدة السليمة واشكال المعدة المصابة بالقرحة او السرطان فصورة الاثني عشري المصاب بالقرحة ·

وجاء في الرسالة الثانية على فحص الامعاء وتشخيص أمراضها وكيفية فحص المعى الدقيق ووظيفته ، وكيفية فحص المعي الغليظ وتأثير العقاقير فيه وتكلم عن انسداد الامعاء وضيقها وأورامها وديدانها وسلّها وعن التهاب الزائدة وركود الصائم وتقصيره وغير ذلك مما يعتري الانبوب الهضمي من التبدلات والامراض ·

والكتاب اذا نظرنا اليه نظرةً علمية حسنُ التبويب غزير المادة فيه احدث ماجاء به

علم الاشعة ، مزين بمائة رسم وشكل ، متقن الطبع . فليس لنا والحالة هذه الا ان نشكر لمؤلفه ذلك العناء الكبير الذي قاساه في نقل مستحدثات هذا العلم الى لغتنا العزيزة .

غير انا كنا نود ّ ان تكون لغة الكتاب نقية خالية من الخطيئات اللغوية والنحوية والصرفية وان تكون مصطلحاته الطبية صحيحة منطبقة على ما وضعه الناهضون بلغتنا العزيزة في هذه الحقبة الأخيرة من الزمن . ولا يخفى ان لغة المؤلفات لا تقل ّ مكانتها عن العلم نفسه لانها الثوب الذي يظهر به ذلك العلم فاذا ما كان جميلاً أكسب العلم نفسه رونقاً وجمالاً واذا ما كان ركيكاً أثر في مظهر العلم اذا لم يؤثر في جوهره .

ليست غايتي ان أبين جميع ما في هذا الكتاب من الخطيئات اللغوية فانك لا تكاد تقرأ سطراً حتى تقع على خطإ او اكثر بل غايتي ان أورد مثالاً للقراء الكرام .

فمن الخطيئات قوله :

كان ينقص لغة الناطقين بالضاد كثيراً . . .	وتصادف تلك المعدة عند الرجال أقوياء
بادرت بتأليف . . .	البنية عريضي التركيب
ما لم من ايادي بيضاء . . .	تعتبر الصور الثلاثة
فقد نشاهد إسراع في طرد . . .	ان الثلاثة أصناف
فان الرئتين مملوءتين . . .	او الثانية عشر الصدرية
بل ونستطيع . . .	للعامود الفقاري
ثم جعلوه اجوفاً	تراكد محتويات المعدة
لم يستطاع	أورام الكبد وتضخماته
لا يؤثر عليها	مع ماحولها من الأنسجة
ثم استعيض تحت كاربونات البزموت عن	حتى يقدمون
تحت ازوتاته	وقد يقع بين شكلي معدة الرجل والمرأة
٤٠٠ جراماً	اختلافاً
اذا كان بين الجدران فراغاً	اربعة ساعات
اما نحن نرى	جدولاً آخراً
	حواف الاخير

وترى المعدة والحجاب الحاجز مندفعان

والا اذا استمررنا

مستوى الضلع التاسع أو العاشر

الاعتقاد بندورة

وغير ذلك من مئات الخطيئات ، وصحيحها :

كان ينقص لغة الناطقين بالضاد كثير	تعتبر الصور الثلاث
بادرت الى تأليف	ان الأصناف الثلاثة
مالم من ايادٍ بيضاء	او الثانية عشرة الظهرية (وليست الصدرية)
فقد نشاهد إسراعاً في طرد	للعمود الفقاري
فان الرئتين مملوءتان	ركود محتويات المعدة
بل نستطيع	اورام الكبد وضخاماتها
ثم جعلوه أجوف	مع ما حولها من النسج
لم يستطع	حتى يقدموا
لا يؤثر فيها	وقد يقع بين شكلي معد في الرجل والمرأة اختلاف
ثم استعيض بتحت غمات البزموت عن تحت	اربع ساعات (وهذه الخطيئة مكررة كثيراً)
ازوتاته	جدولاً آخر
٤٠٠ غرام	حافات الاخير
اذا كان بين الجدران فراغ	وترى المعدة والحجاب الحاجز مندفعين
اما نحن فنرى	والاّ اذا استمررنا
وتصادف تلك المعدة - في الرجال الأقوياء	مستوى الضلع التاسعة او العاشرة
البنية العريضي التركيب	الاعتقاد بندارة

وفي الكتاب كثير من الأوضاع المغلوطة نرغب في تنبيه المؤلف الفاضل اليها منها : (الهيكل العظمي) ص ب سطر ٧ والاصح الصقل كما ارتأى العلامة الاب انستاس الكرملي لان كلمة (squelette) باليونانية (skeletos) معناها الضامر الضعيف

اليابس اوالمنهضم الخاصرانين ثم توسعوا في معناها فأطلقوها على هيكل عظام الانسان فاذا جردت الكلمة اليونانية من (etos) وهي علامة الاعراب بقي (skel) المقابلة لصقل لفظاً ومعنى ٠

(الكشف الاكلينيكي) ص ج سطر ١ لا يزال زملاؤنا المصريون متعلقين تعلقاً لاانفكاك منه بهذا اللفظ الأجنبي الثقيل مع ان معنى (clinique) « دروس تلقى على سرير المرضى » فتستحسن إذن نسبتها الى السرير ٠ فيقال الكشف السريري والدرس السريري والخ ٠٠

(التشريح المرضي) (autopsie) بعد الوفاة ص ج سطر ١٣ وقد اشتهرت ترجمة (autopsie) بفتح الميت اما التشريح المرضي فمعناه (anatomie pathologique)

(الليكيمي) (leukémie) ص د سطر ١٣ ومعنى هذه الكلمة ابيضاض الدم وترجمتها خير من تعريبها على ماأرى ٠

(الجوترالجحوظي) ص د سطر ١٤ وهي الجُدَرَة ج أجدار اوالجَدَرَة ج جَدَر وجُدَر ٠

(البروستاتا) ص د سطر ١٥ وقد ترجمها العلامة الكرملي بالموثة ولاغبار على هذه الترجمة لان الكلمة أخف لفظاً واسهل نسبةً من الكلمة الأعجمية ٠

(فتح البطن للتجربة) ص٥ س١٥ والأصح قولنا « فتح البطن الاستقصائي » ٠

(القفص الصدري) ص٦ س١٣ وهو القُوْس على رأي العلامة الكرملي ٠

(الجس) (bougie) ص٨ س١١ والصحيح « الشمعة » ٠

(aneuorysm) ص٨ س ١٤ وترجمتها ام الدم ٠

(الجلاتين) ص٩ س٤ وهو الهُلام ٠

(بالون) (ballon) ص١٢ س١٣ وهو الحوجلة ٠

(الفقية) (transversale) ص١٣ س٦ والصحيح معترضة لان الافقية ترجمة (horizontale) ٠

(الأجواف) (Antrum) ص١٣ س١٧ والصحيح الجيب لان أجوف قد اطلقت على ترجمة (cave) ٠

(سيفون) (siphon) ص١٤ س٩ وهي السحارة ٠

(العظم العاني) (symphyse) ص١٦ س٦ وهو الوصل العاني وليس العظم نفسه ٠

(العاصر الاجوف) (sphincter antrum) ص٢٠ س١٧ وهي مصرة الجيب ٠

(عدم كفاءة) والأفضل لقصير ٠

(سل النخاع الشوكي) (tabès dorsalis) وهو السُهام حسب تسمية الأب الكرملي والكلمة من اصل لاتيني ٠

(سرطان قسم البواب) ص٣٣ والاصح ترجمة (région) برجا لما بين الكلمتين من التقارب اللفظي ٠

(القولون الهابط) ص٤٣ س١٦ و يعني به (colon descendant) وهو النازل وليس الهابط لان هذه الكلمة تعني (ptosé) ٠

(askaris) ص٥٠ وتجب ترجمتها بخراطين المعى ٠

* * *

هذا نذر مما وقع عليه بصرنا حين تصفح هذه الرسالة وقد كنا نودّ ان تكون منزهة عن هذه الشوائب لتزف الى اللغة العربية نقيةً صافية ٠ فعسى ان يتدارك مؤلفها الفاضل هذه الخطيئات الكثيرة في الطبعة المقبلة ويهذب لغتها فترتدي الحلة العربية الفصحى ٠

الدكتور

مرشد خاطر

المجلد الحادي عشر

الجزء ٩ و ١٠

١٢٩ و ١٣٠

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ ﻫ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

ايلول — تشرين الاول

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي المدفوع مقدماً

في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً

وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الرابعة	كل سنة منها
»	٣٠٠	» الخامسة الى العاشرة	» »
في الخارج	٦٠٠	» الاولى الى الرابعة	» »
»	٣٥٠	» الخامسة الى العاشرة	» »

ابن زيدون

—*—

هو الكاتب الشاعر الأديب ذو الوزارتين ابوالوليد احمد بن عبدالله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي الاندلسي القرطبي ·

وبنو مخزوم الذين يمتّ اليهم بالنسب بطن من قريش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد الفاتح العظيم · جلا أجداده الى الاندلس مع من جلا اليها من عرب المشرق ، ولم نعرف بالضبط سابقتهم فيها هم وسلالاتهم ، غير انه اشتهر من أعقابهم ثلاثة تسمّوا بابن زيدون : المترجَم ، وابوه ، وابنه · ويظهر ان بيتهم نشأ في قرطبة مقر الخلافة الأموية في المغرب · وكان اول المعروفين منهم ابوالمترجَم ، ذكروا انه كان فقيهاً متأدباً وجيهاً عند اهل عصره مثنيّ عليه بالجميل ، وكان يكنى بابي بكر ، توفي بمدينة ألبيرة سنة خمس واربعمائة ، ونقلت جنازته الى قرطبة ، فدفن بها ، ورثاه بعضهم بقوله :

أيُّ ركن من الرياسة هيضا ... وجموم من المكارم غيضا

حملوه من بلدة نحو أخرى ... ليوافوا به ثراه الأريضا

مثل ماء السحاب ماءً صبيباً ... ليداوي به مكاناً مريضا

وللمترجَم ابن يكنى ابا بكر بن زيدون ، تولى وزارة المعتمد بن عباد بعد ابيه ، وقتل يوم اخذ يوسف بن تاشفين قرطبة من ابن عباد لمااستولى على مملكته سنة اربع وثمانين واربعمائة ·

الحالة السياسية والاجتماعية والادبية في عصر ابن زيدون — نشأ ابن زيدون في عصر انفرط فيه نظامُ حكم العرب بالاندلس ، وتقوّضت فيه اركان الدولة الأموية ، وذهبت ريح من زاحمهم من بني حمود من سلائل العلوية الادريسية ، وتفرقت رجالات

هذه الدولة العظيمة طوائف وشيعاً ينضوي كل منهم الى كنف رئيس من قضاة الدولة اوقوادها اوولاة نواحيها ، ينشيء بهم دويلة اهلها لا تزيد على مدينة وأرباضها ، واذا أتيح لمملكة من ممالك هذه الطوائف بسطة سلطان واتساع رقعة شملت عمالة قديمة او عمالتين ، ولكنها لاتقوى الا على مصاولة جاراتها والكيد لها ، واغراء العدو من ملوك الاسبان بها بل مناصرته عليها ، فاستطار شرر هؤلاء الملوك الاسبان ، وتدخلوا في شؤون هذه الدويلات بالقوة والسياسة ، وانتهي الامر باكثر هذه الدويلات ان استخذوا أمام هذا العدو القاهر ، ودفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهم على ذلك الذل يتنافسون في الالقاب وشارات الملك ، وتشييد القصور والمصانع وتنسيق المنازه والملاعب ، واقتناء الجواري والقيان واجتلاب فاره الدواب والغلمان ، وسهل عليهم تأسيس ممالكهم وتأثيل نعمتهم تلك المغانم العظيمة والثروة الجزيلة التي أفعمت بها البلاد فتوح المنصور ابن ابي عامر قبيل ذلك العهد ، فتسمى كل زعيم منهم باميرالمؤمنين وتلقب بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتضد والمعتمد كما يقول في ذلك ابن شرف القيرواني .

مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

واتخذ له بطانة من خيرة الادباء والكتاب والشعراء والمؤلفين ، يحرص جد الحرص على الا يكون عند غيره من ملوك الطوائف مثلها ، بحيث اذا اشتهر من بين رجال هذه الدويلات نابه في قيادة حرب او تدبير ملك اونجاح في شعر اوكتابة اوتأليف ، خطب كل منهم وده ، فنفق في ذلك سوق العلم والادب من جهة ، وولد من جهة أخرى في نفوس وزرائهم وأعوانهم دالة عليهم طرأت الى الشك في إخلاصهم ومؤامرة أعدائهم عليهم فعاجلوهم بالنكبات ، وباغتوهم بالحبس والمصادرات ، وربما افلت بعضهم ، فألقى بنفسه في أحضان مملكة مجاورة يؤلبها على دولته الاولى ، ويبدي لها وجوه ضعفها ، ومااستتر من عوارها ، فتطمع في الاستيلاء عليها اوانتقاصها من أطرافها ، فاما ان تفوز بإربتها ، واما ان تكون باحثة عن حتفها بظلفها . كل هذا والعدو من الاسبان يقتطع منهم بلداً بعد بلد ومملكة بعد مملكة ، وهم لاهون غارون في بذخهم وصلفهم وتحاسدهم وتطاحنهم ، فلم يفيقوا حتى ضيق عليهم خناقهم من الشرق والغرب والشمال ، وحتى تهددهم بالاجلاء

عن ارض الاندلس جملة ، ففزعوا الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك البربر من المرابطين يستصرخونه على عدوهم ، و ينشدونه بلسان حالهم :

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل والا فأدركني ، ولما أمزق

فجاءهم ابن تاشفين بجيوش البربر الجرارة فدحر الاسبان في موقعة الزلاقة الشهيرة ، وردهم الى أسوار طليطلة ، ورجع الى بلاده ، فرجع ملوك الطوائف الى ما كانوا عليه ، فكر يوسف عليهم وأخرجهم من ديارهم وأدخل ما بقي للمسلمين من ارض الاندلس في سلطانه ، ونقل كبار العلماء والكتاب وكل من يحسن صناعة الى مراكش حاضرة ملكه ، وولى عليها الولاة المسمّين بالسادة من ذوي قرابته . فخمل شأن الاندلس بالتدريج في العلم والادب ، وزالت منه أبهة الملك ، فقلت الرغبة من ولاة البربر في الاستئثار بالعلماء والادباء واستبطان ارباب الاجادة ، فتقاصرت الهمم عن التحصيل والدرس والاعتزاز بالعلم والادب ، بين الذين آثروا الاقامة بالاندلس لضعفهم عن الرحلة اولفضل تراث بقي في ايديهم عن آبائهم ، فربما جاشت نفوس هؤلاء بالشعر فأجادوه تكلاً او تطرّبا وتلهياً لا تكسباً وتثميراً كابن خفاجة وأضرابه .

ولما كان عهد ملوك الطوائف قصير الأمد كان أوائل رؤسائه وجلة علمائه وأدبائه ممن درجوا من مهد الدولة الأموية ، وربما أدرك بعضهم عصر مجد الدولة و بسطة سلطانها على اديم الجزيرة زمن المنصور ابن ابي عامر المعافري حيث العلوم مديدة الرواق ، والآداب وارفة الظلال ، والامن والعافية وخصب العيش وطيدة الدعائم ، فلم يؤثر تفرق الكلمة وتشتت الجماعة بادي بدء في الثقافة العامة ، فوجد كل مؤسس دولة من ملوك الطوائف من يشد أزره و يسد عوزه من أرباب السيف والقلم الذين خدموا الدولة العامرية او بني حمود العلويين وممن تزين بهم ملكه من الشعراء والندمان وارباب الفنون والصناعات الجميلة . فكان للملك منهم عدة وزراء نابهي الشأن في السياسة والعلم والكتابة والشعر . وكان له من المهندسين والبنائين والمزوقين من قاموا بتشييد تلك القصور البديعة ذوات الفرش الوثيرة والبساتين النضيرة التي خلبت لب ابن تاشفين على غرارته وعجميته ، وجعلته ينفس عليهم عيشهم ، و يستكثر عليهم ملكهم .

لذلك نعتبر عصر ملوك الطوائف من تتمة عصر نهضة اللغة وآدابها في الاندلس .

ولهذا ايضاً كان كثير من أدباء هذا العصر في عداد رجال الذخيرة لابن بسام والقلائد للفتح بن خاقان على الرغم من فوضى حكامه واختلال نظامه . ولكن لما فني القرن الاولون وخلفهم القرن الآخرون فتَّت تلك الفوضى السياسية في عضد الثقافة العامة ، وهاضت من جناح النبوغ في العلم والأدب وتدبير الملك والصناعات الجليلة ، وأخلَّت بالرخاء ورغد العيش . فلما اكتسح ابن تاشفين بسيط الجزيرة نقل عتاد ملك الاندلس وثقافته الى بلاده كما نقل ملوكه ولله عاقبة الامور .

ولا حاجة بنا في ترجمة اديبنا ان نسرد كل مملكة من ممالك الطوائف ، وما دخل في حوزتها من البلاد ، وانما نشير بايجاز الى نشأة كل من مملكة آل جهور وآل عباد وعاقبة امرهما لارتباط سيرة مترجمنا بهما .

آل جهور بقرطبة — يرجع نسبهم الى بني كلب احدى قبائل قضاعة . دخل ابو عبيدة اولهم الاندلس ، ونسل بها بنيه ، وسكنوا قرطبة ، ووزروا للناصر والمستنصر والمنصور ابن ابي عامر ، وكان منهم الوزير ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور عين أعيان قرطبة ورئيس الجماعة بها زمن الفتنة عند انفضاض الخلافة الأموية ، فانه استقدم المعتمد آخر من بويع من بني أمية بالخلافة الى قرطبة ، وبايعه ، وحمل اهلها على بيعته الاان الجند خلعوه ، ففر الى لاردة سنة ٤٢٠ هـ ثم هلك وانقرض به ملك بني أمية ، فقام جهور بضبط امور قرطبة والحكم بين الناس بها ملازماً بيته متباعداً عن قصر الخلافة ريثما يتفق الناس على إقامة خليفة فلم يتم لهم ذلك ، واستبد هو بامر الملك على زهادة وصلاح الى ان مات ودفن بداره سنة ٤٣٥ هـ وولي ابنه ابو الوليد محمد بن جهور وكان عالماً اديباً قارئاً ثم خلفه ابنه وكان سيء السيرة ، فحاصره ابن ذي النون بقرطبة وتظاهر المعتمد بن عباد بنصرته فأرسل جيشاً الى قرطبة فاستولى عليها ، وداخلوا اهل قرطبة ، فخلعوا ابن جهور وبايعوا المعتمد بن عباد ملك اشبيلية فولى عليها احد ابنائه .

آل عباد باشبيلية — اما آل عباد فأصلهم من لخم من جند حمص الشام دخل اولهم عطاف قرية بشرق اشبيلية ونسل بها بنيه ، وكان اول مستبد منهم بالملك القاضي ابو القاسم محمد بن ذي الوزارتين اسماعيل بن عبَّاد ، تولى القضاء باشبيلية واشترك في بيعة

القاسم المأمون بن حمود العلوي على اشبيلية ، ثم ثار عليه اهلها ، وولوا القاضي ابن عبّاد اميراً في صورة القاضي حتى هلك . وتولى بعده ابنه عباد مجاهراً بالملك ، وتلقب بالمعتضد وكان حازماً شديد الدهاء والجبروت ، فاتسع ملكه حتى عم غرب الاندلس ، ومات . وخلفه ابنه محمد المعتمد وامتد ملكه الى قرطبة ، فأخذها من آل جهور وذاع صيته وخدمه كثير من فضلاء الوزراء والادباء . وكانت اشبيلية في عصره مقصد الشعراء وقبلة كل محسن لصناعة ، الى ان نكبه الدهر واستولى على ملكه ابن تاشفين ونقله الى أغمات الى ان مات سنة ٤٨٤ ﻫ .

نشأة ابن زيدون — عاش ابن زيدون عيشتين : الاولى عيشته في قرطبة ، وهي عيشة تحصيل وكد ، ومزج هزل بجد ، والثانية عيشته بعد الفرار من السجن ، وهي عيشة غلب عليه فيها الجد والوقار والعظة والاعتبار .

حياته في قرطبة — ولد ابن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ ﻫ في ايام الدولة العامرية بعد موت الحاجب المنصور بن ابي عامر بسنة واحدة ، وفي اول عهد ابنه المظفر الذي كانت ايام حكمه كلها أعياداً رخاء عيش وأمان سرب ، وحكم قرطبة يومئذ ممتد باسبانيا من مدينة شنت يعقوب شمالاً الى أقصى بلاد السوس من المغرب الاقصى جنوباً ، واهل قرطبة مغمورون في الثروة التي اغدقها عليهم الناصر والمستنصر والمنصور بن ابي عامر وابنه المظفر مدة قرن من الزمان ، من المغانم الكثيرة والسبايا اللائي امتلأت بهن البلاد وجعل بخس اثمانهن شبان الاندلس يزهدون في زواج الحرائر . ففي ربوع هذه الغبطة وفي ظلال ذينك الأمن والعافية نشأ ابن زيدون في حجر أسرة نبيهة الشأن من رجالات الدولة وأعيان فقهائها . فوآد ذلك فيه حب التمتع باللذائذ والطيبات والاغتباط بمشاهد الانس والجمال ، كما وآد فيه كرم نجاره علوّ الهمة وتطلب ذرائع الشرف والرياسة في زمانه وبيئته : مثل وعي اللغة وحكمها وأمثالها ، والاحاطة بعلوم لسانها وحفظ القرآن الكريم ورواية الكثير من الخبر ومأثور النظم والنثر وحوادث التاريخ والقصص والنوادر فتهيأ له من ذلك فوق ذكائه الفطري مادةٌ اكسبته النبوغ في قرض الشعر وإجادة الترسل ولطف المحاضرة ، كما انتهت عادة بامثاله من أدباء الاندلس الى تسنم مرتبة الوزارة .

وقد كاد موت ابيه وهو بعدُ يافع لم يناهز الحادية عشرة من سنّه يكون عائقاً عن استكمال ثقافته وصارفاً له عن معاناة الكد ومضض التحصيل ، شأن كثير ممن حرمهم الزمان رعي عائلهم ، غير ان النشئة اذا كانت وطيدة الاسس نبيلة القصد شب الناشئ على ماعوّده ابوه ، ولم يعوزه في استتمام سعيه غير مراقبة هيّنة من ذوي قرابته ، وذلك ماتظنه مكفولاً في مثل بيت ابن زيدون ، وخاصة اذا اجتمع له في البيئة التي شبّ فيها كل مايرغب من صنوف العلوم والآداب ، وكثر بها عديد الفحول من العلماء والادباء ، لما كانت عليه قرطبة في ذلك العهد وهي يومئذ حاضرة الاندلس في كل شيء من علم وأدب ، وشارة ملك ، وجمال صناعة ، ونعمة عيش .

قضى ابن زيدون في هذه الحال بعد موت ابيه نحو ست عشرة سنة لانعرف بالتفصيل كيف قضاها ، ولكننا نستظهر انه كان في أُخر باتها معدوداً من شبان قرطبة البارعين في العلم والادب المشاركين بآرائهم ومساعيهم في شبوب نيران الثورة الكبرى في قرطبة تلك الثورة التي ابتدأت بزعزعة اركان الدولة الأموية ومنازعة دولة بني حمود العلويين لهم في الاختصاص بالملك ، وانتهت بانقراض الدولتين وتقسيم البلاد بين ملوك الطوائف . وقديماً وحديثاً كانت الثورات منبتاً خصباً لعظماء الرجال وارباب المزايا كما قد تكون مورداً لحتوفهم ، ولكلٍ ماقدر له ان سعادة اوشقاء فنرى ابن زيدون يظهر في فتنة قرطبة من كبار اهل الرأي والمشايعين لآل جهور في اختصاصهم بامارة قرطبة ، بل سماه الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان « زعيم الفتنة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهورية » وآل سعيه وسعي من على شاكلته الى انتخاب الوزير ابي الحزم جهور بن محمد ابن جهور حاكماً على اهل قرطبة ضابطاً لامورها حتى يتفق الناس على اقامة خليفة من الامويين ، ولكنه بدهائه ومظاهرة أمثال ابن زيدون أثّل ملكه وثبّت قدمه في الامارة وان لم يتّسم بها ، واختصّ من أنصاره بطانةً في هيأة الوزراء والمشيرين ، وعلى رأسهم مترجمنا .

قامت دولة ابي الحزم جهور سالكة طريق الحزم والعدالة ، والتظاهر بالتمسك بآداب الدين ، والرجوع بالناس الى آداب السلف والصالحين : قال ابن خلدون في ذلك « ولم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وكان على سنن اهل الفضل يعود المرضى ويشهد الجنائز

و يؤذن عند مسجدهم بالربض الشرقي ، و يصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس » وقال التيمي صاحب المعجب في تلخيص أخبار المغرب « وكان ابو الحزم هذا يشهد الجنائز و يعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الامور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمناً وادعاً ، وقرطبة في عصره حرمٌ يأمن فيه كل خائف . واستمر امره على ذلك الى ان مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ هـ فكانت مدة تدبيره منذ استولى الى ان مات اربع عشرة سنة وأشهراً ثم ولي ما كان يتولى من امر « قرطبة بعده ابنه ابو الوليد محمد بن جهور فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن ابيه غير مخل بشيء من ذلك الى ان مات في سلخ شوال من سنة ٤٤٣ هـ .

فدولة هذا شأنها من ملازمة الجد وايثار الضبط وبث الامن والتصون عن مواطن الريب والخلاعة لا تطيق العبث بملكها وفرط الدالة عليها حتى من الداعين اليها والحاطبين في حبلها ، اذ سيئاتهم محسوبة من مثالبها . ولم يكتف ابن زيدون وهو بعدُ شاب لم يبلغ الثلاثين باستغلال مسعاه في انشاء هذه الدولة بارتقاء منصب الوزارة والسفارة ، والانابة عن ابن جهور في مهمات الامور ، حتى سولت له دالته على مولاه ان يستغله ايضاً في مقارفة اللذات وغشيان مجالس الشراب ومخادنة الحسان ، فوجد اعداؤه في قناته مغمزاً في رأي جهور ، فأوغروا عليه صدره ، وروّج كيدهم له استهتاره بامرين يستدعيان الحذر .

الاول : انه أعلن التهتك والاستهتار بحب الاديبة الطائرة الصيت في ذلك العهد بالادب والجمال وحسن المحاضرة «ولادة» بنت المستكفي الخليفة الأُموي ، وكان لها بقرطبة مجالس أدب ومحاضرة يحتشد فيه أدباء قرطبة وشعراؤها وابناء الوزراء السابقين والاعيان المتقدمين ، تطارحهم الادب والاخبار ، وتباديهم في الملح والاشعار ، وكلهم معجب بادبها وجمالها جاهد في نيل الحظوة عندها والتقرب منها ، فاستبق الجميع الى قلبها وعاليهم اديبنا ابن زيدون ، وهو يومئذ وزير الدولة الجهورية . فيظهر ان جهوراً أوجس خيفةً من حشد يجتمع في بيت من بيوت الخلافة الاموية ان يصير امره الى كيد لدولته وألب على سلطانه ، وخاصة اذا كان أقربهم الى الولوع في الشرك وزير دولته وأقدرُهم على السداد القلوب عليه . ورأى مزاحموه في حب «ولادة» وحاسدوه على مكانه من وزارة جهور ان الفرصة في ابن زيدون ممكنة فسعوا به اليه ، وجعلوا ظنه يقيناً .

وصادف ذلك دالة من ابن زيدون عليه لقديم ولائه عنده ، وسعيه في قيام دولته فعاجله بالحبس ، وتغدى بابن زيدون قبل ان يتعشى هو به .

او أن جهوراً انكر من ابن زيدون لهوه وخلاعته وانقطاعه الى مايكون تغاضيه عنه قادحاً في دولته جالباً على سمعته المعرة وسوء القالة ، فحسم الداء قبل استشرائه .

الثاني : ان جهوراً كان يسفره الى ملوك الطوائف ، وزعماء الموالي العامريين من البربر والسودان ، المنتزين على أملاك الخلافة في كثير من المشكلات السياسية ، فيكلل مسعاه بالنجاح ، وتقع بلاغته في رسائله اليهم من نفوسهم موقعاً ، فحسدوا جهوراً عليه ورغب كل في استمالته اليه ، وشد أزر دولته به ، كاراً يذاك في كل دولة عظيمة اقتسمت رقعتها ملوك طوائف وزعماء شيع ، فكانت كل دولة منها تجهد ان تجتذب الى دعوتها فحول الرجال ، وتبذل النفيس في اصطناع العلماء والشعراء والكتاب ، فجعلهم عماداً لها وزينة لملكها : كالدول التي تألفت من تشتت شمل الدولة العباسية : من الدول البويهية والسامانية والحمدانية والاخشيدية والفواطم ، وكالدول التي انعقدت من الخلال دولة السلجوقيين ، ودولة صلاح الدين الايوبي ، ودولة الموحدين بالمغرب ، وفي كل ذلك ترى العلماء والشعراء وكل ذي مزية يُدل على سلطانه بنفاق سوقه ، ويهدده بالانضواء الى غيره ، وفي حياة المتنبي والبديع والخوارزمي والشريف الرضي وابن نباتة السعدي وابن سينا والفارابي والرازي وابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم شاهد صدق لذلك .

فيظهر ان ابن زيدون كان يدل على مولاه بسابقته عنده ، ومكانه من نفوس ملوك الطوائف كما أشار بل صرح بذلك في كثير من شعره ونثره ، حتى في رسائله التي استشفع بها وان اجتماع كلتا الحسنيين في خادم دولة كاف لايغار صدر المنفرد بها بمجد الملك والعظمة ، فهو لا يطيق من مؤسس مملكته دالته عليه ، ويغار على سلطته معه من مزاحمته فيها ، فيتعجل نكبته : كما فعل عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد ، والمنصور العباسي بابي مسلم الخراساني وعبد الرحمن الداخل بمولاه بدر ، وعبيد الله الفاطمي بابي عبد الله الشيعي الداعية ، وغير هؤلاء كثيرون ممن لا يحصون عدداً .

نكب جهور وزيره ابن زيدون وسجنه سجن اعتقال مرفهاً عليه في العيش ومكاتبة الناس

ثم حرد عليه لسبب ما وجعله في سجن اللصوص والمجرمين . ولعل ذلك كان بسبب الرسائل التي كتب بها الى الناس والى مخدومه يعدد بها أعماله في توطيد امر جهور ويمتن بذلك عليه .

لبث ابن زيدون في السجن بضع سنين ، ولكن كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ اما الاول فيجيبنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية البليغة :

سنون من الايام خمس قطعتها   اسيراً وان لم يبد شد ولا ربط

واما الثاني فيجيبنا هو ايضاً عليه بقوله من قصيدته الرائية التي كتب بها من السجن الى ابي الحزم جهور :

لم يطو برد شبابي كبرة وأرى   برق المشيب اعتلى في عارض الشعر
قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كثب   وللشبيبة غصن غير مهتصر

ونحن نعلم ان انقطاع دعوة بني أمية من قرطبة كان سنة اثنتين وعشرين واربعمائة ، ونعلم ان مولد ابن زيدون كان سنة اربع وتسعين وثلاثمائة ، فإذن كان بدء خدمته في دولة آل جهور وهو في الثامنة والعشرين من عمره .

واذا قدرنا انه بعث بهذه القصيدة في مبدإ اعتقاله كما هو الظاهر اذ قد صرح فيها بانه لم يبلغ الثلاثين كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين ، وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة اربع وعشرين واربعمائة ، او اول خمس وعشرين واربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استعطف فيها اباالحزم جهوراً واستشفع عنده بابنه ابي الوليد محمد بن جهور ، وكان اليفه وصديقه من قبل ، وبغيره من الرؤساء ووجوه قرطبة ، وبث اليه واليهم شكواه بعدة قصائد أبدعها ، ورسائل استنفد فيها جهده ، ومن ذلك رسالته الجدية الشهيرة ، فما ألانت منه قلباً ولا ثنت له عطفاً .

فأعمل الحيلة في الفرار من سجنه فتم له ذلك ، وتوارى مدة في قرطبة والزهراء حتى سكن غضب جهور عليه بشفاعة ابنه ابي الوليد محمد بن جهور وكثير من الفضلاء ، وأذن له في الظهور ، ولكنه لم يجد له مساغاً من نفوس آل جهور ومن نفسه ان يستعيد عندهم حظوته الاولى ومنصبه القديم ، فرغب في عرض ادبه وكفايته على ملوك الطوائف ، وتنقلت به الاحوال من دولة الى أخرى حتى القى العصا في مملكة آل عباد سنة ٤٤٤ .

وهنا تبتدىء حياته الثانية بعد فراره من السجن وخدمته غير آل جهور . وقبل ان نذكر شيئاً عن حياته الثانية نرى انه من المناسب ذكر شيء من اخباره مع ولادة .

اما ولادة هذه فأميرة أديبة أموية . ومع بعد صيتها جاءنا اسم ابيها مختلفاً فيه فقد كُتب في قلائد العقيان غير مرة انها بنت المهدي من الخلفاء المتخلفين الذين ولوا أزماناً قصيرة زمن الفتنة البربرية . وكذلك كُتب في تاريخ المعجب للتميمي ، و كُتب في نفح الطيب نقلاً عن ابن بشكوال انها بنت المستكفي من اولئك الخلفاء . غير اننا نرجح الأخير ، ونظن ان ذكر المهدي سهو من الفتح او تحريف من نساخ قلائده وان كان تحريف المستكفي الى المهدي غريب لتباعدهما في الرسم فان الاوصاف التي ذكرها ابن بشكوال وغيره في ابيها تنطبق على المستكفي اكثر من انطباقها على المهدي و يضيق بنا المقام عن ذكر النصوص الدالة على هذا الترجيح .

وفيها يقول ابن بشكوال في الصلة :

« كانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الادباء وتفوق البرعاء ، وعمرت طويلاً ولم تتزوج قط ، وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ثمانين واربعمائة ، وقيل اربع وثمانين رحمها الله تعالى . وكان ابوها المستكفي بايعه اهل قرطبة لما خلعوا المستظهر .... وكان خاملاً ساقطاً . وخرجت هي في نهاية من الادب والظرف ، حضورَ شاهدٍ ، وحرارةَ أوابد ، وحسنَ منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو اهل الادب الى ضوء غرتها ، و يتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وعلى سهولة حجابها وكثرة منتابها . تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم انساب ، وطهارة أثواب ، على انها اوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها اه » .

وفيها يقول صاحب المغرب :

« انها بالمغرب كعلية بالمشرق الا ان هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . واما الادب والشعر النادر وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك اه » .

أحب ابن زيدون هذه الاديبة حباً مفرطاً جرعليه وعليها سوء القالة على عفافها وصيانتها . وكانا يتهاجران ، يتهاجيان حتى بلغ بها الهجو حد الاقذاع ، ومع ذلك صرح غير مرة في شعره بانها لاتنال ، وان وصالها في منزلة المحال . وفيها يخاطب الوزير اباعامر ابن عبدوس مزاحمه في حبها في نوبة هجر منها لابن زيدون وصفو لابن عبدوس :

وغرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض
هي الما يعز على قابض ويمنع زبدته من مخض

وابن عبدوس هذا هو الذي كتب اليه ابن زيدون رسالته الشهيرة الهزلية على لسان ولادة جواباً لرسالة بعث بها اليها مع عجوز يستريث وصلها ، و يستعطف قلبها ، وستصفها بعد .

وتتبع اخبار ولادة وشعرها في الغزل والهجو والتماجن يخرجنا عما قصدنا اليه . وكل ماينبغي ان نشير اليه هنا هو تأثير حبها في ابن زيدون : شعره وخلقه . اما في شعره فذلك الغزل الرقيق ، لايصدر الا عن حب عميق ، واما في خلقه فقد خلع فيها العذار ، وجانب الوقار ، وعادى الأحرار ، وقامر بمنصبه وجاهه جد قمار ، واستعقب الحبس والاسار . وسنأتي بعد على طرف من غزله فيها وتشوقه اليها .

واذا قدرنا انه فر من السجن سنة تسع وعشرين واربعمائة فعلى اي حال قضى هذه الاثنتي عشرة سنة ، وما الدول التي اتصل بها ؟ هذا السؤال يجيبنا عليه الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان بجواب مجمل ولفظ مبهم فيقول :

« ولم تزل الايام تدنيه وتبعده ، وتسوؤه وتسعده ، وتقذف به الى كل نازح ، وتطرف أمله بعين اللاعب المازح ، حتى أحلته بلنسية وهلال ذهابه كما أقمر ، وغصن نباهته يانع قد أثمر ، وبنو عبدالعزيز نشروملكها ، ودرر سلكها ، يفيضون بحور الندى ، ويومضون في كل منتدى ، فحل منهم محل الحيا في الكؤوس ، ووقع منهم مواقع البشائر في النفوس . وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة تغازله ، ومكارمة تفاديه . ومجاملة كرائح القطر وغاديه . فلما انفصل ، وحصل فيما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونوار عمره قد صوح ، وغصن سنه قد دوح . فلم يجد الا له طيبا ، ولم يبصر غيرلننه غصناً رطيباً ، فكتب الى ابن عبد العزيز :

راحت فصح بها السقيم ريح معطرة النسيم
مقبولة هبت قبو لا فهي تعبق في الشميم
أفضيض مسك ام بلن سية لرياها نميم
بلد حبيب أفقه لفتى يحل به كريم
إيه ابا عبد الالـ ه نداء مغلوب العزيم
ان عيل صبري من فرا قك فالعذاب به اليم
او اتبعتك حنينها نفسي فانت لها قسيم
ذكرى لعهدك كالسها د سرى فبرح بالسليم
مهما ذممت فما زما ني في ذمامك بالذميم
زمن كمألوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم
أيام أعقد ناظري بذلك المرأى الوسيم
فأرى الفتوة غضة في ثوب أواه حليم
الله يعلم ان حبـ ـك من فؤادي في الصميم
ولئن تحمل عنك في جسم فعن قلب مقيم
ثم السلام تبلغنـ ـه بقلب مهديه السليم

وفي ايام مقامه ببلنسية وتشوقه الى بلاده قال :

غريب بارض الشرق يشكر للصبا تحملها منه السلام الى الغرب
وما ضر انفاس الصبا في احتمالها سلام فتى يهديه جسم الى قلب »

وبنو عبدالعزيز الذين يذكرهم صاحب القلائد هم من أحفاد المنصور بن ابي عامر اقام مواليهم من البربر دولة لهم في شرقي الاندلس وهي المعروفة بدولة العامريين ومواليهم من البربر ، وكان للمنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الناصر بن المنصور بن ابي عامر منهم دولة عتيدة دامت نحو ٤٠ سنة زمن الثورة وبعدها .

ولم نعلم المدة التي خدمهم فيها ابن زيدون وانما نفهم من سرد هذه النبذة انه غادر بلنسية لا عن موجدة عليه من ملوكها ، وانما هو الشوق الى وطنه غربي الاندلس جره الى ان خدم ملك الغرب المعتضد بن عباد .

« حياته الثانية »

خدمته آل عباد – لم يطب لابن زيدون عيش في خدمة العامريين بشرقي الاندلس ابعدها عن وطنه ولأنه رأى ان لاأمل في رجوعه الى قرطبة الا اذا انتزعها منهم ملك يعيش في كنفه من ملوك الطوائف . فلم يصدق ظنــه الا على ابن عباد ملك اشبيلية . وكان أشدهم شكيمة وأوسعهم رُقعةَ مُلكٍ . فأخذ يرتاد امور إشبيلية ويتعرف إمكان الرحلة اليها بمكاتبة عظمائها وامتداح ملكها . ولما وجد الفرصة موائية رحل اليها . وبالغ المعتضد في الاحتفاء به . فاتخذه وزيراً وسميراً وسفيراً على شدة بطشه وجبريته وفتكه بكل عظيم يرتاب فيه من عظماء دولته حتى ولده الاكبر وولي عهده . فعجب الناس من ابن زيدون كيف اهتدى الى مداراة هذا الجبار واستدامة مودته له . وكيف عجز عن استصلاح حاله مع ابن جهور على صلاحه وعدله . وكأنهم غفلوا عن ان الدهر نعم المؤدب .

ولم يزل عند المعتضد اثير المنزلة . موفور الغبطة . مقبول المشورة في الخير والشر . فأكثر عنده من الكيد لمنافسيه في الدولة والوقيعة بهم ليخلو له وجهه . ويخلص له وده . وفتك المعتضد بتدبير ابن زيدون بكثير من أعيان الدولة . وبقي مخشي الجــانب حتى مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد فرعى فيه ثقة ابيه وأخلص له ابن زيدون نيته ونصيحته . ومازال يغريه بملك قرطبة ويراسل أعيانهــا يستميل جانبهم الى المعتمد حتى نجح سعيه . وساق المعتمد جيشه الى قرطبة . فانتزعها مــن آل جهور وضمها المعتمد الى مملكته وولى عليها ابنه سراج الدولة اسماعيل ففاجأه ثائر بها يدعى ابــن عكاشة فقتله . فعسكر المعتمد عليها واستعادها .

وعاش ابن زيدون في دولة المعتمد محفوفاً برضاه منظوراً بعين ثقته . وكاد له بقية خصومه ومنافسيه عند المعتمد مراراً فلم يسمع لقولهم وأمعن في تحقيرهم وهجوهم . ويقــال ان إخفاقهم في الوشاية وقع بآخرة من نفس المعتمد . ولكن منية ابن زيدون عاجلته باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ . وخلفه ابنه ابوبكر في وزارته للمعتمد كما ذكرنا من قبل . ومن الغريب ان الصفدي وهو مؤرخ كبير بعد اذ ذكر ان وفاته كانت سنة ٤٦٣ هـ وانه دفن باشبيلية ناقلاً ذلك عن شيخه الذهبي العلامة المؤرخ الثقة عاد ونقل خطأً عن ابن بشكوال انه مات سنة ٤٠٥ هـ

في مدينة ألبيرة ونقل الى قرطبة ودفن بها ومولده سنة ٣٥٤ ه . ثم لم يكتف بهذا الخطأ حتى عقب عليه بقوله « قلت ولعل الذي قاله ابن بشكوال الصواب على ان ابن بسام قال في الذخيرة توفي سنة ٤٦٣ وكان يخضب بالسواد » . مع انه لو راجع نفسه قليلاً لوجد انه في سنة ٤٠٥ لم تكن دولة بني أمية ولا دولة بني حمود قد زالتا من الوجود . فكيف كانت توجد دولة بني جهور وزراء العامريين ودولة بني عباد وزراء الحموديين وهما الدولتان اللتان خدمهما ابن زيدون . وأغرب من هذا ان بعض من كتب في حياة ابن زيدون من العصريين جعل هذا خلافاً في موته ومكان دفنه مع انه نفسه نقل في اول ترجمة ابن زيدون ان الذي مات سنة ٤٠٥ بالبيرة ونقل الى قرطبة ودفن فيها هو والد ابن زيدون . والذي جر الى هذا الخلط بين كليهما ان ابن خلكان بعد ان ذكر وفاة ابن زيدون على صحتها قال : « وذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة اباه وأثنى عليه وقال : كان يكنى ابابكر وتوفي بالبيرة سنة خمس واربعمائة ونقل الى قرطبة فدفن بها . وكانت ولادته سنة اربع وخمسين وثلاثمائة وكان يخضب بالسواد » .

فيظهر ان الصفدي صحف فقرأ لفظ (أباه) بالموحدة (اياه) بالمثناة ولم يفطن لوقائع التاريخ وجاراه معاصرنا فنقل هذا الخلاف الموهوم ولله في خلقه شؤون .

اخلاق ابن زيدون — شب ابن زيدون على سعة علمه وغزارة أدبه وكرم محتده مولعاً بالطرب مشغوفاً بمبادرة اللذات ومعاقرة الشراب ومخادنة القيان ومؤانسة الحسان كبير الأثرة بالتفرد من ذلك بكل مرغوب . فجرّ ذلك عليه حب ولادة ومنافسة دهاة الادباء في الاختصاص بها وعرض نفسه للهلاك مراراً من جرائها .

ولكثرة ثقته بنفسه لما يفطن لكيد خصومه عند ابن جهور حتى وقع في شرك نكبته . فخرج من السجن ناقماً على النظراء والمنافسين متحيناً الفرصة لتعجيل النكاية بهم قبل ان يعاجلوه . وكانت نكبة جهور درساً بليغ الاثر في نفسه استفاد منه بقية حياته فعلمته حسن المداراة وتملق الرئيس فنجا من يد ذلك السفاح عباد المعتضد بل جعله سيفاً ماضياً يقطع به أعناق خصومه . وكان ابن زيدون مع نزقه واستهتاره في شبابه وغدره باصحابه

عالي الهمة · لايقنع من دولة ملك الا باقتراح منصب وزارته · والاخذ بناصية منادمته ومشاورته ·

علمه وأدبه وبديهته — نشأ ابن زيدون في عصر اختل فيه نظام ملك بني أمية فجأة بثورة البربر المشؤومة · وقامت هذه الثورة وآثارا لحضارة في كل شيء من علم وادب وفنون ضاربة بجرانها في قرطبة · لكانت غاصة بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبتوا في عصر المنصور الحفيّ · اصادف ابن زيدون مَنْ نهل من علمهم وكرع من أدبهم · وكان ابوه وعشيرته من اهل الفقه والادب فلم يكن اقباله على ما اخذ به أهلوه انفسهم بدعاً من نفسه . وانما جرى في مضمارهم فبذهم علماً وادباً · وبعد صيت وعلو همة · « للبحث صلة »

مصر (القاهرة) : احمد الاسكندري
عضو المجمع العلمي العربي

كتب الادب القديمة والحديثة

—«×»—

خزانة اللغة العربية مكتظة بكتب الادب القديمة حتى يخيل الى المنقب والباحث انها ليست في نوع من العلوم أغنى منها في هذا النوع لان المتقدمين كتبوا كثيراً في هذا الفن وافتنوا فيه افتناناً يدل على جلالة هذا العلم عندهم وشدة اهتمامهم به ورسوخهم فيه .

ولكن أسلوبهم في هذا التراث العظيم الذي خلفوه لاعقابهم بالامس غير ما يتطلبه أعقابهم اليوم من حل (تحليل) لنفسية الاديب كاتباً كان ام شاعراً ام خطيباً . ودرس لأسلوبه واستنباط لخصائصه المختلفة من بيئة ووراثة وتجية وتمحيص لاغراضه وأخيلته وبيان ماجوّد فيه ومالم يجوّد الى غير ذلك مما أودعه آثاره التي تركها ذخيرة لمن بعده .

ان طالب الأدب على هذا النمط الحديث اذا حاول درس شيء ما تقدم وأراد الرجوع الى كتاب من كتب الأدب القديمة لينقب فيه عن ضالته التي ينشدها اعترضه في طريقه مالم يكن في حسابه من العقبات التي تجعل غايته بعيدة المنال .

فهو اما ان يرى أمامه بحراً يصعب عبابه . من سرد الروايات واختلاف طرقها وتعدد وجوهها وتمحيصها فلا يكاد يصل الى اقتناص ما يحاوله الا بشق الأنفس ناهيك مما يمر به في طريقه من اسهاب فيما لاعلاقة له بالموضوع الذي يبتغيه . وربما نسي ما يعنيه اثناء اجتيازه مالا يعنيه .

واما ان يسقط به الجد على كتاب سلك سبيلاً من الايجاز لا يتمكن معه من الالمام بشيء ما يلتمسه الا كحسوة الطائر .

واما ان يصطدم بعقبات صعبة المرتقى من الكلمات الغريبة والعبائر العويصة بحيث لا يقطع واحدة منهن حتى يستقبل اوعر منها سبيلاً واصعب مسلكاً .

فلا يمضي بعد قليل من الزمن ان تملك عليه السآمة سبيله او يلح عليه الاعياء باعبائه وتضمحل رغبته فيهيم في مجهل لايدري مخارجه من موالجه ·

وهو بعد هذا كله اذا ظفر بشيء مما يبتغيه فانما يظفر به شعاعاً في مطاوي الصحائف وتضاعيف السطور كما يجد المحصل قطع الفضة في المعدن ولا يعلم الا الله مايكابده في تنقيتها وتصفيتها ثم جمعها وسبكها ثم افراغها في القالب الذي يود افراغه فيه ثم عرضها بعد ذلك على أذواق تختلف في استحسانها واستهجانها ·

وقد كنا نود ان نطيل القول في طلل هذه المآخذ ومايؤخذ به ونضيف الى ذلك مانراه من الأدوية الناجعة لها ·

لولا اننا رأينا هذه الكتب على علاتها خيراً مما تخرجه لنا قرائح الادباء في هذا العصر وتخطه أقلامهم فان الباحث الممعن في الكتب القديمة يجد من تحقيق في المسائل والتثبت في الرواية والنقل وروية في الحكم وتمحيص في المباحث فالأدلة ووثوق باللغة وصحة في الضبط مالايجد معشاره في خير ماأخرجه العصر الحاضر للناس من كتب هذا الفن ·

وان الباحث في الكتب الحديثة ليرى من جمال الوضع ورقة الأسلوب وصفاء الديباجة والقرب ما يتطلبه المتأدب في هذا العصر ، مايصبي القلوب ويخلب الالباب ، يروع المسامع ولكنه لا يلبث ان يجد تحت هذا الطلاء المزيف الخلاب · من التهاون بالضبط والتثبت · وقلة العناية بالتمحيص والتحقيق أضعاف ما وجده من روعة التعبير وجمال الأسلوب ·

ومن انكر النكر ان ترى كتب المتقدمين يتولى طبعها ونشرها فريق من المتأخرين فيصدرها بمقدمات طافحة بتقريظ نفسه والثناء على ماستنفده من المجهود وكابده من المشاق في تنقيحها وتهذيبها وشرحها وتصحيحها و و الخ · حتى يخيل اليك ان هذا الكتاب براء من كل شائنة وشائبة ثم لاتكاد تقرأ بضعة عشر سطراً حتى تجد من شواهد الاهمال وأدلة التهاون ، والهفوات الفاضحة والخطيئات الواضحة ، مالا يسعك معه تصديق شيء مما نطقت به تلك المقدمات الطويلة ولاالوثوق بشيء من ذلك الكتاب ·

وامل القارئ يكبر مانقول او يعده ضرباً من المبالغة والتهور بل أونوعاً من التحامل بغير حق ولكننا نورد له مثالين يتبين منهما ان التأليف والطبع اصبحا في هذا العصر

الحديث ضرباً من الاتجار وان الكتب أصبحت كالسلع يحرص فيهـا على اكتساب المال اكثر مما يحرص على خدمة العلم ٠

المثال الاول : كتاب تاريخ الادب العربي للاستاذ الكاتب المجيد الطائر الصيت السيد احمد حسن الزيات فانه والحق يقال أبدع ماخطته انامل كاتب في هذا الفن المتأدبين في هذا العصر ٠

فقد يروعك منه جمال أسلوبه وعذوبة ألفاظه وحسن تأتّيه ولا تكاد تجد فيه مغمزاً لغامز الا ان الاستاذ مؤلفه على جلالة فضله وغزارة ادبه بخسه حقه من التصحيح والتثبت في اختيار النماذج فجاءت فيه هنات كالبثرة في وجه الحسناء والكلف في صفحة البدر ٠

المثال الثاني : كتاب زهر الآداب للحصري قام بطبعه ونشره وتنقيحه وتصحيحه وشرحه وو ٠٠٠ الدكتور زكي مبارك ٠ وهذا الكتاب تغني شهرته في عالم الأدب عن الاطناب في التعريف به ٠ وقد جاء بعد الطبع والتنقيح والتصحيح غاصاً بالخطإ المشين مكتظاً بالغلط المزري به ٠ وقلما تمر بالقارئ صفحة لا يرى في خلالها خللاً اولوثة تجعل بينه وبين المعنى المراد سداً منيعاً ٠ ورب شرح قلب المعنى من حسن الى قبيح وكان كالجرح الممد في صفحة الوجه الصبيح وستأتي أدلة ذلك وشواهده ٠

وقد آثرنا البداءة بالكلام في كتاب « تاريخ الادب » السابق ذكره وجعلنـا القول فيما رأيناه فيه على نوعين :

الاول في النماذج التي أوردها لشعراء عصر واصحابهـا من رجال عصر آخر و يندمج في هذا النوع بعض الخطأ التاريخي ٠

والثاني في بيان ماجاء من الكلم مضبوطاً بشكل مخالف لما عليه أئمة اللغة واعلامها و يندرج فيه بعض الابيات التي نسبها الى شخص وهي لغيره ٠

النوع الاول وقد رتبنا الكلام فيه على ترتيب العصور في الكتاب ليسهل الرجوع اليه ٠

« العصر الجاهلي »

١ — قال عند كلامه في الشعر عند العرب انه ديوان علومهم وحكمهم وسجل وقائعهم وسيرهم ٠٠ وكانوا كلهم يروونه وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر الخ ٠ وذكر في الذيل ان من الشعراء من كانوا يروون وينقحون فسموهم عبيد الشعر لذلك كزهير

وعدي بن الرقاع ثم اورد بيتاً لسويد بن كراع · ومن البين ان سياق القول في الشعر عند العرب الجاهليين بدليل قوله عقب ذلك حتى روى عنهم من الشعر الوجداني في قرن ونصف مالم يرو عن أمة الخ · وعدي بن الرقاع شاعر أموي كان مقدماً عند الوليد بن عبدالملك · وكان ينزل الشام وقد عده ابن سلام في الطبقة السابعة من شعراء الاسلام · وقال ابن قتيبة في الشعر والشعراء انه من احسن من وصف ظبية وولدها وهو القائل يصفها :

تزجي اغن كأن ابرة روقه   قلم أصاب من الدواة مدادها

وترجمته في الاغاني وشواهد المغني للسيوطي · وذكر صاحب الاغاني ان جريراً دخل على الوليد وعنده عدي بن الرقاع الى آخر القصة ·

٢ — وذكر في نماذج الشعر الجاهلي من قول المرقش الاكبر :

ان تبتدر غاية يوماً لمكرمة   تلق السوابق منا والمصلينا

وقد نسبها ابن قتيبة في الشعر والشعراء الى نهشل بن حري وصدّرها بقوله :

انا بني نهشل لا ندعي لاب   عنه ولا هو بالابناء يشرينا

ونسبها في شرح الحماسة الى بشامة بن حزن النهشلي وكذلك المبرد في الكامل، وصاحب لسان العرب · وقد عد ابن سلاّم نهشلاً في الطبقة الرابعة من الشعراء الاسلاميين، والبيت الاول يشهد انها ليست للمرقش ·

٣ — وذكر في نماذج هذا العصر ايضاً ابياتاً وهي :

اطل حمل الشناءة لي وبغضي   وعش ما شئت فانظر ما تضير الخ

ونسبها الى عنترة الاخرس من طيّ ·

وفي الاغاني انها لعبد الله بن الحشرج على الاصح وقد كانت وفاته نحو سنة ٩٠ ·

٤ — وذكر في نماذج هذا العصر قصيدة للصمة بن عبد الله بن طفيل مطلعها :

حننت الى ريّا ونفسك باعدت   مزارك من ريّا وشعبا كما معا

والصمة هذا شاعر اسلامي من شعراء العصر الأموي كما ذكر ذلك صاحب الاغاني والبغدادي في الخزانة وصاحب معاهد التنصيص ·

٥ — وذكر ابياتاً وهي :

سلي البانة الغيناء بالاجرع الذي   به البان هل حييت اطلال دارك الخ

ولم يسم قائلها وهي لعبد الله بن الدمينة .
ثم أردفها بقصيدة لابن الدمينة المذكور مطلعها :
الا يا صبا نجد متى هجت من نجد · لقد زادني مسراك وجداً على وجد الخ
وابن الدمينة شاعر اسلامي كما في شرح شواهد المغني للسيوطي وغيره .
٦ — وذكر في نماذج هذا العصر ابياتاً وهي :
هواي مع الركب اليمانين مصعد · جنيب وجثماني بمكة موثق الخ
ونسبها الى جعفر بن حلبة الحارثي . والصواب ابن علبة وهذا الشاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كما صرح بذلك صاحب الاغاني والسيوطي وغيرهما .
٧ — وذكر ايضاً في نماذج العصر الجاهلي بيتين للمؤمل المحاربي اولها :
وكم من لئيم ود اني شتمته · وان كان شتمي فيه صاب وعلقم
والمؤمل المحاربي من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وكانت شهرته في العباسية اكثر لانه كان من الجند كما ذكر ذلك صاحب الاغاني . وقال في نكت الهميان ان المؤمل توفي في حدود التسعين والمائة وهو القائل في مسجد الكوفة يوم توفي المهدي (مات الخليفة ايها الثقلان) فقال جماعة هذا أشعر الناس . ثم قال (فكأنني أفطرت في رمضان) . فضحك الناس به .
٨ — وذكر في نماذج هذا العصر ابياتاً لشبيب المري اولها :
واني لتراك الضغينة قد بدا · ثراها من المولى فلا استثيرها الخ
وشبيب هذا شاعر اسلامي من شعراء الدولة الأموية كما صرح بذلك صاحب الاغاني . وقد عده ابن سلام الجمحي في الطبقة الثامنة من الشعراء الاسلاميين .
٩ — وذكر في نماذج هذا العصر بيتين عزاهما الى سالم بن وابصة الاسدي اولها :
اذا ما انت من صاحب لك زلة · فكن انت محتالاً لزلته عذرا
وسالم هذا من شعراء الدولة الأموية قدم دمشق وسكنها وولي الرقة مدة طويلة . ومات في آخر خلافة هشام كما ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه .

« العصر الأموي »

١٠ — وذكر في نماذج العصر الأموي أبياتاً لعمرو بن الاطنابة اولها :

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح الخ

وعمرو بن الاطنابة جاهلي كما صرح بذلك صاحب الاغاني والسيوطي · وكان ملك الحجاز ·

« العصر العباسي »

١١ — وذكر في نماذج العصر العباسي لسان الدين بن الخطيب وقد كانت ولادته سنة ٧١٣ والعصر العباسي ينتهي سنة ٦٥٦ فالصواب ذكره في العصر الذي يليه ·

١٢ — وفي صفحة ٢٧٥ ذكر ان ابن بابشاذ توفي سنة ٤٩٩ وقد ذكر ابن خلكان ان وفاته سنة ٤٦٩ ·

١٣ — وذكر في ص٣٠٦ ان البخاري خرج الى مكة سنة ٤١٠ في حين انه توفي سنة ٢٥٦ فالصواب انه خرج سنة ٢١٠ ·

١٤ — وذكر في ص٣٢٥ ان الفرنج ابتلعوا دويلات الاندلس لقمة سائغة سنة ٨٩٨ه ثم قال بعدها : ودالت دولة الفاطميين والمصريين في مصر والشام فوقعنا في يد الأمويين ثم صارتا الى المماليك وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٣ · ولعل الأمويين محرفة عن الايوبيين ·

وذكر في ص ٢٩٣ ابن مالك النحوي في نحاة العصر العباسي وقد كانت وفاته سنة ٦٧٢ ·

وذكر في ص٣٠٤ في الكلام على التاريخ ابا الفداء وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري · وكلهم ممن توفي بعد انقضاء العصر العباسي فالاول توفي سنة٧٣٦ والثاني سنة ٧٠٢ والثالث سنة (···) والرابع سنة٦٨٥ ·

النوع الثاني :

١٥ — ذكر في ص ١٨ · عذيرُك مَن خليلُك من مُراد · ضبط كلاً من عذير وخليل بضم الراء واللام ومن بفتح الميم وقد ذكر هذا الشطر صاحب اللسان· وقال بعده : يقال عذيرَك من فلان بالنصب اي هات من يعذرك فعيل بمعني فاعل يقال عذيري من فلان اي من يعذرني ونصبه على اضمار هلم معذرتك اياي ·

١٦ — وفي ص٤٣ · قال نشأ زهير بن ابي سلمى بن رَبيعة بن رَباح · ضبطها بفتح

الراء والباء الموحدة . والصواب انه بكسر الراء ثم بالياء المثناة التحتية كما ضبطه السيوطي في شرح شواهد المغني والبغدادي في الخزانة والنووي في التهذيب .

١٧ — وفي ص ٤٤ قال : سعى ساعياً غيض بن مرة . والصواب غيظ بن مرة كما في اللسان والاعلم الشنتمري والتبريزي .

١٨ — وفي ص ٧٠ . قال مفصل الآيات مزدوَج الكلمات . ضبط مزدوج بفتح الواو والصواب الكسر لان اسم المفعول لا يبنى من اللازم .

١٩ — وفي ص ٧٤ في الأمثلة التي اوردها من القرآن الكريم . قال وان يُخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده . ضبط يخذلكم بضم الياء والصواب بفتحها .

٢٠ — وفي ص ٧٣ اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم . ورسم تنسون بالتاء المثناة والثاء المثلثة . والصواب وتنسون انفسكم

٢١ — وفي ص ٧٤ . من يعمل سوءاً يجز به ولا يجدُ له من دون الله وليًا ولا نصيرا . ضبط يجد بالضم . والصواب بالجزم .

٢٢ — وفي الصفحة نفسها . ومن اوفى بما عاهد عليـه الله . ضبط هاء عليه بالكسر وهاء الله بالضم . والصواب ضم الاولى وفتح الثانية .

٢٣ — وفي ص ٨٥ . قال وقطري بن الفجاءة . ضبط قطري بضم القـاف والصواب بفتحها .

٢٤ — وفي ص ٩١ . وهو يعلم ان ضلعها معها . ضبطهـا بكسر الضاد وفتح اللام . والصواب فتح الضاد وسكون اللام كما في اللسان .

٢٥ — وفي ص ٩٣ . للحارث بن كلدة ضبطها بفتح الكاف وسكون اللام والصواب بفتحها كما في اللسان وتهذيب الاسماء للنووي . وفي المصباح الكلدة القطعة الغليظة من الارض والجمع كلد مثل قصبة وقصب و بالمفرد سمي . ومنه الحرث بن كلدة الطبيب .

٢٦ — وفي ص ١٠٢ . فذخرت بحور المدح والفخر بالذال والصواب فزخرت بالزاي .

٢٧ — وفي ص ١٠٦ . سبقوا هوِيَّ واعنقوا لهواهم . ضبط هوي بكسر الواو والصواب بفتحها كما في لسان العرب بقلب الالف ياء مع ياء المتكلم كما هي لغة هذيل . يقولون هوَيّ وعصَيّ وقفَيّ .

٢٨ — وفي الصفحة نفسها .

فالعين بعدهم كأن حداقها كحلت بشوك فهي عَورا تدمع

ورواية البيت : سملت بشوك فهي عُورٌ تدمع . قال في اللسان فاما قول ابي ذؤيب فالعين الخ . فعلى انه جعل كل جزء من الحدقة اعور اوكل قطعة منهـا عوراء . وهذه ضرورة وانما آثر ابوذؤيب هذا لانه لو قال (فهي عورا) لقصر الممدود . فرأى ما عمله اسهل عليه وأخف . وابو ذؤيب قائل هذا الشعر مخضرم .

٢٩ — وفي ص ١٠٧ . وقال الطرماخ بالخاء وصوابه الطرماح بالحاء المهملة .

٣٠ — وفي ص ١٠٨ . على نضوج لم يجده ولم اجد في اللسان والقاموس والتاج والصحاح والمصباح كلمة النضوج وانما المذكور النضج مصدر نضج واعادها في ص ١٤١ وغيرها .

٣١ — وفي ص ١٢٢ . حتى ضج الغيورون والزهاد . وغيور يستوي فيه المذكر والمؤنث كصبور وانما يجمع على غُيُر كما نص على ذلك اللسان والتاج والمصباح .

٣٢ — وفي ص ١٢٣ . لشعر ابن ابي ربيعة (توطة في القلب) بالتاء والصواب نوطة بالنون . وفي الصفحة نفسها (وانما هو تبع نُساه) بضم النون والصواب كسرها .

٣٣ و٣٤ — وفي ص ١٢٤ . فيُفضي واما بالمشي فيخصر والصواب فيفضي بفتح الياء والحاء . وفي الصفحة المذكورة واطفئت مصابيح ست للعشاء وأنور . والصواب شبت بالعشاء . وفيهـا ايضاً (وانفضت عني النوم اقبلت مشية الحبَاب) ضبطها بفتح الحاء . والحباب بالفتح نفاخات الماء و بالضم الحية ولعله هنا اوفق . وفيها اربتُك ان هذا عليك بضم التاء . وفسرها في الذيل بمعنى خبرني . وهي بهذا المعنى بفتح التاء كما نص عليها صاحب اللسان .

٣٥ — وفي ص ١٢٧ .

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم اذا جرى فيهم المزاء والسُكُرُ

ضبطها بضم السين والكاف . وفي اللسان بئس الصحاة ... المزاء والسَكَر بفتح السين والكاف وهو الخمر او النبيذ او شراب من التمر .

٣٦ — وفي ص ١٣٣ . لقد ولدت ام الفرزدق مقرَفا . ضبطها بفتح الراء والصواب بكسرها .

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

٧٢ — وفي ص ٣٣٩ · ذكر · لفظ · سوريا بالالف بعد الياء وقد ذكرها غير مرة وقد ضبطها في القاموس بالياء المخففة والتاء ·

٧٣ — وفي ص ٣٥٥ · سواد المة · ضبط المة بضم اللام والصواب كسرها ·

٧٤ — وفي ص ٣٦٠ · وان تقصى حاجاتهم اذا سألوا والصواب تقضي ·

٧٥ — وفي ص ٣٦٤ · فالقت اليه بصرة فيها المال ضبط صرة بفتح الصاد · والصواب ضمها كما في المصباح والقاموس ·

٧٦ — وفي ص ٣٦٥ · وكان بعيد الغَوْر · والصواب بعيد الحور يقال رجل بعيد الحور اي عاقل والحور العمق ·

٧٧ — وفي ص ٣٧٤ · من المبتديان الى التجهيزية · ولا يظهر صحة هذا اللفظ ·

٧٨ — وفي ص ٣٧٧ ·

لا تحيني روحي الفداء لما حبيك غداً من صحيفة المقدور

والوزن والمعنى يقضيان ان يكون الصواب · لماحيك ·

سليم الجندي

عضو المجمع العلمي

قاعدة توهم الاصالة

— أو —

انجذاب الطبع

كتبتُ تحت هذا العنوان مقالين احدهما في (المجلد ٥ ص ٢٠٥) والثاني في (المجلد ١٠ ص١٢٩) فجاءني من الاستاذ سليمان ضاهر عضو مجمعنا العلمي كتاب أثنى فيه على المقالين وعد موضوعهما من الموضوعات المبتكرة فرجوت منه ان يساعدني في تقصي أشباه تلك الكلمات التي جمعتها فيكون لنا منها رسالة مستقلة في موضوع الكلمات الشاذة الصيغة بناء على التوهم .

ولاحاجة الى تلخيص ماقلته في المقالين وانما أذكّر القارئ الكريم بهما بذكر مثال منهما :

(ريح) اصل يائها واو ولذا تجمع على (أرواح) لكن اهل اللسان توهموا ان الياء في ريح اصلية لامنقلبة عن واو ولذا جمعوها على (أرياح) ايضاً . وقد سردت في المقالين أشباهاً ونظائر لكلمة (ريح) بلغت (٤٤) كلمة خولف فيها القياس بناء على التوهم . وقد أثبت في المقالين على ذكر كلمات غير قاموسية مما نستعمله اليوم وعدّه بعضهم من (عثرات الأقلام) الواجب تجنبها لكنني انا بنيت تجويز استعمالها على (قاعدة توهم الحرف الزائد اصلياً) وذلك كقولهم (أشّر على الكتاب يؤشر تأشيراً) فقلت ان هذا جائز بناء على توهم ان همزة (إشارة) أصلية لازائدة .

ومازلت من يومئذ أدأب في جمع أمثال تلك الكلمات فعثرت على طائفة أخرى منها أحببت ان أودعها مقالي هذا زيادة في خدمة هذا البحث وايضاح موضوعه :

(رقم ٤٥) : فعل (يتسنّه) في قوله تعالى (فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنّه) مرّ معنا في المقالين (مجلد ٥ ص ٢١٠) و (مجلد ١٠ ص ١٣١) ان كلمة (سنة) بمعنى العام

أصلها سنو حذفت الواو وعوض عنها (تاء) فهذه التاء تارة توهموا أصالتهـا فاشتقوا من (سنة) بناء على هذا التوهم فعل (أسنت) القوم بمعنى قحطوا – وتارةً كانوا يتوهمون تلك التاء (هاء) ومن ثم جمعوها على (سنهات) واشتقوا منهـا فعل فقالوا (سانهه) هذا ملخص ماقلناه هناك وهنالك . اما مانقوله هنا فهو في تحقيق فعل (يتسنّه) بالنون المشددة والهاء الساكنة . فنروي اولاً ماذكره المفسر الكبير (الطبري) ثم نذكر ما عنّ لنا في امر تطبيقه على (قاعدة التوهم) :

رجّح الطبري في تفسيره (جزء٣ صفحة ٢٥) ان هاء (يتسنّه) أصلية وليست بزائدة للوقف وان ماضيه (تسنّهَ) (من التفعل) اي أتت عليه السنون فتغير كما يقال ايضاً (أسنَهَ) فلان عندنا اذا أقام سنة .

إذن المادة الأصلية التي اشتق منهـا كل من فعل (تسنّهَ) و (أسنَهَ) — هي كلمة (سنة) بمعنى العام باعتبار ان أصلهـا (سنه) بالهاء لا (سنو) بالواو . وهو قول لبعضهم ولم يرض الطبري ان يكون اصل (يتسنّه) = (يتسنّن) وان تكون هاؤه للوقف كما في آية (فبهداهمو اقتده) . وقال ان هاء (اقتده) لاوجه لها الا ان تكون للوقف . بخلاف هاء (يتسنّه) فلايحسن ان نجعلها زائدة للوقف مادام يمكننا جعلها أصلية من مادة (سنة) بمعنى العام . وجعلها أصلية لازائدة هواللائق بكتاب الله . قال واذا جعلنـا هاء (يتسنّه) زائدة للوقف كان أصله (يتسنّنُ) بثلاث نونات (على وزن يتكلم) فقلبت الثالثة ألفاً كما قلبت في فعلي (يتظنّن) و (يتقضض البازي) فقيل (يتظنّى) و (يتقضّى) وفعل (يتسنّن) قيل فيه (يتسنّى) ثم دخله الجازم في الآية فقيل (لم يتسنّ) ودخلته هاء الوقف فقيل (لم يتسنّه) ففعل (تسنّن) لاعلاقة له بالسنة بمعنى العام وانما علاقته بمادة (سن) مشددة النون . ومعناه يتغير وينتن . ومنه قوله تعالى (من حمإٍ مسنون) اي منتن متغير .

هذا محصل ماقاله الطبري . بقي علينا ان نبحث في ما اذا كانت مادة (سنّ) لتفيد معنى الانتان والتغير . هذا القاموس وشرحه ومستدركه سردوا عدة معان للسن ولم يذكروا معنى التغير والنتن فيها . اللهم الا الشارح (التاج) فقد قال : « قال : ابو الهيثم سنّ الماء فهو مسنون اي تغير » وقول الطبري في تفسير قوله تعالى (حمإٍ مسنون) (جزء١٤ صفحة ٣٠) مانصه « وكان بعض؟ أهل الكوفة يقول (المسنون) هو المتغير قال :

كأنه أخذ من سننتُ الحجر على الحجر وذلك ان يحك احدهما بالآخر ويقال الذي يخرج من بينهما سنين ؟ ويكون ذلك منتناً اه » .

فمادة (سنّ) إذن تدل على معنى التغير والنتن كما فهم من قول (ابي الهيثم) و (بعض اهل الكوفة) وعلى أساس قوليهما بنى بعض المفسرين واللغويين حكمه في الف الماء في (يتسنه) زائدة للوقف وان اصل (يتسنى) (يتسنن) كما ان اصل (يتظنى) (يتظنن) .

ومن هنا ننتقل الى قاعدة (توهم الأصالة) وتطبيقها على (تسنن) بمعنى تغير وأنتن : ان المفسرين واللغويين الذين يفسرون (التسنن) بالانتان والتغير يقولون هكذا : (يتسنن يتغير لمرور السنين عليه) فكلمة (السنين) مأخوذة في تعريف كلمة (التسنن) وداخلة في مفهومها وملاحظة في تحليل معناها . والسنون جمع (سنة) و (سنة) ليس في مادتها الا نون واحدة . أما جمعها (سنون وسنين) ففيهما نونان إحداهما أصلية والاخرى زائدة لافادة الجمع . والكلمتان تذكران كلما أريد وصف الشيء بالقدم فيقال (قديم مرت عليه السنون) (قديم لم تغيره السنون) (قديم مرّ عليه كذا من السنين) فمن ثم علق بالطبع وتوهمت النفس ان نون الجمع أصلية في (سنين وسنون) لازائدة وان توهم أصالتها هذا جذب طبع العرب الى ان يشتقوا من سنين مشتقات مضاعفات النون فاشتقوا (حمأ مسنون) اي مرت عليه سنون ويلزم من مرور السنين عليه تغيره ونتنه فالتغير والنتن لازم لمعنى (السنّ) وليس هو المعنى نفسه. واشتقوا ايضاً من مادة (سنين) لعل (يتسنن) من باب (يتكلم) بمعنى مرت عليه سنون طويلة حتى تغير وأنتن . ومنه قوله تعالى (لم يتسنه) اي لم يتغير ولم يفسد بمرور السنين عليه .

هذا ما رأيته في تحليل كلمتي (مسنون) و (يتسنه) وتطبيقهما على قاعدة توهم أصالة الحرف الزائد وهو نون الجمع في سنين . والذي جعلني أذهب الى هذا قلة ما رأيت أرباب المعاجم يفسرون مادة (سنّ) بمعنى التغير والنتن . اللهم الا ماروي عن (ابي الهيثم) و(بعض أهل الكوفة ؟) وقد رأيت قولهما غامضاً ولم يؤيدهما فيه احد بل ربما كان تفسيرهما السن بالتغير من باب التفسير باللازم كما مرت الاشارة اليه آنفاً .

(٤٦) : (ميثاق — مياثيق ومياثق) يقال في هذا الجمع ماقلناه في (مياسم جمع ميسم) وقد مر في (مجلد ١٠ صفحة ١٣١) فان (ميثاق) بمعنى العهد مشتق من (وثق) الواوي

واصله (موثاق) فاذا أريد جمعه قيل (مواثيق) وهوالقياس. لكنهم لمارأوا الياء ومعموها تتكرر في (ميثاق) المفرد (واخذ الله ميثاق النبيين) توهموها أصلية فجمعوها ايضاً على (مياثيق) بياء قبل القاف. وانما أثبتوا هذه الياء لوجود الألف في المفرد أعني (ميثاق) وجاء فيه (مياثق) من دون ياء أنشد الفرا :

(حمى لايُحلّ الدهرَ الا باذننا. ولا نسأل الأقوام عقد الميـاثق)

وحذف (الياء) من (مياثق) وأمثاله ضرورة اوقياس؟ خلاف. وقدمشى الزبيدي في التاج على انه قياس بدليل قوله (واما ابن جني فقد لزم البدل في مياثق كما لزم في عيد وأعياد) . وقوله (البدل) اي ابدال الواو ياء . فيقال (ميـاثق) لا (مواثق) كما قالوا (أعياد) لا (أعواد) راجع ماقلناه في (عيد أعياد) (مجلد٥ صفحة٢٠٦) .

اقول : لما ذالم يجعلوا (مياثق) من دون ياء قبل القاف جمعاً لموثق كما هو القيـاس لا لميثاق ؟

والجواب انهم انما لم يجعلوها جمعاً لموثق لعدم إمكان تطبيق (قاعدة التوهم) عليها . وذلك ان (موثق) فيها واو فتجمع على (مواثق) بالواو ولا يقال في موثق (ميثق) بالياء حتى يجمعوها على (مياثق) بالياء وتراهم قد صرحوا ان (مياثق) مفردها (ميثاق) التي فيها ياء . وهذا يؤيد قاعدتنا التي أصّلناها في التوهم .

(٤٧) : (شيء أصابته الريح : فهو مروح ومَريح) : مما جاء على قاعدة توهم أصالة الحرف قولهم (شيء مريح) اذا أصـابته الريح وهو اسم مفعول من (الريح) وياء الريح أصلها واو لكنها قلبت ياء لانكسار ماقبلها وقد مر هذا في تحليل جمع (ارياح) (مجلد ٥ ص٢٠٥) وانه كان الواجب ان يقال (ارواح) .

واذ كانت (الريح) مشتقة من (الروح) الواوي كان الأصل ان يقال في اسم مفعوله (مروح) بالواو كما قالوا (مقول) من القول و (مصوغ) من الصوغ لكنهم قالوا ايضاً (مريح) بالياء كأنما هو يائي الاصل على حدّ (مكيل) المشتق من الكيل .

ولما ذا فعلوا ذلك ؟

لانهم رأوا الياء في (ريح) لازمة فتوهموها أصلية لامنقلبـة وانجذب طبعهم الى جعل اسم مفعولها (مريح) مثل(مروح) القياسي. اونقول ان قولهم (مريح) بناء على توهمهم

أصالة الياء في فعل (ريحَ الغديرُ) ونحوه اذا أصابته الريح هكذا يفهم من (التاج) اي ان لزوم الياء في (مريح) ناتج عن توهم أصالة ياء (ريح) اعني الفعل المجهول لا ياء (الريح) التي هي اسم .

قال ابو حية النميري :

(لعيناك يوم البين أسرع واكفا من الفنن الممطور وهو مروح)

والفنن هو الغصن و(الممطور) هو الذي أصابه المطر و(المروح) الذى أصابته الريح هذا شاهد (مروح) الذي هو القياس اما شاهد (مريح) الشاذ فقد ذكره ابو زيد الانصاري في نوادره (صفحة ٢٣٦) من ارجوزة في صفة دروس الدار وهو قوله :

(ودرست غير رمادٍ مكفور مكتئب اللون مريحٍ ممطور)

اي ان الدار اندرس اثرها ولم يبق فيها غير رماد قد كُفِر اي ستر وأصابته الرياح والامطار . وروى صاحب التاج هذا الرجز لمنظور بن مرثد الاسدي واوله :

(هل تعرف الدار باعلى ذي القُور) و (القور) جمع قارة وهي الجبيلة . على ان (التاج) روى في الرجز المذكور (مروح) مكان (مريح) ثم عاد فقال : (ومريح ايضاً) بالياء : مثل (مشوب) و (مَشيب) بُني على (شِيب) . وغصن مريح ومروح أصابته الريح وقال يصف الدمع :

(كأنه غصن مريح ممطور)

وكذلك مكان مروح ومريح وشجرة مروحة ومريحة صفقتها الريح فألقت ورقها اه .

(٤٨) : (ابن مشوب ومَشيب) مر في الكلام على (مريح) الإشارة الى ان صاحب التاج مثّل لمريح بكلمة (مشيب) من حيث مخالفة كل منهما للقياس وان (مريح) بالياء ان كانت بنيت على (ريح الغدير) فان (مشيب) اسم مفعول بمعنى (مشوب) بنيت على (شِيبَ) وعبارة التاج موجزة جداً . لكنه عاد فأوضحها في مادة (شوب) فقال (والشوب ماشبته من ماء او لبن فهو مشوب ومشيب) ثم زادها ايضاحاً بقوله « وقول السليك ابن السلكة :

(سيكفيك ضربَ القوم لحمٌ معرضٌ وماءُ قدورٍ في القصاع مشيبُ)

انما بناه على (شِيب) الذي لم يسم فاعله » ثم فسّر البيت فقال و (الضرب) اللبن

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

اي (من الرجال) . فحذفُ (من) يقع في فصيح الكلام . ولا أدل على فصاحته من طابع الآية القرآنية على غراره .

(٥٠) : (سيّد . سَيْد . أسياد) الكلمات السابقة صرح اللغويون او أشاروا الى انها خالفت القياس بناءً على قاعدة التوهم . ولديّ كلمة أريد ان أعرضها على القراء ثم أطبقها على قاعدتي في التوهم . وهي كلمة جارية في لغة تخاطبنا كثيراً أعني كلمة (أسياد) جمع (سيّد) وانما المعروف والمشهور ان (سيّد) بتشديد الياء يجمع على سادة وسادات وسيايد أما (أسياد) فقد انكرها العلامة اليازجي ولم يذكرها الا صاحب أقرب الموارد . وقد اشتبهوا بهذا الجمع واكثروا من التساؤل عن صحته حتى عدّوه من (عثرات الاقلام) بل من عثرات (أقرب الموارد) وانا أرى جوازه بناءً على توهم أصالة الحرف . وبيانه ان الوصف من ساد يسود (سيّد) بتشديد الياء وأصله (سيود) على وزن (فيعل) بزيادة ياء قبل عين الفعل ثم أعلّ . فهو كميّت المشددة ولايخفى انه يقال في (ميّت) (ميْت) بالتخفيف فكذلك يقال في (سيّد) المشددة (سيد) بالتخفيف . جاء في المزهر (جزء ٢ صفحة ١٧٣) نقلاً عن الصحاح يقال في سيّد سيْد بالتخفيف كما يقال في هين هين واين اين وميْت ميت الخ . وهنا يقال : أية اليائين التي حذفت من (سيّد) ؟ الياء الاولى الزائدة اما الياء الثانية المنقلبة عن الواو التي هي من بنية الكلمة ؟ والجواب ان المحذوف هو الياء الزائدة لأن الحذف بها أليق و ينبغي ان يكون اليها أسبق : بدليل انهم جمعوا (ميت) المخفف على (أموات) بالواو والجمع يرد الاشياء الى اصولها فهو هنا ردّ الياء الى واو لأنها عين الكلمة فقيل (أموات) لا (أميات) .

حسن !! ولكن لماذا لم يجمعوا (سَيْد) المخففة على أسواد بالواو كما جمعوا ميت على أموات وكلاهما واوي العين . والجواب ان كلمة (سَيْد) المخففة كثر استعمالها وتداولها على افواهنا حتى اضطررنا ان نخففها تخفيفاً ثانياً بكسر سينها فنقول (سِيْدي) مكان (سَيْدي) لاسيما إخواننا المغاربة الذين يكثرون من قول سيدي عبد الكبير سيدي بن زرّوق سيدي جنون الخ الخ — كل هذا جعلنا نتوهم ان الياء في (سَيْد) اصلية لا منقلبة عن واو ومن ثمّ قلنا في جمعها (اسياد) لا (اسواد) وهذا كما مرّ في لفظ (قَيْل) الذي يطلق على أمراء اليمن واصله (قيول) بالواو فجمعوه على (أقيال) بالياء توهماً ان ياء (قيل) — المستعملة

كثيراً – اصلية . راجع ما قلناه عن (القيال) في (مجلد ١٠ صفحة ١٣٣) والحاصل ان المعاجم وان لم تصرح بان (سيّد) تجمع على أسياد لكن ارتيابها صرحوا بانها تخفّف . وهذا التخفيف يجعلها (كَيْت) المخففة . و (ميت) المخففة تجمع على أموات فكان الظاهر ان تجمع (سيْد) المخففة على (اسواد) مثلها . لكننا نحن المتأخرين من ابناء الضاد انجذبنا بنابل من طبعنا الى جمعها على (اسياد) بالياء بناءً على توهم اصالتها في (سيد) المفرد .

(تتمة) نشر القس عبد المسيح زهر في مجلة المشرق (سنة ٢٦ صفحة ٦٧٢) مقالاً ضمنه كلمات لم تذكرها المعاجم مع انها وردت في فصيح كلام العرب من ذلك كلمة اسياد جمع سيّد فقال القس انها وردت في شعر النمر بن تولب :

(ابقى الحوادث والايام من نمر   اسياد سيف كريم أثره بادي)

وعندي ان كلمة (اسياد) في هذا البيت محرفة لان قوله (من نمر) يريد نفسه فهو يقول ان حوادث الدهر لم تبق منه سوى (اسياد سيف كريم) فما معنى اسياد سيف اي اشراف سيف ؟ وارى انها محرفة عن (اسباد) بالباء الموحدة بمعنى بقايا : فان (السبد) ككتف البقية من الكلاء وبارض بني فلان (اسباد) اي بقايا من النبت . ونقلُ اسباد من معنى بقايا النبت الى بقايا السيف له نظائر في كلامهم . او ان (اسياد) محرفة عن (اسيار) جمع (سير) بالراء وهو القدة من جلد ويكون اراد بالاسيار حمائل السيف . ومهما يكن فبيت نمر ليس بالشاهد القطعي الدلالة فيما أظن .   « المغربي »

—«※※»—

تحقيق الجاحظ[1]

- ٤ -

« الاستعانة بالعقل »

تجربة وعيان وسماع : هذه اصول الجاحظ في تحقيق الأخبار ، وأريد بالاخبار في هذا المقام أخبار العلم وخاصة علم الحيوان فقد استكمل الجاحظ كثيراً من صفات العالم : جرّب وعاين وسمع ولهذه الاصول شأن عظيم في علوم الطبيعة وبلغ من هذا الشأن أنهم عابوا بعض علماء الطبيعة بزهدهم في التجربة والعيان فعابوا مثلاً العالم (بوفون) ببعض كتبه في نشوء الارض وفي أدوار الطبيعة فقالوا فيه : وصف كثيراً وعاين قليلاً[2] .

فالجاحظ لم يفته فضل العيان والتجربة وان فاته في بعض الأحوال روح الترتيب في الذي عاينه أو جرّب عليه ، او فاته خيالُ العالم ، وأعني بهذا الخيال قدرة العالم على التعميم وعلى الحزر والحدس لاستنباط القوانين العامة ، او فاته التمكن من انشاء المقاييس العلمية فقد نجد كثيراً من معارفه مبعثرة لايجمعها نظام واحد .

وكما جرّب وعاين فقد سمع وكان في معرفة السماع شديد التثبت والتوثق .

ولقد ضمّ الى هذه المذاهب كلها ، الى التجربة والعيان والسماع مذهباً آخر وهو العقل ، فقد جعل العقل دليله في مجامع اموره ، فما كان يصدّق الا ما تثبته الأدلة ويحققه الامتحان فالعقل في نظره انما هو الحجة في حكم الامور .

فلننظر في مجلسنا هذا في طائفة من خصائص عقله قد نهتدي اليها في أبواب كثيرة

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع فيالمحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) ادب القرن الثامن عشر (اميل فاكه ص ٤٣١) .

من أبواب الحيوان كالكلام على بعض عجائب الحيوان او على طول عمر البغل وأعمار ذكورة العصافير او على ابتلاع السمكة للطعم او على وضع النمرة ولدها وهو مطوق بالافعى او على القاح الثور او على الضفادع او على الخلق المركب او على الأفاعي او على ولد الكركدن او على خلق السنانير والخنازير او على تعاون الذر او على غير ذلك من الامور التي قد يطول استقصاؤها .

فاذا أردنا ان نعرف خصائص هذا العقل في التحقيق لزمنا ان ننظر الى بعض مواطن من المواطن التي يظهر فيها تصرف العقل ومقدار نفاذه ، وأظن اننا اذا بحثنا عن اشياء يسيرة من طبيعة نقده العلمي او من طبيعة شكه في بعض امور العلم او من طبيعة تنقيبه عن علة هذه الامور استطعنا أن نحيط بناحية من نواحي عقله .

اما طبيعة نقد الجاحظ في أبواب العلم فالذي يعنينا من أمرها انما هو الوقوف على الامور التي وطّن نفسه على إبطالها وردّها اوالوقوف على الامور التي كان يعيب بها عالماً من العلماء ، فهل كان يقرع الحجة باشباهها ام كان يرد قولاً من الأقوال مقتصراً على مجرّد الرد وهل كان يجسر على نقد العلماء دون التقيد بشيء ومن هم العلماء الذين انتقدهم .

واما طبيعة الشك فالذي يهمنا من شأنها ان نعرف أيميل الجاحظ الى الشك ، أيشك في الامور وصولاً الى اليقين ام يشك فيها للشك وحده ، واذا شك في امر فهل يبين الأسباب التي من أجلها يبطل هذا الأمر في نظره ، ام انه يشك في هذا الأمر دون بيان شيء من هذه الاسباب .

واما طبيعة تنقيبه عن علة من العلل فالذي يشغلنا منها انما هو مقدار تصرف عقله في هذا التنقيب ومبلغ نفاذ هذا العقل .

فلنتفرغ قبل كل شيء للكلام على نقده العلمي ، ما الذي كان يشغل بال الجاحظ في هذا النقد ، هل كان يجسر على التكذيب في كل حين ، من هم العلماء الذين انتقدهم .

همّ الجاحظ الأبعدُ عرض الامور على التصحيح والتمييز فقد كان مولعاً بالتنبيه على الخرافات سواء أكانت هذه الخرافات في أبواب العلم أم كانت في ابواب الدين فهو كثير التشديد بفحث الامور وتمحيصها فاذا أصاب فرصة في التحذير من توليد الكذابين ومن غرائب الاخبار حذّر بقدر ما أوتيه من حكمة وبيان ، فان الذي لا يصدق الا ما تثبته الأدلة ويحققه

العيان والتجربة والسماع قد يصعب عليه ان يحمل مجال الخرافات ذا سعة فمن قوله في هذا المعنى[١] :

« وقد ابتلينا بضربين من الناس ودعواهما كبيرة ، احدهما يبلغ من حبه للغريب ان يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين وقلبه قراراً لغرائب الزور ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُرَف لا يقف على التصحيح والتمييز فهو يدخل الغث في السمين والممكن في الممتنع ويتعلق بادنى سبب ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر وهو ان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم الا من خاف التقذر من الكذب ...

فالجاحظ كما يتبين لكم من هذا الكلام يكره غرائب الاخبار مما لا يحققه العقل . ومن هذه الغرائب التي تجرّد لردها والتحذير منها كلامهم على بعض الخلق المركب فقد قال[٢] :

« وقالوا في الخلق المركب ضروباً من الحق والباطل ومن الصدق والكذب .... وزعم حريث انه كان بأيذجَ فاذا سحابة ضحياء تكاد تمس الارض وتكاد تمس قمم رؤوسهم وانهم سمعوا فيها كأصوات الجنابيق وكهدير الفحول في الأشوال ثم انها دفعت باشد مطر رؤي او سمع به حتى استسلموا للغرق ثم اندفعت بالضفادع العظام ثم اندفعت بالشبابيط السمان الخزال فطبخوا واشتووا وملحوا وادخروا » .

وقال في مقام آخر شبه هذا الكلام[٣] :

« وفيها اعجوبة أخرى وذلك انا نجد من كبارها وصغارها الذي لا يحصى في غب المطر اذا كان المطر ديمة ولم نجدها في المواضع التي ليس بقربها بحر ولا نهر ولا حوض ولا غدير ولا واد ولا بئر ونجدها في الضحاضح الأمالس وفوق ظهور مساجد الجماعة حتى زعم كثير من المتكلفين ومن اهل الجسارة وممن لا يحفل بسوء الحال عند العلماء ولا يكترث للشك انها كانت في السحاب ولذلك طمع اكثر الكذابين ممن نكره اسمه فذكر ان اهل

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٥٨) .
(٢) « « « الاول ص ٦٨) .
(٣) « « « الخامس ص١٥٣ .

أيَدّج مطروا اكبرشبابيط في الارض وأسمنها وأعظمها وانما تلك الضفادع شيءٌ يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان وتلك المطرة وتلك الارض وذلك الهواء والضفادع من الخلق الذي لاعظام له و يزعم اصحاب الغرائب ان العلاجيم منها المذكورة السود و يقال أرشح من ضفدع وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذاذنب وان الضب سلبه إياه وذلك في خرافة من خرافات الأعراب ولا يكون ذلك حتى يجمع بين الاروى والنعام وحتى يجمع بين الماء والنار وحتى يشيب الغراب وحتى تقع السماء على الارض » .

يستخرج مما تقدم ان الذي يشغل بال الجاحظ انما هو التنبيه على الكذابين وعلى غرائب الأخبار الا انه قد لا يكلف نفسه في بعض هذا التنبيه المجيءُ بالبرهان وكأنما رأى ان تكذيب هذه الأعاجيب انما هو معلوم في بدائه العقول فلا يحتاج الى شيء من البراهين .

وقد يظهر لنا ان حرية النقد كانت ضيقة المذاهب في بعض الاحايين فكان الجاحظ يشير الى الأجناس العجيبة من الأقوال دون ان يجسر في كتبه على تكذيب العلماء ودرّاس الكتب او على تسميتهم من هذا النحو قوله [1] :

« والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن وتزعم انه ربما نظم الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته فلا يشعر بمكانه ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول في ولد الكركدن مايخبرنا به ناس من اهل النظر والأدب وقراءة الكتب وذلك انهم يزعمون ان النمرة لاتضع ولدها ابداً الا وهو متطوق بالافعى وانها تعيش وتنهش الا انها لا تقتل ولو كنت اجسر في كتبي على تكذيب العلماء ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر وليس هذا عندي كزعمهم ان الأفعى تلد وتبيض لأن تأويل الأفعى ينفصل بيضها فاذا طرقت بالبيض تلون فحطمته في جوفها ثم ترمي بتلك القشور والحراشي اولاً فأولاً ولا بد لكل ذات حمل ان تلقي مشيمتها » .

او قوله في موطن آخر في خرافة من الخرافات وهو لم يسم صاحب هذه الخرافة [2] :

« ومما لا اكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها الا كل وقاح أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها و يدارس اهل البصرة ويحفظها زعموا ان

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٤٣) .
(٢) « « « « « ص ٤٩ .

الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم من لا استجيز تسميته ، قال الفضل بن اسحق : انا رأيت المقص والبلوط في غصن واحد ، قال : ومن المقص ما يكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثى وقد ذكرت العرب في اشعارها الضباع والذئاب والسبع والسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم اخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ماهو اعجب واظرف وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم نر احداً ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه افعى قد تطوقت به واذا لم يأتنا في تحقيق الاخبار شعر شائع او خبر مستفيض لم نلتفت اليه » .

على انه قد تعرض لجماعة فسماهم وجسر على تكذيبهم فقد قال [1] :

« ورووا عن ابي وائلة انه زعم ان من الدليل على ان الشبوط كالبغل ان الناس لم يجدوا في طول ما اكلوا من الشبابيط بيضاً قط فان كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً فما اعظم المصيبة علينا فيه ، وما اخلق الخبر ان يكون صحيحاً وذلك اني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان واقسام الاجناس يدل على ان الرجل حين أحسن في اشياء رفعته العجب بنفسه انه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه وغره من نفسه الذي غر الخليل بن احمد حين احسن في النحو والعروض فظن انه يحسن الكلام وتأليف اللحون فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما الا المرة المحترقة ولا يؤدي الى مثل ذلك الا خذلان من الله تعالى فان الله عز وجل لا يعجزه شيء » .

الا ان الذي تعرّض له كثيراً في كتابه انما هو ارسطاطاليس فقد عاب عليه اموراً كثيرةً منها انه لم يبن في تحقيقه على الاصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه ، اي لم يثبت اموره بالعيان او بمعرفة السماع ، من هذا النحو قوله [2] :

« وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر ان ثوراً سفد والقح من ساعته بعد ان خصي .

فاذا افرط المادح في المديح وخرج من المقدار وافرط المتعجب في التعجب وخرج من

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول صفحة ٦٨) .
(٢) « « « الخامس « ٧٠ .

المقدار احتاج صاحبه الى ان يثبته بالعيان او بالخبر الذي لم يكذب مثله والا فقد تعرّض للتكذيب ولو جعلوا حركتهم خبراً وحكاية وتبرؤا من عيبه ماضرهم ذلك فكان ذلك أصون لأقدارهم وإتم لمروآت كتبهم » .

او قوله في موطن آخر (١) :

« وفي المثل : أغلم من تيس بني حمّان وحمّان تزعم انه قفط سبعين عنزاً وقد فريت أوداجه فهذا من الكذب الذي يدخل في باب الخرافة .

وقد ذكر صاحب المنطق انه قد ابصر ثوراً وثب بعد ان خصي فنزا على بقرة فأحبلها ولم نجد هذا من معاينة ، والصدور تضيق بالرد على اصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل » .

او قوله (٢) :

« واما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الاسفل في الماء لان الصوت لا يجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان وانما زعمه بان السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأي عيان دل على هذا وهذا عسير » .

او قوله (٣) :

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل وما يليق بمثله ان يخلّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء وما عندنا في معرفة ما ادّعى الى هذا القول » .

ولم يقتصر الجاحظ على مؤاخذة ارسطاطاليس بانه لم يعتمد في تحقيقه على العيان والسماع والامتحان وانما عاب عليه في بعض الأحوال انه اذا تكلم على حيوان فانه لا يستوفي عجائب هذا الحيوان ، من هذا كلامه على الفيل (٤) :

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ١٧٤ .
(٢) « « « « « ١٥٦ .
(٣) « « « الاول « ٨٧ .
(٤) « « « السابع « ٧٠ .

« وما أعجب ما قرأت لصاحب الحيوان في كتاب المنطق وجدته وقد ذكر قصر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه وذلك اعجب ما فيه ولم ينظر في كم يضع ولا مقدار مدة حمله وكيف يخرج من بطن أمه نابت الاسنان » .

وأحياناً كان يتعرض له فيقف في تعرضه موقفاً وسطاً دون دفع الخبر او قبوله كقوله (١) :

« وذكر صاحب المنطق ان الطير الكبير الذي يسمى باليونانية (اغنيوليس) يحكم عشه ويتقنه ويجعله مستديراً مداخلاً كأنه كرة ورووا انهم يزعمون ان هذا الطائر يجلب الدارصيني من موضعه فيفرش له عشه ولا يعشش الا في اعالي الشجر المرتفعة المواضع ، قال وربما عمد الناس الى سهام فيشدون بها رصاصاً ثم يرمون بها أعششها فيسقط عليهم الدارصيني فيلتقطونه و يأخذونه ...

ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن خبر صاحب الدارصيني وان كنت لا اعرف الوجه في ان طائراً ينهض من وكره في الجبال او بفارس او باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر من ان يكون من الاوابد وان كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الأملس وبطون الاودية وأعضاب الجبال بالتدويم في الاجواء و بالمضي على السمت لطلب ما لم يره ولم يذقه ، وأخرى فانه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً الا بالاختلاف الطويل وليس بالوطيء الوثير ولا هو بطعام فأنا وان كنت لا أعرف العلة فلست انكر الامور من هذه الجهة » .

وقد تعرض لغير ارسطاطاليس فتعرض لابي زيد النحوي وحشره في جملة علماء السوء فعابهم بانهم لم يكونوا في تحقيقهم من حذاق المتكلمين كقوله (٢) :

« وأما الذين ذكروا في أشعارهم السبع والضبار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ما ادعي عليهم الناس من هذا التركيب المختلف فأدينا الذي قالوا وامسكنا عن الشهادة اذ لم نجد عليها برهاناً .

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث الصفحة ١٦٢ .

(٢) « « « الاول « ٨٥ .

وللناس في هذا الضرب ضروب من الدعوى وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ، كالذي يدعون من اولاد السعالى من الناس كما ذكروا عن عمرو بن يربوع وكما يروي ابوزيد النحوي عن السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى حنت وطارت اليهم فقال شاعرهم :

رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلا بأماً اسأل وما اغاما

وأنشدني أن الجن طرقوا بعضهم فقال :

أتوا ناري فقلت منون انتم فقالوا : الجن ، قلت عموا ظلاما

فقلت الى الطعام فقال منهم زعيم : نحسد الانس الطعاما

ولم أعب الرواية وانما عبت الاثبات بها والتوكيد لمعانيها فما اكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه وعلى ان يجعل الرواية سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله وابو زيد واشباهه مأمونون على الناس الا ان كل من لم يكن متكلماً حاذقاً وكان عند العلماء قدوة واماماً فما اقرب إفساده لهم من إفساد المتعمد لافسادهم » .

وكان في بعض نقده يعيب طائفة من الناس بوضعهم الموجب من الامور موضع المقرب منها ، و بانزال الدليل منزلة شبه الدليل كقوله (1) :

« والذين زعموا ان ذكورتها لا تعيش الا سنة يحتاجون الى ان يعرّفوا الناس ذلك وكيف يستطيعون تعريفهم ذلك وقد تكون القرى بقرب المزارع والميازب مملوءة عصافير ومملوءة من بيضها وفراخها وهم مع ذلك لم يروا عصفوراً قط ميتاً » .

والذين زعموا ان البغل انما طال عمره لقلة السفاد والعصفور انما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم احد من العلماء والامور المقربة غير الامور الموجبة فينبغي ان يعرفوا فصل ما بين الواجب والمقرب وفرق ما بين الدليل ومشبه الدليل ولعل طول عمر البغل يكون للذي قالوا ولشيء آخر وليس ينبغي ان نجزم على هذه العلة فقط » .

هذه جملة القول في نقده والذي يستخلص من هذا النقد ان الجاحظ لجأ اليه للتنبيه على مواطن الزور في ابواب العلم مما لا يحققه العقل فكأن الجاحظ يقول :

(1) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ٧١ .

لا اصدّق من الامور الا ما كان واضحاً وهذه خطة (ديكارت) نفسه كما علمتم ذلك .

ولم ينقد الجاحظ للنقد وحده ، انه أجلُّ من ذلك وانما نقد وصولاً الى الحقائق فكان مرة يدل على الخرافات ويحذّر منها ومرة يشير الى مزلات أقدام بعض العلماء كما أشار الى إعراض ارسطاطاليس عن استعمال التجربة والعيان والسماع في بعض مباحثه العلمية و كما عاب اباز يد النحوي بانه لم يكن من حذّاق المتكلمين .

وقد كان في بعض نقده يستغني عن الاتيان بالبرهان لان من الامور التي نبّه على بطلانها مايقبله العقل دون برهان .

فغاية الجاحظ في نقده العلمي الوصول الى الحقيقة والحقيقة ضالّة العالِم .

تحقيق الجاحظ

- ٥ -

« الاستعانة بالعقل »

—«»—

ومن المواطن التي يظهر فيها مقدار دقة فطنته وثقوب عقله موطن الشك فما ننسى قوله في صدر كلامنا على تحقيقه :

« ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل . وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » .

وهذا الشك قريب من شك (ديكارت) الذي كنت اشرت اليه لقد كنت ذكرت لكم ان (ديكارت) يشك في كل شيء وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الاحلام ولكن شكه هذه لا يشبه شك غيره من الفلاسفة فهو يشك في كل شيء ، فقد يفرض ان العالم لا حقيقة له على أمل ان يصل الى حقائق يثبتها البرهان فالشك في مذهبه سبيل الى اليقين .

فاذا قابلنا بين هذين الرأيين : بين رأي الجاحظ وبين رأي (ديكارت) وجدنا فيهما بعض التقارب فالجاحظ يقول : اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له : معنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين فالشك في نظره سبيل الى اليقين فهو لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها حتى يصل الى يقين قاهر وكذلك (ديكارت) فانه لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها على امل ان يصل الى حقائق يثبتها البرهان .

وكيف يلجأ الجاحظ الى مجرد الشك وهو الذي يقول [1] :

« واعلم ان من عوّد قلبه التشكك اعتراه الضعف » .

فالمنظر بعد هذا في أنماط من أقاويله التي ظهرت عليها آثار الشك كالكلام على رؤوس الحيات او كالكلام على لعاب الافاعي او كالكلام على سلامة الفراريج على الافاعي او كالكلام على تخلّق الفار او كالكلام على اخراج الولد رأسه من بطن أمه .

فمرة كان يشك في الامر وينفيه لان العلم لا يحققه . ومرة كان يشك فيه ويبين السبب الذي من اجله استفاض هذا الامر . وحيناً كان يشك فيه من دون ان يحاول نفيه بالحجة او يوضح علة من علل شيوعه وحيناً كان يشك فيه فيحار في امره حيرة قد لا يجد لنفسه مخرجاً منها ثم يجد هذا المخرج فيرد الامر لانه لم يثبته ظاهر العيان او متظاهر الاخبار .

فمن المواضع التي ظهر شكه فيها قوله [2] :

وزعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره ان يأمر الأسد فيعطس فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الأيمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤنة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكى الى الله تبارك وتعالى فأمر ان يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤنة رائحة ذلك النجو .

وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص وقد انكرنا ان يكون الفار يخلق الا في ارحام أناثها من اصلاب ذكورها » .

فالجاحظ ينكر خلق الفار الا في ارحام أناثها من اصلاب ذكورها ويشك في ضد هذا الامر لان العلم لا يؤيده .

ومن هذه المواضع التي ظهرت فيها آثار الشك قوله [3] :

(1) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني الصفحة ٨٤) .

(2) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ١٠٦ .

(3) « « « الرابع « ٥٢ .

« وقد زعم صاحب المنطق انه قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم ان ذلك حق فقلت له : فمن اين جهة الرأسين تسعى ومن ايها تأكل وتعض فقال : فأما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل واما الاكل فانها تتعشى بفم وتتغدى بفم واما العض فانها تعض برأسيها معاً فاذا به اكذب البرية .

وهذه الاحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها وفي شهو بل امرها ... »

فبعد ان شك الجاحظ في ان يكون للحية رأسان أخذ يقلب النظر في استفاضة هذا الخبر فوجد ان العلة في ذلك الرعب والتهويل .

ومن هذه المواضع قوله [1] :

« وزعم احمد بن غالب قال : باعني حواء ثلاثين افعى بدينار بن واهدى الي خمساً اصطادها من قبالة القاطب في تلك الصحاري على شاطيء دجلة قال : واردتها للترياق فقال لي حين جاءني بها : قل لي من يعالجها ، فقلت فلان الصيدلاني ، فقال : ليس عن هذا سألتك قل لي : من يذبحها ويسلخها قال : قلت هذا الصيدلاني بعينه ، قال : اخاف ان يكون مغروراً من نفسه ، انه والله ان اخطأ موضع المفصل من قفاها وحركته اسرع من البرق فان كان لا يحسن ولا يدري كيف يتغفله فيقره نقرة لم يفلح بعدها ابداً ولكني سأتطوع لك بان اعمل ذلك بين يديه قال فبعثت اليه وكان رأسه الحونة فيغفل الواحدة فيقبض على قفاها باسرع من الطرف ثم يذبحها فاذا ذبحها سال من افواهها لعاب ابيض فيقول : هذا هو السم الذي يقتل ، قال : فجالت يده جولة وقطرت من ذلك اللعاب قطرة من طرف قميص الصيدلاني قال : فتفشى ذلك القاطر حتى صار في قدر الدرهم العظيم ثم ان الحواء اخذ ذلك الموضع فتهافت في يده وبقيت الافاعي مذبوحة في الطست يحكد بعضها بعضاً حتى امسينا ، قال : وبكرت على ابي رجاء الى باب الجسر أحدثه بالحديث فقال لي : وددت اني رأيت موضع القطرة في قميص الصيدلاني ، قال : فوالله ما رمت حتى مر بي الى الصيد لاني فأريته موضعه . واصحابنا يزعمون ان لعاب

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع الصفحة ٣٩ .

الأفاعي لا يعمل في الدم الا ان احمد بن المثنى زعم ان من الافاعي جنساً لا يضر الفراريج من بين الاشياء .

ولا ادري أي الخبر بن ابعد ، اخبر ابن غالب في تفسيخ الثوب او خبر ابن المثنى في سلامة الفروج على الافعى » .

فهنا يتبين لكم ان الجاحظ اكتفى بانكار الخبر دون ان يبين سبباً من الاسباب .

ومنها قوله [1] :

« وقد زعم صاحب المنطق ان ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الاسنان لطول مكثه في بطنها وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر لأن جماعة نساء معروفة الآباء والابناء قد ولدن اولادهن ولهن اسنان نابتة كالذي رووا في شأن مالك بن انس ومحمد ابن عجلان وغيرهما وقد زعم ناس من اهل البصرة ان خاقان بن عبد الله بن الاهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً وقد مدح بذلك وهجي وليس ذلك بالمستنكر وان كنت لم ار قط قابلة تقر بشيء من هذا الباب وكذلك الاطباء وقد رووه كما علمت .

ولكن العجب كل العجب ماذكروا من اخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم ادخالها بعد الشبع والبطنة ولابد اكرمك الله لما اكل من نجو فان كان بقي الولد يأكل ولا يروث فهذا عجب وان كان يروث في جوفها فهذا أعجب وانما جعلناه يروث حيث سموه حماراً وهذا مما ينبغي لنا ان نذكره في خصال الحمار اذا بلغ ذلك الباب ولا أقر ان الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه ولست اراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا في الطبيعة وارى جوازه مرهوباً غير مستحيل الا ان قلبي ليس يقبله وليس في كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحمودة ولم نجد القرآن ينكره والاجماع يدفعه والله هو القادر دون خلقه ولست ابت بانكاره وان كان قلبي شديد الميل الى رده وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ولا يعرف الا بالعيان الباهر والخبر المتظاهر » .

فالجاحظ في مثل هذا المقام يعمد الى رد الخبر لان العيان الباهر لم يثبته . هذا ما يتعلق ببعض خصائص شكه فلنلجأ الى النظر في العلل التي يجدها لأمر من الامور .

(١) كتاب الحيوان الجزء السابع الصفحة ٤٠ .

في هذا النوع يتبين لنا مقدار تغلغل عقله في الأسرار ومبلغ توفيقه في الإحاطة بهذه الاسرار فلننتخب موضعاً او موضعين من المواضع التي نستدل بها على نفوذ عقله .

مرة يشهد الامر فيدونه كما يدون عالم الطبيعة حادثة من حوادثها ثم يستنبط من هذا الأمر قانوناً عاماً يلجأ اليه كلما جد الكلام على الامر الذي دونه على نحو استنباط علماء الطبيعة القوانين العامة من الامور الصغيرة التي يجربونها ويعاينونها واليكم مثلاً لذلك[1] :

« وربما اكل الانسان الجراد او بعض مايشبه الجراد فتسقط من يده الواحدة اوصدر الواحدة وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل فلا يلبث ان تقبل ذرة قاصدة الى تلك الجرادة فترومها وتحاول قلبها ونقلها وجرها فاذا أعجزتها بعد ان بلغت عذراً مضت الى جحرها راجعة فلا يلبث ذلك الانسان ان يراها قد اقبلت وخلفها كالخيط الاسود الممدود حتى يتعاون عليها فيحملنها فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الانسان الجائع ثم بعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة واكثر من مائة مرة وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل مايكون ضعفه مراراً غيرها وعلى انها لا ترضى باضعاف الاضعاف الا بعد انقطاع الانفاس .

فان قلت وماعلم الرجل ان التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي اخبرت صويحباتها من الذر وانها كانت على مقدمتهن ، قلنا : لطول التجربة ولانا لم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ثم رأيناها راجعة الا رأينا معها مثل ذلك وان كنا لا نفصل في العين بينها وبين اخواتها فانه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا وعلى أننا لم نر ذرة قط حملت شيئاً او مضت الى جحرها فارغة فاستقبلتها ذرة الا واقفتها ساعة وخبرتها بشيء فدل ذلك على انها في رجوعها عن الجرادة انما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب اهله » .

ذرة تأخذ عينها جرادة فتحاول نقلها فاذا عجزت عنها ذهبت الى أخواتها فاستعانت بهن على حملها . هذا هو الامر الصغير الذي عاينه الجاحظ ، من هذا الامر الذي عاينه استخرج قانوناً عاماً وهذا هو القانون : كل ذرة حاولت نقل جرادة او غيرها فعجزت عنها استدعت صويحباتها فتعاون على نقل هذه الجرادة .

ولقد كنت بينت لكم ان الجاحظ لم يستنبط من تجربته وعيانه وسماعه قوانين عامة ولكنه

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع الصفحة ٣ .

في هذه المرة لم يقصر في استنباط القانون من الامر الصغير ولو فعل هذا الفعل في كل الامور التي جربها او عاينها لما نقص تجربته وعيانه شيء ولكان في هذه التجربة وهذا العيان شبه علماء هذا العصر .

ومرة يمعن في الكشف عن غرائز الحيوانات فلا يعاين حركة من حركاته كالانقياد اوكالعصيان مثلاً الا وضع اسرار هذه الحركة مصيباً في توضيحه شاكلة الصواب .

فمن كلامه على سلاح اصناف الحيوان[1] :

« وانما تتقرب الشاة بالمتابعة والانقياد للسبع ، تظن ان ذلك مما ينفعها فان الأسد اذا اخذ الشاة لم تتابعه ولم تعنه على نفسها فربما اضطر الاسد الى ان يجرها الى عرينه ، واذا اخذها الذئب عدت معه حتى لا يكون عليه فيها مؤنة وهو انما يريد ان يحميها عن الراعي والكلب وان لم يكن في ذلك الوقت هناك كلب ولا راع فيرى ان يجري على عادته ، وكذلك الدجاج اذا كن وقعاً على اغصان الشجر اوعلى الرفوف فلو مر تحتها كلب وسنور وكل ثعلب وكل شيء يطالبها فاذا مر ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدة الارمت بنفسها اليه لأن الذئب هو المقصود به الى طباع الشاة وكذلك شأن ابن آوى والدجاج يخيل اليها ان ذلك مما ينفع عنده والجبن تفعل كل ذلك ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد ليحضر ببدنه يظن اجتهاده انجى له وانه اذا كان على ظهر الفرس أقل كداً وان ذلك اقرب الى الهلاك ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن اراد انقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم وانهما انما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به فاذا اصابته شقيقة او لسعة عقرب او اشتكى خاصرته اواصابه حصر او أسر شرب الدواء من يد اجهل الخليقة او جمع بين دواءين متضادين » .

فما انقادت الشاة للسبع او للذئب ورمت الدجاجة بنفسها الى ابن آوى الا للجبن فالجاحظ يظهر لنا في هذا المقام في صورة العالم الواقف على غرائز الحيوانات .

او قوله[2] :

(١) كتاب الحيوان الجزء السادس الصفحة ١٢٥ .

(٢) « « « « « «

« وليس شيءٌ من صنف الحيوان اردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها في الاصل موصولة بكفايات الناس فأسندت اليهم في كل امر يصيبها ولولا ذلك لأخرجت لها الحاجة ضروباً من الابواب التي تعينها ... » .

* * *

هذا ما عنّ انا من الكلام على ناحية جليلة من نواحي الجاحظ واعني بها ناحية العلم وقد احببت قبل ان انتقل الى الكلام على نواحي دينه او تهكمه او ادبه ان اجمل القول في مذاهب تحقيقه حتى تبقى صورته من هذه الجهة ماثلةً لأذهاننا قائمةً في صدورنا.

ارادت طائفة ان لا تجد في الجاحظ الا ناحية واحدة وهي ناحية الفن فارأت في بعض كتبه وخاصة في كتاب الحيوان الا خصائص فنية وهذا الرأي ناشئٌ عن امرين: اما عن جهل بمذاهب التحقيق في العلم واما عن تهاون بدراسة الجاحظ من كل اطرافه فليس من المعدلة في شيء ان ننظر الى الجاحظ من ناحية واحدة وان نهمل ناحية اجل وهي ناحية العلم .

ان ما حاضرتكم به حتى اليوم من بعد التمهيد والتوطئة مما لا بدّ منه قد صوّر لكم الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر .

همُّ العالم التنقيب عن الحقيقة وقد يذهب في هذا التنقيب مذاهب مختلفة على حسب العلم الذي ينصرف اليه وقد اخرج الجاحظ مكنونه في التنقيب عن هذه الحقيقة وأظن ان تجربه على اصناف من الحيوان كالحيات والافاعي والخنافس والعقارب والجرذان لم يكن لمجرّد اللهو والعبث واي لهو في عيان العقارب ام اي عبث في مشاهدة الافاعي فاذا قطع الجاحظ طائفة من اعضاء الحيوان او القى عليه ضرباً من السم او ذبحه وفتّش جوفه وقانصته او دفنه في بعض النبات اوذاقه او بعج بطنه اوجمع أضداده في اناء من قوارير او القى عليه مادة من مواد الكيمياء فما كان يفعل هذا واشباهه عبثاً وانما كان يرمي الى غايات بعيدة ، انه كان يرمي الى إدراك الحقيقة من ارشد مسالكها .

فمرةً كان يستعين بحواسّه على الوصول الى هذه الحقيقة فيستعين باللمس او بالذوق او بالرؤية او بالشم او بسؤال اهل المعرفة والعلم متوثقاً في كل خبر يسمعه متثبتاً في كل كلام يبلغ اليه حتى يكون على هدىً من امره وحتى يعرض هذه الحقيقة في اوضح معارضها

فلا يخامره شك فيها ، واي شك بعد العيان القاهر او الخبر المتظاهر .

ومرة كان يستعين عليها بآلة اكمل من كل آلة وهي آلة العقل :

ولقد أحكم استعمال عقله فراح دون حياض الحقيقة حتى لا يفسدها شيء من توليد كذّاب او من غرائب زور .

فحيناً كان يقف بالمرصاد لكل رجل تحدّثه نفسه بخرافة من الخرافات وحيناً كان يحذّر الناس من الأباطيل فيدلهم على عيوبها مقتصداً في دلالته لا شتم ولا بذاءة شأن العالم الجليل او يشككهم فيها ثم يخرجهم من ظلمة الشك الى ضياء اليقين .

وكان في بعض الأحوال يلجأ الى توضيح العلل في ابواب العلم فلا يخطئ مواطن الحق .

وفي كل مذهب من هذه المذاهب في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكه وتوضيحه كان الجاحظ يطلع علينا في صورة العالم الذي يعمل عقله في البحث عن الحقيقة .

الغلاظة في اللغة

-٢-

« الغليظ »

وهو غليظ وغُلاظ وغالِظ ج غِلاظ، وعُلابِط وعُلَبِط وأَمْ وعَلَنْدى وعَلْكَدٌ وعُلاكِدٌ وعُلَكِد وعُلاكِد وعَليذ (على الابدال) وعَبَنْجَر وعَبَنْ وعَبَنّى وعُرابِض وقَنْبَرٌ وحُدُرٌ وأَزْعَب وهي زَعْباء، ومسفوح ومُسْلَهِف وشَثْن يقال هو شَثْن الاصابع وشَثْنها ومنه قول الراجز:

اوعدني بالسجن والاداهم   رجلي فرجلي شثنة المناسم

ويقال اسد شثن البراثن. وحُباجِر وحَبَنْجِر وحَبَجْر ودَخْشَم ودُخْشُم ودَخْشَن (كأنه موخوذ من الدَخَش وهو الامتلاء من اللحم) ودُنابث وشِمْدارة. ودُكَّز ودُحامِس (غليظ سمين) ودُماحِس وطَبْطَر وكَدُوف وكِمّ (للمذكر والمؤنث ويقال اسنان كِمّ اى غلاظ وتقول كِمّ أكْوَع اي خشن غليظ كما يقال يوم ايوم) ومَهْد، ووَشْب (وهو مأخوذ من قول العرب تمرة وَشْبة اي غليظة اللحاء) وجَرْعَب وجَرْعَبِل وجَشيم وجَشْن وجَشِم وشاسِي (الجاسي الغليظ) وجِنْعِظ وجِنْعاظ (الغليظ الجافي) وجِنْعيظ (غليظ أشم) وجافٍ يقال قلم جافٍ اذا كان غليظ القط ورجل جافي الخلقة وجافي الخلق اي كزّ غليظ العشرة خَرِق في المعاملة متحامل عند الغضب والسورة على الجليس ج جُفاة، وعُتُل وأَبَخّ وجرعيب وأعقف تقول جاءني اعرابي اعقف.

وجأب: يقال كاهل جأب وخلق جأب، وجَبَل تقول فلان جبل الرأس والوجه اذا كان غليظهما قليل الحلاوة، وجَبِل « هذا شيء جَبِل اي غليظ جاف » وصَمَكوك

وبجبل وحُنابِكل وأخشبُ وذِرِبَعْري وكَنبرَانبَذ وجَحَنفش ومُصَوْمد ·

والعُنجُهُ : الجافي من الرجال ومثله القُبارِقب والقُحُ والعِزْوَلُّ والعِلْب والإزْب · ورجل غُضابُ ، غليظ الجلد · واعرابي محرّم ، جافٍ فصيح لم يخالط الحضر · وغلام غُنْدُر وغُنْدَر اي سمين غليظ · ورجل ذو جِبْلة اي غليظ · ومُعثّر غليظ كثير اللحم · وصِيَمْمٌ وصِيَّمْمٌ ، غليظ شديد ضخم · وخُزْخُز وخُزَخِز، غليظ العضل · وقُمدود وقُماد وقُمادِيٌّ وقُمُد وقُمُدّ وقُمُدّان وقُمُدّانيّ ، غليظ · وكَنْتَرٌ ، غليظ عبل · وانه رجل ذو بُهْم اي غليظ ومثله الرجل البَكْباك · وذو جَراز ، غليظ صلب · وجَهْم الوجه ، غليظه · والجهم الوجه الغليظ المجتمع السمج · والفِلِزّ ، الرجل الغليظ الشديد · والضُمراك الغليظ الشديد عصب الخلق · والضِيَّاط ، الغليظ · والعِرَبْض والعِرْباض ، الشديد الغليظ · والعِرْنة ، الجافي الكزّ وقال ابو عمرو وهو الذي يخدم البيوت · والبَلْعَث ، الرجل الغليظ الجسم المسترخي · والأمّان ، العيّ الجلف الجافي القليل الكلام ومثله الأمّيّ · والجَبْوَل ، الجافي · والحُنادِف ، الجافي الجسيم · والوَطْب ، الجافي · والعَشَنْطل ، الجافي الثقيل · والعُنجُهيّ ، الخشن الجافي · والجِبْز ، الغليظ الكز · والقُنابل والقُنْبُل ، الغليظ الشديد ومثله الكُدُمّة · والبَلاّز ، الغلام الغليظ · والجُؤشوش ، الرجل الغليظ ·

وقالوا مكان صَلْبٌ ، غليظ حجر ومثله ارض صُلْبَة · وانف مُعرَنْزم ، غليظ مجتمع · وحمار كَدِم ، غليظ شديد · والبَلْخَص ، الغليظ الكثير اللحم · والخِزاق ، السوار الغليظ · والخُرْشب ، الضائط الجافي · والدِوِرّة ، الحمار الغليظ · والعَدَأس الغليظ الضخم · والعِلْبُ ، المكان الغليظ الذي لو مُطر دهراً لم يُنبِت · والجَباس ، الغليظ القدم · والجَبِيلُ ، الغليظ جلدة الراس والعظام ج جُبُل · والجَذْلُ ، ما غلظ وقصر من الشجر — ومن الشعر ، اشد سواداً واغلظه · والجَشْب ، الغليظ من الطعام ومثله الجَشيب والجشاب والمجشوب · والجشيب ايضاً ، الثوب الغليظ - والسقاء الغليظ الخَلَق · والمُجَعَّد من الحبس ، الغليظ ·

والعُرْدُمان ، الشديد الجافي ومثله القُضَبر والقُضابر والعَجَرَّد والعَضَنْك والعِرْباض والعُرَيض والعُفْرُ ج أعْفار وعفار · والشَخْزَب والشُخازب

والإِرْزَبُّ والصَّتم والصَّبْصَبُ والصَّبْصاب والصُّباصِب والكَدِم والمُعكَلند والمكلندي والجُرائِض والجُرَيْض والجِراض والقَعْوس الغليظ الشديد الظهر من كل شيء وقالوا ناقة مَجْرَد ومُجرَّدة اي غليظة شديدة وكذا قدم موقوعة وجمل بلذري وجلذري .

(الرقبة) والعُرْدُمان ايضاً ، الغليظ الرقبة ومثله الرَّقَبان والرقباني والأرقب ومنه سمي الاسد ارقب وذلك من الرقَب وهو غلاظ الرقبة . والفُرانِس والفِرناس والحَبَوْكي والقِسْوَز (الغليظ الرقبة القوي) .

(الجنب) والأعكى ، الغليظ الجنبين وهي عكواء . والمُجْرَئِش ، الغليظ الجنب الجافي .

(الانف) والأعبُ ، الغليظ الأنف .

(الجلد) والدبكل ، الغليظ الجلد السمج . والجبيل ، الغليظ الجلدة الراس والعظام .

(السمين) والدُحْسان والدُحُساني ، الرجل الشديد السمرة الغليظ السمين . والدُحامِسُ ، الغليظ السمين . والحَمِرُ ، الرجل الغليظ السمين . وقد اغتال الغلام اغتيالاً اذا سمن وغلظ . واوكمت القدم ايكاماً ، سمنت وغلظت واشتدت . وحَدُر الغلام ، كان حادراً اي سميناً غليظا .

« للبحث صلة »

(النبك) سالم خليل رزق

—«×»—

آراء وافكار

تعرف اخبار الناس
« وحب الاطلاع عليها »

جاء في كتاب (التراتيب الادارية) ان النبي صلى الله عليه وسلم « كان يسأل الناس عما في الناس » وليس هذا من التجسس المنهي عنه في الشرع ، وانما الغرض منه معرفة الخير والاحسان فيُزداد منهما ومعرفة الشر والاساءة فيحترز منهما ويحتاط لها . وكان بعض الصحابة يخبر النبي (ص) بلمز المنافقين فيقول : رحم الله موسى لقد أوذي باكثر من هذا فصبر . ولاريب انه يجوز بناء على هذا إخبار الامام بمايقال عنه . وهكذا كان لعمر عيون على الناس ينقلون اليه أخبارهم كما كان يفعل حذيفة بن اليمان في نقله أسرار المنافقين الى رسول الله (ص) . ومن اللطائف ماروي من ان (ابن غازي) احد علماء المغرب قد عين بعض أصحابه ان يكتب له كل ماجرى له في البلد وماقال وقيل من خميس الى خميس فيطالع ذلك . ويكون ذلك يوم الخميس الذي فيه تفرغ من التدريس . ورووا ان الحافظ اباالعباس المقري اتخذ — وهو مقيم في مصر — رجلاً بنفقته وكسوته ومايحتاج اليه على ان يذهب كل يوم صباحاً فيخترق البلد أسواقاً ومساجد ورحاباً وأزقة ، وكلما رأى امراً او سمع خبراً قصه على ابي العباس في الليل . وروى بعض تلاميذ ابي العباس (الدرعي) ان شيخه المذكور كان كثير السؤال والفحص عن أحوال الناس ووقائعهم في الأقطار والمدائن قال وكان يسألني عن ذلك كثيراً . فقلت في نفسي مرة : ماللشيخ وللاخبار ؟ لو اشتغل بصلاته وصيامه وسبحته كان أحسن له . قال فلقيني بعد ذلك بقريب وقال لي : المؤمن يسأل عن إخوانه وعن أحوالهم فمن كان منهم في خير دعا له بالزيادة والهناء ومن كان في شر وفقر دعا له بخير ورحمة . ويقال ان الشيخ الشعراني كان في تعرف أحوال الناس على قدم الشيخ الدرعي

وفي طبقات ابن سعد عن موسى بن طلحة قال : رأيت عثمان بن عفان والمؤذن يؤذن (يعني يوم الجمعة) وهو يحدث الناس يسألهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار . ومن طريق آخر انه يجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يحدث يسأل الناس عن أسعارهم وعن قوامهم وعن مرضاهم ثم يقوم فيخطب . اه

هذا وفي نشوار المحاضرة (جزئه الثاني) الذي مازال مخطوطاً خبر عن بعض رجال الدولة العباسية يدل على مبلغ عنايتهم بالاخبار وتقصي أحوال الناس وسيرهم قال :

حدثني محمد بن احمد بن عثمان الزيات قال حدثني ابو بكر بن حوري : شيخ كان من أهل خامية ؟ من أعمال النهروان قد أقام ببغداد سنين وكان مشهوراً بصحبة ابي عبدالله ابن ابي عوف قال : كنت ألزم ابن ابي عوف سنين لجوار بيننا ومودة . لاأسأله حاجة : لانها لم تكن تعرض لي وكنت أتخلف بين يديه في حوائج ينفذني فيها . وكان رسمي في كل ليلة أجيئه بعد العتمة وقد صلى ودخل منزله . فحين يراني يمد رجله في حجري فاغمزها وأحادثه فيسألني عن الاخبار والحوادث ببغداد . وكنت أسأل عنها وأتطلبها من كل موضع واجيئه بها وأخبره بخبر من قدم البلد ومن سار عنه ومن مات ومن وُلد ومن خاصم ومن ورث ومن يُرْجف به الناس وأخبار الجيران وبكل غث وسمين الى ان ينعس فاذا نعس قبض رجله فقمت الى بيتي وقد مضى ثلث الليل او بعضه او أقل . وجرى الامر على هذا سنين . فلما كان ذات يوم جاءني سقطي[1] كان يعاملني فقال قد دُفعتُ الى شيء ان تم عليَّ افتقرت . فقلت ماهو ؟ فقال رجل كنت أعامله فاجتمع لي عليه الف دينار فطالبته فرهنني عقدَ جوهرٍ قُوّم بالف دينار لى ان يفتكّه بعد شهور او أبيعه . وأذن

(١) بائع السقط وهو الرديء من متاع البيت نحو الابرة والفأس والقدر :

وما المرء خير في حياة اذا ماعد من سقط المتاع

اولعل صوابه السفطي (بالفاء) نسبة الى السفط وهو مايعبّى فيه الطيب وماأشبهه من أدوات النساء . ويكون المراد هنا بائع الطيوب وسائر الحاجات النسائية وهو المسمى في عصرنا بالافرنسية (nouveauté) وانما رجحنا ان يكون هذا هو المراد لان السفطي المذكور في هذا الخبر تجمّع له مع بعض عملائه الف دينار . والمتاجر بحاجات النساء وأدواتهن ووسائل تطريتهن — خليق بان يملك الألوف من الدنانير على العكس من بائع الابرة والفاس .

لي في ذلك فلما كان امس وجه (مؤنس الفحل صاحب الشرطة) من كَبَس دكاني وفتح صندوقي واخذ العقد وقد استتر الرجل . فقلت له لا تفكر في هذا فاني أخاطب (اباعبدالله بن ابي عوف) فيلزمه ردّه صاغراً . قال وانا مُدِلٌ بابن ابي عوف لمكاني منه . ومكينته من المعتضد (الخليفة) . فلما كان تلك الليلة جئته فمدّ رجله في حجري على الرسم . وحادثته وعرفته الأخبار وقلت له في جملتها أمر السقطي مع مؤنس (رئيس الشرطة) ثم قلت هذا الرجل جاري ومعاملي وأوجبُ الناس حقاً عليّ ولا بد والله من تفضلك ياسيدي واعتنائك في امره وإلزام مؤنس (رئيس الشرطة) رد العقد .

قال ما انا وهذا ؟ أعادي صاحب شرطة الخليفة ؟ وكيف استجرأتَ ان تعرّضني لمثل هذا وتسألني فيه ؟ وكأني بك وقد قلتَ ابن ابي عوف صديقي ألزمه رد هذا . ولم تُشفق على جاهي وكأنّ صلاح حال السقطي أحب اليك من صيانة جاهي . ما انا عافاك الله وهذا ولا اليه ؟ قال فورد عليّ من هذا أعظم مورد . وقلت في نفسي : هذا رجل قد خدمته كذا وكذا سنة هذه الخدمة التي لم تخدمها العبيد على اني ماسألته قط حاجةً ولا احتجت اليه في شيء ولا له عليّ رزق ولا إفضال يلقاني في حاجة قد سألته فيها بمثل هذا ؟ ! شهد الله لادخلت له داراً بعدها ابداً . وامسكتُ وجلست لا أتكلم . ثم قمت قبل الوقت الذي كنت أقوم فيه . وعدت الى منزلي منكسراً مغموماً . فلما كان من الغد بكرتُ (١) لئلا يجيئني الرجل (السقطي) بسبب حاجته فأفتضح عنده . ولم أدخل بيتي الى وقت المغرب . ثم جئتُ فصليت وطرحت نفسي على سرير واعتقدت أني لا أمضي اليه . فلما صليت العتمة جاءني خادم لابن ابي عوف فقال الشيخ يقرأ عليك السلام و يقول لمَ تأخرت الليلة ؟ ان كنت معافىً فتعال وان كنت متشكياً جئناك فاستحييت وقلت أمضي الليلة ثم أنقطع . فحين دخلت اليه ورآني مدّ رجله في حجري . فأخذتها وغمزتها على الرسم فقال ايش (٢) عندك من الأخبار ؟ فأقبلت أحدثه بحديث غثّ متكلف متصنّع . فلم يزل يصبر على

---

(١) بكرت اي نزلت من داري باكراً .

(٢) ايش مخفوفة من اي شيء وهي من كلمات عامتنا اليوم لكنها مع هذا كثيرة الاستعمال في كلام الفصحاء الاقدمين .

ذلك ساعة ثم قبض رجله فقمت فقال : ياابابكر[1] انظر ايش تحت المصلّى[2] واذا برقعة في قرطاس فأخذتها وتقدمت الى الشمعة واذا فيها: «يامؤنس جسرت على قصد دكان رجل» «تاجر يعرف بفلان وفتحت صندوقه واخذت منه عقد جوهر قيمته الف دينار وانا في الدنيا؟ » «والله لولا انها اول غلطة غلطتها ماجرى في ذلك مناظرة[3] . اركب بنفسك الى دكان» «الرجل (السقطي) حتى ترد العقد في الصندوق بيدك ظاهراً » .

فقلتُ لابي عبد الله ايش هذا ياسيدي ؟ فقال خطّ المعتضد (الخليفة) الى مؤنس (رئيس الشرطة) بما أردته : مثّلتُ بين وجدك وعتبك مع وزن بقاء الحال مع مؤنس رئيس الشرطة — كما هي — وبين رضاك وقضاء حاجتك وايحاش مؤنس فاخترتُك عليه فأخذتُ خط امير المؤمنين بما تراه . فامض وأوصله اليه فانه يعمل ما أمره به . فقبّلتُ رأسه وشكرته وانصرفت وانا من الفرح لا أعقل . وجئت الى السقطي واخذت بيده ومضينا الى مؤنس وسلّمت التوقيع اليه .

فحين قرأه أسودّ وجهه وارتعد حتى سقطت الرقعة من يده . ثم قال « يا هذا : الله بيني وبينك . هذا شيءٌ ماعلمتُ به وتموّه عليّ فألاّ تظلمتم اليّ فان لم أنصفكم فالى الوزير . ماهذا ؟ بلّغتم الأمر الى امير المؤمنين من أول وهلة !! » قال وانتشطت[4] فقلت « بعلمك جرى والعقد معك » قال : فأحضر العقد ، قال : خذوا الالف دينار التي عليه الساعة واكتبوا على الرجل (السقطي) بطلان مادعاه . فقلت لانفعل . فقال خذوا الف وخمسمائة دينار . فقلت والله لو أعطيتنا الآف الفِ دينار ما رضينا او تركب بنفسك الى الدكان والعقدُ معك فترده الى الصندوق ولانكذّب انفسنا ، اوترد التوقيع . فقال أسرجوا لي قال : فركب والله في موكبه حتى وقف على دكان (السقطي) ورد العقد بيده الى الصندوق . فجاءنا صاحبه من ذلك اليوم ودفع الالف دينار وارتجعه . « المغربي »

(١) قوله ياابابكر باسقاط همزة (أب) وكانوا قديماً يصنعون كذلك في همزة (اب) المنادى في لغتهم الدارجة وكذا اليوم في لغتنا . (٢) «المصلى» سجادة الصلاة حيث كان يصلي . (٣) ماجرى في ذلك مناظرة اي محاورة ومراجعة بل كنت أوقعت بك .

(٤) قوله فانتشطت (من الانشوطة) اي كأني كنت موثقاً في أنشوطة حبل ثم حلّت عني واجترأت على الجواب .

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

مطبوعات حديثة

—*—

الاعلان بالتوبيخ
« لمن ذم التاريخ »

طبع بمطبعة الترقي بدمشق ص ١٧٠

الحافظ السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن مؤلف هذا الكتاب (المتوفى سنة ٩٠٢ ﻫ) من اشهر رجال العلم والتصنيف في القرن التاسع . وهو صاحب التاريخ المسمى (الضوء اللامع في رجال القرن التاسع) الذي مازال مخطوطاً في خمسة أجلاد . ولعمري ان طبع هذا الكتاب هو أعظم عمل يخدم به التاريخ الاسلامي والتعريف برجاله الذين عاشوا في عصوره الوسطى . و يظهر ان العلامة السخاوي كان شديد العناية بفن التاريخ إذ أن معظم مصنفاته تحوم حول هذا الفن . و كأن أناساً من معاصريه لمزوه او لمزوا فن التاريخ وزعموا انه دون غيره من العلوم . فقام المؤلف ووضع كتابه هذا (الاعلان بالتوبيخ) وضمنه فضل التاريخ وفوائده والمصنفين فيه والمقارنة بين مصنفاتهم ونقدها وكل ما له علاقة بفن التاريخ . فصح فيه ما قاله الاستاذ احمد باشا تيمور (رحمه الله) : ان كتاب (الاعلان بالتوبيخ) هو تاريخ للتاريخ في الاسلام » .

عمد الى طبع هذا الكتاب الأديب (السيد حسام الدين القدسي) وقد استخرج نسخته من نسختين ظفر بهما في خزانة كتب العلامة احمد باشا تيمور . وقد قدم لها مقدمة ضمنها ترجمة مؤلفها السخاوي . ولا يستغني عن مطالعة هذا الكتاب مؤرخ ولا محدث ولا كاتب في تاريخ الاسلام . وان المتصفح له يجد فيه فوائد قلما يظفر بها في غيره . ومما

لوحظ فيه ان المؤلف استعمل كلمة (اختيار) بمعنى المتقدم في السن (ص٩) وكنا نحسب ان هذه الكلمة بهذا المعنى انما جاءتنا من الاتراك العثمانيين المتأخرين . وكأنهم يريدون بها ان هذا المسن الهرم أصبح مختاراً لرحمة الله وسكنى جنته . والشيخ المؤلف كان يعيش في مصر في زمن لم يكن الأتراك العثمانيون استولوا عليها بعد . فالكلمة اقدم مما نظن .

وفي صفحة (٣٤) ذكر السبب في وفاة ابن مالك صاحب الألفية نزيل دمشق فقال انه كان خطيباً في بعض قرى دمشق فعارضه بعض جهلتها وانتزع الخطابة منه فشق عليه الامر . ثم انه صلى الجمعة في المسجد وبعد ان نزل ذلك الخطيب عن المنبر سأله ابن مالك عن مخرج الألف يعني مخرجها من الفم وهو سؤال في علم التجويد لا يحسن ان يجهله امام ولا خطيب . فتحير الخطيب وظن انه يكلمه بالأعجمية . فما كان منه الا ان شرع يسرد له حروف الهجاء : ألف باء تاء ثاء حتى استوفاها كلها فصاح أنصار الخطيب من العامة مسروراً قائلين : ها هو قد سئل عن مسألة فأجاب بتسع وعشرين . فالتفت ابن مالك يمنة ويسرة فلم يجد له ناصراً فمات بعد ايام يسيرة . «المغربي»

النواة في حقول الحياة

هذا الكتاب لمؤلفه الاستاذ السيد محمد حبيب العبيدي الموصلي في نيف ومائتي صفحة تضمنت زبدة ماينبغي ان يقال في الأخلاق الفاضلة من حيث انها دعامة للاجتماع الاسلامي خاصة والانساني عامة . وقد أراد بتسمية كتابه بالنواة في حقول الحياة ان مضامينه اذا قرأها الناشئون كانت نواة طيبة تثمر لهم من سعادة الحياة ما يفيدهم أفراداً ومجتمعين .

واذ كانت الاخلاق الفاضلة لا بد ان تقوم على الاعتقاد بالله قدّم المؤلف بحث الاعتقاد والنظر في الكائنات على الأبحاث الاربعة التي بنى عليها كتابه ثم ثنّى على ذلك ببحث الأخلاق ونتائجها . ولايخفى ان الأخلاق انما تتكون او تستمد من البيئة التي يتقلب فيها الانسان فلم يدع المؤلف عاملاً من عوامل البيئة ومؤثراتها الا ذكره من مثل (العائلة) و (المدرسة) و (المعاشرين) و (المصنفات) و (الصحف) و (المجلات) وغير ذلك .

واكبر عوامل البيئة (الدين) و (الحكومة) ولذلك عقد المؤلف بحثين لهما . ولم يبحث

في البيئة بحثاً نظرياً محضاً بل بحث فيها من حيث شؤونها التجزيئية التي ينبغي ان يعمل بها أبناء الأوطان ليكونوا وطنيين حقيقيين . وفي ذيل الصفحات تعليقات واضافات معظمها وقائع جرت للمؤلف فكان الاستشهاد بها عاملاً على زيادة الايضاح لمباحث الكتاب والامتاع بفوائده فالشكر الجزيل للمؤلف الفاضل . « له »

الآداب العربية وتاريخها

« تأليف جرجس كنعان طبع في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩٣١ »
« في ٦٢٠ صفحة »

مؤلف الكتاب هو أستاذ للآداب العربية في (كلية الشرق في طرطوس) من بلاد (العلويين) فهو اذا كتب انما يكتب عن علم يمده عمل، وعمل يغذيه علم، ولذا كان لكتابه قيمة وفائدة في نفوس الأدباء وقد رتبه مطابقاً لمنهاج البكالوريا الذي تقرر السير عليه في الجمهورية اللبنانية والدولة السورية . فقسم عصور الشعر والنثر او الأدب عامة الى العصر الجاهلي فالأموي فالعباسي وقسّم العباسي الى أدوار حتى بلغ العصر الأخير ودعاه (عصر الانبعاث) وقد تتبع رجال كل عصر من هذه العصور فترجمهم — من الشنفرى في الأقدمين — الى نجيب حبيقة في المعاصرين . والكتاب جمع بين غزارة المادة وحسن التبويب وخلوص النية في خدمة الوطن العربي، ومن آثار ذلك قوله في مقدمة الكتاب « ولا يعرف التاريخ أدباً عالمياً قوياً شديد التأثير كالأدب العربي ففيه صهر الأدب الآري مع الأدب السامي وأصبح عنوان رقي العالم مدة عشرة قرون الخ » .

وهنالك مواضع للانتقاد ليست بذات بال وهي مغتفرة في جنب الالتفات والعناية الملموسة في كل جانب من جوانب الكتاب فنلفت اليه طلاب الآداب العربية عامة والبكالوريا خاصة فان فيه شفاء وبلاغاً . « له »

ابن زيدون

- ٣ -

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها — كانت طريقة كتابة الاندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحلبته من أمثال الصاحب بن عباد والبديع والخوارزمي والصابي ومن تابعهم من أمثال الحريري والعماد والاصفهاني . وكان الكاتب الاندلسي الذي ينسج على منوالهـا وان حل المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لا يغلب ذلك على قوله فتفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائعـة والتعليلات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً .

وابن زيدون راعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فاما ما راعاه في كتابته منها فهو :

١ — حل المنظوم من مشهور الابيات .

٢ — الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الابيات مستعملاً لها استعمال الأمثال فلا ينسبها الى قائلها .

٣ — الاقتباس من القرآن الكريم او الحديث بلفظها او تغيير بعض نظمها .

٤ — تضمين الحكم والأمثال بلفظ اصحابها او بتغيير في نظمها .

واما ما خالف فيه فهو :

١ — عدم التزام السجع .

٢ — الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يعد قوله الخاص بجانبه ضائعاً وبخاصة الغريب من هذه الامثال .

٣ — الاستكثار جداً من ذكر اسماء رجال التاريخ المشهورين .

٤ — الاستكثار جداً من اسماء الوقائع الشهيرة في التاريخ .

٥ — الاستكثار من الجمل المترادفة المنسوجة على مثل واحد في المعنى الواحد حتى يتكون منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة بحيث لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكررة في المعنى الواحد لنزلت الرسالة الى خمسها اوسدسها .

وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهي على رسالتيه الجدية والهزلية أغلب ولا سيما الهزلية .

(ب) منزلته فيها — اشتهر ابن زيدون عند المغاربة والمشارقة بانه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فاما الشعر فلا جدال في استحقاقه فيه منزلة عليا ، واما الكتابة فلاستحقاقه ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حد بلاغة الكتابة في ذاتها الى امور خارجة عن جوهر الاجادة وذلك ان كتابته اشتهرت بين الناس لامرين :

اولاً — انها ليست على منوال كتابة الاندلسيين في عصره بل هي مخالفة لها في بعض الصور . وصدورُ العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط في الحال لافت بذاته للانظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر عن ذي شأن نبيه بمنصب رفيع ونسب عريق وجاه عريض وصيت ذائع في السياسة والادب والشعر وحسن المحاضرة والمنادمة .

وثانياً — انها باهرة لانغامها وروعة أساليبها وشدة حوكها في نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع واسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها في الصدور ، و يشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هي ، اذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بمأثور الاقوال ، مُعرِّفة بكثير من حوادث التاريخ واسماء الابطال ، بحيث اذا حفظ ناشئٌ متأدب رسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحث طويل ، فكأن شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون في الأدب أشبه بمتن من متون العلم كثير المسائل والأحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريري ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كمقصورة ابن دريد ورائية ابن عبدون في رثاء دولة بني الافطس ونونية الرندي ولامية ابن الوردي ونونية البستي ونحوها وكلها عظيمة الاثر في التعليم والتأديب وسرعة التوقيف على اكثر ما لا يسع الاديب جهله في لفظ يسير وزمن قصير ، لا في بلاغتها

ذاتها وحسن تأثيرها في النفس حتى تستجيب النفس لداعيها ، وتقبل على قائلها . ولذلك نجد رسالة ابن زيدون الجدية التي استعطف بها جهوراً لم تؤد ما وضعت له .

ولا نعني بكلامنا هذا ان الرجل كان قليل الخاطر ، اوضعيف الارتجال ، فكل من نعرض لذكر اخباره يصفه بقوة العارضة وسرعة البديهة والارتجال ، وانه كان في مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية البليغة ويحاضر بالنكت النادرة والاجوبة المسكتة . ودفن بعض حرمه فوقف للناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب احداً بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لا تدرك .

وانما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً واضطرته الوزارة الى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر اشبه منها بالنثر . واكثر المغاربة لا يتحدثون الا في شعره على عكس المشارقة .

* * *

رسالته الجدية

هذه الرسالة أشهر رسائله وابلغها ، واكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتنوع فصولها وتعدد الاغراض التي رمت اليها ، والمعاني التي لوّحت بها ، على ما أفاته من أمل كاتبها ، وما حُرمته من روعة التأثير في النفس .

وهذه الرسالة بعث بها من السجن الى جهور يستعطفه بها ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستفظاع العقاب على ذنب متوهم على طريقته الكتابية التي وصفناها آنفاً .

واذا حللنا هذه الرسالة الى عناصر الاغراض التي تألفت منها وجدنا انها لا تعدو عشرة أغراض تؤدي في عشرة أسطر الا ان كثرة الجمل المترادفة الأسلوب والصورة زادت في ذرعها طولاً .

وذلك انه ناداه بالفاظ السيادة اولاً ، ثم اعتذر له عن نكبته اياه بعدما احس الجماد بله الانسان بصدق خدمته له وثنائه عليه ، بان عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشر ، واول هذه المقابلة بانها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم اخذ يستريث العفو ،

ويستفظع هذا العقاب الذي كان بعضه كافياً لردع الأبالسة ، وكبار الفساك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع ان المسألة لاتخرج عن وشاية حساد سمع جوهر لم فنكي وليه الذي نوه بذكره . ثم اخذه الزهو فذكر انه كان في مكنته ان يستبدل بخدمته خدمة من يرحب به من الملوك ، غير انه عز عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذ نفسه من يكون معه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده العتبى حتى توقع الفكاك . ثم استطلع نشر هذه الرسالة ورأى ان يستلحقها بقصيدة لكانت هذه في رأينا آنق لفظاً واعذب مورداً واطبع اتساقاً .

وهاك الرسالة :

الرسالة الجدية لابن زيدون

« كتبها لابن جهور »

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، ومن ابقاه الله تعالى ماضي حد العزم ، واري زند الامل ، ثابت عهد النعمة ، ان سلبتني اعزك الله لباس انعامك ، وعطلتني من حلي اينـاسك ، واظمأتني الى برود اسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد ان نظر الاعمى الى تأميلي لك . وسمع الاصم ثنائي عليك ، واحس الجماد باستنادي اليك . فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته . والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

واني لاتجلد ، وأري الشامتين اني لريب الدهر لاأتضعضع «فأقول» هل أنا ألا يد أدماها سوارها . وجبين عض به اكليله . ومشرفي الصقه بالارض صاقله . وسمهري عرضه على النار مثقفه . وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس احياناً على من يرحم

هذا العتب محمود عواقبه . وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي . وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع . ولن يريبني من سيدي ان ابطأ سيبه . اوتأخر غير ضنين غناؤه . فأبطأ

الدلاء فيضاً املؤها · واثقل السحائب مشياً أحفلها · وانفع الحيا ما صادف جدبا · والذ الشراب ماأصاب غليلا · ومع اليوم غد ، ولكل اجل كتاب ، له الحمد على اهتباله · ولا عتب عليه في اغفاله :

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فافعاله اللاتي سررن الوف

« واعود فأقول » ما هـذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذي لم يف به احتمالك ، ولا أخلو من ان اكون بريئاً فأين العدل ، او مسيئاً فأين الفضل ·

الا يكن ذنب فعدلك واسع اوكان لي ذنب ففضلك اوسع

حنـانيك قد بلغ السيل الزبى · ونالني ماحسبي به وكفى · وماأراني الا لو أمرت بالسجود لآدم فابيت واستكبرت · وقال لي نوح اركب معنا فقلت سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء الصرح لعلي اطلع الى آله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلي به جيوش طالوت ، وقدت الفيل لابرهة ، وعاهدت قريشاً على مافي الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة ، ونفرت الى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة ، وجئت بالافك على عائشة الصديقة ، وأنفت من إمارة أسامة ، وزعمت ان بيعة ابي بكر كانت فلتة ، ورويت رمحي من كتيبة خالد ، ومزقت الاديم الذي باركت يدالله عليه ، وضحيت بالاشمط الذي عنوان السجود به ، وبذلت لقطام :

ثلاثة آلاف وعبداً وقينة وضرب علي بالحسام المسمم

وكتبت الى عمرو بن سعد ان جعجع بالحسين ، وتمثلت عنـدما بلغني من وقعة الحرة :

ليت أشياخي ببدر علموا جزع الخزرج من وقع الاسل

ورجمت الكعبة ، وصلبت العائذ على الثنية — لكان فيما جرى علي مايحتمل ان يسمى نكالاً ، و يدعى ولو على المجاز عقابا :

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحمينا

فكيف ولاذنب الا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمازون المشاؤون

بخيم ، والواشون الذين لا يلبثون ان يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً والسعاة الذين ذكرهم الاحنف بن قيس فقال ما ظنك بقوم الصدق محمود الا منهم :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

والله ماغششتك بعد النصيحة ، ولاانحرفت عنك بعد الصاغية ، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولاأزمعت يأساً منك مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك ، ففيم عبث الجفاء باذمتي ، وعاث العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلي ، ولمَ ضاقت مذاهبي ، واكدت مطالبي ، وعلامَ رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب ، وانى غلبني المغلب ، وفخر عليّ العاجز الضعيف ، ولطمني غير ذات سوار ، ومالك لم تمنع مني قبل ان افترس ، وتدركني ولما أمزق ، ام كيف لا تنضرم جوانح الاكفاء حسداً لي على الخصوص بك ، وتتقطع انفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك وقد زانني رسم خدمتك ، وزهاني وسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل في سماطك وقمت المقام المحمود على بساطك :

ألست الموالي فيك غرّ قصائد ... هي الانجم اقتادت مع الليل انجما

ثناء يظل الروض منه منوراً ... ضحى ويخال الوشي فيه منمنما

وهل لبس الصباح الا برداً طرزته بفضائلك ، وتقلدت الجوزاء الا عقداً فصلته بمآثرك ، واستقلى الربيع الا ثناء ملأته بمحاسنك ، وبث المسك الا حديثاً اذعته في محامدك ، مايوم حليمة بسر ، وان كنت لم اكسك سليباً ، ولاحليتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا ، بل وجدت آجراً وجصاً فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت ، حاش لك ان أعد من العاملة الناصبة ، واكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وتحترق . فلك المثل الاعلى ، وهو بك وبي فيك اولى . ولعمري ان صريح الرأي ان اتحول اذبلغتني الشمس ونبا بي المنزل واصفح عن المطامع التي تقطع اعناق الرجال ، فلا استوطن العجز ، ولا اطمأن الى الغرور . ومن الامثال المضروبة ، خامري ام عامر ، واني مع المعرفة ان الجلاء سباء والنقلة مثلة :

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى ... مصارع مظلوم مجراً ومسحبا

وتدفن منه الصالحات وان يسئ ... يكن ما أساء كالنار في رأس كبكبا

عارف ان الادب الوطني لا يخشى فراقه · والخليط لا يتوقع زياله · والنسيب لايجفى · والجمال لايخفى · ثم ما قران السعد للكواكب ابهى اثرا · ولا اسنى خطرا · من اقتران غني النفس به · وانتظامها نسقاً معه · فان الجائزلها · الضارب بسهم فيها · وقليل ماهم اينما توجه ورد منهل بر ، وحط في جناب قبول · وضوحك قبل انزال رحلة وأعطي حكم الصبي على اهله :

وقيل له اهلاً وسهلاً ومرحبا فهـذا مبيت صـالح ومقيل

غير ان الوطن محبوب · والمنشأ مألوف · واللبيب يحن الى وطنه · حنين النجيب الى عطنه · والكريم لايجفو ارضاً فيها قوابله · ولا ينسى بلداً فيها مراضعه · قال الاول :

احب بلاد الله ما بين منعج الي وسلمى ان يصوب سحابها

بلاد بها عق الشباب تمائمي واول ارض مس جلدي ترابها

هذا الى مغالاتي بعقد جوارك · ومنافستي بالحظة من قربك · واعتقادي ان الطمع في غيرك طبع · والغنى من سواك عنا · والبدل منك اعور · والعوض لفا :

واذا نظرت الى اميرزادني ضناً به نظري الى الامراء

وكل الصيد في جوف الفرا ، وفي كل شجرة نار واستمجد المرخ والعفار ، فما هذه البراءة ممن يتولاك ، والميل عمن لا يميل عنك ، وهلا كان هواك فيمن هواه فيك · ورضاك لمن رضاه لك :

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

أعيذك ونفسي من ان اشيم مُخلِّباً ، واستمطر جهاماً ، واكدم غير مكدم ، واشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، فما ابسست لك الا لتدر ، وماحركت لك الحوار الا لتحن ، وما نبهتك الا لاتنام ، وما سريت اليك الا لاحمد السري لديك ، وانك ان شئت عقد امر تيسر ، ومتى اعذرت في فك امري لم يتعذر · وعلمك محيط بان المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة · وفضل الجاه يعود به صدقة ·

واذا امرؤ اهدى اليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

لعلي ان القي العصا بذراك ، و يستقر بي النوى في ظلك ، واستأنف التأدب بادبك والاحتمال على مذهبك ، فلا اوجد للحاسد مجال لحظة ، ولا ادع للقادح مساغ لفظه ،

والله مبشرك من أطلابي بهذه الطلبة ، واشكاني من هذه الشكوى بصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها احفظ مستودع ، حسبما انت خليق له ، وانا منك حري به ، وذلك بيده وهين عليه ، ولماتوالت غرر هذا النثر واتسقت درره ، فهز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه ، عارضه بالنظم مباهياً ، بل كابده مداهياً ، حين اشفق ان يستعطفك استعطافه وتميل بنفسك الطافه : فاستحسن العائدة منه ، واعتمد بالفائدة له ، فما زال يستكد الذهن العليل ، والخاطر الكليل ، حتى زف اليك عروساً مجلوة في اثوابها ، منصوصة بحليها وملابسها وهي :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطر ماانقضى الى ان تقضى زمن ما ذمامه بالذميم
اذ ختام الرضا المسوغ مسك ومزاج الوصال من تسنيم
وغريض الدلال غض جنى الصب ـوة نشوان من سلاف النعيم
طالما نافر الهوى منه غر لم يطل عهد جيده بالتميم
زار مستخفياً وهيهات ان يخـ ـفى سنا البدر في الظلام البهيم
فوشى الحلي اذ مشى وهفا الطيـ ـب الى حسن كاشح بالنسيم
ايها المؤذني بظلم الليالي ليس يومي بواحد من ظلوم
قمر الافق اذ تأملت والشمـ ـس هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك يغدو بالمصاب العظيم نحو العظيم
بوأ الله جهوراً شرف السو دد في السر واللباب الصميم
واحد سلم الجميع له الامـ ـر فكان الخصوص وفق العموم
قلد العمر ذا التجارب فيه واكتفى جاهل بعلم العليم
خطر يقتضي الكمال بنوعي خلُق بارع وخلق وسيم
اسوة الروض من بطيبك يحظى نظري ما اعتمدته وشميمي
أيهذا الوزير ها انا اشكو والعصا بدء قرعها للحليم
ما عسانا ان يأنف السابق المر بط في العتق منه والتطهيم

وثواء الحسام في الجفن يثني   منه بعد المضاء والتصميم
أفصبر مثين خمس من الايا   م ناهيك من عذاب أليم
ومعي من الضني بهذاة   نكأت بالكلوم قرح الكلوم
سقم لا أعاد منه وفي العا   ئد انس يفي ببرء السقيم
نار بغي سعى الى جنة الاء   ن لظاها فاصبحت كالصريم
بابي انت ان تشأنك برداً   وسلاماً كنار ابراهيم
للشفيع الثناء والحمد في صو   ب الحيا للرياح لا للغيوم
وزعيم بان يذلل لي الصع   ب مثابي الى الهام الزعيم
وثناء ارسلته سلوة الظا   عن عن شوقه ولهو المقيم
ووداد يغير الدهر ما شا   ء ويبقى بقاء عهد الكريم
فهو ريحانة الجليس ولا نقـ   ـص وفيه مزاج كاس النديم
لم يزل مغضياً على هفوة الجا   ني مصيخاً الى اعتذار المليم
ومتى تبدأ النصيحة يولعـ   ـك تمام الخصال بالتتميم

هاكها اعزك الله يبسطها الامل ويقبضها الخجل ، لها ذنب التقصير وحرمة الاخلاص ، فهب ذنباً لحرمة واشفع نعمة بنعمة ، اتأتي الاحسان من جهاته وتسلك الفضل من طرقاته .

* * *

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لا ريب ان مكان هذه الرسالة من الادب العربي مكان المشهور المأثور المحفوظ في الصدور المخلد في السطور وذلك لامور :

الاول – انها جراب ادب حاوٍ لجملة نماذج مختلفة من عيون مواد الادب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث والامثال والحكم والابيات المشهورة وحل نظم الكثير منهـا والاشارة الى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التي يجدر بالاديب معرفتهـا والاستشهاد بها .

الثاني — حسن ملاءمتها بين هذه الصنوف وجودة رصفها وجمع شتاتها في موضوع واحد مما يعسر على غير الحذاق التوفيق بين متباينه ، ويجعل نظمها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث — حصافة عبارتها وجزالة لفظها في كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنىً وانشاء .

ولكننا اذا نظرنا اليها بعين الناقد وانعمنا البحث في بلاغتها اي مطابقتها في معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذي وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدناها تقصر دون بلوغه بالجملة امور :

الاول — كثرة ما ردده كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائه عليه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه في إقامة دولته مما يعده الرئيس عادةً تعييراً وتجبيهاً .

الثاني - تهديد مولاه بانه لولا حب الوطن لكان له ارفع مقام في خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون الى الترحيب به ، و يتنافسون في استخدام امثاله . .

الثالث — ان وضعها بهذه الصورة يجعلها غير كفيلة بانجاح الغرض الذي وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) بانصراف نفس قارئها عن ان يتأثر ببلاغتها و يشغلها بتذكر الحوادث والقصص التي اتت عليها ، واسماء الناس ، ومضرب الامثال . فلا يفرغ القارئ من تعرّف اسم رجل حتى يقع في مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يقحم في اوعر منه ، فينقسم فهمه ، و يتشتت تأثره ، وانما يأتي التـأثر من انصباب غمرة من الانخداعات المتكررة ، بتكرر العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها اثراً كلياً في النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو . وبمثل ذلك كان الانشـاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثر ، وصرفه الى تفهم النكت البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى ان رسالة ابن زيدون ليست مثـالاً يحتذى للانشاء البليغ المؤثر في النفس .

الرابع — وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدي كاحتياج فقارها الى ذكر فقـار بعد أتم معناها وتلتئم بها مع مابعدها (وهذه نضرب صفحاً عن ذكرها) وكبعض اخطاء

في المعنى والوقائع (وهذه نشير الى بعضها ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدي) .

فمن هذه قوله (وتأولت في بيعة العقبة) وسياق كلامه في هذا الفصل يقتضي ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو ان يكون مثلهم — ولم ينقل احد من اهل الاثر ان احداً ممن بايع فيها تأولها او ندمها .

ومنها قوله « وتخلفت عن الصلاة في بني قريظة » ولم يعلم ان رسول الله انكر على من تخلف عن صلاة العصر في بني قريظة وصلاها في الطريق بل اقر الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت ان بيعة ابي بكر كانت فلتة » مع ان قائل هذه الكلمة عمر بن الخطاب ولم يقلها عن ارادة سوء فلا ينبغي ان يتمثل به في اعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت الى عمر بن سعد ان جعجع بالحسين » مع ان المكتوب اليه الحر ابن يزيد التميمي لا عمر بن سعد .

وقد اتى الصفدي على عيوب آتيـة من تصحيف او سوء تأويل منه هو ، اعرضنا عنها خوف التطويل .

* * *

رسالته الهزلية

كان الوزير ابوعامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق ان حدثت نبوة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس اليها امرأة من صواحباته تستميلها اليـه ، وتذكرها بفضله وادبه ، فردت ولادة المرأة بالخيبة . وكتب ابن زيدون الى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه و يتهكم ويهجوه و يتوعده .

وفي ظننا ان ابن زيدون كتبها من نفسه تشفياً من ابن عبدوس لا عن رأي ولادة ورضاها عما افحش فيها واقذع .

والرسالة كسابقتهـا في قلة اغراضها وتكرار اساليب فصولها . وذلك انه بدأها بوصف ابن عبدوس باوصاف الحمق والجهلاء منكراً منه ارسال خليلته الى ولادة ، مثنية عليه ومرغبـة فيه ، واصفة له باوصاف اعيان الزمان من العلماء والادباء والاطباء

والفلاسفة والشجعان من فلان وفلان ، وان ولادة طردتها اشنع طردة . ثم اخذ الهجوه باوصاف في الخلق والخلق ، وان ولادة لو ارادت الرجال اكان لها من الاكفاء من قومها واعيان زمانها من يفضله سناً وشرفاً وجمالاً الخ .

وهذا نص الرسالة

اما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فان العجب اكذب ، ومعرفة المرء نفسه اصوب ، وانك راسلتني مستهدياً من صلتي ماصفرت منه ايدي امثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه انوف اشكالك ، مرسلاً خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك انك ستنزل عنها الي ، وتخلف بعدها علي :

ولست باول ذي همة دعته لما ليس بالنائل

ولا شك انهـا قلتك اذ لم تضن بك ، وملتك اذ لم تغر عليك ، فانها اعذرت في السفارة لك ، وماقصرت في النيابة عنك ، زاعمة ان المروءة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم انت جسمه وهيولاه ، قاطعة انك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت ان يوسف (عليه السلام) حاسنك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وان قارون اصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، واردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن جماعتك والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الابرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وان مالك بن نويرة انما اردف لك ، وعروة بن جعفر انما رحل اليك ، وكليب بن ربيعة انما حمى المرعى بعزتك ، وجساساً انما قتله بانفتك ومهلهلاً انما طلب ثأره بهمتك ، والسموءل انما وفى عن عهدك ، والاحنف انما احتبى في بردتك . وحاتماً انما جاد بوفرك ، ولقي الاضياف ببشرك ، وزيد بن مهلهل انما ركب بفـذيك ، والسليك بن السلكة انما عدا على رجليك . وعامر بن مالك انما لاعب الأسنة

بيديك . وقيس بن زهير انما استعان بدهائك . واياس بن معاوية انما استضاء بمصباح ذكائك . وسحبان انما تكلم بلسانك . وعمرو بن الاهتم انما سحر ببيانك . وان الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك . والحمالات بين عبس وذبيان أسندت الى كفالتك . وان احتيال هرم لعلقمة وعامر حتى رضيا كان ذاك عن اشارتك . وجوابه لعمر وقد سأله عن ايهما كان ينفر وقع عن ارادتك . وان الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك . وقتيبة فتح ماوراء النهر بسعدك . والمهلب أوهن شوكة الازارقة بيدك . وفرق ذات بينهم بكيدك . وان هرمس اعطى بليناوس مااخذ منك . وافلاطون اورد على ارسطاطاليس ما نقل عنك . وبطليموس سوى الاصطرلاب بتدبيرك . وصور الكرة على تقديرك . وبقراط علم العلل والامراض بلطف حسك . وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك . وكلاهما قلدك في العلاج . وسألك عن المزاج . واستوصفك تركيب الاعضاء واستشارك في الداء والدواء . وانك نهجت لابي معشر طريق القضاء . واظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء . واعطيت النظام اصلاً ادرك به الحقائق . وجعلت للكندي رسماً استخرج به الدقائق . وان صناعة الالحان اختراعك . وتأليف الاوتار والانقار توليدك وابتداعك . وان عبدالحميد بن يحيى باري اقلامك . وسهل بن هارون مدون كلامك . وعمر بن بحر مستمليك . ومالك بن انس مستفتيك . وانك الذي اقام البراهين . ووضع القوانين . وناظر في الجوهر والعرض . وميز الصحة من المرض . وفك المعمى وفصل بين الاسم والمسمى . وصرف وقسم . وعدل وقوّم . وصنف الاسماء و الافعال . وبوب الظرف والحال . وبنى واعرب . ونفى وتعجب . ووصل وقطع . وثنى وجمع . واظهر واضمر واستفهم واخبر . واهمل وقيد . وارسل واسند . وبحث ونظر . وتصفح الاديان . ورجح بين مذهبي ماني وغيلان . واشار بذبح الجعد . وقتل بشار بن برد . وانك لوشئت خرقت العادات . وخالفت المعهودات . فأحلت البحار عذبة . واعدت السلام رطبة . ونقلت غداً فصارامسا . وزدت في العناصر فكانت خمسا . وانك المقول فيه وكل الصيد في جوف الفرا .

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والمعنيّ بقول ابي تمام :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول ابي الطيب :

ذكر الانام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من ابياتها

فكدمت في غير مكدم · واستسمنت ذا ورم · ونفخت في غير ضرم · ولم تجد لرمح مهزا · ولا لشفرة محزا · بل رضيت من الغنيمة بالاياب · وتمنيت الرجوع بخفي حنين · لاني قلت : (لقد هان من بالت عليه الثعالب) وانشدت :

على انها الايام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ونخرت و بسرت · وعبست فكفرت · وابدأت واعدت · وابرقت وارعدت · وهممت ولم افعل وكدت وليتني · ولولا ان للجوار ذمة · وللضيافة حرمة · لكان الجواب في قذال الدمستق · والنعل حاضرة ان عادت العقرب · والعقوبة ممكنة ان اصر المذنب · وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك · ملؤها حبيبها · حسن فيها من تود · وكانت انما حلتك بحلاك · ووسمتك بسيماك · ولم تعرك شهادة · ولا تكلفت لك زيادة · بل صدقت سن بكرها · فيما ذكرته عنك · ووضعت الهناء مواضع النقب · بما نسبته اليك · ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك · فالمعيدي تسمع به خير من ان تراه · هجين القذال · ارعن السبال · طويل العنق والعلاوة · مفرط الحمق والغباوة · جافي الطبع · سيء الجابة والسمع · بغيض الهيئة · سخيف الذهاب والجيئة · ظاهر الوسواس · منتن الانفاس · كثير المعايب · مشهور المثالب · كلامك تمتمة · وحديثك غمغمة · وبيانك فهفهة · وضحكك قهقهة · ومشيك هرولة · وغناك مسألة · ودينك زندقة · وعلمك مخرقة ·

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق

حتى ان باقلا موصوف بالبلاغة اذا قرن بك · وهبنقة مستوجب لاسم العقل اذا أضيف اليك · وطويس مأثور عنه يمن الطائر اذا قيس عليك · فجودك عدم · والاغتباط بك ندم · والخيبة منك ظفر · والجنة معك سقر ·

كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء · وضعتك لشرفي وفاء · واني جهلت ان الاشياء انما تنجذب الى اشكالها · والطير انما تقع على آلافها · وهلا علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان · وشعرت ان المؤمن والكافر لا يتقاربان · وقلت الخبيث والطيب لا يستويان · وتمثلت :

ايها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

وذكرت انى علق لا يباع ممن زاد . وطائر لا يصيده من اراد . وغرض لا يصيبه الا من اجاد . ما احسبك الا كنت قد تهيأت للتهنئة . وترشحت للترفية . ولولا ان جرح العجماء جبار . للقيت من الكواعب ما لاقى يسار . فاما الا ببعض مابه هممت . ولا تعرض الا لا يسر ماله تعرضت .

اين ادعاؤك رواية الاشعار . وتعاطيك حفظ السير والاخبار . اما ثاب اليك قول الشاعر :

بنو دارم اكفاؤهم آل مسمع وتنكح في اكفائها الحبطات

وهلا عشيت ولم تغتر . وما اشك انك تكون وافد البراجم او ترجع بصحيفة المتلمس . او افعل بك ما فعله عقيل بن علفة بالجهني . اذ جاءه خاطباً فدهن استه بزيت وادناه من قرية النمل . ومتى كثر تلاقينا . واتصل ترائينا . فيدعوني اليك مادعا ابنة الخس الى عبدها من طول السواد . وقرب الوساد . وهلا فقدت الاراقم فأنكح في جنب . اوعضلني همام بن مرة فأقول (زوج من عود خير من قعود) . ولعمري لوبلغت هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الخطة . ولارضيت بهذه الخطة . فالنار . ولا العار . والمنية . ولا الدنية . والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها .

فكيف وفي ابناء قومي منكح وفتيان هزان الطوال الغرانقة

ما كنت لأتخطى المسك الى الرماد . ولا امتطي الثور بعد الجواد . فانما يتيمم من لم يجد ماء . ويرعى الهشيم . من عدم الجميم . ويركب الصعب من لا ذلول له . ولعلك انما غرك من علمت صبوتي اليه . وشهدت مساعفتي له . من أقمار العصر . وريحان المصر . الذين هم الكواكب علو همم . والرياض طيب شيم .

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

حن قدح ليس منها . ماانت وهم . وانى تقع منهم . وهل انت الا واو عمرو فيهم . وكالوشيظة في العظم بينهم . وان كنت انما بلغت قعرتابوتك . وتجافيت عن بعض قوتك . وعطرت اردانك . وجررت هميانك . واختلت في مشيتك . وحذفت فضول لحيتك . واصلحت شاربك . ومططت حاجبك ورققت خط عذارك . واستأنفت عقد ازارك .

رجاء الاكتنان بهم . وطمعاً في الاعتداد منهم . فظننت عجزاً . واخطأت استك الحفرة .
والله لو كساك محرق البردين . وحلتك مارية بالقرطين . وقلدك عمرو الصمصامة .
وحملك الحارث على النعامة . ماشككت فيك ولا سترت اباك . ولا كنت الا ذاك . وهبك
ساميتهم في ذروة المجد والحسب . وجاريتهم في غاية الظرف والادب . الست تأوي الى
بيت قعيدته لكاع . اذ كلهم عزب خالي الذراع . واين من انفرد به ممن لا اغاب الا على
الاقل الاخس منه . وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة . والنفس
المصروفة الي . واللذة الموقوفة علي . وبين آخر قد نضب غديره . ونزحت بيره . وذهب
نشاطه . ولم يبق الا . . . وهل يجتمع لي فيك الا الحشف وسوء الكيلة . ويقترن علي
بك الا الغدة والموت في بيت سلولية .

تعـالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال

ما كان اخلقك بان تقدر بذرعك . وتربع على ظلعك . ولا تكن براقش الدالة
على اهلها . وعنز السوء المستثيرة لحتفها . فما اراك الا سقط بك العشاء على سرحان . وبك
لا بظبي اعفر . اعذرت ان اغنيت شيا . واسمعت لو ناديت حيا .

ان العصا قرعت لذي الحلم والشيء تحقره وقـد ينمي

وان بادرت بالندامة . ورجعت على نفسك بالملامة . فقد اشتريت العافيـة لك .
بالعافية منك . وان قلت جعجعة ولا طحن . ورب صلف تحت الراعدة وانشدت :

لا يؤيسنك من مخدرة قول تغلظه وان جرحا

فعدت لما نهيت عنه . وراجعت ما استعفيت منـه . بعثت من يزعجك الى الخضراء
دفعا . ويستحثك نحوها وكزاً وصفعا . فاذا صرت اليهـا عبث اكاروها بك . وتسلط
نواطيرها عليك . فمن قرعة معوجة تقوم في قفاك . ومن فجلة منتنة يرمى بها تحت . . .
ذلك بما قدمت يداك . لتذوق وبال امرك . وترى ميزان قدرك .

فمـن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

« للبحث بقية » احمد الاسكندري

بين العامي والفصيح

أضع بين ايدي القراء طائفة من الالفاظ الفصيحة افعالاً واسماء لمعانٍ مختلفة بعد ذكر المعنى المقصود وكيف تعبر عنه العامة او بعض العامة في ناحيتي هذه من سورية اي اللاذقية ومايليها . ولم ار من الضروري ترتيب هذه الالفاظ حسب تلاؤمها في المعنى او حسب أوائل حروفها الهجائية فان من يذوي استعمالها يمكنه اختيار احد الترتيبين او ترتيباً آخر يعتمد عليه اذا شاء ذلك ووجده امهد سبيلاً :

« المعنى المقصود وكيف تعبر عنه العامة » « او بعضها »	« اللفظ الفصيح »
شابَ الزرع (اذا نضج وابيضّ)	اقطارّ اي تهيأ لليبس ثم تصوَّح ثم هاجت الارض هياجاً
كندور . وهو البطيخ الصغير قبل نضجه	حَدَجٌ فاذا زاد نموه فهو قَعْسَر ثم خَضْف
النصبة . وهي الغرسة الصغيرة قبل ان تثمر	الفسيلة والودِيَّة للنخلة الصغيرة . ويمكن ان تستعار لغيرها من الغراس
الكراويا . المركوش . (من النبات والزهر)	كَرَوِيّا . مرزنجوش
الضمان . بيع الثمر مقدماً	العَرِيَّة . ان تعطي الرجل نخلة فيكون له الثمر دون الاصل . وتنقل اللفظة الى غير النخل من الشجر .
عزّلَ الجب (نظفه من الوحل والأقذار)	نبث البئر اذا استخرج ترابها . واستنبط البئر اذا استخرج ماءها .
قشّ الزفرة (اي انزع ماظهر بالغليان على سطح القدر من فضلات المادة المطبوخة)	إطلع القدر . خذ طفاحتها وهي زبدها وماعلا منها

حبس البول	حبس البول كما تقول العامة وصر به
البَلْطة (فأس عظيمة يقطع بها الشجر)	كَرْزين
النزّالة (الخرقة التي تنزل بها القِدْر)	الجُعال
بيت القِدْرة	الجَأْوَة · الخرقة التي توضع فيها القدر اذا أنزلت ·
رجل أهْتَر (قليل العقل)	اللفظة العامية محرفة عن (مُهْتَر) بفتح التاء شذوذاً والاصل كسرها لانها مشتقة من أهتَرَ الرجلُ اذا خف عقله وتكلم بغير الصواب ·
جب الناعورة (ويكون ممتازاً باتساعه وغزارة مائه)	الغَيْلم البئر الكبيرة وكذلك القَلْزَم · واما بحر القُلْزُم فهو البحر الاحمر سمي باسم بلدة تجاوره وهي قُلْزُم واقعة بين مصر ومكة ·
البِرْكة الصغيرة	الجُرْموز الحوض الصغير
البِرْكة الكبيرة	الجابية الحوض الكبير
طريق شوسة (اسم ممهدة صالحة لسير المركبات عليها)	اللاحب الطريق الموطّأ
الغمّازة · حفرة تظهر في الخدّ عند الضحك	الغيثة · والحفرة في وسط الشفة العليا خِثْرِمة وفي وسط الذقن نونة ·
الخمّارة ·	اللفظة فصيحة وهي ايضاً الحانة والماخور
بازار الدواب (سوقها)	المِشْوار · المكان الذي تُشَوَّر فيه الدواب اي تعرض
الشاكوش (اداة للكسر تشبه القدوم)	الفِهْر الحجر قد يكسر به الجوز وما اشبهه ويسحق به المسك وما شاكله · ويمكن ان يسمي كذلك ما قام مقامه ولو صنع من حديد او معدن آخر ·

المحسوة	النشفة الحجر الذي تدلك به الاقدام . ويمكن ان يسمى كذلك ما صنع من قماش للغرض نفسه
الهاون والمدقة	المُدُق والمرضاض
الحديدة المركوزة لازالة وحل الاقدام	الذُبلة . الحجر لازالة الاقذار
الصابورة (الحجر الذي يثقل به الزورق او المركب)	المَوْجل وهو ايضاً الانجر
العلامات المنصوبة في الارض	الارام واحدها إرَمٌ وإرَم
تعليقة الثياب	مِشجَب
مدقة الجرن	المُنْبُلة الخشبة التي يدق بها في المهراس
المدرباس	الأَزَز الخشبة يترس بها الباب
زنجير الحبل (لاجل الاستقاء)	الدرَك
تطويلة (مما تشد به الدابة فيمسك به صاحبها ويرسلها ترعى)	طِوَل
مرطبان او قلة او نحوهما	مِركَن
الجاط او الشقدور	المِئكلة من اوعية الطعام تشبع الرجلين والثلاثة
شنتة كتب . بوليجة كتب	قِمطر
شنتة الصانع يضع فيها ادواته	كِنف
جراب الراعي	صُفْن وهو ايضاً وعاء من جلد يستقى به
الجزدان الكبير للمرأة	القَشْوة وعاء تضع فيه المرأة طيبها وغيرذلك
الوعاء الزجاجي لخردوات التاجر	الجُؤنة
جاغ (العِدْل الكبير)	غِرارة وهي الجوالق الكبير
نصف جاغ او عِدْل	عِكم الجوالق الصغير
ترويقة (القليل من الطعام قبل تجهيز اطعمة المائدة)	سُلفة او لُهنة او عُجالة

كعك بسمن او كليجة	وليقة · طعام يتخذ من دقيق وسمن ولبن
اقراص بسبوه	ربيكة
تخذ بالفرن	لحم حنيذ · اذا شوي على حجارة محماة
تمصير اللحم المشوي باخبز	الاحتمال · وهو اذا شويت لحماً فكلما وكفت
	إهالته اي دسمه استوكفته على خبز فاذا
	فعلت ذلك بالشحم فهو الاستيداف ·
فطيرة سمن	مُرَوَّلة · لان الترويل هو دلك الخبز بالسمن
العرَق (اوالعرقي وهو الشراب المسكر	الطِّلاء · من الخمر ما قد طبخ حتى ذهب ثلثاه ·
المعروف)	
مكيّف (لمن كان في اول سكره)	نَشْوان
الأنبين (نوع من الريح)	الإعصار · او الريح اللولبة · هي التي تهب
	من الارض الى السماء كالعمود ·
مطر الصيف	الصيّف · فاذا هطل في اواسط او اواخر
	الصيف فهو الحميم ·
رشّة مطر	رشاش · طشٌ · رذاذ · غبية · جفشة ·
ماء عتيبي (ما كان قليل العذوبة)	ماء شريب · اذا كان فيه شيء من العذوبة
	وقد يشربه الناس ·
ماء بس (هو دون الماء العتيبي جودةً)	ماء شروب ·
ثوب منمنم	ثوب مفلّس : اذا كانت فيه أُسَم كالفلوس ·
ثوب البيت	المِبْذَلة : الثوب يبتذله الرجل في منزله ·
منتيان · ثوب يشبه الصُّدْرة	إِزْب · او قَرْقَر · او قَرْقَل · وكذلك
	الصيدار والجَوْوَل والشَوْذَر · كلها قمصان
	متفاوتة في القِصَر والاطالة وعدم الاكمام
	تلبسها النساء تحت دروعهن اي قمصانهن
	وربما اقتصرن عليها في اوقات الخلوة ·

بساط ملوّن	زربيّة والجمع زرابيّ
الناموسية	الكِلّة الستر الرقيق · والقِرْم الستر وكذلك السَّجْف
مخدة الفرشة	المِصْدَغة · والمخدّ للرأس
مُخَدَّيدية المقعد	المِنْبَذة · هي التي تُنبَذ اي تطرح للزائر وغيره
مخدة المقعد	النُّمْرُقة · هي التي تصف · والمِسند الوسادة التي يُستند اليها
سكين بطقان (نوع من السكاكين الكبيرة)	مِشْمَل · سيف قصير يشتمل عليه الرجل فيغطيه بثوبه
المكّازة (العصا المعقوف اعلاها)	عكّاز او مِحجَن واطول منها هِراوة · فاذا غلظت فهي مَخزَنة ومرزَبّة (وقيل هي حينئذ من حديد) ·
شبش (عصا مجوفة داخلها نصل)	عَنَزة اذا زادت على الهراوة وفيها زُجّ · فاذا طالت شيئاً وفيها سنان رقيق فهي نَيْزَك ومِطْرَد ·
سهم الفرّان	المِسْطَح · خشبة الخباز
قصّ الشعر	تعبير صحيح ويقال ايضاً جلَمه بالجلمين اي المقص او المقراض ·
حصد الزرع	صحيح وكذلك نجله بالمنجل
قصّ وبر الابل	وكذلك جلّم الابل
التقطيع شُقَقاً (قطعاً)	الشرشرة · والخريقة
نشف درّ الدابة	جدّت الشاة · وشَصّت الناقة ·
سدّة الابريق ونحوه	فِدام وجمعه فُدُم · والسِّداد بكسر السين

	عامٌ لكل مايسد به ، والسَّداد بفتح يرادف الصواب فيقال سداد الرأي .
القحاطة (مايبقى في اسفل القدر)	كُدادة ، وكُدامة
عفارة الكرم (بقيته بعد قطفه)	العُشانة ، والعُشانة
قدغ الرأس	شجّ الرأس ، وفلَغه
قشّبت اليد (من تأثير البرد والهواء)	تزلّعت اليد ، وتكلّعت الرجل .
فقّس البيض	فقص البيض ، ونقف الفرخ البيضة اذا كسرها ليخرج منها ، وعلى هذا القياس يقال أُنقِف البيض على المجهول اي فقص .
ابرة ملحفة (هي الغليظة قليلاً)	مِنصحة
قَبْوقة او مسلّة (نوع ابر متناهية غلظاً لخياطة العدول ونحوها)	شَغيزة
الثوب الرقيق كقماش الكاز ونحوه	ثوب شفٌّ ثم سِبٌّ ارق منه ، ثم سابريٌّ ثم لهلَه ونهنه .
قص وبر المعزى	حلق المعزى
مشية الشكين واسع	العَنق ان يباعد الفرس بين خطاه ويتوسع في جريه
رَهْوَنة (من سير الخيل)	الملجة ان يقارب الفرس بين خطاه مع الاسراع . ولعل «رهونة» محرفة عن رهوٍ او هرولة .
مشي الهَرْف (من سير الخيل)	قريب من الخبَب فهو ان يستقيم الفرس في جريه ويراوح بين يديه ويقبض رجليه . وقريب منه الطّفْر فهو ان يثب فتقع رجلاه مجموعتين . والتقريب ان يرفع يديه ويضعهما معاً
اوقعه سطح (على قفاه)	تسلّقه

اوقعه بطح (على صدره)	بطحه
حدّفه بالعصا ونحوها	حذَفه
الشوشرة او الوشوشة	الهمْس او الجرْس .
الغمغة (صوت الكلام الذي لا يبين)	الغمغمة . والجمجمة .
التصعْصُن (شدة الاصوات واختلاطها عند الضحك)	العَطْعطَة . حكاية صوت المجّان اذا قالوا عند الغلبة . عيط . عيط
الكَرْكَرَة (صوت الآنية اذا استخرج منها الشراب)	القرقرة . والبقبقة للماء ايضاً والعامة تعرفها
طقطقة الاصابع	التفقيع والفرقعة صوت الاصابع عند غمز المفاصل .
لمّة من الناس (اي جماعة)	لُمَة بضم اللام .
البقر العمّال (المستعمل لفلاحة الارض)	العوامل . ويغلب استعمالها على الثيران .
رجل أزعر	رجل زَعِرٌ وعَزَوَّر اي سيّء الخلق
رجل مجَأوع . نهمان (شره دنيء متطفل)	رجل مستجيع . شحذان . لَوْسَم
امرأة فاجرة (يريدون بها شرسة حادّة اللسان) .	امرأة سليطة . فاذا زادت سلاطتها فهي سلقانة وعزفانة . واما الفاجرة في الفصيح فمعناها ذات الفجور اي الفسق والزنا .
غبّ من الماء (اخذ منه الكثير بفيه)	لعله مأخوذ من عبّ الطائر اذا شرب
إحمرّت عين فلان (كناية عن التغيظ ونية الشر) .	إحرَنْفَشَ . إزْبأرَّ .
لفلان خرطة في وجهه (هيئة غضب وعبوس)	إخرنطم فلان فقولهم خرطة محرف عن اخرنطام
شقرق وجه فلان (محرف عن اشرق وجهه)	إبرنشق للحديث اذا ارتاح اليه واهتزّ له
مخضة (الفم بالماء ونحوه)	مضمضة . وذرغرة . وبعض العامة تقول رغرغة
تهدي لولدها (تغني له مع هز مهده)	الهدهدة تحريك الام ولدها لكي ينام

هز المكيال	الدغدغة تحريك المكيال وغيره فيزداد اتساعاً لما يجعل فيه
مأقط	المِسْعَر هو الذي تحرك به النار
التكتيف	الاعتضاد اذا جعل كفيه على عضديه . فاذا جعلها على المعصمين فهو الاعتصام .
السفّة	السّفنة اذا جعل المرء ابهامه في اصول أصابعه من باطن .
التبركل في المشي (اذا هز الماشي اليته ومنكبيه) .	الحَيَكان .
رجل اكشر (شفتاه قاصرتان عن الانضمام)	رجل أجلع
تقلبش الأُذن (استرخاؤها واقبالها على الوجه)	القَذَف . وهو في الكلاب الغطف والخطل .
بطة الرِّجْل	حَمَاة
صابونة الرجل (عظمة الركبة)	داغصة
السّيبان (صغار القمل)	الصُّؤاب . بيض القمل
رخ العجين (اذا استرخي وكثر ماؤه) .	رَخف العجين
انخزر الضرس	نَقِدَ الضرس او حَفِر اذا أتكل وتكسر .
ريح السّدد (من امراض البطن)	القولَنْج اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون بالرومية .
حبُّ الحرارة	الحَصَفُ بثور تثور من كثرة العرق .
اكزيما	السعفة في الرأس والوجه قروح ربما كانت لحلة يابسة وربما كانت رطبة يسيل منها صديد .
بلغمة	السِّلَعة زيادة تحدث في الجسد فقد تكون من مقدار حمصة الى بطيخة .
سخونة مع دور (الدور عندهم هو قشعريرة برد الحمى) .	النافض (يقدر الحمى النافض) . البُرَداء .

سخونة مثلثة (اي مثلثة)	حمّى الرِبْع
بنّت الدابة اوغيرها (اكتسبت المِلاءَ من السِمَن)	أنقت الدابة فاذا زاد سمنها قيل ملّحت ثم درم عظمها . ثم هي مُكدّنة ثم متوقّبة ونهيّة .
نفّض فلان من المال (فرغ منه)	أنفض او أنزف .
الدوغ (اللبن المنزوع سمنه)	لبنٌ جهير او مخيض . واما الدوّ فهو الفلاة والقفر .
كتابة بسيطة . غير مشكلة . (خالية من الحركات والضوابط) .	خط غُفْلٌ .
رجل اعزب (غير متزوج)	رجل عَزَبٌ او مُكسّم .
الكبّاية	الكوب كوز لاعروة له (اي لامقبض) .
الجراية (محرفة عن مجرى)	المَدْلَج مابين البئر والحوض .
ابيض كالح	رجل أمهق اي ابيض غيرنيّر كاون الجص .
الشحوار . (سواد الدخان اللاصق بالقدور)	سُخام .
الغرّة . (خصلة شعر في مقدم الرأس)	الطرّة . واما الغرّة فهي بياض في الجبهة ويغلب استعمالها على الخيل فيقولون فرس اغرّ .
شفّه بعينه . (حدّق فيه تحديق احتقار)	شَفَنَه شَفْناً وشفوناً . وقريب من ذلك قولهم المشهور نظر اليه شزراً . اي بمؤخر عينه .
الخُديدية	الحُسبانة . الوسادة الصغيرة .
الكرّاز . (نوع من الاباريق)	الشَّكْوة القربة الصغيرة .
اللكن	الكِفْت . القدر الصغيرة .
منديل الوجه	الوصواص . البرقع الصغير .
الكيل للماء ونحوه	التِّبْن القدح الكبير
القبّان	الشاهين الميزان الكبير
الجاط او الشقتور	المِقري . الاناء العظيم . وقد مرّ معنا ان الجاط والشقتور عندنا يقال بان ايضاً مايسميه

	العرب مشكلة فانها تشبع الرجلين والثلاثة .
القَرْف (محرّف ظرف يريدون به جلد جدي او تيس يخاط ويجعل وعاء للسوائل)	السَّجْل . القربة العظيمة .
الدبليز (نوع من الجرار يسع زنة ٢٠٠ الى ٣٠٠ درهم) .	الغَرْب . الدلو العظيمة .
طنجرةالقوزي (القوزي الخروف بالتركية)	الوَأْيَة . القدر العظيمة .
الكرافة (اللفظ افرنجي الاصل . والمراد به نوع من الاباريق الزجاجية)	الرِّفْد . القدح الضخم .
القانق . والبعض يقولون نقانق او سجُق	الوشيق . اللحم اليابس .
ابن مُوَرْوَر (اي شديد الحموضة) .	ابن طَخْف .

اللاذقية : ادوار مرقص

— ✻ —

المعتزلة (١)

— الجاحظية —

انتقل فجأة من الكلام على تحقيق الجاحظ في أبواب العلم الى الكلام على دينه ، ولعل هذا الانتقال لا يخلو من معنى من المعاني ، فقد تبين لكم ان للعقل في مذاهبه في التحقيق عملاً كبيراً ، فيكاد لا يؤمن الا بما تراه العين ، أو تسمعه الأذن ، او يذوقه الفم ، ويشمه الانف او تلمسه اليد ، هذا من جهة الحكم الظاهر للامور . واما من جهة الحكم الباطن لهذه الامور فانه لا يقر الا بما يقبله العقل ولا يرده ، ومن كان هذا مذهبه في آفاق العلم ، اي من كان مذهبه التصحيح والتمييز دون ان يجعل سمعه هدفاً لكل توليد وقلبه قراراً لكل زور فأخلق به ان يسير بهذه السيرة في كل عمل من اعماله ، فهل غلب العقل على الجاحظ في أبواب الدين غلبته عليه في أبواب العلم ، هل توثق الجاحظ في دينه توثقه في علمه ، فلم يخرج في شيء من التفسير والتأويل عما يمليه عليه عقله وان يكن في هذه الأمالي شذوذ عن بعض أهل التفسير والتأويل ، هذا ما نجتهد في إدراك حقائقه في الكلام على دين الجاحظ .

لما قال الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان : ان هذا الكتاب أشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة بسط لنا مذهبه في اصل الدين على نحو ما بسط لنا مذهبه في العلم لما قال في المقدمة نفسها : وجمع — أي كتاب الحيوان — معرفة السماع وعلم التجربة ، فالجاحظ لا يريد ان يخرج في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث عن عمل الحواس وعمل العقل ، فهو يريد ان يدرك هذه الآيات وهذه الأحاديث من طريقين : من طريق الحواس ومن طريق العقل ، فهو من المعتزلة .

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

و يسمي المعتزلة فريق من الافرنجة [1] : المفكرين الاحرار والصحيح ان حرية التفكير من خصائص الاعتزال . فالمعتزلة في نظرهم انما هم فلاسفة يخوضون في مسائل الدين على حسب ما يرون بدون ان يجعلوا لسلطة من السلطات دخلاً في حل هذه المسائل ، فهم رجال العقل في الدين .

واذا أردنا ان نتبسط في بيان معتقدات المعتزلة ونوازن بينها وبين بعض المذاهب الفلسفية في عصرنا الاخير تراخى أمد الكلام ، وربما أدركنا أواخر السنة قبل استيفاء هذا الكلام فأرى إذن ان اكتفي بذكر بعض امور عن المعتزلة حتى يكون لنا رأي مجمل في الاعتزال .

فلننظر في مجلسنا هذا في اصل كلمة الاعتزال ، وفي الاحتجاج للاعتزال ، وفي القواعد التي أجمع عليها المعتزلة ، وفي طوائف المعتزلة ، وفي بعض طبقات المعتزلة ، وفي الطائفة التي تعنينا امرها وهي الجاحظية ، وفي رأي الجاحظ نفسه في المعتزلة .

فلنشرع في ذكر المصدر الذي من صدرت عنه كلمة الاعتزال [2] :

« دخل واحد على الحسن البصري فقال : ياإمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون اصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لاتضر مع الايمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ولا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل ان يجيب قال واصل بن عطاء أنا لاأقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لامؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمي هو واصحابه معتزلة .

(١) مفكرو الاسلام Baron Garra de vaux الجزء الاول ص ٢٩٤

(٢) الملل والنحل للشهرستاني على هامش الملل والأهواء والنحل لابن حزم (الجزء الاول ص ٦٠) .

ووجه تقريره انه قال : ان الايمان عبارة عن خصال خير اذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلق ايضاً لان الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لانكارها ، لكنه اذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من اهل النار خالداً فيها اذ ليس في الآخرة الا فريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد ان كان موافقاً له في القدر وإنكار الصفات » .

فمن هنا يتبين لنا انهم سموا بالمعتزلة منذ اعتزل واصل بن عطاء الحسن ، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد .

وقال المرتضى في سبب تسميتهم [1] :

« وقيل (أي وسموهم بالمعتزلة) لقول قتادة وكان من أصحاب الحسن : ما تصنع المعتزلة ، فكان يسميهم بهذا الاسم ، روي عن عثمان الطويل قال : لقيت قتادة فقال : ما حبسك عنا ، اهل هؤلاء المعتزلة حبستك عنا ، قلت نعم حديث رويته انت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما هو ، قال : رويت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستفترق أمتي على فرق خيرها وأبرّها المعتزلة . وقيل : سموا بذلك لرجوع عمرو بن عبيد الى قول واصل في الفاسق وخالف الحسن ، ذلك انه لما خالف واصل أقوال أهل زمانه في الفاسق واعتزلها كلها واقتصر على المجمع عليه وهو تسميته فاسقاً ورجع عمرو بن عبيد الى قوله بعد مناظرة وقعت بينهما سمي وأصحابه معتزلة لاعتزالهم كل الأقوال المحدثة ، والمجبرة تزعم ان المعتزلة لما خالفوا الاجماع في ذلك سموا معتزلة ، قلتُ : لم يخالفوا الاجماع بل عملوا بالمجمع عليه في الصدر الأول ورفضوا المحدثات المبتدعة » .

ويسمون العدلية لقولهم بعدل الله وحكمته والموحدّة لقولهم : لاقديم مع الله [2] .

ويسمون أصحاب العدل والتوحيد و يلقبون بالقدرية [3] .

اما احتجاج المعتزلة للاعتزال فقد ذكره المرتضى فقال [4] :

(١) ذكر المعتزلة ص٤ . (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى ص٢ . (٣) الملل والنحل للشهرستاني (على الهامش ص٥٤) . (٤) ذكر المعتزلة ص٣ .

« ويحتجون للاعتزال أي لفضله بقوله تعالى : وأعتزلكم ونحوها وهو قوله تعالى : واهجرهم هجراً جميلاً ، وليس الا بالاعتزال عنهم .

واحتجوا من السنة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من اعتزل من الشر سقط في الخير .

واحتجوا ايضاً بالخبر الذي رواه سفيان الثوري عن ابن الزبير عن جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، أبرها واتقاها الفئة المعتزلة وهو تمام الخبر ، ثم قال سفيان لأصحابه تسموا بهذا الاسم لأنكم اعتزلتم الظلمة ، فقالوا : سبقك بها عمرو بن عبيد وأصحابه ، فكان سفيان بعد ذلك يروي واحدة ناجية » .

واليكم القواعد التي أجمع عليها المعتزلة على نحو ما بينها الشهرستاني لما قال[1] :

« فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بان الله تعالى قديم ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة اصلاً فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ومعان قائمة به لانه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الالهية .

واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب امثاله في المصاحف حكايات عنه ، فانما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال .

واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته ، لكن اختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها كما سيأتي .

واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه : جهةً ومكاناً وصورةً وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً .

وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط : توحيداً .

واتفقوا على ان العبد قادر ، خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، والرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لانه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلا .

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص٥٥ .

واتفقوا على ان الحكيم لا يفعل الا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، واما الأصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلا .

واتفقوا على ان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضلُ معنى آخر وراء الثواب ، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، لكن يكون عقابه اخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط : وعداً ووعيداً .

واتفقوا على ان اصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب ، كذلك ورود التكاليف ألطاف للباري تعالى أرسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة .

واختلفوا في الامامة والقول فيها نصاً واختياراً .

وأشار المرتضى الى هذه القواعد فأوجز فقال[1] :

« واما ماأجمعوا عليه لقد أجمعت المعتزلة على ان للعالَم مُحدِثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعانٍ ليس بجسمٍ ولا عَرَضٍ ولا جوهرٍ عيناً واحداً لايدرك بحاسة عدلاً حكيماً لا يفعل القبيح ولا يريده ، كلّف تعريضاً للثواب ، ومكّن من الفعل وأزاح العلة ولا بدّ من الجزاء وعلى وجوب البعثة حيث حسنت ولا بدّ للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد او احياء مندرس او فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل ، وان المؤمن من اهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين وهو ان الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافراً الا من يقول بالارجاء فانه يخالف في تفسير الايمان وفي المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً ، وأجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولي الصحابة واختلفوا في عثمان بعد الأحداث التي أحدثها فأكثرهم تولاّه وتأوّل له كما مرّ وكما سيأتي وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص وأجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تعداد طبقاتهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزداد وغيره » .

(١) ذكر المعتزلة ص٦ .

فالذي يستنتج من ذكر بعض معتقدات المعتزلة ان هذه المعتقدات تتعلق بعلم ما وراء الطبيعة و بالفلسفة نفسها ، فان البحث عن قدرة العبد وعن خلقه لأفعاله خيرها وشرها ، وعن الجوهر والعرض وماشابه هذه الامور من خصائص الفلسفة ومن خصائص علم ماوراء الطبيعة فلا نستطيع ان نفهم أقوال الجاحظية وسائر طوائف المعتزلة الا اذا كنا واقفين على العلوم التي تدخل فيها هذه الأقوال .

والمعتزلة طوائف شتى كالواصلية أصحاب ابي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال تلميذ الحسن البصري ، وكالهذيلية أصحاب ابي الهذيل حمدان بن ابي الهذيل العلاّف شيخ المعتزلة ، وكالنظامية أصحاب ابراهيم بن سيّار بن هاني النظّام ، وكالحائطية أصحاب احمد بن حائط ، وكالحدثية أصحاب فضل بن الحدثي ، وكالبشرية أصحاب بشر بن المعتمر ، وكالمعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمي ، وكالمزدارية أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بابي موسى الملقب بالمزدار راهب المعتزلة ، وكالثمامية أصحاب ثمامة بن أشرس النميري ، وكالهشامية أصحاب هشام بن عمرو الفوطي ، وكالجاحظية وكالخياطية أصحاب ابي الحسين ابن ابي عمرو الخياط أستاذ ابي القاسم ابن محمد الكعبي ، وكالجبائية والبهشمية أصحاب ابي علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي وابنه ابي هاشم عبد السلام .

ولكل طائفة من هذه الطوائف اعتزال يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل .

ومن طبقات المعتزلة :

محمد بن الحنفية وعنه اخذ واصل بن عطاء علم الكلام وأبو الاسود الدؤلي وعلقمة والاسود وشُريح والحسن البصري صاحب الرسالات في القضاء والقدر الى عبد الملك والى الحجاج وله مع الحجاج مناظرات وكان لا يرد عليه احد كما يرد عليه الحسن وغيلان ابن مسلم الدمشقي الذي كان يعيب هشام بن عبدالملك و يعيب آباءه فلما ولي هشام خرج غيلان وصاحبه الى ارمينية فأرسل هشام في طلبهما فجيء بهما فحبسهما اياماً ثم أخرجهما وقطع ايديهما وأرجلهما فمات صالح وصلّى عليه غيلان ثم اندفع في ذكر بني أمية بالسوء فقيل لهشام : قطعت يدي غيلان ورجليه واطلقت لسانه ، انه قد بكّى الناس ونبههم على ما كانوا عنه غافلين فأرسل اليه من قطع لسانه فمات .

ومنهم واصل بن عطاء الذي كان يلزم صديقه ابا عبد الله الغزّال ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن ·

كان واصل ألثغ في الراء قبيح اللثغة فيها فكان يتملص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك لاقتداره وسهولة الفاظه وقد كان صديقاً لبشار مدحه بشار وذكر خطبته التي القى منها الراء فقال :

تكلف القول والاقوام قد حفلوا وحبّروا خطباً ناهيك من خطب
وقال مرتجلاً تغلي بداهته كرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به احد قبل التصفح والاغراق في الطلب

فلما قال بشار بالرجعة وتكفير جميع الامة تبرأ منه واصل فهجاه بشار وعابه بطول عنقه فقال :

مالي اشايع غزّالاً له عنق كنقنق الدوّ ان ولّى وان مثُلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم تكفرون رجالاً كفّروا رجلا

أنفذ واصل بن عطاء أصحابه الى الآفاق وبث دعاته في البلاد ، فبعث عبدالله بن الحارث الى المغرب فأجابه خلق كثير وبعث حفص بن سالم الى خراسان وبعث القاسم الى اليمن وبعث ايوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وبعث عثمان الطويل الى أرمينية · وكان عثمان أستاذ ابي الهذيل العلاّف ·

ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ في تعظيمه ·

ومنهم صالح الدمشقي صاحب غيلان الدمشقي ·

ومنهم ابو الهذيل العلاّف : اتاه رجل فقال له : أشكل عليّ أشياء من القرآن فقصدت هذا البلد فلم أجد عند احد ممن سألته شفاء لما أردته فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل : ان بغيتك عند هذا الرجل ، فاتق الله وأفدني ، فقال ابو الهذيل ، فما ذا أشكل عليك ؟ قال : آيات من القرآن توهمني انهما متناقضة وآيات توهمني انها مطعونة ، قال : فماذا أحب اليك ، أجيبك بالجملة او تسألني عن آية آية ؟ قال : بل تجيبني بالجملة ، قال ابو الهذيل : هل تعلم ان محمداً كان من أوسط العرب وغير مطعون عليه في لغته وانه كان عند قومه من أعقل العرب فلم يكن مطعوناً عليه فقال : اللهم نعم، قال ابو الهذيل : فهل

نعلم ان العرب كانوا اهل جدل ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل اجتهدوا في تكذيبه ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل تعلم انهم عابوا عليه بالمناقضة او باللحن ؟ قال : اللهم لا . قال ابو الهذيل : فتدعُ قولهم مع علمهم باللغة وتأخذ بقول رجل من الأوساط ، قال : فأشهد ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله ، قد كفاني هذا وانصرف وتفقه في الدين .

وفي ابي الهذيل يقول المأمون : أطل ابو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام .

ومنهم ابو اسحاق ابراهيم بن سيّار النظام أستاذ الجاحظ ، وقد قال الجاحظ : الاوائل يقولون في كل الف سنة رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحاق النظام . وقال فيه ايضاً : مارأيت احداً أعلم بالكلام والفقه من النظّام .

ومنهم بشر بن المعتمر الهلالي رئيس معتزلة بغداد . ومنهم معمر بن عبـاد السلمي أستاذ بشر .

ومنهم ابو الحسين القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني والصاحب الكافي .

والجوهري صاحب الصحاح وابوبكر الرازي وغيرهم من الذين اتى على ذكرهم المرتضى في كتابه ذكر المعتزلة .

والذي يشغلنا من طوائف المعتزلة ومن طبقاتها في مثل هذا المقام الجاحظية وحدها فالجاحظ وافق اصحابه المعتزلة على امورٍ وانفرد عنهم بمسائل تابعه عليها فريق من المعتزلية فسموا بالجاحظية ، وهذه هي المسائل التي انفرد بها (١) :

« منها : قوله ان المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيءٌ من ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كسب سوى الارادة ويحصل أفعاله منه طباعاً كما قال ثمامة ونقل عنه ايضاً انه أنكر أصل الارادة وكونها جنساً من الأعراض فقال اذا انتفى السهو عن الفاعل وكان عالماً بمايفعله فهو المريد على التحقيق ، واما الارادة المتعلقة بفعل الخير فهو ميل النفس اليه وزاد على ذلك باثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجوهر لايجوز ان يفنى .

ومنها قوله في اهل النار انهم لايخلدون فيها عذاباً بل يصيرون الى طبيعة النار وكان يقول النار تجذب أهلها الى نفسها دون أن يدخل احد فيها ومذهبه مذهب الفلاسفة في

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص٩٤ .

نفي الصفات وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة ·

وحكى الكعبي عنه في نفي الصفات انه قال : يوصف الباري تعالى بانه مريد بمعنى انه لا يصح عليه السهو في أفعاله ولا الجهل ولا يجوز ان يغلب و يقهر وقال : ان الخلق كلهم من العقلاء عالمون بان الله تعالى خالقهم وعارفون بانهم محتاجون الى النبي وهم محجوجون بمعرفتهم ، ثم هم صنفان : عالم بالتوحيد وجاهل به فالجاهل معذور والعالم محجوج ومن انتحل دين الاسلام فان اعتقد ان الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يُرى بالابصار وهو عدل لا يجور ولا يريد المعاصي وبعد الاعتقاد والتبيين أقر بذلك كله ثم جحده وانكره او دان بالتشبيه والجبر فهو مشرك كافر حقاً وان لم ينظر في شيء من ذلك واعتقد ان الله ربه وان محمداً رسول الله فهو مؤمن لا لوم عليه ولا تكليف عليه غير ذلك ·

وحكى ابن الراوندي عنه ان القرآن جسد يجوز ان يقلب مرةً رجلاً ومرة حيواناً وهذا مثل ما يحكى عن ابي بكر الأصم انه زعم ان القرآن جسم مخلوق وانكر الأعراض اصلاً وانكر صفات الباري تعالى ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة الا ان الميل منه ومن اصحابه الى الطبيعيين منهم أكثر منه الى الالهيين » ·

وقد تعرض ابن الراوندي للمعتزلة ، وفي جملتهم الجاحظ فرد عليه الخياط في كتابه : الانتصار ، فقال في دفاعه عن الجاحظ [1] :

ثم قال : اي ابن الراوندي ، وقد زعم الجاحظ مع ما حكيت عنه من إحالة فناء الاجسام وعدمها أن الله لا يخلد كافراً في النار ولا يدخله فيها وان النار تُدخل الكافر نفسها وتخلده فيها ، ثم قال : هرباً بزعمه من مسائل الملحدين في التخليد · قال : نقلت لبعض اصحابه وكيف صارت النار هي التي تخلد الكفار في عذابها وتصيّرهم اليها · قال ، فقال : من قبل انهم عملوا اعمالاً فصارت اجسادهم لا تمتنع النار اذا حاذتها في القيامة من اجتذابها اليها بطباعها ثم وصف كلاماً زعم دار بينه وبين هذا الرجل في هذا الباب ، وهذا كذب وزور وهذه كتب الجاحظ في أفعال الطبائع فانظر فيها فان وجدت فيها حرفاً واحداً مما حكاه عنه هذا الماجن فهو صادق والا فاعلم انه كاذب بهّات كذب عليه في الحكاية عنه انه يحيل فناء الاجسام ثم أردفه بكذب آخر والله المستعان ·

---

(١) كتاب الانتصار للخيّاط المعتزلي ص ٩١ ·

وللمعتزلة في نظر الجاحظ مقام رفيع فقد أشار اليهم في بعض مواطن ، منها قوله[1] :

« لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الامم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فان لم أقل : ولولا اصحاب ابراهيم وابراهيم لهلكت العوام من المعتزلة فاني أقول انه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم اموراً واختصر لهم ابواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة ٠

ومنها قوله بعد كلام له على الجهمية ومن أنكر ايجاد الطبائع وعلى ناس اتبعوا ظاهر الحديث وظاهر الأشعار[2] :

« وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث واي ضرب منها يكون مردوداً ، واي ضرب منها يكون متأولاً ، واي ضرب منها يقال ا ـ ذلك انما هو حكاية عن بعض القبائل ولذلك اقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ولولا المعتزله لهلك المتكلمون » ٠

دمشق : في ٢٥ نيسان سنة ١٩٣١



(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) ٠
(٢) « « « « ٩٦

شعور الجاحظ الديني

—«×»—

ان مذهباً ابنى اصوله على العقل و يستفيض في عصر استفاضت فيه الخرافات وغرائب الزور فيتفرغ رجاله للتنبيه على الأضاليل والتحذير من الاكاذيب ، ان مذهباً هذا شأنه لا يخلو في صدر أمره من تعرض المتعرضين ومعاندة المعاندين ، وقد نجد المعترضين في كل زمن من الازمان ثلاث فرق : فرقة من أصحاب الارتجاع قد جمدت أذهانهم وبلدت طبائعهم ، لا يريدون ان يفهموا ان الدنيا أزمان وان لكل زمان أطواراً ، وان الانتقال من طور الى طور من دلائل الحياة ، فرضوا بميسور حالهم دون ان يخطوا في كل فن من فنونهم خطوة ، فهم يصيحون في وجه كل مصلح ، ثم لا تلبث صيحاتهم ان تتلاشى كما يتلاشى الدخان في أجواز الفضاء .

وفرقة قد أقلق الحسد بالهم ونغّص عليهم لذة الحياة ، فهم يؤلمهم ان ينبغ في ظلال ديارهم نابغ او يبرع بارع ، فيخرجون مكنونهم في إطفاء كل نور يتلألأ وتسكين كل حركة لتقلب .

وفرقة قد جهلت قلوبهم وانحطت مداركهم فهم ضعاف يتساوون ، فصار يطاولون على امل ان يكون لهم في نظر الناس شيء من القوة او شيء من الطول .

ان كل مذهب سواء أكان في الدين أم في الأدب أم في الاجتماع أم في السياسة ، طبيعته إصلاح الفاسد او تجديد العتيق لا بدّ له من ان تتحرش به في مقدمة أمره فرقة من هذه الفرق الثلاث : فرقة الارتجاع او فرقة الحسد او فرقة الجهل بيد ان المصلح الواثق بنفسه ، المعتمد على عزمه ، المندفع في سبيله يمضي لطيته دون ان يلوي على شيء لانه يعلم ان للباطل جولة ثم يضمحل .

والجاحظ لم يخل في حياته وبعد مماته من تعرض المتعرضين ، اما الذين نقدوه نقداً خالصاً فليس لنا كلام عليهم فسواء أذهبوا مذهبه في الاعتزال أو في الفلسفة أو في العلم أم خالفوا هذا المذهب ، انهم احرار ، فلكل رأيه ومعتقده ، ولكن بعض المعترضين لم يقفوا عند حد النقد ، فلم يخل الجاحظ في حياته من حسد الحساد ، انكم لتذكرون كيف كانوا يتعقبونه في أواخر ايامه اي في فالجه ، ملتمسين في كلامه لفظاً مضطرباً او تأليفاً سيئاً او نظاماً مقطعاً ، ومغضين على كل محمود من هذا الكلام ، وليس هذا من النقد في شيء وانما اصل الامر في النقد ان ننظر الى جهتي المحاسن والمساوئ فندل على هذه المحاسن حتى يزداد شعورنا بها ، وننبه على هذه المساوئ حتى نصلح أذواقنا فالاقتصار على ذكر المذموم من كلام المؤلف دون التفرغ لبيان المحمود من هذا الكلام لا يخلو من شيء نسميه الحسد ، والجاحظ كان محسوداً في حياته وقد أشار الى هذا الامر في مقدمة كتابه « المحاسن والاضداد » .

والحسد مستحكم في البشر سواء فيه العالم والجاهل ولا يقعن في خلد احد ان العلم يهوّن من خطبه ، قال الاستاذ (ريشه) في تصويره اخلاق العلماء[1] :

« العلماء حسّاد لانهم بشر فهم لا يستطيعون ان ينظروا بعين الرضا الى تكريم يكرّمه زميل من زملائهم او الى لقب يحصل عليه او الى حظوة يحظى بها او الى غير ذلك من رتب تتساقط عليه تساقط الوابل وكلما كان العلم الذي ينصرف اليه هذا الزميل قريباً من علمهم كلما اشتد الحسد ، فالفلكي لا يحزنه الشرف الذي يتناهى الى النباتي ولكنه قد يجد ان الشرف الذي يحصل عليه فلكي آخر قد لا يستحقه » .

قلت : لم يقف المتعرضون للجاحظ عند حد النقد وانما أحبوا ان يشلحوا من شعوره الديني فلم تجد طائفة منهم في كلامه الا جهالات والا ضلالات ولقد ذهبوا في ذلك مذهباً أبعد فاستكثروا تسميته انساناً وعدّوا هذه التسمية ذنباً لا يغفر والتمسوا له شبيهاً من أصناف الحيوان فلم يجدوا أصلح من الخنزير .

فلقد تعرّض له ابو منصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق فرد عليه في بعض آرائه في الفلسفة والتوحيد ثم نسبه الى الشعوبية والى السرقة مما لا نجد حاجة الى ذكره

(١) كتاب العالم (ص ٢١) .

في مثل هذا المقام وانما نشير الى هذه العبارة (١) :

« ولو عرفوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم اياه انساناً ، فضلاً عن ان ينسبوا اليه احساناً » .

او الى العبارة الآتية (٢) :

« ومن الفخر بالجاحظ سلماه اليه ، قول اهل السنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً   ما كان الا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بنفسه   وهو القذى في كل طرف لاحظ

ان مثل هذا الكلام يمرّ به مرّ الكرام ، فاذا لم يكن الجاحظ انساناً فمن الانسان ، والصحيح ان الجاحظ جاوز أفق البشرية وحلّق في جوّ قد لا يصل اليه كل واحد من الناس .

وكما تعرّض له البغدادي فقد تعرّض له ابن قتيبة فثلمه في دينه فقال (٣) :

« ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فاذا صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه انما أراد تنبيههم على مالا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ و يستهزئ من الحديث استهزاء لايخفى على اهل العلم كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود وانه كان ابيض فسوّده المشركون وقد كان يجب ان يبيضه المسلمون حين اسلموا ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة واشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ودفن الهدهد أمه في رأسه وتسبيح الضفدع وطوق الحمامة واشباه هذا مما سنذكره فيما بعد ان شاء الله .

وهو مع هذا من اكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل » .

والغريب ان ابن قتيبة عاب الجاحظ بقصده للمضاحيك والعبث وهو نفسه من الذين قصدوا لهذه المضاحيك ولهذا العبث حتى قال في مقدمة كتابه عيون الاخبار :

(١) الفرق بين الفرق (ص ١٦٠) .
(٢) « « (ص ١٦٢) .
(٣) تأويل مختلف الحديث (ص ٧٢) .

« ولم اخله (اي لم يخل كتابه) من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة أخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعروض اخذ فيها القائلون . ولأروح بذلك من القارئ من كد الجد واتعاب الحق فان الاذن مجاجة وللنفس حمضة » .

وقال في مقام آخر من هذه المقدمة :

« واذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة اوفرج او وصف فاحشة فلايحملنك الخشوع او التخاشع على ان تصعر خدك وتعرض بوجهك فان اسماء الاعضاء لاتؤثم وانما المأثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب واكل لحوم الناس بالغيب » .

هذا ماقاله ابن قتيبة نفسه وايد قوله باحاديث الرسول وبكلام بعض الخلفاء الراشدين فلم سلك هذا المسلك وعاب الجاحظ بسلوكه اياه واذا كان المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب واكل لحوم الناس بالغيب فالجاحظ قد عرضت عليكم انماطاً من نقده العلمي فأظن انه ما شتم عرض ارسطاطاليس لما تعرض له ، واظن انه كان يتقذر من قول الزور والكذب وقد رأيتم كيف كان يدل على توليد الكذابين وعلى غرائب الزور من دون ان يأكل لحومهم بالغيب .

* * *

وكان ابن ابي دواد يقول في الجاحظ [1] :

« انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه » .

وكلام ابن ابي دواد في مثل هذا المقام فيه بعض النظر فان الجاحظ كان منحرفاً عنه ملازماً لعدوه ابن الزيات .

ومثل هذا قول ابن ابي دواد له لما جيء به مقيداً :

« قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر » .

وقال ابن ابي الدنيا المحدث [2] :

« حضرت وليمة حضرها الجاحظ وحضرت صلاة الظهر فصلينا وما صلى الجاحظ

(١) طبقات الادباء للانباري (ص ٢٥٨) .

(٢) تاريخ ابن عساكر .

وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : اني صليت لمذهب او لسبب أخبرك به ، فقال له : (او قيل له) ما أظن ان لك مذهباً في الصلاة الا تركها » .

ثلوا الجاحظ في دينه وجرّدوه من الشعور الديني ، فلنجتهد في مجلسنا هذا في التنقيب عن بعض مواضع من كلام الجاحظ ظهر فيها هذا الشعور الذي سلخوه منه الظهور كله ولقد ظهر في مقام علي لاتعلق للدين به ، ولو كتمه الجاحظ لما كان عليه مطعن من المطاعن فانه في باب علم لافي باب دين ولكن هذا الشعور أبى الا ان يفيض على جنبات كلامه ، واذا كان المرء مأخوذاً بظاهر عقيدته لابباطنها فليس في ظاهر عقيدة الجاحظ مغمز من المغامز أما الباطن فما نحاول مكاشفته فلنا ظاهر الجاحظ ولله باطنه .

قال زياد لاهل العراق لما قدم والياً عليهم[1] :

اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي !

وليس من المستسهل ان نعرف عقيدة الرجل على حقيقتها فقد يكتم المرء غير ما يظهر وقد يظهر غير ما يكتم .

مرة ينظر الى الحمام كيف يعد الذكر والانثى العش لولدهما وكيف ينقلان القصب ويشققان الخوص وينسجانه نسجاً مداخلاً وكيف يتخذان موضعاً للولد ويصطنعانه بقدر جثمان الحمامة وكيف يحفظان البيض ويمنعانه من التدحرج ، وكيف يتعاوران الافحوصة وينفيان عنها طبيعتها الاولى ويحدثان لها طبيعة أخرى على مقدار من البرد والسخانة والرخاوة والصلابة وكيف تضع الانثى البيض في هذه الافحوصة وكيف يتعاقب الذكر والانثى الحضن ويتعاورانه ، وكيف ينصدع البيض عن الفرخ فيملآن الفرخ الغذاء ويعينانه عليه وكيف يزقانه باللعاب ثم بالحب والماء على مقدار قوته وكيف يمنعانه بعض المنع بعد أن يطيق اللقط وكيف يفطمانه فطاماً مقطوعاً مجذوذاً بعد ان يعلما ان اسبابه قد اجتمعت وكيف ينفيانه اذا بلغ لنفسه منتهى حاجته وسألهما الكفاية وكيف ينزعان منهما تلك الرحمة له وينسيان ذلك العطف عليه ، فلا يروحان اليه ولا يغدوان عليه .

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٥) .

ينظر الى مجامع هذه الحكمة فلا يسعه الا التسبيح لمن أودع المعرفة هذا الذكر والانثى وألقى اليهما الالهام و بسط عليهما ظل الهناء وجعلها ضياء للمستضيء وراشداً للمسترشد فيقول (١) :

« فسبحان من عرّفها وألهمها وهدأهما وجعلها دلالةً لمن استدل ومخبراً صادقاً لمن استخبر ذلكم الله رب العالمين » .

ومرةً ينظر الى أصناف الحيوان فيتدبر كيف تبيض في صدع الصخر وأعالي الهضاب وكيف تبيض في الأجحرة وكيف تلد ولا تبيض ولا ترضع ولا تلقم وكيف تبيض وترضع وكيف تبيض في أوكارها في عرض مقاطع الجبال وكيف تبيض في البيوت في اصول أجذاع السقف وكيف لا تبيض من الجبال الا في الوحشي منها والا في اسحقها وأبعدها عن مواضع اعدائها وكيف تتخذ بيوتها في عرض شطوط الانهار والسواقي وكيف لاتجثم على بيضها وكيف لا تزق ولا تلقم ولا تلحم ولا تحضن ولا ترضع وكيف تزق وتحضن وتحتاج الى ما تغذو به ولدها .

ينظر الى هذا كله فيستدل به على حسن صنع الله واحكامه وتدابيره (٢) .

وحيناً ينظر الى الخنافس كيف يسقط الى المقاييس انها تجلب الرزق وان دنوها دليل على رزق حاضر من صلة اوجائزة اوربح اوهدية او حظ وكيف تدخل في قمص الناس فتنفذ الى سراويلاتهم فلا يقولون لها قليلاً ولا كثيراً وكيف يدفعونها ببعض الرفق . وينظر الى الذباب الكبير الشديد البطش الجهير الصوت كيف كانوا يحتالون في صرفه وطرده اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه ، وكيف صاروا يعتقدون انه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم فصاروا اذا دخل منازلهم وأوسعهم شراً لم يهجه احدمنهم .

ينظر الى هذا فيرى في أضعافه قدرة خالق يمدّ في الآجال مرة ويقصّر في الاعمار مرة ويهيء لكل واحدة منها سبباً فلا يسعه الى الاعتراف بهذه القدرة فيقول :

« واذا أراد الله عز وجل ان ينسيءُ في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما انه اذا أراد ان يقصّر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً » .

---

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص٤٧ .

(٢) « « « السابع ص١٩ .

ولقد ظهر هذا الشعور في قوله [1] :

« اعلم رحمك الله تعالى ان الله عزّ وجل قد أضاف ست سور من كتابه الى اشكال من أجناس الحيوان الثلاثة منها مما يسمونها باسم البهيمة وهي سورة البقرة وسورة الانعام وسورة الفيل وثلاثة مما يعدون اثنين منها من الهمج وواحدة من الحشرات الموكان موقع ذكر هذه البهائم وهذه الحشرات والهمج من الحكمة والتدبير موقعها في قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون ولا يميزون ولا يحصلون الامور ولا يفهمون الأقدار لما أضاف هذه السور العظام الخطيرة الشريفة الجليلة الى هذه الامور المحقرة السخيفة والمغمورة المقهورة ولأ صرما وضعها في هذا المكان ونوّه باسمائها هذا التنويه وانا ذاكر من شأن الضفدع من القول مايحضر مثلي وهو قليل في جنب ماعند علمائنا ، والذي عند علمائنا لايحسن في جنب ما عند الله تبارك وتعالى » .

وظهر شعوره الديني في غير هذه المواطن . فاذا أطنب في ذكر العظيم الجثة من الحيوان فلا يطنب في شيء من ذلك لعظم جثته وانما يلتمس ما كان اكثر أعجوبة وأبلغ في الحكمة وأدل عند العامة على حكمة الرب [2] .

وبلغ من حرصه على الدين انه رأى ان الخطأ في الدين أضر من الخطإ في كل علم من العلوم فقال في كلامه على الترجمة في عصره وعلى شروط هذه الترجمة وعلى خطإ المترجم [3] :

« والخطأ في الدين أضر من الخطإ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم » .

وهو يجد كتب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الاوائل وما اشتملت عليه من عجيب حكمة ومن سيرة ، قال [4] :

« واكثر من كتبهم نفعاً وأشرف منها خطراً وأحسن موقعاً كتب الله تعالى التي فيها

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص١٥٢) .

(٢) « « « « ٤٩

(٣) « « « الاول « ٣٩

(٤) « « « « « ٤٣

الهدى والرحمة والاخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة » ٠

وقد علمتم ان الزندقة كانت مستفيضة في عصر الجاحظ ومرّ بكم ان من الذين اتهموا بهذه الزندقة حمّاد الراوية وقد عرّض به حماد ابن الزبرقان بأبيات ذكرت في محلها منها :

وحسبت من زعم السماء تكونت والارض خالقهـا لهـا لم يمهد

وقد قال الجاحظ بعد هذا الشعر : فليس يقول احد ان الفلك بما فيـه من التدبير تكوّن بنفسه ومن نفسه ٠

وتعرّض الجاحظ لجماعة من الذين اتهموا بالزندقة واستنكر استفاضتها على نحو ماتبين لكم ذلك في كلامنا على عصره اذ قال :

« وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الاعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً وأعرضوا عنه صفحاً فليس الا : لا أو نعم ، الاّ ان قولهم : لا ، موصول منهم بالغضب وقولهم : نعم ، موصول منهم بالرضى وقد عزل الحق جانباً ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن » ٠

ان هذا كله يدلنـا دلالة واضحة على ان الجاحظ لم يضعف شعوره الديني فان نسبته الى الجهالات والضلالات وان الشك في دينه واتهامه بالكفر والنفاق كل هذا لا يخلو من تحامل ظاهر وأظن أنهم ماطعنوا فيه هذا المطعن الا لمخالفته اياهم في اصل الدين فان الرجل يستند في تفسير الآيات وتأويل الاحاديث الى عقله ٠

في ٣ أيار سنة ١٩٣١

حروف التاج

وعلامات الترقيم

« ومواضع استعمالها »

هذا نص المقدمة التي وضعتها وزارة المعارف المصرية للنشرة التي أذيعت على مدارسها بشأن حروف التاج وعلامات الترقيم ومواضع استعمالها لتعميمها بين الطلبة وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الخط العربي أثر من آثار الحضارة الاسلامية ، انتقل في عصر الفتح الاسلامي من بلاد العرب مع اللغة والدين الى الممالك المجاورة : الروم . والفرس . وارض المغرب ودخل مصر وحل فيها محل الخط القبطي ولجماله واختصاره تغلغلت محبته في نفوس الامم حتى ان الممالك التي دخلها وشاء لها القدر ان تسترد لغتها القديمة كالفرس — وجدت من الخط العربي عوناً فاستبقته في حضارتها الجديدة .

ومن أحسن العصور الغابرة التي ازدهت فيها مصر وتألق فيها بهاء الخط العربي عصر المماليك ففيه أنشئت المدارس وأقيمت العمارات . وكان جل اعتماد القوم حينئذ في النقش على الخط العربي . وهذه المساجد المنبثة في نواحي مصر وما حفر وكتب على جدرانها من مختلف أنواع الخط دليل على ما كان له في نفوسهم من الرعاية .

ولما انتقلت الخلافة الى الاتراك اخذوا نصيبهم من العناية بالخط العربي وأتقنوه

وافتنوا فيه وخرّجوا فيه أساتذة رفعوا فيه سمعة الاستانة حتى عدت مركز الرئاسة في الخط العربي ثم دار الدهر دورته وحدث الانقلاب العام في المملكة العثمانية واستعاض الترك الحروف اللاتينية عن الخط العربي . عند ذلك أفل نجمه عندهم واخذت آثاره في العفاء .

تناول الناس بمزيد الدهشة حديث هذا الانقلاب ورأوا مع ذلك ان روح هذا العصر تدعو الى التجديد فتولدت فيهم حركة ترمي الى إدخال التعديل في الكتابة العربية واخذ المفكرون يبحثون عن وسيلة للتجديد في الخط فاجتهدوا وكان منهم المسرف وغير المسرف غير انه لم يغب عن إدراكهم انهم اذا أستباحوا لانفسهم إدخال التغيير والتبديل كما فعلت تركيا استهدف الخط العربي الجميل لخطر جسيم وقطعت الصلة بين قديم الادب وحديثه وهذا امر يظهر ضرره في جلاء لابناء الاجيال المستقبلة .

ومن حسن الحظ ان وجه صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الاول التفاته السامي الى الخط العربي فأعاد اليه شبابه ورد اليه مافقد من مكانته . ولا غرو فان جلالته يجلس على عرش أمة هي قبلة الناطقين بالضاد وقدوة الامم العربية .

عزّ على جلالته ان يرى هذا النوع العريق في الفن الجميل يصارعه الفناء وتكاد تندرس اصوله . فأمر بانشاء معاهد لتعليم الخط في مختلف أنواعه . واخذ يرعاها ويشجع طلابهــا بالجوائز حتى خرّجت رجال فنانين خدموا الامة ورفعوا راية النهضة الحديثة ، ونشروا آثار هذا الفن الجميل حتى أصبحنا بحق نقول :

ان الخط العربي اذا عفا اثره من كل مكان فلن يموت في مصر . واذا شئت فقل : ان مصر ذات الارض الخصبة . والعقول المفكرة . والآثار البديعة . جادة في رفع منزلته وفي تكميله بحيث يماشي الحضارة الجديدة .

فلئن تخلت الاستانة عن مركز الرياسة لهذا الفن الجميل لقد نهضت مصر حاملة لواء الزعامة بفضل المجهود الصادق الذي يجود به صاحب الجلالة الملك .

وقد رأى جلالته عملاً بسنة التجديد ان يزيد من حسناته لرفع مستوى الكتابة والخط . فتعلقت ارادته السامية بامرين خطيرين : (١) ان توضع قواعد للترقيم توحيداً للعمل به . (٢) ان تبتكر صور للحروف الهجائية . غير بعيدة الشبه بالحروف العادية . تؤدي ماتؤديه الحروف الكبيرة في اللغات الأجنبية .

ومما لاجدال فيه ان طريقة الكتابة العربية في مجموعها مضطربة وقد أراد كثير من كتابنا معالجة هذا النقص بمحاكاة اللغات الأجنبية فاستعاروا منهـا علامات الترقيم . وأسرفوا في استعمالها اسرافاً يعمي على القاريء مقصده او قل : انهم ينثرون علامات الترقيم في ثنايا الكتابة لتكون حلية وزخرفاً بدلاً من ان تكون وسيلة لايضاح المعنى وتذليل مصاعب القراءة . إذن فما أحوج الكتابة العربية الى نظام واحد يلم شملها و يرفع ذكرها .

وقد فوض النظر في ذلك الى لجنة الفتها وزارة المعارف وقد فرغت من عملها .

اما ابتكار صور للحروف الهجائية فمن مزاياه توجيه التفات القاريء الى اوائل الكلام وتمييز الاعلام من غيرها .

ولما أذيعت هذه الرغبة الملكية على الجمهور ملكت مشاعره لصدورها من مليك امتاز بالعطف الكبير على العلوم والآداب والفنون . وامتاز بالسهر على ان يحل مصر في مكانها الارفع . من اجل ذلك استحث (حفظه الله) همم العاملين . باسداء الجوائز للفائزين في مضمار المسابقة .

فانبرت الافكار ودخل المسابقـة أناس من القطر المصري ومن غيره من الأقطار الدانية والنائية وتقدموا باقتراحاتهم . وقد وفق بعض المستبقين الى ابتكار صور للحروف لها مميز لم يغير من شكلها تغييراً جوهرياً .

فتولت لجنة تحكيم امر الفصل فيما قدم لها من المقترحات ومنحت الجوائز مستحقيها .

ثم بدا لهذه اللجنة ان تسترشد بهذه الاقتراحات لوضع طريقـة لكتابة الحروف الكبيرة مراعية في اختيارها اموراً : قرب شبهها بالحروف المعتادة . وسهولة كتابتها بالقلم المعتاد . وانسجامها اذا اتصلت بغيرها .

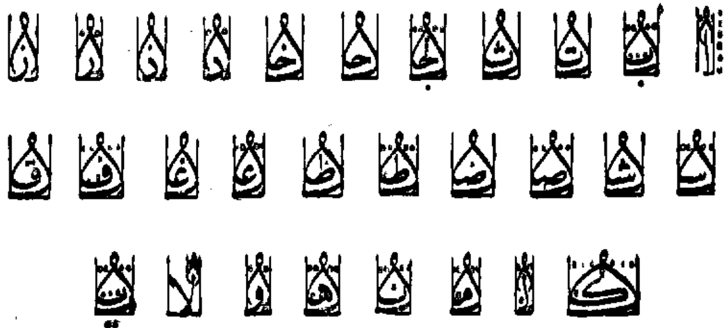
وارتأت تسمية هذه الحروف الجديدة حروف التاج . لان صاحب التاج هو صاحب هذه الفكرة . والمتفضل بجوائزها .

ثم آل الامر في شأن هذه الحروف الجديدة الى لجنة تنفيذية بوزارة المعارف العمومية . فكان منها ان عدلت بعض الشيء في صورة هذه الحروف . فجاء تعديلها خاتمة البحث في هذا الموضوع . ورفع الى السدة الملكية فحظي بالرضا والقبول . وصدر قرار الوزارة باذاعته على الجمهور . والسير على مقتضاه في التعليم بالمدارس .

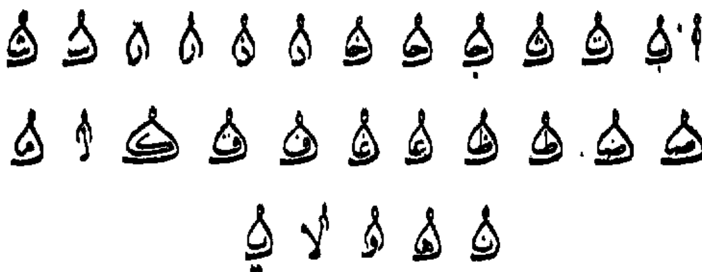
حروف التاج

خط النسخ

الحروف مضبوطة بميزان النقط



الحروف في شكلها المعتاد



أمثلة لاستعمال الحروف

حكم مأثورة

الإنسان صنيعة الإحسان. تتبع العثرات يضعف المودات.
خير الأمور أوسطها. دواء الدهر الصبر عليه. رب ساع لقاعد.
سرك أسيرك. شهادات الفعال خير من شهادات الرجال.
صدق الحديث حلية. طول التجارب زيادة في العقل. عقد
المحبة يقتضي النصح. فصاحة اللسان حلية الإنسان.
كل ممنوع متبوع. لكل جديد لذة. نعم المؤدب الدهر
هذب حليتك بحسن خلقك. وعد الكريم دين.
قيل لبزرجمهر: "ما العقل، وما الحلم؟" فقال "ترك
ما لا يعني، والعفو عند المقدرة"

خط الرقعة

حكم مأثورة

الإنسان صنيعة الإحسان. تتبع العثرات يضعف المودات. خير الأمور أوسطها. دواء الدهر الصبر عليه. رب ساع لقاعد. سرك أسيرك. شهادات الفعال خير من شهادات الرجال. صدق الحديث حلية. طول التجارب زيادة في العقل. عقد المحبة يقتضي النصح. فصاحة اللسان حلية الإنسان. كل ممنوع متبوع. لكل جديد لذة. نعم المؤدب الدهر. هذب جليسك بحسن خلقك. وعد الكريم دين. سئل بزرجمهر: "ما العقل، وما الحلم"؟ فقال: "ترك ما لا يعني، والعفو عند المقدرة".

الغلاظة في اللغة

-٣-

(العنق) — العِرْبَكْدُ ، الغليظ الشديد العنق والظهر من الابل . والأجْوَق ، الغليظ العنق . ومسفوح العنق ، الغليظه الطويله . والأقْفد ، الغليظه . والأَلْوَدُ ، العنق الغليظ ج أُلواد . وقد غَلِب الرجلُ — غَلَبًا ، غلظ عنقه فهو أغلب وهي غلباء . وعنِق عنَقًا ، طال عنقه وغلظ .

(القدم) — وقدم شَثْلَة ، متراكبة اللحم غليظته . ورجل شِرْداح القدم ، غليظها عريضها . وخَفْاق القدم ، صدر قدمه عريض . وابكاع القدم ، سمنها وغلظها واشتدادها . وقدم موقوعة ، غليظة شديدة .

(الوجه) — ووجه مُرَغَّف ، غليظ ومثله الوجه المكتنز . والجَهْوم والجهْم ، الوجه الغليظ المجتمع السمج . ووجه مكَنْثَر ، غليظ .

(الكف) — والشُّرابث والشَّرَنْبَث ، الغليظ الكفين والرجلين والقدمين الخشنهما .

(الشفة) — والشَّدْأَحُ ، الرجل الواسع المنخرين العظيم الشفتين المسترخيهما ويقال شفة شفأحة اي غليظة . والمُذْلوغ ، الغليظ الشفة . والأَيْلَم ، الغليظ الشفتين ومثله الحَبَرْكل والخُثارِمُ (للرجل) والجحَنْفل والخُنْشارِم . والخثرمة ، غلظ الشفتين . والوَذْرة ، المرأة الغليظة الشفة . وشفة كاثمة باثمة اي ممتلئة غليظة . والأجم الذي في شدقه غلظ . وقد عكَب الرجل عكَبًا اذا غلظت شفتاه وحياه .

(الساق) — وساق خَدَنْداة ، غليظة ممتلئة . وامرأة خِدْلِم ، غليظة الساق مستديرتها .

(الاذن) — والقنفاء من آذان المعزى ، الغليظة كأنها نعل مخصوفة . والأقنف الصغير الاذنين الغليظها .

(شيء) — وناقة ضِرناك ، غليظة المؤخر . ورجل مكتّل ، غليظ الجسم يقال هو رجل مكتّل الخلق . والعكناء ، الناقة الغليظة الاخلاف . والمِكْتَب والمُكْتِب ، الحافر الذي غلظ من العمل . والتألب ، الغليظ الخلق المجتمع من الناس ومن حمر الوحش وهي تألبة . والجُنادِف ، الغليظ الخلقة القصير المُزّ القصير الرقبة . والجَرْوض ، الغليظ الكبير البطن .

(الاسنان) — والإِطلِطُ ، الغليظ الاسنان . والأذَبّ ، الغليظ الناب . والأهْقَم ، الغليظ الثنايا .

(الصلب) — والهَكَوّك ، المكان الصلب الغليظ . والعِرْزَبُ والعِرْزَبْ ، الصلب الشديد الغليظ . والصأَبُ ، المكان الغليظ الحجر وقد شئِسَ المكان اذا غلظ وصلب واشتد . ومجَن الشيء — مُجوناً ، غلظ وصلب . والخاظي الغليظ الصلُب .

(الطويل اوالقصير) — والعُملوج ، الغليظ الجسم الطويل[1] . والكُنادِر ، الغليظ القصير مع شدة ويوصف به الغليظ من حمر الوحش . والجِرْعيظ ، الاكول القصير الرجلين الغليظ الاثم . والاوِزّ ، الغليظ اللحم في غير طول . والخِشاب القصير مع غلظ فيه . والوهنُ ، الرجل القصير الغليظ ومثله الكَسكاس والجِعْظار . والحزابي من الرجال والحمير ، الغليظ الى القصر يقال رجل حزابٍ اذا كان غليظاً قصيراً ومثله الحزابية والحِنْزاب . والجَعْبَر ، القصير القامة الغليظ القصب — والقَعْب الغليظ القصير الجَحْدَر ، الذي لم يُحكم خلقه ومثله الجعبري . والمُجَدَّر ، القصير الغليظ الشثن الاطراف كالجيدر وهي مجدّرة . والجعشم ، القصير الغليظ مع شدة . ورجل وقوم زَوازِيَة ، قصار غلاظ . والجِعْوِرِم ، القصير الشديد الغليظ السمين . والكُلاكِل والكُلْكُلُ ، القصير الغليظ الشديد . والكَأْوَلُ والمكوئلُ ، القصير اومع غلظ اومع فحج ويقال اكوأل الرجل اي كان كأْوَلاً . والحبَنْطى ، القصير الغليظ . ورجل

(١) ومثله الغِمليج والجَعْشَبُ .

ُظرُبٌّ ، غليظ قصير ومثله الصِّمصِم . ورجل زوّاز ، غليظ الى القصر . والمكنبث الغليظ الشديد القصير .

(الحبل) — والجُمالة ، الحبل الغليظ سمي به لانه قوى كثيرة جمعت فأجلت جملة وقال مجاهد هي حبال الجسور ومثله الكَرُّ والأَندري .

(الشجر) — والعَضاض ، ماغلظ من الشجر . وشجرة جأس وشُهد جلس ، غليظ والجلس ايضاً الغليظ من الارض . وقد أعرد الشجر اذا غلظ وكبر . ولوّمت الفسيلة ، غلظت وكثر ليفها . وقشِرَ الشجر — قشَراً ، غلظ قشره . والجَزْن والجَزْل ، الخشب الغلاظ .

(الطريق) — والنِّقاب الطريق في الغلظ ومثله الشَّجْن والشَّجَن . والمثقب، طريق في حرة وغلظ . والضَّلوع ، الطريق من الحرة . وطريق اعروريّ ، غليظ . وطريق ظَلِف ، غليظ لايؤدي اثراً ومثله ارض ظَلِفة .

(الصوت) — والأجشّ ، الغليظ الصوت من الانسان ومن الخيل ومن الرعد وغيره وفي الحديث انه سمع تكبير رجل أجشّ الصوت » وفرس أجشّ الصوت ، في صهيله جشش قال ابن دريد : هو مما يحمد في الخيل . الخُشارِم ، الصوت الغليظ . والجُشّة والجَشَش ، صوت غليظ فيه بحة يخرج من الخياشيم . والجُشْمرة ، خشونة في الصدر وغلظ في الصوت وسعال . والغُنّة ، مايعتري الغلام عند بلوغه اذا غلظ صوته . والمدُّ والمدَد الصوت الغليظ . وصوت ناجٍ ، غليظ جاف . والأبحّ ، العود الغليظ الصوت — والبحّ لغلظ صوته — والدينار الأبح في صوته قال الجعدي يصف الدينار :

وأبحّ جندبيّ وثاقبة سُبكت كثاقبة من الجمر

وقد شحج الغراب اي غلظ صوته . ونبح الهدهد نباحاً اذا أسنّ فغلظ صوته .

(الفرس) — وفرس جَحِد، غليظ قصير ج جحاد . والجَحْرش، الفرس الغليظ المجتمع الخلق . والبُوَّب ، الفرس القصير الغليظ اللحم الفسيح الخطو البعيد القدر . وفرس مُجَعْثِن الخلق ، غليظ شبه باصل الشجرة في كدنته وغلظه .

(البعير) — والجُلذيّ ، البعير الشديد الغليظ . والدُّلامك ، الناقة الغليظة المسترخية . والعَذَوْنى ، البعير الغليظ العنق . والعكناء ، الناقة الغليظة الاخلاف .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

السلطان (المراكشي) فلما قرأ السلطان ذلك سر سروراً عظيماً ولما خرج للشور ؟ أمر بقراءة المكاتيب في الملأ وقال « هكذا نحب أصحابي فجزاك الله خيراً فانني لا أوجه الهدايا للمهانيين الا معك » .

اما مخطوطته فقد كنت أبحث عن نسخة منها حتى ظفرت بها عند صديقي السيد حمزة الرفيق في مدينة (وهران) واذا هي في ٥٨٤ صفحة مكتوبة بخط مغربي غير واضح وفيها تحريف يعسر تصحيحه وقد الفها مؤلفها سنة ١٢٢٦ هـ وكتبها كاتبها سنة ١٢٨٦ هـ اي بعد تأليفها بستين سنة .

وقال المؤلف في سبب تأليفها انه كان يوماً في مجلس مولاي سليمان ابن السلطان سيدي محمد بن عبدالله فجرى ذكر الامم الخالية والدول الماضية . فكلفه مولاي سليمان ان يضع تأليفاً جامعاً للدول ولأنساب قبائل المغرب فاعتذر فألح عليه . وفي اثناء ذلك مات السلطان محمد فخلفه (السلطان الجديد اميرالمؤمنين اليزيد) فنكبه هذا السلطان وسجنه وبقي مسجوناً حتى مات السلطان فخرج من السجن وأزمع الرحلة عن بلاد المغرب فمنعه منها السلطان الجديد صديقه مولاي سليمان بن محمد وقلده ولاية (وجدة) فذهب اليها فنهبه الأعراب في الطريق فانقطع في مدينة (تلمسان) وأقام فيه معتزلاً والف هذا الكتاب . ورتبه هكذا :

(المقدمة) تتضمن مايجب على السلطان وله
(الباب الاول) آدم والطوفان
(الثاني) تفرق اولاد نوح
(الثالث) دولة الفرس
(الرابع) ملوك اليمن
(الخامس) الفراعنة
(السادس) بنو اسرائيل
(السابع) البابليون
(الثامن) اليونان
(التاسع) الروم

(العاشر) الاسلام وظهور النبي عليه السلام
(الحادي عشر) بنو أمية وفتح الاندلس
(الثاني عشر) بنو العباس الى ظهور بني عثمان
(الثالث عشر) الفاطميون الى ظهور الايوبيين عليهم
(الرابع عشر) بنو عثمان
(الخامس عشر) الادارسة وملوكهم الى زمن المؤلف
وبعد هذه الأبواب :
(جامعه)
(خاتمة) ضمنها رحلته الى المشرق والاستانة والحجاز
(فصول)

وذكر في الجامعة وصفًا لملك آل عثمان لايقره عليه التاريخ الصحيح : من مثل ان العثمانيين كانت سلطتهم ممتـدة الى بلاد فارس وخراسان وجرجان وطبرستان وبخارى وسمرقند وخوارزم الخ الخ ثم ذكر مجملاً من تاريخ آل عثمان بعد ضعفهم وقوة دول الافرنج حوالیهم حتى تبدد ذلك الملك الشاسع ولم تبق منه سوى بقيـة كانت سلطة العثمانيين عليها بالاسم ايضًا ولم تكن لهم سلطة فعليـة الا في ماجاور الاستانة من الولايات وأشار الى قيام الوهابيين في جزيرة العرب و (آل رسول) في اليمن حتى غلبهم الزيدية قال : « ولم يزل امر هذه الدولة العثمانية يضعف وهي في مرض من الايام وهم يعالجون مرضهم بالسياسة والتدبير الى ان يتم امر الله في شأنها عند هرمها » وأشار ايضًا الى ان العثمانيين كانوا يجارون رعاياهم فلا يردون لهم طلبًا مهما كان ، خشية اغتنام دول اوربا الفرص وهجومها عليهم ۰ وما أنقله هنا من هذا الكتاب هو الذي يستحق النقل وما سواه لافائدة فيه ۰ اللهم الا رحلته الى المشرق فانها على صغرها صورة للعالم الاسلامي منذ مئة وثلاثين سنة ۰ وقد عزمت على نشرها في كتاب على حدة ۰

(تلمسان) : محمد سعيد الزاهري

مطبوعات حديثة

—*—

جزيرة رودس

« تأليف حبيب غزالة بك عضو الجمعية الجغرافية المصرية طبع في مطبعة »
« الاعتماد بمصر سنة ١٩٢٩ م في ٨٧ صفحة »

كتب المؤلف عن هذه الجزيرة وجغرافيتها وتاريخهـا وآثارها كتابة موجزة لكنها متقنة في تحقيقها وحسن تلخيص أخبارها منذ اول عهدها الى نزول الدولة العثمانية عنهـا الى دولة ايطاليا في معاهدة لوزان . ومما زاد هذا الكتاب حسناً وقرب فائدة انه قد أجيد طبعـه وورقه وزين برسوم أتقن تصويرها وتمثيلها من ذلك رسم صنم رودس الشهير الذي هو احدى العجـائب السبع عنـد الأقدمين وحصار العثمانيين لرودس ورئيس الفرسان الشيفالية (دي ليل آدم) امام فسطاط السلطان سليمان . ومنظر عام لمدينة رودس في العصور الوسطى وجامع الرئيس مراد وتمثال فينوس . عدا رسوم الخرائط والنقود وغيرها . فالكتاب على صغر حجمه غاية في الفائدة والإمتاع لمحب التاريخ . فالشكر لمؤلفه الفاضل .
« المغربي »

═══

اصلاح الوعظ الديني

« تأليف محمد عبد العزيز الخولي أستاذ الشريعة الاسلامية بمدرسة دار العلوم »
« المصرية طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٢٩ م في ٢٥٥ صفحة »

موضوع هذا الكتاب من خيرة الموضوعات التي يلزم تمحيص القول فيها لقوة علاقة بدهماء الامة الاسلامية وشدة حاجتهم الى الاستفادة منها: فان من يسمع الخطب الجمعية

كل جمعة والدروس الوعظية من وقت الى آخر في المساجد ولاسيما شهر رمضان — عرف ان هذه الدروس وتلك الخطب لا تؤدي الى نتيجة حسنة في الدين ولا في الاخلاق بل ان الأمر على العكس تزيد الدهماء تمكناً من الجهل وإمعاناً في الخرافات لهذا وجب الترحيب بهذا الكتاب الجديد الذي ألفه الاستاذ الخولي وقد ضمنه أبحاثاً في الارشاد عامة وطريقة الارشاد النبوي وما ينبغي ان تكون عليه الخطب المنبرية والدروس الوعظية وذكر فيه نموذجات عصرية من دروس وخطب مما يناسب روح هذا الوقت ويتفق مع عقول أهله الى غير ذلك من الفوائد والنصائح المتعلقة بهذا الموضوع الجليل فنلفت اليه الانظار . ونشكر المؤلف والطابع على هذه الخدمة الدينية التي قاما بها نحو أمتهما .

« له »



المفكرة الزراعية

« وهي تذكرة لأسس الفنون الزراعية جاءت في ٤٥٠ ص من القطع الصغير »
« تأليف السيد وصفي زكريا »

من العجيب ان طلاب العلم في بلادنا اذا ماانتهوا من تلقي الدروس في المدارس العليا حسبوا انهم بلغوا في العلم سدرة المنتهى فأحرقوا الكتب او القوها الى الخزانة طعاماً للعث شهياً . و يندر ان تجد بينهم أناساً أدركوا ان الدرس يجب ان يكون بعد المدرسة خاصة وان المدارس مهما كانت درجاتها ليست سوى مفتاح للعلوم او دليل يريهم الطريق التي يجب ان يسلكوها حتى يصلوا الى ينابيع العلوم المتدفقة فيرشفوا من معينها بعض القطرات ثم تنطفئ شعلة حياتهم القصيرة قبل ان يرتووا .

ومن الأفراد القلائل الذين داوموا على الدرس بعد ان تخرجوا في المدارس الزراعية صاحب هذه التذكرة المفيدة حيث يجد القارئ خلاصة في أم الفنون الزراعية كالزراعة العامة والخاصة والاشجار المثمرة والبقول والدواب الدواجن والطيور الدواجن والنحل ودود الحرير والآلات الزراعية والحشرات وامراض الزروع والجغرافيا الزراعية والموازين والمكاييل والاعمال الزراعية التي تؤتى في كل شهر من شهور السنة الخ ..

ولقد أجاد المؤلف من حيث الفن ولم يجد من حيث اللغة . ولو انه عني بلغـة كتابه عنايته بمضمون أبحاثه لازدادت فوائده .

مصطفى الشهابي

اسرار المراهقة في الفتى
« تأليف الدكتور شخاشيري »

كتيب وضعه الفـاضل الدكتور شخاشيري وضمنه أحاديث دارت بين أب طبيب وابنه المراهق في شؤون دور البلوغ ووظائف أعضاء الرجل التناسلية وما يرافق هذا الدور من تغيرات نفسية وجسمية وما يحدق به من الأخطار الاجتماعية وما يتطلبه من عناية ورعاية صحية وأخلاقية وفي فضائل الزواج الشرعي في سن الرشد ومساوئ الدعارة والعادة السرية وغشيان دور الفحش وما ينشأ عنها من الامراض الوبيلة والآفات المضالة كالزهري مما لا ينحصر ضرره في صاحبه بل يتعداه الى بنيه وأسرته وأمته وذلك باسلوب حسن وعبارة سهلة يخامرها قليل من الخطإ النـاشئ في الغالب عن السهو من ذلك جعل الهمزة المكسورة فوق الألف كأنسـان ، وأشباع وأنماء الخ والصواب وضعها تحتهـا او تشكيلها . ومنه قوله ص ٤١ س٩ « انجها ناحية » والأولى الى ناحية . وقوله ص٤٣ س٣ « ولا يبعد ان تصاب الام — ماأصاب غيرها » والصواب ان يصيب الام ماأصاب . او ان تصاب الام بما أصيب به غيرها . وقوله ص ٤٥ س٦ « وجاءت اولادَها مصابين » والصواب باولادها او وجاء اولادُها . وفي ص ٤٨ س١٠ « وما تلك الحجرة الا مكان آخر للفسق والدعارة او مكانان اجتمعا (بالتنوين) فيها من كل فاكهة زوجان . » فعبارة مكانان اجتمعا غير واضحـة . وغير فصيحة . الى غير ذلك من الخطإ الذي لا صلة له بجوهر الموضوع ولا يبخس هذا الكتاب فائدته الكبرى في إصلاح الأخلاق ومكافحة الامراض الاجتماعية التي تهدد كيان الأسرة والأمة .

اسعد الحكيم

اسرار المراهقة في الفتاة

« تأليف الدكتور شخاشيري »

رسالة وضعها الدكتور شخاشيري بصورة حوار بين والدة وابنتهـا ثم بين الابنـة ووالدها في موضوع تشريح الجسم البشري والحيض والخطبـة . وقد استغرق قسم التشريح زهاء نصف الرسالة وجله يتعلق باسماء العظام التي يتألف منهـا الهيكل العظمي مما يجعل هذا البحث جافاً مملاً . لاسيما وهو بعيد عن موضوع الكتاب . ولم يأت في هذا البحث التشريحي ذكر لاعضاء المرأة التناسلية الباطنة التي هي ركن الموضوع .

ثم تطرق المؤلف الى مواعيد المرأة وكيفية حصولها والتدابير الصحية التي يجب عملها خلالها . وختم الكتاب ببحث خطير في نتائج العلاقات غير المشروعة وعواقبها الوخيمة وفي آداب المعاشرة والسلوك التي يطلب الى المرأة مراعاتهـا ولا سيما مع الخطيب مدة الخطبة ... والرسالة خاصة بالمرأة المسيحية دون المسلمة لان مايتعلق فيها بالمعاشرة والخطبة لا يتلاءم مع التقاليد الاسلامية ولأن امور الحيض تتعلمها المرأة المسلمة قبل البلوغ مع دروسها الدينية لانها مرتبطة بمبطلات الصلاة . اسعد الحكيم

الانتدابات في العراق وسورية

« بقلم السيد محمد جميل بيهم »

هو كتاب يبحث في القطرين العربيين العراق والشام من الوجهة السياسية والعمرانية والاقتصادية ، يستوعب مئة وسبعة وثلاثين صفحة ، وهو مطبوع في مطبعة العرفان بصيدا ومصدّر بتقدمته الى الامير شكيب أرسلان .

اما الأبحاث السياسية والمقارنة بين أساليب الانكليز ومناهج الافرنسيين في ادارة البلاد التي عهدت جمعية الامم الى كل منها الانتداب عليها وما هي السياسة التي تتوخاها الدول المنتدّبة والنهج الذي يقتضي ان ينهجه سكان البلاد تجاه هذا الانتداب الاوربي عليهم — فهي موضوعات لا شأن لنا بابداء الرأي فيها لخروجها عن دائرة موضوعات المجمع . واما من حيث أبحاثه العمرانية والاقتصادية في هذين القطرين العربيين فلا

تخرج عن حد التبسط في شيء من التاريخ القديم ونزر من التاريخ الحديث في عهد الدولة العثمانية ، وفي شرح الطرق والمواصلات ومظاهر الحياة والزراعة والتجارة وتعريف النهضة العلمية في الشباب ونهضة المرأة الى غير ذلك من التجديدات التي أدخلها التمدّن المصري على جميع البلاد الشرقية ومن جملتها — بل من اقلها اقتباساً بالنسبة الى مصر والهند — العراق والشــام . وان كل بحث من هذه الأبحاث يدور ويتحوّل في هذا الكتاب حتى ينصبّ في البركة التي يغرف منها المؤلف مادةً واحدة وهي الطموح الى الاستقلال .

مثل هذه الموضوعات يتعذّر كتابتها بلغة لا تكون بسيطة على ان لغــة هذا الكتاب وان كانت بسيطة الا انها معربة وسلسة وخالية من التراكيب الركيكة ومن الاوضاع التي عليهــا مسحة العجمة مما جرت عادة محرري الصحف باستعماله ، واذا ما اضطر المؤلف الى استعمال كلمة انكليزية او افرنسية درجت الألسن عليها وضع معرّبها بجانبها بين قوسين . وكثيراً ما استشهد بابيات من الشعر لدعم الحجة التي يُدلي بها . عبد الله رعد

حياة بوذة

« والمذهب البوذي »

السيدة ماري غالو واضعة هذا الكتاب باللغة الافرنسية قضت ردحاً من حياتها متنقلة في الهند والصين منقبةً عن الديانة البوذية وعاداتها وكتبها . ويظهر انها كتبت في هذه الديانة العريقة في القدم كتباً متعددة منها هذا الذي نحن بصدده وهو يأتي في مئتين وعشرين صفحة وبين صفحاته ثمانون رسماً تمثل المعبود بوذة بهيئات مختلفة ومعابد وكتابات بوذية الى غير ذلك من النقوش القديمة الهندية والصينية .

لغة هذا الكتاب بسيطة ويستحيل على مؤلفته وعلى اي كان من المؤلفين ان يكتب في موضوع غريب كهذا محشو الفاظاً أعجمية بلغة غير اللغة البسيطة . الا ان تبويبه يشهد للمؤلفة بطول الاناة والصبر وكثرة المطالعــة . اما مطالعته فلا تهمّ الا المولعين بالقراآت والمطالعات عن الغرائب . عبد الله رعد

المخطوطات

التي اقتناها المجمع العلمي في هذه السنة

(١) كتاب الفروسية والبيطرة في علامات الخيل تصنيف ابي حزام بن يعقوب الحنبلي اوله (الحمد لله وليّ الحمد . اهله ومستخلصه لنفسه . أحمده حمد من خضع لعظمته وخشع لوحدانيته الخ . وهو جزآن في نحو ٢٥٠ صفحة بالقطع المتوسط . وقد كتبه (الفقير حمزة) سنة ست بعد الالف . وفي الكتاب صورتا فرسين أحداهما باللون الاحمر والأخرى باللون الأسود . وقد كتب بجانب أعضاء كل فرس أسماؤها في اللغة العربية ولكن الصورة الثانية مشوهة وغير كاملة التخطيط .

(٢) « كتاب تواريخ ملوك الروم من تملك قسطنطين الكبير الى تملك قسطنطين الاخير وهو باقي من دون اعراب على استخراجه الاصلي من اليوناني الى العربي » . هكذا كتب على ظهر الكتاب . وقوله وهو باقي من دون اعراب الخ كأنه اعتذار عن ركاكة ترجمته . واوله هكذا « بسم الله الموحد بالذات . والمثلث بالصفات) . ولما بلغ المؤلف الى قسطنطين الاخير الذي انتهت به ملوك الروم في القسطنطينية استأنف الكلام على ملوك الاتراك العثمانيين فذكر من أحوالهم مع ملوك الروم ثم فتح القسطنطينية . وذكر سلاطينها واحداً أثر واحد حتى انتهى بقوله « وتملك السلطان مراد ابن السلطان احمد في سنة ١٦٢٤ م هذا كان رجلاً عادلاً شجاعاً شهماً وكان يحب جنس المسيحيين كثيراً وكان عالي الهمة في الحروب » اهـ . والكتاب مجلد كبير القطع متين الورق واضح الخط مشرق الحرف في نحو ٣٨٠ صفحة وجلده أسود رهباني متين .

ثم قال كاتب النسخة « نسأل الكريم النجاة من كيد الاكليروس وجملة الرهبان الغير حافظي الزمام الراغبين الخفخفة وكبر المقام » وهكذا كتب عظة مختصرة في ضرر الكبر

وختمها بقوله « فإياك والكبرياء مع شرب الخمر فانهما خراب المسكونة كما تراه محرراً اذا تلوت هذا التاريخ بكل ضبط » .

ثم قال « علقه بيده الفانية العبد .... صفرونيوس سماحا الكاهن في الرهبان القاطن يومئذ بدير القديس ماريوحنا الملقب بالشوير في تاريخ ١٦٦٥ مسيحية » .

ولا نعلم ان كان صفرونيوس هذا هو كاتب الاصل اليوناني او مترجمه الى العربية . اما كاتب النسخة فهو مجهول ويظهر من أسلوب الخط انه كتبها منذ عهد قريب لايتجاوز نصف قرن . وربما كتبنــا مقالاً خاصاً نضمنه خلاصات مما قاله ذلك المؤرخ اليوناني في ملوك القسطنطينية المهاتيين .

(٣) « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » لشهاب الدين ابي العباس احمد بن عبدالله القلقشندي صاحب كتاب (صبح الاعشى) والنسخة حسنة الخط لكنها ليست قديمة وفي أوراقها الاخيرة بعض تشويه . ولم يعلم كاتبها والتاريخ التي كتبت فيه . وانما وجد على غلافها اسماء الذين ملكوها وأشهرهم محمد بن ابراهيم الدكدكجي الدمشقي الصوفي الاديب المشهور المتوفى سنة ١١٣١ ﻫ وترجمته في سلك الدرر (جزء ٤ ص ٢٥) .

(٤) « مجموع لطيف مشتمل على أنواع لطائف منتخبة من أماكنها عن أهلها وسميته تحفة المتحابين وتأليف المتباعدين ومن الله أستمد التوفيق والعون على تلفيقه لا من غيره فشرعت في ذلك نهار السبت ١٧ شعبان سنة ١٠٧٤ ﻫ » . هذا ما هو موجود على ظهر المجموعة وهي حسنة الخط جداً لكنها متآكلة الأطراف مفككة الأوراق غير موثوق بتمامها . وهي كسائر مجموعات علمائنــا الأقدمين مما يسميه أهل هــذا العصر (مذكرات أو نوطات) فمن قصيدة الى فائدة الى حكمة الى مواليا الى دوبيت الى وصفة طبيــة لتقوية الباه الخ الخ . وهذا شأن مجموعتنا هذه .

« المغربي »

١٣١ و ١٣٢

المجلد الحادي عشر الجزء ١١ و ١٢

مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تشرين الثاني — كانون الاول

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي المدفع مقدماً
في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الرابعة	كل سنة منها
»	٣٠٠	» الخامسة الى العاشرة	» »
في الخارج	٦٠٠	» الاولى الى الرابعة	» »
»	٣٥٠	» الخامسة الى العاشرة	» »

كتاب الرموز[1]

« تأليف ابن ابي السرح[2] »

بتحقيق الدكتور س٠م٠حسين ، ام – اسے ، د ي – فل (آكسن)
أستاذ الآداب العربية والعلوم الاسلامية بجامعة دهاكه في الهند

ان لكل أمة[3] اموراً تستعملها[4] عن رموز النفس كنيرنجات الفُرْس ووهم الهند وعقد الروم ٠ وهذه الامور تسميها فلاسفة اليونانيين (الجانيقومات) ورموز النفس في هذا الموضع تنقسم الى ثلاثة اقسام : قسم منها رمزٌ فوق الطبيعة كالرُّقى والوهم وهو الذي يقول فيه انبذقليس الفيلسوف إن للنفس كلمات روحانيةً من نحو ذاتها ، وقسم منها رمز نحو (الطبيعة[5] كتعليق الخُزَز[6] وما يشبه ذلك ٠ وقسم منها رمز فوق الطبيعة

(١) عن مجموعة محفوظة في مكتبة راغب باشا بقسطنطينية عدد رقمها ١٤٦٣ ص ١٠٠–١٠٦ (٢) كذا في كتاب الفهرست ص١٢٨ «ابن ابي السرح» وبالاصل « ابن ابي سرح » وهو ابوالعباس احمد بن ابي السرح الكاتب ، ذكر ابن النديم : ان له من الكتب كتاب العلوم وما جاء فيه وله رسائل ، فنها كتاب الرموز هذا وجاء فيه ذكر كتابين آخرين كتاب في أخبار الكلب الكَلِب وكتاب الاوعتيان – راجع ص١٣ ٠

(٣) كلمة «أمة» محذوفة في الاصل ضبطناها بمقتضى الكلام ، لعلها سقطت عن يد الكاتب ٠ (٤) في الاصل « امور استعملها » محرفاً عن « اموراً تستعملها » ٠

(٥) (المجمع) لعله تحت الطبيعة ٠ (٦) «الجمم» هكذا ضبطها المصحح اي بضم اوله والصواب فتحها والخرز بفتحتين معروف امابضم ففتح فجمع خرزة وهي الثقبة فيها الخيط وتسميها عامتنا « طعنة » وهذا المعنى لا يناسب هنا ٠ ولعل أصوابه (الخُزَز) بزايين وضم الخاء ومعناه ذكر الأرانب وقد سقطت كلمة (كعب) والأصل (تعليق كعب الخزز) وتعليق كعبه خرافة معروفة منذ الجاهلية وسيأتي ذكر ذلك والاستشهاد عليه في كلام المؤلف ٠

وايضاً نحو الطبيعة معاً كالرُّقى[1] والتماثيل واستعمالها في حال واحدة . والمعرفة بان للنفس رموزاً وان هذه الاقسام من رموزها انما تجب بعد اتفاق القول (لعله القوى) ولواحقهما وهذه من صناعة الفلاسفة ليس من الغرض الذي نريد قصده فنتكلف القول فيه بالبراهين الموضحة عن حقيقته . وللعرب أفعال عن رموز النفس حسب ما لسائر الامم ولم أر احداً من مؤلفي الكتب عني بجمع ذلك . وانما هي منثورة متفرقة بين الاخبار[2] فجمعت من ذلك ما اعرف في كتاب لأكفي ملتمسه مؤونة الطلب و بالله أستعين وعليه أتوكل .

قال ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كانت العرب اذا أمسكت السماء عنهم[3] قطرها وأرادوا ان يستمطروا عمدوا الى السَّلَع والعُشَر فعقدوهما في أذناب البقر واضرموا فيهما[4] النار واصعدوها في جبل وعر ونبعوها يدعون الله و يستسقونه . قال أمية بن ابي الصلت الثقفي في ذلك :

سنة ازمة تخيّل[5] بالنا س ترى للعضاه فيها صريرا
لا على كوكب تنوء[6] ولا ريـ ح جنوب ولا ترى طُخروراً
و يسوقون باقرَ السهل للطَّو د[7] مهازيل خشيةً ان تبورا
عاقدينَ النيران[8] في أُطق[9] الاذناب منهـا لكي تهيج البحورا

(١) بالاصل « معاداالرقى » كذا محرفاً عن « معاً كالرُّقى» .

(٢) أوردها الألوسي في كتابه بلوغ الارب في أحوال العرب ج٢ ص١ ٣٠—٣٢٠ وج٣ ص ١— ٧٠ وابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٩ ص ٤٣٠—٤٥١ ، وذكر بعضها النويري في كتاب نهاية الارب في فنون العرب س٣ ص١١٦—١٢٦ والقلقشندي في كتاب صبح الاعشى ج١ ص٣٩٨ - ٤١٠ والشيخ شهاب الدين احمد الأبهشي في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف ج٢ ص ٨٩— ٩٣ .

(٣) بالاصل عنها (؟) . (٤) في الاصل فيه . (٥) في بلوغ الارب ٢+٣٠١ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٢ «تبرح» . (٦) في الاصل «بنوء» كذا مضبوط (؟)

(٧) بالاصل « للطور » (؟) . (٨) بالاصل «الثيران» . (٩) في بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة فيامضى «تكن» وفي نهاية الارب ٢+١١٠ « بكر » .

سَلَم ما ومثله عشر ما عائل[١] ما وعالت البيقورا

وغلط في هذا البيت عيسى بن عمر فقال لاأدري مامعنى قوله « عسل ما » وصحف الاصمعي في بيت من الابيات فقال « وغالت[٢] البيقورا » قال ابن السكيت ومعنى قوله « وعالت البيقورا » اي ان السنة الجدبة أثقلت البقر بما حملتها[٣] من السلع والعشر .

وأنشد الجاحظ في هذا المعنى للورك الطائي :

لادرّ درُّ رجالٍ[٤] خاب سعيهمُ يستمطرون لدى الأزمان[٥] بالعُشَرِ

أجاعل انت بيقوراً مسلعةً ذريعـة[٦] لك بين الله والمطر

قال ابو المنذر : وكانوا اذا فعلوا ذلك توجهوا بها نحو المغرب من بين الجهات قصداً الى العين يعني عين المطر .

قال الشرقي بن القطامي : كانت العرب اذا أوردوا البقر فلم تشرب اما لكدر الماء واما لان لاعطش بها ضربوا الثور لان تقحم البقر الماء[٧] وكانوا يقولون ان الجن تركب ظهور الثيران فتصدّ البقر (عن الماء) لذلك قال الاعشى :

اكالثور والجنّيّ يركب ظهره[٨] وما ذنبه ان عافت الماء مشربا

وما ذنبـه انـ عافت الماء باقر وما ان تعاف الماء الا لتشربا[٩]

وانشد يحيى بن منصور الذهلي :

---

(١) في الاصل (عائك) وفي شرح نهج البلاغة (عامل) لعله تحريف .

(٢) ويمكن ان يحمل تفسير الأصمعي على محمل صحيح فيقال غالت بمعنى أهلكت يقال غاله واغتاله اي اهلكه وغالتهم غول يعني المنية ومنه (الغضب غول الحلم) — ابن ابي الحديد

(٣) بالاصل (حملت) (؟) (٤) في بلوغ الارب ٣+٣٠٢ (أناس) .

(٥) في شرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٤ وبلوغ الارب فيما مضى «الاعسار» . (المجمع) ويروى الأزمات جمع أزمة بمعنى القحط .

(٦) في صبح الاعشى ١+٤٠٩ (وسيلة) . (٧) ضربوا الثور ليقتحم الماء فتقتحم البقرُ بعده — شرح نهج البلاغة . (٨) روي في بلوغ الارب ٢+٣٠٤ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٥ « يضرب وجهه » . (٩) في نهاية الأرب ١+١٢٣ وشرح نهج البلاغة فيما مضي آنفاً «ليضربا» .

لكالثور والجنيّ يركب ظهره   وماذنبه ان كانت الجن ظالما (؟)

وقال نهشل بن حرّيّ :

أيترك عامرٌ وبنو عليٍّ   وتغرم دارمٌ وبنو براه (؟)
كذاك الثور يضرب بالمراوي   اذا ما عافت البقر الظماه

وقال عوف بن الخَرِع :

هجوني ان هجوت خيال سلمي   كضرب الثور للبقر الظماه

وقال أنس بن مدرك :

إني وقتلي سليكاً[1] ثم[2] اعقله   كالثور يُضرب لما عافت البقرُ

وقال اللحياني : كانت العربُ اذا سافر الرجل منهم عمد الى خيط فعقده في غصن شجرة او ساقهـا فاذا رجع نظر الى ذلك الخيط فان وجده على ما عقده قضى بان اهله لم تخنه وان رآه حُلّ حكم بانها قد خانته واسم ذلك الخيط (الرتم) وقال ابو زيد : وهو ايضاً اسم للخيط الذي يعقده الرجل في اصبعه ليذكر به[3] حاجته وأنشد :

هل ينفعنك اليوم ان همت بهم   كثرة ما توصي وتعقاد الرتم

وانشد :

خانته لما رأت شيباً بمفرقه   وغره حلفها والعقد للرّتم

وانشد :

به من الهوى لمم   وغره عقد الرتم

وقال ابو المنذر : تقول العرب مَن وُلد في القمراء[4] رجعت قلفتـه[5] فكان كالمختون قال ودخل امرؤ القيس مع قيصر الحمام فرآه اقلف فقال :

إني حلفتُ يميناً غير كاذبة   انك[6] اقلف الا ماجنى القمرُ
اذا طعنتَ به مالت عمامته   كما يجمّع تحت الفلكة الوبرُ

(١) بالاصل (سليطا) . (٢) ويروى في شرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٤ (قتل سليك حين) بدل (قتلي سليكا ثم) . (٣) بالاصل (بها) . (٤) في الاصل (القمر) .
(٥) في رواية شرح نهج البلاغة (١٩+٤٤٣) وبلوغ الارب (٢+٣٣١) (تقلصت غرلته) . (٦) ويروى في شرح نهج البلاغة (١٩+٤٤٤) (لانت) وهو الاولى .

قال ابن حبيب : وهذان البيتان ينحلان للأُقيسر (صوابه الأُقيشر) .

قال ابن السكّيت : تقول العرب ان المرأة المقلاة (صوابه المقلات) (وهي التي) لا يبقى لها ولد — اذا وطئت قتيلاً شريفاً بقي اولادها . قال الحنفي انما يفعل ذلك اذا قُتل غدراً او قوداً قال الشاعر[1] :

تظلّ مقاليتُ النساء يطأنه يقلن ألا يُلقى على المرء مئزر

وقال . وتظلّ المرزّآت المقاليـ ـت يُطلن القعود بعد القيام[2]

وقال ابن الاعرابيّ : يقول العرب ان من علّق على نفسه كعب أرنب لم تصبه عين ولا سحر لان الجن تهرب منها لان الأرنب ليس من مطايا الجن لانها تحيض . قال ابن الاعرابي قلت لزيد[3] بن كثوة أتقولون ان من علق على نفسه كعب أرنب لم تقربه جنّان الحي ولا عمّار الدار[4] فقال إي والله ولا شيطان الخماطة[5] ولا جار[6] العُشَيرة[7] ولا غول القفر وكل الخوافي إي والله وتُطفأ عنه نيران السعالي وتبوخ . وقال امرؤ القيس في ذلك :

أيا هند لا تنكحي بوهةً[8] عليه عقيقته أحسبا
مرسّعة بين أرساغه[9] به عسم يبتغي أرنبا
ليجعل في يده[10] كعبها حذارَ المنية ان يعطبا

وقال ابوعبيدة : كانت العرب تقول ان الرجل اذا دخل قرية يخاف و باءها

---

(١) بشر بن ابي حازم . (٢) يروى في بلوغ الارب ٢+٣٢٤ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٧ :

وتطيل المرزّآت المقاليـــتُ اليه القعود بعد القيام

(٣) كذا في بلوغ الارب ٢+٣٢٤ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٤١ (لزيد) و بالأصل (ليزيد) . (٤) في رواية بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة (جنّان الدار ولا عمّار الحي) .
(٥) الخماطة شجرة . (المجمع) صوابه الحماطة بالحاء المهملة اما بالمعجمة فذاك الخمط .
(٦) في الاصل (حان) كذا بالحاء المهملة لعله تحريف (جار) : (المجمع) والصحيح جانّ بالنون المشددة . (٧) العُشَيرة تصغير العُشَرة وهي شجرة . (٨) في الاصل (فوهة) .
(٩) (المجمع) أو صوابه (مرسّعة بين أرساغه) (١٠) وروى (رجله) .

فوقف على باب القرية قبل ان يدخلها فعشّر كما ينعق (صوابه ينهق) الحمارُ — ضُرِب عنه وباؤها وأنشد في ذلك :

ولا ينفعُ التعشيرُ انْ حمّ واقعٌ ولا دعدعٌ[1] يغني ولا كعب أرنب

وقال الهيثم بن عدي : خرج عروة بن الورد وأصحاب له الى خيبر ليمتاروا فلما قرُبوا منها خافوا وباءها فعشّروا وأبى عروة ان يفعل ذلك وقال :

لعمري لئن عشّرتُ من خشية الردى نُهاقُ الحمير إنني لجزوع

فلا وألت تلك النفوس ولا أتت على روضة الأجداد وهي جميع[2]

فدخلوها وامتاروا وانصرفوا نحو بلادهم فما بلغوا روضة الأجداد الا وقد هلكت عامّتهم الا عروة .

وتقول العرب ان السليم يعلق عليه الحلي والجلاجل وما أشبهها فيُفيق السليم بذلك . وقال الحنفي انما يُعلّق عليه حلي الذهب لا غيره ولا يقربه الفضة وان علق عليه الرصاص هلك .

وقال ابن السكيت قال الصقيل الاعرابي[3] اذا أُسم الانسان عندنا علّقوا[4] عليه سوار بن وطوقاً وماوجدوا من الحلي والنزّهات[5] وتركوه عليه سبعة ايام ينفّرون عنه الحية فاذا بلغ سبعاً رأوا أنه قد أفرق فنزعوه عنه . قال النضر بن شميل : وقلت للصقيل بلغنا انه يعلق عليه لئلا ينام فقال كيف تمنعه الحلي من النوم(؟) أليس انما هي حلي النساء التي يخلين بها ويلعبن بها(؟) انما يسهّد بالجلوس معه . وأنشد الجاحظ لرجل من بني عُذرة في ذلك :

كأني سليم ناله كلُّ حية ترى حوله حلي النساء مرصّعا

(١) في بلوغ الأرب وشرح نهج البلاغة (زعزع) وفي صبح الاعشى ١+٤٠٦ (ودع)

(٢) وروي في بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة هكذا :

فلا والت تلك النفوس ولا أتوا قفولاً الى الاوطان وهي جميع

وبعده وقالوا الا انهق لا تضرك خيبر وذلك من فعل اليهود وُلوع

(٣) في الاصل (اعرابي) . (٤) بالاصل علق .

(٥) في الاصل (الزعات) لعله تحريف . (المجمع) لعله تحريف الودعات .

ويروى مُوضّعا . وقال زيد الخيل :

اثم تكون العقل منه صحيفةً كما عُلّقت فوق السليم الجلاجل

وانشد [١] : وغرّوا كما غرّ السليم الجلاجلُ

وأطباء الهند يعالجون المخمور اذا صار كالمألوس بان يُعلّق عليه حلي الذهب والجوهر الرائع ليفيق من خماره .

وقال ابو صدقة الاعرابيّ : اذا خفنا على الرجل المجنون وولوع الجن فجّسناه بتعليق الأقذار عليه : منها خرقة العارك وعظام الموتى وانفع ذلك ان تعلقه عليه طامث ثم لا يراها . وانشد [٢] :

ولو كان جارتان ورائب وعلق أنجاساً على المنجّس [٣]

وقال ابن كثوة : ان الاجناس تنفّر عنه كلّ الخوالف لبس نافس(؟) العشق فان العشق لا يدفعه ذلك . وقالت المحاربية انفع التنجيس مافعله نجّس او من قد نجُس تارةً .

وقال الحنفي : اذا ظهرت بشفة الغلام بثور اخذ منخلاً على رأسه ومرّ بين البيوت ونادى الحلاً الحلاً الطعام الطعام [٤] و يلقى فيه من ههنا تمرةً ومن ههنا كسرةً وبضعة لحم فاذا اجتمع نثره بين الكلاب فيذهب عنه البثر وذلك البثر يسمى الحلاً فاذا اكل منه صبي اصبح وقد بثرت شفته .

وقال الحنفي : اذا عشي الرجل قطعنا له سناماً وكبداً فألقيناهما في المقلاة وقليناهما جميعاً وأكله الأعشى وكلما اكل لقمة مسح جفنه الأعلى بسبابته وقال

(١) في بلوغ الارب ٢+٣٠٥ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٤٠ جاء صدرهُ
وقد عللوا بالباطل في كل موضع

(٢) في بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة روي للممزّق العبدي هكذا
فلو ان عندي جارتين وراقيا وعلق أنجاساً عليّ المعلق

(٣) في الاصل (المجنس) . (٤) في الاصل (العظام) موضع (الطعام الطعام) اعله تحريف .

يا سنامُ وكَبِدْ ليذهب الهُدَبِدْ (١)

وأنشد ابن السكيت: لبس شفاء الهُدَبِدْ الأ سنامٌ وكَبِدْ

ويسمى العَشاء الهُدَبِد .

وقال الحنفي : اذا طرف الرجل عين صاحبه فهاجت مسح الطارف عين المطروف بسبابته سبع مرات يقول في كل مرة : باحدي جاءت من المدينة . باثنين جاءت من المدينة بثلاث جئن من المدينة . الى سبع فتمسك عينه . قال اللحياني : واما بنو تميم فتقول في هذا يمسح الطارف عين المطروف و يقول: واحدةٌ من سبع . اثنتان من سبع . ثلاث من سبع . اربع من سبع . خمس من سبع . ست من سبع . سبع من سبع .

وقال ابن كلثوم : كان الغلام من العرب اذا سقطت له سنٌّ اخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس اذا طلعت وقذف (٢) سنَّه في عينها وقال ابدليني بشيء أحسنَ منها ولتجر في ظلها أياتك وربما قال أياءك وقال بعض الرّواة كنا في ديوان ابني أمية فدخل علينا الشعبي فتذاكرنا فقال الشعبي مامعنى قول طَرَفة .

بدّلَتْه الشمسُ من منبته بَرَداً أبيضَ مصقولَ الأُشر

قلنا لاندري . فقال كان الغلام من العرب اذا سقطت سنُّه رمى بها في عين الشمس وقال أبدليني بها أحسن منها . وقال المهري ما فعله عربيٌّ قط فخرجت أسنانه عوجاً ولا ثعلاً وأنشد (٣)

سقته أياة الشمس الا لثاته أسِفَّ ولم تكدم عليه باثمِد

وقال ابو دواد الايادي : القى عليه أياة الشمس اوراقا

وقال الخليل بن احمد : الهقعة دائرة تكون بالفرس (٤) فتقول العرب ان صاحب الفرس المهقوع اذا ركبه فعرق الفرس تحته اغتلمت حليلته وطلبت الرجالَ . وقال بعض العرب لصاحب مهقوع

(١) روي في بلوغ الارب ٢+٣٢٨ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٤٣

ليسا سناماً وكبد الا اذهبا الهدبد

(٢) في الاصل (حذف) محرفاً عن (قذف) (؟) (٣) لطرفة راجع معلقته .

(٤) وربما كانت على الكتف في الاكثر وهي مستقبحة عندهم .

اذا صرى المفؤوعُ بالمرء أنعظت . حليلته وازداد حراً عجانُها

فأجابه :

وقد يركب المفؤوع من لست مثله وقد يركب المفؤوع زوجُ حصانِ

وقال ابو محلم : اذا خافت العرب على الصبي نظرةً وخطفةً علقوا عليه سن ثعلب وسن هرّة واشباه ذلك . قال ابو محلم أرادت جنيّةٌ صبيٌّ قوم فلم تقدر عليه فلما رجعت الى صويحباتها قالت لها في ذلك فقالت[1]

كانت عليه نُفَرَهْ ثعالب وهرّره والحيضُ حيضُ السَّمُرَه

قال الحنفي حيض السمُرة شيء يسيل من السمُرة في حرة دم الغزال فاذا يبس كان أسود . فاذا ديف بالماء عاد احمر . مايزال صبياننا حين تلد المرأة يُخَطُّ به وجه الصبي ورأسه و ينقّط به وجه أمه . يسميه نقطة النساء . واسم هذا الخط[2] الديدم . وقال ابن السكّيت انما هو الدودم .

وقال ابوزيد عمر بن شبّة : تقول العرب ان من خرج في سفر فالتفت وراءه لم يتم سفره . فيتطيرون من ذلك خلا العاشق فانه يتفاءل الى ذلك ليرجع الى من خلّف .

وقال الشاعر :

لوى أبنُ ابي الدقّاق عينيه بعدما دنا من اعالي إيلياء فغوّرا

وقال آخر :

عيل صبري بالثعلبية لما طال ليلي ومأتي قرنائي
كلما سارت المطايا بنا ميلاً تنفّستُ والتفتُّ ورائي[3]

قال وانما التفت وراءه لانهم كانوا عشّاقاً فتفاءلوا الالتفات كي يرجعوا الى من خلفوا

قال وكانت العرب توقد خلف المسافر الذي يبغضونه والزائر الذي لا يحبون رجوعه ناراً .

(١) تعتذر اليهن . (٢) في الاصل (الحبط) كذا . (٣) هذان البيتان ذكرهما الظالم في هذا الباب وعندي انه لادلالة فيهما على ما أراد لان التلفت في اشعارهم كثير ومرادهم به الابانة والاعراب عن كثرة الشوق والتأسف على الفراق . قال بعضهم :

دع التلفّت يا مسعود وارم بها
وجه الهواجر تأمن رجعة البلد

فقال ابو محلم : يقولون أبعده الله وأسحقه واوقد ناراً إثره [١]
وانشد :

ورجمة أقوام حملت ولم تكن لتوقد ناراً إثرهم [٢] للتنــدم

وأنشد :

صحوتَ واوقـدت للجهل ناراً وردّ عليك الصّبي [٣] ماا ستعارا

اي ابتغت الصبى [٣] فلما مضى اوقدت ناراً في إثره . وفيه قول آخر : تقول نصبت له حرباً فأوقدت ناراً كما كانت العرب اذا ارادت الحرب اوقدت ناراً لتعلم أصحابها . قال الله عز وجل [٤] كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله . وقال عمرو بن كلثوم [٥]

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينـا

وقال الحنفي : اذا سافرنا اوقدنا النار بيننا وبين المنزل الذي نؤمه ولم اوقدها بيننـا وبين اهلنا فان أخطأ احدنا فأوقدها وراءنا قالوا له لا تجعل بيننا وبين اهلنا ناراً واذا انصرفنا راجعين اوقدناها من ورائنا لا يكون بيننا وبين اهلنا وقود .

وقال المنذر كانت العرب اذا اصاب إبلهم العرّ كووا السليم ليذهب العرّ من السقيم . قال الجاحظ : فأسقموا الصحيح من غير ان يبرؤا السقيم . وقال النابغة :

(١) ومن مذاهبهم كانوا اذا رحل الضيف اوغيره عنهم واحبوا ان لا يعود كسروا من الأواني وراءه وهذا مما يعمله الناس اليوم ايضاً . قال بعضهم

كسرنا القدر بعد ابي سواح فعاد وقِـدرنا ذهبت ضياعا

وقال آخر

ولا نكسر الكيزان في إثر ضيفنا ولكننا نقفيه زاداً ليرجعا

(المجمع) قوله (نقفيه) لم نجده ولعل صوابه (نفقوه) بتقديم الفـاء مقلوب (نقفوه) بتقديم القاف ومعناه نتبعه بالزاد بيدنا غيرنا يتبعه بكسر الكيزان .

وقال آخر اما والله ان بني نفيل لحلالون بالشـرف اليفاع

اناس ليس تكسر خلف ضيف أوانيهم ولا شعب القصاع

(٢) بالاصل (ارثهم) . (٣) في الاصل (الصّبي) كذا مضبوطاً .
(٤) في القرآن الكريم (س ٥ آ ٦٤) . (٥) راجع معلقته .

وحمّلتني ذنب امرئٍ وتركته   كذي العر يكوى غيره وهو راتع

وقال ابو عبيدة كانوا اذا بلغت الابل الفاً فقأوا عين الفحل فان زادت على الف فقأوا العين الأخرى . فذلك المفقأ والمعمّى . وكانوا يقولون ان ذلك يطرد عنها العين والسّواف والغارة . وقال الشاعر في ذلك

فقأت لها عين الفحيل تعيفاً   وفيهن رعلاء المسامع والحام

وقال: اعطيتها[1] ابن عمرو وضيفه   من الجوع مجوع . ومولاه مسلم

وقال آخر يشكر ربه على ما وهب له

وهبتها وانت ذو امتنان   يفقأ فيها اعين البعران

وقال بعض من اسلم من العرب يذكر المعالم في الجاهلية

وكان شكر القوم عند المنن   كيّ الصحيحات وفقأ الاعين

وقال الفرزدق : غلبتك بالمفقئ والمعمّى   وبيت المحتبي والخافقات(؟)

والاحتجاج ببيت الفرزدق سهو من ابن ابي السرح لان الفرزدق اراد بالمفقئ وما شبهه أبيات الشعر والبيت[2]: (غلبتك بالمفقئ والمعنى[3]   وبيت المحتبي والخافقات)

---

(١) في الاصل عينين . (٢) وقد ظن قوم ان بيت الفرزدق من هذا الباب وليس الأمر على ذلك وانما اراد بالمفقئ قوله لجرير

(ولست ولو فقأت عينيك واجداً   أخاً كعقال او اباً مثل دارم)

واراد بالمعنّى قوله لجرير ايضاً

(وانك اذ تسعى لتدرك دارماً   لانت المعنّى ياجرير المكلّف)

واراد بقوله بيت المختبي قوله

(بيت زرارة محتب بفنائه   ومجاشع وابو الفوارس نهشل)

(المجمع) قوله المختبي ومختب بالخاء المعجمة صوابها المحتبي ومحتب بالحاء المهملة .

وبيت الخافقات قوله (ومصعب بالشاج يخفق فوقه   خرق الملوك له خميس جحفل)

(المجمع) قوله (ومصعب) صوابه ومصعب وقوله في المتن (والاحتجاج ببيت الفرزدق الخ) لعلها حاشية أدخلها النساخ في المتن سهواً لان (ابن ابي السرح) هو مؤلف الكتاب .

(٣) بالاصل المعمي .

وقال ابوالمنذر كانت العرب تقول ايما (١) امرأة احبت رجلاً او احبها فلم يشق عليها برقعها ولم تشق هي رداءه فسد حبهما فاذا فعلاه دام حبهما وامرهما . قال عبد بني الحسحاس (٢) في ذلك

فكم قدشققنا من رداء محبّر (٣) ومن برقع عن طفلة غير عانس
اذا شُق ُبردٌ شُقّ بالبرد برقعٌ دواليك حتى كلنا غير لابس

ولنذكر خرز العرب وأحجارها في هذا المعنى .

قال المهري : ان للنساء مهرة احجاراً يجتلبننا بها اليهن ويدفعننا بها عنهن وقال اللحياني قالت العامرية « ان لنا لحجراً يؤخذ به الرجال عن النساء » .

وقال ابو عبيدة : من خرز العرب الهَنِمَة (٤) والفَطْسَة (٥) والدردبيس (٦) والعقلة والعَطْفة (٧) والكَحْلة (٨) والمبرة والقَبَلة (٩) ويقال القُبلة والقليب واليَنْجَلِب (١٠) والصَّرفة والصحبة وكَرار مثل قطام والسّلوانة والهَمْزة ويقال الهَيْزة (١١) .

(١) في الاصل ايتها . (٢) سحيم . (٣) في الاصل (محرّ) .

(٤) تجتلب بهـا الرجال ويعطف بها قلوبهم ورقيتها : اخذته (بالهنمة) بالليل زوج وبالنهار أمة — شرح نهج البلاغة . (٥) بالاصل (الفسطة) كذا . الفطسة خرزة يمرض بها العدو ويقتل . (٦) خرزة سوداء يتحبب بها النساء الى بعولتهن توجد في القبور العادية واصل الدردبيس الداهية ونقل الى هذه لقوة تأثيرها . (٧) في الاصل (العطمة) . (٨) خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم . (٩) القبلة والفطسة والدردبيس كلها لاجتلاب قلوب الرجال . (١٠) في الاصل الجلب .

(١١) ومن خرزاتهم القرزحلة انشد ابن الاعرابي

لا تنفع القرزحلة العجائز اذا قطعن دونها المفاوزا

وهي من خرز الضرائر اذا لبستها المرأة مال اليها بعلها دون ضرتها .

ومنها خرزة العقرة تشدها المرأة على حقويها فتمنع الحبل ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق .

ومنها الخصمة خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت فص الخاتم او في زر القميص او في حمائل السيف قال بعضهم :

وقال ابن حبيب اكثر أحجارهم وخرزهم انما يستعملونها في الحب والبغض وقال اللحياني القبلة حجر ابيض يُجعل في عنق الفرس لئلا تصيبه العين ·

وقال ابوعبيدة : من رُقام في التجلاب[1] أخذته بالتجلب ، فلا يرِم ولا يغيب ، ولا عند الطُّنُب (؟) وقال الهمزة[2] : ياهمزة إهمزيه من استمر بماله وبنيه[3] ·

قال ابوالمنذر من رُقام في كرار : يا كرار كُرِّيه ، ان اقبل فسُرِّيه ، وان ادبر فضُرِّيه[4] ·

قال الحنفي رُقام في الدردبيس ، اخذته بالدردبيس ، تُدِرُّ العِرْقَ اليبيس ، وتذر الجديد كاللبيس ·

وقال أعرابي اخذته بالفطسة ، بالثُّوباء والعطسة ، فلا يزال في تعسة ، من امره ولبسه ، حتى يزور رمسه ·

وقال في الهمزة ، اخذته بالهمزة ، ولفطات الهذره ، ونفث كيد السحره ، ابرزه وتذكره · وانشد ابن الأعرابي

جمعن من قُبُلٍ لهن وفطسة[5] والدردبيس مقابلاً في المنظم
فانقاد[6] كل مشذب سلس القُوى لحبالهن وكل جلدٍ شيظم

وقال آخر

قطعت القيد والخرزات عني لمن ايس[7] من علاج الدردبيس

وقال ابن الأعرابي السُّلوان خرزة يسقى عليها العاشقُ الماءَ فيسلو وانشد

شربت على سلوانة ماءَ مزنةٍ فلا وجديد العيش يا ميّ ماسلوا

بعلق غيري خصمة في لقائهم ومالي عليكم خصمة غير منطق

ومنها الوجيهة وهي كالخصمة حمراء كالعقيق · (١) في الاصل (التجلب) ·

(٢) (المجمع) لعل صوابه : وقالوا في الهمزة : الخ · (٣) روي في شرح نهج البلاغة ياهمزة اهمزيه ، من إسته الى فيه ، وماله وبنيه · (٤) وزاد عليه ابن ابي الحديد ، من فرجه الى فيه · (٥) في الاصل فسطه · (٦) بالاصل (فالفار) محرفاً عن (فانقاد) ·

(٧) في الاصل (لمن) محرفاً عن (ائس) ·

وقال آخر

نخاض(١) شراباً بارداً في زجاجة وقرّب مني سلوةً وأوى ليــا

وهذه رُقام المجردة من ذكر الخرز .

قال اللحيــاني من رُقى العرب أرقيك من عَرَقٍ عائر ، او نظرة ناظر ، وحفيف طائر ، بنجم طالع ، وبرق لامع ، ودبك سافع .

قال ومن رُقام للعيون . من عانك عينه رحيق ، فيها ثوب سحيق ، ودمه دقيق ، ولحمه مشيق .

وقال ابوالمنذر من رُقام ان تُؤخذ قَرعةٌ ، تملأ ماءً وفي اسفلهــا ثقبٌ بالابرة ويسيل منه كالدمعة ويعلّق . ورقيته : اخذْتُه بدباء ، مملوّ من الماء ، معلق بين سماء ، فلا يزال يمشي ، وعينه تبكي .

وقال الحنفي من رُقام في الحب ، هوى به وهوي به ، البرق والسحابه ، فلان ابن فلانه ، فسقط الهُقابه . جلبته بمركن ، لحبه تمكن ، جلبتــه بابره ، فلم ينم من عبره ، جلبته باوشق ، فقلبه لايشفى ، جلبته بمسرد ، فقلبه لايبرد .

قال ابن المنذر من رُقام اذا سافر من يبغضونه ونفعله الفارك(٢) اذا سافر بعلها بافول(٣) القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودبور تدبره ، ونكباء تنكبه ، شيك فلاانتقش ثم ترمي إثره بحصاةٍ ونواة وروثة وبعرة وتقول حصاةٌ حصت(٤) إثره ، نواةٌ نأت داره روثةٌ ليرث خبره ، لفمته(٥) ببعره .

وقال ابن البرقي من رُقام في العطف . الريح والبروق ، في الصباح والطروق ، فلانٌ اذا اقبل فنهــار آيس ، وان أدبر فشوكُ طلحٍ يابس ، وجبل حابس ، وليل دامس .

فأما فعلهم أبقاك الله في عضّة الكلب الكلِب فقد ذكرناه في كتابنا في اخبار الكلب الكلِب وذكرنا في ذلك قول اطبــاء الهند والروم وأقوال سائر الامم . واما القول في

(١) (المجمع) قوله نخاض شراباً اي خلطه . (٢) بالاصل (الفاركة) .
(٣) بالاصل (بافول) كذا . (٤) في الاصل (حص) . (٥) بالاصل (لقمه) .

العيافة والقيافة والزجر والفـأل والخيلات وأسرار الكف والخط والطرق وقرض الفأرة وتلظي النار وضرب الشعير والجزر على طنين الفرس فليس من هذا المعنى فنذكره. واما الارعتيان فقد ذكرنا مائتيه (؟) . وقول العرب والفلاسفة والهند والفرس والاطباء والمنجمين فيه . وحكايات سائر الامم في كتابنا الموسوم بكتاب الارعتيان وهو هناك مستقصى .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين . حمد الشاكرين . وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين . وهذا الكتاب ألفه ابن ابي السرح في سنة اربع وسبعين ومائتين[1]

---

(١) وكتبه صدقة بن الحنين في ربيع الآخر من سنة خمس وعشرين وخمسمائة كذا ذكر في آخر نسخة اصلنا في مكتبة راغب باشا بالاستانة .

ابن زيدون

- ٣ -

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لاتقل هذه الرسالة عن سابقتها في محاسنها حتى ليمكن ان نثبت كل ما ذكرناه من محاسن تلك في هذه ·

ولم يتعرض شارحها ابن نباتة لشيء من معايبها كما فعل الصفدي في شرح الجدية غير انها لاتخلو من بعض وجوه النقد ·

فما يؤخذ عليه فيها :

١ — سرد فقارها على أسلوب واحد في كل فصل من فصولها فيقول مثلاً :

ان فلان المشهور انما فعل فعله العظيم بسببك ومن اجلك بحيث لا يتعلم منها الناشي المتأدب تنويع أساليب ·

٢ — ومنها الاسفاف في العبارة حتى تكون أشبه بعبارة الفقهاء ومؤلفي القواعد منها بعبارة الادباء في الترسل · وماحمله على ذلك التعسف الا قصد إدماج قصة في فقرة او سجعة مثل قوله (وان احتيال هرم الخ) ·

٣ — ومنها إعادة ذكر الرجال المضروب بهم المثل ·

٤ — ومنها خلطه علماء فن بعلماء فن آخر من غير ضرورة ·

٥ — ومنها المعاجزة في امور واقعة من كثيرين بحيث لا يمكن تعيين واحد منهم للمعاجزة به كقوله « وانك الذي ··· ناظر في الجوهر والعرض الى آخر هذا الفصل — وكلامه فيه كله تهافت ولغو خرج به عن الغاية التي قصد اليها وهي المعاجزة برجال مشهورين · وهذا الفصل اضعف فصوله في الرسالة ·

٦ — وقوله « ورجع بين مذهبي ماني وغيلان » — ولا موازنة بين المذهبين لان الاول ثنوي مجوسي والثاني قدري يتأول في الاسلام ٠

٧ — سرد الأمثال بدون ربط والجمع بينها لادنى ملابسة كقوله « فكدمت في غير مكدم الخ » ٠

٨ — سوء تعبيره في قوله « ونخرت و بسرت وعبست فكفرت » على لسان اديبة متظرفة مع فظاعة كلمة « نخرت» و بشاعة لفظ « كفرت» ٠

٩ — الهذاء فيها بذكر العورات والفحش وبما لا يليق ان يصدر عن وزير الى وزير او عن عذراء اديبة الى وزير كبير ٠

هذا الى هفوات أخرى اعرضنا عن ذكرها خوف الاطالة ٠

اسلوب الرسالتين اتباع لا ابتداع

يظن كثير من متأدبي زماننا ومن قبلهم ان أسلوب ابن زيدون في الرسالتين السالفتين غير مسبوق اليه وهو غير صحيح في جملته ٠ ونعم اننا لم نقف على رسالة مطولة كلها مضرب امثال برجال او اقوال اومشهور افعال ولكننا نجد فصولاً كثيرة من رسائل المتقدمين صبت على هذا القالب من الكلام ٠ والظاهر ان الاصل في هذه الغاية رسالة التربيع والتدوير التي وضعها الجاحظ في صفة احمد بن عبد الوهاب والتهكم به ثم نسج على منواله كثيرون في فصول من رسائلهم ٠ ومنهم ابوبكر الخوارزمي وابو حيان التوحيدي والبديع فان ابن زيدون اقتفى جانبهم في المماجزة والموازنة بمشهوري الرجال في رسالتيه وبخاصة الهزلية ، فاما حله لمشهور الشعر ، واقتباسه من مأثور النثر ، فهي طريقة اهل زمانه في المغرب والمشرق : طريقة ابن العميد وحلبته التي انتقلت الى الاندلس ، واولع اهله بها ، غير انه كان يخالفها في عدم التزام السجع ، وفي الاستكثار من الامثال وحوادث التاريخ في رسالتيه ، وان كان في الهزلية اسجع ٠

وهاك أمثلة من فصول من ذكرنا من المتقدمين في رسائلهم :

فمن رسالة الجاحظ الآنفة فصل يماجز به احمد بن عبد الوهاب و يتهكم به بمقايسته برجال اعلام قال :

« وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول ابا جعفر وتحاشنه ، وتنافره وتراهنه ، ثم لا تفعل ذلك الا في المحافل العظام ، وبحضرة كبار الحكام ، ثم تستغرب ضحكاً من طمعه فيك ، وتعجب الناس من مجاراته لك ، واشهد انك تحاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتماثله ، ثم تظاهره وتطاوله ، وتفي مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظّام ، وتستبرد الأصمعي ، وتستغبي قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتبارز ابا الحسن علي بن ابي طالب رضي الله عنه » .

وفصل منها ايضاً يصفه بقدم العمر قال :

« فيا عقيد الفلك كيف امسيت ، ويا قوة الهيولى كيف اصبحت ، ويا نسر لقمان كيف ظهرت ، ويا اقدم من دوس ، ويا اسن من لبد ...

حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذ كم مات عوج ، ومتى تبلبلت الالسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم في السفينة الخ الخ » .

ومن فصل له فيها :

« وكيف وقد اصبحت وما على ظهرها خود الا وهي تعبر باسمك ، ولا قينة الا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة الا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة الا وهي تنقب الخروق لمرك ، ولا عجوز الا وهي تدعو لك ، ولا غيور الا وقد شقي بك ... ولو ادركت ابن الخطاب لصنع بك اعظم ما صنع بنصر بن حجاج ، ولركبك باعظم ما ركب به جعدة السلمي ، بل لدعاه الشغل بك الى ترك التشاغل بهما ، والغيظ عليك الى الرحمة لهما الخ » .

ومن فصول ابي بكر الخوارزمي « ووفاته سابقة لوفاة ابن زيدون بنحو ثمانين سنة » .

فصل يستعجز نفسه عن امكان عتاب صديق له قال :

« واني لآخذ القلم لا كتب به عتابك فيتشظى عليّ ، ويسقط من يدي ، وكيف تساعدني بناني ، على ما يخالفني فيه جناني ، وكيف يطيعني بعضي فيما يعصيني فيه كلي ، ولو كنت احمد بن يوسف في البلاغة ، وعبد الحميد في اتساع الكتابة ، وجعفر بن يحيى في الاختصار ، واباالربيع في التوسع والاكثار ، وابا العيناء في المعارضة ، واباالعتاهية في البديهة ، وابن المعتز في التشبيهات ، وابانواس في الخمريات والطرديات ، والعتابي في المعاتبات ، والنابغة في الاعتذارات ، وصريع الغواني في الاستعارات ، والفرزدق في

الغَريات ، وجريراً في المهاجاة . وغلبت في الخطابة صعصعة بن صوحان ، وقمت في الفصاحة خالد بن صفوان ، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلاً ، وأتيت بعجوز آل رقبة مبتدعاً ، وبعذراء آل خارجة مقتضبا ، وضرب بي المثل في المقامات لا بسحبان وائل ، وبوحي به في العي عندي لا بباقل ، وحفظت حفظ الشعبي ، وحاضرت محاضرة ابن القريّة النمري ، وابدعت إبداع ابي تمام الطائي ، ووعظت عظة الحسن البصري ، وجادلت جدل النظّام في الكلام ، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل ، واربيت على اياس ابن معاوية في الذهن والعقل ، وبهرجت الاصمعي رواية ، وزيفت اباعبيدة حفظاً ودراية وعلمت امير المؤمنين عليه السلام الحلال والحرام ، ولقنت شريحاً القضاء والاحكام ، وصرت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم ، ووفقت توفيق سليمان في الحكم ، واخذ عني بطليموس علم الهيئة ، وارسطاطاليس علم الفلسفة ، وبلنياس باب الطلسم والحيلة ، وقرأ على سيبويه نحو البصريين ، والفراء نحو الكوفيين ، واختلفت الى الهند في تعليم الحساب ، ودرس عليّ ابو عثمان المازني علم التصريف والاعراب ، واقتبس مني الخليل عروض الشعر ، وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر ، وضرب على قالب خطي خط ابن مقلة ، ، توارث الكتابة اهل بيتي كما توارثها بنو ثوابة ، وأمليت على ابن الكلبي شجرة النسب ، وعلى ابي عمرو بن العلاء ايام العرب ، وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، وكنت الذي عنده علم من الكتاب ، وعددت في الراسخين في العلم عدا . وقال لي موسى هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشداً ، ثم حملت بعد هذا كله على ان يمضي بي في عتاب الاخوان لساني . او يجري فيه بناني . لقصر عن ذلك عناني . ولارتبك فيه عقلي وبياني . ولعييت والحق معي وانقطعت والحجة لي الخ . وللبديع في ريم الخوارزمي فصل يشبه هذا .

ولابي حيان التوحيدي « وهو من اهل عصر الخوارزمي والبديع » فصل من كتابه في ثلب الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد ينكر فيه على ابن عباد تكلفيه نسخ أجزاء مطولة من رسائله فاعتذر وقال له ان في امكانه ان يجمع ضررها لحقدها عليه الصاحب وتنكر له — وهذا الفصل حاكاه ابن زيدون في الجدية . قال ابوحيان :

« فقال (اي ابن عباد) : طعن في رسائلي وعابها ، ورغب عن نسخها وازرى بها ، والله لينكرن مني ماعرف ، وليعرفن حظه اذا انصرف — حتى كأني طعنت في القرآن ،

او رميت ... بخرق الحبض ، او عقرت ناقة صالح ، او ... في بئر زمزم ، او قلت كان النظّام مأبونا ، او مات ابوهاشم في بيت خمار ، او كان عباد معلم صبيان ، وما ذنبي باللوم اذا لم استطع ان أنسخ ثلاثين مجلدة الخ الخ .

ولا يظنن القارئ لهذا الكلام انه مزري بابن زيدون ! فقليل من الناس من ينظر الجيد فيحكيه ، ويستمع القول فيتبع أحسن ما فيه ، ولو كانت العبرة ممكنة لكل احد لقل الجهل ، وارتفع الخطل من القول . ولو لا ان يفيد الآخر علماً من الاول ، ويولد المحدث معنى من المخضرم ، لقد بطلت الصناعات ، وماشهدنا هذه الحضارة الباهرة .

* * *

تأثير الرسالتين في الادب والمتأدبين

لم يخل عصر من العصور التي تلت عصر ابن زيدون حتى عصرنا هذا من حفظة كثيرين لهاتين الرسالتين لاشتمالها على كثير من مادة الكاتب الاديب ، فوق جزالة لفظها وحصافة عبارتها ، فهما معدودتان من اقرب الذرائع التي يتخرج بها المتأدب والكاتب ، ولا أدل على ماقلنا من عناية أعلام الادباء بشرحها ومعارضتها واحتذاء حذوهما .

فمن الشراح صلاح الدين الصفدي شرح الرسالة الجدية أبدع شرح ، لم يقتصر فيه على حل المعنى وشرح الغريب وسوق الملح المناسبة للمقام ، وتراجم الاعيان الذين اشارت اليهم الرسالة حتى تعدى ذلك الى النقد الطريف . وذكر بعض ما عورضت به من الرسائل . وقد اقتبس شرحه من هذا الشرح الشيخ حمزة فتح الله في المواهب . ومنهم الشاعر الكاتب ابن نباتة المصري شرح الرسالة الهزلية بما لا يقل كثيراً عن شرح الصفدي للجدية وطبع الشرح الاول ببغداد والثاني مراراً بالقاهرة .

وممن عارض الجدية مضاهياً بعض فصول الهزلية شيخ الانشاء بالديار المصرية ويعسوب الحلبة الفاضلية محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر عارضها برسالة أطول منها كتب بها الى الامير ناصرالدين بن شاور الكناني المعروف بابن النقيب سنة ٦٥٣ في معنى شخص تنقصه عنده بسبب التواضع وهو ينسب الى رفض قال في مفتتحها .

« بلغني أعزك الله ، ولا برحت رحيب فناء الفخر ، قشيب ملبس العمر ، يانع ثمرة

الشكر ، مفعم حياض البر ، ان فلاناً غض مني كل غض الجنى ، وانه عبث بي عبث الايام بالمنى ... الى ان قال :

« والذي أقول له مخاطباً ، واوحيه اليه مجاوباً ، انـ كان استرسالك أيها العابث عبثاً فما كل الافاعي تعبث بها الانامل ، ولا كل المراعي ينصب بهـا الحبائل ، ولا كل زخار يخاض ، ولا كل جنـاح يهاض ، ولا كل جامح يراض ، ولا كل سابغة تفـاض الى ان قال :

« وعندي اني لاامتثل ان آكل اللحمة لك ولا بعد ثلاث ، ويعجبني ان تحفر لي بئراً تقع فيهـا ولا يعجبني ان أقع فيك ، متى كانت الاسود مثل الثعالب ، وأعود الى محاققة فتعود الى اظهار اللبس ، فأقول : هل انت يافلان الاشخوص بزور ، وآيس من الخير كما يئس الكفار من أصحـاب القبور . وآمن من العواقب ولله عاقبة الامور . وما مبالاتي بك الامبالاة الديك بالبط ، والشمعة بالقط ، ورماح الخط بالقلام الخط ... ومامبالاتي الا مبالاة آدم بعدم سجود ابليس ، ولا تضرري منه الا تضرر الصرح الممرد بوطء بلقيس أم هل أبالي بك الا مبالاة البازي بالحمام ، والليث بالتفاف الخيس . ومتى كانت همدان تفخر على كليب ، او تحذر منها الكيد . ام متى خاف الاسد من ابي ز يد ... » ولم يزل يعارض فصلاً منها بفصل حتى اتى على القصيدة الميمية المختتمة بها رسالة ابن ز يدون فعارضها بمثلها في الروي والبحر والاسلوب قال في ابتدائها :

العلا في ارتشاف در العلوم   والحلى في التشاح در الحلوم
والتناهي في فعل كل حميد   والتباهي بكل خل حميم

وممن حاكى ابن ز يدون في رسالتيه الصلاح الصفدي في ترجمته امام النحاة في عصره ابا حيان الاندلسي الجياني في كتاب أعيان العصر وأعوان النصر قال بعد ثناء كثير :

« فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضاً غير محبب ، اوعيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو محدب ، اوالخليل لكان بعينه قذاة ، اوسيبويه لماتردى من مسألته الزنبورية برداء ، اوالكسائي لاعراه حلة جاهه عندالرشيد وأناسه ، اوالفراء لفر منه ولم يقتسم ولدا المأمون القديم مداسه ، اواليزيدي لماظهر نقصه من مكامنه ، اوالاخفش لاخفى جملة من محاسنه ، او ابوعبيدة لما ترك ينصب لشعب الشعوبية ، او ابو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق

بعربية ، اوالسكري لما راق كلامه في المعاني ولاحلا ، اوالمازني لما زانه قوله ، ان مصـابكم رجلا ، او قطرب لما دب في العربية ولادرج ، اوثعلب لاستكن بكره في وكره ولماخرج الخ » . وجرى على هذا النحو حتى اكمل الترجمة .

الى هنـا قد عرفت خاصة كتابته في الرسالتين ومن اي معين استساغ نهلها ، واستطاب عللها ، وكتابته في غيرهما لا تخرج عن هذه الخاصة في الجملة من حيث عدم التزام السجع والتمثل بالامثال ، ولكنها أقرب الى الطبع وابعد من التكلف .

وهاك نموذجاً منها :

كتب الى بعض اصحـابه وهو الاديب ابو بكر بن مسلم لما اختفى بقرطبة بعد فراره رسالة يعتذر فيها عن فراره فمنها .

أبدأ اولاً بشرح الضرورة الحافزة الى ماصنعت اذ بلغني انك احد اللائمين لي ، ومن أمثالهم « هان على الاملس مالاقى الدبر » وأعاتبك على انفصالك عني و براءتك امد المحنة مني ، عسى ان تتلافى عوداً ماأضعت بدءاً ، وان كنت في ذلك « كدابغة وقد حلم الاديم » فنفعة الغوث قبل العطب ، وفي علمك اني سجنت مغالبة بالهوى وهو اخو العمى . وقد نهى عنه تعالى فقال تعالى « ولا تتبع الهوى الآية » وشهد عليّ فلان الناشر لأذنيه طمعاً ، ليأكل بيده جشماً ، وقال فكان القول ماقالت حذام ، وليتني مع قبول مالاتحل شهادته عليّ ، يعذر فيـه اليّ ، ولم يقرن الحشف بسوء الكيلة وكنت اول حبسي بموضع جرت العادة بوضع مستوري الناس وذوي الهيآت منهم فيه ، وفي الشر خيار ، وبعضه أهون من بعض ، ثم نقلت بعد حيث الجناة المفسدون ، واللصوص المقيدون ، ومنع مني عوّادي ، فشكوت الى الحاكم الحابس لي فصم عني ، ولو ذات سوار لطمتني .

وانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

ولم أستطع صبراً ، وعلمت ان العاجز من لايستبد ، فالمرء يعجز لا محالة ولم أستقر ان اكون ثالث الأذلين العير والوتد ، وذكرت ان الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق ، من تشريع المرسلين . وقد قال تعالى على لسان موسى عليه السلام « ففررت منكم لما خفتكم » انظرت في مفارقة الوطن اذ قديماً ضاع الفاضل في وطنه ، وكسد العَلَق[1] العبيط في معدنه .

(١) كذا في الاصل ولعله العِلْق النفيس في معدنه .

كما قال :

أضيع في معشري وكم بلد يعود عود الكباء من حطبه

فاستخرت الله في انفاذ العزم · وانا الآن بحيث أمنت بعض الامن الا ان السعي لم يرتفع · ومادة البغي لم تنقطع ·

وفي صدد هذه الرسالة يقول ايضاً :

ولقد كان من محاسن الشيم ، وشروط المروءة والكرم ، ان يهب لي ماالكر لماعرف، ويغفر ماسخط لمارضي ، ويدفع بالتي هي أحسن ، ويؤثر الذي هو أجمل وأرفق، و يتوقف عندما نص له من سعاية ، وزف اليه من وشاية ، فان كان باطلاً ألغاه ، وفضح عنبر المتقرب به وأقصاه ، وان كان حقاً صبر صبر الحليم ، وأغضى اغضاء الكريم ، وقبل انابة المعتب ، والقصد في مؤاخذة المذنب ، فقدم التوقيف ، قبل التثقيف ، والتأنيب قبل التأديب ، فان الرفق بالجاني عتاب ، والحر يلحي والعصا للعبد ·

ومنها : وقد هجرت الارض التي هي ظئري ، والدار التي كانت مهادي ، وغبت عن أم انا واحدها ، تمد أنفاسها شوقاً الي ، وتنفض أجفانها حزناً علي ، والله يرى بكاءها ، ويسمع لي على من كافي نداءها ، فالاستجابة مضمونة للخلص وللمظلوم ، ودعوات السحرين ، واستوجبت الصفتين ، واتكن بغيتك التي تدخرها عليها كلة تأمين ، واشارة الى تأنيس وتذكير ، تراجعني بهما . فأظهر بحيث انا آمنا ، وألقي العصا مطمئنا ، فان وجدت محزاً لشفرة ، فالعوان لا تعلم الخمرة ، وان اشبهت الليلة البارحة أعلمني بذلك فطلبت الأمن في مظانه وتقريت السلامة في مواطنها ، وصبرت حتى يحكم الله لي وهو خيرالحاكمين ·

شعره

منزلته في الشعر — ان أدباء الاندلس وان غلب عليهم قرض الشعر لم يبلغوا فيه غاية فحول المشرق ، وان نوابغهم يجيئون دائماً مصلين لامجلين ، اذا علمت هذا فهمت ان قول من يقول من أدبائهم ومؤرخيهم بان ابن زيدون ليس معناه انه يراجع البحتري في ميزان البراعة ، الا اذا انقلب التشبيه فكان المشبه أقوى في وجه الشبه من المشبه به ، وانما يعد بالاضافة الى شعراء الاندلس في طوالع الرعيل الاول ، وانه يجري على طلقه

في الفعال الصقيل من اللفظ ، والمنسجم من الاسلوب ، وفي ترقيق الغزل ، وبث حديث النفس وشكوى الغرام ، لا في كثير من فنون الشعر التي أبدع فيها البحتري اي ابداع كالوصف والمديح ، فكان أشبه به من غيره من الاندلسيين ، وكان بذلك بينهم سباق غايات وطلاع النجد .

اما نحن فمع حسن تقديرنا لمقال أدبائهم فيه وبعد قراءتنا ديوانه المحفوظ في دار الكتب المصرية بالقاهرة نجعله في درجة ابن عبد ربه وابن دراج وابن عمار وابن خفاجة اي في الطبقة التي تلي طبقة ابن هانئ الاندلسي ، واذا قلنا ذلك فقد قلنا انه من شعراء الطبقة الاولى الاندلسيين اذ كان ابن هانئ في منزلته مقطوع القرين .

ونبوء ابن زيدون هذه المكانة في الشعر لا يستوجب له نظيرها في النثر ، فان امتلاك ناصية الصناعتين غاية لا تدرك .

من أجل ذلك لم يعرفه الاندلسيون كاتباً بقدر ما عرفوه شاعراً فلم يخض مترجموه منهم في نثره كالذي خاضوا في شعره ، وانما الذي جعل شهرته بالنثر عند المشارقة تنسخ شهرته بالشعر عند المغاربة ، انه راقهم منه سعة اطلاعه وقوة استحضاره لمأثور الكلام والاستشهاد به ، لا قوة بلاغة نثره في ذاتها ، فان احد المعجبين به من شارحي رسائله وهو ابن نباتة المصري يقول في ترجمته له : « ونظمه أمكن عند النقاد وأجود من نثره » الى ان قال : « فأما نثره فانه اكثر فيه من استعمال أمثال العرب وحل اشعار المتقدمين والمتأخرين الى ان قيل ان رسائله أشبه بالمنظوم من المنثور وعلى ذلك فقد دل بهـا على اطلاع معجب واستحضـار معجز » واطلاعه هذا واستحضاره هما اللذان خولاه وضع رسالتيه الجدية والهزلية بصورة تجعل كلتاهما وفضة أدب وجعبة أخبار ، لتجعل التحصيل من نشإ المتأدبين ، فاستظهروهما فيما يستظهرون ولولاهما مااعتبره المشارقة الا في عداد الشعراء لا الكتاب .

صفة شعره — كل غرض من اغراض الشعر وفنونه لم يضرب فيه ابن زيدون بسهم . ولكن المتفق عليه عند اهل الادب ونقاد الشعر ان أجود شعره ما قاله في الغزل وشكوى الفراق . لقد سارت له في هذا الباب قصائد ومقطعات استعذبهـا المغاربة

والمشارقة فحفظوها وتغنوا بها . فمنها قطعة يقولها في وداع ولادة بعد انصرافها من زيارة قال :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت اشكو قصر الليل معك

وهذه الابيات عكس نسبتها المقري صاحب نفح الطيب فجعلها لولادة في ابن زيدون فقال في اثناء ذكره أخبار ولادة « وكتبت اليه لما أولع بها بعد طول تمنع .

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل اكتم للسر
وبي منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

ووفت بما وعدت . ولما أرادت الانصراف ، ودعته بهذه الابيات . ودع الصبر الخ »
والعجب انه وافق كل من روى قصة هذه الزيارة من ان الزائرة ولادة والمزور ابن زيدون بدليل قوله « ولما أراد : الانصراف » ولم يفطن لما رواه في القطعة .

يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطا اذ شيعك

فان الذي يشيع هذا المزور المقصود لا الزائر المنصرف .

وان سلمنا جدلاً صحة روايته – وهو لم يذكر مصدرها – اضطررنا لتأويل أن الزيارة لم تكن في دار احدهما بل كانت في فضاء بعيد عن منازلها بحيث يتأتى ان تساير ولادة ابن زيدون الى ناحية داره بما يحتمل ان يسمى تشييعاً ولكن كان على رواة القصة ان يسموها تلاقياً على موعد . على انه يأبى هذا الفرض ان الزيارة كانت ليلاً فكيف تشيع فتاة عذراء من بنات الملوك بعد دل وامتناع في آخر الليل وفي ضاحية من المدينة رجلاً محبًا لم تزره الا بعد ان أعياه الجهد في استزارتها ؟ ولئن كان ما فرض واقعًا كان ابن زيدون أنذل عاشق عملنا .

ولعل الذي صدق على المقري ظنه ورود ذكر المقولة فيه الابيات بلفظ المذكر غير ان المقري وهو المطلع العظيم قرأ لابن زيدون شعراً كثيراً كني فيه عن ولادة احياناً

بلفظ المذكر الواحد والجماعة تعمية للوشاة والرقباء كما صرح بذلك مراراً في شعره .
ومن غزلياته قوله :

يا قمراً مطلعه المغرب قد ضاق بي في حبك المذهب
الزمتني الذنب الذي جئته صدقت فاصفح أيها المذنب
وان من أغرب ما مر بي ان عذابي فيك مستعذب

وقوله وهو من أرق ما سمع في هذا الباب :

يا نازحاً وضمير القلب مثواه أنستك دنياك عبداً انت دنياه
الهتك عنه فكاهات تلذ بها فليس يجري ببال منك ذكراه
عل الليالي تبقيني الى أمل الدهر يعلم والايام معناه

وقوله في ذكرى ولادة والشوق اليها وتضمن وصفاً بديعاً :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنما رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق وسنان نبه منه الصبح احداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقا
لو كان وفى المنى في جمعنا بكم لكان من أكرم الايام اخلاقا
لا سكن الله قلباً عند ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وافاكم بفتى اضناه مالاقى
كان التجازي بمحض الود مذ زمن ميدان انس جرينا فيه اطلاقا
فالآن احمد ما كنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا

ومن أشهر غزلياته وأسيرها شرقاً وغرباً قصيدته النونية التي تعتبر مثالاً جميلاً للشعر الاندلسي وقل أديب لم يحفظها او شيئاً منها . وهي مذكورة في كثير من كتب الأدب ومجموعات الشعر . قال ابن نباتة فيها « وقد تداولتها الألسن وزيدفيها ما كانت غنية عنه » . وأولها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانس دانية قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لارواحنا الا رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
ان الزمان الذي مازال يضحكنا أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ان طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت اهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حياً كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ورداً جلاه الصبى غضاً ونسرينا
لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

وهي طويلة ختمها بقوله :

عليك مني سلام الله ما بقيت صبابة منك نخفيها فتخفينا

قال الصفدي في صدد ذكر هذه القصيدة « وعارض بها البحتري في قوله :

يكاد عاذلنا في الحب يغرينا فما لجاجك في عذل المحبينا
نلحى على الوجد من ظلم فديدننا وجد نعانيه او لاح يعنينا »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من متأخري المشارقة في غرضها وفي غير غرضها وبلغ ولع صفي الدين الحلي بها ان خمّسها كلها . وأغرب ما في هذا التخميس ان صرفها به من الغزل الى الرثاء فرثى به السلطان الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة وقد حضر موته سنة ٧٣٢ وهاك تسميط البيتين الاولين فيها :

كان الزمان بلقيا كم يمنينا وحادث الدهر بالتفريق يثنينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
خلنا الزمان بلقيا كم يسامحنا اكي تزان بذكرا كم مدائحنا
فعندما صحت فيكم قرائحنا بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

ومما قاله في الشكوى صدر قصيدة بعث بها في رسالة الى ابي حفص بن برد من سجنه .

ما على ظني باس يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك أغفا ل ويؤذيك احتراس
ولكم أجدى قعود ولكم اكدى التماس
وكذا الحكم اذا ما عز ناس ذل ناس
وبنو الايام أخيا ف سراة وخساس
نلبس الدنيا ولكن متعة ذاك اللباس

وله مدح بليغ في آل جهور وآل عباد ولكنه في آل عباد أبلغ لمكان السن والتجربة فليراجع في ديوانه .

فأنت ترى مما أوردناه عليك من شعره ان معانيه مسبوقة بحيث يصعب على الباحث

أن يرى فيها اختراعاً ولكنه كساها ثوباً أنيقاً من اللفظ الرشيق وخاصة الغزل والشكوى والعتاب . ولقد نجد في مدحه ورثاه مسحة من الفخامة والجزالة يقارب بها ابن هانئ الاندلسي بقتضيهما المقام .

وقد كنا عزمنا على ان نسهب القول في نقد بعض شعره وبيان بعض محاسنه والموازنة بينه وبين غيره الا اننا الى هنا مللنا التطويل . وظننا ان نلم بذلك في فرصة أخرى .

على اننا معشر المشارقة انما نترجم له كاتباً لا شاعراً لمكان رسالتيه عند أدبائنا وعنايتهم بشرحها .

(القاهرة) : احمد الاسكندري

مذهب الجاحظ (1)

في التفسير والتأويل

—«×»—

تبين لنا ان الجاحظ يعتمد في تحقيق العلم على العقل وقد وضحنا مذاهبه في هذا الباب ولم يقتصر في إعماله العقل على العلم او على الفلسفة وانما أعمل هذا العقل في الدين وخاصة في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث وشأننا في مجلسنا هذا ان ننتخب نماذج من تفسيره وتأويله ظهرت عليها آثار العقل ، وغايتنا في انتخابنا تبيين الصفة الغالبة من صفات الجاحظ وهي صفة المفكر ، فلسنا نرمي الى التخطئة والتصويب في هذه السبيل فلكل رأيه في التفسير والتأويل ومالنا في هذا الرأي الا الحيدة التامة .

قد كنت ذكرت لكم في كلامي على ثقافة الجاحظ ، وعلى أساتيذه قول النظّام في المفسرين : لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا انفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة الى آخر هذا القول ، وبيّنت لكم ان الجاحظ يشارك النظّام في هذا الرأي فمن قول الجاحظ في هذا الباب (2) :

« وليس يؤتى القوم الا من الطمع ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل » .

فمذهب الجاحظ في التفسير والتأويل اجتناب الغريب منهما ، فقد تمرّ به احاديث يحتج بها طائفة من القوم فيردها دون شيء من التصديق ، وقد يختلف هذا الردّ ، فمرةً

(1) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(2) كتاب الحيوان الجزء الاول ص ١٦٩ .

يردّها رداً مجرداً دون الافاضة في بيان العلة ، من هذا الشكل قوله [1] :

« هشام بن عروة قال : أخبرني أبي ان عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت تقتل الأوزاغ . —

يحيى بن ابي انيسة عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ : فويسق ، قالت : ولم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم امر بقتله . —

عبد الرحمن بن زياد قال : وأخبرني هشام عن عروة عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ : الفويسق . —

ابوبكر الهذلي عن معاذ عن عائشة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وفي يدي عكاز فيه زُجّ فقال : ياعائشة ماتصنعين بهذا ؟ قلت : أقتل به الوزغ في بيتي . قال : ان تفعلي فان الدواب كلها حين القي ابراهيم صلى الله عليه في النار كانت تطفئ عنه ، وان هذا كان ينفخ عليه فصمّ وبَرص . —

وهذه الاحاديث كلها يحتج بها اصحاب الجهالات ومن زعم ان الاشياء كانت كلها ناطقة وانها أمم مجراها مجرى الناس » .

ومرةً يردها لان رُواتها يروونها دون توضيح شيء من عللها وبرهاناتها مقتصرين ابها على ظاهر الفاظها ، فالجاحظ لايصدّقها . فلنضرب مثلاً لذلك [2] :

بحث الجاحظ عن الكلام المتروك والأسماء التي زالت مع زوال معانيها كالغلامة بمعنى الجارية وكالمرباع والنشيطة وعن الاسماء التي حدثت في الاسلام ولم تكن في الجاهلية وانما اشتقت من اسماء متقدمة على التشبيه مثل قولهم لمن ادرك الجاهلية والاسلام : مخضرم ، ومثل قولهم : المنافق والمشرك والكافر والتيمم :

وبحث عن بعض كلام كرهوه كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : لايقولن احدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست نفسي ، كأنه كره ان يضيف المؤمن الطاهر الى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه .

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع ص ٩٦ .
(٢) « « « الاول ص ٦٦ .

وبعد أن أفاض بعض الافاضة في أشباه هذه المباحث قال :

« وقد كرهوا أشياء مما جاءت في الروايات لا نعرف وجوهها ، فرأى اصحابنا لا يكرهونها ولا نستطيع الردّ عليهم ، ولم نسمع لهم في ذلك اكثر من الكراهة ، ولو كانوا يروون الامور مع عللها وبرهاناتها خفّت المؤنة ولكن اكثر الروايات مجرّدة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الاخبار عن البرهان وان كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة ، قال ابن مسعود وابوهريرة لا تسموا العنب الكرم ، فان الكرم هو الرجل المسلم ، وقد رفعوا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم ، واما قوله لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله ، فما أحسن ما فسّر ذلك عبدالرحمن بن مهدي قال وجه هذا عندنا ان القوم قالوا وما يهلكنا الا الدهر ، فلما قال القوم ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الله ، يعني ان الذي أهلك القرون هو الله عزّ وجل ، فتوهم منه المتوهم انه انما أوقع الكلام على الدهر » .

وحيناً يردّ الأحاديث ويجادل في ردّها ، من هذا القبيل قوله[1]

وقالوا في الحديث انه من اقتنى كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا قنص فهو آثم ، ....

وبعد ، فلعلّ النبي صلى الله عليه وسلم ، قال هذا القول على الحكاية لأقاويل قوم ولعلّ ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً فترك الناس العلّة وردوا الخبر سالماً من العلل ، مجرداً غير مميز ، ولعلّ من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد اوله ، ولعله عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام الى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه شيء فيه ، وكل ذلك ممكن سائغ غير مستنكر ولا مدفوع » .

هذا مذهبه في ردّ الأحاديث التي يشك في روايتها ، ولقد ذهب هذا المذهب في تفسير الآيات ، فكما كره الغريب من تأويل الأحاديث فقد كره الغريب من تفسير الآيات ، ولم يخل من تهكم على بعض المفسرين ، وقد يظهر تهكمه من مجرّد ذكره لتفسيرهم من هذا النوع قوله ، وقد سمعتموه من قبل[2]

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص١٤٧ .
(٢) « « « « ص ٦٧ .

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شيء بالاسد وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل .

قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حوّاءها وضحك القوم » .

نعم ، يكره الجاحظ الغريب من التفسير ، ومن تفرغه لتأويل قول رفع الى ابي موسى يتبين لكم مقدار إحاطته ببواطن الامور ، فهو لا يقتصر على ظواهرها وانما يتولى الكشف عن أسرارها ، وهذا تأويله الذي أشرت اليه (١) :

وعن قتادة ان اباموسى قال : لاتتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا اهل قرية ، وقد سمعتم ماقال الله تعالى في اهل القرى : أفأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، وهذا عندي من ابي موسى ليس على مايظنه الناس لان تأويله هذا ليس على وجه ، ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ مايتخذه الفلاح واصحاب التعيش ، مع حاجته يومئذ الى تفرغهم لحروب العجم ، واخذهم في تأهب الفرسان ، وفي دربة رجال الحرب ، فان كان ذهب الى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه » .

وقبل أن أتعرض لذكر طائفة من أنماط تفسيره لاأرى بأساً برواية بعض كلام له يدل على مقدار كراهيته للغريب من تأويل اي شيء كان حتى قال ولم يهلك الناس شي كالتأويل ، وهذا هو كلامه (٢) :

ويقول الناس فلان مخدوم يذهبون الى انه اذا عزم على الشياطين والارواح والعمار أجابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له صديق إبليس ، ومنهم كدباس الهندي وصالح الموسوي وقد كان عبيد يقول ان العاسري حريص على إجابة العزيمة ولكن البدن اذا لم يصلح ان يكون هيكلاً لم يستطع دخوله ، والحيلة في ذلك ان يتبخر باللُبان الذكر ويراعي سير المشتري و يغتسل بالماء القراح و يدع الجماع واكل الزهومات و يتوحش في الفيافي و يكثر دخول الخرابات حتى يرق و يلطف و يصير فيه

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص١٤٣ .

(٢) « « « السادس ص٦٠ .

مشابه من الجن فان عزم عند ذلك لم يجب فلا يعودون لمثلها فانه ليس ممن يكون بدنه هيكلاً لهـا ومتى عاد ضبطه فربما جن وربما مات ، قال : فلو كنت ممن يصلح ان يكون هيكلاً لكنت فوق عبدالله بن هلال ، قال الاعراب وربما نزلنا بجمع كثير ورأينا خياماً وقباباً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا والعوام تروي ان ابن مسعود رضي الله عنه رأى رجالاً من الزط فقال هم لا شبه من رأيت من الجن ليلة الجن ، قال وقد روي عنه خلاف ذلك وتأولوا قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ولم يهلك الناس شيء كالتأويل ومما يدل على ماقلنـا قول ابي النجم حيث يقول :

بحيث تستن مع الجن الغول .

فأخرج الجن من الغول الذي باتت به الجن وهذا عادتهم ان يخرجوا الشيء من الجملة بعد ان دخل الشيء في الجملة فيظهر لأمر خاص وفي بعض الرواية انهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة وان خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه حتى عوذه النبي صلى الله عليه وسلم وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الاعراب من العوام وما اشك انه كان للسدنة حيل والطاف لمكان التكسب » .

من هذا يتبين لنا انه يرد الامور الى حقائقها و يبين في كل فتنة جواهر عللها ، فليس في أجواف الأوثان شيء من الهمهمة وانما هي حيل والطاف يلجأ اليهـا السدنة على سبيل التكسب .

فلنعجل بعد هذا كله ، فنبين مواطن من تفسيره ظهرت عليها آثار عقله .

مرة يحمل اللفظ على ظاهره فالشيطان في اللغة معروف امره ولكن من المفسرين من فسّر رؤوس الشياطين في الآية الوارد ذكرها تفسيراً عدّه الجاحظ غريباً ، ونفرّغ لردّ التفسير الى حقائقه ، مبيناً السبب الذي من اجله قد نستقبح الشيء ولم نر صورته ، فمن كلام للجاحظ في خلال تفسير بعض الآيات قوله في تأويل هذه الآية[1] :

« انها شجرة تخرج في اصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . قال الجاحظ في تأويل هذه الآية : وليس ان الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ولكن لما كان الله قد جعل لها في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهته واجرى

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع ص١٣ .

على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالايحاش والتنفير وبالاخافة والتقريع الى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم ، وهذا التأويل اشبه في قول من زعم ان رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن » .

ومرةً يحمل الكلام على باطنه ، فالتين في اللغة والزيتون معروف امرهما ، ولكن الجاحظ في تفسير قوله تعالى والتين والزيتون ، لم يقف عند ظاهر المعنى ، وانما نفذ بواطن الامور استنباطاً للحكم منها ، من هذا النحو قوله(١) :

وقد قال الله عز وجل والتين والزيتون ، فزعم زيد بن أسلم ان التين دمشق والزيتون فلسطين وللغالية في هذا تأويل ارغب عن التعبير عنه وذكره ....

والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وانما يريد النعم والأعاجيب والصلاة وما اشبه ذلك ، فان كلاً من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تام الأداة لما برح ان تحشره المعاني وتغمره الحكم .

وحيناً يعترض المعترضون في بعض الآيات فيتجرد الجاحظ لردهم الى الصواب ذاهباً في هذا مذهب المتكلمين . من هذا القبيل قوله (٢)

وسنذكر مسألة كلامية وانما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ولو كان اعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام وقد اعترض معترضون في قوله عزّ وجلّ « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث اوتتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » فزعموا ان هذا المثل لا يجوز ان يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لانه قال « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فما يشبه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك بالكلب الذي ان حملت عليه نبح وولى ذاهباً وان تركته شد عليك ونبح مع ان قوله يلهث لم يقع في موضعه وانما يلهث الكلب من عطش شديد وحرّ

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص ٩٧ .

(٢) « « « الثاني ص ٦ .

شديد ومن تعب . واما النباح والصياح فمن شيء آخر ، قلنا له ان قال ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فقد يستقيم ان يكون المراد لا يسمى مكذبا ولا يقال لم كذبوا الا وقد كان ذلك منهم مراراً فان لم يكن ذلك فليس ببعيد ان يشبه الذي اوتي الآيات والاعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه فان الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبّه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها بالكلب اذا رجع ينبح بعد اطرادك له وواجب ان يكون رَفْضُ قبول الاشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها . والكلب اذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً اليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش . وعلى اننا ما نرمي بابصارنا الى كلابنا وهي رابضة وادعة الا وهي تلهث من غير ان تكون هناك الا حرارة اجوافها والذي طبعت عليه من شأنهـا الا ان لَهْثَ الكلب يختلف بالشدة واللين .

وحيناً يطعن في بعض الآيات ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بلغة العرب وبمداخلها ومخارجها فيهديهم الجاحظ سواء السبيل مفصّلاً لهم مذاهب لغة العرب أدق تفصيل ، من هذا النوع قوله [1]

وقد طعن ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بوجوه اللغة وتوسع العرب في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالاشارة والوحي فقالوا قد علمنا ان الشمع شيء ينقله النحل مما يسقط على الشجر فيبني بيوت النحل منه ثم ينقل من الاشجار العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجبين والمن وغير ذلك الا ان مواضع الشمع وآثاره أخفى وأقل فليس العسل بقيء ولا رجيع ولا دخل للنحلة في بطن قط وفي القرآن قول الله عزّ وجل « واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ولو كان انما ذهب الى انه شيء يلتقط من الاشجار كالصموغ وما يتولد من طباع الأنداء والأهواء والأشجار انما امتزجت لما كان في ذلك عجب الا بقدر ما نجده في أمور كثيرة ، قلنا فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية ان في النحل أنبياء لقوله

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس ص ١٢٨ .

عزّ وجل « وإذ أوحيت الى الحوار بين » وماخالف ان يكون في النحل أنبياء بل يجب ان تكون النحل كلها انبياء لقوله عزّ وجل على المخرج العام واوحى ربك الى النحل ولم يخص الامهات والملوك واليعاسيب بل اطلق القول إطلاقاً وبعد ان كنتم مسلمين فليس هذا قول احد من المسلمين والاّ تكونوا مسلمين فلمَ تجعلوا الحجة على نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل . واما قوله عزّ وجل يخرج من بطونها شراب فالعسل ليس بشراب وانما يحول بالماء شراباً او بالماء نبيذاً فسماه كما ترى شراباً اذ كان مما يجيء منه الشراب وقد جاز في كلام العرب ان يقولوا جاءت السماء اليوم بامر عظيم وقد قال الشاعر :

اذا سقط السماء بارض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

فزعموا انهم يرعون السماء وان السماء تسقط ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها ومتى حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم وبه قال وبأسبابه اتسعت وقد خاطب بهذا الكلام اهل تهامة وهذيل وضواحي نجد هؤلاء اصحاب العسل والاعراب اعرف بل صمغة سائلة وعسلة ساقطة فهل سمعتم باحد انكر هذا البيان او طعن عليه من هذه الجهة .

والأمثال في هذا الباب كثيرة ، فاذا حاولنا الاستقصاء فيها تراخى أمد الكلام ، فالذي يستخرج من كل ماتقدم ان الجاحظ في امور الدين يذهب مذهبه في امور العلم فكما نبّه في العلم على المسائل التي خرج فيها أصحابها من العقل ، فكذلك نبّه في امور الدين على المسائل التي لاتطابق العقل ، وتنبيهه كان على أساليب شتى ذكرت شيئاً منها ، ومهما اختلفت هذه الاساليب فان جوهرها واحد فالجاحظ لايريد الا العلة والا البرهان في كل مسألة من المسائل ولقد عابوه باستهزائه من بعض الأحاديث او من بعض الآيات ولو أنصفوا لعدّوا له فضلاً عظيماً في التفسير والتأويل فقد تبين لكم كيف يتفرغ للرد على بعض الطاعنين في القرآن فيُهيب بهم الى الصواب آخذاً عليهم مداخل الطرق ومخارجها يحمل الألفاظ مرةً على ظواهرها اذا كانت الحكمة في حملها على الظواهر ومرةً يحملها على بواطنها اذا كانت الحكمة في حملها على البواطن حتى لايبقى للطاعنين متنفس يتنفسون منه .

دمشق : ٩ أيار سنة ١٩٣١

اثر خالد

في تاريخ الفكر العربي

— كتاب الفهرست لابن النديم —

—*—

توارد الفرنج الى المشرق لغايات شتى فاحتملوا معهم هم ورجال حملة نابليون كثيراً من المخطوطات العربية . وكان بين هذه المخطوطات اثنتان لفهرست ابن النديم جيء باحداهما من القاهرة الى باريس في القرن الثامن عشر وجيء بالاخرى من القسطنطينية الى ليدن في نفس ذلك الزمن تقريباً فتهافت علماء المشرقيات الجرمان على هاتين النسختين وعهد الى الاستاذ « جوستاف فلوجل » درسها حوالى سنة ١٨٥٠ م فاستغرق درسه نيفاً وعشرين عاماً وتوفي سنة ١٨٧١ قبل ان ينجز طبعها فأشرف على الطبع مكانه « روديجر وموللر » وقد نجزت طبعة الكتاب في سنة ١٨٧٢ م . ومع ان الكتاب جاء — كغيره من المخطوطات التي تطبع لاول مرة — مملوءاً بالاغلاط الفاحشة فقد كانت له مكانة عظيمة في الاوساط الاوربية التي تهتم بالمشرقيات لاسيما وقد بذل فلوجل جهده في ضبط اسماء الرجال من المصادر العربية التي كانت بين يديه عندئذ . بيد ان النسخة التي طبعها ظلت مبتورة . وهذا ثابت بدليلين :

اولهما — ان ياقوت يذكر في «معجم الادباء» اسماء كثير من العلماء ثم يصرح نقله عن كتاب الفهرست فاذا رجعنا الى النسخة المطبوعة لانجد لذلك اثراً على الاطلاق [1] ومثال ذلك انه « اورد ترجمة الجاحظ في الجزء السادس من معجمه (ص٧٥) ونقل فيها عن كتاب الفهرست ان ابن النديم قال : (ورأيت انا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى

(١) كتاب التاج — تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ص٤٤ .

ويكنى ابايحيى وراق الجاحظ) ولا توجد هذه العبارة في النسخة المطبوعة [1] » .

ثانيهما — « ان الاستاذ (هوتسما) عثر على جملة تراجم مما كتبه ابن النديم وهي غير واردة في النسخة المطبوعة فنشرها في المجلة النمساوية للعلوم الشرقية [2] » .

وقد ساعد الحظ المستشرق (ريتر) لعثر في العام الماضي على مخطوطتي للوجل الاصليتين بعد ان فقدتا زمناً طويلاً — اعني : مخطوطة باريس وهي تتضمن المقالات الست الاولى من الكتاب والمخطوطة المنقولة عن مكتبة شهيد علي باشا بالقسطنطينية وليس فيهـا الا اربع المقالات الأخيرة من الكتاب وهذه ربما كانت بخط المؤلف نفسه — وأخذ بعد طبعـة جديدة كاملة مستنداً اليهما وعلى مخطوطة بكي جامع [3] ومخطوطتي الكوبريلي [4] بالقسطنطينية ولكن فاته ان يتصل بالنسخة الموجودة بمكتبة المرحوم عارف حكمت بالمدينة المنورة [5] ولهذا فستظل نسخته ناقصة .

والذي يظهر ان المؤلف جعل كتابه في جزءين مستقل احدهما عن الآخر : ضمّن الاول منهما وهو ما حوته مخطوطة باريس — أبحاثاً اسلاميـة محضة (الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين والنحو والسير والشعر والشعراء والكلام والمتكلمين والفقه والفقهـاء والمحدثين) . وضمّن الثاني ابحاثاً عن علوم عرفت قبل الاسلام ونمت في أوساط غير اسلاميـة (الفلسفة والعلوم القـديمة والأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة والمذاهب والاعتقادات والكيمائيين والصفويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين) والدليل على ذلك ان المؤلف يتخذ سنة ٣٧٧ هـ تاريخاً لتأليفه ويذكرها في مواضع كثيرة من القسم الاول من الكتاب بينما هو لا يتعرض لها ابداً في القسم الثاني منه .

على ان الكتب الاخرى التي يمكن الالتجاء اليها في ضبط الكتاب أصبحت اليوم كثيرة بفضل ماطبع في مصر واوربا من كتب التاريخ والتراجم العربية فلدينا اليوم طبقات الاطباء ومعجم الادباء وتاريخ ابن القفطي ونزهة الألباء وبغية السيوطي مثلاً وكلها قريبة المتناول

(١) كتاب التاج — تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ص٤٤ .

(٢) « « ص٤٥ . (٣) رقم ٨١٥ وعنوانها اسامي الكتب المسمى بالتذكار الجامع للآثار . (٤) رقم ١١٣٤ و ١١٣٥ وكل منهما عنوانه فهرس العلوم .

(٥) رقم ٤٤٧ بعنوان فهرست العلوم القديمة .

وحبذا لو ان الاستاذ احمدامين الذي وقف على طبع الكتاب في العام الماضي قام بهذه المهمة الشاقة فصحح لنا الكتاب وأظهره كاملاً بقدر الامكان . على ان الأمل في الحصول على نسخة تامة صحيحة في القريب العاجل كبير جداً وقد عهدت جامعة كولومبيا الى الدكتور (ضودج) رئيس الجامعة الاميركية في بيروت بان يقوم بتصحيح الكتاب وترجمته الى اللغة الانكليزية .

غيران معرفتنا بالمؤلف نفسه ستظل كما كانت سابقاً اذ لم يُتح لاحد ان يكتشف مخطوطة جديدة تُفصل من حياة ابن النديم ما أجملته الكتب التي لدينا اليوم والتي نعتقد بانه لم يكن لها مصدر تقتبس منه سوى كتاب المؤلف نفسه . وعلى هذا فليست كتابة ياقوت في (إرشاد الاريب) ولا كتابة ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (في لسان الميزان الملحق بميزان الاعتدال للذهبي) إلاّ مصدراً ثانوياً عن حياة المؤلف . وكذلك لا يمكننا ان ننقل من ابن النجار قوله (في ذيل تاريخ بغداد) ان ابن النديم « مات يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ هـ » وابن النديم نفسه يذكر في تراجم بعض الرجال تواريخ بعد هذه السنة اللهم الا ان ذهبنا مذهب فلوجل والاستاذ احمد امين[1] وقلنا « ان المؤلف كتب نسخته سنة ٣٧٧ هـ وكان يترك فيها بياضاً يملؤه بما يجده بعد ذلك او يضع على النسخة تعليقات في أزمنة مختلفة » وقد « جرى ذلك في تراجم ابن خلكان[2] » .

ولذا نعتبر هذه التواريخ مختلة بكاملها كما قال (فيك[3]) فلنول وجهنا اذاً شطر كتاب المؤلف لنقف — قدر المستطاع على حقائق حياته منه .

اسمه محمد بن اسحق النديم المعروف بابي الفرج ابن ابي يعقوب الوراق[4] كتب الجزء الاول من كتابه كما يقول مراراً فيه — سنة ٣٧٧ هـ ثم أضاف اليه مقالات أخرى بين هذا التاريخ واول القرن الخامس . وأخبرنا ابن النديم في مكان آخر من كتابه في ترجمة البردعي[5] بانه « لقيه وكان به آنساً » وهذا مايجعلنـا نفترض تاريخاً لولادته يختلف بين سنة ٣٢٠ وسنة ٣٢٥ هـ ويكون قد بدأ كتابة مؤلفه بعد ان اجتاز العقد الخامس من عمره وتوفي في

(١) انظر مقدمة طبعة فلوجل ومقدمة طبعة مصر . (٢) أبدى لي هذا الرأي الاستاذ السيد عمر الصالح البرغوثي سنة ١٩٣٠ . (٣) في مجلة جمعية المستشرقين الجرمان ZDMG ج٨٤ ص . (٤) انظر ص ٢٨٠ و٣٣١ من طبعة مصر . (٥) ص ٣٣٠

أول القرن الخامس شيئاً كبيراً . نعرف ذلك من قوله في ترجمة ابن نباتة انه « ابونصر ابن نباتة التميمي من شعراء سيف الدولة وتوفي بعد الاربعمائة[1] » ومن قوله في ابن جني انه توفي سنة ٣٩٢ ه[2] .

اما موطنه فبغداد بلاشك لانه يذكر كثيراً عن تفاصيل حياة البغداديين فيحصي لنا عدد مانوية بغداد ايام حكم معزالدولة فيقول : « فأما مدينة السلام فكنت أعرف منهم (اي المانوية) في ايام معزالدولة نحو ثلاثمائة واما في وقتنا هذا فليس بالحضرة منهم خمسة انفس[3] » .

وقد قال ابن النديم في حديثه عن مذاهب أهل الصين انه لقي راهباً من اهل نجران كان قد « أنفذه الجاثليق ... الى بلد الصين وأنفذ معه خمسة أنامي من النصارى وعاد من الجماعة هذا الراهب وآخر » قال : « فلقيته بدار الروم وراء البيعة » . وقد ذهب فلوجل في سنة ١٨٧١م وأيد مذهبه المستشرق (فيك) الى ان دار الروم هي القسطنطينية وأن البيعة هي كنيسة القسطنطينية الكبرى التي شادها يوستنيانوس وحولها الترك فيما بعد الى مسجد آجياصوفيا . وعلى ذلك قالا : ان ابن النديم زار القسطنطينية . وخالفهم في هذا الرأي جمهور المستشرقين والاستاذ احمد امين . والحقيقة ان ابن النديم — على مانعرف — لم يصل القسطنطينية وليس في وسعنا ان نستنتج من هذه العبارة انه كان فيها ذات يوم . ويتضح ذلك بخمسة براهين :

اولها — ان التاريخ – على مانعرف — لم يذكر ان العرب اسموا القسطنطينية دار الروم بل كانوا يعرفونها (ببلد الروم) وهكذا فعل ابن النديم نفسه في كتابه .

ثانيها — ان مؤرخي العرب يقولون ان المدن العربية الكبرى كانت منقسمة الى محال وكل محلة من هذه كانت تعرف بدار وتنسب الى اسم معين فمن ذلك مثلاً : ان ياقوت[4] يقول :

« دار القز محلة كبيرة ببغداد في طرف الصحراء ... وكل ماحولها قد خرب ولم يبق الا اربع محال متصلة » ثم يقول : « دار الفرج محلة كانت ببغداد » وان صاحب

(١) ص ٢٤٠ . (٢) ص ١٢٨ . (٣) ص ٢٧٢ .

(٤) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣٢ ليبسك سنة ١٨٦٧ .

التكملة(١) قال : « لما ورد سيف الدولة الى بغداد فاجتاز بشارع دار الرقيق على دور بني خاقان » .

ثالثها — ان ابن النديم نفسه ذكر في ترجمة ابن كلاب(٢) مانصه : « قال ابو العباس البغوي دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي فقال رحم الله عبد الله (يعني ابن كلاب) كان يجيء فيجلس الى تلك الزاوية وأشار الى ناحية من البيعة » . وعلى هذا فكانت دار الروم محلة ببغداد والبيعة هي بيعة النصارى في دار السلام لا كنيسة آجيا صوفيا .

رابعها — انه لو كانت دار الروم القسطنطينية لكان الذي أنفذ الراهب والأناسي معه البطريرك وهو أعلى سلطة دينية في البلاد لا الجاثليق الذي هو دون البطريرك لان كرسي البطريرك في القسطنطينية وكرسي الجاثليق في بغداد الذي هو زعيم النصارى في بلاد الاسلام .

قال البيروني في كتابه(٣) : « قاثوليقا وهو الجاثليق ومقام جاثليق الملكائية من بلاد الاسلام بمدينة السلام وهو من تحت يد بطريرك أنطاكية فأما جاثليق النسطورية فيكون من عند امير المؤمنين على رضى من جمهورهم » . اما القلقشندي(٤) فقال ان درجات النصارى الدينية ثمانية سادسها الجاثليق (بالثاء والتاء) « وهو عندهم صاحب الصلاة » وذكر هيستنكز ان هذا اللقب « لم يكن معروفاً عند غير الأرمن واليعاقبة والنساطرة » واول جاثليق للنساطرة في بغداد كان ثيموسيوس وكان صديقاً للمهدي وهارون الرشيد . وقد نشرت مجلة جمعية المستشرقين الجرمانيــة نسخة عهد صادر من امير المؤمنين الى جاثليق النساطرة ببغداد في القرن الثالث عشر للميلاد جاء فيها : « ولما انتهت حالك الى امير المؤمنين وأنك أمثل اهل ملتك طريقةً وأقربهم الى الصلاح مذهباً وخليقةً . . . اتفقوا باجتماع من آرائهم والتئام من قلوبهم وأهوائهم على اختيـارك لرياسة دينهم . . . فأوعز باسعافهم فيما سألوه بالايجاب . . . وبرز الاذن الامامي الأشرف — لازالت أوامره بالتوفيق معضودة —

(١) تجارب الامم لابن مسكويه ج٦ ص٢٣٩ ، مصر . (٢) ص ٢٢٥ .

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية طبعة ساخاو سنة ١٩٢٣ ص ٢٨٩ .

(٤) صبح الاعشى ، القلقشندي ج٥ ص٤٧٤ المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٥ .

بترتيبك جاثليقاً لنسطور النصارى بمدينة السلام ومن تضمه ديار الاسلام وزعيماً لم ولمن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد وكل حاضر من هذه الطوائف وباد » .

خامسها — انه لم يهتم بالارساليات التبشيرية من المسيحيين في ايام ابن النديم وقبله بثلاثة قرون لقربها غير النساطرة الذين يرأسهم الجاثليق وقد قص علينا الرحالة ماركو بولو بانه وجد في سوقطرة[1] مسيحيين خاضعين لا للبابا بل لمن دعاه خطأ « بطريرك بغداد » بدلاً من جاثليق بغداد . ولسنا نعرف تاريخ اول ارسالية نسطورية قصدت الصين للتبشير ولكننا نعلم يقيناً انه في القرن الثامن للميلاد بعث (سلابسكا[2]) الاول النسطوري بمطران الى الصين[3] .

وهل بعد كل هذا يمكننا ان نقول — اعتماداً على عبارة ابن النديم — ان مؤلفنا هبط القسطنطينية — اللهم لا !

وأعود الآن الى ما كنا بصدده من البحث في حياة ابن النديم : فنلتمس سيرة ابيه فنجده — كما يتضح من المقالات الثلاث الاخيرة — وراقاً . ولسنا ندري أكان النديم لقبه او لقب ابيه او احد اجداده الاقدمين . وهو في كتابه ذكر تراجم طائفة من الندماء فبدأ باسحق بن ابراهيم الموصلي وانتهى بالآمدي ، لكنه لم يودع كتابته شيئاً يصح ان نستنتج منه انه كانت تربطه صلة قرابة باحد هؤلاء الندماء ، ولذلك فاني أرجح ان (النديم) كان لقباً له ، ويزيد ثقتي بهذا الترجيح ان ابن النديم عاصر عضد الدولة بن بويه وهو الذي « احيا العلوم وكانت مواتا وجمع اهلها وكانوا اشتاتا[4] » بل انه كان فوق ذلك « فاضلاً محباً للفضلاء مشاركاً في عدة فنون[5] » ولا يستبعد ابداً ان يكون مؤلفنا احد ندماء هذا

---

(١) جزيرة تناوح عدن من الجنوب (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) Slibàzka ومعناه « المصلوب النصر (كذا)» .

(٣) Assemani - Bibl. Orient, p.p. 414 - 434

(٤) تجارب الامم لابن مسكويه ، ج ٦ ص ٤٠٨ .

(٥) ابن خلكان ، ج ١ ص ٤١٦ بولاق .

السلطان المظيم او من رجال خاصته[1] .

ومهما يكن من امر فالذي نعتقده ان ابن النديم كان من أفاضل رواة العلم ويصح ان يقال انه كان كاتبـه — ورّاقاً — اذ يتعذر على غير ورّاقي ذلك الزمن ان تحيط دائرة معارفهم بكل ماأورده مؤلفنا في فهرسته من ذكر مؤلفين ومؤلفات . فهو ترجم مشاهير الشعراء وخاملي الذكر ، واهتم باخبـار الندماء والجلساء والمغنين والمضحكين وذكر اسماء كتبهم بالتفصيل ووصف أحوال المعزّمين والمشعبذين والسحرة واصحاب الحيل والحركات وذكر كثيراً من الخرافات واهتم بعلوم الدين وأخبـار الملوك والكتاب والمترسلين وشرح تعاليم مختلف الملل والنحل . أضف الى هذا انه عدد من الكتب والاسفار وذكر اوراقها وصفحاتها واسطرها مما لم يتسن لغيره ممن سبقه اوعاصره ان يعدد ذلك .

ثم ضمّن كتابه تراجم ورّاقين كثيرين منهم فيلسوف اليعقوبيـة يحيى بن عدي قال : « قال لي يوماً وقد عاتبته على كثرة نسخه من اي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري . وقد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ولعهدي بنفسي وانا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل » . ومن هذا يستدل على انه كان يخالط طبقة من الناس لا يختلط بها الا ورّاقو ذلك العصر .

وانك لتلمس خبرته بمهنة الوراقة حين يحدث اليك عن نعوت الاقلام الام وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها . وحين يعدد لك اسماء مذهّبي المصاحف ومجلديهـا ، ومثل هذه الملاحظات الدقيقة التي لا يسترعيها انتباه من لم يمارس الوراقة . والظاهر من مطابقة أشكال الخطوط التي اوردها في مؤلفه للخطوط التي رسمها ابن وحشية في كتابه[2] ان ابن النديم استقى شيئاً كثيراً من هـذا المؤلف الثمين مما يتعلق بالخط واشكاله . وحسبك ان

(١) وذكر ابن مسكويه ايضاً ، ج٦ ص٤٠٨ مانصه : « وأفرد (عضدالدولة) لاهل خصوصه من الحكماء والفلاسفة موضعاً يقرب من مجلسه وهوالحجرة التي يختص بها الحجاب فكانوا يجتمعون فيها للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة وأقيمت لهم رسوم تصل اليهم وكرامات تتصل بهم » .

(٢) شوق المستهام في معرفة رموز الاقلام تحقيق هامر سنة ١٨٠٦ .

تقابل ماجاء في صحائف ٩٢—١٣٤ من (رموز) ابن وحشية مع المقالة التاسعة لابن النديم لتحقق ذلك . ولم يخف ابن النديم مانقله وانما قال حين روى بعضه : « قرأت في بعض الكتب القديمة » وقال في الآخر : « قرأت في بعض التواريخ القديمة » .

والذي امتاز به مؤلفنا عن غيره تسامحه المذهبي ، فهو مع كونه شيعياً انصف اهل السنة وغيرهم من الفرق الاسلامية فذكر ماذكر عنهم باسناده الى قائليه حتى انه حين ترجم حياة ابي عمر الزاهد قال : « وسمعت جماعة من العلماء يضعّفون حكايته وانتسبوا به الى التزيد وكان نهاية في النصب والميل على علي عليه السلام . . . وتوفي سنة خمس واربعين وثلاثمائة وسنّه ثمانون سنة ، لقّاه الله عمله » . وهذا منتهى التعفف في الدعاء على الخصم ومنتهى التسامح المذهبي الذي لانجده الا عند جهابذة المفكرين وفطاحل العلماء الافذاذ .

اما نظره في المذاهب غير الاسلامية التي يذكرها في المقالة التاسعة من الكتاب ، فقد جهر برأيه في هذا الباب الى حدّ قلّ من جاراه فيه من المؤلفين القدماء . والفن الاول من هذه المقالة « يحتوي على وصف مذاهب الحرّانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة » (وهم الذين انتحلوا اسم الصابئة تقيّةً كي ينجوا به ويسلموا من القتل بعد ان انكر المأمون عليهم لبس الأقبية وأحلّ دماءهم يوم رحل يريد بلاد الروم فأفتاهم فقيه ان يقولوا نحن الصابئة الذين ورد ذكرهم في الكتاب) .

وقد ترجم ابن النديم حياة ابن وحشية الكلداني قال : « وكان يدّعي انه ساحر يعمل أعمال الطلسمات ويعمل الصنعة » ثم قال : « وقرأت نسخة هذه الأقلام بعينها في جملة أجزاء . . . وربما وقعت هذه الخطوط في كتب العلوم التي ذكرتها من الصنعة والسحر والعزائم باللغة التي احدث اهلها العلم فلانفهم — اللهم الا ان يكون الانسان عارفاً بتلك اللغة وهذا معْوز وربما كانت هذه الكتابات تراجم تؤدي الى اللغة العربية فينبغي ان يتأمل وتجعل هذه الأقلام مثالاً لها ويرجع اليها ان شاء الله تعالى » . فانظر كيف انه احترم علم ابن وحشية واخذ عنه مع انه قال كان يدعي ساحر يعمل اعمال الطلسمات ويعمل اعمال الصنعة »

وذكر ابن النديم شيئاً كثيراً من مذهب المانوية ولم يُشر الى المصادر التي اخذ عنها والظاهر انه بنى اقواله في هذه المرة على ما كان يقوله له اتباع هذا المذهب في ايام معز الدولة (سنة ٣٣٦ — سنة ٣٥٦ هـ) وقد ترجم حياة رئيسهم ابي علي رجاء بن يزدانبخت

قال : « قال له المأمون أسلم يايزدانبخت فلولا ماعطيناك اياه من الأمان لكان لنا ولك شأن . فقال يزدانبخت: نصيحتك ياامير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لايجبر الناس على ترك مذاهبهم . فقال المأمون : اجل . وكان أنزله بناحية المخرم ووكل به حفظة خوفاً عليه من الغوغاء » . ولم يعلق ابن النديم على هذه الحادثة شيئاً بل استحسن صنعها من المأمون على مايظهر وعندما كان يذكر الملوك والرؤساء الذين كانوا يرمون بالزندقة كان لايضيف اليهم كلمة تقريع اولوم . أليس هذا من تسامح ديني وسعة عقل ؟

اما أبحاث ابن النديم في الاديان القديمة فلاتزال حتى يومنا هذا مصدراً يقتبس منه علماء المشرقيات من مؤرخين وفلاسفة وهم يثقون بأقوال المؤلف ثقة تامة جعلت لكتابه بينهم مكاناً عليا .

وقبل ان أختم كلمتي هذه في ابن النديم وكتابه أذكر شيئاً عن الأسلوب الذي نهجه في جمع تأليفه فقد قال في كتابه : « اذا ذكرت من المصنفين المشهورين انساناً أتبعته بذكر من يقاربه و يشبهه وان تأخرت مدته عن مدة من أذكره بعده وهذه سبيلي في جمع الكتاب والله يعين بمنه وفضله » .

وقال في موضع آخر حين تحدث عن الامام الناصر للحق الحسن بن علي : « هذا مارأيناه من كتبه وزعم بعض الزيدية ان له نحواً من مائة كتاب ولم نرها . فان رأى ناظر في كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها ان شاء الله تعالى » . وكذلك تراه في كل بحث طرقه يسند الروايات الى أصحابها وما رآه من التصانيف يقول رأيته وماسمع به يقول : « يقال كيت وكيت » ومن هذا نستنتج اموراً اربعة »

اولها — ان ابن النديم كان يجمع تراجم الذين يرغب في ذكرهم ويرتبها حسب الفنون لا حسب العصور .

ثانيها — ان غاية ابن النديم من تأليفه كانت خدمة العلم لانه سمح لغيره ان يضيف الى كتابه معلومات جديدة متى عثر عليها رغبة منه في إتمام الفائدة . واين من هذا قول الجاحظ [1] : « خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين فلم نأمن ان يسرعوا بسفيه رأيهم

(١) مع العلم بان ابن النديم كان يروي واما الجاحظ فكان يرى آراء جامحة نخشى ان يدس عليه ما ليس له .

وخفة احلامهم الى نقض كتابنا وتبديله وتحريفه عن مواضعه ... وأحببنا ان نأخذ في ذلك بالحزم وان نحتاط منه لانفسنا ... ونبادر الى تفريق نسخة منها (من رسالة الشيعة) وتصييرها في ايدي الثقات والمستبصرين ... فان شيب به شوب يخالفه اوأضيف اليه مالا يلائمه رجعنا الى النسخة المنصوبة . واستعلينا بها على المبطلين[1] » . بل واين منه ماروواه ابن النديم نفسه في كتابه قال :

قال ابوعمر محمد بن عبد الواحد (الزاهد) هذه العرضة هي التي تفرد بها ابو اسحق الطبري آخر عرضة اسمعها بعده فن روى عني في هذه النسخة هذه العرضة وحرفاً واحداً ليس من قولي فهو كذاب علي وهي من الساعة الى الساعة من قراءة ابي اسحق على سائر الناس وانا أسمعها حرفاً حرفاً » . فأنت ترى الفرق البين بين نزعة ابن النديم العلمية ونزعة الآخرين المتشبعة بروح الأنانية .

ثالثها — ان ابن النديم نحا في جميع كتابه منحى العلماء المحققين فأعطى كل ذي حق حقه وأرجع الامور الى مصادرها ولم يبخس الناس اشياءهم بل تعمد الصدق فيما قال وروى .

رابعها — « انه لم يبرّز في فن من الفنون اوعلم من العلوم سوى ترجمة الرجال باختصار واضافة مؤلفاتهم اليهم مع ملخص محتوياتها ، وهذا عمل مفيد جداً ، ولكني لا ادري لمَ أهمل ترجمته المؤلفون والمؤرخون ؟ ألضعة نسبه ؟ اولضيق يده ؟ او لاحتباس شهرته في عصره او لسوء حظه ؟ او ان ترجمته دوّنت فلم تصل الينا ؟ وهذا هو الأرجح .

وبعد فكتاب الفهرست ذخر للعربي وأثر يشهد بما أنجبته عقولهم ، واعتقد انه يجب على كل من يُعنى بالعرب واخبارهم وعلومهم وفلسفتهم ان يرجع اليه فيأخذ منه بعض حاجته من علم وفن وادب .

بيت المقدس : محمد يونس الحسيني

---

(١) ص ١٨٩ مجموعة رسائل الجاحظ — مطبعة التقدم — مصر .

الغلاظة في اللغة

- ٩ -

(تابع لوصف الارض) — الجَرَع والجَرَعة والجَرْعة والأجْرَع ، الارض ذات الحزونة تشاكل الرمل وكذلك الجرعاء . والأرْسان من الارض ، الحزنة . والركاء ، الارض الغليظة المرتفعة . والجَمَد ، مكان الحزن . والحزباءة ، الارض الغليظة الشديدة الحزنة — ومكان غليظ مرتفع . والصُوّة ، ماغلظ وارتفع من الارض ولم يبلغ ان يكون جبلاً . والحَزيز ما غلظ وصلب من الارض مع اشراف قليل ج حُزّان قال كعب ابن زهير :

ترمي الغيوب بعيني مفرَد لَهَق　　اذا توقدت الحُزّان والميل

والكندرة ، ماغلظ من الارض وارتفع . والحَدْو ، موضع غليظ مرتفع عن السيل ج حَدْاء . والواعر والوَعْر المكان الحزن ومثله الوعير والأوْعر . والجُوّة ، قطعة من الارض فيها غلظ . والتُرْس من جلد الارض ، الغليظ منها . والحَزْمُ ، ما غلظ من الارض وكثرت حجارته وكانت أغلظ وأخشن من حجارة الاكمة غيران ظهره عريض طويل . والحَوْمانة ، المكان الغليظ المنقاد ج حَوْمان وحوامين . والزَيْزي والزَيزاء والزيزية ، ماغلظ من الارض ومثله الحُرْشُف والحَرْشفة . والخشباء الارض الغليظة الشديدة بها حجارة وحصى وطين . والخرشاف والخرْشَفة ، الارض الغليظة من الكذان لايستطاع ان يمشى فيها وانما هي كالاضراس . والخِرْشمّة الارض الغليظة الصلبة . والدَكْدَك والدَكْداك ارض فيها غلظ مُثل جرير بن عبدالله عن منزله فقال : « سهل ودكداك وَسَلَم وأراك » والقَرْز ، الغليظ من الارض . والشَأز والشَئِز المكان الشديد الغليظ . والصبّارة ، الارض الغليظة المشرفة لاتنبت شيئًا . والقَحدم

والقدَمة ، ماغلظ من الحرة . والضارب ، القطعة من الارض الغليظة تستطيل في السهل . والخطائط ، طرائق تفارق الشقائق في غلظها ولينها . والأُبس ، المكان الغليظ الخشن . والجذرية ، القطعة الغليظة من الارض . والصيلداء والصيلداءة ، الارض الغليظة الصلبة . والصَلفاء والصَليفاءة ، الغليظة الشديدة . والصَدَقة ماغلظ من الحرة . والنشز المكان الغليظ الشديد . والكانْدى القطعة الغليظة من الارض من غير حصى . والقضَقَة قطعة من الارض تغلظ وتحدودب وتطول قليلاً . والكُدْية الغليظة الصلبة ج كُدًى . السنبك الغليظة القليلة الخير . والجَدَد الغليظة الصلبة — والمستوية . والقروُ التي لاتكاد تقطع . والأحزم الغليظ من الارض . والضمرزة الحرة الغليظة التي لا أُسلك بالليل . والضمزُ المكان الغليظ . والعِذار غلظ من الارض يعترض في فضاء واسع . والارض الظلفة والظلِفة الغليظة التي لا تؤدي اثراً وقد ظلِفت الارض اي كانت ظلِفة . والعكوك المكان الغليظ الصلب . ومثله الفدفد . والحزين الحزن .

(الغليظة) والعكباء الجافية الخلق . والعبلة الغليظة . والضمزر المرأة الغليظة ومثله الضمرزة . والشَثلة والشثلة من الاقدام . والشفة القلفة والحأة الكاثمة والكشمة والاثان الكُدُرة والنعجة الكدمة . وقالوا عصاة وشبار غليظة كالخشبة . وامرأة مُعكنكة غليظة كثيرة اللحم . ودُحيلة ضخمة غليظة . وجبلة غليظة عظيمة الخلق . والصلاية شريجة خشنة غليظة من القف . والجُلذية من الفراسن ، الغليظة الوكيهة . والعركية والعركانية الغليظة .

(القصير ايضاً) والكُنادر الغليظ القصير مع شدة ويوصف به الغليظ من حمر الوحش كقوله : كأن تحتي كُنْدراً كنادراً . والكُنْرور الرجل الغليظ القصير ومثله حمار جأمد وحُفامي . والجيذر القصير الغليظ من الرجال الشثن الأطراف وهي بهاء ومثله الجذر .

(الزنجي اوالاحمر) والعُنْبُلي الزنجي الغليظ . والفراص الغليظ الاحمر .

(الضخم) والعَثِل الغليظ الضخم ومثله الكَنهدل والمعَد والوزيز والجعبس والجُخادب والجخادبي والجخادباء (من الرجال والحمر) والضمَدة يقال عبد ضمدة . والدُهْمس والجرْدحل (من البشر) .

(الكثيرالحم) والغُدُبُ الغليظ الكثيرالعضل ٠ ورجل معذّر غليظ كثيرالحم ٠ ومثله البلخص ٠ والقُلازِل التارّ الغليظ ٠

(شق) والغضفر والغضنفر الجافي الغليظ ٠ ومثله الِخضِيم والخُضارِج والفحل القُمارز والاعرابي الجليف والجلف واصله من اجلاف الشاة وهي المسلوخة بلا رأس و لا قوائم ولا بطن اي ان جوفه هواء لاعقل فيه ٠ والدُحامل الغليظ المكتنز ٠ والدُخَّل الغليظ الجسم لتداخله ٠ والهَوِرش المائق الجافي ٠ والعَجْرَم والعُجارم الشديد الغليظ المعقد ٠ والقنوَّر الفظ الغليظ ٠ والكَنَهْدر الغليظ من حمر الوحش والبُمْصُل الغليظ الجسم ٠ والجرَنْبذ الغليظ الثقيل ٠ والحَرْكاك الغليظ القوي ٠ والدُماحل الدحامل ٠ والحَزْوَر المكان الغليظ ٠ وقدح مُكْدَم زجاجه غليظ ٠ ورُبٌ عقيد غليظ شديد وقدح خاظٍ حادر صلب ٠ واسد شرنبث غليظ ومثله حمار كُدُرٌ ورجل جَرْعب ٠ وسقاء جارن قد يبس وغلظ من العمل ٠ وحِيْس جَعْد غليظ غيرسبط ٠ والجِلْوَذ الغليظ الشديد ومثله المكَنْدد ٠ والهِلْدم اللبد الجافي الغليظ ٠

وقالوا هو مستملج الخلق اي غليظ جاف ٠ وطعنه في مستغلظ ذراعه اي حيث غلظت ذراعه ٠ وهؤلاء قوم غلاظ الرقاب اي اجلاف عتاة ٠ والحادرالغليظ من الرماح والعُسْقُد التار الجافي الخلق ٠ والقفنُ الجلف الجافي ٠ والأنح الجافي الغليظ ٠ والهيجبوس ، الرجل الاهوج الجافي ٠ والعَشْوَز والعَشَوَّز الشديد الخلق الغليظ ٠ والفرافص السبع الغليظ ٠ والذُرنُيٌّ الرجل الغليظ ٠ والخَضْعُ ما كان غليظاً كالحلوق والغالية ٠ وخبز فدْم غليظ ومثله رجل قُصْقُص وقُصْقُصَة ٠ ويقولون هذا سقاء لايستوكي ولا يستكتب اذا كان فمه غليظ الاديم ٠ والاوشاز من الامور الغلاظ منها ٠

(النبك) : سالم خليل رزق

آراء وافكار

—«»—

مطالعات ومراجعات

— في اللغة والأدب والتشريع والتاريخ —

قرأت في ص٣٨ من مجلد هذه السنة من مجلة المجمع « وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، يسبق الظلام ... » أذكر اني كنت قرأت مثل هذه العبارة في رسالة الانتقاد لابن شرف القيرواني التي نشرت في جملة رسائل البلغاء وانه ورد فيها «الظليم» مكان «الظلام» وهو الصواب لان الظليم هو المعروف والموصوف عند العرب بسرعة الجري ولا مفهوم لسبق الفرس الظلام[1] . جاء في حديث احدى الجواري الخمس اللائي نعتن خيل آبائهن ورواه القالي في اماليه قول احداهن : « ان أقبل فظبيٌ معّاج وان أدبر فظليم هدّاج ، وان أحضر فعلج هرّاج ... » قال أستاذنا الامام الألوسي عليه رحمة الله في بلوغ الأرب معلقاً عليه : « معناه انه سريع الجري في كل حال من الأحوال الثلاثة ، فهو كالظبي المسرع اذا أقبل ، وكالظليم اذا أدبر ، وكحمار الوحش اذا أحضر ... والظليم ولد النعام وهو يوصف بسرعة المشي الخ » . وأحسب ان في تفسيره الظليم بولد النعام تحريفاً صوابه ذكر النعام ، والنعام مشهور بالخفة وشدة الحذر وسرعة الجري عند العرب . ومن مأثور الوالهم « ركب جنح نعامة » يضربونه مثلاً لمن جدّ في امر كانهزام اوغيره . قال يزيد بن قنافة من شعراء حماسة ابي تمام :

لعمري وما عمري علي بهين   لبئس الفتى المدعوُّ بالليل حاتمُ
غداةَ اتى كالثور أحرج فاتقى   بجبهته أقتاله وهو قائمُ
كأن بصحراء المُرَيْط نعامةً   تبادرها جنحَ الظلام نعائمُ

---

(1) «المجمع» وللظلام وجه وجيه بدليل قول النابغة :

وانك كالليل الذي هو مدركي   وان خلت ان المنتأى عنك واسع

أعارتك رجليها وهاتي لبها   وقد جُرّدت بيض المتون صوارمُ

وقال احدهم يرثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

جزى الله خيراً من امام وباركت   يد الله في ذاك الأديم الممزّق

فمن يسعَ او يركب جناحي نعامةٍ   ليدرك ما قدمت بالامس يسبق

وفي ص ٤١ رأيت الكاتب وهو في سبيل البحث عن حياة الألفاظ ، يتسامح في استعمال مالاحاجة بنا اليه من اللفظ الدخيل . فقد وجد في (الاكاديمية) لذةً فرددها ثلاث مرات في بضعة اسطر متقاربات ، وفي (المجمع) الذي ساغته الالسنة وسالت به الأقلام ودرج عليه الاصطلاح غنى عن (الاكاديمية) فلتمُت الاكاديمية وليحيَ المجمع . وارجو ان لا يأسف الكاتب العربي على ذلك أسف الكاتب الفرنسي صاحب مقالة الطان على كلمة (Midinettes) التي اطرحتها (الاكاديمية الفرنسية) فانه انما أسف لانها استغنت عما لاغنى للغة الفرنسية عنه ؛ وليس شأننا ازاء (الاكاديمية) كذلك .

واستعمل كلمة (الاوبرا) الدخيلة التي زعم من زعم انها عربية الاصل منقولة عن ابي العبر ، ماجن خليع ، نقلها الايطاليون عن العرب ايام احتكاك العنصرين بعضهما ببعض فحرفوها الى اوبرا ، واننا جهلنا ذلك فحسبناها دخيلة وهي اصيلة .

لا أريد ان أناقش هذا النوع من الضرب بالرمل او الطرق بالحصى وانما أريد ان أعذر مستعمليها على كونها دخيلة في رأيي ورأي الاكثرية المطلقة من الباحثين حتى نقيم مقامها كلمة مفردة من العربي الاصيل تؤدي المعنى الفرنجي احسن اداء فان البقاء على الاوبرا افضل من قبول العبرة التي يزعم اصالتها الوهم ولا يؤيده النص ولا المعنى الفنيّ الدقيق لهذه اللفظة في لغة القوم ، فما رأي الاكياس الألبّاء ؟

وفي ص ٥٣ ورد (حسن البزار) بالزاي والراء وانما هو البزّاز نسبةً الى البز ، وقد نظمه الكاتب في حلقة كاظم الأزري والأخرس والعشاري والحبوبي من فحول شعراء العراق في القرن الماضي وليس بذاك . ونظم معهم ايضاً اسم السيد حسن الداوودي ولست أعرفه بل لم أسمع باسمه الا من طريقه فهل له ان يتفضل علينا بترجمته ؟

ووصف احد اعضاء المجمع نادرة دواوين اللغة «المقاييس» ٦٥ — ٧١ ، وقد وصفه قبله كاتب نجفي متنكر في المجلد الثاني من مجلة لغة العرب لسنة ١٣٣٠ هـ ولكنه لم يذكر

اسم مالك النسخة ، وأرجح انها نسخة آل كاشف الغطاء التي أشير اليهـا ولعل واصفها مالكها . وقد قال في جملة كلامه (طولها ٣٦ سنتيمتراً وعرضها ١٩ وطول المكتوب منها ٢٥ وعرضه ١٤ وفي كل صفحة ٢١ سطراً . وعدد اوراقها ٤٩٧ . وقد خرقتها الأرضة ولكن لم تؤثر في نفس الكتابة كثيراً والظاهر ان في حبرها شيئاً لا تستطيع الارضة أكله وهي كثيرة الغلط لا ينتفع بها الا من مارس هـذا الفن واخذ باطرافه . وكاتبها لم يذكر تاريخ الفراغ من نسخها الا ان المتدبر العارف بتاريخ الخط العربي يحكم بانهـا كتبت بعد الألف وهي بخط واحد ...) ومهما يكن من امر هذه النسخة فان مقابلة نسخة المجمع العلمي العربي بها اذا تيسرت لا تخلو من فائدة ...

وفي ص ٧٤ (الخلفاء اللامعين) ولعل الكاتب الفرنسي أراد — بحسب الظاهر — (الخلفاء الأمويين) لحرفتهـا الترجمة ، والا فاهو معنى الخلفـاء اللامعين . فهل اراد الخلفاء الراشدين فوصفهم باللمعان لحسن سيرتهم ؟ وعلى كل فان في التعبير غموضاً يحتاج الى ايضاح .

وفي ص ٨١ (ورّاقوا بغداد) وزيادة الالف بعد واو الجماعة في الاسم المضاف خطأ .

وفي ١٣٠ (الشيخ محمد محمود الذكري) والصواب التركزي .

وفي ١٣٨ و١٤٠ استعمال فعل ولق متعدياً بالى تارةً وباللام أخرى ، وميل الكتاب اليوم الى الاول اكثر بل قلّ من رأيته يعديه باللام ، والذي اعلمه ان الثاني هو الصحيح وان قيل ان حروف الجرّ يقوم بعضها مقام بعض . الى لأطأطئ الرأس لعلم الفقيد الاكبر صديقنـا احمد تيمور باشا ولكنني مستفهم مستفيد . وقد رأيته كذلك يستعمل فعل راق متعدياً باللام (ص١٤٣ و١٤٤) وهو انما يتعدى بنفسه ، اما تأولــ اقحام اللام فمتمحل لا يعدو ان يكون من الخرفشة التي نعت بها ابن خلدون النحاة ، وقد اغنانا العلامة الامير شكيب أرسلان فيما كتبه في ابطال زيادة هذه اللام هنا عن تفصيل القول فليرجع اليه من شاء في مجلة المجمع العلمي م ٩ ص ٦٨ .

وقرظ احد الاعضاء كتاب المخارج في الحيل المنسوب للامام محمد والذي نشـره المستشـرق الالماني يوسف شخت (Joseph Schacht) (ص١٨٠ — ١٨٣) فكان جدّ موفق في نظرته الى الحيل التي تضاف الى الشرع الاسلامي وهو منها براء ولن يزال

المجمع العلمي بخير وهو يكل الامور الى اربابها . وأحب ان ألفت الناشر وغيره من الذين لم يكتب لهم الوقوف التام على الثقة الثَّبت من مراجع الاسلام الى مناقشات الامام ابن القيم لأصحاب الحيل في كتابه اعلام الموقعين فانها أوسع ما كتبه علماء الاسلام في إبطال الحيل تمتاز باسلوبها العلمي الدقيق وايراد الحيل واحدةً واحدةً ونقضها بالدليل النقلي والبرهان العقلي في أناة وهدوء وانسجام . وفي رأيي ان هذه الحيل من وضع الشعوبية الذين هاموا لهدم الاسلام في كل واد ونفذوا اليه من كل سبيل ، ولا اكثر شراً على الاسلام من فتح هذه الثغرة التي فتحوها ووقع فيها من وقع من بسطاء المتفقهة . ألفت نظر الناشر وغيره الى كتاب الامام ابن القيم وأريد العلامة المغربي على ان يوافقني على ان تسميته الامام محمد كتابه - اذا صحت نسبته اليه — (كتاب المخارج في الحيل) ليست من الاحسان في شيء لان علينا أن نلاحظ المسمى قبل اسمه وننزه الحق من الباطل ولو مسّه الباطل اسماً او وهماً وخيالاً ، اما قوله « لو سماه كتاب المخارج في المحارج اي في المضايق والمآزق لكان اكثر احساناً لعمري » فاني لخجل جداً ان اقول في التعليق عليه : ان اصحاب الحيل لما رأوا نفرة الناس من اسم الحيل سموه (وجوه المخارج من المضايق) — انظر اعلام الموقعين م ٣ ص ١٥٧ ط ١ — .

وفي ص ٢٠٢ (وهو كناني : قيل صليبه ، وقيل مولى) هكذا ورد صليبه بالباء الموحدة فالياء المثناة ، ومثله في ترجمة الجاحظ التي نشرها المستشرق ف . كرنكو في مجلة المجمع العلمي العربي م٩ ص٢٠٣—٢١٧ نقلاً عن تاريخ ابن عساكر من نسخة المتحف البريطاني . وهو تحريف عن صليبة بتقديم المثناة على الموحدة كما ترد كثيراً في كتب الانساب والتراجم وصفاً للرجل الذي كان عربياً نسباً لا ولاءً ولا حلفاً ، وان شئت راجعتها في الاغاني في نسب الحزين ووالبة بن الحباب ومحمد بن وهيب ومحمد بن ذؤيب وغيرهم . ومن الغريب ان هذه الكلمة على شيوعها في كتب الانساب والتراجم لم تأت في كتب اللغة وصفاً للمذكر بحرف التأنيث ، وانما قالوا : رجل صليب وامرأة صليبة ، ففي اساس البلاغة « ومن المجاز عربي صليب : خالص النسب ، قال أمية : (ويعرفنا ذوو أبيها وصليبها) وامرأة صليبة كريمة المنصب عريقة » اه .

وجاء في الكلام على الجاحظ ص٢٠٤ (وكان يقال له ايضاً الحدَقي) والصواب الحدقي

كما في وفيات الأعيان م ١ ص٣٨٨ ومعجم الادباء م ٦ ص ٦٢ . ولعل الجاحظ هو الذي أطلق على نفسه هذا اللقب استدراكاً على غلط غلام عجمي حرفت رطانته الجاحظ الى الجاحد فقال له قل الحدقي فقال الحلقي في قصة ذكرها ياقوت الحموي البغدادي في معجم الادباء وهي : ان الجاحظ صار الى منزل بعض إخوانه ، فاستأذن عليه ، فخرج اليه غلام عجمي فقال : من انت ؟ قال : الجاحظ . فدخل الى صاحب الدار فقال : الجاحد على الباب ، وسمعها الجاحظ فقال صاحب الدار للغلام : أخرُج فانظر من الرجل ؟ فخرج يستخبر عن اسمه ، فقال : انا الحدقي ، فدخل الغلام فقال : الحلقي ! وسمعها الجاحظ فصاح به في الباب : رُدّنا الى الاول ! يريد ان قوله الجاحد مكان الجاحظ اسهل عليه من الحلقي مكان الحدقي ، فعرفه الرجل فأوصله واعتذر اليه .

وفي ص ٢٠٦ (كتاب الزرع والنحل) وكذلك ورد في معجم الادباء ، ولعل الاصل «النخل» مكان «النحل» .

وفي ص ٢٠٧ المزوه ، وصوابه المزءه اذا سكن الزاي ، والمزؤ بوضع الهمزة فوق الواو اذا ضم الزاي .

وفي ص ٢٠٨ (... فقال الجاحظ : سألتني عن الجلة ...) وذلك في جواب رجل دخل عليه فقال له : يا اباعثمان كيف حالك ؟ وقد نبه الكاتب الى ان الاصل الذي اخذه منه «الجلة» وفي نسخة أخرى «المجلة» مكان «الجلة» . ورأيت مجلة المجمع العلمي م ٩ ص٧ ٢ تقول في التعليق عليه (ولعل صوابه : عن الحالة) فاجتمع عندنا اربع روايات وآراء في الكلمة : الجملة ، والجلة ، والمجلة ، والحالة . وانى أوافق الكاتب على تصحيحه لأن سياق الكلام يؤيده وذلك قوله بعدُ (فاسمعها مني واحداً واحداً ...) فالسائل يسأل الجاحظ عن حاله جملةً والجاحظ يريد ان يسمعه اياها واحداً واحداً تفصيلاً ، فهل يصح في هذا الموضع غير كلمة الجملة ؟

وفي ص ٢٠٥ كتابة الرئاسة بالهمز تارةً وبالياء أخرى ، فأيهما الصحيح اوالاصح ؟ اما الكتّاب — اليوم — فيميلون في الاكثر الى الثاني ، وانى أصححه بالهمز لانه الأصل في الكلمة فلاوجه لهذا القلب .

وجاء في ص٢٠٩ (... ولكن الايام لاتصلح منك لفساد طويتك ...) وعلق

عليها في الهامش ما يأتي : (في الاصل : لاتصلح منك الاّ افساد طويتك ... فأظن ان «الاّ» زائدة فلا محل لها) . قلت : الذي أراه ولا أكاد أتردد فيه ان « الا » هنا ليست باداة استثناء فتكون زائدة وانما هي «إلاّ» بكسر الهمزة وتشديد اللام في موضع النصب على المفعولية ، ومعناها العهد والحلف ، و يؤيد هذا قول احمد بن ابي دواد للجاحظ الماجي به اليه مقيداً : « والله ماعلمتك الا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة الخ » .

وفي ص ٢١٠ س ١ و٢ (فوالله لئن يكون لك الامر ... ولئن أمي) والصواب في الجملتين لأن . واما في س ٤ أما قلبك والصواب أمام قلبك ، وهو من غلط الطبع .

وفي ص ٢١٧ يذهب الكاتب الى ان الجاحظ الف كتابه الحيوان وهو مبتلى بالفالج مستنداً الى كلام الجاحظ في اول كتابه هذا « وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، اول ذلك العلة الشديدة » وانا أستغرب كل الاستغراب ان نفسر هذه العلة الشديدة بالفالج دون غيره فان الفالج — كما شاهدناه — داء اذا أصاب الانسان عطل جسده نصفه او كله ، وأحال فكره ، وأبطل عمله . و يغلب عليه ان يرافق المبتلى به الى لحده ، لذلك أرى ان الجاحظ ألف هذا الكتاب الجليل قبل ان يمنى بالفالج وان هذه العلة التي يذكرها مرض عرض له في اثناء كتابته ثم زال وبرئ واستمر يؤلفه حتى وفق لإكماله ، والا فليرشدني الاستاذ الكاتب كيف يستطيع ان يؤلف مثل هذا الكتاب بل دونه بكثير « من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لوطار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة هو فيها » كما قال الجاحظ عن نفسه رحمه الله فيما حدث المبرد ؟! ودليل آخر للجيته مبنية على مقدمات تاريخية نقلها الكاتب نفسه في محاضرته ، وهو ان الجاحظ الف كتاب الحيوان هذا لمحمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم فأعطاه خمسة آلاف دينار ، ومحمد هذا توفي سنة ٢٣٣ هـ ووفاة الجاحظ كانت سنة ٢٥٥ هـ ، فبين موتهما اثنتان وعشرون سنة ، اذا أضفنا اليها ثلاث سنوات سلخها في التأليف على اقل تقدير ، وذلك قبل موت الوزير صاحبه طبعاً ، حصل عندنا تمام ربع القرن . والاستاذ مؤمن بان الجاحظ يوم قبض المتوكل على محمد ابن عبد الملك الزيات والقاه في التنور خاف ان يكون فيه ثاني اثنين ، لأنه كان صاحب محمد وصديقه ، ولأنه كان منحرفاً عن احمد بن ابي دواد للعداوة بين محمد واحمد واحمد

هذا هوالذي أغرى المتوكل بابن الزيات ففرّ على وجهه لئلا يلحقه منه ما لحق صاحبه الوزير الا انه لم ينج منه بل قبض عليه لجيء به الى احمد بن ابي دواد فلما نظر اليه قال : والله ماعلمتك إلا متناسياً للنعمة ... فاستلانه الجاحظ بتزو بق كلامه حتى أمر بفك القيود عنه وأمر بان يصار به الى الحمام ويماط عنه الأذى ويحمل اليه تحت ثياب وطويلة وخف ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا اباعثمان في قصة طويلة نقلها الكاتب في محاضرته عن معجم الادباء ... فهل كان كل ذلك — وكل ذلك كان بعد تأليف كتاب الحيوان ولا شك ! — والجاحظ مفلوج . « لبس بطائل ، ذو شق مائل ، ولعاب سائل الخ » ؟! .

ورأيت في المجلة عدا ماتقدم أشياء أخرى ، منها في ص٢٢٧ س ٦ (عرى) جمع عروة والاصح[1] كتابتها بالالف لان أصلها واو ، وفيها في س١٩ (بتؤدة) بالهمزة فوق الواو ويجب(؟) ان تكون منفردة قائمة بنفسها . وفي ص٢٣٦ ولا يمكن مؤرخاً ان ينسى الخ . ولعل الافصح ان يقال : ولا يسع مؤرخاً ان ينسى وصاحب المقال من الذين يتقيّلون الفصيح . وفي ص٢٣٧ س١٢ أرى الارض تطوى الي — والصواب تطوى لي . وورد في كلامنا عن كتاب واسطة السلوك من أغلاط الطبع ص٢٤٩ اما الطبعة التونسية وهي والصواب فهي . وفيها ايضاً س ٢٦ سطر صوابه سطراً . وفي ص٢٥٠ س١٤ وانما هو موسى والاصل : وأنه هو موسى . وفيها س ١٦ موسى بن حمو — والاصل موسى أبو حمو .

والنبيت أحد الاعضاء في ١٨٢ يستعمل المديون بدل المدين ، وعهدي به أنه جد حريص على اتباع القياس لايميل الى مافيه تجوز وتسامح ، وفي الطرة على الغرة للحريري والألوسي بحث في هذا نغني الاشارة اليه عن نقله ، فليراجع في ص ٣٨٥ .

بغداد : محمد بهجة الاثري

---

(١) «المجمع» بل الاصح ان تكتب بالواو بناء على قاعدة الكوفيين كما كتبوا الضحى والخُطى .

المحكمة (١)

« كلمة غير قاموسية »

من الغريب ان كتب اللغة التي بين ايدينا لم تذكر كلمة (مَحْكَمَة) بفتح الميم وتخفيف الكاف في مادة (حكم) . مع اننا نستعملها اليوم كثيراً ونريد بها المكان الذي يجتمع فيه القضاة للحكم بين الناس . فهي إذن كلمة دخيلة غير قاموسية .

ولعل الذين أدخلوها في اللغة أرادوا بها تأنيث (المحكَم) اسم مكان بمعنى (مكان الحكم) ثم توسعوا بها فاستعملوها في الحكام أنفسهم . وذلك مثل نقول : «حكمت المحكمة على فلان » فقد نسبنا الحكم الى المحل والمراد الحال مجازاً كقولهم (جرى النهر) اي ماء النهر .

ويحتمل ان لايكون المراد بالمحكمة مكان الحكم ولا الحكّام أنفسهم . وانما المراد بها المصدر الميمي بمعنى الحكم (كالمضيعة) بمعنى الضياع والمتربة بمعنى الفقر فتكون أخذنا في لغة تخاطبنا من فعل حَكَم مصدر به : «الحكومة » مريدين بها الهيأة التنفيذية التي تباشر الحكم الاداري في البلاد — و «المحكمة » مريدين بها الهيأة القضائية التي تباشر فصل الخصومات بين الناس .

وقرأ بعض الاخوان بيتاً من الشعر للفرزدق جاءت فيه كلمة (محكمة) فظنها (المحكمة) في اصطلاحنا اليوم . وهو قوله من قصيدة يهجو بها احد بني باهلة :

(أباهلُ أيّ محكمةٍ أحلّت   لكم أخواتكم تحت الثياب)

فظن لأول وهلة ان الفرزدق انما اراد بالمحكمة القضاة والحكام . وقد اتفق ان سياق البيت يروّج ظنه .

ولكننا استبعدنا ان يكون الفرزدق أراد هذا المعنى فراجعنا البيت المذكور في مظان وجوده ثم عثرنا عليه في كتاب (نقائض جرير والفرزدق) المطبوع في اوربا فاذا فيه كلمة (محكمة) مضبوطة بالشكل : بضم ميمها الاولى وفتح الكاف على صيغة اسم المفعول

(١) قرئت في إحدى جلسات المجمع .

من (أحكم) الأمر اذا اتقنه · ومنه (آيةٌ مُحكَمةٌ وآيات محكمات) وهي التي لا تحتاج الى تأويل لظهور معناها ·

فلا جرم ان يكون هذا المعنى هو المراد من كلمة (محكمة) في شعر الفرزدق · كأنه يقول لباهلة : أَيَّةُ آيةٍ مُحكَمَة من آيات القرآن أحلَّت لكم إتيانَ هذا المنكر ·

فلا شاهد إذن في الشعر وتبقى كلمة (المَحكَمَة) المفتوحة الميم دخيلةً في اللغة لا يعرفها أهل اللسان الأولون ·

ويمكن ان يقال : إن (محكَمة) كما ننطقها اليوم محرفة عن كلمة (مُحكِمة) بصيغة اسم الفاعل من فعل (أحكم) بمعنى أتقن لأن رجال المحكمة يُحكمون أحكامهم ويتقنونها · فالمُحكِمة جمع بمعنى (المُحكِمين) كما ان (المُسلِمة) بمعنى (المسلمين) · ومنه قول الراجز في خبر فتح مكة :

(ولو رأيتِ صفوان وفرَّ عكرمة ... وتبعتنا بالسيوف المسلمة) الخ

ويحتمل ان تكون (مُحكِمة) بصيغة اسم الفاعل مشتقة من (الإحكام) مصدر أحكم الفرَس اذا جعل حَكَمَة اللجام في فمه ليمنع جماحه · وهكذا الحاكم فانها تُحكِم الأشرار والمبطلين وتمنعهم من الظلم والفساد · على حد قول جرير :

(أبني حنيفة أحكِموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكمو أن أغضبا)

والحاصل ان كلمة (مَحكَمَة) من وضع او اشتقاق المولدين · واول من وضعها أراد بها اسم المكان مثل مدرسة ومصبغة — اوالمصدر الميمي مثل (مَضيَعَة) و (متربة) او ان (مَحكَمَة) محرفة عن (مُحكِمة) بمعنى متقِنة ومُجيدة ·

« المغربي »

مطبوعات حديثة

ديوان رامي

« طبع في مصر بمطبعة فوآد عدد صفحاته ٢٥٥ »

هو مجموعة مانظمه صاحبه السيد احمد رامي المصري بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩٣٠ من أغزال ونسيب ومراث وفي آخره طائفة من الاغاني العامية المصرية التي كانت تشدو بها المطربة الشهيرة السيدة أم كلثوم وتلقنهـا الى الآلة المعروفة بالحاكي فتذاع في جميع البلاد العربية بحيث أصبحت مستفيضة على أسلات ألسنة العوام والخواص في كل بلد وقطر وذلك من مثل الأنشودة التي اولها « ان كنت أسامح وأنسى الأسية » و « خايف يكوي حبك قلبي » و « خايف لتبرد نار حبي » فان الديوان مشحون بكثير من هذه (الطقاطيق) التي يقبل عليها الناس ساعات لهوهم فيسمعونها في المقاهي وحوانيت الباعة ويجدون في سماعها ارتياحاً وسلوى لانفسهم التي تساورها الهموم في الشطر الكبير من أعمارهم .

ومما تفرد به هذا الديوان عن سواه خلوه من المطولات فان اكثره مقطوعات ابيات كل منها دون العشرة واذا وجد فيه بعض القصائد فلا تجاوز احداها العشرين وهو خال من النثر حتى من البسملة والحمدلة والمقدمة واول مايستقبلك منه أبيات تشف عن اهدائه إياه الى من يهواه !! وهي هذه :

الى محراب افكاري ومهبط وحي اشعاري
الى القلب الذي حر ـ ك بالالحان أوتاري؟!!
الى جنة أحلامي الى نزهة أبصاري
الى الروح التي أحييت مني نفسي وأوطاري

الى الفجر الذي رصع — بالانداء نوّاري[1]
الى الطير الذي آ — نس بالتغريد اسحاري
الذمّ كأس اشعاري واهدي غضّ ازهاري

وهذه الأبيات على غرابة أسلوبها وتغاليها في اظهار صاحبها مايجده من هيام وصبابة بالمهدى اليه تكاد لاتجد فيها من الرشاقة والحلاوة مايثير الاعجاب وغاية مايقال عنها انها لتعمّد الايماء الى أنوثة المهدى اليه وتعبّد المهدي لحرابه وجنانه وجمال تغريده ولو كان ظاهر المراد يقتضي اللبس والابهام والتكتم ·

والديوان في سائر مشتملاته سهل الالفاظ صحيح التراكيب مستقيم الأوزان فيه شيء من الطلاوة والرونق وان كانت ابتكاراته نادرة فهو من قبيل الكلام المنظوم فان النظام غير الشعر كالايخفى وان كان هو هو من حيث آداب اللغة والفنون التي يترتب على الشاعر الاحاطة بها والاشتمال عليها ، ومن مستملحات شعره قوله :

هيئوا لي من الشعاع خيوطاً اعتلي متنهـا الى الأجرام
ودعوني اخطّ في صفحة الد — هر سطوراً أبقى من الاهرام

ومنها وهو بيت القصيد :

سكنت نأمتي وكان لقلبي رقصات تحكي حباب مدام

(ص٣٨و٣٩) ويعجبني البيت الاول والاخير من قوله :

أزن الحديث اقوله عند اللقا فيضيع عند تقابل النظرات
واعود بعد ترقبي القاءها والنفس ساهمة من الحسرات
فاقول ملني وملت (خلّي) والغدر طبع في هوى الفتيات
وأناصب النفس العداء فتنطوي ولربما يجني عليّ ثباتي

(١) «النوّار» على وزن رمان «النور» وهو الزهر وقد جاءت في بيت من قصيدة قديمة للشاعر المعروف سليمان الصوله وهو قوله :

نبيةٌ معجزات الحسن في فمها فالماء والنار والنوّار في فيها

عاش سليمان في دمشق على عهد المغفور له الامير عبد القادر الجزائري وكان خاصاً به واكثر مدائحه فيه ثم ارتحل في أخريات زمانه الى مصر ومات فيها في أوائل هذا القرن ·

(ص٢٢١) ويستحسن بين مراثيه القليلة قوله في المرحوم محمد تيمور من قصيدة :

كيف أرثيك يارفيق شبابي يا نجيّي من زمرة الأحباب
أبدمعي؟ الدمع ارخص مايبـ ـكي به صاحبٌ على الاصحاب
انتَ اولى بان يبأّل مثوا ـ ك بطلٍ من الفوآد المذاب

فان البيت الاخير لا يخلو من رقة وشجن (ص١٣٦) . وجلّ مافي الديوان ينطوي على وقائع غرامية ومواقف شوق ووصل تدلّ على ان قبلة أغزاله واحدة وانها من ذوات الشهرة في عالم الغناء والطرب ولذلك طاب الولوع بها والتمادي في حبهـا ولله في خلقه شؤون .

وللناظم في محمد عبد الوهاب المطرب المشهور خمسة ابيات وهي الى مطارحة الوجد اقرب منها الى المديح اولها :

هذه روحي انا : تصغي اليك وفوآدي خافقٌ بين يديكْ

وآخرها :

يحمل النفس الى دنيا المنى حيث يسري عنك ساجي ناظريك

وبالجملة والتفصيل فان الديوان تحفة جديرة بالاقتناء يستوجب ناظمه المدح وناشره الثناء .

« سليم غضوري »

البصريات الهندسية والطبيعية

« تأليف السيد مصطفى نظيف أستاذ الطبيعة بمدرسة المعلمين العليا بمصر »
« مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م »

تخطو الثقافة العلية العربية في مصر والشام بخطوات واسعة هذه السنين الأخيرة . فقد لايمضي حين من الزمن الا وتُخرج فيه للعالم العربي اوراً جديداً يدل على حركة مستمرة واتجاه فكري مفيد . وعلى الرغم مما يعتور هذا الانتاج الجديد من نقص يعده محبو الطفرة عيباً مشيناً ينقص من فضل صاحبه . امانحن فلايسعنا الا ان نرحب بهذا الانتاج لاننا نرى فيه الحجر الاساسي الذي سيقوم عليه بناء الثقافة العربية المنشود في المستقبل .

ومن الكتب العلمية النافعة التي وقفنا عليها اخيراً البصريات الهندسية والطبيعية للسيد مصطفى لطيف . فقد ألمّ فيه المؤلف بكل مايحتاج اليه الطالب في الجامعات من العلم في مبحث الضوء من الوجهة العلمية والعملية ، بعبارة فصيحة سهلة لا يضيرها ما يعتورها في قليل من المواضع من ركاكة او تعقيد في التركيب ناشئين عن حداثة العهد بالتأليف في الموضوعات العلمية الحديثة في اللغة العربية .

وفي الكتاب خطأ مطبعي لم يأت ذكره في باب تصحيح الخطأ ، من ذلك مافي ص ٧ س ١ (لناسبيا) والصواب تناسبياً . وفي ص٢٦ س ١ (على متداد) والصواب امتداد .

وقد جعل المؤلف في بعض المواضع الحروف الرمزية التي تمثل العبارة من شكل حروف كلمات العبارة مما يوقع في الإشكال احياناً . مثال ذلك ما جاء في ص٤٣ س١٢ « فاذا رسمنا من نقطة الشعاع او بحيث يكون الخ » فان حرفي (أ و) جاءا هنا كلمة تضلل القارىء زمناً عن المعنى المقصود .

وقد جاءت حروف القواعد والشروح واحدة في الكتاب مما يجعل مطالعته متعبة للنظر لا تستدعي استمرار الانتباه .

ويلي الكتاب ملحق بالاصطلاحات الانكليزية الواردة في الكتاب ومعانيها العربية مرتب على حروف المعجم الانكليزي وقد كان الأفضل جعلها على الحروف العربية لانها لغة الكتاب والقارىء يضطر لمراجعة مصطلحاته العربية ليعلم مدلولها الأجنبي فيلقى صعوبة كبرى في عمله هذا .

تلك نواقص لا يضير جوهر الكتاب وجودها ولكن اصلاحها يزيد في محاسنه فعسى ان يتلافاها المؤلف في الطبعة المقبلة .

اسعد الحكيم

دروس التاريخ القديم

للسيد محمدعزة دروزه أسلوب جميل في سرد التاريخ يقرّبه لفهم الدارسين بديباجات مستدرجة ، وله سلسلة دروس تاريخية خاصة بابناء المدارس الابتدائية ودروس في فن التربية لقيت إقبالاً عظيماً في المدارس ، وقد رتبها باساليب فنية جذّابة تبعث في الأولاد ولعاً على قراءتها وحفظها .

ومن هذه الطبقة كتابه « دروس التاريخ القديم » فهو كتاب مدرسي جاء في مئتين وثمانٍ وثمانين صفحة . وقد زينه بكثير من الرسوم والخرائط مما يساعد على فهم الحوادث المسرودة وبنقشها في مخيلة الدارس والمطالع ، وغمّه باقاصيص اخلاقية وادبية نثرها ملحاً بين أسطور التاريخ تستريح اليها ذاكرة الدارس وتكشف له القناع الذي يغشي احياناً إدراك الوقائع فيما لو جاءت متتابعة مترابطة بلا اداة ربط . وقد جاء في آخر كتابه على ذكر المراجع التي اقتبس منها فاذا هي ثقة لا غبار عليها .

صوّر الانسان في كتابه هذا الى التلاميذ مذ كان صياداً متنقلاً يعيش عيش الوحوش ثم تدرّج به خطوةً بعد خطوة مستقرياً اطواره وتطوّراته ، وازمانه واقتباساته ، ومعيشته واجتماعياته ، حتى بلغ به الى تأليف الدول القديمة فتكلم عن الاشوريين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين والعبرانيين والفرس واليونانيين الى ان ختم كتابه بالدولة الرومانية وسقوطها في عهد هرقل آخر قياصرتها وصيرورة ملكها الى العرب الفاتحين .

ولم يكتف المؤلف بسوق حوادث الحروب وكبار الملوك والقوّاد وذكر الفتوحات وتغيير الدول بل اتى ايضاً على نقد الاسباب الاجتماعية التي ادت الى تفوّق المنصورين على المقهورين ، والمّ بإلمام ما يجدر ذكره إبّان كل حقبة من الدهر عن الاديان والقوانين والزراعة والعمران تتمة للفائدة .

عبد الله رعد

الشواذ

في علم النحو

عجالة أتعرض فيها لذكر شيء من شواذ علم النحو أقدمها كالنموذج لمن احب الاطلاع على مافي هذا الفن من الشواذ التي لوتعرضتُ لحصرها واستقصائها لملأتُ بسوادها بياض هذه المجلة بأسرها .

واني أتمنى ان يتاح لي التصدي للالمام بما في معاجم اللغة من الكلمات الشاذة والألفاظ الوحشية المهجورة التي يمجها الذوق و يستثقلها اللسان فأجمع منها سفراً كبيراً أنفي فيه غثها عن سمينها وأنقي لبابها من قشورها التي يستغني عنها اللبيب استغناء الحي عن الميت .

على ان عجالتي هذه لا يعدم الناظم والناثر من ان يجني منها عدة فوائد :

١ — وقوفهما على مايجوز استعماله من الشواذ وما لا يجوز فيستعملان منهما في الاختيار وحين الاضطرار الجائز ويهملان الممتنع .

٢ — اطلاعهما على بعض اشعار غريبة في لغتها و تركيبها مما لا يتسنى لهما الاطلاع عليه الا بعد عناء طويل يصرفانه في تتبع كتب الأدب ودواوين العرب .

٣ — استفادة المتأدب بعض أحكام وقواعد في فن النحو بعبارة بسيطة وأسلوب سهل يغنيانه في تتبعها عن مراجعة المطولات من كتب هذا الفن .

٤ — اطلاع الأديب على ما في هذه المقالة من الأشعار التي يصلح الكثير منها لأن يكون مثلاً سائراً يذخره الأديب في حافظته فيورده في محاضراته و كتاباته حين الحاجة اليه .

وقد أعرضت عن شرح ماأوردته من الشعر روماً للاختصار وتفادياً من ملل القاري لان شرحها كما يجب يحتاج الى كتاب على حدته .

وهنا أشرع بالمقصود مصدراً إياه بهذا التمهيد فأقول :

« المطرد والشاذ »

المطرد عند النحاة مااستمر في الاعراب وغيره .

والشاذ عندهم مافارق بقية بابه وانفرد عنها الى غيرها .

والمطرد والشاذ على اربعة أضرب .

« الضرب الاول »

هو ما اطرد قياساً واستعمالاً اي هو الذي يقتضيه القياس ويستعمل في حر الكلام وذلك كالرفع في الفاعل والنصب في المفعول والخفض في المجرور نحو قام زيد ورأيت زيداً ومررت ببكر ، هذا الضرب هو الغاية المطلوبة من وضع فن النحو وتقرير قواعده وضبط مناهجه على الوجه الذي نطق به فصحاء العرب وذو اللسن منهم .

« الضرب الثاني »

هو مااطرد في القياس وشذ في الاستعمال اي ان القياس يقتضيه لكنه غير مستعمل في حر الكلام وذلك نحو الماضي من يذر[1] ويدع ، اصل الاول وذره يذره كوسعه يسعه فان القياس يوجب ان يكون له ماضٍ أسوة بامثاله من الافعال التي فاؤها واو كيرث و يثق ويرم ويرع فنقول في ماضيهما ورث ووثق وورم وورع ، اما يذر فليس له ماض اي لم يستعمل له ماضٍ في حر الكلام ، واما يدع فأصله ودعته ادعه ودعاً ، يقول النحاة ان العرب اماتت ماضيه ومصدره واسم الفاعل منه كما أماتت هذه الكلمات من يذر ، لكن قرأ مجاهد وغيره من أئمة القراء « ماودَعَك ربك » وورد في الحديث « لينتهين قوم عن ودْعهم » وقد جاء في بعض الاشعار ودع ماضياً فليس لنا ان نقول ان العرب أماتت من هذه الكلمة ماضيها ومصدرها انما لنا ان نقول إنهما قليلتا الاستعمال .

من أمثلة هذا الضرب ، خبر عسى اسماً صريحاً نحو قولك عسى زيد قائماً او قياماً ، هذا هو القياس أسوة باكثر أخوات عسى التي يكون الخبر فيها اسماً صريحاً ، غير ان استعمال خبرها اسماً صريحاً في حر الكلام محظور وما ورد منه في الشعر يعد شاذاً .

---

(١) كما ان يذر لا ماضي له فليس له مصدر ولا اسم فاعل فنقول بدل هذه الكلمات المائتة « ترك وترْك وتارك » وجاء عن بعضهم ليذر ماضٍ شعراً وذرته وهو شاذ .

« حكم هذا الضرب »

هذا الضرب من الشاذ لايجوز استعماله في حر الكلام ولا الاحتجاج به في تمهيد الاصول لانه كالمرفوض ، انما للشاعر ان ينطق به مضطراً . قال ابن جني « يجوز للشاعر ان ينطق بما يأباه القياس حين الاضطرار اليه كاظهار التضعيف في قوله (الحمد لله العلي الأجلل) وقوله (اني اجود لاقوام وان ضننوا) .

قلت يفهم من كلام ابن جني ان للشاعر حين الاضطرار ان ينطق بماضي يذر وماضي يدع وان يأتي بخبر عسى اسماً صريحاً وبكل مايرتضيه القياس وان خالف الاستعمال .

« الضرب الثالث »

هو ما اطرد في الاستعمال وشذ في القياس اي المستعمل في حر الكلام وان كان القياس يأباه وذلك نحو استصوبت الرأي واستحوذت على الكتاب واستنوق الجمل فان هذه الأمثلة شاذة عن القياس اذ هو يقتضي في استصوبت ان يقال استصبت وفي استحوذت استحذت وفي استنوق الجمل استناق كما تقول استقمت لا استقومت واستقام لا استقوم .

من هذا الضرب اي الشاذ قياساً المطرد استعمالاً (احزنه) فان مضارعه المقيس (يحزنه) بضم اوله لان ماضيه رباعي يجب ان يكون مضارعه مضموم الاول وانما اطرد استعمالاً يَحْزُنُ[1] بفتح اوله وضم ثالثه ومثله احمه الله فهو محموم وقياسه محم بضم ففتح لانه اسم مفعول لرباعي ومنه اجنه الله فهو مجنون وقياسه مجن بضم ففتح وهو شاذ في الاستعمال .

« حكم هذا الضرب »

حكم هذا الضرب من الشواذ — اتباع السمع الوارد فيه نفسه فيستعمل في حر الكلام لكن لايقاس عليه غيره .

(١) كان الاصمعي يقول الفصيح و يلغي ماسواه وابو زيد يجعل الشاذ والفصيح واحداً فيجيز كل شيء قيل ، قال ومثال ذلك ان الاصمعي يقول حزنني الامر يحزنني ولا يقول احزنني ، قال ابو حاتم وهما جائزان لان القراء قرأوا لا يَحزنهم الفزع الاكبر ولا يُحزنهم جميعاً بفتح الياء وضمها .

« الضرب الرابع »

هو الشاذ قياساً واستعمالاً ومن امثلته قولهم ثوب مصوون ومسك مدووف وفرس مقوود فان القياس يأبى تماثب الواوين كما ان استعمال مثل هذه الكلمات مما لا يرضاه فصحاء العرب ، ومن هذا الباب كلمات يؤتى منها ببعض حروفها بحيث لا يعرف منها اصلها كقول لبيد (درس المنا بمتالع فابان) فان المنا لا تفيد ان المراد منها المنازل وانما استفيد هذا من القرينة .

« حكم هذا الضرب »

حكم هذا الضرب من الشواذ الرفض فلا يستعمل في حر الكلام ولا في ضرورة الشعر لانه غير مقبول عند الفصحاء والبلغاء .

قلت من هذا الضرب تشديد النون من لدنه في قول ابي الطيب :

فارحام شعر يتصلن لدنّه وارحام مال مالني تتقطع

فهو مما شذ قياساً واستعمالاً وقد قيل لابي الطيب ان تشديد النون من لدن غير معروف في لغة العرب فأجاب بما خلاصته : ان للشاعر من الكلام ما ليس لغيره لا للاضطرار اليه لكن للاتساع فيه والفاق اهله عليه فيحذفون و يزيدون واورد في ذلك ابياتاً منها :

اذا غاب غدوا عنك بلعم[1] لم يكن جليداً ولم تعطف عليه العواطف

ومنها قول لبيد (درس المنا) واتى من هذا النحو بكثير من كلام شعراء العرب الذي يخالف القياس والاستعمال ومن جملة ما استشهد به على قوله ان للشاعر من الكلام ما ليس لغيره قول بعض الاعراب :

(من لد شولاً فالى اتلائها) حيث حذف كان واسمها بعد لد وهو شاذ قياساً واستعمالاً كما سنبينه :

وقد ردّ عليه ناقدو شعره فيما احتج به عليهم وقالوا خلط هذا الرجل باحتجاجه واجرى كلامه الى غاية توجب قلب اللغة ونقض مباني العربية لانه جعل الشعراء بزعمه امراء الكلام واباح لهم التصرف على غير ضرورة ، وهذه القضية ان سيقت على اطراد قياسها زال نظام الاعراب وجاز للشاعر ان يقول ماشاء وانما أجيز للشاعر ابواب محصورة مثل

(١) يريد ابن العم .

صرف مالا ينصرف وقصر الممدود واظهار التضعيف كقوله « اني أجود لأقوام وان ضننوا » وغير ذلك لا يسامح به الشاعر مما ليس له اصل يرجع اليه ويبنى أسه عليه ، اما تشديد النون من لدنه فليس هو من هذا القبيل بل هو مما شذ قياساً واستعمالاً فهو غلط محض اه ·

هنا أشرع بذكر طائفة مما سقنا هذا التمهيد من اجله وقد تسنى لنا جمعه من الكتب الموضوعة في فن النحو متوخياً به مذهب اهل البصرة دون مذهب اهل الكوفة جرياً مع جمهور علماء هذا الفن من حيث اتباعهم مذاهب البصريين في اكثر المسائل المختلف فيها بين اهل المصرين المذكورين فأقول :

— ما افعل — لايجوز استعمال ماافعل في التعجب من البياض والسواد كما لايجوز استعماله في غيرهما من الألوان وما ورد من ذلك في قوله :

اذا الرجال شتوا واشتد اكلهم   فأنت ابيضهم سربال طباخ

وقوله :

جارية في درعها الفضفاض   تقطع الحديث بالايماض

ابيض من اخت بني اباض

فهو شاذ قياساً واستعمالاً او يكون مراد الشاعر بابيض الذي مؤنثه بيضاء ليكون معناه فانت مبيضهم وفي درعها جسد ابيض ·

— لا في خبر لكن — لا يجوز دخول لا في خبر لكن وشذ دخولها عليه في قوله : (ولكنني من حبها لعميد) ·

— النيف — لاتجوز اضافة النيف الى عشرة وشذ قياساً واستعمالاً إضافتها الى عشرة بقوله :

كلف من عنائه وشقوته   بنت ثماني عشرة من حجته

على ان العدد المركب بمنزلة اسم واحد والاسم الواحد لا يضاف بعضه الى بعض ، واذا أضيف النيف الى العشرة يبطل المعنى فانك اذا قلت قبضت خمسة عشر من غير إضافة دل على انك قبضت خمسة وعشرة ، واذا قلت قبضت خمسة عشرة بالاضافة دل انك قبضت الخمسة دون العشرة كما لو قلت قبضت مال زيد فان المال يدخل في

القبض دون زيد كذلك ضربت غلام زيد فان الضرب يكون للغلام دون زيد ·

– استطراد — اذكر هنا الحكم في تعريف العدد استطراداً لكثرة ما تمس الحاجة اليه اذ كان الكثيرون من محرري الصحف يغلطون به فأقول :

اذا أردت ان تعرف العدد بأل فصلها بجزئيه ان كان معطوفاً فقل اخذت الواحد والاثنين والحادي عشر والثاني عشر والعشرين والثلاثين والمائة والمائتين الخ ، وصل أل بجزئه الاول ان كان مركبًا اي ان كان من احد عشر حتى تسعة عشر فقل اخذت الاحد عشر ديناراً والاثني عشر درهمًا الخ ، وصل أل بجزئه الثاني ان كان مضافاً فقل جاءني خمسة الرجال وتسعة الرجال الخ ·

هذا هو الحكم في تعريف العدد وعليه اتفاق الطائفتين ، غير ان الكوفي منهما يجيز في المضاف والمركب تعريف الجزئين فيقول في خمسة عشر درهمًا (الخمسة العشرالدرهم) و يقول في المضاف جاءني الخمسة الرجال ، على ان البصريين ينكرون ذلك و يقولون ان تعريف الجزء الثاني ايضاً من المركب غير جائز لان الاسمين لما ركب احدهما مع الآخر صارا بمنزلة اسم واحد لا ينبغي ان يجمع فيه بين علامتي التعريف بل تلحق الاسم الاول منهما لان الثاني يتنزل منزلة بعض الحروف ولذا عرف العرب الجزء الاول من الاسم المركب فقال ابن حمر :

تفقأ فوقه القلع السواري وجن الخاز باز[1] به جنوناً

فقال الخازباز ولم يقل الخاز الباز فعرف الجزء الاول ولم يكرر التعريف بالثاني ولم يحك عن العرب ذلك في شعر ولا في اختيار الكلام ، واما تعريف الدرهم فغير جائز لانه تمييز والتمييز لا يكون الا نكرة ·

اذا اتضح لك حكم تعريف العدد فاعلم ان كثيرين ممن يكتبون في صحف الأخبار يعرفون الجزء الثاني من العدد المركب فيقولون مثلاً اخذت خمسة العشر قرشاً وهذا غلط يأباه المذهبان ومنهم من يعرف الجزء الاول من العدد المضاف فيقول مثلاً ، اخذت الخمسة قروش وهذا ايضاً خطأ مخالف للمذهبين ، ومن هذا القبيل غلطهم في كلمة (غير) فانها من الاسماء الملازمة للاضافة فهي معرفة بما تضاف اليه فيلزم تعريفه فيقال مثلاً

(١) الخاز باز هو صوت الذباب او هو اسم للسنور وقيل فيه غير ذلك ·

هذا غير المطلوب منه ولا يجوز ان يقال هذا الغير مطلوب منه لما علمت ·

رجعاً الى الكلام على الشواذ

(ياء النداء) لا يجوز دخول هذه الياء على لام اللهم لان الميم عوض عنها وشذ دخولها عليها قياساً واستعمالاً في قوله :

اني اذا ما حادث الما اقول يا اللهم يا اللهما

وقوله :

وما عليك ان تقولي كلما سبحت او صليت يا اللهما

فان هذه الاشعار لا يعرف قائلوها فليس فيها حجة او يقال ان الشاعر جمع بين العوض والمعوض شذوذاً كما جمع بينهما كذلك في قوله :

هما نفثا في من فمويهما على النابح العادي اشد رجام

(الخفض في القسم) لا يجوز الخفض في القسم باضمار حرف الخفض الا بعوض نحو الف الاستفهام كقولك للرجل آالله مافعلت كذا او هاء التنبيه نحو هاالله ، وماعدا ذلك فهو شاذ استعمالاً ·

(الفصل بين المتضايفين) لا يجوز الفصل بينهما بغير الظروف وحرف الجر لضرورة الشعر وشذ الفصل بينهما بغير ذلك قياساً واستعمالاً بقوله :

فزججها بمزجة زج القلوصَ ابي مزاده

والتقدير زج ابي مزادة القلوص ·

وقوله :

تمر على ما تستقر وقد شفت غلائلَ عبدالقيس منها صدورها

والتقدير شفت عبد قيس غلائلَ صدورها منها ·

وقوله :

لما رأت ساتيدما استعبرت لله درّ اليومَ من لامها

يريد لله در من لامها اليومَ ·

(ساتيدما) جبل ما طلعت عليه الشمس الا او بقي فيه دم ·

وقوله :

عرفنا جعفراً وبني ابيه وانكرنا زعانف آخرين

— الا لا يليها من الضمائر غير الضمير المنفصل وشذ ايلاؤها الضمير المتصل بقوله :

اعوذ برب الناس من فئة بغت عليَّ فمالي عوض الاه ناصر

وقد اخذ على المتنبي قوله :

ليس الاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول

وقوله : (لم تر من نادمت الاكا)

— مني وعني بالتشديد تلزمها نون الوقاية وشذ تخفيفها لحذف نون الوقاية منهما بقوله :

أيها السائل عنهم وعني لست من قيس ولا قيس مني

— لا يجوز دخول ال الموصولة على الفعل المضارع وشذ دخولها عليه قياساً واستعمالاً بقوله :

من القوم الرسول الله منهم لهم دانت رقاب بني معد

وقوله :

من لا يزال شاكراً على المعه فهو حرٍ بعيشة ذات سعه

— اذا كان متعلق الظرف والجار والمجرور — خبرين وجب حذف متعلقهما وشذ التصريح به في قوله :

لك العز ان مولاك عز وان يهن فانت لدى بحبوحة الهون كائن

وقد صرح ابن جني بجواز اظهاره لكونه اصلاً .

— لا يجوز تقديم الخبر المحصور فيه المبتدا بالا — على المبتدإ وشذ قياساً واستعمالاً تقديمه على المبتدأ المحصور بالاً في قوله :

فيارب هل الاَّ بك النصر يرتجى عليهم وهل الا عليك المعول

— لا يجوز تقديم الخبر على المبتدأ الذي دخلت عليه لام الابتداء وشذ تقديم الخبر على المبتدأ الداخلة عليه لام الابتداء في قوله :

خالي لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء ويكرم الاخوال

— لا يجوز حذف كان مع اسمها بعد لدُ وشذ حذفها قياساً واستعمالاً في قوله :

كتحبير الكتاب بكف يوما يهودي يقارب او يزيل

يريد بكف يهودي .

وقول ابي الطيب وقد اخذ عليه :

حملت اليه من ثنائي حديقة سقاها الحجى سقي الرياض السحائب

يريد سقي السحائب الرياض .

الى غير ذلك من الاشعار التي فصل فيها بين المتضايفين وكلها مما لا يحتج بها لان قائليها غير معروفين سوى المتنبي .

(تأكيد النكرة) لا يجوز تأكيد النكرة بغير لفظها فلا يقال جاءني رجل نفسه وشذ تأكيدها بغير لفظها بقوله :

لكنه عاقه ان قيل ذا رجب يا ليت عدة حولٍ كله رجب

والبصريون يروونه (حولي) .

وقوله :

(قد صرت البكرة يوماً اجمعا) هذه الشطرة لا يعرف قائلها .

(العطف على الضمير المرفوع المتصل) لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المتصل في حر الكلام فلا يقال ضربت وزيدٌ وشذ في قوله :

قلت اذ اقبلت وزهر تهادى كنعاج الفلا تعسفن رملا

وقوله :

ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه ما لم يكن واب له لينالا

(العطف على الضمير المخفوض) غير جائز فلا يقال مررت بك وزيدٍ وشذ ما ورد من ذلك .

— أظن أنْ بعد كي شاذ —

— لا تأتي كما بمعنى كيما فتنصب ما بعدها وما جاء من ذلك فهو شاذ .

(الحال) يجب ان تكون نكرة ولا يجوز ان تكون معرفة وشذ في ذلك قياساً قول بعض العرب (ارسلها العراك) و (طلبته جهدك) و (رجع عوده على بدئه) .

(نون جمع المذكر السالم) لا يجوز كسره وشذ ذلك قياساً واستعمالاً في قوله :

(من لد شولاً فالي اتلائها) والتقدير من لد كانت النياق شولاً الى زمن تبعية ولدها لها ، وقد سبق الكلام على استشهاد المتنبي بهذه الشطرة محتجاً على من انكر عليه تشديد لدنه في قوله (فارحام شعر يتصلن لدنّه) .

— لايجوز ان تعمل ان النافية عمل ليس وشذ عملها كذلك بقوله

ان هو مستوليا على احد الا على اضعف المجانين

— لايجوز دخول اللام على خبر غير إن المكسورة وشذ دخولها على خبر أمسى بقوله

مروا عجالاً فقالوا كيف سيدكم فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

— لايجوز دخول اللام على الخبر وشذ دخولها عليه بقوله

ام الحليس لعجوز شهربة ترضى من اللحم بعظم الرقبة

— لايجوز دخول اللام على خبر أن المنفي بلا وشذ دخولها عليه بقوله

واعلم أن تسليماً وتركا للا متشابهان ولا سواء

— لايجوز ان تجر ربّ الضمير وشذ جرها اياه بقوله

واه رأيت وشيكاً صدع اعظمه وربه عطب انقذت من عطبه

(حتى لا تجر المضمر) وشذ جرها اياه بقوله

فلا والله لا يلفي أناس فتى حتاك يا ابن ابي زياد

(الكاف لاتجر الضمير) لانها مخصوصة بجر الظاهر وشذ جرها اياه بقول بعضهم

(رب) لايجوز ان تحذف و يبقى عملها من غير ان يتقدمها واو او فاء او بل وشذ جرها دون ان يتقدمها احد الثلاثة بقوله

رسم دار وقفت في طلله كدت اقضي الحياة من جلله

(كلا تضاف الى مفهم اثنين) دون ان يكون بينهما مايفرقهما فيقال كلا الرجلين كما جاء في قوله

ان للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

فاما اذا أضيفت الى مفهم اثنين لكنهما متفرقان كقوله

كلا أخي وخليلي واجدي عضداً في النائبات وإلمام الملمات

فان اخي وخليلي وان كانا مفهمي اثنين الا انهما قد فرق بينهما بواو العطف فاضـافة كلا اليهما في هذا البيت شاذة ٠

(الجمع بين حرف النداء وال في غير اسم الله تعالى وما سمي به من الجمل) غير جائز وشذ الجمع بينهما في قوله

فيا الغلامان اللذان فرا   اياكما ان تعقبـان شرا

(المضارع) لا ينصب بان محذوفة في غير المواضع التي تحذف فيها وجوباً اوجوازاً وشذ نصبها اياه محذوفة في غير ذلك كقوله

الا ايها ذا الزاجري أحضُرَ الوغى   وان اشهد اللذات هل انت مخلدي

والبصريون يروونه احضر بضم الراء ، وقد اخذ على المتنبي نصبه المضارع بان محذوفة في قوله

بيضاء يمنعها تَكَلَّمَ دلُّها   تيهاً ويمنعها الحياء تميسا

(من الاستفهامية) تلحقهـا الواو والنون في حالة الوقف فقط كما اذا قيل لك جاء القوم فقل منون بسكون النون الاخيرة ولا يجوز الحاقها بالواو والنون في حالة الوصل وشذ ذلك في قوله

اتوا ناري فقلت منون انتم   فقالوا الجن قلت عموا ظلاما

والقياس هنا يقول من انتم وفي هذا البيت عدة شذوذات منها تحريك النون الاخيرة من منون مع انها ساكنة ٠

(الاسم المفرد) الواوي العين اذا كانت صيغة جمعه على وزن فُعَّل جاز بقاء عينه في الجمع واواً وجاز اعلالها اي قلبها ياء فتقول في جمع صائم ونائم صوَّم ونوم وصيَّم ونيم ٠

واذا كانت صيغة جمع الاسم المذكور على وزن فُعَّال وجب بقاء عينـه واواً ولا يجوز اعلالها اي قلبها ياء فتقول في جمع صائم ونائم صوام ونوام ولا يجوز ان تقول صيام ونيام وشذ عن ذلك قوله

ألا طرقتنا مية ابنة منذر   فما أرَّق النيام الا كلامها

(سواء) لا يجوز تثنيتها للاستغناء عنها بسي وشذ تثنيتها بقوله

فيارب ان لم تجعل الحب بيننا   سوائين فاجعلني على حبها جلدا

(نون التوكيد) تلحق المضارع والامر فقط وشذ الحاقهـا باسم الفاعل في قوله « أشاهرن بعدنا السيوفا) وقوله « أقائلن أحضروا الشهودا » .

— لايجوز ان يجمع اللفظ جمع مذكر سالم اذا كان مذكره على أفعل ومؤنثه على فعلاء كاحمر حمراء وشذ جمعه في قوله

فما وجدت نساء بني تميم حلائل أسودين وأحمرينا

— لايجوز ان يجمع اللفظ جمع المذكر السالم اذا كان مما يستوي فيه المذكر والمؤنث وشذ جمعه كذلك بقوله

منا الذي هو ما إن طرّ شاربه والعانسون ومنا المرد والشيب

فان العانس من الصفات المشتركة التي لاتقبل التاء عند قصد التأنيث لانهـا تطلق على المذكر والمؤنث بلفظ واحد .

ولنكتف الآن بهذا القدر من الشواذ فحسب التاجر نموذجاً من سلعته حفنة يعرضها على المبتاعين اعلاماً بنوعها وتشجيعاً لهم على ابتياعها والله حسبي ونعم الوكيل .

حلب : كامل الغزي

—«*»—

ليس للغة قاموس

محيط بها

يظن بعضهم ان كل كلمة لم ترد في قاموس الفيروزابادي وفي صحاح الجوهري وفي لسان العرب ليست من اللغة وان استعمالها يكون خطأ ويهجمون على الكاتب الذي يكون قد استعملها بالتجهيل والتنديد . و يتوسع بعضهم في الامور فيضيف الى هذه المعاجم الثلاثة مخصص ابن سيده وأساس البلاغة والمصباح وتاج العروس فاذا كانت اللفظة لم ترد في هذه المعاجم السبعة فهي عنده ليست من كلام العرب في قليل ولا كثير .

وقد غلب هذا الوهم على اكثر الناس ونسوا ان مؤلفي هذه الكتب بشر مثلنا وانه لا يمكن ان تكون تآليفهم أحاطت بكل شيء فلم تدع شاردة ولا فاردة وانما نقل بعضهم عن بعض وقلد الآخر الاول حتى في الخطإ ونسوا انه من المأثور انه لا يحيط بلسان العرب الا نبي .

ولست أريد بذلك ان هذه الكتب ليست معياراً يصح الرجوع اليه او ان وجود اللفظة فيها وعدمه سواء وان للانسان ان يستشهد بها وان لا يستشهد . كلا . ليس هذا المقصود بل كل ما أريد ان أقوله هو ان الاحاطة لم تقم وان كلمات كثيرة شردت من هذه المتون كلها او بعضها وهي لاتقل عروبة عن الكلمات المقيدة فيها .

ولا ينبغي ان يؤخذ من هذا ايضاً ان الخطأ الذي يجوز ان يقع فيه بعض الكتاب والمؤلفين من استعمال لفظ لم يسمع او لم يرد بالمعنى الذي استعمله فيه ذلك المؤلف لا يكون معدوداً من باب الخطإ ولو خلت منه المتون التي ذكرناها .

كلا لا يزال الخطأ خطأ والصحيح صحيحاً ولن تبرح هذه المعاجم لا سيما متى اتفقت رواياتها أحسن مراجع اللغة العربية .

ولكن تأتي لفظة في كلام علي بن ابي طالب او غيره من الصحابة رضي الله عنهم وتدل القرائن مما سبق ولحق على ان اللفظة ليست من تحريف النساخ ولا تصحيفهم بل هي هكذا من الاصل فهل نقول ان علياً أخطأ في الكلام العربي لكون تلك اللفظة لم تجئ في تاج العروس ؟

وتأتي أخرى في كلام الجاحظ او ابن المقفع او كتاب وشعراء متأخرين عنهما لكنهم ممن حفظ من اللغة اكثر مما حفظ الفيروزابادي وابن منظور والمرتضى الزبيدي فهل نحكم عليها بانها غلط لمجرد خلو لسان العرب منها ؟

كلا لانخطئ الثقات والاثبات والذين ينزلون مايقولون بمنزلة مايروون لاجل خلو هذه المعاجم من كلمات استعملها هؤلاء الائمة .

وقد كان الاستاذ الطيب الذكر الشرتوني صاحب أقرب الموارد صديقاً حميماً لي وكثير الاجتماع معي فكاشفته مرة بما في نفسي من هذا الامر فوافقني عليه وسردت له عدة الفاظ وجدتها في كلام الفصحاء فنقلها وعثر هو على أخرى من بابها وأوعب ذلك كله في ذيل كتابه أقرب الموارد واثبتها تحت اشارة حرف « س » اي سعيد الذي هو سعيد الشرتوني أجزل الله ثوابه . وسماها بالضوال « التي افلتت يراع اللغويين فلم يذكروها في مظانها من كتبهم » واني أذكر منها ما نبهته اليه من قول ابن المقفع في الدرة اليتيمة « وان رأيت نفسك تصاغرت الدنيا » اي رأتها صغيرة فاثبتها في ذيل أقرب الموارد وكنت انتبهت لها يوم طبعت درة ابن المقفع وهي الطبعة الاولى لها .

وذكرت له ايضاً قول ابن الأبار القضاعي البلنسي في سينيته الشهيرة التي يستصرخ بها صاحب تونس الحفصي لنجدة الاندلس وهو هذا البيت :

وحال ما حولها من منظر عجب يستوقف الركب او يستركب الجلسا

لقد جاء في معاجم اللغة (استوقف) بمعنى طلب الوقوف . ولم يجئ (استركب) بمعنى طلب الركوب . الا ان الحافظ الشهير ابن الابار القضاعي كان بحراً زاخراً من أبحر اللغة ولم يكن ممن يضع من عنده او ممن يتعسف في النقل .

فهذه ايضاً أثبتها الشرتوني في ذيل كتابه وهي مما نبهته اليه مع غيرذلك من الألفاظ وقد جاءت ايضاً في كلام لسان الدين بن الخطيب في وصف اهل الاندلس وناهيك

بلسان الدين بن الخطيب رواية وثقة وحافظاً للغة ·

الا ان الاستاذ صاحب المنار نبهني الى ان الأساس أورد (استركبته فاركبني) ولم يزدني هذا التنبيه الا اقتناعاً بصحة مذهبي الذي هو عدم الجزم بخطإ استعمال لم يرد في احد المعاجم الشهيرة فأنت ترى ان لسان العرب والقاموس لم يذكرا (استركب) وان الاساس أوردها · ومن الغريب ان صاحب التاج فيما استدركه على القاموس في مادة (ركب) نقل من الاساس كلمات ولم ينقل جملة (استركبته فأركبني) فورودها في معجم وعدم ورودها في معجم آخر أدل دليل على عدم الاحاطة وكذلك عدم نقل صاحب التاج لهذه اللفظة عن الاساس مع نقله غيرها في هذه المادة عنه دليل على عدم ثقته بصحتها ·

ومما جاء في يتيمة ابن المقفع لفظة (راكم) اي ركم بعضه على بعض ولم يرد (راكم) لا في لسان العرب ولا في القاموس ولا فيما استدركه التاج ولا في أساس البلاغة وكلهم قالوا : أرتكم الشيء وتراكم اجتمع بعضه فوق بعض وركمه ركماً فارتكم وتراكم ·

ولنفرض ان (راكم) هنا هي من تحريف النساخ ولم تكن في اصل كلام عبدالله بن المقفع فخذ لك لفظة لم ترد في معاجم اللغة وهي من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتحريف بعيد عنها ·

جاء في الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد في الجزء الثالث ص١٩٨ طبعة ليدن مايلي من قول عمر : « ثم إئت رجلاً من قومك من تجارهم فقم الى جنبه فاذا اشترى شيئاً فاستشركه فاستنفق وأنفق على أهلك » ·

ورد في المعاجم (استنفقه) لكن لم يرد (استشركه) في لسان العرب ولا في القاموس ولا في التاج ولا في أساس البلاغة · فهل نقول ان عمر لا يعرف اللسان العربي ؟ ألا ان هؤلاء هم أهل اللسان وعنهم اخذ ·

ومن كلام عمر ايضاً ص ٢٢٩ من الجزء الثالث من الطبقات طبعة اوربة (أحصوا العيالات الذين لا يأتون) ولم أجد (عيالات) في كتب اللغة بل جمع العيل عيال وعيائل ولقد ورد رجالات في جمع رجل · فكأن العيالات جمع الجمع ·

ولم يرد في معاجم اللغة (عديد) بمعنى كثير بل هي بمعنى عدد يقال لا يحصى عدده

او عديده · ولكن صاحب تاج العروس نفسه في مقدمة التاج في الصفحة العاشرة يقول ما يلي :

وقد أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير فأملى ابو العباس ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم ·

ولم يرد (النوادي) بمعنى المجالس في كتب اللغة اي جمع ناد (وذكروا جمع ناد) على أندية وجمع الجمع أنديات · وقالوا في النوادي انها جمع نادية اي النخلة البعيدة عن الماء · ومما استدركه صاحب التاج على القاموس : نوادي الكلام مايخرج وقتاً بعد وقت والنوادي النواحي عن ابي عمرو والنوادي النوق المتفرقة ومما جاء في معنى النوادي الحوادث ·

والحال ان صاحب القاموس يقول في مقدمة القاموس (محمد خير من حضر النوادي) وفسرها صاحب التاج بقوله : المجالس مطلقاً او خاص بمجالس النهار او المجالس ماداموا مجتمعين فيها ·

وجاء في تاريخ الخلفاء العباسيين من (كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق) من جملة اخبار ماز يار وعبد الله بن طاهر مايأتي : « وكان قادن هذا ابن اخي ماز يار وقد قوده وجعله مع اخيه قادن وضم اليه عدة من كبار قواده » يريد ان يقول جعله قائداً كما يقال (امّره) جعله اميراً · ولكنني لم اجد (قوّده) بهذا المعنى لا في لسان العرب ولا في القاموس ولا في مستدرك التاج ولا في أساس البلاغة للزمخشري · وهم يقولون (قوده) كقاده شدد للكثرة وفي الاساس قود فرسه اكثر قياده واذا نزلت من فرسك فقوده ·

وعبارة كتاب العيون والحدائق لاتوقى من ضعف وهي من افصح الفصيح وفي العيون والحدائق (ايضاً) : وكتب الى عبد الله بن طاهر في تحصيل الحسن ولدالافشين فحصله عبد الله بادق حيلة ·

وظاهر هنا انه يريد بلفظة (تحصيل) معنى الادراك او المسك والحال انه لم يرد في هذا المعنى للاشخاص بل للاشياء يقال حصلت الشيء تحصيلاً أدركته قاله ابو البقاء · وجاء في القاموس التحصيل تمييز ما يحصل · وقال الراغب التحصيل اخراج اللب من

القشرة وجمعه كاخراج الذهب من حجر المعدن والبر من التبن قال الله تعالى (وحصل ما في الصدور) اي أظهر مافيها وجمع . وفي التاج تحصيل الكلام رده الى محصوله وقد جاء ذلك في الاساس ومما ورد في الاساس من هذه المادة : حصل العلم واجتهد فما تحصل له شيء وحصل تراب المعدن ميز الذهب منه وخلصه وحصل الدقيق بالمحصل وهو المنخل وحصلوا الناس في الديوان ميزوا بين شاهدهم وغائبهم وميتهم وقال ذو الرمة :

(اذا الاشياء حصلت الرجالا)

اي ميزت خيارها من شرارها . وسمي كتاب الحصائل لان صاحبه زعم انه حصل فيه مافات الخليل اهـ .

فأما حصل رجلاً بمعنى أدركه او قبض عليه فلم ترد في معاجم اللغة وانما تجد العامة يقولونها فاذا أدرك انسان آخر بعد لأي يقال حصله بعد ان كاد يفوته وحصلت فلاناً في المحل الفلاني وما أشبه ذلك .

وفي الجزء الاول من طبقات ابن سعد (ص ١١٥) طبعة ليدن عن ابن عباس من حديث « فتحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان (يعني عثمان بن مظعون) الى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه (نغض رأسه ويرأسه حركه) كأنه يستفقه مايقال له وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه مايقال له وشخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء كما شخص اول مرة (الى ان يقول) : فتحرفت اليه وتركتني فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك او فطنت لذلك قال عثمان نعم الخ » .

والحاصل انه استعمل فعل (استفقه) وكرره ثلاث مرات وهو هنا بمعنى (استوعب) او (استفهم) وليس في القاموس ولا التاج ولا اللسان ولا أساس البلاغة (استفقه) وكل ماهناك المستفقهة التي تجاوب النائحة .

والحديث هو عن عبدالله بن عباس وفي الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد وقد تكررت اللفظة ثلاث مرات بحيث لامحل لاحتمال التحريف او التصحيف فضلاً عن كون القرينة تقضي بانها (استفقه) وكون القياس يؤيدها .

وقد جاء في كتاب (نوادر الحمقى والمغفلين) المائق بمعنى الاحمق . ولم أجد هذه اللفظة

بهذا المعنى لا في لسان العرب ولا في القاموس ولا في استدراكات التاج ولا في الاساس وانما وجدت في المخصص لابن سيده في الجزء الثالث طبعة بولاق في باب ضعف العقل : رجل مائق بين الموق اي الحمق .

وجاء في المخصص في تعريف الطباجة انه الاحمق (المائق) .

وعن ابن السكيت : الطباجة الاحمق المائق القليل العقل الخبيث الذي لاخير فيه ولا عمل عنده وبلى سيعمل وعمله ضعيف وضرسه (بفتح فسكون) أشد من عمله ولا يحاضر به القوم وبلى سيحضر ولا يتكلم .

وراجعت أقرب الموارد لصديقنا الاستاذ الشرتوني فوجدته تابع القاموس واللسان والتاج فلم يذكر سوى .ثق الصبي يأق مأقاً اخذته المأقة فهومئق والمأقة شبه الفواق كأنه نفس يقلعه من الصدر عند البكاء والنشيج . والمئق الباكي ومنه انت تئق وانا مئق فكيف نتفق .

وفي الجزء الاول من طبقات ابن سعد الصفحة ٤٣ عن عثمان رضي الله عنه : خرج الى الناس فخطبهم . وقد رأيت هذا الاستعمال في غير موضع من كتب الاولين . والحال اني لم أجد في كتب اللغة خطب الناس بمعنى خطب عليهم او قال خطبة فيهم . وانما فعل (خطب) يتعدى رأساً اذا كان بمعنى طلب كأن تقول خطب وده او بمعنى طلب التزوج كأن تقول خطب فلان فلانة .

وجاء في رسائل بديع الزمان الهمذاني فعل (تقلق) بمعنى تكلف القلق ولم يرد هذا في كتب اللغة وانما العامة تقوله . وكثيراً مايقولون رأيته متقلقاً اي في قلق . وقد يقولون : تقلق في الليل بمعنى أرق .

وقد جاء في تاج العروس لفظة (إشهار) اتى بها عند تفسير (تنديداً) فقال (اشهاراً له) ثم عند تفسير (شــاهر سيوف العدل رد الفرار الى الاجفان بسلها) فقال : يعني ان اشهار سيوف العدل كان سبباً في ذلك .

والحال انه في مادة شهر لم يأتِ بها في هذا المعنى بل قال : واشهروا اتى عليهم شهر تقول العرب : أشهرنا .ذ لم نلتق . وقال : شهر زيد سيفه كمنع سله يشهره شهراً . وفي حديث ابن الزبير : من شهر سيفه ثم وضعه هدر دمه اي من أخرجه من غمده للقتال .

وفي الحديث : ليس منا من شهر علينا السلاح ·

والعامة في بلادنا تقول (شهر) الثلاثي ولا تقول (أشهر) ولكن صاحب التاج استعملها مع نقله هذا الفعل عن الفيروزابادي مجرداً ·

ولقد استعمل عبد الله بن المقفع في الدرة اليتيمة لفظة (التبخيل) بمعنى الحمل على البخل وهو استعمال صحيح ومنه الحديث عن الاولاد : انكم لتبخلون وتجبنون · وفي حديث آخر الولد مبخلة مجبنة مما يؤيد هذا المعنى ولكن لسان العرب في تعريف التبخيل لا يزيد على قوله (بخله رماه بالبخل او نسبه الى البخل) ·

وأقرب الموارد لا يقول سوى (بخله) رماه بالبخل · وراجعت ذيل أقرب الموارد لعلي أجد على ذلك استدراكاً فلم اجد ·

ولكن التاج ذكر التبخيل بالمعنى الذي جاء في الحديث الشريف والذي جاء في كلام عبد الله بن المقفع فقال : (وبخله تبخيلاً رماه بالبخل) وفسرها الزبيدي هكذا : او نسبه اليه او جعله بخيلاً ·

وفي نهج البلاغة لسيدنا علي كرم الله وجهه لفظة (التركاض) في كتابه لابن حنيف ولا تجد هذه اللفظة في كتب اللغة · وقد اشار اليها الشرتوني في ذيل أقرب الموارد ·

وفي تاريخ الوزراء للصابي (وكان محمد بن داود قد وزر لعبد الله بن المعتز ودبره) ومعناه انه كان يدبر اموره او كان مستشاراً عنده · ولم ترد هذه اللفظة في كتب اللغة على هذا الوجه بل يقولون دبر الامر ودبر الوالي البلاد ولم يقولوا دبر الوزير السلطان او الخليفة ·

شكيب أرسلان

ابن خفاجة الاندلسي

—«×»—

هو ابواسحق ابراهيم بن ابي الفتح بن عبدالله بن خفاجة شاعر شرقي الاندلس واحد وصاف الطبيعة .

ولم نعلم من نسبه اكثر مما ذكرنا . وقرأنا ديوانه فلم نتعرف منه أكان عربي الأصل أم اعجميه ولعلنا بعد عاثرون على مايقفنا على حقيقة عنصره اذا كان في الاجل فسحة ، وللجهد ندحة .

« الحالة السياسية والاجتماعية والادبية في عصره »

لعلك أيها القارئ ذاكر ما وصفنا به في ترجمة ابن زيدون (المنشورة في الأجزاء الماضية) احوال البيئة السياسية والاجتماعية والادبية في الاندلس عصر ذلك الرجل وما كان لها من الاثر في طباعه ومعرفته ، فكذلك كانت البيئة التي نشأ فيها مترجمنا لأن ابن خفاجة الا قليلاً ، فانه نشأ في وسط هذا العصر اي في زمن ملوك الطوائف ، وعاش طويلاً حتى زالت دولهم . وورث المرابطون الملثمون ديارهم وولوا عليها السادة من ابناء سلطانهم ، فشاهد كل حكمهم في الاندلس .

وهؤلاء المرابطون وان أسس اوائلهم دولتهم على مبدإ الانتصار للاسلام والزهادة في الدنيا ، وايثار الخشونة في العيش ، فان ابناءهم في الاندلس وولاتهم بها لم يلبثوا ان حذوا حذو ملوك الطوائف في التنعم والانق ، وان لم يستطيعوا الترفيه على كل المقيمين بالاندلس من اهل العلم والادب ، اذ كان فضل جباية الأموال والثمرات منقولاً الى الحضرة بمراكش . فمن لم يستطب العيش بالاندلس ممن ادركته حرفة الأدب أجاز الزقاق الى عدوة المغرب الاقصى وافريقية ، ومن كان له بقية من تراث آبائه تبلغ

بها عن مفارقة الوطن ، وتصون عن خدمة السادة من الابناء اوالثائرين عليهم المستبدين ببعض النواحي من اهل البلاد كشاعرنا ابن خفاجة ٠

ولكل هذه الأحوال تأثير بين في نشأة ابن خفاجة فوق تأثير طبيعة الاقليم الذي كان بقطنه من شرقي الاندلس ، وهو مدينة شقر التي تقع على نهاية وادي نهر شقر بين بلنسية وشاطبة (وهما من اطيب البلاد واكثرها بساتين ومنازه) وعلى مقربة من بحر الروم (البحر المتوسط) وتحيط بها المياه من اكثر جوانبها حتى سميت لذلك جزيرة شقر وفيها يقول ياقوت صاحب المعجم « جزيرة شقر في شرقي الاندلس وهي أنزه بلاد الله واكثرها روضة وشجراً وماء » وفيها يقول الاديب ابو عبد الله محمد بن عائشة من قصيدة بديعة :

فيا راكباً مستعجل الخطو قاصداً الا عج بشقر رائحاً ومغاديا
وقف حيث سال النهر ينساب أرقماً وهب نسيم الأيك ينفث راقيا
وقل لأثيلات هناك وأجرع سقيت أثيلات وحييت واديا

فكان في صباه شاباً طروباً مرحاً لعوباً يستبق الى اللذات و يباكر الرياض يصفها و يناغي اطيارها ، كأنه عندليب يحط من الوادي على سرحة ، فيصدح صدحة ، ثم ينتقل منه جنات الفافاً ، ليناشد ألافاً ، طبعته على ذلك طبيعة الوادي الذي يقطنه ، والدولة التي يعيش في سلطانها ، فقد نشأ في ملك بني عبد العزيز العامريين ومواليهم[1] المستبدين بملك بلنسية وشرقي الاندلس ، وكانوا من خير ملوك الطوائف ايثاراً للادب وحدباً على اهله وضبطاً لامور بلدهم ، فطاب العيش في اكنافهم ، واشتمل الامن على رحابهم ٠ وكان يتاخم ملكهم الى الجنوب من موالي العامريين ايضاً ملك المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وطال ملكه وعز سلطانه ، حتى لم يكن في آخر ملوك الطوائف من هو أقوى منه سلطاناً عند عبور المرابطين الى البلاد غير المعتمد بن عباد ٠

ولم يبرح ابن خفاجة في كهولته وشيخوخته وطنه ، بل أقام في سلطان المرابطين مقرباً الى ولاتهم والسادة من ابناء ملوكهم ، مترفعاً عما في ايديهم بما في يده ، متبتلاً

(١) نسبة الى المنصور بن ابي عامر الحاجب المستبد بملك بني أمية مدة المؤيد هشام ٠

العالية والخصب والامن في دولتهم، حتى وافاه اجله عند انتهاء اجل دولتهم باستيلاء بني عبد المؤمن من الموحدين على ملكهم .

فقد علمت مما تقدم ان نشأته الاولى وهي سن التأدب والتحصيل كانت في بهرة عصر ملوك الطوائف ، وكانت الاندلس حينئذ غاصة بالادباء والشعراء والعلماء ، وكان ملوكها انفسهم شعراء وادباء ومؤلفين ، وكانوا على اشد تنافس في اصطفاء كل ذي إجادة واستيزار وزرائهم من جلة الكتاب والشعراء .

فالعيش في ظلال هذا الوادي اليانع ، وعلى ساحل هذا البحر المتوسط ، وتحت سرادق هذا الرخاء الشامل ، وبين هؤلاء المثقفين بالعلم الغزير والادب الرائع ، وحوالى هذه النعمة الموروثة ، خليق بان يخرج في أفق الادب شاعراً مثل ابن خفاجة بهجاً بالصبا لهجاً بالهوى ، ولعاً بالجمال ، متقلباً في اللذات ، وصافاً لبدائع المشاهدات من روضات الجنات ، حتى اذا ماانقشعت سحب شبابه ، وتشتت شمل أحبابه ، وعدت شعوب على اترابه أخلص في اوبته ، وأقلع عن صبوته ، الا بقية من ذكرى ايام الصبا واجتلاء محاسن الطبيعة لاتزال عالقة بشعره سائر حياته وما فارقته الا بمماته .

« نشأته ومعيشته »

ولد ابن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ بمدينة (شقر) وضبطها ابن خلكان بضم فسكون وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح فسكون وعندي ان ضبط ابن خلكان اقرب الى الصحة لان اسمها أعجمي هي الوادي المسمي باسمها الذي تقع هي عند مصبه وهو نهر شقر . وكتب قديماً على المصورات التاريخية للمملكة الرومانية بشين مشمة الى الضم .

ومدينة شقر هذه من اعمال بلنسية المشهورة بكثرة بساتينها وفاكهتها الى وقتنا هذا . وجنوبي شقر مدينة شاطبة ، ولا تقل عن بلنسية في طيبها . وكلتا المدينتين اخرجت الكثيرين من فحول الادباء والقراء واهل الحديث والعربية ، ولاغرو فاذا كتنفاها لمدينة شقر عن يمين وشمال كان له اثر اي اثر في انشئة ابن خفاجة ، واقتبه من طلائعها فنون الادب وعلوم العربية ، وان لم نقف على اسماء من اخذ عنهم ، ولا على شيء من اخبار تربيته الاولى غير كونه في شبابه صاحب لهو وتطرب وقصف ومجون يختلف مع احبته وندمائه الى

الرياض والبساتين ويجتلي الثمار والرياحين . ثم تاب واناب . وفي ذلك يقول الفتح بن خاقان وهو من معاصريه .

« وكان في شبيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه ، كثير الوسن بين صفا الانتهاك وجونه ، لا يبالي بمن التبس ، ولا اي نار اقتبس ، الا انه نسك اليوم نسك ابن أذينة ، وغض عن ارسال نظره في أعقاب الهوى عينه » .

ولم يعرف عنه انه تكسب بالادب والشعر او خدم في دولة ملك من ملوك الطوائف بالكتابة و بالحجابة كدأب اكثر أدباء الاندلس في التعيش فقال ابن بسام صاحب الذخيرة بعد أن أثنى عليه .

« وكان مقيماً بشرق الاندلس ، ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها ، مع تهافتهم على اهل الادب » .

إذن فمن اين كان يعيش ؟ إن من قرأ ديوانه يجد في خلاله انه كان يعيش من فضل تراث خلفه له آباؤه ، وانه كان له ضيعة اوضياع يتبلغ بغلاتها ، واستغنى بها عن قصد الملوك الا اذا ظلم بمصادرة او إرهاق بضريبة ، فربما قصد بعض الملوك او امراء المرابطين في التظلم اليه ، فمدحه ببعض القصائد ، وفي ذلك المعنى قصيدته الرائية البليغة التي بعث بها الى الامير ابي يحيى بن ابراهيم يمدحه و يسأله شكر القائد الاعلى ابي عبدالله محمد بن عائشة عن بره به وحمله في امر ضياعه . واولها :

سمح الخيال على النوى بمزار والصبح يسمح عن جبين نهار

وفيها يقول في استغاثته :

حرم اذا اشتمل الطريد بظله لم يخش من جور هنالك جاري

وقوله من قطعة كتب بها الى الامير ابي بكر :

اوجهك بسام وطرفي باكِ وعدلك موجود ومثلي شاكِ

وتأبى اعتصامي في جنابك همة تهزك هز الريح فرع أراكِ

ولقد نام عني ظالم لي ذاعر فيا هبة السيف الحسام دراكِ

وفي غير ذلك كانت صحبته للوزراء والامراء والرؤساء صحبة مؤانسة ومنادمة ، وكان تعففه عما في ايديهم داعية لاكباره في صدورهم ، ورفعه عن مرتبة الملال من

نفوسهم ، فعاش فيهم عيشة النظير لنظيره ، وحفظ على نفسه كرامتها .

والمطلع على ديوانه يرى من خلال الاغراض التي نظم فيهـا الشعر انه لم يغادر شرقي الاندلس كثيراً ، وربما رحل الى غربيهـا في بعض الحاجات فزار اشبيلية ونواحيها ، ثم يرى انه أجاز الى عدوة المغرب الاقصى في حكم المرابطين وطالت غيبته عن الاندلس حتى تشوقها وتلهف الى العودة ، فهل كانـ سفره الى عدوة المغرب تطلباً لتصرف في خدمة المرابطين في دار سلطانهم كما فعل كثير من أدباء الاندلس ؟ هذا ما ينافيه قوله في كثير من المواضع وما اخذ به نفسه من التصون . ولعله كان في رفع ظلامة طال الامد على الفصل فيها ، حتى تبرم بالمقام وحنّ الى وطنه ، وفي ذلك يقول من قصيدة :

فيا لشجا قلب مِنَ الصبر فارغ ... ويا لقذى طرف من الدمع ملآن
ونفس الى جو الكنيسة صبة ... وقلب الى أفق الجزيرة حنـان
تعوضت من واهًا بآه ومن هوى ... بهون ومن اخوان صدق بخوّان
وما كل بيضـاء بروق بشحمة ... وما كل مرعى ترتعيه بسعدان
فياليت شعري هل لدهري عطفة ... فتجمع أوطاري علي وأوطاني
ميادين أوطاري ولذة لذتي ... ومنشـأ تهيامي وملعب غزلاني
كأن لم يصلني فيه ظبي يقوم لي ... لماه وصدغاه براحي وريحاني
فسقياً لواديهم وإن كنت انما ... أبيت لذكراه بغلة ظمآن
فكم يوم لهو قد أدرنا بافقه ... نجوم كؤوس بين أقمار ندمان

وفي تشوقه الاندلس يقول ايضاً :

ان للجنة في الاندلس ... مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ... ودجى ظلمتهـا من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا ... صحت وا شوقاً الى الاندلس

وعاش ابن خفاجة بقية عمره في نسك وزهادة وحنين الى الصبا وذكرى لفقد أحبائه ولداته لتأخر اجله ، ولكن كل اولئك لم يسله عن اجتلاء محاسن الطبيعة ووصفهـا بابلغ القول حتى وافته منيته سنة ٥٣٣ بجزيرة شقر مسقط رأسه .

* * *

« شعره »

يعتبر ابن خفاجة من شعراء الطبقة الثانية في الاندلس اي بعـد طبقة ابن هانئ ، وان لم يكن له فر بع ايها ، فهو لا يقل في جزالة لفظه وتصرفه في المعاني عن اكبر شاعر بعد ابن هانئ ، وهو يفضل ابن زيدون في اختراعه كثيراً من المعاني الرائعة وحسن توليده لها ويفضله ابن زيدون في غلبة السهولة والانسجام على شعره .

وامتاز ابن خفاجة عن سائر شعراء الاندلس في حسن وصفه لمشاهد الطبيعة وكثرة تصرفه في معاني الوصف على كثرة ولوع شعراء الاندلس بهذا الفن من الشعر ، حتى عده أدباؤهم ومؤرخوهم فريد قطره ووحيد نسجه ، بل غالى بعضهم حتى جعله في هذا الباب مقطوع النظير في المشارقة والمغاربة ، فلا يدانيه أمثال ابن الرومي والبحتري وابن المعتز والصنوبري وكشاجم والمأموني من وصافي المشارقة ، ولا ابن هانئ وابن دراج وابن وهبون وابن عمار والشنتريني والايادي وابن شرف وابن رشيق وابن حمديس من وصافي المغاربة ، وهو قول لا يخلو من شبهة ، ولا يقبل الا بعد مراجعة وتعقب . ولعلنا نشير الى ذلك بعد .

واذا حللنا — كما يقولون — شعره من حيث أغراضه ومعانيه والفاظه استطعنـا ان نجمل ذلك فيما يأتي :

أغراض شعره اي أبوابه وفنونه وضروب مقاصده فيه .

(١) الوصف — لا يغلو من يقول إن جل بضاعة ابن خفاجة من شعره الوصف بانواعه فلا تكاد قصيدة او قطعة له تخلو منه وبخاصة وصف مشاهد الطبيعة ، وربما أحله من صدور قصائده محل النسيب وذكر الديار ، بل أدخله في كل شيء من أغراض الشعر حتى الرثاء ولذلك عد عند جمهور الادباء من اكبر وصاف الطبيعة مع انه وصف غيرها كثيراً من المشاهدات والأحوال ، الا ان وصف تلك هو الغالب عليه . ومن قرأ ديوانه وجد ان وصفه يتناول جملة أشياء .

فقد وصف من النبات وبقاعه الرياض والبساتين والربا المخضرة والاشجار والازهار وبعض الثمار .

ووصف من المياه ومايداخلها ، البحار وسفنها وزوارقها ، والانهار وشواطئها وصفاءها

وحصاها ، والجداول والتواءها ، والسحب والأمطار والثلج والبرق ، وما يشاكل ذلك من النار وضوئها وهو مغري بوصفها .

ووصف من السماء غيمها وصحوها وشمسها والبدر والهلال والكواكب ذوات الصور والاسماء الشهيرة كالثريا والفراقد ، والليل وطوله وقصره وظلامه والسرى فيه وهو من أحسن واصفيه .

ووصف من الحيوان الخيل وكلاب الصيد والذئاب والارانب والحيات .

ووصف من الارض الجبال والاودية والديار والمنازل وقبور الموتى .

ووصف من أحوال الانسان السواد والبياض والشيب والشباب ونبات العذار وسواد الخال والنوم وطيف الخيال ومعارك القتال .

ووصف من الادوات السيف والرمح ومحك الذهب والكاس وآنية الشراب الخ .

ولو شئنا ان نأتي لوصفه كل شيء بشاهد واحد من قوله لاتسع بنا مجال القول وعزّ على الطالب استحضاره ، ولكننا سنذكر بعد بعض شيء من وصفه مع جملة من شعره في الاغراض المختلفة ومن أراد الاستيعاب والتوسع فليقرأ ديوانه وهو مطبوع مشهور . ولم نأت بشيء مما ذكرنا الا بعد ان قرأناه في ديوانه .

(٢) النسيب — اكثر نسيبه من نوع الغزل الخاص بذكر الشوق والغرام وذكر محاسن النساء والغلمان على طريقة المشارقة ، ويقل في كلامه النسيب بذكر ديار العرب ومنازلها في جزيرتها ووصف الأطلال والدمن والظعائن — وقد يستبدل بالنسيب الذي يمهد به للمدح في القصائد المطولة وصف الطبيعة .

(٣) المدح — لم يتكسب ابن خفاجة بالشعر يمدح به الملوك والامراء . وتلك القصائد الطنانة التي تعد اطول قصائده انما مدح بها من ذكرنا إما استعداء على جائر عليه في امر ضياعه اواستصلاحاً لها ، وإما شكراً على يد ابتدأه بها ذو سلطان ، وإما وفاء بحقوق الصحابة واستبقاء لدواعي المودة ، ويدخل في معنى ذلك تهنئة صديق بارتقاء او قائد بفتح مدينة وفي ذلك يقول :

وأنشق لوعة امرار نجد صبا نجد أسائلها شميا

وكنت رجوت ان اعتاض منه زعيماً او عليماً او حليما
ولما ان نظرت مع الليالي فلم أنظر بهـا الا مليما
عياماً او سكاماً او جهاماً اثيماً او ذميماً او زنيما
شددت على القوافي كف حر كريم لا يسوغهـا اثيما
فما أطريت اذا اطريت الا حياً او حبيباً او حميما
ومطروراً أجرده صقيلاً ويعبوباً أكرّ به كريما

ويقصد بالحي ذا السلطان الذي يستعين به على حماية عقاره ويستشفعه في قضاء حاجته .

ويشهد له في تأييد دعواه هذه قول ابن بسام صاحب الذخيرة في ترجمته اياه (وكان مقيماً بشرقي الاندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفهـا مع تهافتهم على اهل الادب) .

وابن خفاجة اذا مدح أجاد المديح وطال فيه نفسه ، وانى بمعان غريبة .

(٤) الرثاء — وهو من الاغراض التي اكثر فيها القول وأبدع فيهـا المعاني بعد الوصف . واكثر ما قاله منه في رثاء إخوانه ولداته لوفاتهم قبله وتعميره بعدهم وتوحده في قرن يغايرهم تربية وطباعاً ، ولذلك كان توجعه لفقدهم وأسفه على ماضي ايامه معهم من أبلغ كلامه اثراً في النفس وأهيجه للشجون .

وربما استهل بعض قصائده في الرثاء بما يناسب مذهبه في وصف الطبيعة كقوله :

الا ليت لمح البارق المتألق يلف ذيول العارض المتدفق
ويركب من ريح الصبا متن سابح كريم ومن ليل السرى ظهر أبلق
فيهدي الى قبر بحمص تحيـة متى تحتملها راحة الريح تعبق
فعندي لحمص اـ نظرة لوعة وللنجم وهناً اي نظرة مطرق

وحمص هذه التي يذكرها اسم مدينـة اشبيلية لانه نزلها بعد الفتح جند حمص من اهل الشام .

وقوله وهو من بديع الافتنان من قصيدة يتصرف فيها بجملة فنون ويرثي إخوانه :

أفيما تؤدي الريح عرف سلام ومما يشب البرق نار غرام
وإلا فماذا أرج الريح سحرة وأذكى على الاحشاء لفح ضرام
اما وجمانٍ من حديث علاقةٍ يهز اليه الشيخ عطف غلام
تحلت به ما بين سلمى ومربع سوالف ايام سلفن كرام
لقد هزني في ربطة الشيب هزة أرتني ورائي في الشباب أمامي

الى ان يقول في الرثاء :

وقفت وقوف الشك بين قبورهم أعظمها من أعظُم ورجام
واندب أشجى رنة من حمامة وأبكي وافضي من ذمام رمام
قضوا بين واد للسماح ومشرع وغارب عز في العلا وسنام

(٥) الشكوى والتوجع — وا كثر ما يكون منه ذلك في شكوى الشيب والكبرة وفوات لذات الصبا واعياء الجسم وموت الأحبة فمن ذلك قوله :

فمن مبلغ الحسناء عني انني خلعت نجاد السيف خلع التمائم
وكنت اذا ماأعضل الخطب لاجئا الى كالئٍ من ضرب السيف عاصم
فهاأنا لا يُسرى أُواخي على السُرى عناناً ولا يُمنى تلوذ بقائم

وقوله :

الا ساجلْ دموعي يا غمامُ وطارحني بشجوك يا حمامُ
لقد وفيتهـا ستين حولاً ونادتني ورائي هل أمام
وكنت ومن لبـاناتي أُبَيْني هناك ومن مراضعي المدام
يطالعنا الصباح ببطن حزوى فينكرنا ويعرفنـا الظلام
وكان بهـا البشام مراح أنس فما ذا بعدنا فعل البشـام
فيا شرخ الشباب الا لقاء يبل به على يأس أوام
ويا ظل الشباب وكنت تندى على أفياء سرحتك السلام

وقوله يندب الشيب ويأسف على فوات الشباب (ويا أسفا على الشباب !) :

وما راعني الا تبسمُ شيْبة ... تحكرت لها وجه الفتاة تجهّما
فصفت غراباً بصدع الشمل ابيضاً ... وكان على عهد الشبيبة اسحما
فآه طويلاً ثم آه لكبرة ... بكيت على عهد الشباب بهـا دما
وقد صدئت مرآة طرفي ومسمعي ... فما أجد الاشياء كالعهـد فيهما
كأن لم يشقني مبسم الصبح باللوى ... ولم ارتشف من سدفة دونه لمى
ولم اطرق الحسناء تهتز خوطـة ... وتسحب من فضل الضفيرة ارقما
ولا سرت عنها اركب الصبح اشهبا ... وقدجئت شوقاً اركب الليل ادهما
ولا جاذبتني الريح فضـل ذؤابة ... لبست بها ثوب الشبيبة مُعلما

وقوله في آخر عمره وهي من لزوم ما لا يلزم :

اي عيش او غذاء او سِنة ... لابن احدى وثمانين سنة
قلص الشيب به ظل امرىء ... طالما جر صباه رسنه
تارة تسطو به سيئة ... تسخن العين وأخرى حسنة

وقوله :

الا هرّس الاخوان في ساحة البلى ... وما رفعوا غـير القبور قبـابا
فـدمع كما سح الغمام ولوعة ... كما أضرمت ريح الشمال شهابا
اذا استوقفتني في الديار عشية ... تلذذت فيهـا جيئة وذهابا
أكر بطرفي في معاهد فتيـة ... ثكلتهم بيض الوجوه شبابا
فطالـ وقوفي بين وجد وزفرة ... أنادي رسوماً لا تحير جوابا
وأمحو جميل الصـبر طوراً بعبرة ... أخط بها في صفحتي كتابا
وقد درستْ أجسامهم وديارهم ... فلم أر الا أقبراً ويبـابا
وحسبي شجواً ان ارى الدار بلقعاً ... خلاء واشـلاء الصـديق ترابا

(٦) الفخر — واكثر فخره من نوع الفخر الحكي المزعوم المحول الذي لا يرجع فيه الشاعر الى منقبة معروفة عنه او منسوبة لآبائه ، فهو يفتخر بالشجاعة وقهر الاقران في مواطن القتال ونيل المجد بظبى السيوف وأسنة الرماح مع انه من ارباب الأقلام لا الحسام .

ثم لا ينكر عليه فخره في بعض قصائده ومقطعاته بامتلاك ناصية الفصاحة في الشعر والكتابة لانهما كل صناعته ومنتهى غايته ، ومع ذلك انهو لا يجيده في الجملة وانما يجيد الفخر أصحاب الهمم الطامحة او النسب الشريف ، وصاحبنا كان خليعاً في صباه متزهداً متعففاً في كهولته وشيخوخته ، وكلتا الخصلتين مجلبة للخمول ، ولو كان له من الهمة وطموح النفس دون حاله من علو الكعب في الشعر والكتابة لاقترع مرتبة الوزارة او الامارة كما فعل غيره من أمثال ابن عمار وابن زيدون .

(٧) الحكم والأمثال — يقل في كلام ابن خفاجة الحكم والأمثال العامة في سياسة الناس وتدبير المعيشة ، وان خاض في الحكم الخاصة بالزهادة والعزلة والاعتبار بالموت وريب الزمان .

(٨) الهجاء — وأقل ما في شعره الهجاء وهو لا يحسنه بطبيعته ، وانما يهجو من يكثر اعداؤه وحساده بمنافسته لهم ، وهو قد أراح نفسه بالعزلة وعدم التعرض لمزاحمة الشعراء والنظراء على أبواب الملوك .

(٩) محبة الوطن والشوق اليه — وابن خفاجة ممن غلب على قلبه حب وطنه فآثر ملازمته اكثر حياته ، ولقد قضت عليه بعض الضرورة بالجواز الى عدوة المغرب فما هو الا ان عبر الزقاق حتى ألهبت فؤاده لوعة الفراق ، وحن الى العيش بين الاهل والرفاق ، وخيل اليه ان حياته ودنياه هي الاندلس واهلها ، بل هي جنة الدنيا ومنية النفوس القصوى بل رغب بها عن الاخرى وصاح وشدا :

يا اهل اندلس لله دركم ماء وظل وانهار واشجار
ماجنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت اختار
لا تختشوا بعدها ان تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وقال :

اجبت وقد نادى الغرام فاسمعا عشية غناني الحمام فرجعا
فقلت ولي دمع ترقرق فانهمي يسيل وصبر قد وهى فتضعضعا
ألا هل إلى أهل الجزيرة أوبة فأسكن أنفاساً واهدأ مهجعا

وأغدو بواديها وقد نغم الندى معاطف هانيك الربا ثم أقشعا
أغازلــ فيهــا للغزالة سُنة تحط الصبا عنها من الغيم برقعا
وقد لفض عقد الق طرفي كل تلمة نسيم تمشي بينهــا فتضوعا
وبات سقيط الطل يضرب سرحة ترف بواديها ، وينضح أجرعا
واين فنــا دار الي حبيبــة وحسبك مصطافا هناك ومربعا
لقد تركتني بين جفن جفا الكرى وجنب تقلى لا يلائم مضجعا
اقلب طرفي في السماء لعلني أشيم سنا برق هناك تطلعــا

وقد مر بك من هذا الباب مافيه غناء . « للبحث صلة »

القاهرة : احمد الاسكندري

ضحك الجاحظ (١)

— « » —

أدرج بكم من أفق من آفاق الجاحظ تتسع فيه أفياء الحقيقة الى أفق ينبسط فيه سلطان الجمال ، ان قطع عضو من أعضاء الحيوان ، او إلقاء السم على هذا الحيوان او استقصاء صفاته او دفنه في النبات اوذوقه او بج بطنه او جمع أضداده في إناء ، ان هذا كله لاتلتمس فيه الا الحقيقة ، وسواء أكانت هذه الحقيقة بنت الحواس أم كانت بنت العقل انها جافة وايّ طراوة في تجريب على ضب او على حية او على ظليم او على خنفساء او على عقرب او على جُرَذ او على نملة ، ولكن عبقرية البشر لا يتعاظمها تصوير الحقائق في صورة يتغير فيها الجفاف الى الطراوة واليبس الى النضاضة وهذا التصوير انما هو من عمل الفن ، فاذا أردنا ان ندرك قدرة الجاحظ عليه لزمنا ان نجول الى الإحاطة بناحية من نواحيه تنشئ لنا لذة تروّض قوانا العقلية فيخرج العقل من هذه الرياضة أقوى سلطاناً وأمرن طبيعة وأغنى مادة .

فها انا أخرج بكم من باب علم الجاحظ الى باب فنه . ولا يخطرن على بال احدان العلم والفن ضدان فالحقيقة أخت الجمال واذا أردنا ان نعلم مقدار اتصالها بالجمال فلنسمع ماقاله واضع علم الكيمياء الحديث ، قال (Lavoisier) : « ولما كانت الالفاظ هي التي تحفظ الأفكار وتنقلها نشأ عن ذلك اننا لا نستطيع تجويد اللغة الا اذا جوّدنا العلم ، ولا نستطيع تجويد العلم الا اذا جوّدنا اللغة ، ومهما كانت الامور أكيدة ثابتة ومهما كانت الأفكار التي تولدها هذه الأمور صحيحة اننا اذا لم يتهيأ لنا بيان صحيح يعرب عن هذه الأفكار لاننقل الا انفعالات خاطئة .

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الآداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

هذا مقدار عطف عالم من أجل العلماء على الفن والبكم رأي اديب يفصح عن عطفه على العلم فقد تمنى (Maurice Donnay) في خطاب خطبه في الأكادمية ان ينشأ الادب والعلم معاً كما ينشأ الشقيقان . —

فالعلم والفن صنوان ، فلنعجل الى البحث عن فن الجاحظ ، اول جهة من جهات هذا الفن تهكم الجاحظ وقبل ان أتعرض للكلام على تهكمه لا بأس بامضاء القول في اضاحيك الجاحظ .

للجاحظ ولع شديد بالضحك والاضحاك فكأنما لا ينظر الى الحياة الا من وجهها المشرق واي شيء أدل على فرط اهتمامه بالضحك من قراءة هذه السطور التي تمثل لنا مقدار تفننه في بيان وجوه استحسانه وتأثيره في الطباع . قال ابو عثمان[1] :

« ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك لما قيل للزّهْرة والحِبَرة والحَلْي والقصر المبني كأنه يضحك ضحكاً وقد قال الله جلّ ذكره : وانه هو أضحك وأبكى وانه هو أمات وأحيى . فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ولا يمُنّ على خلقه بالنقص وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً وهو شيء في اصل الطباع وفي اساس التركيب لان الضحك اول خير يظهر من الصبي وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي اولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم ومزح وضحك الصالحون ومزحوا واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، و بسام العشيات وهش الى الضيف ، وذو أريحية واهتزاز ، واذا ذموا قالوا : هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا وهو مكفهر ابداً وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه و كأنما وجهه بالخل منضوح وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار متى جازهما احد وقصر عنهما احد صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً ، فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ولم يعيبوا المزح الا بقدر ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جداً والضحك وقاراً » .

(١) كتاب البخلاء (مطبعة الجمهور ص ٦) .

لم تفلت الجاحظ حجة من الحجج في دفاعه عن الضحك فهو يستعين بكل شيء في هذا الدفاع ، يستعين بالأدب وبالقرآن وبالطب وبالنبي وبالصالحين ، وهذه طريقته في تقرير معنى يستأنس به ، وما هذا المعنى في مقامنا الا الضحك فالجاحظ مولع بالضحك ولكنه لا يريد ان ينفرد به وانما يحاول ان يشارك فيه قرّاء كتبه فكأنما يحاول ان يحمل هؤلاء القراء على النظر الى الحياة من الوجه الذي ينظر اليه منها فهو يحرص الحرص كله على إضحاك القارئ خوفاً من ملالته وسآمته فيصرف كل همه الى إدخال السرور على قلبه والنشاط على ذهنه بما يهتدي اليه من النوادر والغرائب ولقد وضح حرصه هذا في مواطن كثيرة من كتبه وخاصة كتاب الحيوان ، وما خصصت هذا الكتاب الا لجعله فيه للعلم أوفى نصيب فقبل ان يتفرغ للبحث عن الضب والغول والجن والهدهد والتمساح والظبي والأرانب والظربان وغير ذلك يستوقف القارئ في مقدمة كلامه ويعاهده على إضحاكه بشيء من النوادر أو الأخبار او الاشعار خوفاً من إضجاره فمن المواطن التي استوقف فيها القارئ قبل ان يدفعه في مباحث جافة وعلّله فيها بالاضحاك موطن يقول فيه [1] :

« وليس من هذه الأبواب باب الا وقد يدخله نتف من ابواب أخر على قدر ما يتعلق به من الأسباب ويعرض فيها من التضمين ولعلك ان تكون بها أشد انتفاعاً ، وعلى اني ربما وشحت ، فصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام وطرف أخبار وغرر اشعار مع طُرَف مضاحك ولولا الذي نحاول من استمطافك على استمتاع انتفاعكم لقد كنا سجّفنا وسجّحنا شأن كتابنا » .

فأنتم ترون في هذا الكلام مقدار اعتنائه بالاشارة الى مضاحكه والتنبيه عليها . ولقد فصّل مذهبه أوضح تفصيل في قوله [2] :

— باب ذكر الحمام —

« وان كنا قد أمللناك بالجد والاحتجاجات الصحيحة والممزوجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فاستنشطنك ببعض البطالات وبذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة

(١) كتاب الحيوان الجزء السادس ص ٦ .
(٢) « « « الثالث ص ٣ .

فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه مالا يبلغه أحر النوادر وأجود المعاني وانا استظرف امرين استظرافاً شديداً : احدهما استماع حديث الأعراب والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً فانهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وان تشدّد وكل غضبان وان أحرقه لهيب الغضب ولو ان ذلك لا يحل لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل مايجوز كل فن وسنذكر من هذا الشكل عللاً ونورد عليك من احتجاجات الاغبياء حججاً فان كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل اليه السآمة كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك وجماماً لقوتك ولنبتدئ النظر في باب الجمام فقد ذهب الكلال وحدث النشاط وان كنت صاحب علم وجدّ وكنت مرّناً موقحاً وكنت الف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين وكان ذلك عادة لك لم يضرك مكانه من الكتاب وتخطيه الى ما هو أولى بك وعلى اني عزمت والله الموفق اني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل فاني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها وماذلك الا في طريق الراحة التي اذا طالت أورثت الغفلة واذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح وما غايتنا من ذلك كله الا ان تستفيدوا » .

وللجاحظ مقامات كثيرة أشار فيها الى ولعه بالاضحاك اكتفي بالقدر اليسير الذي ذكرته تفادياً من التطويل . ولقد كان في تكريره هذه الاشارة دليل واضح على شغل ذهنه بالاضحاك ، واذا علمنا ان الجاحظ عاش في عصر نقلت فيه كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحوّلت آداب الفرس ، اذا علمنا ان عصر الجاحظ كان عصر حساب وطب ومنطق وهندسة وفلسفة وفلاحة وتجارة وغير ذلك من الأبواب التي قد تتعب الأذهان وتجهد العقول ، اذا علمنا هذا كله لم نعجب من ميل الجاحظ الى الاستنشاط ببعض البطالات وبذكر العلل الظاريفة والاحتجاجات الغريبة .

ولكن العلم وحده وما طبع به من طابع جاف لم يكن السبب الاكبر الذي من اجله لجأ الجاحظ الى الاضحاك حرصاً على نشاط القارئ ، افلم يضع كتاب البخلاء الذي

قال فيه [١] :

« ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء : تبيُّن حجة طريفة ، او تعرف حيلة لطيفة او استفادة نادرة عجيبة ، وانت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا مللت الجد » .

ولقد ذهب بعضهم الى ان ما تضمنه هذا الكتاب من احتجاج الاشحاء ونوادر أحاديث البخلاء لا صحة له وانما الجاحظ توخى في هذا كله مجرد الضحك والاضحاك على اني لا أستغرب شيئاً مما ورد في كتاب البخلاء . فقد تكون نوادره صحيحةً ومن عرف اخبار البخلاء وجالسهم وخالطهم لا يستبعد كتاب الجاحظ في احتجاجهم ونوادرهم فضلاً عن ان الجاحظ لم يخترع الاسماء اختراعاً فقد قال في مقدمة البخلاء [٢] :

« وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافةً الى أربابها واحاديث كثيرة غير مضافة الى اربابها ، اما بالخوف منهم واما بالاكرام لهم » .

وكيف كان الأمر فلا يخرج كتاب البخلاء عن الاضحاك كما لم يخرج طبع الجاحظ عن الضحك والاضحاك وربما ذهب في هذا الباب مذهباً ابعد فعمد الى الادب المجرَّد وسمى الاشياء باسمائها دون شيء من التورية وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

يستخرج من كل ما تقدَّم ان الجاحظ مولع بالضحك والاضحاك وقد اجتمع له في هذا المعنى ما لا يسهل اجتماعه لغيره : خلقة مشوَّهة تعين على المزح والظرف وربما كانت مصدر الضحك والاضحاك وطبع على الهزل فالجاحظ مطبوع على الهزل لا تفوته النكتة ولو في ديوان الخلفاء وانتم تعلمون ما صنعه بابن العيناء لما تقلد خلافة ابراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ، مولع بالنادرة ولو جلبت له هذه النادرة اشد الأذى ولم ينفكم ما فعله محفوظ النقاش فقد اكل اللبأ كله ولم يعبأ بفالجه طمعاً في الضحك والنشاط والسرور ومن فرط اهتمامه بالظرافة يخالط اهل الهزل ويروي من النوادر ولو على نفسه من هذا القبيل قوله :

فأما الذي اصابني انا من الذبان فاني خرجت امشي من عند ابن المبارك أريد دير

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص ٥ .

(٢) « « « « ص ٨ .

الربيع ولم أقدر على دابة فررت في عشب ونبات ملتف كثير الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفي فطردته ، فلم اقدر ، فتحول الى عيني فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني ، ولذبان الكلأ والغياض والرياض وقع لبس لذبرها ثم عاد الي أشد مما كان عليه ، ثم عاد فسدت باشد من ذلك فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي ثم عاد وانا في ذلك أحث السير اؤمل بسرعة انقطاعه عني فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي فذببت به بدل كمي فلما عاود ولم اجد له حيلة استعملت العدو ، فعدوت منه شوطاً لم اتكلف مثله مذ كنت صبياً فتلقاني الأندلسي فقال لي : مالك يا اباعثمان ، هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، أريد ان اخرج من موضع للذبان عليّ فيه سلطان فضحك حتى جلس وانقطع عني وماصدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جداً[1] » .

كان الجاحظ بالاضحاك امر بيّن وقد بسط مذهبه هذا في اكثر كلامه ولست في حاجة الى ذكر نادرة من نوادره في اثناء كلام له على بعض الحيوان او على الفلسفة او على الدين فان هذه النوادر مبعثرة في كتبه والحقيقة ان الذهن قد تتعبه امور العلم فيحتاج الى التنشيط فبين الجاحظ يمضي القول في العقرب وفي مقدار الانتفاع برمادها وفي طلبها الانسا ونحوه وفي استخراجها من بيوتها اذ تمن على باله نادرة سمعها من ابي عبيدة فيقول[2]

« قال ابو عبيدة : لسعت اعرابياً عقرب بالبصرة فخيف عليه واشتد جزعه ، فقال بعض الناس : ليس شيء خير له من ان تفسل له خصية زنجي عَرِق ، وكانت ليلة عميقة ، فلما سقوه قطب فقيل : طعم ماذا تجد ، قال : طعم قِرْبة جديدة » .

أو يخبره محمد وعلي ابنا بشير بهذا الخبر فيرويه فيقول[3] :

« ان ظئراً لسليمان بن دباس لسعتها عقرب فملأت الدنيا صراخاً ، فقال سليمان : اطلبوا لها هذه العقرب فان دواءها ان تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان ، فقالت العجوز : قد برئت وقد سكن وجعي ، لاحاجة لي في هذا العلاج ، قال : فأتوه بعقرب لا والله ماندري أهي تلك ام غيرها ، فأمر بها فأمسكت ، فقالت : نشدتك بالله وبالابن فأرسلها

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص ١٠٧ .

(٢) « « الخامس ص ١١١ .

(٣) « « « « «

عليها ، فلسعتها ، فغشي عليها ومرضت وتساقط شعر رأسها ، فقيل لسليمان في ذلك فقال : ياعجائبن لاوالله ان ردّ عليها روحها الا اللسعة الثانية ولولا هي لقد كانت ماتت » .

ولا شك في أن أمثال هذه النوادر تخفف من مؤونة البحث والتفكير والتعمق والتدقيق ، واذا جاز لنا ان نؤاخذ الجاحظ بشيء في هذا الباب فانما نؤاخذه في بعض الاحايين بفرط ولعه بالإضحاك فقد يخرجه غلوه في هذا المعنى عن المقدار فيرسل مثلاً في كلامه على بعض الحيوان أحاديث ونوادر من الشعر قد لاتتعلق بهـذا الحيوان ، فكأنما الجاحظ يريد ان يضحك القارئ ويسره كيف كان الامر ، فهو يتعمد هذا الإضحاك أحياناً وهنا موطن الكلفة وموقع الإفراط فاذا تعمدنا الإضحاك قليلاً ما نضحك والنادرة ان لم تكن بنت الطبع كانت فاترة .

وهذا المذهب الذي يلجأ اليه ليس فيه شيء من قوارص الكلام وربما أوحاه اليه عصره وطبعه وقد قلّد فيه الاوائل وسنعم قوله في هذا المعنى : واذا كانت الاوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ... ولكننا لا ندري من هم الاوائل ، أهم العرب أنفسهم ؟ ام هم اليونانيون ام الفرس ام اهل الهند ؟ وفي كل حال لم يتوخ الجاحظ في إضحاك القارئ الا التنشيط والاستجمام وسنتعرض في الاسبوع الآتي للمذهب المبني على القوارص وهو التهكم .

دمشق : في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣١

الحلاج [1]

رجلٌ شعوبيٌّ عُرف بالكتابة والشعر والتصوّف والزهد ثم شاع عنه ادعاء الربوبية (والعياذ بالله) اسمه الحسين بن منصور ويكنى بابي مغيث . ولد في البيضاء بفارس من أعمال سجستان ونشأ بواسط والعراق وهو مجهول تاريخ الولادة ولا نعلم شيئاً عن كيفية نشأته ودراسته قبل ان ذهب الى مكة المكرمة فقد اقام فيها مجاوراً زمناً طويلاً وقُتل في بغداد على عهد خلافة المقتدر ووزارة حامد بن العباس وذلك يوم الثلاثاء لسبع او ست بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩ للهجرة على ما سيجيء تفصيله وهو احد الذين قُتلوا في زمن العباسيين لقولٍ روي عنهم او شعر نُسب اليهم كبشار بن برد الذي قتله المهدي لقوله :

لا يؤيسنك من مخدّرةٍ ... قولٌ تغلّظه وان جرحا
عسر النساء الى مياسرة ... والصعب يركب بعد ما جمحا

وكصالح بن عبد القدوس الذي اتهم عند الخليفة بالزندقة فأنكرها وأصرّ على صحة عقيدته وكان شيخاً مسناً فاستتابه وعفا عنه حتى اذا خرج من حضرته قال القاضي وكان يريد قتله هذا يا امير المؤمنين الذي يقول :

والشيخ لا يترك اخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه

فكيف يتوب عن شيء قد ألفه فاسترده الخليفة وامر بصلبه فصُلب .

وهكذا جرى بالحلاّج فانه اتهم باقوال داعية للشبهة صادرة عن لسانه وابيات شعر منسوبة اليه فيها ما يدعو الى الشك والارتياب فأُخذ ثم جودل فامتحن فضُرب فعذب ثم

---

(١) مأخوذ من حلج القطن اي تجريده من قشوره وبزوره وتنقيته على ما هو معروف قيل لقب بذلك لانه جاء حلاجاً في دكانه وكلفه الذهاب في غرض له فضي الرجل وعاد فوجد قطنه كله محلوجاً .

قتل وشهر للناس وكان كل ذلك جائزاً مألوفاً في ذلك العهد عهد السيطرة على الآراء والضمائر . واخذ الناس حتى بالشبهات صيانة للعوذة وزوداً عن العقيدة ولاسيما بعد ان ظهر من الاباضية والشراة وسائر الخوارج واهل المذاهب الباطنية ماظهر مما أزعج الاسلام وارمضه ردحاً طويلاً وهو لايزال في ريق شبابه ومقتبل ازدهاره .

ولقد صحب الحلاّج حال حياته القاسم بن الجنيد والثوري والحسن البصري وعمرو بن عثمان المكي والفوطي . وتلمذ على بعضهم وبعد ان مات على هذه الصورة قال عنه ابو العباس ابن عطاء ومحمد بن حنيف وابو القاسم النصراباذي وغيرهم كثيرون انه طاهر الجيب نقي الصحيفة صحيح العقيدة وانه احد الاقطاب الربانيين والجهابذة المحققين . والحق يقال انه لم يوجد احد تباينت فيه آراء العلماء وتضاربت أقوال المؤرخين وارباب السير والمتفقهين كالحلاّج فانهم اختلفوا في وصف حاله وقاله والحكم على سريرته وعلانيته اختلافاً بعيداً حتى تعذّر على المستقريء المحقق الدقيق استجلاء الواقع مهما امعن في مطالعاته وبالغ في درس واستقصاء ماكتب عنه وله وعليه مع ان الكاتبين عنه — على ماحقق العلامة السيد ماسينيون الفرنسي قد بلغوا حتى هذا القرن الستمائة والستة وثلاثين مابين عربي وفارسي وهندي ومغربي واوروبي — فالعباس بن سريج كان يقول اذا سئل عنه « هذا رجل خفي عني حاله فلااقول فيه شيئاً » بينما نجد ابن خلكان على علمه وفضله يصرح بتسويئه ويقول بان اكثر علماء زمانه افتوا باباحة دمه ثم لم نبرح ان نرى القشيري محبذاً كلامه وآراءه مثنياً عليه مزكياً له ، ويتابعه في ذلك الامام الغزالي الشهير الذي افرد للكلام عنه فصلاً طويلاً ضافي الذيل خرّج فيه ما كان داعياً الى الشك من كلامه تخريجاً حسناً وبرّأ ساحته من كل ما استنكره الناس ناسباً كل ذلك الى شدة الوجد في الكمالات الالهية والتوله في جمال صفاتها المطلق . اما ابن الاثير والقزويني وغيرهما ممن تابعهما فيقولون انه كان في بدء نشأته زاهداً متصوفاً يظهر الكرامات ويجترح الآيات ويأتي بالخوارق والمعجزات حتى انه كان يركب الاسد ويتخذ الحية سوطاً ويأتي بفاكهة الشتاء في الصيف وبفاكهة الصيف في الشتاء ويمد يده في الهواء فيعيدها مملوءة دراهم يسميها دراهم القدرة مكتوباً عليها «قل هو الله احد» ويخبر الناس بما اكلوه وماصنعوه في منازلهم ومشاغلهم — كما كان يفعل الحاكم بامره الفاطمي في مصر عندما ادعى الالوهية فافتتن به خلق

كثير واعتقدوا فيه الحلول فقال بعضهم انه رب قدير وقال غيرهم انه ولي كبير وقال آخرون انه ساحر مشعوذ كذّاب تطيعه الجن والعفاريت فتأتيه بالفاكهة في غير اوانها الى غير ذلك من متلونات الاقاويل مما تطيش ببعضه الألباب وتحار بجزء منه المدارك . ومن المأثور من اقواله اثناء تواجده في محبة الله عزّ وجل :

انا من اهوى ومن اهوى انا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتني ابصرته واذا ابصرته ابصرتنا

فالحلاّج هذا على ما رأيت اختطّ طريقةً من الشعر لم يسبقه اليها سواه وانما تابعه عليها بعده كثيرون من كبار المتصوفين الروحانيين كالامام ابن الفارض المصري صاحب الديوان المشهور والشيخ محيي الدين بن عربي[1] وغيرهما ممن اتخذوا الشعر وسيلةً لبيان تجردهم عن الدنيا وولوعهم بكمالات الله ووصفها وصفاً يدعو الى الحيرة بتفسير ما يريدونه من العوالم المألوفة عرفاً وعقلاً على نحو قال الحلاّج هذا :

عجبت منك ومني اغنيتني بك عني
ادنيتني منك حتى ظننتُ انك اني

وقوله وهو عسير التفسير جداً على من لم يطلع منه او من احد صريديه على ما يريد :

ارسلت تسأل عني كيف كنتُ وما لاقيتُ بعدك من همّ ومن حزنِ

(١) ذكره صفي الدين ابن ابي المنصور كقطب من الاقطاب الربانية وقال عنه الذهبي انه لولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس . ولعل ذلك في حالة سكره بالمحبة وغيبوبته . ولد بمرسية سنة ٥٦٠ وتوفي في دمشق سنة ٦٣٨ للهجرة . ومن شعره الذي يجري مجرى نظم الحلاّج قوله :

قلبي قطبي وقالبي اجفاني سرّي خضري وعينه عرفاني
روحي هارون وكليمي موسى نفسي فرعون والهوى هاماني

ومن قوله في الغزل القدسي :

سروا وظلام الليل ارخى سدوله فقلت لها صبّاً غريباً متيما
فأبدت ثناياها واومض بارقٌ فلم ادر من شق الحنادسَ منهما
وقالت اما يكفيه اني بقلبه يشاهدني في كل وقت أماأما

لا كنتُ ان كنت ادري كيف كنت ولا كنتم اذا كنتُ ادري كيف لم اكن

وكقول ابن الشلمغاني[1] وهو يدلّ على مذهب الحلول الذي تبرأ منه ابن الفارض في قصيدته التائية :

بكُم اتحدث هوًى فلو حييتكم قلت السلام عليّ اذ انتم انا

والذي دعانا الى ترجمة الحلاّج في هذه المجلة انما هو هذه الجهة من جهات حياته اي كونه اديباً متكلماً ينظم شعراً عربياً خالص العروبة لا مغمز فيه ولا لحن يذهب فيه مذهباً غريباً يرمي الى مرام روحانية كلها رموز واشارات لا سبيل الى تفسيرها تفسيراً جليًا جازماً

(١) هو ابوجعفر محمد بن علي الشلمغاني الكاتب المعروف بابن ابي العزاقر ولد في شلمغان ولا يُعرف تاريخ ولادته ولا كيفية تعلمه ودراسته وغاية ما علمناه في بدء امره اتصاله بابي القاسم بن روح الذي يسميه الامامية الباب وكان من خواص الوزير حامد بن العباس ثم تفارقا واتصل ابن الشلمغاني بالمحسن بن ابي الحسن بن الفرات في وزارة ابيه الثالثة للمقتدر فشاع عنه اذذاك ادعاء الربوبية واحداث مذهب جديد فطُلب في وزارة الخاقاني فلم يوجد بل فرّ الى الموصل واستقر هناك عند ناصر الدولة الحمداني ولما احسّ بانقطاع الطلب عاد الى بغداد سنة ٣٢٢ وتبسط في اظهار مذهبه حتى قال عن نفسه انه رب الارباب وظهر له اشياع فقبض عليه الوزير ابن مقلة في شهر شوال من تلك السنة وأخذ معه ابن عبدوس وابن ابي عون ثم ضبط من داره رقاع ورسائل يخاطبه بها مريدوه خطاب العباد لمعبودهم فعرضت الخطوط على الناس فعرفوها واقرّبها ابن الشلمغاني ولكنه انكر ادعاء الربوبية والخروج عن السنة ولما أمر صاحباه بصفعه صفعه ابن عبدوس وامتنع ابن ابي عون مقبلاً لحيته ورأسه ثم قال « آلهي وسيدي ورازقي » بعد ان الرجل ردّ دعواه ولبث مصراً على الانكار بحضرة الخليفة الراضي بالله وجمع غفير من الفقهاء وبعد اخذ وردّ طال امره أفتى هؤلاء باباحة دمه ودم كل من ابي عون والحسين بن القاسم بن وهب الذي وزر للمقتدر وقد وجد بخطه وتوقيعه كتاب الى ابن الشلمغاني يعترف فيه بربوبيته فصلب هو وابوعون في بغداد وأحرقا بالنار وكان الحسين في الرقة فقتل هناك وحمل رأسه الى بغداد وكان ذلك في شهر ذي القعدة من سنة ٣٢٢ هجرية وهذه الحادثة تشاكل من اكثر وجوهها حادثة الحلاّج وكلتاهما وقعتا في عصر واحد وبين الاولى والثانية ثلاثة عشر عاماً فقط .

فيه مقنع لذوي الالهام كأنما القصد منها منذ إنشائهـا ان تكون كالأحاجي مغلقة مبهمة وان كانت منسجمة الألفاظ صحيحة التراكيب كقول الحلاّج عندما أخرج بباب الطاق للتعذيب والقتل :

نديمي غير منسوب الى شيء من الحيف
سقاني مثلما يشـرب بفعل الضيف للضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف

وكان قد قال قبلها فارق الحبس « حسب الواحد افراد الواحد له » وكلا القولين مما لا يستطاع دركه واستجلاء معناه بخلاف ماقاله وهو على الخشبة حيث كانت روحه تفيض بين السوط والسيف :

طلبتُ المستقرّ بكل ارضٍ فلم ارَ لي بارضٍ مستقرّا
اطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنتُ حرا

وهو قول بليغ واضح القصد جليّ المعنى يعرب عن زيادة طموح صاحبه الى المجد وحرصه على التفوق والشهرة ، ثم ينمّ في الشطر الاخير منه عن ندمه واسفه لإقدامه على المركب الخشن الذي اختاره سلماً يرقى به الى ذروة أمنيتـه وهي جلب إعجاب الناس وحيرتهم وتوخي التفهم عن طريق الاغراب في الأقوال والشذوذ في الأفعال مما ادّى به اخيراً الى تلك الخاتمة التعسة الاليمة وجعله في التاريخ علماً يستحق الرثاء ازاء ما كابده من ضروب المحنة واصناف البلاء .

فالحلاّج إذن شاعرٌ له مزية على غيره هي تفرده بطريقة اختطهـا لنفسه يريد منها امراً خاصاً خفيت حقائقه عنا وان كنا نستخرج منها هنا حبّ الاشتهار عن طريق الفلسفة في العقائد . ولكي يتسنى لنا تصوير حالة الرجل لقرائنا الافاضل من حيث خلقه وحذقه واقتداره العجيب على إدهاش معاصريه باظهاره غرائب الاعمال وخوارق العـادات والشذوذ في سائر مناحيه الكلامية والمعاشية نبسط لهم هنا ملخص ماروى الثقات من سيرة حياته فنقول :

بعد ان قدم الحلاج من خراسان الى العراق — وكان اذذاك مجهولاً خامل الذكر —

أزمع الرحلة الى مكة المكرمة فأقام بها على ماقيل سنة كاملة في العراء لا يستظل تحت سقف وكان يصوم بياض نهاره حتى اذا أمسى احضر له القوام ماء وقرصاً من الخبز فيشرب الماء ثم يعض من القرص ثلاث عضات ويترك الباقي . وكان شيخ الصوفية بمكة اذ ذاك عبدالله المغربي فلما اشتهر امر الحلاج اخذ اصحابه ومشى الى زيارته فوجده في جبل ابي قبيس جالساً على صخرة مكشوف الرأس حافي القدمين ينصبب العرق من جسمه متتابعاً فعاد باصحابه من حيث اتى ولم يكلمه . بل قال عنه لسائليه « هذا رجل يتقوى على قضاء الله فلسوف يبتليه سبحانه بما يفوق صبره وقدرته » ومنذ ذلك الحين شاع ذكره وذاع امره واخذ يتقول عنه الناس اموراً كلها غرائب وأعاجيب . قيل انه خرج يوماً من الحمام فلقيه بعض الهازئين به المخالفين له فصفعه صفعة شديدة فقال يا هذا لمَ صفعتني . قال الحق أمرني بذلك فقال بحق الحق اردفها باخرى فلما رفع يده يبست . وقال القزويني لما ظهر قوله « انا الحق » وتكلموا فيه قالوا له تداركاً للامر قل « انا أحَقُّ » بهمز الألف وتخفيف القاف فقال لا اقول الا انا الحق فأساؤا الظن فيه وقال له احدهم ان كنت صادقاً فامسخني قرداً فقال لو هممت بذلك لكان نصف العمل مفروغاً له . ومما قاله في استنكار الناس لقوله انا الحق :

سقوني وقالوا لا تغنِّ ولو سقوا جبال حنينٍ ما سُقيتُ لغنّتِ
تمنّت سليمى ان نموت بحبها واهون شيءٍ عندنا ما تمنّتِ

ومما قاله متزهداً :

دنيا تخادعني كأنّـ ـي لست اعرف حالها
حظر المليك حرامها فانا اجتنبت حلالها
فتى طلبت زواجها حتى اردت وصالها
ورأيتهـا محتـاجةً اوهبتُ جملتها لها

قال بعضهم لقيتُ الحلاج فأنشدني :

ولي نفس ستتلفُ اولترقى لعمر ابي الى امر عظيم

وهذا مما يؤيد القول ايضاً انه من اولئك الافذاذ الشديدي الطموح الى عالم الظهور

والاشتهار ولو عن هذا الطريق الوعر المسلك فعثر ومن لم يسلك الجدد هيهات ان يأمن العثار ·

قال عبدالله محمد بن حبيب دخلتُ على الحلاج وهو محبوس مقيد فرأيته يبكي ولما أدركته الصلوة رأيته نهض وقد سقطت عنه القيود فصلى · فقلت ياهذا لمَ لم تخلص نفسك قال ما انا بمحبوس ثم انشد :

والله لو حلف العشاق انهمُ موتى من الحب او قتلى لما حنثوا
قوم اذا هُجروا من بعدما وُصلوا ماتوا وان عاد وصلٌ بعده بُعثوا
ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

ثم قال : ياأبن حبيب لايكون الحزن الا لفقد محبوب وفوات مطلوب وهمُ الناس على قدر احوالهم واحوالهم مطبوعة بعلم الغيب وعلم الغيب محجوب عنهم · فالخلق كلهم حيارى وأنشأ يقول :

أنين المريد لشوق يزيد انين المريض لفقد الطبيب
قد اشتد حال المريد فيه لفقد الوصال وبعد الحبيب

ثم قال ايضاً ياابن حبيب حججت الى زيارة القديم فلم اجد لقدمي موطئاً من كثرة الزائرين فوقفتُ وقفة المبهوت فنظر اليَّ نظرة فاذا انا متصل به ثم قال من عرفني ثم أعرض عني ؟ فقلت :

عذابه فيك عذبُ وبعده عنك قربُ
وانت للعين عينٌ وانت للقلب قلب
حقي من الحب اني لما تحب احب

وقيل في سبب قتله انه نقل عنه الى الوزير حامد بن العباس انه يحيي الموتى وان الجن يخدمونه ويحضرون له مايشتهي وان نصراً حاجب الخليفة يقول بقوله ويميل الى رأيه فالتمس الوزير من الخليفة المقتدر ان يسلم اليه والحّ في ذلك كل الالحاح فسلم اليه على الرغم من نصر ودفاعه فأخذه حامد واخذ معه انساناً يُعرف بالشمري وغيره ممن يعتقدون انه اله فقررهم فاعترفوا بربوبيته وانه يحيي الموتى وقابلوا الحلاج على ذلك فانكره وقال حاشا لي ان أدعي الربوبية او النبوَّة انما انا رجل اعبد الله عز وجل فاحضر حامد القاضيين

ابا عمرو ابن العلاء وجعفر بن بهلول وجماعةً من وجوه الفقهاء فاستفتاهم فما أفتوا بشيء بل قالوا لايجوز قبول من يدعي عليه الا ببينة او إقرار وكان حامد يخرج الحلاج مراراً الى مجلسه فيستنطقه فلا يصدر عنه ما يخالف الشرع او يوجب المؤاخذة وطال الامر على ذلك والوزير مجدٌّ في امره يلتمس علة ليقتله بها وجرى له معه امور يطول شرحها الى ان رأى الوزير كتاباً له ورد فيه ان الانسان اذا أراد الحج ولم يمكنه افرد من بيته حجرة طاهرة لا يدخلها احد فاذا ازفت ايام الحج يطوف حولها ويعد ان يفعل ما يفعله الحجاج بمكة يجمع ثلاثين يتيماً ويطعمهم ويخدمهم بنفسه ثم يكسوهم ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم فاذا فعل ذلك كان كأنه حج فلما قرئ هذا في المجلس قال القاضي للحلاج من اين لك هذا قال من كتاب الاخلاص للحسن البصري فقال القاضي « كذبت يا حلال الدم» فقد سمعناه في مكة وليس فيه هذا فلما سمع الوزير قوله له « يا حلال الدم » طالبه بالافتاء كتابةً فدافعه ابو عمرو ولكن حامداً ألزمه فكتب باباحة دمه وكتب بعده من حضر فلما سمع الحلاج قال لهم « ظهري حمى ودمي حرام ومايحل لكم فاعتقادي الاسلام ومذهبي السنة ولي كتب في السنة فالله الله في دمي » ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون حتى انصرفوا من المجلس وحمل الحلاج الى السجن وكتب حامد الى المقتدر بما كان فعاد الجواب انه يسلم الى صاحب الشرطة حيثما يضرب الف سوط فان مات من الضرب والا فليضرب الف سوط أخرى ثم يضرب عنقه فسلمه الوزير الى صاحب الشرطة وقال له ان لم يتلف بالضرب فقطع يده ثم رجله ثم يده ثم رجله ، ثم حز رقبته وحرق جثته فأخرج الى باب الطاق صبيحة يوم الثلاثاء في ٢٣ ذي القعدة سنة ٣٠٩ كما قلنا وقد اجتمع خلق كثير لا يحصى عددهم فأتم الشرط ما أمروا به مع كمال القسوة فلم يتأوه ولم يتوجع فحز رأسه بعد قطع أطرافه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة ونصب الرأس على جسر بغداد ليراه اصحابه واشياعه ثم أرسل الى خراسان حيث يوجد له مريدون يقولون برجعته بعد اربعين يوماً وهم ينسبون اليه من خوارق المعجزات ما لا يجدر بنا سرده هنا وآخر ما اتصل بنا من شعره قوله :

لم يبق بيني وبين الحق اثنان ... ولا دليل بآيات وبرهان
كن الدليل له منه اليه به ... وقد وجدناه في علم وفرقان

هذا وجودي وتصريحي ومعتقدي هذا توحد توحيدي وإيماني
لا يستدل على الباري بصنعته وانتم حدث يبني بازمان

والأدعى الى الغرابة والدهشة ان يقوم في القرن العشرين اي بعد مرور زهاء الف سنة على قتل الحلاج رجل كالسيد ماسينيون من كبراء علماء المشرقيات من الفرنسيس فيخصص شطراً من صفوة ايامه ولباب حياته باحثاً عن الحلاج وعلم الحلاج ومذهب الحلاج وعدد من كتبوا اولاً واخيراً عن الحلاج من عرب وعجم وترك وهنود واوربيين وما هي كتبهم واين طبعت واين توجد ومن هم اولئك الكاتبون وماهي اللغات التي كتبوا فيها وما هي مؤلفات الحلاج وماذا قيل عن حياته وماذا قال ابنه عنه وشفع كل ذلك بصفحة مطبوعة بالزنكوغراف مأخوذة من كتاب عربي خطي الفه المرحوم السيد محمد سعيد القاسمي في الصناعات الشامية قال عنه انه من جملة كتب ابنه المغفورله السيد جمال الدين القاسمي وتقتصر هذه الصفحة على تعريف اسم الحلاج وماهي صناعة الحلاجة وكيف يحلج القطن وماهي الآلة التي يحلج بها العامة القطن ، ثم يجمع — اي ماسينيون — كل هذا في كتاب بالفرنسية يقع في مجلدين ضخمين ·

ولقد اتينا استطراداً بهذه الاشارة لكي يرجع الى الكتاب من يرى من وقته متسعاً وفي نفسه ارتياحاً للاشتغال على هذه التفاصيل وغيرها مما يخرج عن الغاية التي نتوخاها من مقالتنا وهي تعريف حياة الحلاج من حيث هو شاعر ذو خطة معينة وطريق خاص كما قدمنا لا من حيث آراؤه الدينية وما ترتب عليها من العقاب السياسي فان كلا الموضوعين — الدين والسياسة — يخرج عن دائرة العمل عندنا ولم نذكر ماذكرناه من هذا القبيل إلماماً وإلماعاً الا توصلاً للهدف الذي نرمي اليه من ايقاف المطالعين على مزية الرجل الشعرية والأدبية واتخاذه اياها وسيلة للخطة التي اختارها لنفسه في معترك هذه الحياة ليس الا ·

على اننا نصرح هنا اننا لم نر فيما قرأناه حتى الآن من تراجم احوال الرجال حياة اكثر غرابة وشذوذاً وميتة اعظم عبرة واشد هولاً من حياة هذا الرجل وميتته فانها مرآة وضاءة ترسم لنا بُعد الانسان مهما ارتقى الى مراتب الحضارة والعبقرية والعلم عن ذروة الكمال والله وحده ولي المرجع والمآل · دمشق : سليم عنحوري

عضو المجمع العلمي العربي

المهاجرة

لقد سحت في بلاد الغرب نحو عشرة اشهر صرفت معظمها في الولايات المتحدة الاميركية واجتزت تلك البلاد من الشرق الى الغرب وزرت اعظم ولاياتها ومدنها وشارفت عن كثب حالة السوري المهاجر فيها ، ومع ان الوقت الذي صرفته هنالك لااحسبه كافياً لاعطاء رأي حاسم في المهاجرة ، فها انا انقل لابناء بلادي باخلاص تام رأياً اعتقده صواباً غير مدع العصمة فيه او التفوق فيما انقله وابديه .

يرجع عهد المهاجرة الاول الى منتصف القرن الماضي على وجه التقريب وهو زمن الطلائع ولكن المهاجرة كانت على أشدها في الربع الاخير منه وفي اوائل هذا القرن حتى وقوع الحرب الكبرى ثم بعد انتهائها وليس هنالك احصاء دقيق لعدد المهاجرين من بلادنا يمكننا الرجوع اليه انما يعتقد العارفون ان هنالك على اقل تقدير ما يقارب نصف المليون من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين المهاجرين الى الاميركتين وجزر البحر واوقيانوسيا وغربي افريقية وجنوبيها وشماليها واكثرهم من خيار الشبان الاقوياء . ففي بعض مدن الغرب الكبرى كنيو يورك وبوسطن وديترويت من اعمال الولايات المتحدة الاميركية وساوبولو وريودي جنيرو من اعمال البرازيل وبونس ايرس من اعمال الارجنتين وغير هذه جاليات سورية تملأ مدناً صغرى برمتها عندنا كطرابلس وصور وصيداء ففي نيو يورك نحو اثنين وثلاثين الفاً وفي بوسطن نحو سبعة عشر الفاً وفي ديترويت نحو العشرين الفاً ويزيد العدد كثيراً في ساوبولو وريودجنيرو وبونس ايرس على هذا التقدير . وهنالك مدن كثيرة لا يقل عدد نفوس الجاليات السورية في كل منها عن اربعة او خمسة آلاف والسوريون قد تغلغلوا في بلاد المهجر حتى في اصغر القرى واحقر الدساكر يعمرون بلاد الاجانب وبلادهم تكاد تقفر من ساكنيها التي يقال انها كانت الى ثلاثة آلاف سنة خلت

نعد نحو الثلاثين مليوناً من النفوس . ولوحسبنا معدل نفقة المهاجر الواحد من بلادنا لايصاله الى ديار المهجر ثلاثين ليرة عثمانية ذهباً وانه يحتاج الى انفاق مثلهـا ليتمكن من العودة الى هذه البلاد ابلغ مجموع إنفاق المهاجرين في هذا السبيل ثلاثين مليون ليرة عثمانية ذهباً وذلك على أقل تقدير . وهل تملك بلادنا اليوم هذه القيمة من الذهب نقداً ??? او لا نحييها من العدم وننهض بها نهضة عظمى ثروة هذا مقدارها ???

وما انا بمبالغ ان قلت لكم ان ثروة جميع المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة وكندا الذين قد لا يربو عددهم كثيراً على المئة والخمسين الفاً من النفوس لا تتجاوز هذا المقدار المذكور عند التصفية لا بل قد تنقص عنه كثيراً . والسبب الاهم في ذلك هو أن السوري المهاجر يعاني أشدّ المنافسة في تلك البلاد التي تفوق غيرها من بلاد المهجر مدنيةً وعلماً ومباراةً واسرافاً . ولعل إخواننا السوريين القاطنين في مصر القطر العربي الشقيق هم أوفر حظاً واهنأ عيشاً وانعم بالاً واكثر عزّاً واوسع جاهاً من جميع السوريين المهاجرين في جميع انحاء المعمور .

(اسباب المهاجرة) — ولعل في عداد الأسباب التي كانت تبعث على الهجرة ظلم الحكومة التركية البائدة وارهاقها العنصر العربي في المملكة وعدم تسهيل أسباب العمل والنجاح له او لازدياد الاسراف في بلادنا بمداحتكاكنا بالغرب الذي فتح سوقاً رائجة لمصنوعاته عندنا وبدأ القوم تدريجاً يقلدون الغربيين في إنفاقهم برغم ان مداخيل البلاد بقيت شرقية صرفة فلم يك اذ ذاك بدٌّ من ايجاد ما يسدّ النقص في الايراد ليعادل الانفاق وقد جاء ذلك عن طريق المهاجرة التي كانت لبلادنا شبه تجارة الرقيق نعطي رجالاً لنأخذ مالاً . اوما كان يروج بين البسطاء من ان اميركا هي بلاد الذهب والثروة ويؤيد ذلك احياناً عودة احد المهاجرين الناجحين الذي كان يتخذه القوم عندنا مثالاً يقتدون به وينسجون على منواله — واذا ما سئلت اليوم هل تعتقد بافضلية المهاجرة وفائدتها لهذه البلاد او للمهاجرين انفسهم لما تردّدت لحظة عن الجواب بمنتهى الصراحة — كلاّ .

كلاّ لا أعتقد مطلقاً بافضلية المهاجرة لا لبلادنا ولا لمهاجريهـا وليس معنى ذلك انني لا أجد في المهاجرة حسنات ولا في حالة البلاد التي تدفع ببنيها الى هجرتها سيئات ولكنني اجمع حسنات المهاجرة الى سيئات البقاء في الوطن وأقابل مجموعها بسيئات المهاجرة وحسنات

الاقامة فأفضل البقاء على الهجرة و كفة ميزانه عندي ترجح كثيراً على تلك وخصوصاً في هذه الايام ٠

أليس مما يدمي الفؤاد ويقرح الجفون ان نشاهد القوم عندنا مقبلين على المهاجرة حتى في حالة منع الحكومات الاميركية لها وتضييق حلقتهــا دونهم باعتبارهم مادة شرقية لا تصلح للتصدير الى الغرب ولا تأخذنا على الأقل انفة العرب الكرام التي ندعيها في كثير من المواقف مذ نسمع القوم يصرحون لنا انهم لا يريدوننا عندهم ولكننا نقبل عليهم اي إقبال وها هي دوور قناصل الحكومات الاميركية ملأى بالوف طالبي الهجرة لا يصدهم عنها ايصاد الأبواب دونهم او ردع القوانين ٠

ويؤلمني جداً فوق ذلك ان أشاهد حالة السور بين المهاجرين خصوصاً في هذه الايام وشدة جهادهم في بلاد لا تعرف غير الجهاد وكم يقاسون من عرق القربة في تحصيل الثروة التي لا يحرزها غير القليلين منهم ويبقى نصيب الاكثرية الساحقة الخيبة وكم منهم من لا يحصل قوت اليوم فيبقى عالة على المحسنين او رهن الذل والمسكنة والامراض ٠ يؤلمني ان أعرف ذلك وان يجهله الكثيرون من طلاب الهجرة ويحسبون القوم هنالك جميعهم يحفرون على الذهب ويتاجرون بالجواهر والماس ويعيشون عيش الاسراف والترف ٠ ويسوءني ايضاً كيف ان بعض قديمي العهد بالهجرة قاسوا الامرين في نومهم وقوتهم والبستهم وجميع احوال معيشتهم وشدة جهادهم قبل ان اقتصدوا بعض دريهمات جعلوها رأسمالهم الاول وقبل ان حتى لم ان يكونوا في عداد التجار الحقيقيين ومع ذلك ما من احد منهم اليوم الا وهو تحت رحمة الأقدار وثروته غير مضمونة البقاء ٠

ولعل الخطأ الاكبر والباعث الاول هو عقلية بلادنا بشــأن المهاجرة وانها السبيل الوحيد الى الثراء حاصل من حنان بعض اخواننا المهاجرين لذوي قرباهم في هذه البلاد فهم احياناً كثيرة يقطعون القوت الضروري عن نفوسهم او قد يستدينون ليقدموا لذويهم مبلغاً صغيراً من المال هو عندهم عنوان النجــاح وتحقيق الآمال وكثيرون منهم يخفون هذه الحقيقة الراهنة عن اهليهم استبقاء لاطمئنان نفوسهم او خوف الفضيحــة وهزء الشامتين ٠

ويخيفني جداً ان تكون هذه هي حالة الكثيرين من ابناء بلادنا في المهجر وان الاكثرية

الساحقة منهم لا تملك شيئاً سوى الكفاف وانهــا تشتغل بالبدل اليومي وتقاسي العذاب الشديد في جهاد الحياة بين قوم تختلف مدنيتهم عن مدنيتنا وعاداتهم عن عاداتنا ومعيشتهم عن معيشتنا ولغتهم عن لغتنا و يكفي ان نقول ان السور بين اللبنانيين هم هنالك في بلاد غربة يذهبون اليها صفر اليدين وليس لديهم عضد او عون سوى الصحة والآمال و كثيراً ما يضيع بالجهل كلاهما ويحترق في أتون جهاد تلك البلاد الحامية وتجار بها الخلاّبة وامراضها المختلفة المميتة ·

لا عبرة بنجاح افراد قليلين من السوريين في بلاد الغرب وهؤلاء العصاميون لا شك في نجاحهم على تلك النسبة حتى في هذه البلاد بشرط ان يجاهدوا هنا كما يجاهدون هنالك فالسرّ في شخصية الافراد لا في الهجرة عينها وذوو الشخصيات البارزة ناجحون في كل بلاد وزمان · او لم يكن السوري يوماً زعيم المدنية في العالم ورسول الاديان والاختراع ومؤسس العلوم والصناعات ؟؟ بلى · وها هو اليوم ولم يعد سباقاً في الميدان · شاهده في بلاد الهجرة فاذا به يذكر اسمه واسم بلاده غير مقرون بالاحترام التام إن عدلاً وان ظلما فليس للسوري عموماً ذاك المقام الذي نريده نحن له بينما الامم والشعوب التي تحسب نفسها سبقته كثيراً في مضمار العلم والمدنية والارتقاء والعمران · وهذه حقيقة مع انهــا مؤلمة جارحة أستحق الذكر والتصريح · وما هي الاسباب الباعثة على هذا الحال ؟ اترك للقارئ اللبيب ان يجيب على هذا السؤال ويجلو معماه وأبقي لنفسي حرية عدم الاسهاب والتطويل ·

بلادنا افضل بلاد الله لنا بقطع النظر عن ذكر حقوقها علينا وواجباتنــا نحوها فهي تصلح لنــا ونصلح نحن لها اكثر مما لسواها وهي واسعة جداً ولا خوف عليها من ان تزدحم او تضيق بنا ، هي ارحب صدراً وارحم قلباً وارق عاطفةً وأرأف بنا ، هواؤها وماؤها ، شمسها وقمرها ونجومها ، ارضها وسماؤها ، اصولها ، نبتهــا وغرسها ، درها وفاكهتهــا ، كل ما فيها حبيب الينا وحبيب جداً · الا فلنشفق على نفوسنا وهذا الوطن ولنتعهده قبل ان نتعهد سواه بسواعدنا وقلوبنا وارواحنا ولنجتهد ان نجعل الصادر في تجارتنا من انتاج ارضنا وايدينا لا من انتاج ارواحنا وقلوبنا حتى اذا ما نقص هذا الانتاج نهلك وتهلك معنا البلاد ·

لقد جبت كثيراً من الآفاق وتجولت في كثير من بلاد الناس واشهد عن يقين واختبار

اني لم أشاهد بلاداً أجمل من سورية ولبنان . اطللت من عُرض البحار على موانئ كثيرة في مختلف البلدان وشاهدت مناظر تأخذ العقول وتسبي الخواطر والالباب ولكن ما سحرتُ بمنظر احدها كما سحرت عندما اطللت من عرض البحر على بيروت ولبنان ولم أشاهد منظراً أروع من ذلك المنظر البديع الفتان ..... أطل من قمم لبنان ان كنت من غواة التصعيد في الجبال . أطل من اعالي الكنيسة او صنين او ظهر القضيب او من حرمون وشاهد تحت سماء صافية وجو أزرق بديع الجبال والاودية والوهاد ، السهول والبطاح والانجاد ، المروج والجداول والبحيرات . وحدق بناظريك الى أبعد مرمى البصر الى فلسطين والشرق العربي — الى حوران وجبل الدروز — الى طرابلس وعكار — الى ساحل البحر وعرض البحر — الى بيروت وصيدا وصور — الى سهول البقاع وبعلبك وحمص وحماة وحلب — الى لبنان الغربي والشرقي — الى دمشق والغوطة الخضراء . بلاد هي اجمل البلدان ، ومهبط الوحي ومنبت الشرائع والاديان ، هي موطن المردة ، وعرين الآساد . ومرتع الغزلان .

وان كنت أقل طموحاً في التصعيد فأطلّ ولو من ظهر البيدر على بقاع العزيز — على المروج السندسية الخضراء الملتفة بالألوان المختلفة البديعة مقطعة تقطيعاً هندسياً جميلاً يخالها المشاهد قطعاً من الطنافس الثمينة منبسطة فوق تلك البطاح ، اواطلّ من مبسلون ، او اطلّ من قاسيون وشاهد شروق الغزالة وغروبها ، او انتبه وكن يقظاً عند مدخل دمشق الزمردة الخضراء على كتف الصحراء . مشاهد كلها تملأ القلب روعةً وجمالاً وتبعث في النفس عزّةً وجلالاً ، وتهبط بالوحي على العقول المولدة المجددة الماكسة تلك الصور البديعة الخالدة شعراً وخيالاً في الخواطر ، ووحياً والهاماً في القلوب ، واطماعاً وهمةً في النفوس ، وانغاماً شجية في الاسماع ، وآمالاً ورؤى واحلاماً ذهبية على لوحة المستقبل وصفحات الأقدار .

بلاد يأتيها السائح من بلاد الغرب فيؤخذ بجمالها الطبيعي و يندهش لآثارها التاريخية ويخشّع في أماكنها المقدسة و يعود غنياً بتأثير ذكرياتها الخالدة .

لم أشاهد شمساً ساطعةً مشرقة كشمس هذه البلاد وسماء صافية كسمائها وليالي قمراء زهراء كلياليها وفصولاً سنوية كفصولها . فربيع بلادنا ربيع تام وصيفها صيف تام وهكذا قل عن خريفها وشتائها . وفيها مايوافق جميع الامزجة لجميع الفصول : فمن

مشق بيروت وساحل البحر المعتدل الى مصايف لبنان الجميلة وبعضها يعلوا كثر من اربعة آلاف قدم عن سطح البحر ولا يقتضي الانتقال من هذه الى تلك سوى مسير اقل من ساعة واحدة بالسيارة الحديثة ، وهنالك مشق طبرية حيث الهبوط اكثر من ثلاثمائة قدم عن سطح البحر — الى مشق اريحا حيث الهبوط اكثر من الف قدم عنه وحيث الشتاء ربيع دائم . وهل يوجد في الدنيا ربيع اجمل من ربيع دمشق ؟؟؟ لم أنشق نسيماً عطراً عليلاً كنسيم هذه البلاد ولم أرشف ماء زلالاً عذباً كمياهها ولم أتذوق طعاماً شهياً كطعامها .

لقد سألني الدمشقيون في المهجر عن المشمش الحموي والعنب الزيني ولفاح الزبداني واللبنانيون عن عنب زحلة وبحمدون وعن تين الجبل وصنوبره والحلبيون عن فستق حلب والفلسطينيون عن برتقال يافا . ولعمري ليس لهذه البلاد في جميع مميزاتها من مثيل في جميع الاقطار والامصار . أفمن اجل هذه المميزات تستحق هجرة بنيها والبعاد والنسيان .

نرسل الى بلاد الغرب شباناً في ريعان القوة وعنفوان الصبا ونأخذ عوض ذلك بعض الدريهات لبئست التجارة الخاسرة هنا وهناك وبئس المصير أنباع الأرواح بالمال وهل تشرى النفوس بالدنانير ؟

ارسلوا هؤلاء الفتية من طالبي الهجرة في حقول البلاد يغرسون اغراسها ويزرعون حبوبها وزعوهم في مصانعها يحيكون الاصواف والحرير ، أوجدوا لهم عملاً فيعملون او أوجدوهم عندنا فهم يوجدون الاعمال ويحيون الآمال .

علموهم أن سعادة الحياة ليست في ثراء الغرب ولا هي في خزن الاموال ولا في اقتناء السيارات بل هي في الصحة والعلم والعمل ، وان العمل شريف جداً زراعة كانت ام صناعة او في اي مهنة حرّة تحتاج اليها البلاد .

لا تبعدوا الوالد عن عائلته ولا الفتى عن ذويه ولا تقضوا على سعادة الشرق بتفكك عرى بنيه فما الفوائد بمعادلة ما تبذلون وما النتيجة عندما تؤملون .

أفيقي ايتها الحكومة مع الشعب وعالجي هذا الداء داء المهاجرة القتال وحاربيه لا بقوة المنع والشرائع فقط بل تخطي الى الوجهة الايجابيـة وعملي على القوم العمل لتبقين على فلذات الاكباد في الوطن لا بل تحببين العودة الى كثيرين من ابنائك في ديار المهجرة ممن بقي في نفوسهم حنين اليك ولكنهم يخافون الفشل وعدم ايجاد اسباب النجاح .

بلادنا زراعية في الدرجة الاولى فأين وسائل الري ؟ اين تسهيلات المزارعين والفلاحين ؟ عندنا صناعات وطنية اين تنشيطها التنشيط المثمر وحمايتها ؟ هنالك ما نستورده من بلاد الغرب ويمكن صنعه في بلادنا فأين ماعملناه في هذا السبيل ؟؟٠

ليذهب المهاجر منا في سبيل نقل العلم والصناعة والفنون اللازمة لنا ليذهب وليعد فاذا هو قوة جديدة في البلاد ٠ وليهاجر فقط من يتعاطى ترويج صناعات بلادنا ويتولى اصدارها لبلاد الغرب ولنحترز ان لا يكون في عداد هؤلاء من يسيء سمعة البلاد وليذهب منا من يشاهد عن كثب تفوق الغربيين فيعود مجازاً لنا في طلب الترقي مثلهم ٠ ولنجتهد ان نعيد الاحترام السابق لنا بين الامم والشعوب فيكون هذا الاحترام رأسمال المسافر منا في سبيل شريف وليس للفرد والامة من مرمى أبعد وأسمى من احراز الرفعة والاحترام ٠

السوريون في الولايات المتحدة الاميركية قد تجنست اكثريتهم الساحقة بجنسية تلك البلاد والفقير منهم لا يطمع بالعودة صفر اليدين والقليلون من ذوي الثروة لا يرغبون في ترك مجال النجاح والتفوق هنالك والمركز الذي أحرزوه بشق الانفس والتعب الشديد وجهاد السنين الطوال ٠ وبعد زمن غير بعيد ستصبح الجالية هنالك من قلب الاميركيين فيقضي العجز والشيوخ فيها ومن كانت لهم صلة بهذه البلاد والنشء الجديد منها اكثره لا يقرأ اللغة العربية ولا يكتبها ولا هو باحتياج اليها فقد ولد في تلك البلاد ونشأ فيها واحبها وهو لا يعرف شيئاً مذكوراً عن هذه البلاد ٠ ومن الجهل ان نطمع بقدومه اليها او باستمراره على مساعدة ذويه عندنا ٠

اذاً ستكون الصفقة خاسرة لنا فهل نطمع ان نزيدها خساراً بان نستمر على الهجرة وان ننكب البلاد بضياع بنيها وفلذات اكبادها عاماً بعد عام ٠

بلاد الغرب تئن اليوم من العطلة وعدم توفر العمل للملايين العديدة من الشبان وفي الولايات المتحدة الاميركية ما لا يقل عن ستة الملايين منهم بطالين لا يجدون سبيلاً للعمل والارتزاق والضائقة مستحكمة في تلك البلاد بصفة لم نعهد لها مثيلاً فيما مضى ٠ وقد لا نشعر نحن بشدة هذه الضائقة العالمية لاننا نسير على مهل فتأتي صدمتها خفيفة عندنا لكنها قوية جداً عندهم لانهم يسيرون بسرعة هائلة ٠ وبا لبلية الاصطدام عند المسرعين ولعل نسبة سرعتنا في أعمالنا لسرعتهم هم كنسبة سرعة قطار بيروت — دمشق وهو

مصعّد في طريقه بين محطتي عاريا وعاليه الى مسرعة سيارة من الطراز الحديث تقطع سهل البقاع في طريق دمشق — بيروت المعبدة تعبيداً فنياً حديثاً لا بل قد يسيرون هم بالنسبة الينا على أسرع من هذا القياس بشيء كثير ٠

الحياة عندنا فيها شيء من التعاون العائلي وحفظ حقوق الجوار المقدسة وقد ينتقل الى جانبك جار جديد فيحل له اقتراض بضعة أرغفة من الخبز لقوت عياله ولا يجد هو أو انت في ذلك نكراً أو فضيحة وقد تستعير امرأته بعض الادوات البيتية اللازمة لها فلا تفشل في طلب الاعارة ٠ اما في بلاد الغرب فما للجار من حق على جاره حق ولا للأخ على اخيه فهم من هذه الجهة يعيشون حياةً فردية استقلالية جافة مجردة من هذه الحسنة التي لنا نحن في هذه البلاد وفيها ما فيها من معنى الانسانية الصحيح والتآخي البشري الحقيقي الناجح ٠

يمرض الانسان في بلادنا وقد يشفى في اكثر الأحيان او يطول اجله لا من عقاقير الطب وذكاء الاطباء بل من محبة الاهلين وعيادة الاصدقاء وسيال الحنان الصادق ينبعث في عيون زائريه وذويه ويمرض هنالك في بلاد الغربة وقد يقضي عليه لمجرد فقد هذه المزايا لديه هناك ٠

السعادة التي ننشدها يجيء اكثرها من خزان الدماغ الباطن في الانسان واجمل ما في هذا الخزان تذكارات زمن الصبا وصوره الحلوة واحلامه الجميلة ولهوه البديع وهذه جميعها تأتي مرتبطة بمشاهد الارض التي يمرح عليها الوليد ، وصفاء السماء التي يشاهدها فيما نسميه نحن الوطن ، وفيه البيت الذي نأوي اليه والاهل والاحباء والرفاق والمواطنون ٠ لذا يشعر المهاجر بالغبطة عند عودته ولو الى مزرعة صغيرة تركها منذ زمن طويل ويحن اليها الحنين الكثير لانها توقظ فيه تلك التذكارات الجميلة تذكارات الصبا التي تبعث المرح في القلب والامان في العيون وترجع الكهل شاباً اوفق بروحه بعد ان نهكته الايام ولوعته المحن والمشقات وشدة الجهاد ٠ ولولا هذا الارتباط والحنين وتلك التذكارات الجميلة الناعمة لأقفرت دساكر كثيرة لاتخلو سوى لساكنيها فقط ولنمق اوفهما اليوم واضحت أطلالاً دارسة ٠

الا يفرح طائر السنونو المهاجر بعودته الى العش الذي بناه في عامه الاول ولا ينفك ملازماً له عاماً بعد عام ؟ أليس هو مقدساً لديه اكثر من كل بقعة أخرى تحت السماء ؟ بلى ٠

مررت في عودتي الى بلادي على ميناء «نابولي» من اعمال ايطاليا وقد كان على ظهر الباخرة عدد من السوريين العائدين الى الوطن وعند رسو الباخرة «بروفيدانس» في مينائها سمح لجميع المسافرين بالنزول الى المدينة دون ادنى معارضة او تضييق ولكن حظر ذلك على السوريين فقط ما لم يسلموا جوازات السفر للبوليس الايطالي الواقف على سلم الباخرة فقلت في نفسي ولمَ عدم المساواة في وقت كهذا ام ان الحكومة الفاشيستية تريد ان تعتز بشيء ولو على الضعفاء مع انهم لم يفعلوا هكذا عند مرورنا بتلك المدينة ونحن مسافرون على ظهر الباخرة «موريتانيا» ولعلَّ ذلك لاحترامهم الشركة التابعة لها هذه الباخرة اكثر من احترامهم شركة «فابرلاين» التابعة لها الباخرة الاولى ، او لعل ذلك لاظهار مبلغ الاحترام الذي يتمتع به السوري المهاجر في بلاد الغرب . ان في الأسفار دروساً قيمة يتعلمها المرء في هذه البلاد وهي بحاجة شديدة اليها ألا وهي دروس القومية والاتحاد والتعاضد . فلا قوة في بلاد اجنبية بغير هذه المبارزة القومية وليس ما نشاهده من التعصبات المذهبية عندنا سوى مظهر من مظاهر الجهل الفادح والشقاق وما نفور الأقلية في البلاد من اكثريتها او سلوكها مسلكاً مخالفاً لها سوى دليل الذل والصغار وما ادعاء الاكثرية وتعاظمها على الأقلية سوى كبرياء فارغة لاوجود لها في قاموس ارتقاء الامم البالغة سنَّ الرشد والادراك ، لانبني القوميات على الأديان ، وان فيما تبنيه تركيا الحديثة اليوم من عزٍ ورقيٍ وفلاح ، ونجاحها في هذا البناء لدليلاً بيناً على صدق ما اقول فهي لا تقف بين غيرها من الدول باسم الدين بل باسم الانسانية المطلقة وباسم العنصر التركي الذي يحق له الحياة كبقية العناصر البشرية في العالم . وعند مروري على استانبول قدرت ان احترم المجهودات التي تبذلها الحكومة التركية في هذا السبيل القويم الشريف .

بلادنا واحدة ومصالحنا فيها مشتركة . والمهاجرة هي بلاؤنا الاكبر وداؤنا القتال فلنقلع عنها الا في أحوالها المفيدة فقط وحيث لا نضطر الى تغيير جنسية المهاجر منا فيبقى اميناً على حقوق قومه وبلاده .

عرفت رجلاً انكليزياً كان في هذه البلاد ايام الحرب الكبرى وعندما أبعد جمال السفَّاح الاجانب الى داخلية بلاد الاناضول وضيَّق عليهم جداً واستولى على ممتلكاتهم

عرض على هذا الرجل ان يجنس بالجنسية العثمانية وهو يعيد اليه حريته وجميع حقوقه وممتلكاته ويمكنه من السكنى في بيته ولكنه ابى ذلك بانفة عظمى وقال يهون عليّ كل شيء حتى تجرع غصص النفي والجوع والامراض والموت ولن أغير جنسية دواتي وبلادي · وان كان في عمل هذا الرجل الشهم ما يدعو الى الاعجاب والاحترام فان لسوريٍ يعمل عمله في احوال كهذه فضلاً اكبر، إعجاباً في نفوسنا أشد بالنسبة للبون الشاسع في المكانة بين الدولتين · فأين هي مكانة السوري المهاجر من هذا القبيل حيث لا ضغط ولا تهديد حتى ولا ترغيب ولا وعيد وكم هم الذين حافظوا على جنسيتهم السورية في بلاد المهجر · وقد شاهدت في استانبول انهم لم يأذنوا لركاب السفينة السوريين المتجنسين بالجنسية الاميركية بالنزول الى البر بينما هم سمحوا بذلك لسواهم لعدم احترامهم او اعتزامهم بتبدل الجنسية هذه ·

ولو ان المهاجرة بقيت عند غايتها السابقة قبل الحرب الكبرى اي طمعاً بالارتزاق فقط ولا يقطع المهاجر صلته ببلاده ولا يغير جنسيته ثم يعود بعد حصوله على ما يتمناه الى وطنه وبلاده — لما وجدت فيها الغبن العظيم الذي أجده هذه الايام ، وهنالك من يهاجر اليوم الى بلادنا قصد السكنى والارتزاق وعندنا من يرحل عن بلاده وهو بها اولى وهي به أرحب وحنانها عليه أشد · فلنتدبر هذا الامر بالحكمة وبعد النظر قبل ان يعم البلاء ويستعصي الداء وهو ذو شأن اي شأن لنا ولبلادنا التي نحلم لها بمستقبل زاهر ونؤمن بوصولها يوماً الى ما نتوخاه لها من سعادة وحرية وفلاح[1] ·

سليمان سعد
رئيس مدرسة الجامعة العلمية في دمشق

---

(١) أُلقيت هذه المحاضرة في ردهة المجمع العلمي العربي بتاريخ ١٩ آذار سنة ١٩٣١ ·

على اطلال الشعر الجاهلي

— «١» —

أَلمَّا بشعر قام كالطلل البالي / يمثّل نفسَ القوم في الزمن الخالي
وانزاحَ ناس بعد خفض ونعمة / عليهم أناخ الدهرُ يعدو بكلكال
وأشجانَ جيل في الشقاء تجرّعوا / كؤوس المنايا ثرّةً قبل اجيال
وما الشعر الاّ ما يمثّل اهله / فينقل من ماضٍ أناساً الى الحال
وما كلُّ شعر قد سمعتَ بجيدٍ / ولا كل ماء قد وردتَ بسلسال
اذا لم يكن شعر الفتى من شعوره / فما هو عند السامعيه بذي بال
وان قصّرت الفاظه عن مراده / فما هو في يوم جدير باجلال
وان يزكُ معناه ولم يزكُ لفظه / فذاك كخوّد في دريس واسمال

* * *

وما راقني ممن تقدّم عهدهم / سوى الصدق ان الصدق اجمل سربال
ويا حبذا هذا الجديد لو انه / من اللغو او كذب يغرّ به خال
وما عن قلىً رفضي الغُلاةَ وانما / هنالك اميال تخالف اميالي
قد انهار صرحُ الشعر الاّ أقلّه / وقد كان ملءَ العين كالجبل العالي
واما حياض ثرّ منه غديرُها / فلستَ ترى من مائها غير اوشال
ولم ارَ فيمن خاب للجهل سعيهم / كمغترف ماءً بفيض بغربال
واكبرُ في عيني من الشعر شاعرٌ / يرى ما له للشعر لا الشعرَ للمال
رأيتُ ابتذالاً فيك ياشعر مزريا / وما كان هذا في مصيرك آمالي
أردتك خلواً من عيوب زريّة / فانك عندي ذلك الجوهر الغالي

«كأنك لم تركب جواداً لغارة ... ولم تتبطن كاعباً ذات خلخال»

* * *

يجادلني في الشعر لا عن روية ... فريق من الأشياخ كلهم قالِ
كلانا مُلِمٌّ بالصواب بزعمه ... ولكن صوت المبطلين هو العالي
كلانا اذا خاض المجاجة مبسل ... ولكنما ابسالهم غير ابسالي
هنالك حرب شبَّها السخط والرضى ... وما كل من خاضوا الحروب بابطال
وكل امرىء يقفو هوًى في فؤاده ... لما هو في عين يراه بها حال
نشأتُ على استقلال نفسي بامرها ... فلا أرتضي نسجاً على غير منوالي
ولا أدّعي اني انفردت بقولي ... ولكنني راضٍ كغيري باقوالي
سوى ما أريهم انني ان فتوتهم ... شأوتُ واني فوق أجرد ذيّال

* * *

لقد ظلّ هذا الشعر خمسين حجّةً ... يقوِّم أقوالي ويبرم أعمالي
اسيرُ على ما سنّه لهدايتي ... وان رام في تلك الهداية إضلالي
صدعتُ فلما أوهنتنيَ كبرةٌ ... وقفتُ عن الافصاح كالطلل البالي
وقالتُ أقلني أيهـا الشعر عثرتي ... فقد زلّ رجلي وهي تحمل أثقالي
وخذ بيدي في سقطة قد أتيتُها ... فماليَ حتى الموت غيرك من وال
فأعرضَ عني لا يريد إقالتي ... واشمت بي عند النهاية عذّالي
واني ان أهلك فلستُ بخاسر ... لشيء كثير من نعيم واموال
لعمرك ما في الموت شيء يهولني ... ولكن حيـاتي هذه ذات أهوال
على ان لي بعد التقهقر كرّةً ... اصول بها جَلداً على كل مختال
سأجهر بالحق الذي يكتمونه ... وان قطع الاعداء بالسيف اوصالي
واني في غيلي كرئبال غيضة ... ومَن ذا ترى في غيله غير رئبال
لحى الله ناساً اخطأوا طُرُقَ العلى ... ولم يطلبوا الغايات الاّ من المال

* * *

« تمثال لليلى من الشعر »

نصبتُ لليلى من قريض نحتُّه ... على صفحة القرطاس اجملَ تمثال
حكاها كأنّ الله صاغهما معاً ... شبيهين في ثوب من النور هلهال
وشبّه ناسٌ طرفها وقوامها ... بابيض بتّار واسمر عسّال
على خطإ منهم فما السيف باتراً ... ولا الرمح عسالاً لليلى بامثال
واحسب اني لا أشطّ عن الهدى ... اذا قلتُ ليلى النورُ في الافق العالي
سرى حبّ ليلى في جميع جوارحي ... واشعل فيها ناره أي اشعال
وليلى كنار الشمس يجمل ضوءها ... ويملأ عيني في غدوي وآصالي
فطوبى لعين لا تزال تشيمها ... وويحٌ لقلبي ان قلبي بها صال
وان تك ليلى اليوم شطّ بها النوى ... فما انا عن ليلى وايامها سال
ولو كنتَ في يوم الوداع بجنبنا ... شجاك مشيجٌ من بكاها واعوالي
يعزّ على عيني الشقية ان ترى ... لليلي بقربي منزلاً غير محلال
أريد رحيلاً عن بلاد تهينني ... ولكن أأدري اين أنزل أحمالي
وفي القوم من لا يبتغي نقلةً له ... ولو نُسِفت ارض العراق بزلزال
ولكن حراً ليس يرضيه حاله ... يموت ولا يبقى مقيماً على الحال
ارى الخسف في بغداد لي متجسماً ... يريني أنياباً كأنياب اغوال
يريدون بالاذلال جرحَ كرامتي ... ويأبى جراحات المذلة امثالي

بغداد : جميل صدقي الزهاوي



مطبوعات حديثة

—«»—

الآداب العربية وتاريخها

« تأليف السيد جرجي كنعان طبع في المطبعة الادبية في بيروت »

« سنة ١٩٣١ ص ٦٢٨ »

توخى المؤلف ان يكون تأليفه حسب منهاج البكلوريا اللبنانية والسورية · وقد اقتبس أسلوب تاريخ الأدب العربي للاستاذ الزيات وكتاب الوسيط للاستاذين الاسكندري وعناني وما صدر بعد ذلك في هذا الموضوع · فلم يأت المؤلف اذاً بجديد من مثل تحليل حياة الادباء والعلماء وما كان من اثر البيئة والاقليم والحضارة في منثورهم ومنظومهم · وتوسع في أدباء القرن التاسع عشر حتى يخيل للطالب ان العلم فيه انحصر في جبل لبنان وغير اللبناني لم يعمل شيئاً لخدمة الآداب العربية وهذا غمط لحق كثير من رجال الشام ومصر وتونس والعراق الذين عانوا فروع العلم والأدب وابرزوا مصنفات لا يسع عاقلاً تجاهل وجودها وتأثيرها في تكوين روح القومية والنهضة ·

فقد ذكر المؤلف أناساً ماتوا اوائل الربع الثالث من القرن العشرين ليكثر بهم سواد المؤلفين في لبنان وهم ممن عملوا لخدمة الآداب ، فكان عليه ان لا يغفل ذكر غيرهم وهم لبنانيون ايضاً ، فقد ذكر الاب لويس شيخو وغفل عن ذكر الدكتور شبلي شميل والدكتور يعقوب صروف وهما امامان في العلم والفلسفة وبث روح التجدد · ونظن انهما نفعا اللغة العربية اكثر مما نفعها حبيقة وفرحات والصائغ ممن ذكرهم ليكثر بهم سواد العاملين من غير المسلمين وأغفل ذكر عشرات من عظماء المؤلفين في الاقطار العربية ممن قامت على أيديهم نهضة الامة أمثال من ذكرهم الاستاذ الزيات كمحمد المهدي وحسن العطار وعلي الدرويش

وشهاب الدين ومحمود صفوت الساعاتي وعبد الهادي نجا الابياري وحسن المرصفي وعبدالله فكري وعلي مبارك وعبدالله نديم ومحمدعثمان جلال وعائشة التيمورية وملك ناصف وقاسم امين، مصطفى كامل وفتحي زغلول ، مصطفى لطفي المنفلوطي وسعد زغلول وعبد الرحمن الكواكبي وطاهر الجزائري ومحمود شكري الألوسي وعبد الباقي العمري ومحمد بيرم وخير الدين التونسي وابراهيم المويلحي ، محمد المويلحي وعلي يوسف وحفني ناصف وحمزة فتح الله واسماعيل صبري . واذا جئت تعدد من هلكوا منذ ثلاثين سنة من رجال مصر فقط عددت منهم عشرات كان على المؤلف اذا لم يشأ ان يترجم لهم لضيق مجال كتابه ان يذكر جريدة باسمائهم واسماء كتبهم ليعرف الطالب ان اللغة العربية وخدامها اكثر مما تصورهم المؤلف ، وان في مصر وحدها من الرجال الذين يجيدون الكتابة والتأليف اكثر من جميع من أخرجهم لبنان من مدارسه . لعسى ان يتدبر المؤلف هذه الحقيقة و يبادر الى تلافي هذا النقص في الطبعة الثانية وان يعطف قليلا على قوم هم الذين عملوا للغة وحفظوها هذه القرون الطويلة . والدعاية لا تثبت بمجرد الاعلان والدعوى .

م . ك

الكوكب الدري المنير

— في احكام الذهب والفضة ولبس الحرير —

« تأليف الشيخ محمد سعيد الباني طبع في مطبعة المفيد بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ »

« وسنة ١٩٣١ م ص ٢٧٨ »

هذا كتاب في موضوع لا يهم جمهور الناس اليوم لان من يلبسون الحرير ويتحلون بالذهب والفضة لا يتوقفون فيما يعملون على استصدار فتوى في الغالب . بيد ان المؤلف عالج هذا البحث كما قال نزولا على ارادة من أراده على الافصاح عنه وبيان حكم الشرع فيه فكان جوابه مناقشة من قالوا بحرمة ذلك من الفقهاء ، والقول بحله مع بعض القيود . وبذلك خرج عن جمود الجامدين في الحكم في هذه المسائل ممن يضيقون على الناس ويحرمون الزينة والطيبات . ومع تقديرنا حرية المؤلف قدرها لا نرى مانعاً من ان نقول ان كتابه

كتب في اوقات مختلفة فلم يصبر عليه زمناً لينضج قبل دفعه الى الطبع ولو نظر فيه نظرة اخيرة لما اتى اشياء في باب المكررات الغير المستحبة والمنكورة في صنعة التأليف اليوم . فقد كان الاولى مثلاً ان يبتعد عن ذكر حوادث لا يستفاد منها الا ان المؤلف كان له صلة بها فأصبحت في حاشية الكتاب وربما في متنه من دون مناسبة . وأورد منامات لأناس ليسوا من العلم والدين في العير ولا في النفير كان الاولى ان تجل كتب العلم عن الاستشهاد بها ، وما كانت الأحلام يوماً من الأيام لتؤيد ديناً او تقوّم دنيا . وترجم بعض العلماء في أسلوب ربما تعمده ليلبس كلامه حلة اهل القرون المتأخرة والمتفقهة والمتصوّفة ، ولو حذف من ترجمته لها ماجاء فيها من الغلو والمبالغة وأضاف اليها صورة أخلاقها لجاءت مقبولة في أذواق العالمين من اهل هذا العصر . فقد قال صمول سميلز في كتابه الاخلاق : « والترجمة كالتصوير لا بد فيه من الظل والنور فلا المصور يختار لمن يصوره الوضع الذي يظهر عيوبه ، ولا المترجم يبالغ في بيان عيوب المترجم له ، وليس من الناس كثيرون فيهم صراحة كرمول حين جلس الى كُوبَر ليصوره فقال له : صورني كما انا بكل ما فيَّ حتى الثآليل اه ولا بد من تصوير الوجوه والأخلاق كما هي ان أُريد ان تكون الصورة صحيحة اه » . م . ك

فتح العرب للشام

« تأليف السيد جورج مرعي حداد طبع في المطبعة الادبية في بيروت »
« سنة ١٩٣١ ص ١١٣ »

هي رسالة في فتوح دمشق على ايدي العرب المسلمين على الطريقة الجديدة في التحليل والانتقاد . رجع المؤلف في كتابتها الى مصادر افرنجية وعربية واعتمد على آراء بعض علماء المشرقيات في الفتح الاسلامي وقد نقل رأي العلامة بكر في قوله ان كتابات العرب عن الفتوحات الاسلامية مفعمة بالاكاذيب والاغلاط خصوصاً في مسألة التواريخ وترتيب زمن الحوادث وروى ماقاله المؤرخ جبن من ان النبوغ في فن التاريخ مفقود عند الشعوب الاسيوية لانهم يجهلون قوانين النقد والفلسفة . اما المؤلف فأشفق على هذا التراث العظيم

الذي خاضه العرب في التاريخ فلم يوافق المؤرخين المشار اليهما كل الموافقة وشعر انها لا تخلو من الصحة على رأي بكر وجبن في الحكم على تاريخنا يخالفه رأي سيديليو وبراون وغيرهما في قولهما انه لم يكتب لغير العرب حتى اليوم ان اجادوا في وضع تاريخهم اجادتهم . وكيف كانت الحال فان هذا المختصر نافع على ما في بعض احكامه من الشطط وحبذا لو تعاور كتابنا مسائلنا التاريخية بمثل هذا النقد والتحليل . م . ك

تهذيب تاريخ ابن عساكر

« الشيخ عبدالقادر بدران الجزء السادس الطبعة الاولى بنفقة المكتبة العربية »
« بدمشق ص ٤٨٠ طبع بمطبعة الترقي »

كان المرحوم الشيخ عبدالقادر بدران الدومي الدمشقي المتوفى سنة ١٣٤٦ ﻫ اختصر تاريخ ابن عساكر مؤرخ دمشق وحذف منه الاسانيد وغيرها مما رآه يورث الكتاب تطويلاً ونشر منه الاجزاء الخمسة الاولى في حياته وصحت مؤخراً عزيمة المكتبة العربية بادارة صاحبها الاستاذ السيد احمد عبيد على تكملة نشر هذا المهذب . ولا يخفى ان تاريخ ابن عساكر ضمّ كنزاً عظيماً من تاريخ الاسلام يتأتى لكل باحث ان يستقي من موارده العذبة . وفي هذا الجزء من المسائل التاريخية مالا يكاد القارئ يعثر عليه في المؤلفات الاخرى لان بعض من اخذ ابن عساكر من كتبهم ضاعت مصنفاتهم هذا الى ما جاء في تأليفه من أبحاثه الخاصة وتحقيقاته المدققة ومنها كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام الى أهل اليمن في الخراج والديات (ص٢٧٣) وكلام هشام لمؤدب ولده ومنهاج تأديبه (٢٧٧) ووصية شريح لمؤدب ابنه (٣١٢) وقصيدة في قيس ومضر (٢٩٤) وسيرة ابن فاتك الذي شهد فتح دمشق وهو الذي تولى قسمة الأماكن بين اهلها بعد الفتح فكان يترك الرومي في العلو ويترك المسلم في أسفل لئلا يضر المسلم بالذمي . وهذا من أغرب ماسمع في العدل البشري . وفيه وصف عمر لشريح الذي كان يقول : اذا دخلت المدينة من الباب خرجت الحكومة من الكوة . وكان شريح اذا قيل له كيف أصبحت يقول : أصبحت وشطر الناس عليّ غضاب . وفيه سيرة ابي علي الأزدي البلخي الزاهد .

واشياء من الاسرائيليات وأحاديث صحيحة وضعيفة وترجمة صالح بن جناح وصالح بن عبدالقدوس من الحكماء وترجمة ابي ريحانة الازدي من الصحابة وهو اول من طوى الطومار وكتب فيه مدرجاً مقلوباً وفيه وصية عمر لشريح (٣٠٥) الى غير ذلك من المسائل التي تبين عقل هذه الامة وفضل الاقدمين من رجالها عليها • وكلها تنادي بلسان الحال والمقال ان الناس كانت هممهم في طلب العلم لاتني وان هم أحفاد أحفادهم ضعفت وفترت •

م • ك

—

طبقات الحنابلة

« تأليف القاضي ابي الحسين محمد بن القاضي ابي يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ هـ »
« واختصار شمس الدين ابي عبدالله محمد بن عبدالقادر بن عثمان النابلسي المتوفى »
« سنة ٧٩٧ وصححه وعلق عليه السيد احمد عبيد طبع بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ »

أثبت ناشر هذا الكتاب الاستاذ احمد عبيد بما نشره من تركة السلف حتى الآن انه سائر على الطريقة العصرية في نشر كتب الأدب والتاريخ يخدمها بجلب النسخ المختلفة من الاقاصي ويعارضها على الاصول التي تصل الى علمه ويعلق عليها و يشفعها بفهارس كثيرة تفتح مخابئها وتجلي مغالقها • وهذه الطبقات على ايجازها تحمل فوائد تاريخية واجتماعية كثيرة ولئن كان المؤلف الاصلي ترجم أناساً كانوا من عيار أحط من العيار العالي فان فيه تراجم علماء تحنى الرؤوس لذكراهم ويجب على كل باحث ان يتقبل خطاهم ، مثل ابي اسحق الحربي العالم المؤلف المشهور وابي عبيد القاسم بن سلام وأمثالها من أئمة الحديث والفقه واصحاب التآليف الممتعة من اصحاب احمد بن حنبل رضي الله عنه • وقد ترجم المؤلف بعض النساء الفقيهات المحدثات ايام كان نساء المسلمين لايخرجن من الاجتماع الى الرجال يأخذن عنهم ويأخذون عنهن • وفي آخر هذا الجزء اللطيف ست فهارس : الاول في مسائل الامام احمد والثاني في الاسماء والثالث في الكنى والرابع في الابناء والخامس في الالقاب والسادس في الانساب • وهذه الطبقات مفيدة من عدة وجوه ولا نقتصر فائدتها على المشتغلين

بعلوم هـذا المذهب ومعرفة رجاله بل تفيد كل أديب و باحث ، وليس أجمل من كتب التراجم ولا أبعث على التسلية والاستفادة من تلاوة ماكتب الأسلاف وما عانوه من ضروب المعارف ·

م · ك

نيل الوطر

— من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر —

« جمعه محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسني اليماني الصنعاني الجزء الاول ص ٤٢٥ »
« الجزء الثاني ٤٣٨ وكلاهما مطبوع في المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ »
« وسنة ١٣٥٠ هـ »

مؤلف هذا الكتاب من فضلاء اليمن المعاصرين اخذ كتابه هذا من بضعة مصنفات في تراجم الرجال في القطر اليماني ومنها (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) للعلامة الشوكاني وقد طبع هذا ايضاً بمصر بفضل ارشاده وفي مجلدين بمطبعة دار السعادة · وقد حذا المؤلف في ترجمة الرجال حذو اهل القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة فجاءت تراجم من ترجم لهم متشابهة متشاكلة على ان المجلدين من حيث الجملة يحويان كثيراً من الفوائد الأدبية والاجتماعية والتاريخية · وبعض المترجمين ان انصفنا لا يستحقون ان تشغل الصحف بهم لضؤولة مقامهم في المجتمع · وكان الاولى ان يقتصر المؤلف على المبرزين أصحاب السير والفضائل من اليمانيين ويتوسع في تراجمهم ويصورهم لقارئهم باعمالهم وعلومهم وآدابهم ومحيطهم وعصرهم · وحبذا لو تصدى لهذا الاسلوب الجديد بعد ان مارس الاسلوب القديم فان التطويل في التأليف بلا محصل كبير مضيعة للاوقات ولا يلتئم مع ذوق العصر الحاضر ·

م · ك

الرسالة العذراء

« لابراهيم بن المدبر »

ص ٥٢ الاصل العربي و٣٢ المقدمة الفرنسية طبعت في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م

عثرنا على هذه الرسالة لاول مرة في مخطوطات أستاذنا المرحوم العلامة الشيخ طاهر الجزائري فنشرناها اولاً في الجزء التاسع من المجلد الرابع من مجلة المقتبس الصادر سنة ١٣٢٧ في ١٨ صفحة ثم جعلت مع ما يماثلها من الرسائل النادرة التي نشرناها في تلك المجلة في مجموعة أسميناها « رسائل البلغاء » ونشرت في مصر سنة ١٣٣١ — ١٩١٣ وقد أعاد الآن طبعها على حدة الاستاذ الدكتور زكي مبارك من أدباء مصر وجعل لها مقدمة باللغة الفرنسية وقدمها الى مدرسة اللغات الشرقية بباريز وقال انه قرأها مع الاستاذ مارسيه من علماء المشرقيات في فرنسا وعلى كثرة بحثه لم يجد نسخة مخطوطة أخرى لهذه الرسالة يعارضها عليها غير نسختنا فأصلح بعض ما توقفنا فيه ولم نرد ان نصححه من عندنا وعلق عليها حواشي لطيفة وعارضها على اصول كتبت في عصر المؤلف فشكره الادب العربي على عنايته . م . ك



الاكليل

« تأليف ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود المشهور »
« بالهمداني المتوفى في سجن صنعاء في سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) اخرجه الى الطبع »
« وصححه وعلق حواشيه وألحق به خمسة عشر فهرساً الاب انستاس ماري »
« الكرملي البغدادي طبع في بغداد بمطبعة السريان الكاثوليك في سنة ١٩٣١ »
« ص (١٤٨) الجزء الثامن »

اشتهر كتاب الاكليل عند الادباء وهمّ بعضهم في مصر والشام والعراق على نقله ونشره وقد وفق الاستاذ الكرملي الى العثور على احد اجزائه فبادر حالاً الى نشره بما عهد فيه من التحقيق وسار على مثال علماء المشرقيات في معارضته والتعليق عليه

وإشباعه من الفهارس مااستغرق نحو ثلث المطبوع من المتن . وهذا الجزء في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات وسميت محافد لحفود الناس حولها وقصدهم اياها . لاجرم ان في هذا الجزء مثالاً مصغراً من مدنية اليمن في عهد المؤلف وقبله فقد ذكر الناشر « ان هذا الاكليل يكشف لنا ان اليمانيين كانوا قد توصلوا الى ان ينحتوا تماثيل البشر والحيوانات والطيور والأبنية حتى توهم كثيرون ان تلك التصاوير كانت أحياء مسخها الله صخراً اوجلوداً اوحجراً . ويرى القارئ في بعض هذه المنحوتات من دقة الصنع وعجيب النقش مايتحدى كل مصور غربي في مجاراته وقد تصرفوا في نحت الرخام تصرف العجان في عجينه . ان هذا الاكليل يبوح لنا بان السلف كانوا قد احكموا عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة «بالقطارات» فقد جاء عن قصر غمدان قوله :

يسمو الى كبد السماء مصعدا عشرين سقفاً سمكها لا يقصر ..
وبكل ركن رأس نسر طائر او رأس ليث من نحاس يزأر
متضمناً في صدره قطاره لحساب أجزاء النهار اقطر

قال العلامة الناشر : فهذا دليل واضح على ان ذيالك القصر جاء على ابدع هيئة يحلم بها انسان هذا العهد . وحبذا اليوم الذي يتم نشر الاكليل برمته فتنجلي به أجزاء مدنية اليمن المدهشة .

م . ك

كتاب مالية مصر

« من عهد الفرعنة الى الآن لسمو الامير عمر طوسون »

طبع بمطبعة صلاح الدين الكبرى بالاسكندرية سنة ١٣٥٠ — ١٩٣١

ص ٣٤٠ عدا الفهارس

هذا كتاب كان وضعه مؤلفه النبيل العالم بالفرنسية وقدمه الى المجمع العلمي المصري . وقد عربه الآن ونشره وعسى ان يتم له أمنيته الشريفة فيعرب كل ماخطته يراعته في الموضوعات المفيدة لمصر ولغيرمصر . وهذا السفر مجموعة فوائد يتعذر على الباحث الوصول

اليها الا بعد الدرس الطويل . ولقد وفق الامير الى بلوغ غرضه من التحقيق وبلغ الذروة منه وصوّر لنا مصر في اكثر أدوارها في الغنى وهل أنمّ من الجباية على درجة الثروة في الامة . فقــد نقل ان فرعون موسى استخرج مصر تسعين الف الف دينار (٥٤ مليون جنيه مصري) ونقل ان مال مصر ارتفع على يد ندراس بن صا مائة الف الف دينـــار وخمسين الف الف دينار (٩٠ مليون جنيه) وذلك في ايام القبط وبلغت جبايتها مرة في عهدهم ١٦٢ مليوناً . وجبيت مصر لعهد فرعون يوسف (١٤،٦٦٤٠،٠٠٠ ج م) وجبيت في بعض الأدوار مائة الف الف دينار . ونزل خراج مصر على عهد البطالسة الى ٣،١٢٩٥١٨٠٠ ج ومليون ونصف اردب قمح في عهد بطليوس فيلادلف والى ٢،٢٧٠٠،٠٠٠ ج في عهد بطليوس اوليت . وبلغت جبايتها في بعض عهد الرومان ٦،١٧٤٥،٩٠٥ وجباها هرقل اليوناني ١٨ مليون جنيه والمقوقس ٢٠ مليوناً وعمرو بن العاص في الاسلام ٧،٢٠٠،٠٠٠ ج م وجباها عشرة ملايين ونصف مليون وظلت على هذا النحو في خلافة الراشدين وانحط الخراج في عهــد معاوية لاسلام رجال مصر فبلغ ثلاثة ملايين جنيه وبلغت جبايتها في عهد سليمان بن عبدالملك ٧،٢٠٠،٠٠٠ ج م ونزل في عهد الرشيد الى ٢،٤٠٠،٠٠٠ ج وارتفع في ايام احمد بن طولون الى ثلاثة ملايين وجباها خمارويه ٢،٤٠٠،٠٠٠ ج وفي ايام الاخشيدي ١،٢٠٠،٠٠٠ ج وفي زمن كافور ١،١٩٦٢،٠٠٠ ج وفي اوائل عهد الفاطميين ٢،٠٤٠،٠٠٠ ج وجبيت في آخر عهدهم ٧٢٠،٠٠٠ ج وجباها صلاح الدين ٣،١٢٨٨،٠٩٤ ج والظاهر بيبرس ٧،٢٠٠،٠٠٠ج وكانت جبايتها في عهد الترك العثمانيين ١،٠٨٠،٠٠٠ ج أوائل القرن السابع عشر و١،٢٠٣،٥٠٧ و١،٤٤٠،٠٠٠ في القرن الثامن عشر وجباها نابوليون ١،٣٦٩،٥١٩ ج وجباها محمد علي الكبير سنة ١٨٤٧ م ٣،١٩٥٠،٠٠٠ ج وبلغت في عهد الخديوي عباس الثاني ١٧،٥١٥،٧٤٣ ج م وفي عهد الملك فؤاد الاول سنة ١٩٣١ م ٤٦،١٤٤٦،٩٢١ جنيه الخ . وقد توسع المؤلف في ذكر الاتاوة على عهد الفاتحين والغالب ان سعادة مصر كانت تبدأ لانخفاض النيل وارتفاعه وعدل الولاة وظلمهم . وذكر المساحات المزروعة من ارض النيل ونواحيها وبلادها وما طرأ عليها وما اصاب الفدان من الخراج في مختلف العصور وختم كلامه بان مساحة الارض القابلة للزراعة في مصر هي ٧،١٠٠،٩٠٠ فدان

منها ٢٠٠٠٠٠ تربى فيهـا الأسماك وقال ان ارض المنوفية أخصب ارض مصر وان السكان يزيدون فاذا لم تجفف مياه إقليم البحيرات بحيث تصلح للزراعة تضيق مصر باهلها ·

م · ك

ذكرى فوزي المعلوف

وان امرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق له في الموت ·

أفتستطيع هذه الكلمة على بلاغة صدقها أن تهوّن من خطب هذا الموت وخاصة ان كان الميت في غضاضة من عوده ورطابة من غصنه قد ابتسمت له افياء الامل ، فانبسطت بانبساطها جوانب الحياة فلما استعدّ للتجبج في هذه الجوانب جاء أجله فلم يستقدم ساعة ولم يستأخر ·—

لابدع اذا دمعت العين وحزن القلب على فوزي المعلوف ، والقد ترقرق هذا الدمع وتجلّى هذا الحزن في كتاب : ذكرى فوزي المعلوف · —

تضمنت هذه الذكرى ترجمة الفقيد وعدد آثار قريحته من منظوم القول ومنثوره ، وآراء الكتاب والشعراء فيأدبه وذكر مرضه ووفاته ومآتمه وأقوال الصحف فيه والمراثي التي رُثي بها ·—

تبارت أندية الأدب ورجال الصحف في اميركة ولبنان في البكاء على الفقيد فكان في هذا التباري دليل قاطع علىقدر الأدب حق قدره وعلىتضامن المتأدبين واذا أمضّنا مانشاهد في بعض الأحايين من تضافر بعض الطوائف على الاطفـاء من نور كل أديب يتلألأ نوره في سماء الأدب فقد أبهجنا تعاون طوائف أخرى على تنشيط كل أديب ينشأ ويترعرع فاذا استحكم الحسد في فريق استحكمت الغبطة في فريق آخر فكان لنا من هذه الغبطة عظة وعبرة ·—

لقد تجلى الأسى في قصائد الذين بكوا على فوزي المعلوف واذا كان في بعض هذه القصائد موطن مؤآخذة فهذا الموطن انما هو من ناحية الفن فان بعض الذين بكوا على الفقيد لم يستطيعوا الافصاح عن حقيقة شجوهم فلم يصوروا فوزي المعلوف تصويراً يناسبه

ولا يناسب غيره وهذا عيب مراثينا في القديم وبعض مراثينا في الحديث فلم تهتد بعدُ الى الاعراب عن صدق العواطف ٠—

اما شعر الفقيد فمن خصائصه امتداد الخيال فيه فصاحبه نزّاع الى ادخال صور شعرية حديثة عليه ولكن الله لم يمدّ له في الأجل حتى يتمكن من افراغ هذا الخيال في قالب خالد ٠—

رحم الله شبابه الناضر ! شفيق جبري

—«»—

الحياة البسيطة

خير كتاب وصف مساوي الحياة النفسية الاجتماعية الحاضرة وطرق معالجتها « الحياة البسيطة » تأليف شارل واغنار في اللغة الفرنسية وتعريب الارشمندريت انطونيوس بشير الذي نشره الشيخ يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بمصر سنة ١٩٢٨ ٠ فقد استقرأ فيه المؤلف اسباب الاضطراب والتململ النفساني السائد في الحياة الاجتماعية الحاضرة وقد وجد ان هذه الاسباب تمتّ من حيث المنشأ الى اصل عام واحد هو الخلط بين الضروري وغير الضروري من الحاجات وإهمال الاول والتمسك بالثاني إرضاء للشهوات والتقاليد والعنعنات المقيدة لحرية الانسان الحقيقية التي تتطلب السعادة في ظل الهدوء والطمأنينة ٠ ثم بحث عن هذه السعادة المنشودة فلقيها في بساطة الحياة البعيدة عن الكلفة والتصنع ٠ وبعد ان عرف هذه البساطة تكلم عن بساطة الفكر والكلام والواجب البسيط والحاجات والملذات البسيطة والروح النفعية والبساطة والشهرة الكاذبة والخير المجرد عن الجد والعالَم والبيت ٠ والجمال البسيط والكبرياء والبساطة في معاملة الناس ٠ والتهذيب على البساطة ٠ وقد أجاد المعرب في نقل هذا الكتاب الى العربية بعبارة سهلة فصيحة ٠ فهو لعمري كتاب الشاب والفتاة والزوج والمرأة يجدون فيه صورة الحياة الحاضرة بما فيها من سعادة وتعاسة واسباب الاولى وعلل الأخرى فيستنيرون بضوئه ويهتدون بنصائحه ٠ اسعد الحكيم

—

تقويم مصر

« لسنة ١٩٣١ ميلادية »

للدعاية في هذا العصر مكانة كبرى في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية وذلك بالنظر لما أوجدته وسائط النقل الحديثة من السرعة الهائلة في المواصلات بين جميع أقطار العالم الذي أصبح يؤلف باجمعه قطراً واحداً لاتختلف المسافة الزمنية ما بين أجزائه عن المسافة الزمنية التي كانت تفصل بين مدن المملكة الواحدة في العصور المتقدمة .

فمن الضروري والحالة هذه ان نعم معرفة القوانين والأوضاع الادارية والاجتماعية والاقتصادية المتبعة في كل مملكة تسهيلاً لسير الأعمال المشتركة وتوسيعاً للصلات التجارية التي لايمكنها ان تشيع بغير العرض والدعاية .

وقد كانت الممالك الشرقية في معزل عن هذا الامر الحيوي حتى العصر الحالي . فكان نصيبها من هذا الاهمال بقاءها مجهولة مما أضرّ بها ضرراً لم نقدره قدره الا في هذا اليوم الأخير . وقد كانت مصر سباقة الى تلافي هذا النقص فقد اطلعنا اخيراً على تقويمها الذي أصدره قلم نشر مطبوعات الحكومة لسنة ١٩٣١ باللغة العربية فاذا به صورة مصغرة لأوضاعها ومصالحهـا واحصاآتهـا السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية . « جغرافية مصر . الزراعة والتجارة والصناعة والري والحقانية . المالية . الجندية . الاشغال العامة . المواصلات . المعارف . الصحة الخ » مما يفتقر الى مطالعته كل من له صلة بالقطر المصري . وذلك بالحرف الصغير وفي زهاء ٦٦٥ صفحة يتخللها عدد من الرسوم والصور لتفيد الموضوع .

اسعد الحكيم

—«*»—

الفهرس العام

« لما في هذا المجلد من المواد والموضوعات مرتبا على حروف الهجاء »

فهرست الاعلام

«اي اسماء كتاب المقالات المنشورة في هذا المجلد مرتبة على حروف المعجم»



جدول الخطأ والصواب

ورد في أجزاء هذا المجلد بعض أغلاط مطبعية نبهنا اليها فيما يلي :

جاء في ص ٤٠ س ١١ اللفة صوابها اللغة . وص ٤٢ س ١٤ فاللفط صوابها فاللفظ . وص ٥٣ س ٦ حسن البزار صوابها حسن البزاز . وص ٧٠ س ١٦ فيل صوابهـا قيل . وص ٧٩ س ١٦ كا صوابها كان . وص ٩٨ س ٧ اصلح للملك ولا يصلح لي الصواب اصلح للملك ويصلح لي . وص ١١٤ س ١٣ مرتضى صوابهـا مرتضى . وص ١٣٠ س ٣ الشيخ محمد محمود الدكري صوابها الشيخ محمد محمود الدنركزي . وص ١٣٣ س ١١ وصديفه صوابها وصديقه . وص ١٣٦ س ٩ وفد صوابها وقد . وفيها س ١٧ ينم صوابها يمنم . وص ١٤٦ س ٥ احمد رسيد صوابها احمد رشيد . وص ١٥١ س ٢ اشتاشتوا صوابهـا اشتوا . وص ١٦٣ س ١١ بتوحشد صوابها بتوحيد . وص ١٦٧ س ١ ولقد ترجم العرب عن احساسم الصواب ولقد ترجم العرب عن احساسهم . وص ٢٠٤ س ٧ الحلقي صوابها الحدقي . وص ٢٠٧ س ٣ لم يحلق صوابها لم يخلق . وفي ص ٢٠٨ س ٢٤ ابي داود صوابها ابي دواد . وص ٢١٠ س ١ و ٢ لئن صوابها لأن . وفيها س ٤ أما صوابها أمام . وص ٢١٤ سطر ١٠ والقتل صوابها والفتل . وص ٢٣٧ س ١٢ ارى الارض تطوي الي الصواب ارى الارض تطوي لي . وص ٢٤٧ س ٩ يؤند صوابهـا يؤتدم . وص ٢٥٠ س ١٤ وانما هوموسى الصواب وانه هوموسى . وفيها س ١٦ موسى بن حمو الصواب موسى ابو حمو . وص ٢٥٨ س ١٤ إمكا صوابهـا إمكان . وص ٢٦٤ س ١٧ ام ان اللغة صوابه ان أمّ اللغة . وص ٢٧٠ س ١٠ يطر بم صوابها يطربهم . وص ٢٧٤ س ٤ بهرة صوابها بهرته . وص ٣٠٥ س ٢ ؛ رة صوابها مستورة . وفيهـا س ١٧ العا ة صوابها العامة . وص ٣٠٦ س ٢٥ و بلغ صوابها ومبلغ . وص ٣٣٨ س ٢١ ناظره صوابهـا لمناظره . وص ٣٥٩ س ٨ لا بازالة العامة صوابهـا الا بازالة العامة . وفي ص ٣٧٥ س ١١ جتمت صوابها اجتمعت . وفي ص ٣٩١ س ٢٠ أ تز صوابها إهتز . وفيهـا

س ٢٢ وكا صوابها وكان • وص ٣٩٦ س ١٦ والحر ة صوابهـا والحرمة • وص ٣٩٩ س ١١ اباغت الصواب تباغت • وص ٤٠٢ س٨ منهِ الصواب منهم • وص ٤١٩ س ١ كا الصواب كان • وص٤٢٤ س٣ نع الصواب منع • وص ٤٢٨ س٢٤ راك الصواب فراك • وص٤٣٠ س٥ وإ لا الصواب وابلا • وص٤٣١ س٦ فراش الصواب فراشه • و٤٤٢ س١٥ قتبسوها الصواب اقتبسوها • و٤٤٣ س١ او من الفئة الصواب او من الفيئة و٤٤٦ س١ الرقص الصواب الرقص • و٤٥٨ س٣ نهر ا الصواب نهرنا • و٤٧٠ س١٣ فمزء الصواب فمزم • و٤٧١ س١٠ يذ ق الصواب يذوق • و٤٧٨ س ٩ ثن الصواب نثن • و٤٨٠ س١٨ لا حي الصواب فلاحي • و٤٨٢ س١٥ يقل الصواب ينقل • و٤٨٩ س ٤ أنج الصواب تنسج • و٤٩٠ س٢ وا اء الصواب والماء • و٤٩٢ س٢٠ المكا الصواب المكان • و٤٩٧ س ١٦ عيشك الصواب بعيشك • و٥٠٠ س ٢١ مطادي الصواب مطاوي • و٥٠٢ س١٨ ابرحنا الصواب مابرحنا • وفيها س٢٤ اقتبس في مجمه الصواب اقتبس في مجمعه • و٥٠٥ س ١ ينبت من الأراك الصواب ينبت من حب الاراك • وفيها س٣ ave الصواب Cave • وفيهـا س٩ ورحله الصواب ورجله • و٥١٤ س٩ فا ه الصواب فاره • و٥٢٩ س ١ السآ ة الصواب السآمة • وفيها س١١ فالادلة الصواب والادلة • و٥٣١ س١٧ فانظر مانضير الصواب فانظر من نضير • وفيها س٢٥ الفينساء الصواب الغيناء • و٥٣٢ س١٣ ات الصواب مات • وفيها ١٤ فكاني الصواب فكأنني • و٥٣٤ س٣ ساعياً الصواب ساعيا • و٥٤٨ س٥ وعيا ـ الصواب وعيان • و٥٥٠ سطر٩ لرد ا الصواب لردها • و٥٧٦ سطر١٤ الشفرى الصواب الشنفرى • و٥٨٨ سطر ٢٤ بذيك الصواب بتحذيك • و٦٣٤ سطر٢٠ علاة الصواب علاقتها • و٦٣٩ سطر٦ سـ ة الصواب سنة • و٦٤٤ سطر١١ تخه الصواب تخده • و٦٦٢ سطر٢٢ والوند الصواب والوتد • و٦٩٣ سطر ١ واصة الصواب واصفها • و٧٢٢ سطر ٢٤ نذ الصواب مذ • و٧٢٦ سطر١٣ بما ه الصواب بمائه • و٧٥٢ سطر٤ ومع ن الصواب ومع ان



(تنبيه) نقول هنا ماقلناه في آخر المجلد العاشر من ان معظم الاغلاط ناتج عن تساقط الحروف وتكسرها مما لايغيب عن فطنة القارئ ، كما يرى في هذا الجدول •



السيد محمد كرد علي (رئيس المجمع العلمي العربي)



الشيخ عبد القادر المغربي



الأمير شكيب أرسلان



الشيخ كامل الغزي



الشيخ رشيد رضا



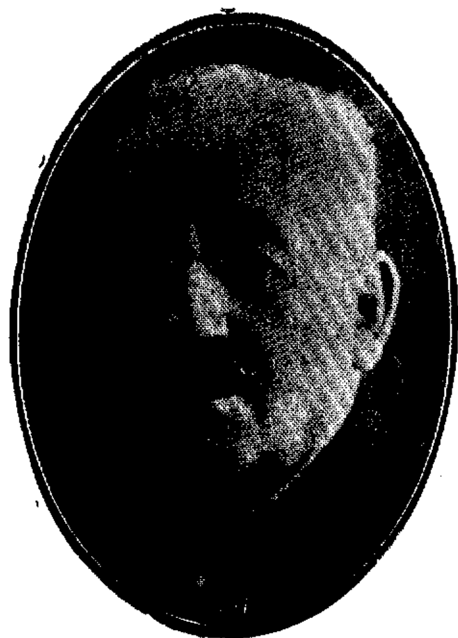
احمد شوقي بك



السيد جميل صدقي الزهاوي



الشيخ احمد الاسكندري



السيد زكي مغامز



الاب انستاس ماري الكرملي



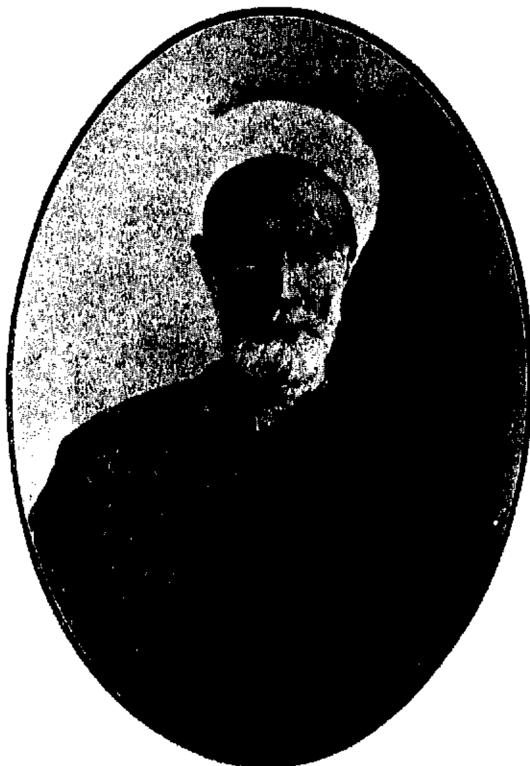
السيد ميخائيل الصقال



الشيخ محمد زين العابدين



الشيخ عبد الحميد الجابري



الشيخ خليل الخالدي



احمد لطفي بك السيد



الشيخ رضا الشبيبي



الشيخ احمد رضا



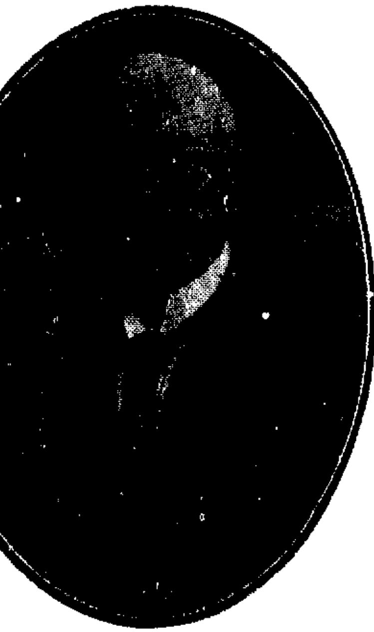
السيد عيسى اسكندر المعلوف



السيد انيس سلوم



السيد فارس الخوري



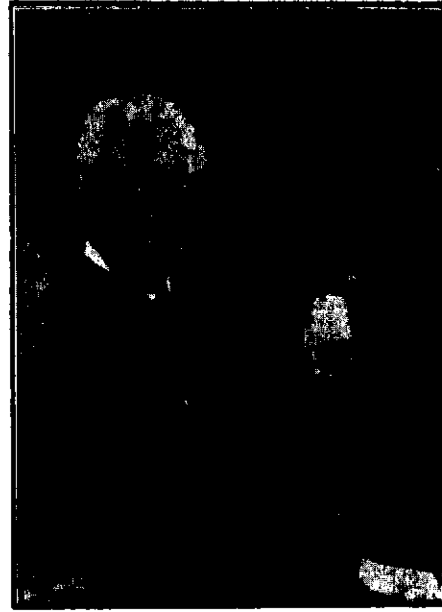
السيد سترسنن



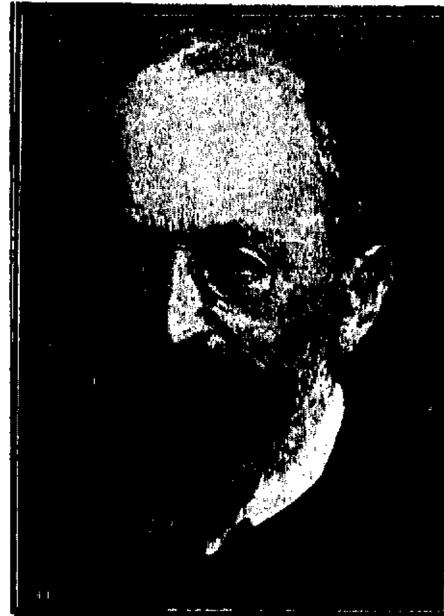
السيد كاظم الدجيلي



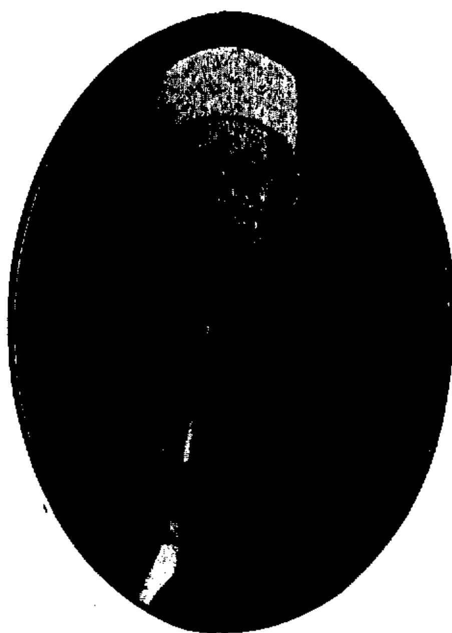
السيد مرجيليوث


السيد بفن


السيد فرّان


السيد هومل


الاب بلاسيوس



الشيخ بدر الدين النعساني



الشيخ ابراهيم منذر



السيد موزيل



السيد كرنكو



السيد سليم الجندي



الشيخ بهجة البيطار



الشيخ عبد الحي الكتاني



السيد قسطاكي الحمصي



السيد جوليتي



السيد جرجيني



الفيكونت فيليب دي طرازي



السيد ارتوركي



السيد فيليب حتي



السيد كراتشقوفسكي



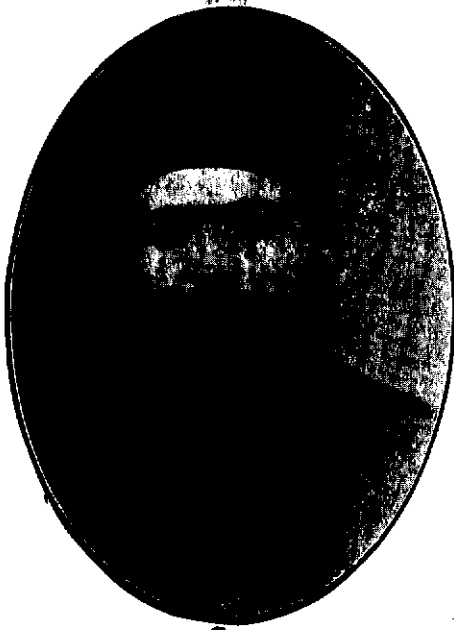
السيد اسعد خليل داغر



السيد هوتسما



السيد امين اريحاني



السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي



السيد عبد الله مخلص



السيد رشيد بقدونس



السيد شفيق جبري



السيد احمد امين



الدكتور مرشد خاطر



السيد عارتمان



السيد خليل مردم بك



الدكتور اسعد الحكيم



الدكتور امين المعلوف



السيد عز الدين علم الدين


الشيخ عبد القادر المبارك


الدكتور سعيد ابو جمرة


السيد معروف الرصافي


السيد اسعاف النشاشيبي



السيد عارف النكدي



الامير مصطفى الشهابي



السيد عباس محمود العقاد



الشيخ مصطفى الغلاييني



السيد مصطفى صادق الرافعي



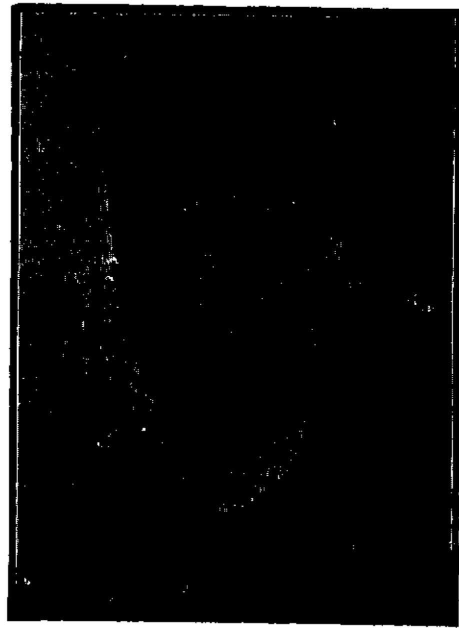
السيد عمر الفاخوري



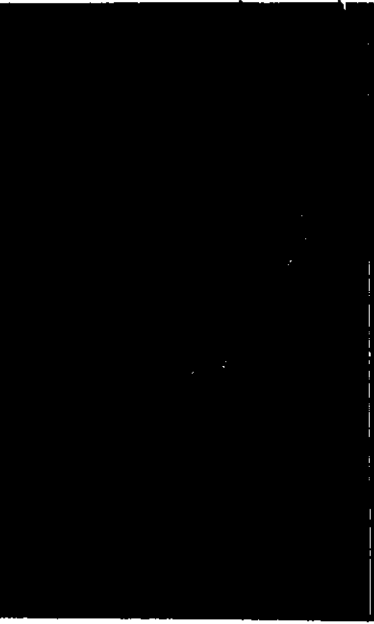
الدكتور احمد عيسى



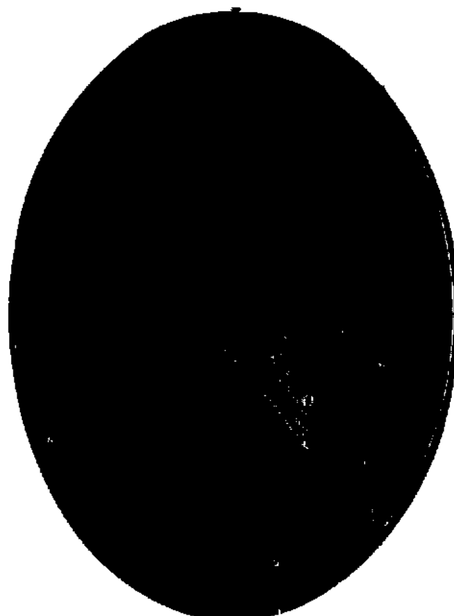
السيد احمد حسن الزيات



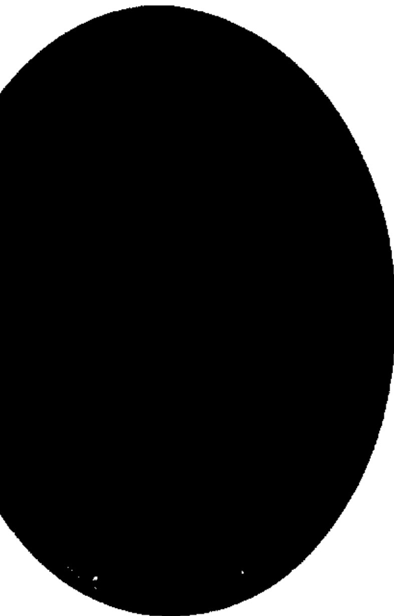
السيد حسن حسني عبد الوهاب



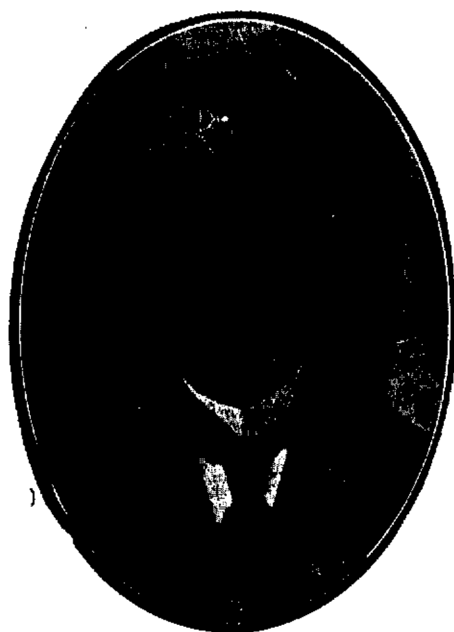
السيد هوروفيتز



السيد ماغار



السيد بولس الخولي



السيد عبد الله رعد